

الجامع الإسلامي للإمام الفقيه

الكتاب

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنباري

دار الكتاب



ایف اے
اور
ایف اے

طبعة خاصة
بتصريح من دار الشعب

يطلب من :  دار الفكر

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهدم . ت : ٥٣٦٥٩٩
● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الانجلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢ / ٢٥٩١٨٩١

الجامع لأحكام القرآن الكريم

نفوس
القرطبي

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الهيئة العامة

رقم التجميع

رقم التسجيل / ١٨٨٨٢

دار الريان للتراث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هي مدنية
الاسيع آيات ، من قوله تعالى : « وإذ يكره الذين كفروا » إلى آخر السبع آيات .

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ط
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ يَدَيْهِ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - روى عباد بن الصامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر
فَلَقُوا الْعَدُوَّ ، فلما هزمهم الله أجمعهم طائفة من المسلمين يقتلهم ، وأحدث طائفة برسول
الله صلى الله عليه وسلم ، واستولت طائفة على العسكر والنهب ، فلما نفي الله العدو ورجع الذين
طلبهم قالوا : لنا النفل ، نحن الذين طلنا العدو وبنا ففاهم الله وهزمهم . وقال الذين أصدقوا
برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أثم بأحق به منا ، بل هو لنا ، نحن أصدقنا برسول الله صلى
الله عليه وسلم للآل يتال العدو منه غيرة . وقال الذين استولوا [على] العسكر والنهب : ما أثم بأحق
منا ، هو لنا ، نحن حويناها واستولينا عليه ، فأنزله الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ
الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ يَدَيْهِ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .
فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فوائ بينهم . قال أبو عمر : قال أهل العلم بلسان العرب :
استولوا أطافوا وأحاطوا ، يقال : الموت مُسْتَوِلٌ على العباد . وقوله « فقسمه عن فوائ »
يعنى عن سرقة . قالوا : والفوائ ما بين حَلَبِي الناقة . يقال : انتظره فَوَائِي ناقة ، أى هذا

المقدار . ويقولونها بالضم والفتح : فُروا وقوا . وكان هذا قبل أن ينزل : « وَاعْتَصِرُوا صُدُورَكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ » الآية . وكان المعنى عند العلماء : أى إلى الله وإلى الرسول الحكم فيما والعمل بها بما يقرب من الله تعالى . وذكر محمد بن إسماعيل قال : حدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشعث عن مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في القتل ، وسامت فيه أخلاقنا ، فترحم الله من أيدينا وجهه إلى الرسول ، وقسمه رسول الله صل الله عليه وسلم عن براء . يقول : حل السواء . فكان ذلك يحق الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين . وروى الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال : أعظم أصحاب رسول الله صل الله عليه وسلم غنمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذته فأتيت به النبي صل الله عليه وسلم فقلت : فقتلني هذا السيف ، فأنا من قد ملئت حلة . قال : « رده من حيث أخذته » فاطلقت حتى أردت أن ألقيه في القُبُض ^(١) لاسخى فمضى فرجعت إليه فقلت : أعطيه . قال : فشد لي صوته « رده من حيث أخذته » فاطلقت حتى أردت أن ألقيه في القُبُض لاسخى فمضى فرجعت إليه فقلت : أعطيه ، قال : فشد لي صوته « رده من حيث أخذته » فأنزل الله : **يَسْطُورُكَ مِنَ الْإِنْفَالِ** . لنظ مسلم . والروايات كثيرة ، وفيها ذكرناه كفاية ، والله الموفق للهداية .

الثانية — **الْإِنْفَالُ** وأصلها قتل بغيرك الغناء ، قال : ^(٢)

إِنْ تَقْسَى رَبَّنَا خَيْرٌ قَتْلٌ . وبإذن الله ربي والتجمل

أى خير غنمة . والقتل : المين ، ومنه الحديث « فبترككم يهود بنقل نحسهم منهم » . والقتل الاستفاد ، ومنه الحديث « فأتقتل من ولدها » . والقتل : نبت معروف . والقتل : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الولد غنمة ، لأنه زيادة على الولد . والنبذة غنمة ، لأنها

(١) القُبُض (بالهمزة) بمعنى القبض ، وهو ما جمع من الغنمة قبل أن تقسم .

(٢) القتال حركياً ، كما في السان (مادة قتل) .

زيادة في أحل الله هذه الأمة مما كان محزما على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : " قُضِلَتْ
على الأنبياء بست - وفيها - وأُحِلَّت لِي الفَنَائم " . والأُنْفال : الفَنَائم نفسها . قال عترة :
إِنَّا إِذَا أَحْمَرَ الرَّعْيَ نُرَوِّي الْقَنَا • وَيَقِفُ عِنْدَ مَقَاسِمِ الْأُنْفَالِ
أَي الفَنَائم .

الثالثة - وأختلف العلماء في عمل الأنفال على أربعة أقوال : الأول - محلها فيما
شد عن الكافرين إلى المسلمين وأخذ بغير حرب . الثاني - محلها الخمس . الثالث -
خمس الخمس . الرابع - رأس الفتيحة ، حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمه الله
أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس ، على ما يرى من الاجتهاد ، وليس في الأربعة إلا الخماس
نقل ، وإنما لم ير النفل من رأس الفتيحة لأن أهلها معيتون وهم المؤمنون ، والخمس مردود
قسمه إلى اجتihad الإمام . وأهل غير معينين . قال صلى الله عليه وسلم : " مَالِي مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِلَّا الْخُمْسَ وَالْخُمْسَ مُرَدُّهُ عَلَيْكُمْ " . فلم يمكن بهذا أن يكون النفل من حق أحد ،
وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس . هذا هو المعروف من مذهبه .
وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيب والثقات وأبي حنيفة .
وسهبة الخلاف حديث ابن عمر ، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرة
قبل نجد ففتحوا إبلا كثيرة ، وكانت سهمانهم اثني عشر بيرا أو أحد عشر بيرا ، وثقلوا بيرا
بيرا . هكذا رواه مالك على الشك في رواية يحيى عنه ، وتابعه على ذلك جماعة رواة الموطأ
إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر ، فقال فيه : فكانت سهمانهم
اثني عشر بيرا ، وثقلوا بيرا بيرا . ولم يشك . وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن
شعيب بن أبي حمزة عن نافع عن أبي عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش
قبل نجد - في رواية الوليد : أضيحة آلاف - وأنتبعت سيرة من الجليش - في رواية
الوليد : فكنت ممن خرج فيها - فكان سهمان الجليش اثني عشر بيرا ، اثني عشر بيرا ، وثقل
أهل السرية بيرا بيرا ، فكان سهمانهم ثلاثة عشر بيرا ، ذكره أبو داود . فأخرج بهذا من

يقول : إن النفل إنما يكون من جملة الخمس . وبيانه أن هذه السرية لو نُزِلت على أن أهلها كانوا عشرة مثلاً أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسمائة ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسمت على عشرة وجب لكل واحدنا عشر بعيراً ، اثنا عشر بعيراً ، ثم أعطى القوم من الخمس بعيراً بعيراً ، لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبصرة . فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد . واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال : جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العروض . ومما يعضد هذا ما روى مسلم في بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلًا وغنماً ، الحديث . وذكر محمد بن إسماعيل في هذا الحديث أن الأمير نقلهم قبل القسم ، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة ، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ ، قاله أبو عمر رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعي : لا ينفل بأكثر من الثلث ، وهو قول الجمهور من العلماء . قال الأوزاعي : فإن زادهم فليُفِّ لم يجعل ذلك من الخمس . وقال الشافعي : ليس في النفل حد لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة - ودل حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السرية إذا خرجت من المعسكر فنُزِمَت أن المعسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحكم لم يذكره في الحديث خير شعيب عن نافع ، ولم يختلف العلماء فيه ، والحمد لله .

الخامسة - واختلف العلماء في الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحصن فله كذا ، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن حاه برأس فله كذا ، ومن حاه بأسير فله كذا ، ^(١) ويضربهم . فروى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يميزه . وقال الثوري : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد حاه هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلًا فله كذا ومن أسر أسيرًا فله كذا" . الحديث بطوله .

وفى رواية عكرمة عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا» . فتسارع الشبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلما فتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم فقال لهم الأشياخ : لا تنهون به دوتنا ، فقد كادَ رَدْمًا لَكُمْ ؛ فانزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضا . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجوهر بن عبد الله الجبلي لما قدم عليه في قومه وهو يريد الشام : هل لك أن تأتي الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسبي . وقال بهذا جماعة فقهاء الشام : الأوزاعي ومكحول وابن حيوة وضريح . ورواوا الخمس من جملة الغنيمة ، والنفل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل الصكر ؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نغل من جهة الغنيمة حتى نحسم . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسيّرة : ما أخذتم فلكم كله . قال مصنفون : يريد ابتداء . فإن نزل مضى ، ولم أنصبوا في الباقي . وقال مصنفون : إذا قال الإمام لسيّرة ما أخذتم فلا نحسم عليكم فيه ؛ فهذا لا يجوز ، فإن نزل رددته ؛ لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يحض .

السادس - واستحب مالك رحمه الله ألا ينقل الإمام إلا ما يظهر كالعامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينقل الإمام ذهباً أو فضة أو ثولوا ونحوه . وقال بعضهم بالنفل جائز من كل شيء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعة - قوله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أمر بالتقوى والإصلاح ، أى كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعة : اللهم أصلح ذات البين ، أى الحال التي يقع بها الاجتماع . فدل هذا على التصريح بأنه تجب بينهم اختلاف ، أو مالت النفوس إلى التشاح ؛ كما هو منصوب في الحديث . ويقدم معنى التقوى ، أى اتقوا الله في أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحو ذات بينكم . (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) في الضمان ونحوها . (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى إن سبيل المؤمنين أن يتتلى ما ذكرنا . وقيل : «إِنْ» بمعنى «إذ» .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فيه ثلاث مسائل :

١ - الأولى - قال العلماء : هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة . والوجيل : الخوف . وفي مستقبله أربع لفات : وجيل يوجب وأجل ويجهل ويجهل ؛ حكاهما سيويه . والمصدر وجيل وجلا وموجلا ؛ بالفتح . وهذا موجه (بالكسر) للوضع والأسم . فمن قال : يا جيل في المستقبل جعل الواو الالف لفتح ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوَجَّلْ » . ومن قال : « يَجِلُّ » بكسر الياء فهي على لغة بني أسد ، فإنهم يقولون : أنا ليجل ، ونحن نيجل ، وأنت تيجل ؛ كلها بالكسر . ومن قال : « يَجِيلُّ » بناء على هذه اللفظ ، ولكنه فتح الياء كما فتحوها في يعلم ، ولم تكسر الياء في يعلم لاستفهام الكسر على الياء . وكسرت في « يَجِيلُّ » لتقوى إحدى اليامين بالأخرى . والأمر منه « ليجل » صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وتقول : إني منه لا تَجِيلُّ . ولا يقال في المؤنث : وجلاء ، ولكن وجلة . وروى سفيان عن السدي في قوله جل ومن : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : اتق الله ، كف وجيل قلبه .

٢ - الثانية - وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره . وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم يرين يديه . وظاهر هذه الآية « وَبَشِّرِ الْمُخْلَصِينَ » الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . وقال : « وَتَلْمِزِينَ قُلُوبَهُمْ » يذكر الله . فهذا يرجع إلى كمال

المعرفة وثقة القلب . والرجل : الفرع من عذاب الله ؛ فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : « الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » . أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوام والمتبذعة الطغام من الرعيق والزير ومن الثاق الذى يشبه ثاق الحبر . يقال لمن تعاطى ذلك وزم أن ذلك وجد وخشوع : لم يبلغ أن تساوى حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، واخوف منه ، والتمظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواظف الفهم عن الله والبهكة خوفا من الله . ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : « وَإِذَا سَمِعُوا بِمَا نَزَّلَ إِلَى الرُّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَخِيفُ مِنْ الدَّمْعِ يُمَاسِرُ قُلُوبًا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » . فهذا وصف حالهم وحكاية مقامهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هداهم ولا على طريقهم ؛ فمن كان مستترا فليست ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجهلون فهو من أخسهم حالا ؛ والجهلون فتون . روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخفوه في المسألة ؛ فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سألوني لا تسألوني عن شيء إلا يئس لكم ما دمت في مقام هذا » . فلما سمع ذلك القوم أرموا ورجعوا أن يكون بين [يدي] . أمر قد حضر . قال أنس : بلحلت ألفت بينا وشمالا فلذا كل إنسان لأف رأسه في ثوبه يئس . وذكر الحديث . وروى الترمذي وصححه عن العرياض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بلغة قرأت منها العيون ، ووجلت منها القلوب . الحديث . ولم يقل : رَعَفْنَا ولا رَقَصْنَا ولا رَفَعْنَا ولا رَفَعْنَا .

(١) آية ٢٢ سورة الزمر . (٢) الطغام والطاعة : أرباب الناس بأمرناهم .

(٣) آية ٨٣ سورة المائدة . (٤) أى أكثرها طيبة . وأسن في السؤال والخلف بمعنى الخ .

(٥) أرم الرجل إرماء : إذا سكت فهو رمم . (٦) زيادة عن صحيح مسلم .

(٧) زفن (من باب ضرب) : وقص ؛ وأصله الدفع الشديد والضرب بالربيل ؛ كما يفعل الزاحف .

الثالثة - قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَانَتْهُمْ إِيمَانًا) أى تصديقاً . فإن إيمان هذه الساعة زيادة على إيمان أمس ، فمن صدق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ، وقد مضى هذا المعنى في « آل عمران » . (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) تقدم معنى التوكل في « آل عمران » أيضا . (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمْنَعُونَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) تقدم في أول سورة « البقرة » . (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) أى الذى استوى في الإيمان ظاهرهم وباطنهم ، ودل هذا على أن لكل حق حقيقة ، وقد قال عليه السلام لحارثة : « إن لكل حق حقيقة لها حقيقة إيمانك » الحديث . وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، مؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإنت كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأجابته مؤمن . وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » - إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا . وقال أبو بكر الواسطي : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وأطلاع وإساطة ، فمن فقدته بطل دعواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إذا المؤمن الحقيقي من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من مير حكيمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : كَمَا أُنْزَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَنُكَرِهُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (كَمَا أُنْزَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ) قال الزجاج : الكيف في موضع نصب ، أى الأفعال ثابتة لك كما أنزجك ربك من بينك بالحق . أى مثل إخراجك ربك من بينك بالحق . والمعنى : امض لأمرك في الغنائم وتقل من شئت وإن كرهوا ، لأن بعض

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ طبة أول أرتانية .

(٢) راجع ج ٤ ص ١٨٩ طبة أول أرتانية .

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبة ثالثة أرتانية .

الصباية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : بيني
أكثر الناس بغير شيء . فوضع الكاف في « كما » نصب كما ذكرنا . وقاله القواء أيضا .
قال أبو عبيدة : هو قسم ، أي والذي أنجرك ، فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذي . وقال
سعيد بن مسعدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أنجرك ربك من بينك بالحق . قال :
وقال بعض السلفاء : « كما أنجرك ربك من بينك بالحق » فاهوا الله وأصلحوا ذات بينكم .
وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أنجرك . وقيل : « كما أنجرك » متعلق بقوله
« لم درجات » المعنى : لم درجات عند ربهم ومنفرة وورق كريم . أي هذا الوعد للمؤمنين
حق في الآخرة كما أنجرك ربك من بينك بالحق الواجب له ، فأنجزك وعدك وأظفرك بعدذك
وأوفى لك ، لأنه قال عز وجل : « وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ » . فكما أنجز هذا
الوعد في الدنيا كما أنجز ما وعدكم به في الآخرة . وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره .
وقيل : الكاف في « كما » كآء التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازاة ، كقول القائل لعبيد :
كما وجهتك إلى أهداني فأستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقويتك وأزجت منك ،
فقدمهم الآن فعاقبهم بكنا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فأعمل كذا وكذا . وكما أحسنت
إليك فأشكرني عليه . فقال : « كما أنجرك ربك من بينك بالحق وعشاكم الناس أمانة منه -
يعنى به إياه ومن معه - وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة
مرشدين ، فأضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أرحمت عليكم ،
وأمددكم بالملائكة فأضربوا منهم هذه المواضع ، وهو المقتل ، فلبثوا مراد الله في إحراق
الخط وإبطال الباطل . والله أعلم . (وَإِنَّ قَرِيْقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ) أي لكاذبون
ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعالى : يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى
الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿يُحَادِثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ مجادلتهم: قولهم لما نسبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أمانة شق ذلك عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا المدة. ومعنى ﴿فِي الْحَقِّ﴾ أى فى القتال. ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لم أنك لا ناصر بنى. إلا بإذن الله. وقيل: بعد ما تبين لهم أن الله معهم إما الظفر باليسر أو بأهل مكة، وإذ فات العير فلا بد من أهل مكة والظفر بهم. فعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم. ﴿كَاذِبًا يُبَادِلُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ كراهة لقاء القوم. ﴿وَمَنْ يَنْظُرُونَ﴾ أى يملكون أن ذلك واقع بهم؛ قال الله تعالى: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا» أى يعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَدْعُرُكُمْ اللَّهُ لِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَقُودُونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مَنَةٍ وَيَقْطَعَ نَازِئَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْعَجْرُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَدْعُرُكُمْ اللَّهُ لِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ﴾ «أحدى» فى موضع نصب مفعول ثان. «أنها لكم» فى موضع نصب أيضا بدل من «أحدى». ﴿وَقُودُونَ﴾ أى محبون. ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أى غير ذات الحد. والشوك: السلاح. والشوك: التفت القى له حد؛ ومنه رجل شائك السلاح، أى حديد السلاح. ثم يلبس فيقال: شائك السلاح. أى يوقون أن تنظروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مَنَةٍ﴾ أى لئلا يظهر الإسلام. والحق حق أبدا، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر شبه الباطل. ﴿بِكُلِّ مَنَةٍ﴾ أى بوجهه؛ فإنه وعد نبيه ذلك فى سورة «الْبَنَان» لقائل: «يَوْمَ تَبْطُلُ الْبَاطِلَةُ الْكَبْرَىٰ إِنَّا مُتَّقِنُونَ» أى من أى جهل وأصحابه. وقال: «يُظْهِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ كُلِّهِ» وقيل: «بكلماته» أى

بأمره ؛ إياكم أن تجاهدوه . (وَيَقْطَعُ قَابِلُ الْكَافِرِينَ) أى يستأصلهم بالهلاك . (يُحِقُّ الْحَقُّ) أى يظهر دين الإسلام ويؤززه . (وَيَبْطِلُ الْبَاطِلُ) أى الكفر . وإطلاله إعدامه ؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره . « بَلْ تَسِفُ الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ قَبْلَتُهُ فَإِذَا هُوَ زَائِقٌ » . (وَلَوْ كَرِهَ الْمُحَرِّمُونَ) .

قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) الاستغاثة : طلب النور والنصر . غوث الرجل : قال : واغوثاه . والاسم الغوث والغوث والغوث . واستغاثني فلان فاعثته ؛ والاسم الغياث ؛ عن الجوهري . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثمانية وخمسة عشر رجلاً ؛ فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ؛ ثم مد يديه ؛ فجعل يستغيب بربه : « اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم ائتني ما وعدتني . اللهم إن تولك هذه العصاة من أهل الإسلام لا تميد في الأرض » . فما زال يستغيب بربه لما في يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه من منكبَيْه . فأتاه أبو بكر فاخذ رداه فأنقاه على منكبيه ؛ ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ؛ كذلك ناشدتك ربك ؛ فإنه سينجز لك ما وعدك . فأثرل الله تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّينَ » فأمته الله بالملائكة . وذكر الحديث . (مُرَدِّينَ) بفتح اللام قراءة نافع . والباقر والكسراسم فاعل ؛ أى متتابعين ؛ تأتي فرقة بعد فرقة . وذلك أحيب في الميود . و « مُرَدِّينَ » بفتح اللام على ما لم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أرفلوا بالف من الملائكة ؛ أى أنزلوا إليهم لمصوتهم على .

الكفار . فردفين بفتح الدال نبت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في « مُدَّكُمْ » . أى مدَّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أن ردفي وأردفي واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ريف ؛ قال لقول الله عز وجل : « تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ » ^(١) ولم يقل المُردِّفة . قال النحاس ومكئ وغيرهما : وقراءة كسر الدال أولى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أى أردف بعضهم بعضاً ، ولأن فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عبيدة ، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيبويه : وقرأ بعضهم « مُرْدِّين » بفتح الراء وثبَّ الدال . وبعضهم « مُرْدِّين » بكسر الراء . وبعضهم « مُرْدِّين » بضم الراء . والدال مكسورة مشددة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مردينين ، ثم أدم التاء في الدال ، وألحق حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين . وثبتت الراء في الثالثة إيتاء لضمعة الميم ؛ كما تقول : رد يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدري « بألف » جمع ألف ؛ مثل قُتِسَ وأُفْس . وعنه أيضاً « بألف » . وقد مضى في « آل عمران » ذكر نزول الملائكة وسماهم وقائلهم . وتقدم فيها القول في معنى قوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى » . والمراد الإمداد . ويجوز أن يكون الإرداف . (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) نبيه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة ؛ أى لولا نصره لما أنتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالجمعة .

قوله تعالى : إِذْ يُفَشِّكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُزِيلُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَسْمَاءِ مَا لَظِظْتُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رَجَزُ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ^(٢)

قوله تعالى : (إِذْ يُفَشِّكُمُ النَّعَاسُ) مفعولان . وهي قراءة أهل المدينة ، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله : « وما النصر إلا من عند الله » .

(١) آية ٧ سورة التازيات . (٢) راجع ج ٤ ص ١٩٠ طبة أول أرفاقية . (٣) ج ٤ ص ١٩٨

ولأن بـ « وَيَرْزُقُ عَلَيْكُمْ » فاضاف الفعل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليشاكل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَشَاكُمُ النَّاسُ » بإضافة الفعل إلى الناس . دليله « أَمَّةٌ تَمَاسًا يَفْشَى ^(١) » في قراءة من قرأ بإلقاء أو بالتاء ؛ فاضاف الفعل إلى الناس أو إلى الأَمَّة . والأَمَّة هي الناس ؛ فاضرب أن الناس هو الذي يَفْشَى القوم . وقرأ الباقر « يَفْشِكُمْ » ففتح النون وشد الشين . « النَّاسُ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لتنان بمعنى غَشَى وأغشى ؛ قال الله تعالى : « فَأَغْشَيْنَاهُمْ ^(٢) » . وقال : « فَتَشَاهَا مَا غَشَى ^(٣) » . وقال : « كَانُوا أَفْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ ^(٤) » . قال مكي : « والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب الناس ؛ لأن بـ « أَمَّةٌ مِنْهُ » والماء في « مِنْهُ » لله ، فهو الذي يَفْشِيهِم الناس ، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أَمَّةٌ مِنَ الْعَدُوِّ . و « أَمَّةٌ » مفعول من أجله أو مبصود ؛ يقال : أَمِنَ أَمَّةً وَأَمَّنًا وَأَمَانًا ؛ كلها سواء . والناس حالة الأمن الذي لا يَخَاف . وكان هذا الناس في الليلة التي كان القتال من فيها ؛ فكان اليوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر الميهم ، ولكن الله ربط جأشهم . وعن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن عمرو . ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح ؛ ذكره البيهقي . المساوردي : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان : أحدهما - أن قوامهم بالاستراحة على القتال من التعب . الثاني - أن أقمهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن مُنِمْ ، والنعف مُسْجِر . وقيل : غشام في حال التقاء الصفيين . وقد مضى مثل هذا في يوم أُحُد في « آل عمران » . قوله تعالى : (وَيَرْزُقُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) ظاهر القرآن يدل على أن الناس كان قبل المطر . وقال ابن أبي تيجان : كان المطر قبل الناس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فزلقوا عليه . وبقي المؤمنون لآ ماء لهم فوجست نفوسهم وعطشوا وأجبنوا وصلوا

(١) آية ١٥٤ سورة آل عمران . (٢) آية ٩ سورة يس . (٣) آية ٥٤ سورة النجم . (٤) آية ٢٧ سورة يونس . (٥) راجع ج ٤ ص ٢٤١ طبعه أهل أوراقية .

بذلك؛ فقال بعضهم بقوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : تزعم أنا أولياء الله وفيما رسوله وحالنا
 هذه والمشركون على الماء . فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت
 الأودية ؛ فشرىوا وتطهروا وسقوا الظهور وتبليت السبعة^(١) التي كانت بينهم وبين المشركين حتى
 ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيل : إن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم
 إلى بدر ؛ وهو أصح ، وهو الذي ذكره ابن إسحاق في سيرته وغيره . وهذا اختصاره :
 قال ابن عباس لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان أنه مقبل من الشام ندب
 المسلمين إليهم وقال : " هذه غير قریش فيما الأموال فأخبروا إليهم لعل الله يوفقكموها " ^(٢)
 قال : فأنبئت معه من خف ؛ ونقل قوم وكرهوا الخروج ، وأسرع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم لأبوي علي من تمر^(٣) ، ولا ينتظر من غاب ظهروه ، فسار في ثلثائة وثلاثة عشر من أصحابه
 من مهاجري وأنصار . في البخاري عن البراء بن عازب قال : كان المهاجرون يوم بدر
 ثيفاً وثمانين ، وكان الأنصار ثيفاً وأربعين ومانتين . وتخرج أيضاً عنه قال : كما تجد أدت
 أن أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثائة وبضعة عشر ، على عدد أصحاب طالوت الذين
 جازوا معه النهر ، وما جاز معه إلا مؤمن . وذكر البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال :
 خفرجنا - يعني إلى بدر - فلما سرتنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أن نتعاضد ففعلنا فلما نحن ثلثائة وثلاثة عشر رجلاً ، فأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بعقتنا ،
 فسر بذلك وحيد الله وقال : " عتة أصحاب طالوت " . قال ابن إسحاق : وقد غلب الناس
 بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأتي حرباً فلم يكثر استمدادهم . وكان أبو سفيان
 حين دنا من المجاز يقبض الأخبار ويسأل من لقي من الركان تحوفاً على أموال الناس ، حتى
 أصاب خبراً من بعض الركان أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقر لكم الناس ؛
 فحذر عند ذلك واستأجر خنثم بن عمرو النفازي وبعشه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشا

(١) الظهور : الإبل التي يحمل عليها ويركب . (٢) السبعة (عتة) : أرض ذات ملح وتمر .

(٣) لوى عليه : سلف أو انتظر .

يستغفرون إلى أموالهم ويغيرهم أن يحيا صلى الله عليه وسلم قد جرح لها في أصحابه ؛ ففعل
ضمض . فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم
في أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش يخرجهم ليمتوا عيرهم ؛ فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم
الناس ، فقام أبو بكر فقال فاحسن ، وقام عمر فقال فاحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال :
يا رسول الله ، إمض لما أمرك الله ، فنهجن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل
« اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم
مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت إلى برك النمام - يعني مدينة الحبشة - بلالنا
معك من دونه ؛ فمضى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير . ثم قال : « أشيروا
علي أيها الناس » يريد الانصار . وذلك أنهم عند الناس ، وكان حين يأموه بالعقبة قالوا :
يا رسول ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا ،
فمنك مما نمتع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخوف
ألا تكون الانصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة ، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عتق
بنسب بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه سعد بن معاذ - وقيل
سعد بن حذافة ، ويمكن أنهما تكلما جميعا في ذلك اليوم - فقال : يا رسول الله ، كأنك تريدنا
معشر الانصار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجل » فقال : إنا قد آمنا بك
وأتبعناك ، فامض لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته
لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إمضوا على بركة الله فكانت أنظر
إلى مصارع القوم » . فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع
قريشا من السبق إليه مطر عظيم أتاه الله عليهم ، ولم يصب منه المسلمين إلا ما شئت لم
دخس الوادي وأغاثهم على السير . والتخس : الزلزال الذي تسوخ فيه الأرجل . فمات
رسول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من ميساء بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحباب

ابن المنذر بن عمرو بن الجموح بنير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أ رأيت هذا المنزل ،
 أمزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟
 فقال عليه السلام : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » . فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس
 لك بمنزل ، فانض بنا إلى أدنى ماء من القوم فنتزله وننور ما وراه من القلب ، ثم نبني عليه
 حوضا فتملأه فنشرب ولا يشربوا . فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من
 رأيه ، وفعله . ثم التقوا فنصر الله نبيه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم
 سبعين ، وانتم منهم لأوثمين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من
 غيظهم . وفي ذلك يقول حسان :

عَرفْتُ ديارَ زَيْبٍ بالكَيْتِيبِ • تَكْطُ الوَحْيُ في الوَرَقِ القَيْيِيبِ ^(١)
 تَدَاوَلُها الرِّياحُ وَكُلُّ جَوَيْبٍ • من الوَحْيِ مِنْهُمْ سَكُوبِ ^(٢)
 فامسى رَبُّها خَلَقا واسْتِ • يَتَبَا بَعْدَ ساكِنا الحَيْبِ ^(٣)
 فَدَعَ عَنكَ التَّدَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ • وَرَدَّ حَرارةَ الصِّدْرِ العَكْبِيبِ
 وَخَبَّرَ بالَّذِي لا يَحِيبُ فِيهِ • بِصِدْقِ غَيْرِ إغْبَارِ الكَلْبِيبِ
 بِما صَنَعَ الإِلَهُ غَداءَ بَدِيرٍ • لَنَا في المَشْرِكِينَ مِنَ النَّمِيبِ
 غَداءَ كَأَنَّ جَمْعَهُمَ حِراءَ • بَدَتْ أَرْكانُهُ جُنُوعَ الفَرْوِبِ
 فَلانِيانُهُمْ مَنا يَجْمَعُ • كَأَنَّ السَّابِ مُرْبِدانٍ وَشَيْبِ
 أَمامَ مُحَمَّدٍ قَدِ وَاثَرُوهُ • عَلَى الأَعْداءِ في لَفْحِ الحِشْروِبِ
 بِأَيْدِيهِمْ صِوارِيهمُ مُرْهَفاتٌ • وَكُلَّ مَجْرِبٍ خافِطِ الصُّمُوبِ ^(٤)

- (١) حذر حين المياه ، إذا دفعا وسدما . (٢) القلب : جمع قلب ، وهي البر الساذية القديمة
 التي لا يهل لها رب ولا حافر تكون في البراري . (٣) الوحي : الكناية . والقشيب : الجديده .
 (٤) البلون : السحاب . والوصى : المطر الذي يأتي في الربيع . (٥) الياب : الغروب .
 (٦) الخافط : الكثير الهم .

بنو الأرض النظارُف وازرنتها • بنو التجار في الدين الصليب
فنادرتنا أبا جهل صريحا • وعتبة قد تركنا بالجُبوب^(٢١)
وشية قد تركنا في رجال • ذوى قسب إذا نُسبوا حبيب
يتأفهم رسول الله لما • فذفناهم بكأكب في القليب^(٢٢)
الم تحمدوا كلامي كان حقا • وأمر الله يأخذ بالقلوب
لما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا • أصبت وكنت ذا رأى مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى - قال مالك : بلغني أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم :
"كيف أهل بدر فيكم ؟" قال : " خيارنا " فقال : " إنهم كذلك فينا " . فدل هذا على أن
شرف المخلوقات ليس بالنفوس ، وإنما هو بالأفعال . فلهذا تكثر أفعالها الشريفة من المواظبة
على التسبيح الدائم . ولنا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع
لها ، وأفضلها الجهاد ، وأفضل الجهاد يوم بدر ، لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانية - ودل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلى العير على جواز التغير للفتية لأنها
كسب حلال . وهو برء ما كره مالك من ذلك ، إذ قال : ذلك قتال على الدنيا ، وما جاء
أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله دون من يقاتل للفتية ، يراد به إذا
كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ . وروى حكمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبي
صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ، ليس دونها شيء . فتأداه العباس وهو
في الأمري : لا يصلح هذا . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ولم ؟ " قال : لأن الله
وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) النظار : جمع النظار ، وهو البه للتريف السحي . (٢) الجبوب : وجه الأرض .
(٣) بكأكب : جمع ككبة وهي إجناعة الكثرة .

”صدقت“ . وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك في أثناء الحديث .

الثالثة — روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتل بدر ثلاثاً، ثم قام عليهم فتأدهم فقال : ”يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً“ . فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنى يسمعون وقد جئوا ؟ قال : ”والذي نفسي بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يُقدرون أن يُجيبوا“ . ثم أمر بهم فسُحِبوا فألقوا في القليب ، قليب بدر . « جئوا » بفتح الجيم والياء ، وبمعناه أُنْتُزِعُوا فصاروا جَيْفًا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به العادة . فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن وفراقته ، وحيلولة بينهما ، وتبطل حال وانتقال من دار إلى دار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع ناله“ الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : (وَيُنَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ) الضمير في « به » عائد على الماء الذي شد دهنس الوادي، كما تقدم . وقيل : هو عائد على ربط القلوب ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِئِكَ أَنِّي مَعَكُمْ فَفَتَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَائِلِينَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلرَّعْبُ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوسَى رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ العامل في « إذ » بشت أي يثبت به الإقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « ليربط » أي ويربط إذ يوسى . وقد يكون التقدير : إذ كر إذ يوسى ربك إلى الملائكة . « أنى معكم » في موضع نصب ، والمعنى : بأنى معكم ، أي بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف ، ومن أسكنها فهي عنده حرف . ﴿ فَتَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال ؛ فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول : سيروا فإن الله ناصركم . ويظن السامعون أنه منهم ، وقد تقدم في « آل عمران » أن الملائكة قالت ذلك اليوم . فكانوا يرون موسيّا تتدر عن الأعناق من غير ضارب يرويه . وسميع بعضهم قائلا يسمع قوله ولا يرى شخصه : أقدم حمزوم . وقيل : كان هذا التثبيت ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأومنين نزول الملائكة ملحا .

قوله تعالى : ﴿ سَأُنْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّيبَ ﴾ تقدم في « آل عمران » بيانه . ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هذا أمر للملائكة . وقيل : للأومنين ، أي أضربوا الأعناق ، و « فوق » زائدة ؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية . وقد روى المسعودي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق » . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن « فوق » تفيد معنى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنهم أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقال ابن عباس : كل هام وجمجمة . وقيل : أي ما فوق الأعناق ، وهو الرموس ؛ قاله عكرمة . والضرب على الرأس أبلغ ؛ لأن أدنى شيء يؤرق النساغ . وقد مضى شيء من هذا المعنى في « النساء » وأن « فوق » ليست بزائدة ، عند قوله : « فوق أثنتين » . ﴿ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال الزجاج : واحد البنان بئانة ، وهي هنا الأصابع وضربها من الأعضاء . والبنان مشتق من

(١) راجع ج ٤ ص ١٩٠ طبة أول أو ثانية . (٢) ندر : سقط .

(٣) حمزوم : اسم فارس من خيل الملائكة . (٤) راجع ج ٤ ص ٢٣٢ طبة أول أو ثانية .

(٥) راجع ج ٥ ص ٦٣ طبة أول أو ثانية .

قولهم : أين الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُشتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين . وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عترة :

وكان قتي المجاء يمي ذمارها • ويضرب عند الكرب كل بنان

وما جاء أن البنان الأصابع قول عترة أيضا :

وإن الموت طوع يدي إذا ما • وصلت بنانها بالهشواني

وهو كثير في أشعار العرب ، البنان : الأصابع . قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال الأطراف . وذكر بعضهم أنها شمتت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التي بها يستغنى الإنسان وبين . وقال الضحاك : البنان كل مفصل .

قوله تعالى : **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧٦﴾ **ذَلِكَ فَتَنُوهُ وَإِنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿٧٧﴾**

قوله تعالى : **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ)** « ذلك » في موضع رفع على الابتداء ، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك ، **(شَاقُّوا اللَّهَ)** أى أولاه . والشقاق : أن يصير كل واحد في شق . وقد تقدم . **(ذَلِكَ فَتَنُوهُ وَإِنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)** قال الزجاج : « ذلك » رفع بإضمار الأمر أو الفصة ، أى الأمر ذلك فتنوه . ويجوز أن يكون في موضع نصب بذنوبهم ، كقولك : زيدا فأضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . « وإن » في موضع رفع عطف على ذلك . قال القزء : ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى وإن للكافرين . قال : ويجوز أن يضمروا وأعلموا أن . الزجاج : لو جاز إضمار وأعلموا لجاز زيد منطلق وعمرأ

جالسا ، بل كان يحوز في الابتداء زيدا منطلقا ، لأن الخبر معلوم ، وهذا لا يقوله أحد من النحويين .

قوله تعالى : يَكَايِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا مَوْلَاهُمُ الْأَدْبَارُ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْمِدْ ذِرْبَهُ لَا يُنتَهِرُ لِقَتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (زَحْفًا) الزحف الدنو قليلا قليلا . وأصله الكندفاع على الألية ، ثم سمي كل ما يش في الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التمدد والتقارب ، يقال : زحف إلى العدو زحفا . وأزدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض . ومنه زحاف الشعر ، وهو أن يقطع بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا تدانيت وتمايت فلا تفرزوا عنهم ولا تطوهم إدياركم . حرم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمع دبر . والعبارة بالدبر في هذه الآية مفككة الفصاحة ، لأنها يشيع على القارئ ، ذائقة له .

الثانية - أمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يؤتوا المؤمنون أمام الكفار . وهذا الأمر مفيد بالشريعة المنصوصة في مثل المؤمنين ، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة من المشركين فالقرض ألا يفرزوا أمامهم . فمن فرز من اثنين فهو فاز من الزحف . ومن فرز من ثلاثة فليس بفاز من الزحف ، ولا يتوجه عليه الوعيد . والفرار كبيرة مؤيقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن المساجشون في الواضحة : إنه يراعى الضعف والقوة والمدة ، فيجوز على قولهم أن يفرز مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا

ما زاد على المسائين ؛ فهما كان في مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الالتزام ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مؤنة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف . منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من تخم وجندهم .

قلت : ووقع في نارنج فتح الأندلس ، أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبع مائة رجل إلى الأندلس ، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فالتقى وملك الأندلس لدر بيق وكان في سبعين ألف عتاق ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الثانية للبريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يلقون العدو ويكونون في محرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير ، أيقانلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يلقون على قتالهم قاتلهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فأذنهم .

الثالثة — واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم مام في الزحف كلها إلى يوم القيامة ؛ فروى عن أبي سعيد الخدري أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، ومجه قال نافع والحسن وقسادة ويزيد بن أبي حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وإن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن يخازوا ، ولو أخازوا لأخازوا للشركيين ، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لاسلمين فئة إلا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . قال الكيا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأسرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها البير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خف معه ، ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة . احتج الأولون بما ذكرنا ، وبقره تعالى : « يومئذ » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بأية الضعف . وبنى حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة . وقد قرأ الناس يوم أُحد نقفاً الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين « ثم وليتم مدبرين » ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة

إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله تعالى : « إذا لقيتم » . وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بينه الله تعالى في آية أخرى ، وليس في الآية نسخ . والدليل عليه أن الآية زالت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - وفيه - والتولَّى يوم الزحف » وهذا نصٌّ في المسألة . وأما يوم أحد فأنما قرأ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عتقوا . وأما يوم حنين فكذلك من قرأ إنما اكتشف عن الكثرة ؛ هل ما يأتي بيانه .

الرابعة - قال ابن القاسم : لا يجوز شهادة من قرأ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفرار وإن قرأ إمامهم ؛ لقوله عن وجل : « ومن يؤم يومئذ ذرّه » الآية . قال : ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين أثنى عشر ألفا ؛ فإن بلغ أثنى عشر ألفا لم يحل لهم الفرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولن يقلب أثنا عشر ألفا من قلة » فإن أكثر أهل العلم خصصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت - رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملي ، وهو الحكم بن حبيب الله بن خطاف وهو متروك . قالوا : حدثنا الزهري عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيكم بن الجسون أغرُّ مع فير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفاقك . يا أيكم ابن الجون خير الرفقاء وأخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يُرَقَى أثنا عشر ألفا من قلة » . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه وهو قوله للمعمر بن العابد إذا ساله هل لك سعة في ترك مجاهدة من غير الأحكام وبدلها ؟ فقال : إن كان معك أثنا عشر ألفا فلا سعة لك في ذلك .

(١) المعمر بن العابد (بشم العين وضع الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؛ كان من أئمة زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السعدي) .

الخامسة - فإن فر فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذى عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدثني أبي عن جدتي سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فر من الزحف " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسة - قوله تعالى : (أَلَا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ) التحريف : الزوال عن جهة الاستواء . فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم ، وكذلك المتحيز إذا نوى التميز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو جادود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سيرة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لحاض الناس خيصة ، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررتنا من الزحف وبؤرة والغضب . قلنا : ندخل المدينة فتثبت فيها ونذهب ولا يرأى أحد . قال : فدخلنا قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا نوبة أتنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر ، فلما خرج قلنا إليه قلنا : نحن الفزارون ، فأقبل إلينا فقال : " لا بل أتم الكاكرون " . قال : فدنوتنا فقبلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " . قال تلعب : الكاكرون هم المطافون . وقال غيره : يقال للرجل الذى يؤتى عند الحرب ثم يكر راجعا : عكر وأعكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انتهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فتك . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو حبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال : لو انحاز إلى لكت لك فئة ، فأنافئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة ؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور إن الفرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

من النبي صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحيلة على المؤمنين ، إذ كانوا في ذلك الزمان يثبتون لأضغانهم مرارا . والله أعلم . وفي قوله " والتوت يوم الزحف " ما يكفي .

السابعة - قوله تعالى : (فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ) أى استحق الغضب . وأصل باء رجع . وقد تقدم . (وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ) أى مقامه . وهذا لا يدل على الخلود ؛ كما تقدم في غير موضع . وقد قال عليه السلام : " من قال استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم غفر له وإن كان قد فر من الزحف " .

قوله تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَيُبَلِّغُ الْوُفُؤَيْنِ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُرِهُنٌ كَدِيدُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صيدوا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل ، فقلت كذا ، فقلت كذا ، فقلت كذا ، بقاء من ذلك يفاخر ونحو ذلك . فترت الآية لإعلاما بأن الله تعالى هو المستخول المقتر لجميع الأشياء ، وإن البعد إنما يشارك بتكسبه وقصد . وهذه الآية ترذ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمركم بهم . (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ) مثله ، ولكن الله رمى . واختلف العلماء في هذا الزمى على أربعة أقوال :

الأول - إن هذا الزمى إنما كان في حصص رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ؛ رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك . وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

الثاني - أن هذا كان يوم أحد حين رى أبي بن خلف بالحربة في منتهى فكر أبي منزهما . فقال له المشركون : والله ما بك من بأس . فقال : والله لو بصق علي لقتني .
 أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوعده أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل أنا أقتلك " فأتى مدوّاه من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرجعه إلى مكة ؛ بموضع يقال له « سرف » . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أحد أقبل أبي مقتنما في الحديبد على فرسه يقول : لا نجوت . إن نجما عدي ؛ فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فأعرض له رجال من المؤمنين ؛ فأصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلوا طريقه ؛ فأستقبله مصعب بن عمير بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقتل مصعب بن عمير ؛ وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقة أبي بن خلف من فرجة بين سائفة البيضاء والدرع ؛ فطعنه بحريته فوقع أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طمته دم . قال سعيد : فكسر ضلعا من أضلاعه ؛ فقال : ففى ذلك نزل « وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » . وهذا ضيف ؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث - أن المراد السهم الذى رى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر ؛ فسار في الهواء حتى أصاب ابن الحقيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسد ، وخيبر وتحتها أبعد من أحد بكثير . والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحقيق غير هذا .

الرابع - أنها كانت يوم بدر ؛ قاله ابن إسحاق . وهو أصح ؛ لأن السورة بديرة ، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فسا من المشركين من أحد إلا وأصاب عليه ومتغيره وفه تراب من تلك القبضة ؛ وقوله ابن عباس ، وسيأتي . قال ثعلب : المعنى « وما رميت » الفزع والرهب في قلوبهم « إذ رميت » بالخصباء فأنهزموا « ولكن الله رمى » أى أطاعك وأطعرك . والمرب تقول : رمى الله لك ، أى أطاعك وأطعرك وصنع لك . حكى هذا أبو عبيدة

في كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد : وما رميت بقوتك إذ رميت ، ولكنك بقوة الله رميت .
 ﴿ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ البلاء ها هنا النعمة . واللام تنعلق بمحذوف ؛ أي وليل
 المؤمنين فعل ذلك . ﴿ ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو .
 وقراءة أهل الكوفة « موهن كيد الكافرين » . وفي التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن
 « موهن كيد الكافرين » بالإضافة والتخفيف . والمعنى : أن الله من وجل يلقى في قلوبهم
 الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدم .

قوله تعالى : **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ**
وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : **(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ)** شرط وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال :
 يكون خطابا للكفار ؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : **اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلزَّيْمِ وَأَطْلَعْنَا لِمُصَاحِبِهِ فَأَنْصُرْهُ**
 عليه ؛ قاله الحسن وعجمد وغيرهما . وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنصرة العير .
 وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النصر بن الحارث : **اللهم إن كان هذا هو الحق**
من عندك فامطر علينا حمارة من السماء أو آتتنا بحداب أليم . وهو ممن قتل ببدر .
 والاستفتاح : طلب النصر ؛ أي قد جاءكم الفتح ولكنه كان للساكنين عليكم . أي فقد
 جاءكم ما بأن به الأسر ، وأنكشف لكم الحق . **(وَإِنْ تَنْتَهُوا)** من الكفر (فهو خير لكم) .
(وَإِنْ تَعُودُوا) أي إلى هذا القول وقتال محمد . **(نَعُدْ)** إلى نصر المؤمنين . **(وَلَنْ تُغْنِيَ**
عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ) أي جماعتكم **(شَيْئًا)** . **(وَلَوْ كَثُرَتْ)** أي في العدد .

الثاني - يكون خطابا للمؤمنين ؛ أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن « تنهوا »
 أي عن مثل ما فعلتموه من أخذ الفنائم والأسرى قبل الإذن ؛ فهو خير لكم . « وإن تعودوا »
 أي إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم . كما قال : **« لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ »** الآية .

(١) رابع ٢٨٠ طبة أول أو ثانية . (٢) آية ٦٨ من هذه السورة .

والقول الثالث - أن يكون « إن استفتحوا فقد جاءكم الفتح » خطاباً للمؤمنين ، وما بعده للكفار . أى وإن تعودوا إلى القتال تدد إلى مثل وقعة بدر . القشبرى : والصحيح أنه خطاب للكفار ؛ فإنهم لما نفّروا إلى نصره العير تعلقوا باستار الكعبة وقالوا : اللهم أنصر أهدى الطائفتين ، وأفضل الدينين . المهدي : وروى أن المشركين خرجوا معهم باستار الكعبة يستفتحون بها ، أى يستنصرون .

قلت : ولا تمارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين . (وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) بكسر الهمزة على الاستئناف ، ويفتحها عطف على قوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » . أو على قوله : « أَنَّى مَعَكُمْ » . والمعنى : ولأن الله ؛ والتقدير لكثرتها وإن الله . أى من كان الله في نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) الخطاب للمؤمنين المصطفين ، أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم . جئد الله طيعهم الأمر بطاعة الله والرسول ، ونهاهم عن التولى عنه . هذا قول الجمهور . وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين . والمعنى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بالستهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً ؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان . والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشئ . وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبني إسرائيل ، فإنه أجنبي عن الآية .

قوله تعالى : (وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ) التولى الإعراض . وقال « عنه » ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته ، وهو كقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » . (وَأَنْتُمْ

تَسْمَعُونَ) ابتداء وخبر في موضع الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين في القرآن .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١﴾
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا) أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . (وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) أى لا يتدبرون ما سمعوا ، ولا يفكرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم . فقلت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه باستئثار فعله . فإذا قصر في الأوامر فلم يأتمرها ، وأخذ النواهي فأتصحمها فأى سمع عنده وأى طاعة ! وإنما يكون حيلثا بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، ويسر الكفر ، وذلك هو المراد بقوله : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ؛ حل ما تقدم . ثم أخبر تعالى أن الكفار شر ما دب على الأرض . وفى البخارى عن ابن عباس « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » قال : هم نفر من بنى عبد الدار ، والأصل أشهر ، حذف الهزة لكثرة الاستعمال . وكنا خير ، الأصل أخير .

قوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) قيل : الحجج والبراهين ؛ إجماع قلوبهم . ولكن سبق علمه بشقاوتهم . (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ) أى لو أنهم لم يأتوا بعد علمه الأذى بكفرهم . وقيل : المعنى لأسمعهم كلام الملقى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قصى ابن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه . (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) لاذ سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَ نَفَرٍ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴿٢٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) هذا الخطاب للؤمنين المصطفين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . و (يُحْيِيكُمْ) أصله يُحْيِيكُمْ ، حذف الضمة من الياء لتقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : معنى « استجبوا » أجبوا ؛ ولكن حُرف الكلام أن يتعدى استجاب بلام ، ويتعدى أجب دون لام . قال الله تعالى : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ » . وقد يتعدى استجاب بغير لام ، والشاهد له قول الشاعر :
وداع دعا يأمن يجب إلى الندى • فلم يستجبه عند ذلك يجب

ثقول : إجابة وأجاب عن سؤاله . والمصدر الإجابة . والكسر الجاية ؛ بمنزلة الطاعة والطاعة . تقول : أساء ستماً فأساء جابة . هكذا يتكلم بهذا الحرف . والمجاوبة والتجاوب : التماثل . وتقول : إنه لحسن الجيبة (بالكسر) أي الجواب . (لِمَا يُحْيِيكُمْ) متعلق بقوله : « استجبوا » . المعنى : استجبوا لما يحْيِيكم إذا دعاكم . وقيل : اللام بمعنى إلى ، أي إلى ما يحْيِيكم ، أي يحيي دينكم وصلاحكم . وقيل : أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوسلوه . وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر والجول . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجبوا للطاعة وما تضمنته القرآن من أوامر ونواهي ؛ ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله « لِمَا يُحْيِيكُمْ » الجهاد ؛ فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا لم

(١) آية ٣١ سورة الأنفال . (٢) حركم بين سعد بن النضر يذا أخاه أي القوار .

(٣) أصل هذا المثل على ما ذكره الزبير بن بكار أنه كان لسبل بن عمرو ابن مضعوف قال له إنسان : أين أمك . (بفتح الحزنة وتشديد الميم المضمومة) أي أين نفسك ؛ فظن أنه يقول له : أين أمك ؟ (بضم الحزنة والميم) قال : ذهبت تشتري دقيقاً . فقال أبوه : أماماً سما ... الخ . (عن السائد) .

يُغْزَا ، وفي غزوه الموت ، والموت في الجهاد الحياة الأبدية ، قال الله عز وجل : «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ۖ وَالصَّحِيفُ الْعُمُومُ كَمَا قَالَ الْجَمْعُ»

الثانية - روى البخاري عن أبي سعيد بن المثل قال : كنت أصلي في المسجد فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، ثم أتته فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي . فقال : «ألم يقل الله عز وجل : «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ؟» وذكر الحديث . وقد تقدم في الفاتحة . وقال الشافعي رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في الصلاة لا تبطل ، لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان في الصلاة .

قلت : وفيه حجة لقول الأوزاعي : لو أن رجلا يصلي فأبصر غلاما يريد أن يسقط في بئر فصاح به وأنصرف إليه واتهره لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» قيل : إنه يقتضي النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به ، فلا يكتسبه إذ لم يقدره عليه بل أقدره على ضلته وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر . فبان بهذا النص أنه تعالى خالق جميع اكتساب العباد خيرها وشرها . وهذا معنى قوله عليه السلام : «لا ، وَمَقْلَبُ الْقُلُوبِ» . وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخلفه ، إذ لم يمتنعهم حقا وجب عليه فتقول صفة العدل ، وإنما منهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم . قال السدي : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه ، أي بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدم في «البقرة»^(١) بيانه . وهو بيد الله ، حتى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أي بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

(١) آية ١٦٦ سورة آل عمران .

(٢) راجع ج ١ ص ١٠٨ طبع ثانية أمانة .

(٣) راجع ج ١ ص ١٨٧ طبع ثانية أمانة .

وعقله حتى لا يدري ما يصنع . وفي التزيل : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »^(١)
 أى عقل . وقيل : يحول بينه وبينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما قات . وقيل : خاف
 المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يتعلم بعد الخوف
 أنساً ، ويقتل عدوهم من الأمن خوفاً . وقيل : المعنى يقلب الأمور من حال إلى حال ؛ وهذا
 جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخباراً من الله عز وجل بأنه أملك لفسلوب العباد
 منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز
 وجل . (وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) عطف . قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت « وأنه » كان
 صواباً .

قوله تعالى : **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٢٥)

فيه مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقزوا المنكرين أظهرهم جميعهم
 العذاب . وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام لأنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين :
 ما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا ليعن خطوب ذلك الوقت .
 وكذلك تأول الحسن البصرى والسدى وغيرهما . قال السدى : نزلت في أهل بدر خاصة ؛
 فاصابهم الفتنة يوم الجمل فأقتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية في أصحاب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقزوا المنكرين بينهم فيجمعهم الله
 بالعذاب . وعن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون بين ناس من
 أصحابي فتنة يتفرغوا الله لهم بصحبتهن ليرى يستن بهم فيها ناس يهدم يخلطهم الله بها النار »

قلت : وهذه التاويلات هى التى قصدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم من
 زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، أتهلك وفينا

الصالحو؟ قال : "نعم إذا كثرت الخبيث". وفي صحيح الترمذي : "أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بمذاب من عنده" وقد قدمت هذه الأحاديث . وفي صحيح البخاري والترمذي عن الثمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استسقوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا". وفي هذا الحديث تذييل العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عملت هلك الكل . وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وهدم الخير ، وإذا لم تغير وجه على المؤمنين المنكرين لها بقولهم هيران تلك البلدة والمغرب منها . وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم ، كما في قصة السبت حين هجروا المعاصين وقالوا لا نساكنكم . وبهذا قال السلف رضي الله عنهم . روى ابن وهب عن مالك أنه قال : "تُجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها" واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . ترجمه الصحيح . وروى البخاري عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أنزل الله بقوم مذابا أصاب المذاب من كان فيهم ثم يموتوا على أعمالهم" . فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهارة للؤمنين ومنه ما يكون نعمة للنافقين . وروى مسلم عن عبيد الله بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت : "حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه ، فقلت : يا رسول الله ، صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : "العجب" ، إن ناسا من أمتي يؤمنون بهذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم" . قلنا : يا رسول الله ، إن الطريق

(١) استبقوا : اترعوا .

(٢) حيث : مناء اضطرب بحسه . وقيل : حرك أمراه كن يأخذ شيئا أو يدهه .

قد يجمع الناس . قال : " نعم . فيهم المستبصر والمجهور وأبى السبيل يهلكون مهلكا واحدا
وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَيْءٍ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نِبَاتِهِمْ " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى .
« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ » . « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا آكَسَبَتْ » . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما شاعق العقوبة بصاحب
الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر في القرض على كل من رآه أن ينيره ، فإذا
سكنوا عليه فكلمهم حاص . هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه وحكمته الرأضى
بمثلة السامل ، فأنتظم في العقوبة ؛ قاله ابن العربي . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا .
ومقصود الآية : وأتقوا فتنة تتعدى الظالم ، فتصيب الصالح والطالح .

١ / الثانية : واختلف النعاة في دخول النون في « لَا تُصَيِّينَ » . قال القراء : هو بمثلة
قولك : انزل عن الدابة لا تطرحبك ؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي ؛ أى إن نزل عنها .
لا تطرحك . ومثله قوله : « ادخلوا مساكنكم لَا يحطمنكم » . أى إن تدخلوا لا يحطمنكم ؛
فدخلت النون لمبا فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه نخرج خروج القسم ، والنون لا تدخل
إلا على فعل النهي أو جواب القسم . وقال أبو العباس المبرد : إنه نهى بحد أمر ، والمعنى
النهي للظالمين ؛ أى لا تقرين الظلم . وحكى سيويه : لا أوتيك ها هنا ؛ أى لا تمنك ها هنا ،
فإنه من كان ها هنا رأيت . وقال الجرجاني : المعنى أتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة .
فقوله « لَا تُصَيِّينَ » نهى في موضع وصف التركة ؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا .
وقرأ على « وزيد بن ثابت وأبى وآبن مسعود » لتصيين « بلا ألف » . قال المهدوى : من
قرأ « لتصيين » جازأف يكون مقصورا من « لَا تُصَيِّينَ » حذف الألف كما حذف من
« ما » وهى أخت « لا » في نحو : أم والله لأفعلن ، وشبهه . ويموز أن تكون مخالفة لقراءة
الجامعة ؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

(١) المستبصر : هو المستنير للأمر ، القاصد لذلك عمدا . والمجهور : الكفر .

(٢) آية ١٥ سورة الإسراء . (٣) آية ٣٨ سورة المائدة . (٤) آية ١٨ سورة البقرة .

(٥) عبارة ابن العربي : « فانتظم القرب بالعقوبة » . (٦) آية ١٨ سورة المائدة .

قوله تعالى : **وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسُ فَكَافَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ)** قال الكلبي : نزلت في المهاجرين ؛ يعني وصف حالم قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام . **(مُسْتَضْعَفُونَ)** نعت . **(فِي الْأَرْضِ)** أي أرض مكة . **(تَخَافُونَ)** نعت . **(أَنْ يَخَطَفَكُمْ)** في موضع نصب . والخطف : الأخذ بسرعة . **(الْإِنْسُ)** رفع على الفاعل . قتادة وعكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبه : فارس والروم . **(فَكَافَاكُمْ)** قال ابن عباس : إلى الأنصار . السدي : إلى المدينة ؛ والمعنى واحد . **(آوَى إِلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ)** : ضم إليه . **(وَآوَى إِلَيْهِ بِالْقَصْرِ)** : انضم إليه . **(وَأَيَّدَكُمْ)** قواكم . **(وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)** أي الثنائب . **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** قد تقدم معناه .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونَُوا أَوْلِيَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٦٩﴾

رُوي أنها نزلت في أبي ثابة بن عبيد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح . قال أبو ثابة : والله ما زالت قدماي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله ؛ فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شد نفسه إلى سارية من سوارى المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت ، أو يتوب الله علي . الخبر مشهور . ومن عكرمة قال : لما كان شأن قريظة بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس ؛ فلما انتهى إليهم وقفوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبيض فقال عائشة رضي الله عنها : فلما كنت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح الفبار عن وجهه

جبريل عليهما السلام ، قلت : هذا دحية يارسول الله . فقال : " هذا جبريل عليه السلام " .
قال : " يارسول الله ما يمنك من بنى قريظة أن تأتيهم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" فكيف لي بهم " فقال جبريل : " إني أدخل فرسي هذا عليهم " . فركب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فرسا معروفاً ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ، لا عليك
ألا تأتيهم ، فإنهم يشمتونك . فقال : " كلا إنها ستكون حجة " . فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم
فقال : يا إخوة القردة والخنازير فقالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت غاشاً ، فقالوا : لا نقتل
على حكم محمد ، ولكننا نقتل على حكم سعد بن معاذ ، فقتل . فحكم فيهم أنت تقتل مقاتلتهم
وتنسي ذرارهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بذلك طرقتي الملك صحراً " فقتل
فيهم . يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . . نزلت
في أبي لؤيا ، أشار إلى بنى قريظة حين قالوا : نقتل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه
الديع ، وأشار إلى حلفه . وقيل : نزلت الآية في أنهم كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله
عليه وسلم فيلقونه إلى المشركين ويخشونه . وقيل : المعنى يطلون الفتائم ونسبتها إلى الله ، لأنه الذي
أمر بقسمتها . وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه المؤذي من الله عز وجل والقيم بها .
والخيانة : التدر وإخفاء الشيء ، ومنه : " يعلم خائنة الأعين " وكان عليه السلام يقول :
" اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه يلبس الضجيج ومن الخيانة فإنه يلبس البطانة " .
نحوه الساني عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... فذكره .
﴿ وَخَوَّنُوا أَمَانَاتَكُمْ ﴾ في موضع جزم ، فسقا على الأول . وقد يكون على الجواب ، كما يقال :
لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التي أئتمن الله عليها العباد . وسميت
أمانة لأنها يؤمن منها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن . وقد تقدم في « النساء » القول
في إداة الأمانات والردائع وغير ذلك . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ما في الخيانة من القبح والعار .
وقيل : تعلمون أنها أمانة .

(١) حرباً . (٢) آية ١٩ سورة تاف . (٣) راجع ج ٥ من ٢٥٠ طبة أول أدلة .

قوله تعالى : **وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ**

أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ)** كان لأبي ثبابة أموال وأولاد في بني قريظة، وهو الذي حمله على ملايتهم، فهذا إشارة إلى ذلك . **(فِتْنَةٌ)** أي اختبار، امتحنهم بها . **(وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)** فأثروا حقه على حكم .

قوله تعالى : **يَنَّايِبَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَّبْتَغُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴿٧٩﴾

قد تقدم معنى « التقوى » . وكان الله عالما بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم ببعضاً . فإذا أتى البدرية — وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه — وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وضمن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال المباحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفية والظواهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا باليعة عن المال جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، وردقه فيما يريد من الخير إمكاناً . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله « **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا** » قال : مغرباً . ثم قرأ « **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** » . وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مَالِكٌ مِنْ طُولِ الْآخِرِ فُرْقَانٌ • بِسَدِّ قَاطِعِينَ رَحَلُوا وَهَابُوا

وقال آخر :

وَكَيْفَ أَرْبَى بِالْخُلْدِ وَالْمَوْتُ طَالِي • وَمَالِي مِنْ كَاسِ الْمُنْيَةِ فُرْقَانٌ

ابن إسحاق : « فرقان » فصل بين الحق والباطل ، وقاله ابن زيد . السدي : نجاة . الفراء : فناء ونصراً . وقيل : في الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

قوله تعالى : **وَلَمَّا ذُكِّرُوا بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ
أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ** ﴿٥٠﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ؛
فاجتمع رأيهم على قتله فيثبته ، ورصدوه على باب منزله ليقتلوه إذا خرج ، فأمر
النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله أن يعصى عليهم أمره ،
فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غشيهم النوم ، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض ، فلما
أصبحوا خرج عليهم على فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد قاتل ونجا ، انطهر مشهور في السيرة وغيرها ، ومعنى « لِيُثْبِتُوكَ » ليعسوك ؛
يقال : أثبته إذا حبسته . وقال قتادة : « لِيُثْبِتُوكَ » وثاقا . وعنه أيضا وعبد الله بن كثير :
ليسجنوك . وقال آبان بن ثعلبة وأبو جاتم : ليشنوك بالجرحات والضرب الشديد .
قال الشاعر :

نقلت ويحك ما في صهيبتكم • قالوا الخليفة أسى متبنا وجما

(**أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**) عطف . (**وَيَمْكُرُونَ**) ستأف • والمكر : التدبير في الأمر
في خفية . (**وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ**) ابتداء وخبر . والمكر من الله هو جزاؤهم بالمداب على مكرم
من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : **وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ شَاءَ لَقَتُنَا
بِثَلِّ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ** ﴿٥١﴾

نزلت في التضربين الحادث ، كان خرج إلى الجلبة في التجارة فأشترى أحاديث كثيرة
ودمينة ، وكسرى وقيصر ، فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال
التضرب : لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وقاحة وكذبا . وقيل : إنهم توهوا أنهم

يأتون بمثله ، كما توهمت بحجرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه وقالوا عتادا : إن هذا إلا أساطير الأولين . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالُوا آلَهِمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢٠﴾

القراء على نصب « الحق » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويموز « هو الحق » بالرفع . (مِنْ عِنْدِكَ) قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية . واختلف فيمن قال هذه المقالة ، فقال مجاهد وابن جبير : قائل هذا هو النضر بن الحارث . أنس ابن مالك : قاله أبو جهل ، رواه البخاري ومسلم . ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت في صدورهم ، وعمل وجه العناد . والإيهام على الناس أنهم على بصيرة ، ثم حل بهم يوم بدر ما سألوا . حكى أن ابن عباس يقيه رجل من اليهود ، فقال اليهودي : من أنت ؟ قال : من ثريس . فقال : أنت من القوم الذين قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية . فهلا عليهم أن يتولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا له آيات هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيل ، من القوم الذين لم تحيف أرجلهم من بلل البحر الذي أضرق فيه فرعون وقومه ، وأنهى موسى وقومه ، حتى قالوا : « اجعل لنا إلها كما لهم آله » فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون » فاطرق اليهودي مضجعا ، (فَأَمْطِرْ) أمطر في العذاب . ومطر في الرحمة ، عن أبي عبيدة . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٢١﴾

لما قال أبو جهل : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ، نزلت « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فَيَمُوتَ » كذا في صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قريّة حتى يخرج النبي صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمّروا . (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فَيَمُوتَ) ابن عباس : كانوا يقولون في الطواف : غفرانك . والاستغفار وإن وقع من القهار يدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ؛ فلما خرجوا عنهم الله يوم بدر وغيره ؛ قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أي « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أي يسلّمون ؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : « وهم يستغفرون » أي في أصالهم من يستغفرون الله . روى عن مجاهد أيضا . وقيل : معنى « يستغفرون » لو استغفروا . أي لو استغفروا لم يعذبوا . استدامهم إلى الاستغفار ؛ قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائني عن بعض السلفاء قال : كان رجل من العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مُصِرّاً على نفسه ، لم يكن يخرج ؛ فلما أن تَوَقَّعَ النبي صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ؛ وأظهر الذين والناسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبي صلى الله عليه وسلم حي لفرج بك . قال : كان لي أمانان ، فحُضِيَ واحد وبقي الآخر ؛ قال الله تبارك وتعالى : « وما كان الله ليعذبهم وَأَنْتَ فَيَمُوتَ » فهذا أمان . والثاني « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

قوله تعالى : وَمَا هُمْ إِلَّا يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَسَنِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِئَاؤُهُ إِلَّا الَّامِتُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (وَمَا هُمْ إِلَّا يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ) المعنى : وما يمنعهم من أن يعذبوا . أي أنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من الفواحش والأسباب ، ولكن لكل أجل كتاب ؛ فمعذبهم الله

بالسيف مد خروج النبي صلى الله عليه وسلم . وفي ذلك نزلت : « سَأَلَ سَائِلٌ بِسَذَابٍ وَاقِعٍ »^(١)
وقال الأخفش : إن « أن » زائدة . قال النحاس : لو كانت كما قال لرفع « يعضهم » .
(وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أي إن المتقين أولياؤه .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٢٧﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ
وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾

قال ابن عباس : كانت فريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفرون ؛ فكان
ذلك عبادة في ظنهم . والمكء : الصفير . والتصدية : التصفيق ؛ فإله بجاهد والسدى
وابن عمر رضى الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحليل فانيبة تركت مجذلا • جمكو فريصته كيشق الأعلم

أي تصوت . ومنه مكيت أسئت الدابة إذا نفضت بالريح . قال السدي : المكء الضفير ،
على بجم طائر أبيض بالجزاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غرد المكاء في غير روضة • فويل لأهل الشاء والجرأت

قاعدة : المكء ضرب بالأیدی ، والتصدية صياح . وعلى التفسيرين فيه رد على الجهال من
الصوفية الذين يرقصون ويصفقون . وذلك كله منكر يتبره عن مثله العقلاء ، ويتشبهه فاعله
بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جرير وابن أبي نجيع عن مجاهد أنه

(١) سورة المائدة . (٢) الحليل : الزوج . ويرى : وغلب بالطاء المحبة . القريصة : الموضع
الذي يرمي من الدابة والآنسان إذا خاف . والأعلم : المنفرد الثقة طليا .

قال : المَكَّة لإدخالهم أصابعهم في أنوفهم . والتصدية : الصَّغِير ، يريدون أن يُشغَلُوا بذلك
عندما صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف في اللغة ما روى عن ابن عمر ،
حكى أبو عبيد وضمه أنه قال : مَكَائِكُوا مَكَوًا ومَكَاه إذا صَفَر . وصَدَى يُصْدَى تصدية
إذا صفق ، ومنه قول عمرو بن الإطنابة :

وطلَّأوا جميعاً لم نجسة • مكاه لدى البيت بالتَّصْدِيَةِ

أى بالتصفيق . سعيد بن جبير وابن زيد : معنى التَّصْدِيَةِ صَدَمَ عن البيت ، فالأصل على
هذا تصددة ، فأبدل من أحد الدالين ياء ، ومعنى (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْبَاطِلَ مِنَ الْبَاطِلِ) أى المؤمن
من الكافر . وقيل : هو عام في كل شيء ، من الأعمال والنفقات وغير ذلك .

قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَإِنْ يَعودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول
للكفار بهذا المعنى ، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر
الكنائى أنه لم يصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تابوا يغفر لهم »
لما تأتت الرسالة إلا بذلك الألفاظ بينها ، هذا بحسب ما يقتضيه الألفاظ .

الثانية — قوله تعالى : (إِنْ يَنْتَهُوا) يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بد ،
والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » ومنفرة ما قد سلف لا تكون
إلا لِحُتِّهِ من الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزيرى :

يستوجب المفعول متى إذا اعترف • ثم انتهى عما أتاه واقترَفَ

لقوله سبحانه في المصطف • إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(١) في القاموس وشروحه : « والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القيس بن يسرين قصاعة ، وعمرها اثنا عشر
مشهور ، واسم أبيه زيد مائة » .

روى مسلم عن أبي شامة الميموني قال : حضراً عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت يبكي طويلاً . الحديث . وفيه : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله" الحديث . قال ابن العربي : هذه لطيفة من الله سبحانه من بها حل الخلق ؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم ، ويرتكبون المعاصي والمآثم ؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذه لهم لما استدركوا أبداً توبة ، ولا نالهم مغفرة . فيسأل الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإجابة ، وبذل المغفرة بالإسلام ، وهدم جميع ما تقدم ؛ ليكون ذلك أقرب لدخولهم في الدين ، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين ، ولواعبوا أنهم يؤاخضون لما تابوا ولا أسلموا . وفي صحيح مسلم : أن رجلاً فِيمَن كَانَ قَبْلَكُمْ قَتَلَ سَعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا ثُمَّ سَأَلَ هَلْ لَهَا مِنْ تَوْبَةٍ بَعْدَ عَابِدَا فَسَأَلَهُ هَلْ لَهَا مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا تَوْبَةَ لَكَ فَتَقْتُلُ فَكُلَّ بِهَ مِائَةٍ ؛ الْحَدِيث . فَانْظُرُوا إِلَى قَوْلِ الْعَابِدِ : لَا تَوْبَةَ لَكَ ؛ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَبْشَسَ قَتْلَهُ ، فَعَمِلَ الْإِسْمَ مِنَ الرَّحْمَةِ . فَاتَّخِذْ مَقْصِدَةً لِلْخَلِيقَةِ ، وَاتَّبِعْ مَصْلَحَةَ نَفْسِكَ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ لَمْ يَقْتُلْ فَسَأَلَهُ : هَلْ لِفَعَالٍ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَيَقُولُ : لَا تَوْبَةَ ؛ تَحْوِيضًا وَتَحْذِيرًا . فَإِذَا جَاءَهُ مَنْ قَتَلَ فَسَأَلَهُ : هَلْ لِفَعَالٍ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ لَهُ : لَكَ تَوْبَةٌ ؛ تَسِيرًا وَتَأْلِيْفًا . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الثالثة - قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فِيمَن طَلَّقَ فِي الشَّرْكِ ثُمَّ أَسْلَمَ : فَلَا طَلَّاقَ لَهُ . وَكَذَلِكَ مَنْ حَنَفَ فَأَسْلَمَ فَلَا حَنْثَ عَلَيْهِ . وَكَذَا مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ؛ فَذَلِكَ مَغْفُورٌ لَهُ . فَأَمَّا مَنْ أَقْتَرَى عَلَى مُسْلِمٍ ثُمَّ أَسْلَمَ أَوْ سَرَقَ ثُمَّ أَسْلَمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ لِلْفِرَةِ وَالسَّرِقَةِ . وَلَوْزَنِي وَأَسْلَمَ ، أَوْ اخْتَصَبَ مُسَابِمَةً ثُمَّ أَسْلَمَ سَقَطَ عَنْهُ الْحَدُّ . وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا يَعْنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا قَدْ مَضَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، مِنْ مَالٍ أَوْ دَمٍ أَوْ شَيْءٍ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ؛ لَمَّا قَدْ مَتَّعَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتُوبُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » ، وَقَوْلُهُ : « الْإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ » ، وَمَا بِنَاءُ مِنَ الْمَعْنَى مِنَ التَّسِيرِ وَعَدَمِ التَّخْفِيرِ . قُلْتُ : أَمَّا الْكَافِرُ الْحَرَجِيُّ فَلَا خِلَافَ فِي إِسْقَاطِ مَا فَعَلَهُ فِي حَالِ كُفْرِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ . وَأَمَّا إِنْ دَخَلَ إِلَيْنَا بِأَمَانٍ فَتُذَفُّ مَسَالِمُ فَإِنَّهُ يَحْدُ ، وَإِنْ سَرَقَ قُطِعَ . وَكَذَلِكَ الَّذِي إِذَا قُذِفَ

حَدَّثَنَا، وَإِذَا سُرِقَ قِطْعٌ، وَإِنْ قُتِلَ قَتْلٌ، وَلَا يُسْقَطُ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ عَنْهُ لِقَبْضِهِ الْعَهْدَ حَالِ كُفْرِهِ؛ عَلَى رَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَغَيْرِهِ . قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : وَاسْتَخْلَفُوا فِي النَّصْرَانِيِّ يَزْنِي ثُمَّ يُسْلِمُ، وَقَدْ شَهِدَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَحَكَمِي عَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا هُوَ بِالْعِرَاقِ لَا حَدَّ عَلَيْهِ وَلَا تَقْرِيبَ ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » . قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : وَهَذَا مُوَافِقٌ لِمَا رَوَى عَنْ مَالِكٍ . وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ : إِذَا أَقْرَبَ وَهُوَ مُسْلِمٌ أَنَّهُ زَنَى وَهُوَ كَافِرٌ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ . وَحَكَى عَنِ الْكُوفِيِّ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَحْدُّ .

الرابعة - فأما المرتد إذا أسلم وقد فاته صلوات، وأصاب جنائلي وأتلف أموالاً؛ فقليل : حكمة حكم الكافر الأصلي إذا أسلم ؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده . وقال الشافعي في أحد قوليهِ : يلزمه كل حق لله عز وجل والآدمي ؛ بدليل أن حقوق آدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى . وقال أبو حنيفة : ما كان لله يسقط، وما كان للآدمي لا يسقط . قال ابن العربي : وهو قول علمائنا ؛ لأن الله تعالى مستغني عن حقه ، والآدمي مفتقر إليه . ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حضرة الآدميين . قالوا : وقوله تعالى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » عام في الحقوق التي لله تعالى .

الخامسة - قوله تعالى : « وَإِنْ يَمُودُوا » يريد إلى القتال ؛ لأن لفظة « عاد » إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كانت الإنسان عليها ثم انتقل عنها . قال ابن عطية : ولستأ نجد في هذه الآية لهُؤُلَاءِ الْكَافِرَاتِ حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال . ولا يجوز أن يتأول إلى الكفر؛ لأنهم لم يتفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في « عاد » إذا كانت مطلقة لأنها قد تبيح في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار ؛ كما تقول : عاد زيد ملكاً؛ يريد صار . ومنه قول [أمية بن] أبي الصلت : -

تلك المكارم لا قَبِيلَ من لَبَن * شِيبَا بِمَاءِ فُؤَادَا بِمَدِّ أَرْوَآ

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان المائد عليها قبل . فهي مقيدة بضميرها لا يجوز الإقصار دونها ؛ فحكمها حكم صار .

قوله تعالى : (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتشيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر يذاب الله .

قوله تعالى : وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ آيَاتٍ لِّكُلِّ قَوْمٍ .
فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٠ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ١٥١

قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) أى كفر إلى آخر الآية تقدم معناها وتفسيرها
الفاظها في « البقرة » وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ وَرِيسَ الْوَسْطَى
وَالَّذِي أَتْرَقْنِي وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ
بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٥٢

قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ وَرِيسَ الْوَسْطَى
وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ) فيه ست وعشرون مسألة :
الأولى - قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ) الغنمة في اللغة ما يناله
الرجل أو الجماعة بسعى ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى • رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

وقال آخر :

وَمَطْمُ النَّهْمِ يَوْمَ النَّهْمِ مَطْمُهُ • أَنَّى تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومُ مَحْرُومُ

والنهم والغنمة بمعنى ؛ يقال : غنم القوم غنما . وأعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله
تعالى : « غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » مَالُ الْكُفَّارِ إِذَا ظَفِرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وَجْهِ التَّلَبُّ وَالْقَهْرِ . ولا
تقتضى اللفظ هذا التخصيص على ما بيناه ، ولكن عُرِفَ الشَّرْعُ قَيْدَ الْفَرْقِ بِهَذَا النَّوعِ . وسُمِّيَ
الشَّرْعُ الْوَاصِلُ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَيْنَا مِنَ الْأَمْوَالِ بِاسْمَيْنِ : غَنِيمَةً وَقَيْمًا . فالشَّيْءُ الَّذِي يَنَالُهُ
الْمُسْلِمُونَ مِنْ مِلْحَمَةٍ أَوْ سَبْيٍ أَوْ غَنِيمَةٍ . وَلِزِمَ هَذَا الْأَمْرُ هَذَا

المعنى حتى صار عرفاً . والتمى مأخوذ من فاه يفيء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاب . تخرّج الأرضين وجزية الجاهل ونحوه . ونحو هذا قال سفيان الثوري وعطاء بن السائب . وقيل : إنهما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة . وقيل : التى عبارة عن كل ما حارب للمسلمين من أموال بغير قهر . والمعنى متقارب .

الثانية — هذه الآية ناسخة لأولى السورة ؛ عند الجمهور . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله « يسألونك عن الأنفال » وأن أربعة إجماع النعمة مقسومة على الفاتنين ؛ على ما أتى بيانه . وأن قوله « يسألونك عن الأنفال » نزلت في حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر ، على ما تقدم أول السورة .

قلت : وما يدل على صحة هذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا محمد بن كثير قال حدثنا سفيان قال حدثني محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسرا أسيراً فله كذا » وكانوا يقتلوا سبعين ، وأسرهم سبعين ، فجاء أبو اليسر بن عمرو بأسيرين ؛ فقال : يا رسول الله ، إنك وعدتنا من قتل قتيلاً فله كذا ، وقد جئت بأسيرين . فقام سعد فقال : يا رسول الله ، إننا لم نمنعنا زيادة في الأجر ولا جبن عن العدو ولكننا فتننا هذا التمام خشية أن يعطى المشركون ؛ فإني إن أعطى هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء . قال : وجعل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يسألونك عن الأنفال فلي الأنفال لله والرسول فأتقوا الله وأطيعوا ذات بينكم » فسلموا النعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نزلت « وأعلموا أنما غنيمت من شيء فإن لله خمسة » الآية . وقد قيل : إنها محكمة غير منسوخة ، وأن النعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليست مقسومة بين الفاتنين ؛ وكذلك لمن بعده من الأئمة . كتبنا حكاية المأزري عن كثير من أصحابنا ، رضى الله عنهم ، وأن للإمام أن يفرجها عنهم . واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو عبيد يقول : انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عتوة ومن على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فبيها . ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأتوا الله بحمسه »
والأربعة الأنحاس للإمام ، إن شاء حمسها وإن شاء قسمها بين الغنائم . وهذا ليس بشيء ؛
لما ذكرناه ، ولأن الله سبحانه أضاف الغنيمة للغنائم فقال : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء »
ثم حين الخمس لمن سقى في كتابه ، وسكت عن الأربعة الأنحاس ؛ كما سكت عن الثلثين
في قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأَمِّهِ الثَّلَاثُ ^(١) » فكان للأب الثلثان اتفاقاً . وكذا الأربعة الأنحاس
لغنائم إجماعاً على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والتأويدي والمازري أيضاً والقاضي عياض
وابن العربي . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة ، وسيأتي بعضها . ويكون معنى قوله : « يستأثرونك
من الأنفال » الآية ، ما يتقله الإمام لمن شاء لما يراه من المصلحة قبل القسمة . وقال عطاء
والحسن : هي مخصوصة بما شدد من المشركين إلى المسلمين ، من صبد أو أمة أو دابة ، يقضى
فيها الإمام بما أحب . وقيل : المراد بها أنفال السرايا أي غنائمها ، إن شاء حمسها الإمام ، وإن
شاء ففلقها كلها . وقال إبراهيم النخعي في الإمام يبعث السرية فيصيبون المغنم : إن شاء الإمام
قله كله ، وإن شاء حمسه . وحكاه أبو عمر من مكحول وعطاء . قال علي بن ثابت : سألت
مكحولاً وعطاء عن الإمام ينقل القوم ما أصابوا قال : ذلك لهم . قال أبو عمر : من ذهب
إلى هذا تأول قول الله عز وجل : « يستأثرونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » أن ذلك
للنبي صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء . ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :
« وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأتوا الله بحمسه » . وقيل غير هذا بما قد أتينا عليه في كتاب
(التماس في شرح مؤلف مالك بن أنس) . ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى
« يستأثرونك عن الأنفال » الآية ، ناسخ لقوله « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأتوا الله بحمسه » بل قال
الجمهور على ما ذكرنا : إن قوله « ما غنمتم » ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف
ولا التبديل لجواب الله تعالى . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها .
وقد قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلدان من جهتين : إحداها أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد خصه من الأنفال والثنائم ما لم يجعله لغيره ؛ وذلك لقوله «يسئلونك عن الأنفال» الآية ؛ فرى أن هذا كان خاصاً له . والجهة الأخرى أنه من لمكة سناً ليست لشيء من البلاد . وأما قصة حين فقد عوض الأنصار لما قالوا : يعطى الثنائم قرشاً ويتركنا وسيفنا تقطر من دماهم ! فقال لهم : «أما ترضون أن يرجع الناس بالدينبا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم ؟» . نترجه مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول ، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا . والله أعلم .

الثالثة — لم يختلف العلماء أن قوله : «وأعلموا أنما غنمتم من شيء» ليس على محومه ، وأنه يدخله الخصوص ؛ فلما خصصوه بإجماع انت قالوا : سلبُ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام ! وكذلك الرقاب ؛ أعني الأسارى ؛ الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ، على ما يأتي بيانه . وما خص به أيضا الأرض . والمعنى : ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسبي . وأما الأرض فغير داخله في عموم هذه الآية ؛ لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال : لولا أتمر الناس ما تفتت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر . وما يصحح هذا المنع ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «منعت العرائق فقيزها ودرهمها ومنعت الثام ملها ودينارها» الحديث . قال الطحاوي : «منعت» بمعنى ستمت ؛ فدل ذلك على أنها لا تكون للثانين ؛ لأن ما ملكه الثانين لا يكون فيه فقيز ولا درهم ، ولو كانت الأرض تقسم ما بقي لمن جاء بعد الثانين شيء . والله تعالى يقول : «والذين جاورنا من بلنهم» ^(١) بالمطف على قوله «للفقراء المهاجرين» . قال : وأما قسم ما ينقل من موضع إلى موضع . وقال الشافعي : كل ما حصل من الثنائم من أهل دار الحرب من شيء ، قل أو كثر من دار أو أرض أو مناع أو غير ذلك قسم ؛ إلا الرجال البالغين فإن الإمام فيهم غير أن يثن أو يذل أو يسي . وسيل ما أخذ منهم وسبي سبل النعمة . واحتج بعموم الآية . قال : والأرض مفتومة لا محالة ؛ فوجب أن تقسم كسائر الثنائم . وقد قسم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أفتح عَنوة من خَيْر . قالوا : ولو جاز أن يدعى المخلص
في الأرض جاز أن يدعى في غير الأرض فيطُل حكم الآية . وأما آية «الحشر» فلا حجة فيها ؛
لأن ذلك إنما هو في الشيء لا في النعمة . وقوله «والذين جاءوا من بعدهم» استئناف كلام
بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير ذلك . قالوا : وليس يخلو فعل عمر في توقيفه الأرض
من أحد وجهين : إما أن تكون غيبة استطالب أنفس أهلها ؛ وطابت بذلك فوقها .
وبكنا روى جرير أن عمر استطالب أنفس أهلها . وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في سبي هوازن ، لما أتوه استطالب أنفس أصحابه عما كان في أيديهم . وإما أن يكون
ما وقفه عمر قتيلاً فلم ينتج إلى مُرضاة أحد . وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام في قسها
أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها ، وتضير ملكا لم كأرض الصلح . قال شيخنا أبو العباس
رضي الله عنه : وكان هذا جمع بين الدليلين ووسط بين المنهيين ، وهو الذي فهمه عمر رضي
الله عنه قطعا ؛ ولذلك قال : لولا آخر الناس ؛ فلم يضر ينسخ فعل النبي صلى الله عليه وسلم
ولا يقتضيه بهم ؛ غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر ، فإن عمر إنما وقفها على مصالح
المسلمين ولم يملكها لأهل الصلح ، وهم الذين قالوا للإمام أن يملكها لأهل الصلح .

الرابعة - ذهب مالك وأبو حنيفة والثوري إلى أن السلب ليس للقاتل ، وإن حكمه
حكم النعمة . إلا أن يقول الأمير : من قتل قتيلاً فله سلبه ؛ فيكون حينئذ له . وقال الليث
والأوزاعي والثاقفي وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبري وابن المنذر : السلب للقاتل على
كل حال ؛ قاله الإمام أولم يقله . إلا أن الثاقفي رضي الله عنه قال : إنما يكون السلب
للقاتل إذا قتل قتيلاً مقبلاً عليه ، وأما إذا قتل مدبراً عنه فلا . قال أبو العباس بن سريج
من أصحاب الثاقفي : ليس الحديث «من قتل قتيلاً فله سلبه» على عمومها ؛ لإجماع العلماء
على أن من قتل أسيراً أو امرأة أو شيخاً أنه ليس له سلبٌ واحد منهم . وكذلك من دُفِنَ ^(٢)
جرحاً ، ومن قتل من قُطعت يده ورجلاه . قال : وكذلك المنهزم لا يمنع في آتئزاه ؛ وهو

(٢) تنفيف الجرح : الإجهاد عليه .

(١) آية ١٠

كالمكتوف . قال : فُعلِمَ بذلك أن الحديث إنما جعل السلب لمن لُقِيتَه متى زائد ، أو لمن في نفسه فضيلة ، وهو القاتل في الإقبال ، لما في ذلك من المنة . وأما من أُخِضَ فلا . وقال الطبري : السلب للقاتل ، مقبلا قتله أو مندبرا ، هاربا أو مبارزا إذا كان في المعركة . وهذا يرده ما ذكره عبد الرزاق ومحمد بن بكر عن ابن جريج قال سمعت نافعا مولى ابن عمر يقول : لم تزل نسمع إذا التقى المسلمون والكفار قتل رجل من المسلمين رجلا من الكفار فان سلبه له ، إلا أن يكون في جمعة القتال ؛ لأنه حينئذ لا يُدرى من قتل قتلا . فظاهر هذا يرد قول الطبري لاشتراطه في السلب القتل في المعركة خاصة . وقال أبو جؤز وابن المنذر : السلب للقاتل في معركة كان أو غير معركة ، في الإقبال والإدبار والمنزوب والانتهاز على كل الوجوه ؛ لعدم قوله صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتلا فله سلبه " .

قلت : روى مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن ، فبينا نحن نتصيح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على جمل أحمرا فأبانه ، ثم اتبع طلقا من حقه فقيده به الجمل ، ثم تقدم يتنقى مع القوم وجعل ينظرو ، وفيما مضى ريقا في الظهر ، وبضيا مشاة ، إذ نرجح يشتد ، فأتى جملة فأطلق قيده ثم أتاه وقعد عليه فأثارة فأشتد به الجمل ، فأتبعه رجل على ناقه وراق . قال سلمة : ونرجح أشتد فكنت عند ذلك الناقه ، ثم تقدمت حتى كنت عند ذلك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فالتفت ، فلما وضع ركبته في الأرض أخطرت سيفي فضربت رأس الرجل قتلا ، ثم جئت بالجمل أفرده ، عليه رحله وسلاحه ، فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقال : " من قتل الرجل ؟ " قالوا : آبن الأكوع . قال : " لله سلبه أجمع " . فهذا سلمة قتله هاربا غير مقبل ، وأعطاه سلبه . وفيه حجة لما لك من أن السلب لا يستحقه القاتل

(١) أي أقبل بالجرح . (٢) أي يتنقى . (٣) الطلق (بالفتح) : قيد من جلود .

والحقب : الجمل المشدود على حمار الجبر أو من حقيقه ، وهي الزيادة التي يجمل في مؤخر القتب ، والرواء التي يجمل الرجل فيه زاده (عن ابن الأثير) . (٤) أي حالة ضعف وهزال في الأبل . (٥) أي نرجح صريحا .

(٦) الأورق من الأبل : التي في قوتها يماض إلى سواد . (٧) ندر : سقط .

إلا بإذن الإمام، إذ لو كانت واجبا له بنفس القتل لما احتاج الى تكرير هذا القول .
 ومن سمجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو الأحوص عن الأسود بن قيس
 عن بشر بن طفعة قال : بارزت رجلا يوم القادسية قتلته وأخذت سلبه، فأتيت سعدا
 فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن طفعة، فهو خير من أثنى عشر ألف درهم،
 وأنا قد قتلناه إياه. فلو كان السلب للقاتل قضاء من النبي صلى الله عليه وسلم ما احتاج الأمر
 أن يضيفوا ذلك إلى أنفسهم باجتهادهم، ولأخذ القاتل دون أمرهم. والله أعلم. وفي الصحيح
 أن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ضربا أبا جهول بسيفيهما حتى قتلاه،
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أيكما قتله؟" فقال كل واحد منهما : أنا قتلته .
 فنظر في السيفين فقال : "كلاكما قتله" وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وهذا نص
 على أن السلب ليس للقاتل، إذ لو كان له لقسمه النبي صلى الله عليه وسلم بينهما. وفي الصحيح
 أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة،
 وراقني مديني من اليمن . وساق الحديث، وفيه : فقال عوف : يا خالد، أما علمت
 أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل؟ قال : بلى، ولكنني استكثرته .
 وأخرجه أبو بكر البرقاني بإسناده الذي أخرجه به مسلم، وزاد فيه يسأنا أن عوف بن مالك
 قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنح السلب، وإن مدينا كان رليفا لهم
 في غزوة مؤتة في طرف من الشام، قال : لعل رؤوسهم يشتد على المسلمين وهو على فرس
 أشقر وسرج مذهب ومنطقة ملطخة وسيف مقل يذهب . قال : فيثري بهم، قال : فتلطف به
 المديني حتى مر به فضرب مرقوب فرسه فوقه، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه .
 قال : فأعطاه خالد بن الوليد وحسن منه، قال عوف : فقلت له أبعله كله، أليس قد
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "السلب للقاتل" ! قال : بلى، ولكنني
 استكثرته . قال عوف : وكأنت بيني وبينه كلام، فقلت له : لأخبرن رسول الله صلى الله

(١) أي رجل من الله الذين جاءوا يبدون جيش مؤتة ويصاعدهم .

عليه وسلم . قال عوف : فلما اجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عوف ذلك
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لخالد : " ألم لم تعطه " ؟ قال فقال : استكثرته . قال :
 " فادفعه إليه " فقلت له : ألم أنجز لك ما وعدتك ؟ قال : فغضب رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وقال : " يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تتركون في أمرائي " . فهذا يدل دلالة
 واضحة على أن السلب لا يستحقه القتال بنفس القتل بل يرى الإمام ونظره . وقال أحد
 ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا في الميادرة خاصة .

الخامسة - اختلف العلماء في تحميس السلب ، فقال الشافعي : لا يحسم . وقال
 إصحاق : إن كان السلب يسيرا فهو للقاتل ، وإن كان كثيرا تحسم . وقوله عمر بن الخطاب
 مع البراء بن مالك حين بارز المرزبان فقتله ، فكانت قيمة منقطته وسواره ثلاثين ألفا فحسم
 ذلك . أئس عن البراء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل إلا رجلا نبادة ، وأنهم
 لما حَزَرُوا الزارة خرج جعفان الزارة فقال : رجل ورجل ، فبرز البراء فاختلفا بسيفيهما ثم
 احتفا ، فتوزعه البراء فقع على كبده ، ثم أخذ السيف فذبحه ، وأخذ سلاسه ومنقطته وأتى به
 عمر ، فقطعه السلاح وقوم المنطقة بثلاثين ألفا فحسمها ، وقال : إنها مال . وقال الأوزاعي
 ومكحول : السلب مضم وفيه الخمس . وروى نحوه عن عمر بن الخطاب . والجهة للشافعي
 ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قضى في السلب للقاتل ولم يحسم السلب .

السادسة - ذهب جمهور العلماء إلى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيعة على
 قتله . قال أكثرهم : ويجزئ شاهد واحد ، على حديث أبي قتادة . وقيل : شاهدان أو شاهد
 وبين . وقال الأوزاعي : يُعطاه بمجرد دعواه ، وليست البيعة شرطا في الاستحقاق ، بل إن
 أغنى ذلك فهو الأولى دفعا للنازعة . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أبا قتادة
 سلب مقتوله من غير شهادة ولا بين . ولا تخفى شهادة واحد ، ولا يُنابها حكم بمجرد ما
 وبه قال الليث بن سعد .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذرى الشافعى أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن زرعى ومحمد بن أنيس . وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويترد الحنك . وأما المالكية فيحتج على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بيعة ؛ لأنه من الإمام ابتداء عطية ، فإن شرط الشهادة كان له ، وإن لم يشترط جاز أن يعطيه من غير شهادة .

الباسطة - واختلفوا في السلب ما هو ؛ فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من السلب . وقرئ إن قاتل عليه وصريح عنه . وقال أحمد في الفرس : ليس من السلب . وكذلك إن كان في هياته وفي منطلقة ذنابه أو جواهر أو نحو هذا ، فلا خلاف أنه ليس من السلب . واختلفوا فيما بين به للحرب ؛ فقال الأوزاعى : ذلك كله من السلب . وقالت فرقة : ليس من السلب . وهذا مروى عن محبوب رحمه الله ؛ إلا المنطقة فإنها عنده من السلب . وقال ابن حبيب في الواضحة : والسواران من السلب .

الثامنة - قوله تعالى : (فَأَنْفُسُهُمْ) قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله من وجب في أول السورة « قُلِ الْأَنْفُسُ لِلَّهِ وَالرُّسُولُ » ولم ينسخ رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر ، فنسخ حكمه في ترك الخمس بهذا . إلا أنه يظهر من قول علي رضي الله عنه في صحيح مسلم « كان لي شارف^(١) من نصبي من المنعم يوم بدر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارباً من الخمس يومئذ » الحديث - أنه خمس ؛ فإن كان هذا فقول ابن عبيد مردود . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكره علي من إحدى الفزوات التي كانت بين بدر وأحد ؛ فقد كانت غزوة بني سليم وغزوة بني المصطلق وغزوة ذي أَمَر وغزوة بجران ، ولم يُحفظ فيها قتال ، ولكن يمكن أن غنمت غنائم . والله أعلم

قلت : وهذا التأويل يرده قول علي يومئذ ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع في بدر تخمس ، من خمس مريّة عبد الله بن

(١) الهيدان : الذي يحمل فيه اللقطة . وشداد السراويل . (٢) الشارف : النافذ المسع .

يَحْتَسِبُ، فإنها أول غنيمة غُنِمَتْ في الإسلام، وأول خمس كان في الإسلام؛ ثم نزل القرآن « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله نحسه » . وهذا أول من التأويل الأول . والله أعلم .

التاسعة — « ما » في قوله « ما غنمتم » بمعنى الذي ، والحساء محذوفة ؛ أى الذى غنمتموه . ودخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة . و « أن » الثانية تؤكد للأول ، ويجوز كسرهما ، وروى عن أبي عمرو . قال الحسن : هذا مفتاح كلام^(١) ، لله الدنيا والآخرة ؛ ذكره النسائي . واستفتح جل وعز الكلام في التى والخمس بذكر نفسه ؛ لأنهما أشرف الكسب ، ولم ينسب الصدقة إليه لأنها أوساخ الناس .

العاشرة — واختلف العلماء في كيفية قسّم الخمس على أقوال ستة :

الأول — قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ؛ فيجعل السدس للكمية ، وهو الذى لله . والثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والثالث لذوى القربى . والرابع لليتامى . والخامس للساكنين . والسادس لأبن السبيل . وقال بعض أصحاب هذا القول : يرد السهم الذى لله على ذوى الحاجة .

الثاني — قال أبو العالية والزيغ : تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، وتقسم الأربعة على الناس ، ثم يضرب بيده في السهم الذى عزله فأقبض عليه من شيء جعله للكمية ، ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة ، سهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وسهم لذوى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للساكنين ، وسهم لأبن السبيل .

الثالث — قال المنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمد بن علقم عن الحسن بن علي بن الحسين عن الخمس فقال : هو لنا . قلت لعل : إن الله تعالى يقول : « واليتامى والمساكين وابن السبيل » فقال : إيتامنا ومساكيننا .

الرابع — قال الشافعى : يقسم على خمسة . ورأى أن سهم الله ورسوله واحد ، وأنه يصرف في مصالح المؤمنين ، والأربعة الأئمة على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية .

(١) أى قوله تعالى : « فإن لله نحسه » راجع الحديث في خطاب قسم التى في سنن النسائي .

الخامس - قال أبو حنيفة : يقسم على ثلاثة : اليتامى والمساكين وأبن السبيل .
وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ؛ كما ارتفع حكم سهمه . قالوا :
ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة والجنود . وروى نحو
هذا عن الشافعي أيضا .

السادس - قال مالك : هو موكول الى نظر الإمام واجتهاده ؛ فيأخذ منه من غير
تقدير ، ويعطى منه القرابة باجتهاد ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين . وبه قال الخلفاء
الأربعة ، وبه عملوا . وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : "مالي مما آفاه الله عليكم إلا الخمس
والخمس مردود عليكم" . فإنه لم يقسمه انماسا ولا أهلا ، وإنما ذكر في الآية من ذكر
على وجه التنبيه عليهم ، لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج عتجا لمالك : قال الله
عن وجل : **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالْيَوْمِئَاتِ وَ لِلْيَتَامَى**
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ^(١) . وللرجل جائز بلاجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك .
وذكر الشافعي عن عطاء قال : نحس الله ونحس رسوله واحد ، كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يحمل منه ويعطى منه ويضمه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة - قوله تعالى : **(وَلِلَّذِي الْقُرْبَى)** ليست اللام لبيان الاستحقاق والمالك ،
وإنما هي لبيان المصير والمحل . والدليل عليه ما رواه مسلم أن الفضل بن عباس وريمة
ابن عبد المطلب أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فتكلم أحدهما فقال : يا رسول الله ، أنت أبر
الناس ، وأوصل الناس ، وقد بلغنا النكاح بلغنا لتؤمرا من كل بعض هذه الصدقات ، فتؤدى
إليك كما يؤدى الناس ، ونصيب كما يصيبون . فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه ، قال :
وجعلت زينب تلبيح ^(٢) إلينا من وراء الحجاب ألا نكلمه ، قال : ثم قال : "إن الصدقة لا تحمل
لأن عبد إنما هي أوساخ الناس أدعوا لي بحمية ^(٣) - وكان على الخمس - وتوفى بن الحارث بن

(١) آية ٢١٥ سورة البقرة . (٢) يقال : ألمع ولمع ، إذا أثار به أو بهد .

(٣) هو بحمة بن جند ، وجعل من بني أسد .

عبد المطلب قال : بلغاه فقال حمزة : " أنكح هذا الغلام أبنتك " — للفضل بن عباس —
فأنكحه . وقال لنوفل بن الحارث : " أنكح هذا الغلام أبنتك " بنت ربيعة بن عبد المطلب .
وقال حمزة : " أصدقتهما من الخس كذا وكذا " . وقال صلى الله عليه وسلم : " مالى مما
أفاه الله عليكم إلا الخمس والخيبر مردود عليكم " . وقد أعطى جميعه وبضه ، وأعطى منه
المؤلفة قلوبهم ، وليس ممن ذكرهم الله في التفسير ، فدل على ما ذكرناه ، والموفق الإله .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في ذوى القربى على ثلاثة أقوال : فريش كلها ، قاله
بعض السلف ، لأن النبی صلى الله عليه وسلم لما صعد الصفا جعل ينف : " يا بنى فلان
يا بنى عبد مناف يا بنى عبد المطلب يا بنى كعب يا بنى مرة يا بنى عبد شمس أتخذوا أنفسكم من
النار " الحديث ، وسأى في « الشعراء » . وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة
وابن جريج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، لأن النبی صلى الله عليه وسلم
لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب قال : " إنهم لم يشارقوني
في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد " وشبك بين أصابعه ، أخرجه
اللساني والبخاري . قال البخاري : قال الليث حدثني يونس ، وزاد : ولم يقسم النبي
صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل شيئا . قال ابن احمق : وعبد شمس وهاشم
والمطلب إخوة لأُم ، وأنهم هاتكة بنت مرة ، وكان نوفل أخاهم لأبيهم . قال اللساني ،
وأسمه النبي صلى الله عليه وسلم لذوى القربى ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، يؤتم الفتي
والفقير . وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الفتي ، كإلياس وابن السليل . وهو أشبه القولين
بالصواب عندى . والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء ، لأن الله تعالى جعل
ذلك لهم ، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم . وليس في الحديث أنه فضل بعضهم
على بعض .

الثالث — بنو هاشم خاصة ، قاله مجاهد وعلي بن الحسين . وهو قول مالك والنوري
والأوزاعي وغيرهم .

(١) في قوله تعالى : « وأئذ مشركوا أكثرين » آية ٢١٤ .

الثالثة عشرة - لما بين الله عز وجل حكم الجنس وسكت عن الأربعة الأسماس ، دلّ ذلك على أنها ملك للثانين . وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " وأيما قرية عصت الله ورسوله فإن نحساب الله ورسوله ثم هن لكم " . وهذا مالا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة ؛ على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه) وغيره . بيد أن الإمام إن رأى أن يمتحن على الأسارى بالإطلاق فعل ، وبطلت حقوق الثانين فيهم ؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بنجامة بن أثال وغيره ، وقال : " لو كان المظلم بن عبد حيا لم كلفني في هؤلاء الثنني^(١) - يعني أسارى بنز - لتركتهم له " أخرجه البخاري . مكافأة له لقيامه في شأن [قض] الصحيفة . وله أن يقتل جميعهم ؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط من بين الأسرى صبرا ، وكذلك النضر بن الحارث قبله بالصفره صبرا ؛ وهذا مالا خلاف فيه . وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم قسم الثانين ، حضر أو غاب . وسهم الصنني ، يصطفي سيفا أو سهما أو خلافا أو دابة . وكانت صنيّة بنت حني من الصنني من غنائم خيبر . وكذلك ذو الفقار كان من الصنني . وقد اتقطع بموته ؛ إلا عند أبي ثور فإنه رآه باقيا للإمام يجعله يجعل سهم النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت الحكمة في ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربح الغنيمة . قال شاعرهم :

لك المربع منها والصفايا ذ ومكك والشيطة والفضول^(٢)

وقال آخرهم :

منا الذي ربح الجيوش ، لمصليه * عشرون ، وهو يصد في الأحياء

(١) الثنني : جمع ثن ، كثرن وزن . (٢) أي الصحيفة التي كتبها قريش في الأياها الماشية ولا الحلية ولا يتاكرهم . وهو سلم بن مدي بن قنقل بن عبد مناف ؛ مات كافرا في مفرق وقعة بدر وهو سبعة أشهر . (عن شرح السطواني) . (٣) صبر الإنسان وغيره على القتل ؛ حبه ورماء حتى يموت . (٤) ذو الفقار : اسم سيف النبي عليه السلام ، وسمي به لأنه كانت فيه حفر صغار سنان في ويقال للمفرقة بقرعة . (٥) البيت لعبد الله بن عنة الضبي ، يتألم بسفام بن تيس . والتشيلة : ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى مجتمع الحى . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الزائرة كالخير والقوس ونحوهما . (عن اللسان) .

يقال : ربع الجليش أربعة رَباعَة إذا أخذ ربع الغنينة . قال الإسماعيلي : ربع في الجاهلية ونحوه في الإسلام ؛ فكان يأخذ بنير شرع ولا دين الربيع من الغنينة ، ويصطلي منها ، ثم يتحكم بحدّ الدينّي في أي شيء أراد ، وكان ماخذ منها وما فضل من حرثي وناج له . فاحكم الله سبحانه الدين بقوله : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله ثمنه » . وأبقى بينهم الصبيّ لنيه صلى الله عليه وسلم وأسقط حكم الجاهلية . وقال عاصم الشّعبيّ : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم يدعى الصبيّ إن شاء عبدا أو أمة أو فوسا يختاره قبل الخمس ؛ أخرجه أبو داود . وفي حديث أبي هريرة قال : فيلق العبد فيقول : « أي قل ألم أكرمك وأسودك وأزوّجك وأستخرّك الخليل والإيل وأذكرك ترأس وترّبع » الحديث . أخرجه مسلم . « تربيع » بالباء الموحدة من تحتها : تأخذ المرباع ، أي الربيع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب . وقد ذهب بعض أصحاب الشافعيّ رضي الله عنه إلى أن خمس الخمس كان للنبّي صلى الله عليه وسلم يصرفه في كفاية أولاده ونسائه ، ويدثر من ذلك قوت سته ، ويصرف الباقى في الكراع والسلاح . وهذا يرّده ما رواه عمر قال : كانت أموال بني النضير مما آفاه الله على رسوله مما لم يوجب عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبّي صلى الله عليه وسلم خاصّة ، فكان ينفق على نفسه منها قوت سنة ، وما بقي جمعه في الكراع والسلاح عتة في سبيل الله . أخرجه مسلم . وقال : « والخمس مردود عليكم » .

الرابعة عشرة — ليس في كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة أحماس لهم ولم يخص راجلا من فارس . ولولا الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والعبد كالحرّ ، والصبيّ كالبالغ . وقد اختلف العلماء في قسمة الأربعة الأحماس ؛ فالذي عليه عامة أهل

(١) المرقى (بالضم) : أثاث البيت أو أرباع الخاض والغنائم . (٢) الحديث أوردته سلم في كتاب الزهد . قال البرقي : يضم الفاء . ويكون اللام ؛ ومنها يا فلان ، وهو ترجم على خلاف القياس . وقيل هي لغة بمعنى فلان وقال صاحب المرقاة : يكون اللام وتفتح وتضم . (٣) الكراع (بالضم) : الخيل . (٤) الذي في صحيح مسلم : « ... فكان ينفق على أهله قنقة سنة ... » الخ .

العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسَمُّونَ للفارس سُهْمَانُ، وللراجل مِهْم . ومن قال ذلك مالك ابن أنس ومن تبعه من أهل المدينة . وكذلك قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام . وكذلك قال الثوري ومن وافقه من أهل العراق . وهو قول الليث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر . وكذلك قال الشافعي رضي الله عنه وأصحابه . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : ولا نعلم أحدا خالف ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنن وما عليه جُلُّ أهل العلم في القديم والحديث . قال : لا يُسَمُّونَ للفارس إلا مِهْم واحد .

قلت : ولعله شُبِّهَ عليه بحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سُهْمَيْنِ ، وللراجل مِهْمَا . ترجمه التارخطني وقال : قال الرمادي كذا يقول ابن غير قال لنا النيسابوري : هذا عندي وهم من ابن أبي شيبة أو من الزمادى ؛ لأنَّ أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشر وغيرهما رَوَوْه عن ابن عمر بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم ، سُهْمَا له وسُهْمَيْنِ لفرسه ؛ هكذا رواه عبد الرحمن ابن بشر عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ؛ وذكر الحديث . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سُهْمَيْنِ ولصاحبه مِهْمَا . وهذا نص . وقد روى التارخطني عن الزبير قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم يوم بدر ، سُهْمَيْنِ لفرسي وسُهْمَا لأخي من ذوى القرابة . وفي رواية : وسُهْمَا لأخيه مِهْمَ ذوى القرى . وخرج عن بشير بن عمرو بن محسن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسي أربعة أسهم ، ولِي سُهْمَا ؛ فأخذت خمسة أسهم . وقيل : إن ذلك راجع إلى اجتihad الإمام ، فينقذ ما رأى . والله أعلم .

الخامسة عشرة - لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : يُسَمُّونَ لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر فناء وأعظم منفعة ؛

(١) الذي في نسخة التارخطني : « عن ابن غير » .

ربه قال ابن الجهم من أصحابنا ، ورواه يَحْنُون عن ابن وهب . ودليلنا أنه لم ترد رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن يُسهم لأكثر من فرس واحد ، وكذلك الأئمة بعده ، ولأن مدق لا يمكن أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة مُدَّة ، وذلك لا يؤثر في زيادة السهمان ، كاللذى معه زيادة سيوف أو رماح ، واعتبارا بالثالث والرابع . وقد روى عن سليمان بن موسى أنه يُسهم لمن كان عنده أفراس ، لكل فرس سهم .

السادسة عشرة — لا يسهم إلا للعاق من الخيل ، لما فيها من الكثرة والفقر ، وما كان من البراذين والمهجن ينابت في ذلك . وما لم يكن كذلك لم يسهم له . وقيل : إن أجار الإمام أسهم لها ، لأن الانتفاع بها يختلف بحسب الموضع . فالمهجن والبراذين تصلح للواضع المتوعدة كالشعاب والجبال ، والعاق تصلح للواضع التي يتأق فيها الكروالفرز ، فكان ذلك متعلقا برأى الإمام . والعاق : خيل العرب ، والمهجن والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة — واختلف ملأؤنا في الفرس الضعيف ؛ فقال أشهب وابن نافع : لا يسهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليه فأشبهه الكبير . وقيل : يسهم له لأنه يرجى برؤه . ولا يسهم للأعرج إذا كان في حذر مالا يُنفع به ، كما لا يسهم الكبير . فأما المريض مرضا خفيفا مثل الزهيق ، وما يجري مجراه مما لا يمنعه المرض عن حصول المنفعة المقصودة منه ^(١) فإنه ينهم له . ويعطى الفرس المستأجر ، وكذلك المنصوب ، وصهمه لصاحبه . ويستحق السهم قليل وإن كانت في السفن ووقت النعمة في البحر ؛ لأنها معدة للتزول إلى السبر .

الثامنة عشرة — لاحق في النكاح ^(٢) كالأجراء والصناع الذين يصنعون الجيش للماش ؛ لأنهم لم يقصدوا قتالا ولا خرجوا مجاهدين . وقيل : يسهم لهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " النعمة لمن شهد الواقعة " . أخرجه البخاري . وهذا لا حجة فيه لأنه جاء بيانا

(١) الرهس : الذي أمانيه الرمة ، وهي رمة تصيب باطن حافر الفرس .

(٢) المحسوة (ضم الحاء وكسر الهاء) : ذئابة الناس .

لمن باشر الحرب ونخرج إليه ، وكفى بيان الله عز وجل المغايبين وأهل الماشي من المسلمين حيث جعلهم فرقتين مميّزتين ، لكل واحدة حالها في حكمها ، قال : « عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَى وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ قَضِيلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) » . إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرهم كونهم على معاشهم ؛ لأن سبب الاستعفاف قد وُجد منهم . وقال أشهب : لا يستحق أحد منهم وإن قاتل ، وبه قال ابن القصار في الأجير : لا يسهم له وإن قاتل . وهذا رده حديث سامة بن الأكوع قال : « كنت تبعا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه وأحسبه ^(٢) وأخدمه وأكل من طعامه ، الحديث . وفيه : ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين ، سهم الفارس وسهم الزاجل ، فجعلهما لي . نخرجه مسلم . واحتج ابن القصار ومن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بن عوف ، ذكره عبد الزاق ؛ وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : « هذه الثلاثة الدنانير حفظه ونصيبه من غزوته في أمر دينه وآخرته » .

التاسعة عشرة — فأما العبيد والنساء فذهب الكتاب أنه لا يسهم لهم ولا يرضخ ^(٣) . وقيل يرضخ لهم ؛ وبه قال جمهور العلماء : وقال الأوزاعي : إن قاتلت المرأة أسهم لها . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خيبر . قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا . وإلى هذا القول مال ابن حبيب من أصحابنا . نخرج مسلم عن ابن عباس أنه كان في كتابه إلى نجدة ^(٤) : تسألني هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء ؟ وقد كانت يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذين من الفتيمة ^(٥) ، وأما يسهم فلم يضرب لمن . وأما الصبيان فإن كان مطبقا للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونفيه حتى يبلغ ؛ لحديث ابن عمر ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي . والتفرقة بين أن يقاتل فيسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له . والصحيح

(١) أكثر سورة المزمل .

(٢) أحس : أذبل التراب عنه بالهبة .

(٣) الرضخ : السقاء ليس بالكثير . (٤) هو نجدة بن عامر الحنفي ؛ كان من رؤساء الخوارج .

(٥) يحذين : يطين الحفدة (بكسر الحاء وضمة) وهي الطية .

الأول؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أن يقتل منهم من أنبت ويئلى منهم من لم ينبت . وهذه مراعاة لإطاعة القتال لا للبلوغ . وقد روى أبو عمر في الاستيعاب عن تميم بن جندب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمرض عليه الغلمان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم ؛ فمرضت عليه عاماً فالحق غلاماً وردني ، فقلت : يا رسول الله ، ألحقته ورددني ، ولو صارني صرعته . قال : فصارني فمرضته فالحقني . وأما العيد فلا يسهم لهم أيضاً ويرضخ لهم .

الموقية عشرين — الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل قتي الإسماء له عندنا ثلاثة أقوال : الإسماء ونفيه ؛ وبه قال مالك وأبو القاسم ، زاد أبو حبيب ؛ ولا نصيب لهم . ويقرب في الثالث — وهو مستحسن — بين أن يستقل المسلمون بأنفسهم فلا يسهم له ، أو لا يستقلوا ويفتقروا إلى معونته فيسهم له . فإن لم يقاتل فلا يستحق شيئاً . وكذلك العيد مع الأحرار . وقال الثوري والأوزاعي : إذا أسلمت بأهل الذمة أسهم لهم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يسهم لهم ، ولكن يرضخ لهم . وقال الشافعي رضي الله عنه : يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه . فإن لم يفعل أعطاهم سهم النبي صلى الله عليه وسلم . وقال في موضع آخر : يرضخ للشركين إذا قاتلوا مع المسلمين . قال أبو عمر : اتفق الجميع أن العبد ، وهو ممن يجوز أمانيه ، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ ؛ فالكافر بذلك أولى ألا يسهم له .

الحادية والعشرون — لو نخرج العبد وأهل الذمة لصوماً وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا ينجس ؛ لأنه لم يدخل في عسوم قوله عز وجل : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » أحد منهم ولا من النساء . فاما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف . وقال سحنون . لا ينجس ما ينوب العبد . وقال أبو القاسم : ينجس ؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيده في القتال ويقاتل على الدين ؛ بخلاف الكافر . وقال أشهب في كتاب مجد : إذا نزع العبد والذمي من الجيش وغنمًا فالغنيمة للجيش دونهم .

الثانية والعشرون - سبب استحقاق المهمل شهود الوقعة لنصر المسلمين ، هل ما تقدم ، فلو شهد آخر الوقعة استحق ، ولو حضر بعد انقضاء القتال فلا ، ولو غاب بانتهزام فذلك ، فان كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه . روى البخاري وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد بن مسيرة من المدينة قبل مجيء قتادة بن نضلة ، فقال أبان : أقم لنا يا رسول الله . قال أبو هريرة : لا أقم لهم يا رسول الله . فقال أبان : أنت يها يا وبرا تحذر علينا من رأس ضال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجلس يا أبان » ولم يقم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة والعشرون - واختلف العلماء فيمن نرجح لشهود الوقعة فمنه المصدر منه كبرض ، ففى ثبوت الإسهام له وفيه ثلاثة أقوال : يفرق في الثالث ، وهو المشهور ، فيلته إن كان الضلال قبل القتال وبعد الإدراة ، وهو الأصح ، قاله ابن العربي . وفيه إن كان فيه . ولكن بعثه الأمير من الجيش في أمر من مصلحة الجيش فشغله ذلك من شهود الوقعة فانه يسهم له ؛ قاله ابن المَوَاز ، ورواه ابن وهب وابن فافع عن مالك . وروى لا يسهم له بل يُرَضَّع له لعدم السبب الذي يستحق به السهم ، والله أعلم . وقال أشهب : يُسهم للأسير وإن كان في الحديد ، والصحيح أنه لا يُسهم له ؛ لأنه ملك مستحق بالقتال ؛ فمن غاب أو حضر مريضاً كمن لم يحضر .

الرابعة والعشرون - الغائب المطلق لا يُسهم له ، ولم يُسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قط إلا يوم تبوك ، فانه أسهم لأهل الحديبية من حضر منهم ومن غاب ؛ نقول الله عز وجل : « وَعدكم الله مفاتم كثيرة تأخذونها » ^(١) قاله موسى بن جعبة . وروى ذلك عن جماعة من السلف . وقسم يوم بدر لثمان ولسميد بن زيد وطليحة ، وكانوا غائبين ؛ فهم كمن

(١) البور : دوية على قدر السور غراء أو يشاء حسنة العينين شديدة الحياء . والغالب : شجر الصدر من شجر الشوك ، (٢) أدب القوم : إذا دخلوا أرض العدو . (٣) آية ٢٠ سورة القح .

حضرها إن شاء الله تعالى . فاما عثمان فإنه تخلف على رقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها . فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فكان كمن شهدا . وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام في تجارة فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فيمّد ذلك في أهل بدر . وأما سعيد بن زيد فكان غائبا بالشام أيضا فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره . فهو معدود في البدرين . قال ابن العربي : أما أهل الحديبية فكان ميلادنا من الله أخص به أولئك نفر فلا يشاركهم فيه غيرهم . وأما عثمان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس ؛ لأن الأمة جمعة على أن من بقى لمدر فلا يُسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك غصوص عثمان وطلحة وسعيد فلا يقاس عليهم غيرهم . وإن سهمهم كان من صلب النعمة كسائر من حضرها لا من الخمس . هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم . وقد روى البخاري عن ابن عمر قال : لما تنبى عثمان عن بدر فانه كان يحتمه أبنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : **« إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه »** .

الخامسة والمشرون - قوله تعالى : **﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾** قال الزجاج عن فرقة : المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ؛ **« إِنْ »** متعلقة بهذا الوعد . وقالت فرقة : **« إِنْ »** متعلقة بقوله **« وأعلموا أنما غنمتم »** . قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله **« وأعلموا »** يتضمن الأمر بالآقياد والتسليم لأمر الله في الفناء ؛ فعلق **« إِنْ »** بقوله **« وأعلموا »** على هذا المعنى ؛ أي إن كنتم مؤمنين بالله فاقفادوا واصلوا الأمر الله فبأعلمكم به من حال قسمة النعمة .

قوله تعالى : **﴿ وَمَا أَزَلْنَا عَنْ عِبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾** **« ما »** في موضع خفض عطف على أمم الله . **﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾** أي اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر . **يَوْمَ اتَّقَى الْيَحْمَانِ** حارب الله وحرب الشيطان . **﴿ والله على كل شيء قدير ﴾** .

قوله تسال : إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَةِ وَلَكِنَّ لَيْقِظِي اللَّهَ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تسال : (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) أى انزلنا إذ أنتم على هذه الصفة . أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم . والعُدوة : جانب الوادى . وقرئ بضم العين وكسرها ؛ فعل الضم يكون الجمع عُدَى ، وعلى الكسر عَدَى ، مثل لحية ولى ، وفريفة وفري . والدنيا : تأييد الأدنى . والقصوى : تأييد الأقصى . من دنا بدنو ، وقصا يعضو . ويقال : الفصيا ، والأصل الوار ، وهى لغة أهل الحجاز قصوى . فالدنيا كانت مما على المدينة ، والقصوى مما على مكة . أى إذ أنتم نزول بشفير الوادى بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوكم بالجانب الأقصى . (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) يبنى ركب أبى سفيان وغيره . كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة . وقيل : هى الإبل التى كانت تحمل أمتعتهم ، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم ، فذكرهم نعمه عليهم . « الركب » ابتداء « أسفل منكم » ظرف في موضع الخبر ، أى مكانا أسفل منكم . وأجاز الأخفش واليكساوى والفراء « والركب أسفل منكم » أى أشد تسفلا منكم . والركب جمع راكب . ولا تقول العرب : ركب إلا للجماعة الراكي الإبل . وحكى ابن السكيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال : راكب وركب إلا للذى على الإبل ، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب . والركب والأرغب والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال ؛ عن ابن فارس . (وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَةِ) أى لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وتلكم ، فانكم لو عرفتكم كثرتهم ثائرتهم . فوفق الله عز وجل لكم . (لَيْقِظِي اللَّهَ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) من نصر المؤمنين وإظهار الدين . واللام في « ليقظي » متعلقة بمحذوف . والمعنى : جمعهم لينصروا .

ثم (ما فقال : (لَيْبِكَ) أو جمعهم هناك ليفضى أمرا . (لَيْبِكَ مِنْ هَلَكَ) « من »
و . وضع رفع . « ويحيا » في موضع نصب عطف على ليهلك . واليئة إقامة الحجمة والبرهان .
أى يموت من يموت عن بيئة وأما وعبرة عابها ، فقامت عليه الحجمة . وكذلك حياة من يحيا .
وقال ابن اسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره ، ويؤمن من آمن على
ذلك . وقرئ « من حي » بياثين على الأصل . وبسبب واحدة مشددة ، الأولى قراءة أهل
المدينة والبرزى وأبى بكر . والثانية قراءة الباقين ، وهى اختيار أبى عبيد ، لأنها كذلك وقعت
في المصحف .

فوله تعالى : إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَنَكُهُمْ كَثِيرًا
لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْنَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٠﴾
قال مجاهد : رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ؛
فنبههم الله بذلك . وقيل : عني بالنام محل النوم وهو العين ؛ أى في موضع منامك ، فحذف ؛
عن الحسن . قال الزجاج : وهذا مذهب حسن ، ولكن الأولى أسوغ في العربية ؛ لأنه
قد جاء « وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ اتَّقَيْنَهُ فِي الْأَعْيُنِ قَلِيلًا وَيَقْلِقُكَ فِي الْأَعْيُنِ » فدل بهذا على أن
هذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم . ومعنى (لَفَسَلْتُمْ) بلجئتم من الحرب .
(وَلَنَنْزَعْنَهُمْ فِي الْأَمْرِ) اختلفتم . (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) أى سلمكم من المخالفة . أبى عباس :
من الفشل . ويحتمل منها . وقيل : سلم أى أتم أمر المسلمين بالظفر .

فوله تعالى : وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ اتَّقَيْنَهُ فِي الْأَعْيُنِ قَلِيلًا وَيَقْلِقُكَ
فِي الْأَعْيُنِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠١﴾
فوله تعالى : (وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ اتَّقَيْنَهُ فِي الْأَعْيُنِ قَلِيلًا) هنا في اللفظة . ويوزل محل
الأولى على اللفظة أيضا إذا قلت : المنام موضع النوم ، وهو العين ؛ فتكون الأولى على هـ . ذا
خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه للجميع . قال أبى مسعود : قلت لإنسان كان يجاني

يوم بدر : أنزاهم سبعين؟ فقال : هم نحو المائة . فأسرنا رجلا فقلنا : كم كنتم؟ فقال : كنا ألفا . ﴿ وَيَقَالُكُمْ فِي أَنْعِيمٍ ﴾ كان هذا في ابتداء القتال حتى قال أبو جهل في ذلك اليوم : إنهم أكلة جزور، خذوهم أحنأ وأربطوهم بالحبال . فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أنعيم فكثروا، كما قال : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ » حسب ما تقدم في « آل عمران » بيانه . ﴿ لَيَقْنِيَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَعْمُولًا ﴾ تكرر هذا، لأن المعنى في الأول من اللقاء، وفي الثاني من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي مصيرها ومرتدما إليه .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِبْتُمْ فَتَةَ فَأَثْبَتُوا وَأَذْكُرُوا
 اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِبْتُمْ فَتَةً ﴾ أي جماعة ﴿ فَأَثْبَتُوا ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النبي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء . وهذا تأكيد من الوقوف للعدو والتجالد له .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ للماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال : الأول — أذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يمين على الثبات في الشدائد . الثاني — اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بالستكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت : « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئًا صَبْرًا وَتَبَّتْ أَعْقَابُنَا عَلَى أَلْقَامٍ أَكْفَرِينَ » . وهذه الحالة لا تكون إلا من قوة المعرفة، واتحاد البصيرة، وهي الشبابة المحمودة في الناس . الثالث — اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في إتياعه أنفسكم ومثامتكم لكم .

(١) أي هم قليل، يشبههم لم تاة .
 (٢) راجع ج ٤ ص ٢٥ طبعه أملا أو ثانية .
 (٣) آية ٢٥٠ سورة البقرة .

قلت : والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للبيان . قال محمد بن كعب القرظي : لو رخص لأحد في ترك الذکر لخص لكريأء يقول الله عز وجل : « أَلَا تَكْفُمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَآذَنًا تَرَكُّ رَبِّكَ كَثِيرًا » . ورخص للرجل يكون في الحرب ؛ يقول الله عز وجل : « إِنَّا لَنَقِيتُمْ فِيهِ فِتْنَةً فَاثْبُتُوا وَآذَنُوا كُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » . وقال قتادة : اقترض الله جل وعز ذكره على عباده ، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيف . وحكم هذا الذکر أن يكون خفياً ؛ لأن رفع الصوت في مواطن القتال ردى مكروه إذا كان الذاکر واحداً . نأما إذا كان من الجميع عند الحملة لحسن ؛ لأنه يفت في أعضاء العدو . وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكهون الصوت عند القتال . وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . وقال ابن عباس : يكره التلم عند القتال . قال ابن عطية : وبهذا والله أعلم تيمن المرابطون بطرحه عند القتال على صياتهم به .

قوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَلَا تَنَازَعُوا) هذا استقراء على الوصية لهم ، والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم . (فَتَفْشَلُوا) نصب بالفاء في جواب النهي . ولا يُجيز سيوبه حذف الفاء والجزم . وأجازه الكسائي . وقرأ « فَتَفْشَلُوا » بكسر الشين . وهو غير معروف . (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) أي قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالباً في الأمر . قال الشاعر :

إِذَا هَبَّتْ رِيْحُكَ فَانْتَبَسَهَا • فَإِنْ لَكَ خَافَتِ سَكُونُهَا ^(١٤)

(١) آية ٤١ : سورة العنبر . (٢) اضطربت الأصول في هذه الجملة ؛ فقي بعضها : « ... إذا كان العايد واحداً ... » وفي البعض الآخر : « ... إذا كان العايداً ما ... » . (٣) في الأصول : « استن » . وهو وجوب « تخير ابن عطية . والظاهر أنه يريد أن المرابطين أئروا الترك بطرح التلم عملاً بما ورد عن ابن عباس على الصيانة به . (٤) الفتاة مرفوعة ، واسم « من » هاتما ضمير الشأن . وقوله « لكل خافقة سكون » خبرها . ومن هذه « ... » . يدة : ولا تغفل عن الإحسان فيها • فإلى مدى السكون حتى يكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قط إلا يرفع ثوب^(١) تنضرب في وجوه الكفار .
وسمى قوله عليه السلام : «نُصِرْتُ بالصِّبَا وأهلك ما بالديور» . قال الحكم : « وتنهب
ريحكم » يبنى الصِّبَا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأنته . وقال مجاهد : ونهبت
ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحُد .

قوله تعالى : (وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) أمر بالصبر ، وهو محمود في كل المواطن
وخاصة موطن الحرب ؛ كما قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَثَرْتُمُوهَا »

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَحَرْنَا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَا وَرِشَاءِ
النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧﴾

يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير . نحرنا بالقيان والمنسيات
والممازف ؛ فلما وردوا الجحفة بث خفاف الكنازي - وكان صديقا لأبي جهل - بهدايا
إليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت أمددتك بنفسي مع من
خفت من قومي . فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد ، فوالله ما لنا بالله من طاقة .
وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى ترد
بدرنا فنشرب فيها الخمر ، ونعزف علينا القيان ؛ فإن بدرنا موسم من مواسم العرب ، وسوق
من أسواقهم ، حتى تسمع العرب بخرجنا قهنا أترأبدا . فوودوا بدوا ، وجرى ما جرى من
هلاكهم . والبطر في اللغة : التقوية بنعم الله عز وجل وما أليسه من البافية على المعاصي .
وهو مصدر في موضع الحال . أي خرجوا بطرين مرابدين صادقين . وصددهم إضلال الناس .

(١) الصبا (بالفتح) : الريح الشرقية . والديور : الريح الغربية .

(٢) القيان : جمع قبة ، وهي الآلة منية كانت أرفع منية .

قوله تعالى : وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٨٦﴾

روى أن الشيطان تمثل لم يوثق في صورة سراقفة بن مالك بن جُشم ، وهو من بني بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم ، لأنهم قتلوا رجلا منهم . فلما تمثل لهم قال ما أخبر الله به عنه . وقال الضحاك : جاءهم إليس يوم بدو برأيه وجنوده ، وألقى في قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم . وعن ابن عباس قال : أمد الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام في محبة من الملائكة مجتبه ، وميكائيل في محبة من الملائكة مجتبه . وجاء إليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدنيخ ، والشيطان في صورة سراقفة بن مالك بن جُشم . فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم ، فلما اصطفت القوم قال أبو جهل : اللهم إني أرى بالحق فأنصره . ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : " يارب إنك إن تهلك هذه العصاة فكن تقيدا في الأرض أبدا " . فقال جبريل : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم ، فسا من المشركين من أهد إلا أصاب عينيه ومنخره وفه . فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إليس فلما رآه كانت يده في يد رجل من المشركين اتزع إليس يده ثم ولى مدبرا وشيخة ، فقال له الرجل : يا سراقفة ، ألم تزعم أنك لنا جار ، قال : إني بَرِيءٌ منكم إني أرى ما لا ترون ذكره البيهقي وغيره . وفي موطأ مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله صلى الله

(١) مجبة إليس : هي التي تكون في الجنة والميسرة ، وما يجتبان والقرن مكسورة . وليل : هي الكنية التي

تاخذ إحدى صاحبتى الطريق .

إليه وسلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدر ولا أغنى من يوم عرفه وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " . قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : " أما إنه رأى جبريل^(١) يزع الملائكة " . ومعنى نکص : رجع بلغة سليم ؛ عن مؤرج وغيره . وقال الشاعر :

ليس النكوص على الأدبار مكربة • إن المكارم إقدام على الأسئل^(٢)

وقال آخر :

وما ينفع المستأخرين نكوصهم • ولا ضرر أهل السابقات التقدم

وليس هاهنا قهقري بل هو فرار ؛ كما قال : " إذا سمع الأذان أدبروله ضراط " . (إني أخاف الله) قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذي أنظر إليه . وقيل : كذب إبليس في قوله « إني أخاف الله » ولكن علم أنه لا قوة له . ويجمع جار على أجوار ويجران ، وفي القليل جيمة .

قوله تعالى : إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . والذين في قلوبهم مرض : الشاكون ، وهم دون المنافقين ؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام ، وفيهم بعض ضعف نية . قالوا عند الخروج إلى القتال وعند اللقاء الصقيين : غرَّ هؤلاء دينهم . وقيل هما واحد ؛ وهو أولى . ألا ترى إلى قوله عز وجل : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » ثم قال « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » وهما لواحد .

(١) يزع الملائكة : أي يرثمهم ويؤرمهم ويصفهم الحرب .

(٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسي يكنى أبا نيد ، مات سنة ١٩٥ هـ . (٣) الأسئل : الراح والبدل .

(٤) آية ٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ
 وجوههم وَأَدْبَارَهُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكَ
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي قَوْمًا لِلْعَبِيدِ ﴿٥٦﴾

قيل : أراد من يقي ولم يقتل يوم بدر . وقيل : من فُتِل بيدو . وجواب « لو »
 عذوف ، تقديره : (رأيت أمرا عظيما .) (يَصْرُبُونَ) في موضع الحال . (وَجُوهَهُمْ
 وَأَدْبَارَهُمْ) أي استأثمهم ، كفى هنا بالأدبار؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبير . الحسن :
 ظهورهم ، وقال : إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنى رأيت يظهر
 أبى جهل مثل الشراك ؟ قال : « ذاك ضرب الملائكة » . وقيل : هذا الضرب يكون عند
 الموت . وقد يكون يوم القيامة حين يصرون بهم إلى النار . (وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)
 قال الفراء : المعنى ويقولون ذوقوا ؛ لحذف . وقال الحسن : هنا يوم القيامة ، تقول لهم نزع
 جهنم : ذوقوا عذاب الحريق . وروى أن في بعض التفاسير أنه كان مع الملائكة مقاميس من
 حديد ، كما ضربوا التبت النار في الجراحات ؛ فذلك قوله : « وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .
 والذوق يكون محسوسا ومعنى . وقد يوضع موضع الإبتلاء والاختبار ؛ تقول : اركب هذا
 الفرس فذقه . وأنظر فلانا فذق ما عنده . قال الشيخ يصف فرسا :

فذاق فاعطته من اللين جانبا . كفى ولما أن يفرق السهم حارجا

وأصله من الذوق بالهم . (ذَٰلِكَ) في موضع رفع ، أي الأمر ذاك . أو « ذاك » جزاؤكم .
 (بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكَ) أي اكتسبتهم من الآثام . (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي قَوْمًا لِلْعَبِيدِ) إذ قد أوحى
 السبيل وبعث الرسل ، فلم خالفتم ؟ . « وأق » في موضع خفض عطف على « ما » وإن
 شئت نصبت ، بمعنى وباق ، وحذفت الباء . أو بمعنى : وذلك إن الله . ويموز أن يكرن
 في موضع رفع نسقا على ذلك .

قوله تعالى : كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^٢ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ^٣ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ^٤

الدأب المأدة . وقد تقدم في «آل عمران» . أى المأدة في تعذيبهم عند قبض الأرواح
 ونى القبور كمأدة آل فرعون . وقيل : المعنى جُوزى هؤلاء بالنقل والسبي كما جُوزى آل
 فرعون بالفرق . أى دأبهم كمأب آل فرعون .

قوله تعالى : ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ^١ أَنْ يَكْ مُغِيرًا^٢ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ
 حَتَّى يَغْيِرُوا مَا يَأْنِفُسِهِمْ^٣ وَإِنَّ اللَّهَ لَمِيمِعٌ عَلِيمٌ^٤

تعلي . أى هذا العقاب ؛ لأنهم غيروا وبدلوا ؛ ونعمة الله عل قريش الخصب ، والسعة
 والأمن والمانية . « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُحْتَفُظُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(١) » الآية .
 وقال السدى : نعمة الله عليهم بعد صل الله عليه وسلم فكفروا به ، فنزل إل المدينة : وقل
 بالمشركين العقاب .

قوله تعالى : كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^٢ كَذَّبُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ^٣ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ^٤ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ^٥ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ^(٦)

ليس هذا بتكرير ؛ لأن الأول للمأدة فى التكذيب ، والثانى للمأدة فى التنوير ، وبأن
 الآية بين .

قوله تعالى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ^١ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ^(٢) الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ^(٣) فِي كُلِّ مَرَّةٍ
 وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ^(٤)

قوله تعالى : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ رَبِّي) أى من يَدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه (الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) نظير «الْعَمَّ الْبُكَّ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ» . ثم وصفهم فقال : (الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُصُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَعَمَّ لَا يَقُولُونَ) أى لا يتأثرون .^(١) فقال : « ومن » في قوله « منهم » للبعوض ؛ لأن العهد إنما كان يجري مع أشرفهم ثم ينقضونه . والمعنى بهم قُرَيْظَةُ والنضير ؛ في قول مجاهد وغيره . نقضوا العهد فأعلنوا مشركى مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : فسينا ؛ فهاهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُنَّ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهِنَّ يَذَرْنَ **كُرُوبًا** ﴿٢٢﴾

شرط وجوابه . ودخلت التوفيق كيدا لما دخلت ما ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوكبيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع « إفا » في المجازاة للفرق بين المجازاة والتخيير . ومعنى « تتفقنهم » تأييدهم ويجهلهم في ثقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف ، تقدر عليهم ذبا وتغلبهم . وهذا لازم من اللفظ ؛ لقوله « في الحرب » . وقال بعض الناس : تصادقنهم وتلقاهم . يقال : تَقَفْتُهُ أَتَقَفْتُهُ ثَقْفًا ، أى وجَدْتُهُ . وفلان يَتَقَفُ لَيْفٌ أى سريع الوجود لما يحاوله ويطلبه . وتَقَفَ ثَقْفٌ ، وأمرأة ثَقَافٌ . والقول الأول أولى ؛ لارتباطه بالآية كما بينا . والمصادف قد يغلب فيمكن التشديد به ، وقد لا يغلب . والثغاف في اللغة : ما يُسْتَبْهَى به الفئاة ونحوها . ومنه قول النابغة :

ندعو قُريظًا وقد عَصَّ الحديد بها • عَصَّ النِّصَافِ عَلَى صَمِّ الْأَنْبَيبِ^(٢)

(فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ) قال سعيد بن جبير : المعنى أنذرهم من خلفهم . قال أبو عبيد : هى لغة قريش ، شردهم شمع بهم ، وقال الضحاك : تَكَلَّ بهم . الزجاج : إفصل بهم فعلا

(١) آية ٢٢ من هذه السورة . (٢) القمص (بالضم ياء) : قصر في الألف فاحش . وقيل : حتى شئت . وما تبيان : قمين في بنى أسد وقمين في قيس عيلان . والأنابيب : جمع أنبوبة ، وهى كب القصبه والفرع .

من القتل تفروق به من خلفهم . والتشريد في اللغة : التبديد والتفريق ؛ يقال : شردت بني فلان فقتلهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . وكذلك الواحد ، تقول : تركته شريداً عن وطنه وأهله . قال الشاعر من هذيل :

أُطْرَفَ في الأباطح كل يوم • غنافة أن يشرد بي حكيماً

ومنه شرد البعير والدابة إذا فارق صاحبه . و « من » بمعنى الذي ؛ قاله الليثاني . وروى عن ابن مسعود « فشرذ » بالذال المعجمة ، وهما لغتان . وقال قطرب : التشريد (بالذال المعجمة) التثكيل . وبالذال المهملة التفريق ؛ حكاه النعلبي . وقال للهدوي : الذال لا وجه لها ، إلا أن تكون بدلا من الذال المهملة لتقاربهما ، ولا يسرف في اللغة « فشرذ » . وقرأ « من خلفهم » بكسر الميم والقاف . (لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ) أي يتذكرون بوعدك لإمام . وقيل : هذا يرجع إلى من خلفهم ، من عمل بمثل عملهم .

قوله تعالى : وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْصَبْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٥﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً) أي غشاً ونقضاً للمهد . (فَانْصَبْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) وهذه الآية نزلت في بن قريظة وبن النضير . وحكاها الطبري عن مجاهد . قال ابن عطية : والذي يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بن قريظة انقضى عند قوله « فَتَتَرَدُّ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره فيما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة ؛ فترتب فيهم هذه الآية . [وبنو قريظة لم يكونوا في حد من تخاف خيانتهم] ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة [مشهورة] .

الثانية — قال ابن العربي : فإن قيل كيف يجوز نقض المهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظن لا يقين معه ، فكيف يستعمل يقين المهد مع ظن الخيانة . فالجواب من وجهين : أحدهما — أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين ، كما قد يأتي الرجاء بمعنى العلم ؛ قال الله تعالى : (١) الكذب من تعسر ابن عطية .

« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » . الثاني - إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يقع التماهى عليه في المملكة، وإجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة . وأما إذا علم البعير فيستغنى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح؛ لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم . والنبذ : الرمي والرفض . وقال الأزهري : معناه إذا عاهدت قوما فملت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابها إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والمواصلة؛ فيكونوا في علم النقض مستويين، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه . والمعنى : وإما تخافون من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانيةٌ فأنبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدهم، وأنا مقاتلكم؛ ليملأوا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاطعهم وبينك وبينهم عهد وهم يتقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا . ثم بين هذا بقوله : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ) .

قلت : ما ذكره الأزهري والنحاس من إنباد العهد مع العلم بنقضه يردّه فعل النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة؛ فانهم لما قضاوا لم يوجه إليهم بل قال : « اللَّهُمَّ اقْطَعْ خِبرَنَا عَنْهُمْ » وغزاهم . وهو أيضا معنى الآية؛ لأن في قطع العهد منهم ونكثته مع العلم به حصول نقض عهدهم والاستواء معهم . فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا محل ولا يجوز . روى الترمذي وأبو داود عن سلم بن عامر قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا اقتضى العهد غزاهم؛ فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر، الله أكبر، [وفاء لا غدر]؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عتبة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحملها حتى ينقض أمدها أو ينبذ إليهم على سواء » فرجع معاوية بالناس . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . والسواء : المساواة والاعتدال .

وقال الرازي :

فاضرب وجوه النذر الأعداء « حتى يبيعوك إلى السواء

وقال الكشاف : السواء العدل . وقد يكون بمعنى الوسط ؛ ومنه قوله تعالى : « في سَوَاءٍ الجحيم » . ومنه قول حسان :

يا وَجَّحَ أَحْمَابِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ • بعد المغيَّبِ في سِوَاهِ الْمُتَّحِدِ

الفتراء ؛ ويقال « فَأَنِذَ لِيهِمْ عَلَى سِوَاءٍ » جهراً لا سِراً .

الثالثة - روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لكل غادر لوأه يوم القيامة يُرْبَعُ له بقدر غدره ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عاتمة » .
 قال عليُّ بنُ أبي حمزة رحمه الله عليهم : إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأخش منه في غيره لما
 في ذلك من المفسدة ؛ فانهم إذا غدروا وعلم ذلك منهم ولم يلذبوا بالمهد لم يأمنهم المدعو على
 عهد ولا صلح ، فتشدد شوكتهم وبغض ضرره ، ويكون ذلك متقررًا عن الدخول في الدين ،
 وموجبًا لظن أمّة المسلمين . فأما إذا لم يكن للمدعو عهد فينبغي أن يتحجّل عليه بكل حيلة ،
 وتدار عليه كل خديعة . وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : « الحزب خدعة » . وقد
 اختلف العلماء هل يصاحد مع الإمام الغادر ؛ على قولين . فذهب أكثرهم أنه لا يقاتل معه ،
 بخلاف الخائن والفاسق . وذهب بعضهم إلى الجهاد معه . والتولان في مذهبا .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أي من أفلت من وقعة بدر سبق
 إلى الحياة . ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي في الدنيا حتى يظفرك الله بهم .
 وقيل : يعني في الآخرة . وهو قول الحسن . وقرأ ابن عامر وحفص وحزرة « يحسبن »
 بالياء . والياقون بالياء ، على أن يكون في الفعل ضمير الفاعل . و ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مفعول
 أول . و ﴿ سَبَقُوا ﴾ مفعول ثان . وأما قراءة الياء فزعم جماعة من النحويين منهم أبو سـ

أن هذا لن لا نحل القراءة به ، ولا تسع لمن عَرَفَ الإعراب أو عَرَفَهُ . قال أبو حاتم :
لأنه لم يأت لـ « يحسن » بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل
شديد ، والقراءة يجوز ويكون المعنى : ولا يحسن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون
الضمير يعود على ما تقدم ، إلا أن القراءة بالناء آيين . المهدوي : ومن قرأ بالياء احتمل
أن يكون في الفعل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون « الذين كفروا سبقوا » المفعولين .
ويجوز أن يكون « الذين كفروا » فاعلا ، والمفعول الأول محذوف ؛ المعنى : ولا يحسن
الذين كفروا أنفسهم سبقوا . مكي : ويجوز أن يضم مع سبقوا أن ؛ فيسد مسد المفعولين
والتقدير : ولا يحسن الذين كفروا أن سبقوا ؛ فهو مثل « أحسب الناس أن يتركوا^(١) »
في سد أن مسد المفعولين . وقرأ ابن عامر « أنهم لا يعجزون » بفتح الهزة . واستبعد
هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد . قال أبو عبيد : وإنما يجوز على أن يكون المعنى : ولا تحسن
الذين كفروا أنهم لا يعجزون . قال النحاس : الذي ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحويين
البصريين ، [لا يجوز] حسبت زيدا أنه خارج ، إلا بكسر الألف ، وإنما لم يحز لأنه
في موضع المبتدأ ؛ كما تقول : حسبت زيدا [أبوه خارج] ، ولو فتحت لفتار المعنى حسبت
زيدا [نروجه . وهذا محال ، وفيه أيضا من البعد أنه لا وجه لما قاله يصع به معنى ؛
إلا أن يعمل « لا » زائدة ، ولا وجه لتوجيه حرف في كتاب الله عز وجل إلى التطويل بغير
حجة يجب التسليم لها . والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لا يعجزون . مكي : فالمعنى
لا يحسن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أي لا يفوتون . فـ « مات » في موضع
نصب بحذف اللام ، أو في موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها مع « أت » ، وهو
يُروى عن الخليل والكسائي . وقرأ الباقون بكسر « إن » على الاستئناف والقطع عما قبله ،
وهو الاختيار ؛ لما فيه من معنى التأكيد ، ولأن الجماعة عليه . وروى عن ابن محيصن أنه
قرأ « لا يعجزون » بالنشديد وكسر النون . النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما —

(١) أول سورة التكاوت .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن النحاس يقتضها السياق .

أن معنى عجزه ضعفه وضيق أمره . والآخرة أنه كان يجب أن يكون بنونين . ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه .

قوله تعالى : **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴿١٠١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)** أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للاعداد بعد أن أكد تقديمه التقوى . فإن الله سبحانه لو شاء لزمهم بالكلام والقفل في وجوههم وبجفنة من تراب ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أراد أن يثقل بعض الناس ببعض عمله السابق وقضائه اللاحق . وكما ألمه لصديقك من خير أو لعدوك من شر فهو داخل في حديثك . قال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقتال . وفي صحيح مسلم عن عتبة بن حاصر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : **” وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إِلَّا إِنْ الْقُوَّةَ الزُّمَى إِلَّا إِنْ الْقُوَّةَ الزُّمَى ”** . وهذا نص رواه عن عتبة أبو علي ثمامة بن ثعلبة الحمصاني ، وليس له في الصحيح غيره . وحديث آخر في الزمى عن عتبة أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **” سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ فَلَا يَسْجُزُهُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَمْعِهِ ”** . وقال صلى الله عليه وسلم : **” كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُوُ بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ إِلَّا رِيَّتَهُ بِقَوْسِهِ وَتَادِيَتَهُ فَرَسَهُ وَمَلَاعِبَتَهُ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْحَقِّ ”** . ومعنى هذا والله أعلم : أن كل ما يلهي به الرجل عما لا يفيد في العاجل ولا في الآجل فائدة فهو باطل ، والإعراض عنه أولى . وهذه الأمور الثلاثة فانه وإن كان يفعلها على أنه يتلوهي بها ويتشغل ، فإنها حق باتصالها بما قد يفيد . فإن الرمي بالقوس وتاديب الفرس جميعا من تعاون القتال . وملاعبة

الأهل قد تَوَدَّى الى ما يكون عنه ولد يوحد الله و يعبد به ؛ فلها كانت هذه الثلاثة من الحق .
 وفي سنن أبي داود والترمذى - وأنسائى - عن عقبة بن عامر عن النبي - صلى الله عليه وسلم :
 " إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحسب في صناعته الخير والزاي ومثله " .
 وفضل الزمى عظيم ومغفنه عظيمة للمسلمين ، ونكايته شديدة على الكافرين . قال صلى الله عليه وسلم : " يا بنى إسماعيل آرموا فإن إياكم كان راميا " . وتعلم القروسية وأستعمل الأسلحة فرض كفاية . وقد يتعين .

الثانية - قوله تعالى : (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) وقرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حنيفة
 « وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » بضم الراء والباء ، جمع رباط ، ككتاب وكتب . قال أبو حاتم عن ابن
 زيد : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وجماعته رُبط . وهى التى ترتبط ؛ يقال منه : رُبط
 يَربُطُ رِبْطًا . وارتبط يرتبط ارتباطًا . ومربط الخيل ومرابطها وهى ارتباطها بإزاء العدو .
 قال الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه • فى الحرب إن الله خير موثق

وقال مكحول بن عبد الله :

تقوم على ربط الجياد وحسبها • وقد أوصى بها الله النبي محمدا

وربط الخيل فضل عظيم ومثلة شريفة . وكان لرؤوة البارقي سبعون فرسا بمئة لجهاد .
 والمستحب منها الإناث ؛ قاله عكرمة وجماعة . وهو صحيح ؛ فإن الأنثى بطنها أكثر وظهرها
 عِزٌّ . وفرس جبريل كان أنثى . وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 " الخيل ثلاثة لرجل أبر ولرجل ستر ولرجل وذر " الحديث . ولم يخص ذكرا
 من أنثى ، وأجودها أعظمها أجرا وأكثرها نفعا . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 أى الرقاب أفضل ؟ فقال : " أغلاها ثمنًا وأغنىها عند أهلها " . وروى النسائى عن
 أبي وهب الجشيتى - وكانت له صحبة - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " سموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وأربطوا الخيل

وأمدحوا بنواصبيها وأكفأها وقلدوها ولا تخلدوها الأوتار^(١) وعليكم بكل كُتبت^(٢) أغر^(٣) محجل
أو أسفر أغر^(٤) محجل أو أدمع أغر^(٥) محجل . وروى الترمذي عن أبي قتادة أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : « خير الخليل الأدمع الأفرح^(٦) الأرثم^(٧) [ثم الأفرح المحجل^(٨)] طلق^(٩) اليمن^(١٠) فإن
لم يكن أدمع فكتبت على هذه الشية^(١١) . ورواه الدارمي عن أبي قتادة أيضا ، أن رجلا قال :
يا رسول الله ، إنى أريد أن أشتري فرسا ، فأبى أن يشتري ؟ قال : « اشترا أدمع أرثم محجلا طلق^(١٢)
اليمنى أو من الكُتبت على هذه الشية^(١٣) تنعم وتسلم » . وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشكل
من الخيل . والشكل : أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى ، أو في يده
اليمنى ورجله اليسرى . ترجمه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه . ويذكر أن الفرس الذى
قُتل عليه الحسين بن علي رضى الله عنهما كان أشكل .

الثالثة - فإن قيل : إن قوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » كان يكتفى ؛ فلم
يخص الزمى والخييل بالذكور ؟ قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها^(١٤) التى
مُعد الخيل في نواصيها ، وهما أقوى القوة وأشد المدة وحصون الفرسات ، وبها يبال
في الميدان ، خصها بالذكر تشريفا ، وأقسم ببنائها تكريما . فقال : « والعاديات ضبعا^(١٥) »
الآية . ولما كانت السهام من الحج ما يتعامل في الحروب والنكاية في العدو وأقرها تناولوا
للأرواح ، خصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها . ونظير هذا في التنزيل :
« ويجبريل^(١٦) وميكائيل^(١٧) » ومثله كثير .

الرابعة - وقد استدل بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح ،
واتخاذ الخزانة والخزان لها حصة للأعداء . وقد اختلف العلماء على جواز وقف الحيوان

- (١) الأوتار : جمع وتر (بالكسر) وهو الظم . والضم : لا تخلفها عليها الأوتار والسرور التى وترتم بها في الجاحلية .
ومجل : جمع وتر القوس ؛ فانهم كانوا يلقونها بأصناف الخواب لدفع العين . وهو من شعار الجاحلية ؛ فخره ذلك .
(٢) كتبت (بالضم) : هو الذى لو نه بين السراة والحرة ؛ يستوى فيه الذكر والمؤنث . والأفرح : هو الذى
في وجهه بياض . والمحجل : هو الذى في قوائمه بياض
(٣) الأرثم : الذى أغمه أبهى وشفته العليا . (٤) الأفرح : هو ما كان في جبهه فرسه ، وحى بياض
يسير في وجه الفرس ذنن الفرس . (٥) أى سلقها ليس فيها تحجيل . (٦) أوزار الحرب : اتخذها
من آلة حرب وسلاح وغيره . (٧) آية ٩٨ سورة البقرة .

كانليل والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو حنيفة . والصحة ، وبه قال الشافعي .
 رسي الله عنه . وهو أصح ؛ لهذه الآية ، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه
 في سبيل الله . وقوله عليه السلام في حق خالد : " وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا فإنه قد
 احتسب أذراعه وأعتاده في سبيل الله " الحديث . وما روي أن امرأة جعلت بيضا في سبيل
 الله ، فأراد زوجها الخ ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ادفعيه إليه ليحج عليه
 فإن الخ من سبيل الله " . ولأنه مال يتنفع به في وجه قربة ؛ بخلاف أن يوقف كالرباع . وقد
 ذكر السبيل في هذه الآية تسمية خيل النبي صلى الله عليه وسلم ، وآله حربه . من أرادها
 وجدها في كتاب الأعلام .

الخامسة — قوله تعالى : (**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**) يعني تُخيفون به عدوكم من
 اليهود وقريش وكفار العرب . (**وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِم**) يعني فارس والروم ؛ قاله السدي .
 وقيل : الجن . وهو اختيار الطبري . وقيل : المراد بذلك كل من لا تعرف عداوته . قال
 السبكي : قيل هم قريظة . وقيل : هم من الجن . وقيل غير ذلك . ولا ينبغي أن يقال
 فيهم شيء ؛ لأن الله سبحانه قال : « **وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِم لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ بِعَالَمِهِمْ** » ؛ فكيف
 يدعى أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 وهو قوله في هذه الآية : " هم الجن " . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن
 الشيطان لا يحبل أحدا في دار فيها فرس عتيق " وإنما سمي عتيقا لأنه قد تخلص من الهجانة .
 وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن الملقكي عن أبيه عن جده عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم . وروى : أن الجن لا تخرب دارا فيها فرس ، وإنما يتفرق من صهيل الخيل .
 السادسة — قوله تعالى : (**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ**) أي تنفقوا ؛ وقيل : تهفقوه
 على أنفسكم أو خيلكم . (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْتِ الْيَكْمَ**) في الآخرة ، الحسنة بغير أمثالها إلى سمائة ،
 إلى أضعاف كثيرة . (**وَأَتِمُّوا تَعْلَمُونَ**) .

(١) الأضاد : آيات الحرب من السلاح والدراب وغيرها . راجع الحديث وشرحه في صحيح مسلم ، كتاب الزكاة .
 (٢) هو كتاب البرص والإعلام فما أهم في القرآن من الأسماء . الأعلام . وهو كتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب
 المصرية تحت رقم ٢٢٢ و ٢٢٩ تفسير .

قوله تعالى : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾
فيه مسائل ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) إنما قال « لها » لأن السلم مؤنثة . ويجوز أن يكون التأنيث للسلمة . والجناح الميل . يقول : إن مالوا - يعنى الذين نبذ إليهم عهدهم - إلى المسألة ؛ أى الصلح ، فإل إليها . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه ؛ ومنه قيل للأضلاع جراح ؛ لأنها مالت على الحشوة . وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير . وقال ذو الرمة : -
إذا مات فوق الرّحل أحببتُ روحه * بذكرك والعيس المراميل جَنَحُ
وقال التائيه : ﴿١٢﴾

جواحُ قد أقرن أن قيله * إذا ما التقى الجمعان أقرن غالب
بنى الطير . وجنح الليل إذا أقبل وأمال أطنا به على الأرض . والسلم والسلام هو الصلح .
وقرأ الاعمش وأبو بكر وابن عتيص والمفضل « للسلم » بكسر السين . الباقون بالفتح . وقد تقدم معنى ذلك في « البقرة » مستوفى . وقد يكون السلام من التسليم . وقرأ الجمهور « فاجنح » بفتح النون ، وهى لغة تميم . وقرأ الأشهب العقيل « فاجنح » بضم النون ، وهى لغة فليس . قال ابن جنى : وهذه اللفظة هى القياس .

الثانية - وأختلف في هذه الآية ، هل هى منسوخة أم لا . فقال قتادة وعكرمة : نسخها « فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . « وقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » وقالوا : نسخنا برأى كل موادعة حتى يقولوا لا إله إلا الله في آبن عباس : النسخ لها « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى

- (١) الحشوة (بالضم والكسر) : الأسماء . (٢) العيس : الإبل البيض . المراميل : سهلة السير ، وهى التى تعطيك ما عندك غفرا . وجنح : مائة صدرها إلى الأرض . وقيل : مائة في سرها من النشاط .
(٣) في الأصول : « وقال عزة » والتصويب عن كتاب البحر لأبى حيان ودوران الثانية .
(٤) راجع ٣ ص ٢٢ طبع أول مرة ثانية . (٥) آية ه سورة القدر .
(٦) آية ٣٦ سورة التوبة .

السُّلَمِ» . وقيل : ليست بمنسوخة ، بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم ؛ على ما أخذوه منهم ، وتركهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استنصاحهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه ؛ من ذلك خيبر ، رد أهلها إليها بعد التلقة على أن يعملوا ويؤدوا النصف . قال ابن إسحاق : قال مجاهد عن هذه الآية قرينة ؛ لأن الجزية تقبل منهم ، فاما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السدي وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . ولا تسخ فيها . قال ابن العربي : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : « لَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السُّلَمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ » . فإذا كان المسلمون على عزة وقوة وممنة وجماعة صديقة ، وشدة شديدة فلا صلح ؛ كما قال :

فلا صلح حتى تظعن الخيل بالقنا . وتضرب بالبيض الرقاق الجاسم

وإن كان المسلمين مصلحة في الصلح ، لنفع يمتثلونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يتدنى المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط تقضوها فنقض صلحهم . وقد صالح الضميرى وأكيدر دومة وأهل نجران ، وقد هادن قريشا لشرة أعوام حتى تقضوا عهده . وما زالت الخلفاء والصحابه على هذه السبيل التي شرعها سالكة ، وبالجوه التي شرحناها طاملة . قال القشيري : إذا كانت القوة للمسلمين فيلبي ألا تبلغ المذنة سنة . وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادتهم عشرين ، ولا تجوز الزيادة . وقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشرين . قال ابن المنذر : اختلف العلماء في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة عام الحديبية ؛ فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال ابن جريج : كانت ثلاث سنين . وقال ابن إسحاق : كانت

١ (١) آية ٣٥ سورة عذ . (٢) الضميرى : هو يحيى بن عمرو الضميرى ؛ من بني حمزة بن بكر . وكان هذا في غزوة الأبواء . وأكيدر : هو أكيدر بن عبد الملك ، رجل من كعدة . ودومة : هي دومة الجندل ، مدينة غربية من دمشق .

عشر سنين . وقال الشافعي رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين ، بل ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، لأن هودن المشركون أكثر من ذلك فهي متقضة ، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضي الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والستين والثلاث ، وإلى غير مدة ، قال المهلب : إنما قاضاهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه القضية التي ظاهرها الوثن على المسلمين ، لسبب حبس الله ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة ، حين توجه إليها فبركت . وقال : "حبسها حابس الفيل" . على ما أخرجه البخاري من حديث المسور بن مخرمة ، ودل على جواز صالح المشركين ومهادتهم دون مال يؤخذ منهم ، إذا رأى ذلك الإمام وجهاً ، ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح على يبذلونه للعقد ، ولإعادة النبي صلى الله عليه وسلم عينة بن حصن الخزاعي ، والحاتر بن عوف المري يوم الأحزاب ، على أن يعطيها ثلث عمر المدينة ، وينصرفا بمن معهما من غطفان ويغذلا قریشا ، ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مروية ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنها قد آثبا ورضيا استشار سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فتصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسبم له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : " بل أمر أصبغه لكم فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة " ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله قد كنا نحن وهؤلاء النجوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طعموا قط أن يسألوا منا ثمة ، إلا شراه أو قرى ، نحن أكرمنا الله بالإسلام ، وهذان له وأعزنا بك ، نعطيهما أموالنا ! والله لا نعطيهما إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " إني وذاك " . فوفاق لعينة والحاتر : " إنصرفا فلبس لكا عندنا إلا السيف " . وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة قطعا .

(١) في الأمولة : « ... بن نوفل » والتصويب عن كتب البصرة .

(٢) المرامنة : المداواة والمخالطة .

قوله تعالى : وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي
 آتَاكَ بُنْصُرَهُ ۚ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٠﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ وَلَهُ عِزُّ
 حَكِيمٌ ﴿١٦١﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ) أى بآن يظهرُوا لك السلم ، ويُسْطُوا الغدر
 والخيانة ، فاجتص وما عليك من نياتهم الفاسدة . (فَأَلْفَ حَسْبَكَ اللَّهُ) كافيكَ الله ؛ أى يتولى
 كفائتك وحياطتك . قال الشاعر :

إِذَا كَانَتْ الْمُهْجَاءُ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا ۖ حَسْبُكَ وَالضُّحَاكُ سَيْفٌ مُهَنْدٌ

أى كافيكَ وكافى الضحاك سيف .

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي آتَاكَ بُنْصُرَهُ) أى قواك بنصره . يريد يوم بدر . (وَبِالْمُؤْمِنِينَ)
 قال ابن كثير : نزلت في الأنصار . (وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) أى جمع بين قلوب الأوس
 والخزرج . وكان أَلَفَ القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صلى الله عليه
 وسلم ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يُلْطَمُ اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها . وكانوا أشد
 خلق الله حمية ، فآلف الله بالإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين . وقيل :
 أراد التآليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : يَتَّبِعُهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾
 ليس هذا تكراراً ؛ فإنه قال فيما سبق : « وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ » وهذه
 كافية خاصة . وفي قوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ » أراد التعميم ؛ أى حسيبك الله في كل
 حال . وقال ابن عباس : نزلت في إسلام عمر ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه
 ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين . والآية مكية ، كسر .
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة مدنية ؛ ذكره الفشير .

قلت : ما ذكره من إسلام عمر رضي الله عنه عن ابن عباس ؛ فقد وقع في السيرة خلافا .
عن عبد الله بن مسعود قال : ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما
أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من يلقى
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة . قال ابن إسحاق : وكان جميع من يلقى
بأرض الحبشة وعابروا إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صفارا أو ولدوا بها ،
ثلاثة وعشرون رجلا ، إن كان عمار بن ياسر منهم . وهو يشك فيه . وقال الكلبي : زلت
الآية باليئداء في غزوة بدر قبل القتال .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ اتَّبَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : المعنى حسبك الله ، وحسبك المهاجرون
والأنصار . وقيل : المعنى كافيك الله ، وكافى من تبعك ؛ قاله الشافعي وابن زيد . والأول
جن الحسن . واختاره النحاس وغيره . فـ « من » على القول الأول في موضع رفع ، عطفا
على اسم الله تعالى . على معنى : فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين . وعلى الثاني على إضمار .
ومثله قوله صلى الله عليه وسلم : « يَكْفِيهِ اللهُ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةٍ »^(١) . وقيل : يجوز أن يكون « وَمَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » حسبهم الله ؛ فيضمر الخبر . ويجوز أن يكون « من » في موضع نصب ،
على معنى : يكفيك الله ويكفي من أتيتك .

(١) يريد الأوس والخزرج ، قبلي الأنصار . وقيل اسم أم لم تدرجه ، وهي قيلة بنت كاهل .
(٢) اضطررت بمادة الأصول هنا . والذي في إهراب القرآن للنحاس : « يا أيها النبي حسبك الله : ابتداء
وخير ؛ أي كافيك الله . ويقال : أحسب إذا كفاه . » ومن أتيتك « في موضع نصب مطوف على الكاف
في التاء ؛ أي يكفيك الله من وجيل ويكفي من أتيتك ؛ كما قال :

إذا كنت الهيابة وأنتشت النسا * لحسبك والشمالك سيف مهدي

ويجوز أن « من أتيتك » في موضع رفع . ولحقون فيه ثلاثة أقوال : قال أبو يعقوب : سمعت علي بن سليمان
يقول : يكون عطفا على اسم الله جل وعز ؛ أي حسبك الله ومن أتيتك . قال : ومنه قول النبي عليه السلام :
« يكفيته الله من وجيل وأبنائهم » .

والقول الثاني — أن يكون التقدير : من أتيتك من المؤمنين كذلك ؛ على الابتداء . والميم ؛ كما قال الفرزدق :

ومضى زمان يابن مرداس لم يدع * من المال إلا مسحبا أو محجفا

والقول الثالث أحسنه — أنه يكون على إضمار بمعنى وحسبك من أتيتك . وهكذا الحديث على إضمار . وزكريا
الفرزدق الأول ؛ لأنه قد سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهي أنه يقال : ما شاء الله وثبت . والثاني — فالشاعر
مضمر ؛ إذ كانت القصيدة مرفوعة . وإن كان فيه غيره .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَالِقَاتِ الْكُنُوزِ أَنْ يَقْلِبَنَّ فِيكُمْ سِيَرَكُمْ وَلِلَّهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي نَكَسِبُوا بِهَا نَحْنُ وَاللَّهُ يَخْفَى عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾

مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَارُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْكُمْ مَائَةٌ يَعْلَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَفِيفٌ ﴿٢٦﴾

عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعِفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَارُوا بِأَنْفُسِهِمْ مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَصْعَقُوا أَلْفَيْنِ يَافِئُونَ لِلَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ) أي حُتْمَهُمْ . يقال : حَارِضٌ عَلَى الْأَمْرِ وَوَاضِبٌ وَوَاظِبٌ وَأَكْبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَالْحَارِضُ : الَّذِي قَدْ قَارَبَ الْهَلَاكَ وَمَنَّهُ قَوْلُهُ عَنْ وَجَلٍ : « حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا » أَيْ تَذُوبٌ شَمًّا . فَتَقَارِبُ الْهَلَاكَ فَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ . (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَارُونَ بِأَنْفُسِهِمْ مِائَتَيْنِ) لِقَوْلِهِ خَبَرٌ ، ضَمْنُهُ وَعَدٌ بِشَرْطٍ ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ إِنْ إصْبَرْتُمْ عَشْرُونَ صَارُونَ بِأَنْفُسِهِمْ مِائَتَيْنِ . وَعَشْرُونَ وَثَلَاثُونَ وَارْبَعُونَ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا أَسْمُ مَوْضُوعٍ عَلَى صُورَةِ الْجَمْعِ لِهَذَا الْعَدَدِ ، وَيَجْرِي هَذَا الْأَسْمُ بِجَرَى فِلَسْطِينَ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمْ تُكْسَرْ أَوَّلُ عَشْرِينَ وَفُتِحَ أَوَّلُ ثَلَاثِينَ وَمَا بَعْدَهُ إِلَى الثَّانِيَيْنِ إِلَّا سِتِينَ ؟ فَأَلْجَأُوا عِنْدَ سَيُوبِهِ أَنْ عَشْرِينَ مِنْ عَشْرَةٍ بِمِثْلَةِ اثْنَيْنِ مِنْ وَاحِدٍ ، فَكُسِرَ أَوَّلُ عَشْرِينَ كَمَا كُسِرَ اثْنَانِ . وَالِدَلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُمْ : سِتُونَ وَتِسْعُونَ ، كَمَا قِيلَ : سِتَّةٌ وَتِسْعَةٌ . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَارُونَ بِأَنْفُسِهِمْ مِائَتَيْنِ » فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمَسْلُومِينَ ، حِينَ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا يَفِزَ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ التَّخْفِيفُ فَقَالَ : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (مِائَةٌ صَارُوا بِأَنْفُسِهِمْ مِائَتَيْنِ) . قَالَ : فَلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعَدَدِ قَصَّ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدَرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : قَالَ قَوْمٌ إِنْ هَذَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ وَنُصِّحَ . وَهَذَا خَطَأٌ مِنْ قَائِلِهِ . وَلَمْ يُقَلِّ قَطُّ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ صَارُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ الْبَارِئُ جُلَّ وَعِزُّ

فرض ذلك عليهم أولاً، وما في ذلك بأنكم تفتقرون ما تقاوتون عليه، وهو الثواب . وهم لا يعلمون ما يقاوتون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض . ثم لما شق ذلك عليهم حطَّ الفرض إلى ثبوت الواحد للكثيرين ؛ تخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفتر مائة من مائتين ؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ . وهذا حسن . وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نسخ بمضء أو بعض أوصائه، أو غير عدده بخلاف أن يقال إنه نسخ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول، بل هو غيره . وذكر في ذلك خلافاً .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأَنْصَارَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَسْرَى) جمع أسير ؛ مثل قَتِيل وقَتِيلَ وجريح وجريحى . ويقال في جمع أسير أيضاً : أَسَارَى (بضم الهمزة) وأَسَارَى (بفتحها) وليست بالمالية . وكانوا يَسُدُّونَ الأسير بالقد وهو الإِسَارُ ؛ فُسِمَى كُلُّ أَحْيَدٍ وَإِنْ لَمْ يُؤْمَرْ أَسِيرًا . قال الأعشى :

وَقَيْدِي الشَّعْرُ فِي بَيْتِهِ = كَقَيْدِ الْأَسْرَاتِ الْجَمَارِ

وقد مضى هذا في سورة « البقرة » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون رِبَطًا . وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

الثانية - هذه الآية نزلت يوم بدر ، عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم . والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا بهذا الفعل الذي أوجب أن يكون النبي

(١) هكذا في نسخ الأصل ، والى في ابن العربي : « وظله بأنكم ... الخ »

(٢) راجع ج ٢ ص ٢١ طبعة ثانية .

صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإخانة . ^(١) ولم هذا الإخبار بقوله « تريدون عرض الدنيا » .
والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ، ولا أراد قطع عرض الدنيا ،
وإنما فعله بجهود مباشرة الحرب ؛ فالقويخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على
النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الفدية . هذا قول أكثر المفسرين ، وهو الذي لا يصح فيه ؛
وجاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الآية حين لم يته عنه حين رآه من العريش ، وإذا كره سعد
ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة ، ولكنه عليه السلام شغله بقت الأمر وتزول
النصر فتركه النبي عن الانتباه ؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات . والله أعلم .
روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب ، وقد تقدم قوله في « آل عمران » وهذا تسماه .
قال أبو ذؤيب : قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأبي بكر وعمر : « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هم بنو العجم
والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فصى الله أن يسديهم
للسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » قلت : لا والله
يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتسكن
قبلاً من قبيل فيضرب عنقه ، وتمكن من فلان (سيباً لعمر) فاضرب عنقه ؛ فإن هؤلاء أئمة
الكفر وصناديدها . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يؤما قلت ، فلما
كان من الند جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاصدين بكيان ، فقلت
يا رسول الله ، أخبرني من أي شيء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد
بكاءً تبكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبكى للذي عرض على أصحابك
من أخذهم الفداء لقد عرض على هذاهم أدنى من هذه الشجرة » (شجرة قريبة من نبي الله
صلى الله عليه وسلم) وأتول الله عز وجل « ما كان لي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض »
إلى قوله تعالى : « فكلوا مما غنم حلالاً طيباً » فأحل الله الغنمة لهم . وروى يزيد بن هارون

(١) الإخانة في النبي : الخيانة فيه والإخانة منه ، والمراد به هنا ، الخيانة في فعل الكفار .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٩٣ نوبة أول أرفاقه .

قال : أخبرنا يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ترون في هؤلاء الأسارى » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وفاتنوك ، قد همم فأضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : أنظر واد يا كثير الخطب فأضرمه طيهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحلك . قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرع طيهم شيئا . فقال أناس : ياخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه . وقال أناس : ياخذ بقول عمر . وقال أناس : ياخذ بقول عبد الله بن رواحة . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليأين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال « فَمَنْ يَمُنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ » . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَرَارًا » . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » . أتم حالة فلا ينفلتن أحد إلا بغداة أو ضربة عتق . فقال عبد الله : إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما رأيتي أخوف أن تقع على الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم . فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » إلى آخر الآيتين . في رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان ليبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » إلى قوله « لِمَسْكٍ فَيَأْخُذْهُمْ مِنْ الْقِدَاءِ - عَذَابٌ عَظِيمٌ » . ثم أحل الغنائم . وذكر القشيري أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله ، إنه أول وقعة لنا مع المشركين

فَكَانَ الْإِنشَانُ أَحَبَّ إِلَى . وَالْإِنشَانُ : كَثْرَةُ الْقَتْلِ ، عَنْ جَاهِدٍ وَغَيْرِهِ . أَيْ بِيَالِغٍ فِي قَتْلِ الْمُسْرِكِينَ . قَوْلُ الْعَرَبِ : إِنَّمَنْ فَلَانْ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَيْ بِالْغِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حَتَّى يُغَيَّرَ وَيُقْتَلَ . وَأَشَدُّ الْمَفْضِلِ :

تَمَسَّلَى الضَّحَى مَا دَهَرَهَا بِتَعَبِيدِ « وَقَدْ انْخَسَتْ فِرْعَوْنَ فِي كُفْرِهِ كَفَرَا وَقِيلَ : « حَتَّى يُنْشِئَنَّ » يُمْكِّنُ ، وَقِيلَ : الْإِنشَانُ الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ . فَأَعْلَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ قَتَلَ الْأَمْرِيَّ الْقَيْنَ لَوُدُوًّا بِسَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ قَدَاحِهِمْ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَانَ هَذَا يَوْمَ بَدْرٍ وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ، فَلَمَّا كَثُرُوا وَأَشَدَّتْ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِدْرَ هَذَا فِي الْأَسَارَى : « فَاثْمًا مَاتَ بِسَبْعَةِ أَلْفٍ وَأَيُّ بَيَانَةٍ فِي سُورَةِ « الْقِتَالِ » إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّمَا حُوِّنُوا لِأَنَّ قَضِيَّةَ بَدْرٍ كَانَتْ عَظِيمَةً الْمَوْقِعِ وَالْتَصَرُّفِ فِي صِنَادِيدِ قُرَيْشٍ وَأَسْرَافِهِمْ وَسَادِيَّتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِسْتِزْقِ وَالْجَمْعِ . ذَلِكَ كُلُّهُ حَقٌّ الْمَوْقِعِ ، فَكَانَ حَقُّهُمْ أَنْ يَنْتَظَرُوا الْوَحْيَ وَيُسْتَجِيبُوا ، فَلَمَّا اسْتَجَابُوا وَلَمْ يَنْتَظَرُوا تَوَجَّهَ صَيْحٌ مَا تَوَجَّهَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الثالثة — أَسَدُ الطَّبَرِيِّ وَفِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلنَّاسِ : « إِنْ شِئْتُمْ أَخَذْتُمْ لِقَاءَ الْأَسَارَى وَيُقْتَلُ مِنْكُمْ فِي الْحَرْبِ سَبْعُونَ عَلَى مِئَةٍ وَإِنْ شِئْتُمْ قُتِلُوا وَسَلِمْتُمْ » / فَعَالُوا : أَخَذَ الْقِدَاءَ وَيَسْتَشْهَدُ مِمَّا سَبْعُونَ . وَذَكَرَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ بِسَنَدِهِ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَغْيِيرِ النَّاسِ هَكَذَا . وَقَدْ مَضَى فِي « آلِ عِمْرَانَ » الْقَوْلُ فِي هَذَا . وَقَالَ عِيْدَةُ السَّامَانِيُّ : طَلَبُوا الْخَيْرَيْنِ كَتَبْتُهُمَا ؛ قَتَلُوا مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ . وَيَشَاءُ هُنَا إِشْكَالٌ وَهِيَ : —

الرابعة — وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : إِنْ كَانَ الصَّغِيرُ فَكَيْفَ وَقَعَ التَّوْبِيخُ بِجَوَلِهِ « تَبَخُّرُ » ، فَاجْزَأُ — أَنَّ التَّوْبِيخَ وَقَعَ أَوَّلًا لِحَرْصِهِمْ عَلَى اخْتِذِ الْقِدَاءِ ، ثُمَّ وَقَعَ التَّخْيِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُقْدَادَ قَالَ حِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ : نَسِيرِي بِأَرْسُولِ اللَّهِ . وَقَالَ مُعَيْبُ بْنُ حُمَيْرٍ لِلَّذِي أَسْرَاهُ : عُقْبَةُ عَلَيْهِ بَلَدُكَ ، فَإِنْ لَمْ أَمَّا

موسرة . إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء . فلما تحصل الأسارى وسبقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتل في النظر وعقبة وغيرهما وجعل يرضى في سائرهم نزل التحيير من الله عز وجل ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه حينئذ ، فترى عمر على أول رآه في القتل ، ورأى أبو بكر المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبى بكر . وكلا الرأيين اجتهدا بعد تحيير . فلم ينزل بعد على هذا شئ من تصيته . والله أعلم .

الخامسة - قال ابن وهب : قال مالك كان بيد أسارى مشركون فأنزل الله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . وكانوا يومئذ مشركين وفادوا ورجعوا ، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا . وكان عتة من قتل منهم أربعة وأربعين رجلا ، ومثلهم أيمروا . وكان الشهداء قليلا . وقال عمرو بن العلاء : إن القتل كانوا سبعين ، والأسرى كذلك . وكذلك قال ابن عباس وابن المسيب وغيرهم . وهو الصحيح كما في صحيح مسلم ، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر البيهقي قالوا : بغى بالأسارى عليهم شُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم تسعة وأربعون رجلا الذين أحصوا ، وهم سبعون في الأصل ، تجتمع عليه لاشك فيه . قال ابن العري : إنما قال مالك « وكانوا مشركين » لأن المفسرين رويوا أن العباس قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إني مسلم . وفي رواية أن الأسارى قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : آمنا بك . وهذا كله ضعفه مالك ، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم وزيادة عليه أنهم غرروا في أحد . قال أبو عمر بن عبد البر : اختلفوا في وقت إسلام العباس ، فقليل : أسلم قبل بدر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من لقي العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج كرها » . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : « إن أناسا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فن لقي منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البقرى فلا يقتله ومن لقي العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها » وذكر الحديث . وذكر أنه أسلم حين أسريوم بدر . وذكر أنه أسلم عام خيبر ، وكان يكتب

لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار المشركين، وكان يجب أن ياجر فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "امكث بمكة فقامك بها اتع لنا".

قوله تعالى: لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ فإنه لا يعلب قوما حتى يبين لهم ما يتقون. واختلف الناس في كتاب الله السابق على أقوال، أصحها ما سبق من إحلال الفتنام، فإنها كانت عزمة على من قبلنا. فلما كان يوم بدر، أسرع الناس إلى الفتنام فأنزل الله عز وجل: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي بتعطيل الفتنام. وروى أبو داود الطيالسي في مسنده حديثا. سلام عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: لما كان يوم بدر تسجل الناس إلى الفتنام فأصابوها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الفينة لا تحل لأحد سود الرموس غيركم"، فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا غنموا الفينة جمعوها وزلت نار من السماء فأكلتها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ إلى آخر الآيتين. وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وقاله مجاهد والحسن. وعنه أيضا وسعيد بن جبير: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر، ماتقدم أو تأخر من ذنوبهم. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب، معيناً، والموم أصح، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن أبي جهل بدر: "وما يذريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، أخرجه مسلم. وقيل: الكتاب السابق هو ألا يعذبهم وعيد عليه السلام فيهم. وقيل: الكتاب السابق هو ألا يعذب أحدا بذنب إناد جاهلا حتى يتقدم إليه. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضى الله من غير الصبائر بأجتناب الكبائر. وذهب الطبري إلى أن هذه المماق كلها داخلية تحت اللفظ وأنه يعنها، وتكتب عن تخصيص معنى دون معنى.

الثانية - ابن العربي: وفي الآية دليل على أن العبد إذا أقبح ما يستدحه حرماً مما هو
 في علم الله حلال له لا عقوبة عليه؛ كالصائم إذا قال: هذا يوم نوفي فاطر الآن. وتقول
 المرأة: هذا يوم حيفتي فاطر؛ ففعل ذلك، وكان التوب والحليض الموجبان للفطر، في المشهور
 من المذهب فيه الكفارة، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا كفارة عليه، وهي الرواية
 الأخرى. وجه الرواية الأولى أن طرق الإباحة لا يثبت عذراً في عقوبة التحريم عند المنك؛
 كما لو وطئ امرأة ثم نكحها. وجه الرواية الثانية أن حرمة اليوم ساقطة عند الله عن وجل
 فصادف المنك عللاً لا حرمة له في علم الله؛ فكان بمنزلة ما لو قصد وطء امرأة قد زفت إليه
 وهو يعتقد أنها ليست بزوجه فإذا هي زوجته. وهذا أصح. والتعليل الأول لا يلزم؛ لأن علم
 الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى في مسألة التحريم، وفي مسئلة اختلاف فيها علمنا وعلم
 الله فكان للمعزول على علم الله. كما قال: «لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أخذتم عذاب عظيم».
 قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾

يفتضى ظاهره أن تكون النعمة كلها للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيها على السواء؛
 إلا أن قوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ نَمِّسَهُ» بين وجوب إخراج الخمس
 منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة. وقد تقدم القول في هذا مستوفى.

قوله تعالى: يَأْتِيَنَّكَ النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْرَئِ إِنْ
 يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمُ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ
 فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾

به ثلاث مسائل:

(١) التوب: ما كان منك سيرة يوم وليلة. وقيل: على ثلاثة أيام. وقيل: ما كان على فرسين أو ثلاثة.

ونزل بن الحارث فأدى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقية وأخذ منه عشرون وقت الحرب . وذلك أنه كان أحد المشرة الذين ضَمِنُوا الإطعام لأهل بدر، فبلغت التوبة إليه يوم بدر فأقتلوا قبل أن يُطعم، وبقيت المشرون معه فأخذت منه وقت الحرب؛ فأخذ منه يومئذ مائة أوقية وثمانون أوقية. فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد تركتني ما حييت أسأل قريشا بكتفى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنْ الذَّهَبَ الَّذِي تَرَكْتَهُ عِنْدَ أَمْرِكَ إِمَّ التَّضَلُّ " . فقال العباس: أَى ذَهَب؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّكَ قُلْتَ لَهَا لَا أَدْرَى مَا يَصْنَعُنِي فِي وَجْهِ هَذَا فَإِنْ حَدَثَ بِي حَدَثٌ فَهُوَ لَكَ وَلَوْلَكَ " فقال: يَا بْنَ أَسَى، مَنْ أَخْبَرَكَ بِهَذَا؟ قال: " اللَّهُ أَخْبَرَنِي " . قال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قط إلا اليوم، وقد علمت أنه لم يطلعك عليه إلا عالم السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأَنَّكَ صِدِّيقُ رَسُولِهِ، وَكَفَرْتُ بِمَا سِوَاهُ، وَأَمَرَ ابْنُ أَخُوِي فَأَسْلَمَا، فَفَهِنِمَا نَزَلَتْ: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَمْثَرِ » . وكان الذي أَمَرَ الْعَبَّاسَ أَبَا الْيَسْرِ كَسْبَ بْنِ عَمْرٍو أَخَا ابْنِ سَلَمَةَ، وَكَانَ رَجُلًا قَصِيرًا، وَكَانَ الْعَبَّاسُ ضَخْمًا مُلَوِيلاً، فَلَمَّا جَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: " لَقَدْ أَعَانَكَ عَلَيْهِ مَلَكٌ " .

الثانية - قوله تعالى: (إِنْ يَسْأَلُكَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا) أى إسلاما، (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا) بِمَا أَخَذَ مِنْكُمْ) أى من الفسدية . قيل في الدنيا . وقيل في الآخرة . وفي صحيح مسلم أنه لما قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إِنِّي قَادَيْتُ نَفْسِي وَقَادَيْتُ عَقِيلًا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خُذْ " فَبَسَطَ ثَوْبَهُ وَأَخَذَ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ . مَخْصُوصًا . فِي خَيْرِ الصَّحِيحِ: فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَإِنَّا بَعْدُ أَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي . قَالَ الْعَبَّاسُ: وَأَعْطَانِي زَمْزَمَ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا جَمِيعُ أَمْوَالِ أَهْلِ مَكَّةَ . وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ إِلَى الْعَبَّاسِ أَنَّهُ قَالَ: " فَنَزَلَتْ حِينَ أَعْلَمْتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِسْمِي، وَسَأَلَنِي أَنْ يَخَافَنِي بِالْعَشْرِينَ أَوْقِيَةً الَّتِي أَخَذْتُ مِنْ قَبْلِ الْفِتْنَةِ فَأَبَى . وَقَالَ: " سِتٌّ فِيَّ "، فَأَبَدَنِي اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عَشْرِينَ حَبْلًا كَلَّوْهُمْ تَابِعَ بِمَالِي . وَفِي مُصَنَّفِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ

عائشة رضي الله عنها قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص
بالم ، وبعثت فيه خلافة لما كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص . قالت : فلما رأها
رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها وقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا
عليها الذي لها » فقالوا نعم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أخذ عليه أو وعده أن يحل سبيل
زينب إليه . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال :
« كونوا بيطن^(١) يا حج حتى تمر بكا زينب فتصحبها حتى تأتيا بها . قال ابن إسحاق : وذلك
بعد بدر . بشر . قال عبد الله بن أبي بكر : حدثت عن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم أنها قالت : لما قدم أبو العاص مكة قال لي : تجهزي ، فالحق بآبيك . قالت : فخرجت
أتمهز فلقيتي هند بنت عتبة فقالت : يا بنت عدي ، ألم ييلني أنك تريدن الحق بآبيك ؟ قلت :
لما ما أردت ذلك . فقالت : أي بنت عم ، لا فعل ، إلى امرأة مؤسرة وعندى سلع من
حاجتك ، فإن أردت سلمة يتركها ، أو قرضا من هقة أفرضتك ، فإنه لا يدخل بين النساء
ما بين الرجال . قالت : فوافقه ما أراها قالت ذلك إلا لتضل ، فغفها فكتبتها وقلت : ما أريد
ذلك . فلما فرغت زينب من جهازها أرخت وتخرج بها نحوها يقودها نهارا كناية عن الربيع .
وتسامع بذلك أهل مكة ، وتخرج في طلبها حبار بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفهري ، وكان
أول من سبق إليها حبار فروعهما بالرمح وهما في قودجهما . وركب كانه وتربله ، ثم أخذ قوسه
وقال : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما . وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش
فقال : يا هذا ، أسكت عما نبئك حتى نكلتك ، فوقف عليه أبو سفيان وقال : إنك لم تصنع
شيئا ، خرجت بالمرأة على رموس الناس ، وقد عرفت مصيبتنا التي أصابتنا يسير فظن
العرب وتحدث أن هذا وهن منا وضعف تحريكك إليه يا بنته على رموس الناس من بين
أظهرك . أرجع بالمرأة فاقم بها أياما ، ثم سلها سلا ونيقا في الليل فالحقها بأبيها ، فلمعري ، لا

(١) : باج (كسيع ويسر ويضرب) : موضع بمكة .

بحسبها عن أبيها من حاجة ، وما لنا في ذلك الآن من ثورة فيها أصاب منا ، ففعل . فلما مر به يومان أو ثلاثة سلها ، فانطلقت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا أنها قد كانت ألفت - للزومة التي أصابتها حين رزقها جبار بن أم درهم - ما في بطنها .

الثالثة - قال ابن العري : ولما أيسر من أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يعضوا فيه عزيرة ولا اعتروا به اعترافا جازما . وبشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبتعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يعض فيه مزية لم يكن مؤمنا . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا . إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر على دفعها لأن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بين الله (رسوله صلى الله عليه وسلم) الحقيقة فقال : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » بكفرهم ومكرهم بك وقتلهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيرا وعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويؤمهم خيرا مما نخرج عنهم ويفرلهم ما تعلم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم . « وجمع خيانة خيائن ، وكان يجب أن يقال : خوائن لأنه من ذوات الوارد ، إلا أنهم فرغوا بينه وبين جمع خائنة . ويقال : خائن وخوان وخونة وخانة .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ لِحُجَّتِهِمْ هَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوا فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبْسُوكُمْ وَيَبْغِيهِمْ مَيْمَنَةً وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٧** وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إِلَّا زَعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق
وليه الذي يستين به . وقد تقدم معنى الهجرة والجهاد لغة ومعنى ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ﴾
معطوف عليه . وهم الأنصار الذين تبعوا الدار والإيمان من قبلهم ، وأنضبوا اليهم النبي صلى
الله عليه وسلم والمهاجرون . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان ﴿ أُولَئِكَ بَعْضُ ﴾
خبره ، والجميع خبر « إن » . قال ابن عباس : « أولياء بعض » في الميراث ، فكانوا يتوارثون
بالمهجرة ، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر ففسخ الله ذلك بقوله : « وأولوا الأرحام »
الآية . أخرجه أبو داود . وصار الميراث لقوى الأرحام من المؤمنين . ولا يتوارث أهل
ملتين شيئا . ثم جاء قوله عليه السلام : « اَلْفَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا » على ما تقدم بيانه في آية
المزاريث . وقيل : ليس هنا نسخ ، وإنما مضاه في النصرة والمعونة ، كما تقدم في « النساء » .
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ابتداء والخبر ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقرأ يحيى بن زكريا والأعمش
وحزمة « من ولايتهم » بكسر الواو . وقيل هي لغة . وقيل : هي من وليت الشيء ، يقال :
ولي بين الولاية . ووال بين الولاية . والفتح في ههنا بين وأحسن ، لأنه بمعنى البصرة
والنسب . وقد تطلق الولاية والولاية بمعنى الإمارة .

(١) راجع ج ٣ ص ٩٤ طبة أدلة آفاقية . (٢) راجع ج ٥ ص ٩٥ طبة أدلة آفاقية .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفیر أومال لاستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تغذلوهم . إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ، ولا تنقضوا العهد حتى تم مدته . ابن السري : إلا أن يكونوا [أسراء] مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة ، حتى لا يبقى ما عين تطريف حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عدداً يحتمل ذلك ، أو تبدل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ، فإن الله وإنا إليه راجعون ، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفصول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد . الزجاج : ويجوز « فإليكم النصر » بالنصب على الإغراء .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئَاءُ بَعْضٌ ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بينهم ويتعاملون باعتقادهم . قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم : لا يزوجه ، إذ لا ولاية بينهما ، وزوجها أهل ملتها . فكلا لا يزوج المسلمة إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوجه إلا كافر قريب لها ، أو أسقف ، ولو من مسلم ، إلا أن تكون معتقة ، فإن عقد على غير المعتقة فسخ إن كان مسلم ، ولا يمرض للنصراني . وقال أصبغ : لا يفسخ ، عقد المسلم أولى وأفضل .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَفْقَهُوا ﴾ الضمير عائد على الموارنة والتزامها . المعنى : إلا تتكرم بتوارثون كما كانوا يتوارثون ؟ قاله ابن زيد . وقيل : هي عائدة على التناصر والموازرة والمعاونة واتصال الأيدي . ابن جرير وغيره : وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب فهو أكد من الأول . وذكر الترمذي عن عبد الله بن مسلم بن هرم بن هرم عن محمد وسعد أبي عبيد عن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون

دينه وخلفه فأتكفوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض فساد كبير . قالوا : يا رسول الله . وإن كان فيه ؟ قال : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلفه فأتكفوه » ثلاث مرات . قال : حديث غريب . وقيل : يعود على حفظ العهد والميثاق الذي تضمنته قوله : « إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبْسُغُونَ بِأَيْمَانِهِمْ » . وهذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها . وقيل : يعود على النصر للساكنين في الدين . وهو معنى القول الثاني . قال ابن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايته في الدين دون من سواهم ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض . ثم قال : « إِلَّا تَفْعَلُوهُ » وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين . (تَكُنْ فِتْنَةً) أى محنة بالحرب ، وما أنجز منها من الغارات والجللاء والأسر . والفساد الكبير : ظهور الشرك . قال الكسائي : ويجوز النصب في قوله « تكن فتنة » على معنى تكن فتنة فسادا كبيرا . (حَقًّا) مصدر ، أى حَقَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِالْمَجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ . وحقق الله إيمانهم بالبشارة في قوله : « لَكُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى ثواب عظيم في الجنة .

الخامسة - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُوا) يريد من بعد الحديبية وبهمة الرضوان . وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الأولى . والهجرة الثانية هي التي وقع فيها الصلح ، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة . ولهذا قال عليه السلام : « لا هجرة بعد الفتح » . فبين أن من آمن وهاجر من بعد يلحق بهم . ومعنى « منكم » أى مطلقكم في النصر والمواواة .

السادسة - قوله تعالى : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) ابتداء ، والواحد ذو ، والرحم مؤنثة ، والجمع أرحام . والمراد بها هنا العصبات دون المولود بالرحم . وما بين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وَصَلَتْ رَحِمٌ . لا يريدون قرابة الأم . قالت قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث - كذا قال ابن هشام . قال السجستاني : الصحيح أنها بنت النضر لا أخته ، كذا وقع في تلخيص الدلائل - ترى أباه حين قتله النبي صلى الله عليه وسلم صبرا - بالصفراء :

يا راجئاً إن الأتيل مظنة * من صبح خامسة وأنت موقن
أبلغ بها ميتاً بأنت تحية * ما إن زال بها النجائب تخفيق
مضى اليك وعبرة مسفوحة * جادت بواكفها وأغمر تخفيق
هل يسمعي النضر إن نأديته * أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أعج يا خير ضن زكريا * في قومها والفعل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما * من الفتى وهو المغيظ المحقق
لو كنت قابل فدية لفتيته * بأعز ما يغدو به ما ينفيق
فالتضرأقرب من أسرت قرابة * وأحقهم إن كان عتي يقتق
ظلت سيوف بنو أبيه تنوشه * لله أرحام هناك تفسق
صبراً يُعاد إلى المنية متعباً * رسف المقيد وهو عاني موقن

السابعة - وأختلف السلف ومن بعدهم في توريث ذوى الأرحام - وهو من لا سهم له في الكتاب - من قرابة الميت وليس بصصة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخالة، والمأخ الأب للأُم، والجد أب الأم، والجدة أم الأم، ومن أدنى بهم . فقال قوم : لا يرث من لا فرض له من ذوى الأرحام . وروى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وأبن عمر، ورواية عن عليّ، وهو قول أهل المدينة، وروى عن مكحول والأوزاعي، وبه قال الشافعي - رضي الله عنه . وقال بتوريثهم : عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الدرداء وعائشة وعليّ - في رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد وإسحاق . واحتجوا بالآية، وقالوا : لقد أجمع في ذوى الأرحام سببان القرابة والإسلام، فهو أولى ممن له سبب واحد وهو الإسلام . أجاب الأولون فقالوا : هذه آية بجملة جامعة، والظاهر بكل رحم أقرب أو بعد، وآيات المواثيق مفسرة والمفسر قاض على المجمل ومبين . قالوا : وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الولاء سبباً ثانياً، أقام الموثق فيه مقام المصبة فقال : " الولاء لمن

أعني . ونهى عن بيع الولاء وعن هبته . احتج الآخرون بما روى أبو داود والدارقطني عن المقدم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ترك كلاً فإلى " — وربما قال نزل الله وإلى رسوله — ومن ترك مالا فلو رثته فإنا وارث من لا وارث له أعقل عنه وأرثه والخال وارث من لا وارث له يعقل عنه ويرثه " . وروى الدارقطني عن طاوس قال قالت عائشة رضي الله عنها : " الله مولى من لا مولى له ، والخال وارث من لا وارث له " . موقوف . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخال وارث " . وروى عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخالة فقال : " لا أحدي حتى يأتيني جبريل " ثم قال : " أين السائل عن ميراث العمة والخالة ؟ " قال : فأتى الرجل فقال : " سألتني جبريل أنه لا شيء لها " . قال الدارقطني : لم يسنده غير مسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف ، والصواب مرسل . وروى عن الشعبي قال قال زياد بن أبي سفيان بلجيسه : هل يدرى كيف قضى عمر في العمة والخالة ؟ قال لا . قال : إني لأبلم خلق الله كيف قضى فيهما عمر ، جعل الخالة بمنزلة الأم ، والعمة بمنزلة الأب .

تفسير سورة براءة

ملنية باتفاق

قوله تعالى : بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - في اسمائها ، قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فتأبى : تلك الفاصحة ، ما زال يترى : ومنهم ومنهم ، حتى خفنا ألا ندع أحدا . قال القشيري : أبو نصر عبد الرحيم : هذه السورة نزلت في غزوة تبوك ، ونزلت بعدها ، وفي أولها نبذ يهود الكفار إليهم . وفي السورة كشف أسرار المنافقين . وتسمى الفاصحة والبُعْثُ ، لأنها تبيح عن أسرار المنافقين . وتسمى المبعثة . والمبعثة : البعث .

الثانية - واختلف العلماء في سبب سقوط البسطة من أول هذه السورة على أقوال خمسة : الأول - أنه قيل كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسطة ؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين بعت بها النبي صلى الله عليه وسلم على ابن أبي طالب رضى الله عنه ، فقراها عليهم في الموسم ، ولم يسفل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسطة . وقول ثان - روى النسائي قال حدثنا أحد قال حدثنا محمد بن المنثري عن يحيى بن سعيد قال حدثنا عوف قال حدثنا يزيد الزرقاشي قال قال

(٥) قد بحث الأصول : « الرازي » . وراوى في صحيح الترمذي : « الفارسي » . قال الترمذي تعقبا عليه : « حسن صحيح » لا نعرفه إلا من حديث عوف بن يزيد الفارسي عن ابن عباس . ويزيد الفارسي قد روى عن كثر عيسى غير حديث . ويقال : هو يزيد بن هرمز ، ويزيد الزرقاشي هو يزيد بن أبان الزرقاشي ، ولم يدرك ابن عباس ، إنما روى عن أنس بن مالك ، وكلاهما من البصرة . ويزيد الفارسي أقدم من يزيد الزرقاشي .

لنا ابن عباس : قلت لعنان ما حملكم إلى أن عمدتم إلى « الأنفال » وهي من المثاني ، وإلى « راءة » وهي من المثني ففرتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضموها في السبع الطول ؛ فما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : « ضموا هذه الآيات في السورة التي فيها كذا وكذا » . وتزل عليه الآيات فيقول : « ضموا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » .

وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل ، و « براءة » من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فظنلت أنها منها ، فن تم فرئت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . وخرجه أبو عيسى الترمذي وقال : هذا حديث حسن . وقول ثالث - روى عن عثمان أيضا . وقال مالك في رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أولها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه . وروى ذلك عن ابن سبيل أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قريبا ، فذهب منها ؛ فلذلك لم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم . وقال سعيد بن جبير : كانت مثل سورة البقرة . وقول رابع - قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان . ففكرت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ؛ فرضى الفريقان معاً ، وثبتت جهنهما في المصحف . وقول خامس - قال عبد الله بن عباس . سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان . وروى معناه عن المبرد قال : ولذلك لم يجمع بينهما ؛ فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة ، وبراءة نزلت بسطة . ومثله عن سفيان . قال سفيان بن عيينة : إنما لم

(١) السبع الطول : سبع سور ، وهي سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف فهذه ست سور متواليات . واختلفوا في السابعة ؛ فبهم من قال : السابعة الأنفال وبراءة وهدمها سورة واحدة . وبهم من جعل السابعة سورة يونس .

تكتب في صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين. والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة؛ قاله القشيري. وفي قول عثمان: قُضِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبينه، وأن براءة وحدها ضُمَّت إلى الأنفال من غير عهد من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لما عاجله من الجاهل قبل تبيينه ذلك. وكنا تَدْعِيَانِ الْفَرِيقَيْنِ، فوجب أن تُجْمَعَا وتضم إحداهما إلى الأخرى؛ للوصف الذي لزمهما من الاقتران ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي.

الثالثة - قال ابن العربي: هذا دليل على أن القياس أصل في الدين، ألا ترى إلى عثمان وأبيان الصحابة كيف جلتوا إلى قياس الشبه عند عدم النص، وراوا أن قصة «براءة» شبيهة بقصة «الأنفال» فالحقوها بها، فإذا كان الله تعالى قد بين دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام.

الرابعة - قوله تعالى: (بَرَاءَةٌ) تقول: برئت من الشيء أبرا براءة فإنا منه برئ، إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه. و«براءة» رفع على خبر ابتداء مضمر، تقديره هذه براءة. ويصح أن ترفع بالابتداء. والخبر في قوله: «إلى الذين». وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتحوّلت تمريرا، وجاز الإخبار عنها. وقرأ عيسى بن عمر: «براءة» بالنصب، على تقدير الترموا براءة، ففينا معنى الإغراء. وهي مصدر على فعالة؛ كالثناء والدعاة.

الخامسة - قوله تعالى: (إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يعني إلى الذين عاهدكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان المتوَلَّى للمقوقد، وأصحابه بذلك كلهم راضون، فكانهم عاهدوا وعاهدوا فَنُسِبَ إليهم. وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوب إليهم بحسب عليهم ويأخذون به، إذ لا يمكن غير ذلك؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذر. فإذا عقد الإمام لنا براءة من المصلحة أمرا لزم جميع الرعايا.

قوله تعالى : **فَيَسْجُوْا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَّجُوا أَنْتَ كَرِهَ اللَّهُ مُبْعَذَرِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ** ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(فَيَسْجُوْا)** رجع من الخلع إلى الخطاب ، أى قُلْ لِمَ يَسْجُوْا أى سجدوا في الأرض مقبلين ومديرين ، آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر . يقال : ساح فلان في الأرض يسبح سباحة وسووا وسجنا ، ومنه السَّيْح في المساء الجارى المنبسطة ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفتُ هذا منك ما يَلْتَنِي • حتى ترى خيلا أمامي تسبح

الثانية - وأختلف العلماء في كيفية هذا التأجيل ، وفي هؤلاء الذين يرى الله منهم ورسوله . فقال محمد بن إسماعيل وغيره : هما صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدة عهده بنهر أجل مجدود تقصر به على أربعة أشهر ليرتاد نفسه . ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله ولأئمة المؤمنين ، يقتل حيث ما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب . وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر ، وانقضائه إلى عشر من شهر ربيع الآخر . فاما من لم يكن له عهد فإنما أجله انصلاح الأربعة الأشهر الحرم . وذلك نحوون يوما : عشرون من ذى الحجة والحرم . وقال الكلبي : إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد دون أربعة أشهر ، ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذي أمر الله أن يُبَيِّنَ له عهده بقوله **فَأَقِمْ وَفِىهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ** » وهذا اختيار الطبري وغيره . وذكر محمد بن إسماعيل ومجاهد وغيرهما : أن هذه الآية نزلت في أهل مكة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام الحديبية ، على أن يضعوا الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، فدخلت خراعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر في عهد قريش ، فمُتت

بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم . وكان سبب ذلك دما كان لبني بكر عند خزاعة قبل الإسلام بمدة ؛ فلما كانت الهدنة المتعددة يوم الحديبية ، آمن الناس بعضهم بعضا ، فأعظم بنو الدليل من بني بكر - وهم الذين كان الدم لهم - تلك الفرصة وغفلة خزاعة ، وأرادوا إدراك نار بني الأسود بن رزء ، الذين قتلهم خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الدليل فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مئة ، حتى يتوا خزاعة واقتلوا ، وأما بنت قريش بن بكر بالسلاح ، وقوم من قريش أعانهم بأنفسهم ، فأنهزمت خزاعة إلى الحرم على ما هو مشهور مسطور ؛ فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبديل بن ورقاء الخزاعي وقوم من خزاعة ، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستفتين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش ، وأنشد عمرو بن سالم فقال :

يا رب إني ناشدُ عينا • سَلَفَ أَيْمنا وأَيْسَهُ الْأَيْمنا
كُنْتُ لَنَا إِيَّا وَكُنَّا وَلَدًا • تَحْتِ أَسَانِيا ولم تَرَحْ يَدَنَا
فَأَنْصَرُ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا عَنَدًا • وَأَذْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا • أَيْبُضُ مِثْلُ الشَّمْسِ يَتَوَصَّدَا
إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا • فِي قَلْبِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدًا
إِنْ قَرِيْشًا أَخْلَقُوكَ الْمَوْعِدَا • وَنَقَضُوا مِثْلَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ تَدْعُو أَحَدًا • وَهَمُّ أَذْلٍ وَأَقْلُ عَدَدَا
هَمْ يَتَّسُونَا بِالْوَيْهِ تَجْمِدَا ^(١) • وَقَتَلُوا رَكْبَنَا وَجَبَدَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تُنْصَرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْب" . ثم نظر إلى صحابة فقال : "إنهبا لتسبيل أنصُر بَنِي كَعْب" ، يعني خزاعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في هامش تاريخ الطبري طبع أوربا قسم ١ ص ١٦٦٩ : « دزين » .

(٢) بيت القديم والحدود أربع يوم ليل . (٣) راجع تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام في فتح مكة .

(٤) في الأصول : « الحليم » . والتصويب عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة في ترجمة « عمرو بن سالم الخزاعي » ، والتصويب : اسم ماء أسفل مكة لخزاعة .

لُبْدِيلَ بْنِ رَزَاقٍ وَمِنْ مَعَهُ : « إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ سَيَأْتِيكَ الْعَقْدُ وَيَزِيدُ فِي الصَّلَاحِ وَسَيَنْصَرِفُ »^(١)
 « بغير حاجة » . فَبَدِثَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مَا فَعَلَتْ ، فَخَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَدِيمَ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ
 فِي الصَّلَاحِ ، فَزَجَّجَ بِغَيْرِ حَاجَةٍ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ خَبَرِهِ .
 وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ فَفَتَحَهَا اللَّهُ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ .
 فَلَمَّا بَلَغَ هَوَازِنَ فَتَحَ مَكَّةَ بِجَمْعِهِمْ مَالِكُ بْنُ حَوْفٍ النَّصْرِيُّ ، عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ مِنْ
 فَتْرَةِ حُنَيْنٍ . وَسَيَّاقَ بَعْضُهَا . وَكَانَ الظُّفَرُ وَالنَّصْرُ لِلْمَدِينَةِ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَكَانَتْ وَقْعَةُ
 هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ فِي أَوَّلِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ . وَتَزَكَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ قَسَمَ الْغَنَامَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالنِّسَاءِ ، فَلَمْ يَقْسِمَهَا حَتَّى آتَى الطَّائِفَ ، لِمَا صَرَفَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضِعْمًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً . وَقِيلَ فِي ذَلِكَ ، وَنُصِبَ عَلَيْهِمُ الْمُتَجَنِّبِيُّ وَرِيعَانُ بِهِ ،
 عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ تِلْكَ الْفَتْرَةِ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْجَمْرَةِ ،
 وَقَسَمَ غَنَامَ حُنَيْنٍ ، عَلَى مَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْ أَسْرَافِهَا وَخَبَرِهَا ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَتَخَوَّفُوا ، وَأَقَامَ الْحِجْلُ لِلنَّصْرِ حَتَّى ابْنُ أَبِي سَيْدٍ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَهُوَ أَوَّلُ أَمِيرِ أَقَامَ الْحِجْلَ فِي الْإِسْلَامِ .
 وَخَرَجَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَشَاغِرِهِمْ . وَكَانَ حَتَّابُ بْنُ أَبِي سَيْدٍ خَيْرًا فَاضِلًا وَرِيعًا . وَقَدِمَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ
 ابْنُ أَبِي سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْتَدَحَهُ ، وَأَقَامَ عَلَى رَأْسِهِ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

• بَانَتْ سُدُودِي الْيَوْمَ مَبْتُولٌ •

وَأَنْشَدَهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَذَكَرَ فِيهَا الْمُهَاجِرِينَ فَأَتَى عَلَيْهِمْ - وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ سُفِّطَ لَهُ
 شِمَاءُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَابَ عَلَيْهِ الْأَنْصَارُ إِذْ لَمْ يَذْكُرْهُمْ ، فَعَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَصِيدَةٍ يَمْدَحُ فِيهَا الْأَنْصَارَ فَقَالَ :

مَنْ سَرَّهَ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَلِ • فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ^(٢)
 وَرَدُّوا الْمَكَارِمَ كَأَبْرَارٍ • لَنْتِ الْخِيَارُ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ
 الْمَكْرُهِينَ السُّمَهْرِيَّ بَأَذْنَعِ • كَسَوَانِلَ الْهَيْدَى غَيْرَ قِصَارِ^(٣)

(١) فِي ابْنِ حَتَّابٍ : « فِي الْقِتَّةِ » . (٢) الْقَنْبُ : الْجِلْبَابُ مِنَ الْقَوَارِصِ .
 (٣) السُّمَهْرِيُّ : الْفَرَحُ . وَمَا تَعَالَى : أَطْلَعَهَا وَأَصْرَفَهَا كَرِيمًا - وَالْهَيْدَى : الرِّيحُ .

وَالنَّاصِرِينَ بِأَعْيُنٍ عَمْرَةٍ • كَالْجَمْرِ ضِعْرَ كَلِيلَةِ الْأَبْصَارِ
وَالْبَاقِينَ فَنُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ • لَلْوَيْتِ يَوْمَ تَأْتِي وَصَكْرَارِ
يَنْطَهَرُونَ بِرُؤُوسِهِمْ تُسْكَالَهُمْ • بِدِمَاءٍ مِّنْ عَيْفُوا مِنَ الْكَيْفَارِ
دَرَبُوا كَمَا دَرَبْتَ بَطْنِي خَفِيَّةً • غُلْبُ الرِّقَابِ مِنَ الْأَسْوَدِ ضَوَارِ^(١)
وَإِذَا حَلَّتْ لِيَمْنُوكَ إِلَيْهِمْ • أَصْبَحَتْ حِنْدُ مَعَاظِلِ الْأَغْثَارِ^(٢)
ضَرَبُوا عَلَيَّ يَوْمَ يَدْرِ ضَرْبَةً • دَانَتْ لَوْقَتَهَا جَمِيعُ زَلَارِ^(٣)
لَوْ يَسْلُمُ الْأَعْوَامُ عَلَيَّ كُلَّهُ • فَيَسْمُ لَعَنَتُنِي الَّذِينَ أُمَارِي^(٤)
قَوْمٌ إِذَا خَوَتْ النُّجُومُ لَانْهَسِمَ • لِلطَّارِقِينَ النَّازِلِينَ مَقَارِي^(٥)

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحجة والمحرم وصفر وبيع الأول وبيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، ونرج في رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، غزوة تبوك. وهي آخر غزوة غزاها. قال ابن جرير عن مجاهد: لما أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك أراد الحج ثم قال: "إنه يحضر البيت عرأة مشركون بطونون باليت فلا أحب أن أجي حتى لا يكون ذلك". فارتل أبا بكر أميرا على الحج، وبعث معه أزمين آية من صدر «براة» ليقرأها على أهل الموسم. فلما خرج دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليا وقال: "انخرج بهذه القصة من صدر براة فأذن بذلك في الناس إذا اجتمعوا". فخرج علي على ناقته النبي صلى الله عليه وسلم المتعبا حتى أدرك أبا بكر الصديق رضى الله عنهما بذى الحليفة. فقال له أبو بكر لما رآه: أمير أم ماور؟ فقال: بل ماور ثم نهضا، فاقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية. في كتاب السائق عن جابر: رأت عليا قرأ على الناس «براة» حتى ختمها قبل يوم القيامة يوم.

(١) دَرَبُوا: أحادوا، وخفية: موضع كثير الأسد. والعلب: الغلاب، الرقاب. والفضارى: الفواقى، ضرب من
بكل لحم الناس، الواحد ضار. (٢) المعازل: الحصون. والأغثار: أولاد الأربية (الرحل) راحدا ما نفر.
(٣) عل: هو علي بن بكر بن وائل. ويقال: هو علي أخوه جده سنة بين نزيرة من أمه. وقالها: هو علي بن
مسعود بن مازن. (٤) خوت: إذا لم يكن لها مطر. والمقار: جمع مقري، الذي يقرى الشبهته.

وفي يوم غرة وفي يوم التجر عند انقضاء خطبة أبي بكر في الثلاثة الأيام : فلما كان يوم التجر
 الاول قام أبو بكر فخطب الناس ، فحذّثهم كيف ينبغيون وكيف يرمون ، يعلّثهم مناسكهم .
 فلما فرغ قام عليّ فقرأ على الناس « برأة » حتى ختمها . وقال سليمان بن موسى : لمّا خطب
 أبو بكر عرفه قال : قم يا عليّ فاذر رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عليّ ففعل .
 قال : ثم وقع في قضي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر ، فجعلت أتتبع الفساطيط
 يوم النحر . وروى الترمذيّ عن زيد بن يثيع قال : سألت عليّاً بأيّ شيء بُعث في الحج ؟
 قال : بُعث بأربع : ألا يطوف بالبيت حُرّمان ، ومن كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه
 وسلم عهد فهو إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فاجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس
 مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : فلهذا حليت حسن صحيح .
 وانخرجه النسائيّ وقال : فكنت أأدى حتى جعل صوتي في قال أبو عمر : بُعث عليّ ليُبد
 إلى كل ذي عهد عهد ، ويعهد إليهم ألا يصح بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت حُرّمان .
 وأما الحج في ذلك العام سنة تسع أبو بكر . ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل حجّته
 التي لم يصح فيها من المدينة ، فوفقت حجّته في ذي الحجة . فقال : « إن الإيمان قد استدار »
 الحديث ، على ما يأتي في آية النبيّ ، بيانه . وثبت الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة . وذكر
 مجاهد : أن أبا بكر حج في ذي القعدة من سنة تسع . ابن العربيّ : وكانت الحجة في إعطاء
 « برأة » لعلّ أن برأة تضمّنت نقض العهد الذي كان عقده النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانت
 سيرة العرب ألا يخلّ العقد إلا الذي عقده ، أو رجل من أهل بيته ، فأراد النبيّ صلى الله عليه
 وسلم أن يقطع السنة الزب بالهجرة ، ويرسل ابن عمه الماشي من بيته بنقض العهد ، حتى
 لا يبقى لهم متكلم . قال نعمان الزجاج .

الثالثة - قال الساء : وتضمّنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين
 ولذلك حالتان : حالة تقضي المدّة بيننا وبينهم فتؤذّنهم بالحرب . والإيضاح اختيار .

(١) الفصل : حدة الصوت مع جمع .

(٢) في قوله تعالى : « إنما الدين زيادة في الكفر... » آية ٣٧ من هذه السورة .

والثانية - أن نخاف منهم غدرا؛ فننذ إليهم عهدهم كما سبق، ابن عباس: والآية مبسوخة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم عاهد ثم نبذ العهد لما أمر بالقتال.

قوله تعالى: **وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** فلان تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكروا غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴿١٠﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: **(وَأَذِّنْ)** الأذان: الإعلام لفة من غير خلاف. وهو مطلق على «برادة». **(إلى الناس)** الناس هنا جميع الخلق. **(يوم الحج الأكبر)** ظرف، والمعامل فيه «أذان». وإن كان قد وصفه بقوله: «من الله»؛ فإن راحة الفعل فيه باقية، وهي عاملة في الظروف. وقيل: المعامل فيه «عجزى». ولا يصح عمل «أذان»؛ لأنه قد وصف نفرج عن حكم الفعل.

الثانية - وأختلف العلماء في الحج الأكبر؛ فقليل يوم حرفة، روى عن عمر وعثمان وابن عباس وطائفة ومجاهد. وهو مذهب أبي حنيفة، وبه قال الشافعي. وعن علي وابن عباس أيضا وابن مسعود وابن أبي أوفى والمختلعة بن شعبة أنه يوم النحر. واختاره الطبري. وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر في الحجة التي حج فيها فقال: «أي يوم هذا؟» فقالوا: يوم النحر. فقال: «هذا يوم الحج الأكبر». أخرجه أبو داود. ونزج البخاري عن أبي هريرة قال: سئلت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر ويمنى؟ لا يصح بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: الحج الأصغر. فنبيذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام؛ فلم يصح عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم مشرك، وقال ابن أبي أوفى: يوم النحر يوم الحج الأكبر، يهراق فيه الدم، ويوضع فيه الشعر، ويأكل فيه الثفت،

وتُحِلُّ فِيهِ الْحُرْمَ . وهذا مذهب مالك ؛ لأن يوم النحر فيه الحج كله ؛ لأن الوقوف إنما هو في ليته ، والرُّبَى والنحر والحلق والطواف في صبيحته . احتج الأولون بحديث حُرْمَةِ أَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ يَوْمُ عَرَفَةَ " . رواه إسماعيل القاضي . وقال الثوري وابن جريج : الحج الأكبر أيامُ بَنِي كَلْبٍ . وهذا كما يقال : يوم صَفَيْنَ ويوم الجَلِّ ويوم بُعَاثَ ؛ فيراد به الحين والزمان لا نفس اليوم . وروى عن مجاهد : الحج الأكبر القِرَانُ ، والأصغر الأفراد . وهذا ليس من الآية في شيء . ومنه وعن عطاء : الحج الأكبر الذي فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر الثمرة . وعن مجاهد أيضا : أيامُ الحج كلها . وقال الحسن وعبد الله بن الحارث بن نوفل : إنما سُمِّيَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرُ لِأَنَّهُ حَجَّ ذَلِكَ الْعَامِ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ ، وَأَخْلَقَتْ فِيهِ يَوْمَئِذٍ أَعْيَادُ الْمَلَلِ : لليهود والنصارى والمجوس . قال ابن عطية : وهذا ضعيف أن يصفه الله عز وجل في كتابه بالأكبر لهذا . وعن الحسن أيضا : إنما سُمِّيَ الْأَكْبَرُ لِأَنَّهُ حَجَّ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَتَبَدُّثَ فِيهِ الْمُهَوِّدُ . وهو الذي يشبه نظر الحسن . وقال ابن سيرين : يوم الحج الأكبر العام الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم تحية الوداع ، وخُتِمَتْ مَعَهُ فِيهِ الْأُمَمُ .

الثالثة - قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) « أَنْ » بالفتح في موضع نصب . والتقدير بَرَأَ اللَّهُ . ومن قرأ بالكسر قلته بمعنى قال إن الله . « بَرَى » خبر أت . « ورسوله » عطف على الموضع ، وإن شئت على المضمَر المرفوع في « بَرَى » . كلاهما حسن ؛ لأنه قد طال الكلام ، وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير : ورسوله بَرَى منهم . ومن قرأ « ورسوله » بالنصب - وهو الحسن وغيره - عطف على اسم الله عز وجل

(١) بَيْنَ (بكرتين وتشديد الفاء) : موضع قرب الزفة على شاطئ القرات . كان فيه رقة بين على رضى الله عنه ومعاوية في سنة ٣٧ هـ .

ويوم الجبل كان فيه رقة بين على وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما ؛ قتل فيه حدة من الصبابة وبجرهم . وكان في سنة ٣٦ هـ .

يوم بَاط (بضم أوله والسين المهملة ؛ وسكاه بعضهم بالسين المججمة) : موضع من المدينة على ليلتين . كانت رقعة بين الأوس والخزرج في الجاهلية .

(٢) القرآن (بالكسر) : الجمع بين الحج والعمرة . والأفراد : هو أن يحرم بالحج وحده .

على اللفظ . وفي الشواذ « ورسوله » بالخفض على القسم ، أى وحق رسوله ؛ ورويت
عن ابن عباس . وقد قدمت قصة عمر فيها أول الكتاب . (فَإِنْ تَبَيَّنَ) أى عن الشرك .
(فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) أى أنفع لكم . (وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أى عن الإيمان . (فَأَعْلَوْا أَنْكُمْ غَيْرُ
مُجْرِي اللَّهِ) أى فأتقوا ، فإنه يحيط بكم ومنزل عقابه عليكم .

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا عَنْكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا الْبَيْعَ عَاهَدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) في موضع نصب بالاستثناء المتصل ؛
المعنى : أن الله يرى من المشركين إلا من الماهدين في مدة عهدهم . وقيل : الاستثناء
منقطع ، أى أن الله يرى منهم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتموا إليهم عهدهم
وقوله : « ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا عَنْكُمْ » يدل على أنه كان من أهل العهد من خاس بهده ومنهم من ثبت
على الهدى ؛ فإذن الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم في نقض عهد من خاس ، وأمر بالوفاء لمن
بقي على عهده إلى مدته . ومعنى « لَمْ يَنْقُصُوا عَنْكُمْ » أى من شروط العهد شيئا . (وَلَمْ يُظَاهِرُوا)
لم يداينوا . وقرا عكرمة وعطاء بن يسار « ثم لم ينقضواكم » بالضاد معجمة على حذف مضاف ؛
التقدير لم ينقضوا عهدهم . يقال : إن هذا غصوبس يراد به بنو قنبرة خاصة . ثم قال :
(فَأَتِمُوا الْبَيْعَ عَاهَدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ) أى وإن كانت أكثر من أربعة أشهر .

قوله تعالى : (فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْلَبُوا عَنْكُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ قُلْ إِنْ تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فيه ست مسائل :

(١) خاص العهد ١٠٠٠ : نقضه .

الأولى — قوله تعالى : (فَأَنزَلْنَا الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ) أى خرج . وسلختُ الشهر إذا صرت في أوانس أيامه ، تسلخه سلخاً وسلوخاً بمعنى خرجت منه . وقال الشاعر :

إذا ما سلختُ الشهرَ أهلتُ قبله * كفى قاتلاً سلخى الشهور وإهلال

وأنزلُ الشهر وأنسلخ النهار من الليل المقبل . وسلخت المرأة دوعها نزعتها : وفي التستريل « وآيةٌ لهم الليلُ تسلخُ منه النهار » ^(١) . ونخلةٌ مسلاخ ، وهى التى ينثر بُسرُها أخضر .

والأشهر الحرم فيها للماء قولان : قيل هى الأشهر المعروفة ، ثلاثة سرُّد واحد قرد .

قال الأصم : أريد به من لا عقده من المشركين ، فأوجب أن يسلك عن قتالهم حتى ينسلخ الحرم ، وهو مدة تحمين يوماً على ما ذكره ابن عباس ، لأن النداء كان بذلك يوم النحر .

وقد تقدم هذا . وقيل : شهور المهد أربعة ، قاله مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرون وشعيب . وقيل لها حرم لأن الله حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والتعرض لهم إلا على سبيل الخيرة .

الثانية — قوله تعالى : (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) عام في كل مشرك ، لكن السنة خصت منه ما تقدم بيانه في سورة « البقرة » ^(٢) من أمراء وراهب وصبي وغيرهم . وقال الله تعالى في أهل الكتاب : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » . إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب ، ويقضى ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتى بيانه .

وأعلم أن مطلق قوله : « اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » يقتضى جواز قتلهم بأى وجه كاف ، إلا أن الأخبار وردت بالتهى عن المثلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصديق رضى الله عنه حين قتل أهل الردة بالإحراق بالنار ، وبالجحارة والرمي من رموس الجبال ، والتبتيكيس في الأبار ، متفق بموم الآية . وكذلك إحراق علي رضى الله عنه قوماً من أهل الردة يجوز أن يكون ميلاً إلى هذا المذهب ، واعتقاداً على عموم اللفظ . والله أعلم .

(١) في اللسان والبحر المحيط : « أهلت منه » . (٢) آية ٢٧ سورة بين .

(٣) راجع ج ٢ ص ٣٤٥ طبعة ثانية . (٤) آية ٢٩ من هذه السورة .

الثالثة — قوله تعالى : (حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) عامٌّ في كل موضع . وخصّ أبو حنيفة رضي الله عنه المسجد الحرام ، كما سبق في سورة « البقرة » . ثم اختلفوا ؛ فقال الحسين بن الفضل : نسخت هذه كلّ آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء . وقال الضعّاك والنسائي وعطاء : هي منسوخة بقوله : « قَلَامًا مَّا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ » . وأنه لا يُقتل أسير صبرا ؛ إما أنّه يُمنّى عليه وإما أن يُفادى . وقال مجاهد وقتادة : بل هي ناسخة لقوله تعالى : « قَلَامًا مَّا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ » وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان عكسان . وهو الصحيح ؛ لأنّ المَنّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أقلّ حرب صار بهم ، وهو يوم بدر كما سبق . وقوله : (وَخَلُّوهُمْ) ينزل عليه . والاختذ هو الأسر . والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو . . . على ما يراه الإمام . ومعنى (اُخْصِرُوهُمْ) يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم ؛ إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان .

الرابعة — قوله تعالى : (وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ) المرصد : الموضع الذي يُرُقب فيه العدو ؛ يقال : رصدت فلانا أرضده ، أى رقبته . أى أقعدوا لهم في مواضع النّزعة حيث يُرصدون . قال حاصر بن السّكيت :

ولقد صليت وما إخالك ناسيا • أنت المنيّة للفتى بالمرصد

وقال مديّ :^(٢)

أعاذلّ إن الجهل من لّة الفتى • وإن المنيا للنفوس بمَرَصِد

وفى هذا دليل على جواز اعتيادهم قبل الدعوة . ونصب « كلّ » على الطرف ، وهو اختيار الزجاج ؛ ويقال : ذهبت طريقا وذهبت كلّ طريق . أو بإسقاط الخافض ؛ التقدير : في كلّ مَرَصِدٍ وعلى كلّ مَرَصِدٍ ؛ فيجعل المرصد اسما للطريق . وخطأ أبو علي الزجاج

(١) جامع ٢ ص ٣٥١ طبة ثانية . (٢) آية سورة نجد .

(٣) في الأصول : « النّاسية » والتصويب عن ألقان .

في جعله الطريق ظرفا وقال : الطريق مكان مخصوص كالبيت والمسجد ؛ فلا يجوز حذف حرف الجر منه إلا فيا ورد فيه الحذف سواء ؛ كما حكي سيويه : دخلت للشام ودخلت البيت ؛ وكما قيل :

• کا عسل طریق الثلب •^(۱)

الخامسة - قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا) أي من الشرك . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ تَفْلَحُوا سَبِيلَهُمْ) هذه الآية فيها تأمل ، وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك ، ثم قال : (فَإِنْ تَابُوا) . والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ، وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة ، من غير اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة . وهذا ين في هذا المعنى ، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين ، فلاصيل إلى إلزامهما . نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإنما فلانوكذا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . وقال ابن عباس : ربح الله أبا بكر ما كان أتعده . وقال ابن العربي : فانتظم القرآن والسنة وأطردوا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفروض مستحلاً كفر ، ومن ترك السنن متهاوناً فسق ، ومن ترك النوافل لم يخرج ، إلا أن يصح فضلهما فيكفر ، لأنه يصير إذاً على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنه . واختلفوا فيمن ترك الصلاة من غير جحد لها ولا استعلاء ، ف يرى يونس ابن عبد الأعلى قال : سمعت ابن وهب يقول قال مالك : من لمسن بالله وصلى للمرسلين وأبى أن يصلي قتل ، وبه قال أبو ثور وجميع أصحاب الشافعي . وهو قول حاد بن زيد ومكحول ووكيع . وقال أبو حنيفة : يسجن ويضرب ولا يقتل ، وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود ابن علي . ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

(۱) القاتل هو سامة بن جُزْءة وتمامه كما في اللان وكتاب سيره :

لَنْ يَزَالَكَ بِرَّكَ مِنْهُ • فَيَكُونُ عَمَلُهُ

إلا الله فإذا قالوا ذلك عَصَمُوا مِنْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَّا بِحَقِّهَا". وقالوا : حَقُّهَا الثلاث التي قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يَحِلُّ دَمُ أَمْرِي مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ أَوْ زُنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ ". وذهبت جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن من ترك صلاة واحدة متعمدا حتى يخرج وقتها لغير عذر، وأبى من أدائها وقضاها وقال لا أصلي فإنه كافر، ودعاه الله حلالا، ولا يرثه ورثته من المسلمين، ويستتاب ؛ فإن تاب وإلا قتل، وحكم ما له حكم مال المرتد ؛ وهو قول إصحاق . قال إصحاق : وكذلك كان رأى أهل العلم من لئن النبي صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا. وقال ابن خزيمة : واختلف أصحابنا متى يُقتل تارك الصلاة ؛ فقال بعضهم في آخر الوقت المختار، وقال بعضهم آخر وقت الضرورة، وهو الصحيح من ذلك . وذلك أن يبقى من وقت المصرا أربع ركعات إلى مغيب الشمس، ومن الليل أربع ركعات لوقت العشاء، ومن الصبح ركعتان قبل طلوع الشمس . وقال إصحاق : وذهاب الوقت أن يؤخر الظهر إلى غروب الشمس، والمغرب إلى طلوع الفجر .

السادسة - هذه الآية دالة على أن من قال : قد ثبت أنه لا يجزئ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أعماله المحققة للتوبة ؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحقق بهما التوبة . وقال في آية الرأيا : « وَإِنْ تُدْرِكُمْ فِيهِمْ صُفُوفُ أَمْوَالِكُمْ ^(١) » . وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَاصْلَحُوا وَيَتُوبُوا » وقد تقدم معنى هذا في سورة البقرة ^(٢) .

قوله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ^(٣) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى من الذين أسرتك بقتالهم . (اسْتَجَارَكَ) أى سال جوارك ؛ أى أمانك وذمأمك، فأعطه إياه ليسمع القرآن ؛ أى يفهم

(١) آية ٢٧٩ سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٨٧ طبع ثانية .

احكامه واوامره ونواحيه . فإن قيل أمرا لحسن ، وإن أتى فرتة إلى مأمته . وهذا ما لا خلاف فيه ، والله أعلم . قال مالك : إذا وجد الحربي في طريق بلاد المسلمين فقال : جئت أطلب الأمان . قال مالك : هذه أمور مشتبعة ، وأرى أن يرد إلى مأمته . وقال ابن القاسم : وكذلك الذي يوجد وقد نزل تاجرا بإساحتنا فيقول : ظننت ألا تعرضوا لمن جاء تاجرا حتى يبيع . وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام ، فاما الإجارة لتبديل ذلك فانما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعته .

الثانية - ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز ، لأنه مقدم للنظر والمصلحة ، نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار . واختلوا في أمان غير الخليفة ، فالحنابلة يفتون بأنه عند كافة العلماء ، إلا أن ابن حبيب قال : ينظر الإمام فيه . وأما البعيد فله الأمان في مشهور المذهب ، وبه قال الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعي والثوري وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : لا أمان له ، وهو القول الثاني لعلمائنا . والأول أصح ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " المسلمون تشكافا دماؤهم ويسى بذمتهم أدناهم " . قالوا : فلما قال " أدناهم " جاز أمان العبد وكانت المرأة الحرة أخرى بذلك ، ولا اعتبار بعتة " لا يسهم له " . وقال عبد الملك بن الماجشون : لا يجوز أمان المرأة إلا أن يمينه الإمام ، نشد بقوله عن الجمهور . وأما الصبي فإذا أطلق القتال جاز أمانه ، لأنه من جملة المقاتلة ، ودخل في الفئة الحامية . وقد ذهب أصحابك والسدي إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : « فاقتلوا المشركين » . وقال الحسن : هي محكمة ^(١) سنة إلى يوم القيامة ، وقاله مجاهد . وقيل : هذه الآية إنما كان حكمها باقيا مدة الأربعة الأشهر التي ضربت لهم أجلا ، وليس بشيء . وقال سعيد بن جبير : جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتي عمدا بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قتل !

(١) كذا في أكثر نسخ الأصول ونسب ابن حبان . وفي نسخة من الأصل : « مئة » وهي غير واضحة المعنى ، ولم نوفق لتوضيحها ، لأن هذه الكلمة غير مبرورة في قول الحسن بالمصادر التي برأيها على كثرتها

فقال: علي بن أبي طالب: لا، لأن الله تبارك وتعالى يقول: «وَأَن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ». وهذا هو الصحيح، والآية محكمة.

الثالثة - قوله تعالى: «(وَإِن أَحَدٌ)» أحد «مرفوع بإضمار فعل كالذي بعده، وهذا حسن في «إن» وقبيح في أخواتها، ومذهب سيبويه في الفرق بين «إن» وأخواتها، أنها لما كانت أم حروف الشرط خُصَّت بهذا، ولأنها لا تكون في غيره، وقال محمد بن يزيد: أما قوله «لأنها لا تكون في غيره» فنلظ؛ لأنها تكون بمعنى (ما) وغففة من الثقيلة ولكنها مبهمه، وليس كذا غيرها، وأشد سيويه:

لا تَجْزِي لِي إِن مَنِيًّا أَهْلَكْتُهُ * وَإِذَا أَهْلَكْتُ فَعِنْدَكَ فَاجْزِي^(١)

الرابعة - قال العلماء: في قوله تعالى (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) دليل على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ؛ قاله الشيخ أبو الحسن والقاضي أبو بكر وأبو العباس القلانسي وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسفراييني وغيرهم؛ لقوله تعالى: «حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ». فنس على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه، ويدل عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا: سمعنا كلام الله، وفرقوا بين أن يُقرأ كلام الله تعالى وبين أن يُقرأ شعر امرئ القيس، وقد مضى في سورة «البقرة» معنى كلام الله تعالى، وأنه ليس بحرف ولا صوت، والحمد لله.

قوله تعالى: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَهُمْ فَاَسْتَقِيمُوا
مَنْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾

(١) البيت كسرين توبيخ. وصف أن امرأته لأنه عن إلتاف ماله بزياد من الفقر؛ فقال لما: لا تجزى من أخلاق لنفس المال، فأن كذبل بإخلافه بعد التوفيق؛ وإذا هلكت فاجزى فلا خلف لك مني. (عن شرح التواهد).
(٢) راجع ج ٢ ص ١ طبعة ثانية.

قوله تعالى : (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) كيف هنا للتعجب كما تقول : كيف يسبقني فلان ! أى لا يسبقني . و «عهد» أمم يكون . وفى الآية إسماعيل . أى كيف يكون للمشركين عهد مع إسماعيل القدر كما قال :

وَجِئْتُمَنِي أَنَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى • فكيف وهاناً هَضْبَةٌ وَكَيْتُبٌ

التقدير : فكيف مات عن الزجاج . وقيل : المعنى كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه خذاه وكيف يكون لم عند رسوله عهد يأمنون به عذابه الدنيا . ثم استثنى فقال : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . قال محمد بن إسحاق : هم بنو بكر أى ليس العهد إلا هؤلاء الذين لم ينقضوا ولم ينكحوا .

قوله تعالى : (قَالُوا اسْتَفَاؤُا لَكُمْ فَاسْتَفِيمُوا هُمْ) أى فاستأفوا على الوفاء بهمكم فاستفوا لهم على مثل ذلك . ابن زيد : فلم يستقيموا فغضب لهم أجل أو بعة أشهر . فاما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب .

قوله تعالى : كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَقْبَلُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُؤْذِنُكُمْ بِأَقْوَامِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) أعاد التعجب من أن يكون لم عهد مع خيبت أعمالهم ، أى كيف يكون لم عهد وإن يظهروا عليكم لا يقبلوا فيكم إلا ولا ذمة : يقال : ظهرت على فلان أى غلبته ، وظهرت البيت علوته ؛ ومنه « قَالُوا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوا » (١) أى يعلو عليه .

(١) كما في الأصول والهمز . والذى في شواهد سيبويه وجهرة أشعار العرب : « وقلب » قال الشنفرى :
« تَأْتِي الْقُبُورَ وَأَمَامَهُ الْبُزْ » كأنه حذر من وباء الأسماروم . (٢) فخرج إلى الزيادة فزأى نبرا غلم (٣) .
لا يخفى منه . فقال هذا منكرا على من حذره من الإغاة بالقرى . . (٤) آية ٩٧ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذَلَمَةً ﴾ « يرقبوا » يحافظوا . والرقب الحافظ . وقد تقدم . « إِلَّا » عهدا ، عن مجاهد وابن زيد . ومن مجاهد أيضا : هو أسم من أسماء الله عز وجل . ابن عباس والضحاك : قرابة . الحسن : جوارا . قتادة : حلقا ، و « ذمة » عهدا . أبو عبيدة : عينا . وعنه أيضا : إِلَّا العهد ، والذمة التذم . الأزهرى : أسم الله بالبرانية ، وأصله من الأيل وهو البريق ، يقال : أل لونه يؤول ألأ ، أى صفاً ولح . وقيل : أصله من الحقة ، ومنه الآلة للحربة ، ومنه أذن مؤللة أى محددة . ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذن ناقته بالحقة والانتصاب :

مؤللتان تعرف العتق فيهما • كسامة شاة بمحمل مفرد^(١)

فإذا قيل للمهد والجوار والقرابة « إل » فمعناه أن الأذن تُصرف إلى تلك الجهة ، أى تحمد لها . والمهد يسمى « إلأ » لصفاته وظهوره . ويجمع في القلة آلال ، وفي الكثرة الإلال . وقال الجوهري وغيره : الإل بالكسر هو الله عز وجل ، والإل أيضا العهد والقرابة . قال حسان :

لمسرك إن إلك من قرش • كإل السقب من زأل النمام^(٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا ذِمَّة ﴾ أى عهدا . وهى كل حُرمة يلزمك . إذا ضيعتها ذنب . قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الذمة العهد . ومن جعل الإل العهد فافتكر باختلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة معمر : الذمة التذم . وقال أبو عبيد : الذمة الإيمان فى قوله عليه السلام : « من يسمى بذيمة أدنام » . وجمع ذمة ذمم . وبئر ذمة (شخ ذال) قليلة الماء ، وجمعها نمام . قال ذو الرمة :

(١) راجع ج ٥ ص ٨ طبة أول أرتانية . (٢) السامتان : الأذان . والمراد بالشاة هنا : التور الوحشى . وحمل : اسم دابة . شبه أذنها بأذن ثور وحشى لتحديد ما وصلق معهما ، وأذن الوحشى أمدق من عينه . « مفردا » لأنه أشد لسه وأزياه . (من شرح الديوان) .
(٣) السقب : وه الذقة . والزأل : وه النمام .

على خَيْرَاتٍ كَانَ عَيْنُهَا • ذِمَامُ الرِّكَايَا اَتَرَكْتُمَا الْمَوَاحِ

اَتَرَكْتُمَا اَنْعَمْتَ مَامَا • وَاَهْلُ الذِّمَّةِ اَهْلُ الْعَقْدِ •

قوله تعالى : (رَضَوْنَكُمْ يَا اَوَاهِيْمُ) اى يقولون بالسَّخْمِ مَا يُرْضِي ظَاهِرَهُ • (وَتَابَى قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَتْ فَايَقُونَ) اى ناقضون المَهْدَ • وكلُّ كافر فاسق ، ولكنه اراد هاهنا المجاهرين بالقبايح وقض المَهْدَ •

قوله تعالى : اَشْتَرَوْا بِعَايِنَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يعنى المشركين فى تقضمهم اليهود باكلة اطعمهم لياها ابو سفيان ؛ فله مجاهد • وقيل : انهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا • (تَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) اى أعرضوا ، من الصدود • أو متعوا عن سبيل الله ، من الصَّدَ •

قوله تعالى : لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُّونَ ﴿١٢﴾

قال النحاس : ليس هذا تكريرا ، ولكن الأول لجميع المشركين والثانى لليهود خاصة • والدليل على هذا « اَشْتَرَوْا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » يعنى اليهود ؛ بأعوا جميع الله عز وجل وبيانه بطلب الرياسة وطمع فى شئ • (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُّونَ) اى المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض المَهْدَ •

قوله تعالى : فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَتُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(١) المبريات : اهل منسوبة الى حمير ، وهى قبيلة من اليمن • الركايا : جمع ركة ، وهى البر • والمواحي : جمع مانح ، وهى الذى يسق من القتر • وصف لإلا غارت عيونها من الكلال • (٢) فى الأصول : « ما لا يرضى » وهو تحريف •

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام . ﴿ فَأَخَذْنَاكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدين . قال ابن عباس : حرمت هذه دماء أهل القبلة . وقد تقدم هذا المعنى . وقال ابن زيد : أنقض الله الصلاة والزكاة وأبى أن يفرق بينهما ، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال ابن مسعود : أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يرك فلا صلاة له . وفى حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من فرق بين ثلاث فوق الله بينه وبين رحمة يوم القيامة من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول والله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ومن قال أقيم الصلاة ولا أوفى الزكاة والله تعالى يقول : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ومن فرق بين شكر الله وشكر والديه والله عز وجل يقول : « أن أشكركم ولو بالديك » .

قوله تعالى : ﴿ وَفَصَّلَ الْآيَاتِ ﴾ أى نبينها . ﴿ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴾ خصمهم لأنهم هم المتفنون بها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا أَتَمُنُّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلْنَا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَمْنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۝١١ ﴾
فيه سبع مسائل :

الأول — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ التكتف النقص ، وأصله فى كل ما قيل ثم حل .
فهى فى الإيمان واليهود مستعمارة . قال :

وإن حلفت لا ينقض التائى عهدا * فليس لمخضوب البتآن يمين

أى عهد . وقوله : ﴿ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى بالاستنفاص والحرب وغير ذلك مما يفعل المشرك . يقال : طعنه بالرج وطعن بالقول السيئ فيه : طعُن ، بضم العين فهما . وقيل : طعُن بالرج (بالضم) وطعُن بالقول (بالفتح) . وهى هنا استعمارة ؛ ومنه قوله صلى الله عليه

١ - حين أَسْرَ اسامة : ^(١١) "إِنْ تَطْعُنَا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ وَأَيُّكُمْ إِلَهٌ إِنْ
مَنْ : فَلَا إِمَارَةَ" . نَحْجِهَ الصَّحِيحَ .

الثانية - استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين ؛
إد هو كافر . والظن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من
الدين ؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله وأساقمة فروعه . وقال ابن المنذر :
أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم عليه القتل . ومن قال ذلك
مالك والليث وأحمد وإسحاق ، وهو مذهب الشافعي . وقد حكي عن النجاشي أنه قال :
لَا يُقْتَلُ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ عَلَى مَا يَأْتِي . وروى أن رجلا
قال في مجلس علي : ما قُتِلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَّا غَدْرًا ؛ فَأُصِرَّ عَلَى بَضْرِبِ عُنُقِهِ . وقاله
آخر في مجلس معاوية فقام محمد بن مسلمة فقال : أَيْقَالَ هَذَا فِي جِلسِكَ وَتَسَكَّتْ ! وَاللَّهِ
لَا إِسَاءَتَكَ تَحْتِ سَفْطٍ أَبَدًا ، وَلَنْ خُلُوتُ بِهِ لِأَقْتُلَنَّهُ . قَالَ عَلِيٌّ : هَذَا يَقْتُلُ وَلَا
يَسْتَأْذِنُ إِنْ قَسَبَ الْغَدْرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهُوَ الَّذِي فَهَمَ عَلِيٌّ وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا مِنْ قَاتِلِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَ ذَلِكَ زَنْدَقَةٌ . فَأَقَامَا إِنْ نَسَبَهُ الْبَاسِرِينَ لِقَتْلِهِ بِحَيْثُ
يَقُولُ : أَنَّهُمْ أَتَمُّوهُ ثُمَّ غَدَرُوهُ لِكَانَتْ هَذِهِ النِّسْبَةُ كَذِبًا مَحْضًا ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ مَعَهُ مَا يَدُلُّ
عَلَى أَنَّهُمْ أَتَمُّوهُ وَلَا صَرَحُوا لَهُ بِذَلِكَ ، وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَمَا كَانَ أَمَانًا ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَعْسَا وَجْهَهُمْ لِقَتْلِهِ لِأَثَامَتِهِ ، وَأَذَنَ لِمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمَةَ فِي أَنْ يَقُولَ . وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ
فِي قَتْلِ مَنْ نَسَبَ ذَلِكَ لِمَنْ نَفَرَ وَتَرَدَّدَ . وَسَبِيهِ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ نِسْبَةِ الْغَدْرِ لِمَنْ نَسَبَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ صَوَّبَ فَعَلَهُمْ وَرَضَى بِهِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ رَضَى بِالْغَدْرِ وَمِنْ صَرَحَ بِذَلِكَ
بِقَتْلِ ؛ أَوْ لَا يَلْزَمُ مِنْ نِسْبَةِ الْغَدْرِ لِمَنْ نَسَبَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يُقْتَلُ . وَإِذَا قُلْنَا
لَا يَقْتُلُ ، فَلَا يَدُّ مِنْ تَنْجِيلِ ذَلِكَ الْفَائِلِ وَعَقُوبَتِهِ بِالْجَنِّ ، وَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ وَالْإِمَانَةِ
الْمُظْلِمَةِ .

(١) راجع صحيح مسلم (تجيب الفضائل) .

الثالثة - فأما الذي إذا طعن في الدين انتقض عهده في المشهور من مذهب مالك؛ لقوله: « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » الآية . فأمر بقتلهم وقتالهم . وهو مذهب الشافعي رحمه الله . وقال أبو حنيفة في هذا : إنه يستأب ، وإن مجرد الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النكث ؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما تقضيم العهد ، والثاني طعنهم في الدين . قلنا : إن عملا بما يخالف العهد انتقض عهدهم ، وذكر الأمرين لا يقتضي توقف قتاله على وجودهما ؛ فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراد عقله وشرعا . وتقدير الآية عندنا : فإن نكثوا عهدهم حل قتالهم ، وإن لم ينكثوا بل طعنوا في الدين مع الوفاء بالعهد حل قتالهم . وقد روي أن عمر رفع إليه : حي شخص دابة عليها امرأة مسلمة فرمحت فاستقطبتا فانكشف بعض عورتها ؛ فأمر بصلبه في الموضع .

الرابعة - إذا حارب الذي نقض عهده وكان ماله وولده فيك معه . وقال محمد ابن مسلمة : لا يؤاخذ وولده به ؛ لأنه نقض وحده . وقال : إنما ماله فيؤخذ . وهذا تراض لا يشبه منيصب محمد بن مسلمة ؛ لأن عهده هو الذي حو ماله وولده ؛ فإذا ذهب عنه ماله ذهب عنه وولده . وقال أنسب : إذا نقض الذي العهد فهو على عهده ولا يعود في الرق أبدا . وهذا من العجب ؛ وكأنهم رأى العهد معنى محسوسا . وإنما العهد حكم اقتضاء النظر ، والتزيمه المسلمون له ؛ فإذا نقضه انتقض كسائر العقود .

الخامسة - أكثر العلماء على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ، أو عرّض أو استخف بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فإنه يقتل ؛ فإنما لم نعطه الذمة أو العهد على هذا إلا بأباحتهم والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة فأنهم قالوا : لا يقتل ، ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدّب ويؤزر . والجملة عليه قوله تعالى : « وَإِنْ نَكَثُوا » الآية . واستدل عليه بعضهم بأمره صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وكان ماهددا . وتقيّد أبو بكر على رجل من أصحابه فقال أبو برة : ألا أضرب عنقه . فقال : ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدارقطني عن ابن عباس : أن رجلا أعمى كانت له

أم ولد؛ له منها ابنان مثل اللؤلؤتين، فكانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فنهاها فلم تنته، ويزجرها فلم تنزجر، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم لما صبر سيدها أن قام إلى ميول فوضعه في بطنها، ثم أتكا عليها حتى إنفذه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أشهدوا إن دمها هدر». وفي رواية عن ابن عباس: فقتلها، فلما أصبح قيل ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقام الأعمى فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولئى منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وتقع فيك وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فقتلتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أشهدوا إن دمها هدر».

السادسة — واختلفوا إذا سبه ثم أسلم تقيّة من القتل؛ يسقط إسلامه قتله؛ وهو المشهور من المذهب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله. بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب؛ قال الله عز وجل: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ». وقيل: لا يسقط الإسلام قتله؛ قاله في التنية؛ لأنه حق للنبي صلى الله عليه وسلم وجب لانتهاؤه حرمة ونقصه إلحاق التقيّة والمعتزة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذى يسقطه، ولا يكون أحسن حالا من المسلم.

السابعة — قوله تعالى: «فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ» (أمة جمع إمام، والمراد صناديد قريش — في قول بعض العلماء — كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف؛ وهذا بعيد؛ فإن الآية في سورة «براءة» وحين نزلت وقرئت على الناس كان الله قد استأصل شأفة قريش فلم يبق إلا مسلم أو مسلم؛ فيحتمل أن يكون المراد «فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ». أى من أقدم على نكث المهد والطعن في الدين لا يكون أصلا ورأسا في الكفر؛ فهو من أمة الكفر على هذا. ويحتمل أن يعنى به المقدّمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتال لاتباعهم وأنهم لا حرمة لهم. والأصل أُمّة كقتال وأمثلة؛ ثم أُدغمت الميم في الميم وقُلبت الحركة على الهمزة فاجتمعت

همزان، فأبدلت من الثانية ياء . وزعم الأخفش أنك تقول : هذا آيم من هذا . بالياء .
وقال المسازقي: آؤم من هذا، بالواو . وقرا حمزة « أئمة » . وأكثر النحويين يذهب إلى أن
هذا لحن^(١)؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة . (إِنْهُمْ لَا أَيْمَانَ لَكُمْ) أى لا عهد لهم؛
أى ليست عهودهم صادقة يؤفون بها . وقرا ابن عامر « لا إيمان لهم » بكسر المهملة من
الإيمان ؛ أى لا إسلام لهم . ويحتمل أن يكون مصدر أمته إيمانا، من الأمن الذى ضده
الخوف، أى لا يؤمنون ؛ من أمته إيمانا أى أجرته ؛ فهذا قال : « فقاتلوا أئمة الكفر » .
(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أى من الشرك ، قال الكلبي : كان النبي صلى الله عليه وسلم وادع أهل
مكة سنة وهو بالحديبية فحبسوه عن البيت ، ثم صالحوه على أن يرجع فكتبوا ما شاء الله ، ثم
قاتل حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة حلفاء بنى أمية من كنانة ، فأمدت بنو أمية
حلفاءهم بالسلاح والطعام ، فاستأنت خزاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزلت هذه الآية ،
وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمين حلفاءه كما سبق . وفي البخاري عن زيد بن وهب
قال : كنا عند حذيفة فقال ما بقى من أصحاب هذه الآية — يعنى « فقاتلوا أئمة الكفر إنيهم
لا أيمان لهم » — إلا ثلاثة ، ولا بقى من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابي : إنكم أصحاب
محمد تنحرون أخبارا لاتدرى ما نى ! تزعمون ألا منافق إلا أربعة ، فما بال هؤلاء الذين يبقرون
ببوتنا ويسرقون أعلقتنا . قال : أولئك القساق . أجل ، لم يبق منهم إلا أربعة ؛ أحدهم
شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده .^(٢)

(١) قال الزنجري في كتابه : « فان قلت كيف لفظ أئمة ؟ قلت : حمزة يدها حمزة بين يين ؛ أى بين مخرج
الحمزة والياء ، وتحقق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين . وأما اللين مع الاءاء طيس بزيادة
ولا يجوز أن تكون قراءة ، ومن صرح بها فهو لاجن بحرف » .

ونصّب على هذا أبو حنن في البحر بقره : « وذلك دأبه في تلميع المقرئين ، وكيف يكون ذلك لما قد قرأه
رأس البحر بين النخاعة أبو عمرو بن العلاء ، وقرأى مكة ابن كثير ، وقرأى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع » .
وقال الألويسي في درج المساق : « ... وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (أئمة) همزتين فانيهما بين يين ، أى بين
مخرج الحمزة والياء . والألف بينهما . والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر يشقيهما من غير إدخال ألف ، وهـ :
كذلك إلا أنه أدخل بينهما الألف . هذا هو المتصور عن القراء السبعة ... » .

(٢) الأملق : خالف الأموال . (٣) قال القائل : « له ما به شهوة ووداد ... » .
عقوبة الله له في الدنيا ، فلا يفرق بين الأشياء .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى عن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للساكنين . وذلك يقتضى أن يكون الفرض من قتالهم دفع ضررهم ليتبوا عن مقاتلتنا ويدخلوا في ديننا .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّذَرْنَا لَهُمُ الْإِيمَانُ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوا دُكْرَ آوَلِ مَرَّةٍ أَخْشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّذَرْنَا لَهُمُ الْإِيمَانُ ﴾ توبىخ وفيه معنى التحريض . زلت في كفار مكة كما ذكرنا آنفا . ﴿ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ ﴾ أى كان منهم سبب الخروج ، فاضيف الإخراج إليهم . وقيل : أخرجوا الرسول عليه السلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكت الذى كان منهم ، عن الحسن . ﴿ وَهُمْ بَدَأُوا دُكْرَ آوَلِ مَرَّةٍ ﴾ أى هضوا المهد وأعانوا بزكر حل خراقة . وقيل : بدؤكم بالقتال يوم بدر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج للبير ولما أحرزوا عيهم كان يمكنهم الانصراف ، فأبوا إلا الوصول إلى بدر وشرب الخمر بها ، كما تقدم . ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ أى تخافوا عقابه في ترك قتالهم ، من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكره . وقيل : إخراجهم الرسول منهم إياه من الحج والصخرة والطواف ، وهو ابتدأهم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧) وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ أمر . ﴿ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ ﴾ جوابه . وهو جزم بمعنى الجزاء . والتقدير : إن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخرجهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين . ﴿ وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتد . وقال مجاهد :

يعني نزاعة حنفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكَلَّ عطف . ويموز فيه كله الرفع على القطع من الأول . ويموز النصب على إضمار (أن) وهو الصرف عند الكوفيين ؛ كما قال :

فَإِن يَمَلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَمَلِكْ • رُبِعُ النَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَمُ

وَنَاخِذْ بَيْدَهُ يَذْنَبُ عَيْشَ • أَجَبَ الظُّهْرُ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

وإن شئت رفعت (وناخذ) وإن شئت نصبته . والمراد بقوله : (وَيَشْفِ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) بنو نزاعة ؛ على ما ذكرنا عن مجاهد . فإن قريشا أعانت بني بكر عليهم ، وكانت نزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم . فأنشد رجل من بني بكر رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض نزاعة : لئن أعدته لأكرمتكك ؛ فأعاده فكسرناه وناد بينهم قتال ؛ فقتلوا من الخزاعين أقواما ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في نفر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره به ، فدخل منزل ميمونة وقال : « اسكبوا لي ماء » فجعل يقتسل وهو يقول : « لَا تُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بِي كُفْبٌ »^(١) . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

قوله يقال : (وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ يُشَاءُ) القراءة بالرفع على الاستئناف ؛ لأنه ليس من جنس الأول . ولهذا لم يقل « وَيُتَبُّ » بالحزم ؛ لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله جل وعز . وهو موجب لهم العذاب والنزى ، وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم . ونظيره « تَأَنَّى يَسْتَأْذِنُ اللَّهُ بِحَيْثُ عَلَى قَلْبِكَ » ثم قال : « وَيَعْوِ اللَّهُ الْبَاطِلُ »^(٢) . والذين تاب الله عليهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسلم بن أبي عمرو ؛ فأنهم أسلموا . وقرأ ابن أبي إسحاق « وَيَتَوَبُّ » بالنصب . وكنا نروي عن عيسى الثقفي والأعرج ، وعليه تكون التوبة داخلة في جواب الشرط ؛ لأن المعنى : إن تقاطعهم يذهبهم الله .

(١) الذاب (يكره الدال) : حطب كل شيء . ومؤنزه . والأبىب : الجمل المقطوع السنام . والبيان القابضة القابضة . وصف مرض اللثمان بن الحنظل ، وأنه إن ذك صار الناس يده في أسوأ حال وأشد عيش وتكسوا به بقل ذئب يسمى أبىب . وفي البيت شاهد آخر . وأربع نزاعة الأدب للبخاري في الشاهد السادس والخمسين بعد السبائة . ورواه غيره به ١ ص ١٠٠ طبع بولاق . (٢) بنوكب في نزاعة وهم قوم عمرو . (٣) آية ٢٤ سورة النور .

وكذلك ما عطف عليه . ثم قال : « ويتوب الله » أى إن تقابلهم . فجمع بين تعذيبهم بأيديكم وشفاء صدوركم وإذهاب غيظ قلوبكم والتوبة عليكم . والرفع أحسن ؛ لأن التوبة لا يكون سببها القتال ؛ إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه في كل حال .

قوله تعالى : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(أَمْ حَسِبْتُمْ)** خروج من شيء إلى شيء . **(أَنْ تُتْرَكُوا)** في موضع المفعولين على قول سيبويه . وعند المبرد أنه قد حذف الثاني . ومعنى الكلام : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تأكلوا بما يظهر به المؤمن والمثاقف الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب . وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع . **(وَلَمَّا يَعْلَمِ)** بجرم بلأى وإن كانت ما زائدة ؛ لأنها تكون عند سيبويه جواباً لقولك : قد فعل ؛ كما تقدم . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين . **(وَلِجَنَّةٍ)** بطانة ومخالعة ؛ من الولوج وهو الدخول ، ومنه نعتى اليكأس الذى تلج فيه الوحوش توبلاً . ولج يلج ولوجاً إذا دخل . والمعنى : دخيلة مودة من دون الله ورسوله . وقال أبو حنيفة : كل شيء أدخلته في شيء ، ليس منه فهو وليجة ؛ والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة . وقال ابن زيد : **الوليجة** الدخيلة ، والوليحاء الدخلاء ؛ فوليجة الرجل من يختص بدخلة أمره دون الناس . تقول : هو وليجى وهم وليجى ؛ الواحد والجمع فيه سواء . قال أبان بن تغلب رحمه الله :

فبئس الوليجة للهارينب • والمعتدى وأهل الرّيب

وقيل : وليجة بطانة والمعنى واحد ؛ نظيره « **لَا تُخَيِّدُوا بِطَانَةَ مِنْ دُونِكُمْ** » . وقيل الفراء وليجة بطانة من المشركين يخفونهم ويخشون إليهم أسرارهم ويملونهم أمورهم .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٠ طبة أول أدلّة ثانية . (٢) آية ١١٨ سورة آل عمران

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ) الجملة من « أن يعمروا » في موضع رفع اسم كان . « شاهدين » على الحال . واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقيل : أراد ليس لهم الحج بعد ما تودى فيهم المانع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والزكاة إلى المشركين ؛ فينبئ أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لما أسروهم بالكفر وقطعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علي : لكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنما نعتز بالمسجد الحرام ، ونحبب الكعبة ، ونسقي الحاج ، ونفك العاني . فتركت هذه الآية ردًا عليه . فيجب إنًا على المسلمين توقي أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يَعْمُر » بفتح الياء وضم الميم ؛ من عمر يعمر . وقرأ ابن السميع بضم الياء وكسر الميم ؛ أي يجعلوه طامرا أو يعينوا على عمارته . وقري « مسجد الله » على التوحيد ؛ أي المسجد الحرام . وهي قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبي عمرو وابن محيصن ويعقوب . والباقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة « مساجد » أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنيين . وقد أجمعوا على قراءة قوله : « إنما يعمر مساجد الله » على الجمع ؛ قاله النحاس . وقال الحسن : إنما قال مساجد وهو المسجد الحرام ؛ لأنه قيلة المساجد كلها وإمامها

قوله تعالى : (شَاهِدِينَ) قيل : أراد وهم شاهدون فلما طرح (وهم) نصب . قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر بمجودهم لأضغانهم ، وإقرارهم أنها مخلوقة . وقال

السُّدِّي : شهدتهم بالكفر هو أن التصرفي تقول له ما دينك ؟ فيقول نصراني ، والبردي :
 فبراً ، يبرئى والصَّابِي فيقول صابئ . ويقال للشرك ما دينك فيقول مشرك . (أُولَئِكَ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) خَلَّتْ مَعَهُ .

قوله تعالى : **إِنَّمَا يَجْمَعُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن
يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّمَا يَجْمَعُ مَسْجِدَ اللَّهِ)** دليل على أن الشهادة لله الماسجد
 بالإيمان صحيحة ، لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف :
 إذا رأيتم الرجل يجمع المسجد فحسبوا به الظن . وروى القزويني عن أبي سعيد الخدري
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« إذا رأيتم الرجل يتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان »**
 قال الله تعالى : **« إِنَّمَا يَجْمَعُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »** . في رواية :
« يتلهد المسجد » ، قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربي : وهذا في ظاهره الإصلاح
 ليس في مقاطع الشهادات ، فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها ، فإن منهم الله كن
 الثقلين المحصل لها يعلم اعتقاداً وإخباراً ، ومنهم المغفل ، وكما واحد يتكلم على منزله ويقدر
 على صفته .

الثانية — قوله تعالى : **(وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ)** إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشي
 غيره ، وما زال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم . قيل له : المعنى يعلم يحش
 إلا الله مما يسيء ، فإن المشركين كانوا يبدون الأرباب ويخشونها ويرجونها . جواب ثان —
 أي لم يخف في باب الدين إلا الله .

الثالثة — فإن قيل : فقد أجمعت الإيمانية في الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيها
 وإصلاح ما وحي منها ، وآمن بالله . ولم يذكر الإيمان بالرسول فيها ولا الإيمان لمن لم يؤمن

بالرسول . قيل له : دلّ على الرسول ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به ، وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول ، فلماذا لم يُعْرَد بالذكر ، و « عسى » من الله واجبة ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : عسى بمعنى خليف ؛ أى تخلف (أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّبِعِينَ) .

قوله تعالى : أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ) التقدير في العربية : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج ، أو أهل سقاية الحاج ، حثل من آمن بالله وجهاد في سبيله . ويصح أن يقتدر الحذف في « من آمن » أى أجعلتم عمل سقى الحاج كعمل من آمن . وقيل : التقدير كما بيان من آمن . والسقاية مصدر كالسماية والجماية . فجعل الاسم بموضع المصدر إذ علم معناه ؛ مثل إنما السقاء حاتم ، وإنما الشعر زهير . وعمارة المسجد الحرام مثل « وأسأل الله ربى » . وفرا أبو ذؤبة : « أجعلتم سقاية الحاج وعمرة المسجد الحرام » . سقاة جمع ساق والأصل سقاية حل فعلية ؛ وكذا يجمع المثلل من هذا ؛ نحو فاض وقضاة وناس ونساء . فإن لم يكن متعلا جمع على فمثلة ؛ نحو ناس ونساء ، للذين كانوا يستوثقون للشهور . وكذا قرأ ابن الزبير وسعيد بن جبير « سقاة ، وعمرة » ، إلا أن ابن جرير نصب « المسجد » على إرادة التنوين في « عمرة » ، وقال الفضالك : سقاية بضم السين ، وهى لغة . والحاج اسم جلس الجحاج . وعمارة المسجد الحرام : معاهدته والقيام بمصالحه . وظاهر هذه الآية أنها مبطللة قول من انتصر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ؛ كما ذكره السدى . قال : انتصر عباس بالسقاية ، وشيبة بالعمارة ، وعلى بالإسلام والجهاد ؛ فصالح الله هاتين وكذاهما ، وأخير أن العمارة لا تكون بالكفر ، وإنما (١) في نسخ الأصل : « أين أهدى » وعرجه .

تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة . وهذا من لا غبار عليه . ويقال : إن المشركين سألوا
اليهود وقالوا : نخرج سقاة الحاج وعمارة المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟
فقال لهم اليهود عناداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتم أفضل . وقد افترض هنا إشكال ،
وهو ما جاء في صحيح مسلم عن الثمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم فقال رجل : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر :
ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله
أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وهو يوم الجمعة . ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستغفرت فيها اغتفرتم فيه . فأنزل الله عن رجل
« أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » إلى آخر الآية . وهذا
المساق يقتضي أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال . وحديث
لا يليق أن يقال لم في آخر الآية : « والله لا يهدي القوم الظالمين » بتعين الإشكال . ولذا
بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح في قوله ، فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم
وسلم الآية على جرحين سألهم فظن الزاوي أنها نزلت حيث . واستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم
وسلم على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر ، فاستغنى لم فلا عليه ما قد كان
أنزل عليه . لا أنها نزلت في هؤلاء . والله أعلم . فان قيل : فعل هذا يجوز الاستدلال على المسلمين
بما أنزل في الكافرين ، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يستبعد أن يترجم بما أنزل الله
في المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقال عمر : إنا لو شئنا لأخذنا سلاطين وشواه ونؤوضهم صخرة
ورفع أخرى ، وليكن سمعنا قول الله تعالى : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتُمْ بِهَا » .
وهذه الآية نص في الكفار ومع ذلك ففهم منها عمر الزجر مما يناسب أحوالهم بعض المناسبة ،
ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا فليس
وبه يزول الإشكال ويرتفع الإيهام ، والله أعلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَهَابُوا وَجِلُّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا) في موضع رفع بالابتداء . وخبره (أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ) .
وهـ دَرَجَةٌ « نصب على اليان ، أي من الذين انصرفوا بالسقي والعمارة . وليس للكافرين درجة
عند الله حتى يقال : المؤمن أعظم درجة . والمراد أنهم قدروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي ،
نفاطهم على ما قدروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأ ، كقوله تعالى : « أصحاب الجنة
يومئذ يُخَيَّرُونَ ^(١) مَسْكَنًا » . وقيل . « أعظم درجة » من كل ذي درجة ، أي لم المزية والمروية
العلية . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) بذلك .

قوله تعالى : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٦٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ) أي يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل
والنعم المقيم . والنعم : لين العيش ورفعه . (خَالِدِينَ) نصب على الحال . والخلود الإقامة .
(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) أي أعظم لم في دار كرامته ذلك الثواب .

قوله تعالى : يَتْلِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْفَؤُوا عَنْ أَبَاءِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ
أُولِيَاءَ إِنْ اسْتَحْبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَأُولَئِكَ
هُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٦٩﴾

ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة ، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة
في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . ودوت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحسن
على المجرة ورفض بلاد الكفرة . فالخطابة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وسيرها
(١) آية ٢٤ سورة الفرقان .

من بلاد العرب؛ حُوطبوا بالآل يرأوا الآباء والإخوة فيكونوا لم تبعاً في سكنى بلاد الكفر .
 (إن استعجبوا) أى أحبوا؛ كما يقال : استعجب بمعنى أجاب . أى لا تطيعوهم ولا تخصوهم .
 وخص الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . ففى الموالاة بينهم كما يغفلون
 الناس بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ » ليعين أن الغرب
 قرب الأديان لا قرب الأبدان . وفى مثله تلشد الصوفية :

يقولون لى دار الأحبة قد دنت * وأنت كتيب إن ذا لعجب

فقلت وما تبنى ديار قريسة * إذا لم يكن بين القلوب قرب

فكم من بهيد الدار تال مراده * وأتجر جار الحنن مات كتيب

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء . والإحسان
 والهبة مستثناة من الولاية . قالت أسماء : يارسول الله ، إن أمتي قدمت على رابعة وهى مشركة
 أفاصلها ؟ قال : « صلي أمك » ترجمه البخارى .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَّبِعْهُمْ يَنْصُرْهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) قال ابن عباس : هو مشرك
 مثلهم ؛ لأن من رضى بالشرك فهو مشرك .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِئْرَةٌ أَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا
 أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ
 اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾

لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة جعل الرجل يقول
 لأبيه والأب لأبنته والأخ لأخيه والرجل لزوجته : إنا قد أمرنا بالهجرة ؛ ففهم من سارع

لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول : ولته لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنزلكم ولا ألقى عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتلمذ به أسرته وولده ويقولون له : أشدك بالله أن تخرج فنضجع بعدك، فمنهم من يرقى فيدع الهجرة ويقيم معهم، فنزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ » . يقول : [إن استحبوا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة . « وَمَنْ يَتَوَلَّمْ مِنْكُمْ » بعد نزول الآية « فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ » وهي الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد كمقد المشرة فا زاد؛ ومنه المعاشرة وهي الاجتماع على الشيء . « وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا » يقول : اكتسبتموها بمكة . وأحصل الأقراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره . « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » قال ابن المبارك : هي البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدن لمن خاطبا . قال الشاعر :

كَسَدَتْ مِنَ الْفَقْرِ فُورُهُنَّ • وَقَدْ زَادَهُنَّ مَقَامِي كَسُودَا

(وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا) يقول : ومنازل تسبجكم الإقامة فيها . « أَحَبُّ إِلَيْكُمْ » من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة . « وَأَحَبُّ » خبر كان . ويجوز في غير القرآن رفع « أحب » على الابتداء والخبر، واسم كان مضمرة فيها . وأنشد ميويه :

إِفَامَتْ كَانَ النَّاسُ صِنْفَيْنِ : شَامِتٌ • وَأَتَرُ مُتْنِي بِالَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

وأنشد :

هِيَ الشِّفَاءُ لِمَا لَوْ ظَلِمْتُ بِهِمَا • وَلَيْسَ مِنْهَا شِفَاءُ الدَّاءِ مَبْذُولٌ^(١)

وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ، وإن ذلك مقدم على كل محبوب . وقد مضى في « آلم عمران » معنى عبدة الله تعالى وعبدة رسوله . (وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا) صيفته صيغة أمر ومعناه التهديد . يقول : انتظروا . (حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ)

(١) البيت للشاعر الفحل . (٢) البيت شتام أحمد بن أبي الريح . (من كتاب سيرة) .

(٣) راجع ج ١ ص ٩٠ طبعه أول مرة .

بِأَمْرِهِ) يعني بالقتال وفتح مكة ، عن مجاهد . الحسن : بعقوبة آجلة أو عاجلة . وفي قوله : « وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ » دليل على فضل الجهاد ، وإيثاره على راحة النفس وملاقتها بالأهل والمال . وبأى فضل الجهاد في آخر السورة . وقد مضى من أحكام الهجرة في « النساء » ما فيه كفاية ، والحمد لله . وفي الحديث الصحيح « إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مفاقد قعد له في طريق الإسلام فقال لم تتو دينك ودين آبائك تخالفه وأسلم وقعد له في طريق الهجرة فقال له إنتر مالك وأهلك تخالفه وهاجرتم قعد له في طريق الجهاد فقال له تمجاهد فتقتل فينكح أهلك ويقيم مالك تخالفه وجاهد الحق على الله أن يدخله الجنة » . وانترجه النساء . من حديث سبعة بن أبي فاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان ... » فذكره . قال البخاري : « ابن الفاكه » ولم يذكر فيه اختلافا . وقال ابن أبي عمير : يقال ابن الفاكه وابن أبي الفاكه . انتهى .

قوله تعالى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْفًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَزَلَّ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رُسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَازَلَ جُنُودًا لَّا تَرَوُهَا وَعَذَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ حِزْمُ الْأَكْفَرِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾

فيه ثمان مسائل :

الأول - قوله تعالى : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) لما بلغ هوازن فتح مكة جمعهم مالك بن عوف النصري من بني نصر بن مالك ، وكانت الرياسة في جميع السكرك إليه ،

وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحيى به نفوسهم وتشتت.
 في القتال عند ذلك شوكتهم . وكانوا ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد . وقيل : أربعة
 آلاف من هوازن وثقيف . وعمل هوازن مالك بن عوف، وعمل ثقيف كنانة بن عبد، فقتلوا
 بأوطاس . وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي^(١) حيتاً، فأنه
 وأخبره بما شاهد منهم؛ فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قصدهم، واستأذن من صفوان
 ابن أمية بن خلف الجمحي^(٢) دروعا . قيل : مائة درع . وقيل : أربعمائة درع . واستألف
 من ربيعة الخزرجي ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا؛ فلما قدم قضاه إياها، ثم قال له النبي صلى الله
 عليه وسلم : "بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الوفاء والحمد" فترجعه ابن ماجه
 في السنن . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا من المسلمين؛ منهم عشرة
 آلاف محبوبه من المدينة، وألفان من مسيلة الفتح وهم الطلقاء إلى من انضاف إليه من
 الأعراب؛ من سليم وبنى كلاب وبنو دؤبان . وأستعمل على مكة عتاب بن أسيد .
 وفي عرجه هذا رأى جهال الأعراب شجرة خضراء، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تسمى
 ذات أنواط، فيخرج إليها الكفار يوما معلوما في السنة يعظمونها؛ فقالوا : يا رسول الله، اجعل
 لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال عليه السلام : "الله أكبر، فقم والذي نفسي
 بيده كما قال قوم موسى "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون" لتركن سنن
 من قبلكم حذو القعدة بالقعدة حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" . فنقض رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حتى أتى وادي حنين، وهو من أودية تهامة، وكانت هوازن قد كمننت
 في جنتي الوادي وذلك في غيش الصبح فحملت على المسلمين حملة رجل واحد، فأنهزم
 جمهور المسلمين ولم يلو^(٣) أحد على أحد، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه أبو بكر
 وعمر، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر،
 وأسامة بن زيد، وأبي بن عبيد — وهو أمين بن أم أمين قتل يومئذ بحنين — وربيعة

(١) أوطاس : راد في ديار هوازن، فيه كانت وقعة حنين . (٢) أي لم يلبث ولم يسلف .

ابن الحارث، والفضل بن عباس، وقيل في موضع جعفر بن أبي سفيان: قُتِمَ بن العباس، هؤلاء عشرة رجال؛ ولهذا قال العباس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة * وقد فر من قد فر عنه وأقصوا
وعاشرونا لاقى الحسام بنفسه * بما تمسه في الله لا يتوجع

وثبت أم سليم في جملة من ثبت، مُحَرِّمَةٌ مَسْكَةٌ بيداً لأبي طلحة وفي يدها خنجر، ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من هؤلاء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنته الشباء وأسمها دُلُل. وفي صحيح مسلم عن أنس قال عباس: وأنا أخذ بنهم بنلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَكْفُفْهَا إِرَادَةَ الْأَنْتِيعِ، وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَيُّ عِبَاسٍ نَادَى أَصْحَابَ السُّمْرِ»^(١). فقال عباس - وكان رجلاً صَيِّباً - وروى من شدة صوته أنه أغري يوماً على مكة فنادى واصباحاه! فاستطقت كل حامل سمعت صوته جَنِينَهَا - فقلت بأعل صوتي: أين أصحاب السُّمْرِ؟ قال: فو الله لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يَا بَيْتُكَ يَا بَيْتُكَ. قال: فاقبلوا والكفار... الحديث. وفيه: «قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجسوه الكفار». ثم قال: «إِنْهَزُوا وَرَبَّ عَجَد». قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال: فوافقه ما هو إلا أن رماهم بحصياته؛ فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مذبراً. قال أبو عمر: روي عن رجس من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حُنَيْنًا أنه قال - وقد سئل عن يوم حُنَيْنٍ - : لقينا المسلمين فلبثنا أن هزمتهم وأتبعناهم حتى آتينا إلى رجل راكب على بنلة بيضاء، فلما رأنا زجرنا زجرة وآتبرنا، وأخذ بكفه حصي وتراباً فرمى به وقال: «شاهت الوجوه». فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك، وما ملكنا أنفسنا أن زجعنا على أعقابنا. وقال سعيد بن جبيل: حدثنا

(١) في الأصول: «حُمِم» والتصويب عن المراهب اللدنية.

(٢) أي أصحاب الشجرة المسماة بالسمر، وهي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

رجل من المشركين يوم حُنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذوالا حلب شاة . حتى إذا انهبنا إلى صاحب البغلة الشبهاء — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — تلقانا رجال يبيض الوجه حسان ؛ فقالوا لنا : شأنت الوجوه ، ارجعوا ؛ فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها . يعني الملائكة .

قلت : ولا تمارض ؛ فإنه يحتمل أن يكون شأنت الوجوه من قوله صلى الله عليه وسلم ومن قول الملائكة معاً ، ويدل على أن الملائكة قاتلت يوم حنين . والله أعلم . وقُتل على رضى الله عنه يوم حنين أربعين رجلاً بيده . وسبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف رأس . وقيل : ستة آلاف واثنتي عشرة ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم .

الثانية — قال العلماء في هذه الفزة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلًا عليه بئنة فله سببه " . وقد مضى في « الأفعال »^(١) بيانه . قال ابن العربي : ولهذا التكنة وغيرها أدخل الأحكاميون هذه الآية في الأحكام .

قلت : وفيه أيضاً جواز استعارة السلاح وجواز الاستمتاع بما أُسْمِيَ إذا كان على الممهور بما يستعاره مثله ، وجواز استلاف الإمام المسأل عند الحاجة إلى ذلك وردّه إلى صاحبه . وحديث صفوان أصل في هذا الباب . وفي هذه الفزة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تُوطأ حامل حتى تَقْضَ ، ولا حائل حتى تمحيض حيضة . وهو يدل على أن السبي يقطع العصمة . وقد مضى بيانه في سورة « النساء » مستوفى . وفي حديث مالك أن صفوان نرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر ، فشهد حُنيئاً والطائف وأمرأته مسلبة . الحديث . قال مالك : ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرى أن يُستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خُدَمًا أو تَوَاتِيَةً . وقال أبو حنيفة والشافعي والثوري والأوزاعي :

(١) راجع المسألة الخامسة به ٧ ص ٣٦٣ طبة أول أو ثانية .

(٢) راجع . ١٢١ ص طبة أول أو ثانية .

لا بأس بذلك إذا كان حكم الإسلام هو الثالب، وإنما تكره الاستماتة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر . وقد مضى القول في الإسهام لم في « الأنفال » .

الثالثة - قوله تعالى : (وَرَیْوَمَ حُنَیْنٌ) « حُنَیْن » وادین مكة والطائف، وأنصرف لأنه أسم مذکر، وهی لغة الفران . ومن العرب من لا یصرفه، یعمله أسماء للبقعة . وأنشد :
نصرُوا نِیْسمَ وشَدْرًا أزره • بحنَینَ یومَ کُلِّ الأبطال^(١)

« ویوم » ظرف، وانتصب ها علی معنى : ونصرکم یوم حنین . وقال الفراء : لم تنصرف « مواطن » لأنه ليس لها نظیر فی المفرد وليس لها جماع ؛ إلا أن الشاعر ربما اضطرر بجمع . وليس یموز فی الکلام کما یموز فی الشعر . وأنشد :
فَهَیْ یَعْلَکَیَّ حَدَاتِدا تها •

وقال النحاس : رأیت أبا إسحاق یتعجب من هذا قال : أخذ قول الخلیل وأخطأ فيه ؛ لأن الخلیل یقول فيه : لم ینصرف لأنه جمع لا نظیر له فی الواحد، ولا یجمع جمع التکسیر، وأما بالألف والتاء فلا یمتنع .

الرابعة - قوله تعالى : (إِذْ أَجَبْتُمْ کُتُوبَکُمْ) قیل : كانوا اثنی عشر ألفا . وقیل : أحد عشر ألفا وخمسمائة . وقیل : ستة عشر ألفا . فقال بعضهم : لن نقاب الیوم عن قلة . فوسکوا إلى هذه الكلمة ؛ فكان ما ذکرناه من المزیمة فی الابتداء إلى أن تراجعوا ؛ فكان النصر والظفر للسلین ببركة سید المرسلین صلی الله علیه وسلم . فبین الله عز وجل فی هذه الآیة أن الغلبة إنما تكون بنصر الله لا بالکثرة . وقد قال : « وَإِنْ یُحْذِکُمْ فَرٌّ ذَا الَّذِی ینصُرُکُمْ مِنْ بَعْدِهِ »^(٢) .

الخامسة - قوله تعالى : (وَصَافَتْ عَلَیْکُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) ای من الخوف ؛ كما قال :

کأن بلاد الله وهی عربیضة • حل الخائف المطلوب ککفة حایل^(٣)

(١) راجع المسألة المرفوعة للشرین ص ١٨ من هذا الجزء . (٢) آیت لسان بن ثابت .

(٣) آیه ١٦ سورة آل عمران . (٤) الکفة (بالکسر) : خیالة الصائد . والحایل : الذی ینصب الحباله .

والرَّحْبُ (بضم الراء) الشَّعة . تقول منه : فلان رَحِبَ الصدر . والرَّحْبُ (بالفتح) :
الواسع . تقول منه : بلد رَحِبٌ ، وأرض رَحْبَةٌ . وقد رَحِبْتُ رَحْباً وَرَحَابَةً .
وقيل : الباء بمعنى مع ؛ أي مع رحبها . وقيل : بمعنى على ، أي على رحبها . وقيل : المعنى
رحبها ؛ فـ « معاً » مصدرية .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ ﴾ روى مسلم عن أبي إسحاق قال :
جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم ولَّيْتُمُ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ . فقال : أشهد على نبي الله
صلى الله عليه وسلم ما وُلِّيْتُ ، ولكنه أنطلق أَخْفَاهُ مِنْ النَّاسِ ، وَحَسْرَتِي هَذَا السَّيِّئُ مِنْ
هَؤُلَاءِ . وهم قوم رُمَا فَرَمَوْهُمْ بِرَشْقٍ مِنْ نَبِيلٍ كَانُوا رَجُلٌ مِنْ جَرَادٍ فَانْكَشَفُوا ؛ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبْرُسِيَانِ يَقُودُ بِهِ بَنْتَهُ ، فَتَزَلَّ وَدَعَا وَأَسْتَنْصَرَ وَهُوَ يَقُولُ :
« أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ . أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ . اللَّهُمَّ زَلْ نَصْرَكَ » . قال البراء : كذا والله إذا
أَحَزَّ الْبَاسَ تَنَهَّى بِهِ ، وَإِنْ الشَّجَاعُ مَنَّا لَذَى يُحَاذِي بِهِ ؛ يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنزل
عليهم ما يسكنهم وَيُذْهِبُ خَوْفَهُمْ ، حتى اجترعوا على قتال المشركين بعد أن ولوا . ﴿ وَأَنْزَلَ
جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة ؛ يَقُودُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَقُولُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالتَّشْوِيعِ ،
وَيُضْعِفُونَ الْكَافِرِينَ بِالتَّجْوِيعِ لَمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ وَمِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَقَاتِلْ
إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ . وروى أن رجلاً من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل الباقية ،
والرجال الذين كانوا عليها بيض ، ما كانوا يلاكمونها الشامة ، وما كان فئتنا إلا بأيديهم .
أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ » . ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(١) أخفا : جمع خفيظ كليليب وأطبا . وأواد بهم المتجلبين . والحسر : جمع حاسر ؛ كساجد وبيضة .
وغيره من لادع له ولا منفرد . أي ليس عليهم سلاح . والرشق (بالكسر) : كسم السهام التي ترين الجماعة دمنة واحدة .
والرجل (بالكسر) : القطة . وقوله « أحز البأس » أي أشد الحرب . (راجع شرح الروي على صحيح مسلم
كتاب الحاقى) .

أى بأسياكم . ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى على من
أتهزم فيهيده إلى الإسلام . كمالك بن عوف النصرى رئيس حنين ومن أسلم معه من قومه .

النامسة --- ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين بالحربانية ، أناه وفد
هوازن مسلمين راغبين في العطف عليهم والإحسان إليهم ، وقالوا : يا رسول الله ، إنك خير
الناس وأبر الناس ، قد أخذت إبناءنا ونساءنا وأموالنا . فقال لهم : " إني قد كنت أستاذت
بكم وقد وقعت المقام وعندي من ترون وإن خير القول أصدقه فاخترأوا إما ذرأربكم وإما
أمرالكه " . فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا . فقام خطيبا وقال : " هؤلاء جامونا مسلمين
وخيرناهم فلم يعدأوا بالأنساب فرضسوا برذ القزبة وما كان لى ولبنى عبد المطلب وبني هاشم
فهو لهم " . وقال المهاجرون والأنصار : أنا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأنتع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن في قومهما من أن يردوا عليهم شيئا مما وقع لهم
في سهامهم . وأنتع الهباب بن مرداس السلمي كذلك ، وطبع أن يساعده قومك ساعد
الأقرع وعيينة قومهما . فأت بنو سليم وقالوا : بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه
وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ضَرَّ مِنْكُمْ بَأْ فِي يَدَيْهِ فَإِنَا نَمُوتُهُ مِنْهُ " .
فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءهم وأولادهم ، وعوض من لم يقطب نفسه بترك
نصيبه أعواضا وضوا بها . وقال قتادة : ذكر لنا أن يظئر النبي صلى الله عليه وسلم التي أرضعته
من بني سعد ، أنه يوم حنين فسانته سبايا حنين . فقال صلى الله عليه وسلم : " إني لا أملك
إلا ما يمينيني منهم ولصكن إيتني غدا فأسألني والناس عندي فإذا أعطيتك حصتي أعطاك
الناس " . فبانت الغد فبسط لها ثوبه فأقمدها عليه . ثم سائنه فأعطاهما نصيبه ؛ فهما رأى
ذلك الناس أعطوها أنصباهم . وكان عدد سبي هوازن في قول سعيد بن المسيب ستة آلاف
رأس . وقيل : أربعة آلاف . قال أبو عمر : فبعت الشياخ أخت النبي صلى الله عليه وسلم
من الرضاة ، وهى بنت الحارث بن عبد المزى من بني سعد بن بكر [وبنت] حليلة
السعدية ؛ فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهما وأحسن إليهما ، ورجعت مسرورة

إلى بلادها بدينها وبنا أفاء الله عليها . قال ابن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أنطاس امرأة تمدو وتصيح ولا تستقر ، فسأل عنها فقيل : فقدت بئياً لها . ثم رآها وقد وجدت أبنها وهي تقبله وتدنيه ، فدعاها وقال لأصحابه : " أطارحة هذه ولدها في النار " ؟ قالوا لا . قال : " لم " ؟ قالوا : لشفقتها . قال : " الله أرحم بكم منها " . وخرجه مسلم بمعناه ، والحمد لله .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (١٨)

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ**) ابتداء وخبر واختلاف العلماء في معنى وصف المشرك بالنجس ؛ فقال قتادة ومeyer بن راشد وغيرهما : لأنه جنب ؛ إذ غلبه من الجنابة ليس بنسل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذي نجسه . قال الحسن البصري : من صالح مشركاً فليؤصاً . والمذهب كله على إيجاب النسل على الكافر إذا أسلم ؛ إلا ابن عبد الحكم فإنه قال : ليس بواجب ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله . وبوجوب النسل عليه قال أبو ثور وأحمد وأسقطه الشافعي وقال : أحب إلّ أن يقتل . ونحوه لأبن القاسم . ولذلك قول : إنه لا يعرف النسل ؛ رواه عنه ابن وهب وابن أبي أويس . وحديث ثمامة وقيس بن عاصم يرد هذه الأقوال . رواها أبو حاتم البستي في صحيح مسنده . وأن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بجماعة يوم ما فأسلم ، فبعت به إلى حاطط أبي طلحة فأسره أن يقتل ، فاغتسل وصلى ركعتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حسن إسلام صاحبيكم " وأخرجه مسلم بمعناه . وفيه : أن ثمامة

ال (١) الحاطط : البستان .

لما من عليه النبي صلى الله عليه وسلم أنطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل. وأمر بقبض
ابن ناصم أن يغتسل بماء وسدر. وإن كان إسلامه قيل احتلامه نفسه مستحب. ومضى
أسلم بعد بلوغه لزمه أن ينوي بفعله الجنابة. هذا قول علمائنا. وهو تحصيل المذهب.
وقد أجاز ابن القاسم للكافر أن يغتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه، إذا اعتقد الإسلام بقلبه،
وهو قول ضعيف في النظر مخالف للآخر. وذلك أن أحدا لا يكون بالنية مسلما دون القول
هذا قول جماعة أهل السنة في الإيمان: إنه قول باللسان وتصديق بالقلب، ويزكو بالعمل
قال الله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

الثانية - قوله تعالى: «فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» «فلا يقربوا» نهي؛ ولذلك
حذفت منه النون: «المسجد الحرام» هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم، وهو مذهب عطاء؛
فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع. فلذا جاءنا رسول منهم نخرج الإمام إلى الحل
ليسمع ما يقول. ولو دخل مشرك الحرم مستورا وملأت نبش قبره وانحرجت عظامه. فليس
لهم الاستيطان ولا الأجنياز. وأما جزيرة العرب، وهي مكة والمدينة واليمامة واليمن وغيرها^(١)؛
فقال مالك: يخرج من هذه المواضع كل من كان على غير الإسلام، ولا يمنون من التردد بها
نسافرين. وكذلك قال الشافعي رحمه الله؛ غير أنه أسخت من ذلك اليمن. وبُضر لم أجل
ثلاثة أيام كما خربه لهم عمر رضى الله عنه حين أجلهم. ولا يدفنون فيها ويلجئون إلى الحل.

الثالثة - واختلاف العلماء في دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة
أقوال؛ فقال أهل المدينة: الآية عاقبة في سائر المشركين وسائر المساجد. وبذلك كتب عمر
ابن عبد العزيز إلى عماله وترفع في كتابه بهذه الآية. ويؤيد ذلك قوله تعالى: «فِي بُيُوتٍ
إِذْ قَالَ اللَّهُ أَنْ تُؤْتَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمَاءُ»^(٢). ودخول الكفار فيها مناقض لتريمها. وفي صحيح مسلم
وغیره: أن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر. الحديث. والكافر لا يخلو من

(١) آية ١٠ سورة طه.

(٢) غلاف جمع غلاف، وهي قرى اليمن.

(٣) آية ٣٦ سورة النور.

فذلك . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا أحل المسجد لحائض ولا بختب " والكافر بختب .
وقوله تعالى : « إنما المشركون نجس » فمآء الله تعالى نجسا . فلا يخلو أن يكون نجس
العين أو بعدا من طريق الحكم . وأى ذلك كان ، فتمتع من المسجد واجب ؛ لأن العلة وهى
النجاسة موجودة فيهم ، والحرمة موجودة فى المسجد . يقال : رجل نجس ، وأمرأة نجس ،
ورجلان نجس ، وامرأتان نجس ، ورجال نجس ، ونساء نجس ، لا يثق ولا ينجس لأنه
مصدر . فاما النجس (بكر النون وبزيم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رجس . فإذا أفرد
قيل نجس (يفتح النون وكسر الجيم) ونجس (يضم الجيم) . وقال الشافعى رحمه الله : الآية
عامة فى سائر المشركين ، خاصة فى المسجد الحرام ، ولا يمتنع من دخول غيره ، فأباح دخول
اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد . قال ابن العربى : وهذا جمود منه على الظاهر ؛ لأن
قوله عز وجل : « إنما المشركون نجس » تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة . فان قيل : فقد
ربط التى صلى الله عليه وسلم فحماة فى المسجد وهو مشرك . قيل له : أجاب علماؤنا عن هذا
الحديث - وإن كان صحيحا - بأجوبة : أحدها - أنه كان متقدما على نزول الآية .

الثانى - أن أنبى صلى الله عليه وسلم كان قد علم بإسلامه فذلك ربطه .

الثالث - أن ذلك قضية فى عين فلا ينفى أن تدفع بها الأدلة التى ذكرناها ؛ لكونها
مقيدة حكم القاعدة الكلية . وقد يمكن أن يقال : إنما ربطه فى المسجد لينظر حسن صلاة
المسلمين وأجتماعهم عليها ، وحسن آدابهم فى جلوسهم فى المسجد ؛ فيستأنس بذلك ويُسلم ؛
وكذلك كان . ويمكن أن يقال : إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا فى المسجد ؛
والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يمتنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام
ولا غيره ، ولا يمتنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان . وهذا قول يردّه كل
ما ذكرناه من الآية وغيرها . قال البيهقى الطبرى : ويمحوز للذى دخول سائر المساجد عند
أبى حنيفة من غير حاجة . وقال الشافعى : تعتبر الحاجة ، ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد
الحرام . وقال عطاء بن أبى رباح : الحرم كله قبلة ومسجد ، فيذنب أن يمتنعوا من دخول

الحَرَمَ ، لقوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» . وإنما رفع من بيت أم هانئ . وقال قتادة : لا يقرب المسجد الحرام مشرك ؛ إلا أن يكون صاحب جزية ، أو عبدا كافرا لمسلم . وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أمة فيدخله لحاجة " . وهذا قال جابر بن عبد الله ؛ فإنه قال : العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام ، وهو مخصوص في العبد والأمة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ بَدَّ طَائِفَهُمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه سنة تسع التي حج فيها أبو بكر . الثاني — سنة عشر ؛ قاله قتادة . ابن العربي : « وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ ، وإن من العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العام الذي وقع فيه الأذان . ولو دخل غلامٌ رجل داره يومها حال له مولاة : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ قال عمرو بن فائد : المعنى وإذا خفتهم . وهذه مجمة ، والمعنى بارع بـ « إن » . وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش . فوعدهم الله أن يفتنهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الحبزية من أهل النمة بقوله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . وقال عكرمة : أغناهم الله بإمداد المطر والنبات وخصب الأرض . فأخسبت تبالة وجرش ، وحملوا إلى مكة الطعام والردك وكثرا الخير . وأسلمت العرب : أهل نجد وصنعا وغيرهم ، فتأدى جميعهم وتجرهم . وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأعم . والتبلة : الفقر . يقال : غل الرجل يميل إذا انتقر . قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه * وما يدري النفي متى ييسلُ

(١) الردك : حردم الحم ودهته التي يستخرج منه . (٢) هواجنة : كان في اللسان .

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عائلة » وهو مصدر، كالغائلة من قال يقلب .
وكالسانية . ويحتمل أن يكون معنا محذوف تقديره : حالا عائلة ، ومعناه خصلة شاقة .
يقال منه : عاتى الأمر يؤولى ، أى شق على - وأشد . وحكى الطبري أنه يقال : عال
يسول إذا افتقر .

السادسة - في هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز وليس
ذلك بمنافٍ للتوكل ؛ وإن كان الرزق مقدرا ، وأمر الله وقسمه ، فعولا ، ولكنه علقه بالأسباب
حكمة ؛ لتعلم القلوب التي تتعلق بالأسباب ، من القلوب التي تتوكل على رب الأرباب . وقد
تقدم أن السبب لا ينافي التوكل . قال صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله
لرزقكم كما يرزق الطير تفتدون بحاصا وتروح بطانا^(١) » . أخرجه البخاري . فاعلم أن التوكل
الحقيق لا يضافه الفقر والرواح في طلب الرزق . ابن العربي : « ولكن شيوخ الصوفية
قالوا : إنما يندو ويروح في الطاعات ؛ فهو [السبب] الذي يطلب الرزق » . قالوا : والدليل
عليه أمران : أحدهما - قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ
رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ » . الثاني - قوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْمِثْلُ الْقَبِيحُ^(٢) »
يرفعه^(٣) . فليس يتزل الرزق من محله وهو السماء ، إلا ما يصعد وهو الذكر الطيب والعمل
الصالح ، وليس بالسعي في الأرض ؛ فإنه ليس فيها رزق . والصحیح ما أحسنه السنة عند
فقهاء الظاهر ، وهو العمل بالأسباب الدنيوية ؛ من الحرث والتجارة في الأسواق ، والعمارة
للا موال وغرس الثمار . وقد كانت الصحابة تفعل ذلك والتي صلى الله عليه وسلم يرب
أظهرهم . قال أبو الحسن بن بطال : أمر الله سبحانه عباده بالإتفاق من لطيبات ما كسبوا ،
إلى غير ذلك من الآي . وقال : « قَتْنِي أَصْطَرِّضْ فَرِّجَ بَاجٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِقْمَ عَلَيْهِ » . فاحل لضطر

(١) الخمس والخمسة : الجوع . والبطنة : امتلاء البطن من الطعام . أى تمدد بكرة دوى بجاع ، وزرع عشاء
أوى بميتة الأجراف . (٢) زيادة عن ابن العربي . (٣) آية ١٢٢ سورة طه :

(٤) آية ١٠ سورة طاهر . (٥) آية ١٧٣ سورة البقرة .

ما كان حرم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاعتناء به، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء، ولو ترك السعي في ترك ما يتعدى به لكان لنفسه قاتلاً . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء، وكان يذتر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يا رسول الله ، أعقله وأتوكل أو أطلقه وأتوكل ؟ قال : « أعقله وتوكل »

قلت : ولا حجة لهم في أهل الصفّة ؛ فإنهم كانوا فقراء بقعدون في المسجد ما يحترقون ولا يجفون ، ليس لهم كسب ولا مال ، إنهم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان ، ومع ذلك فإنهم كانوا يجتنبون بالهار ويسوقون الماء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقدمون القرآن بالليل ويصلون . هكذا وصفهم البخاري وغيره . فكانوا يتسببون . وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم ، وإن كانت صدقة خصمهم بها ، فلما كثرت الفتن وانتشر الإسلام خرجوا وأنشروا كأي هميرة وغيره — وما قبلوا . ثم قيل : الأسباب التي يطلب بها الرزق ستة أنواع :

أولها ما كسب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : « جعل رزق تحت ظل رعي وجعل الذئب والصغار على من خالف أمرى » . ترجمه الترمذي وحسنه . فجعل الله رزق نبيه صلى الله عليه وسلم في كسبه لفضله ، وخصه بأفضل أنواع الكسب ؛ وهو أخذ الغلبة والظهور لشرفه . الثاني — أكل الرجل من عمل يده ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن أطيب ما أكل الرجل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » ترجمه البخاري ، وفي التذيل « وَعَلَيْهَا صَمَةُ لَبُوسٍ لَكُمْ » ، وروى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه . الثالث — التجارة ، وهي كانت عمل جُل الصالحين رضوان الله عليهم ، وخاصة المهاجرين ، وقد دل عليها التذيل في غير موضع .

الرابع - الحوث والفرس . وقد بناه في سورة « البقرة »^(١) .

الخامس - إلقاء القرآن وتعليمه والرقية ، وقد مضى في الفاتحة .

السادس - يأخذ بنية الأداء إذا احتاج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » . نرجه البخاري .
رواه أبو هريرة رضي الله عنه .

السابعة - قوله تعالى : (إِنْ شَاءَ) دليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد ، وإنما هو من فضل الله تعالى قسمته بين عباده ؛ وذلك بين في قوله تعالى : « تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيَّتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » الآية .

قوله تعالى : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ^(٢)
فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) لما حرم الله تعالى على الكفار أن يقرؤا المسجد الحرام ، وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها ؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ حَيْلَةَ » الآية . على ما تقدم .
ثم أحل في هذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك ؛ فجعلها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين بجهادهم . فقال الله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف ، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم . ولكونهم علمين بالتوحيد والرسول والشرائع والمال ، وخصوصا

(١) راجع ج ٣ ص ١٧ طبة أول أرتانية .

(٢) آية ٢٢ سورة الزنوف .

(٣) أمضى الترم على أمر واحد : أجمروا عليه .

ذِ كَرِجِدْ صِلَى اللّٰهْ عَلَيْهِ وَسَلْمٌ وَسَلْتُهُ وَأَتْنَهْ . فَلَمَّا أَتَكَرَّهْ تَأَكَّدَتْ عَلَيْهِمُ الْجَنَّةُ وَعَظَّمَتْ مِنْهُمْ
الْجُرْمَةَ ؛ فَتَبَّهْ عَلَى عَلَيْهِمْ ثُمَّ جَعَلَ لِلْقَتْلِ غَايَةً ، وَهِيَ إِعْطَاءُ الْجِزْيَةِ بَدَلًا عَنِ الْقَتْلِ . وَهُوَ
الصَّحِيحُ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : سَمِعْتُ أَبَا الْوَفَاءِ عَلَى بَنِ عَقِيلٍ فِي مَجْلِسِ النِّظَرِ يَتْلُوهَا وَيَحْتَجُّ بِهَا .
فَقَالَ : « قَاتِلُوا » وَذَلِكَ أَمْرٌ بِالْعُقُوبَةِ . ثُمَّ قَالَ : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وَذَلِكَ بَيَانُ لِلذَّنْبِ
الَّذِي أَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ . وَقَوْلُهُ : « وَلَا يَأْتِيَوْمَ الْآخِرُ » تَأْكِيدٌ لِلذَّنْبِ فِي جَانِبِ الْإِعْتِقَادِ .
ثُمَّ قَالَ : « وَلَا يَحْمِلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » زِيَادَةٌ لِلذَّنْبِ فِي خِلَافَةِ الْأَعْمَالِ . ثُمَّ قَالَ :
« وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ » إِشَارَةٌ إِلَى تَأْكِيدِ الْمَعْصِيَةِ بِالْإِنْخِرَافِ وَالْمَعَانِدَةِ وَالْأَنْفُسَةِ عَنْ
الْإِسْلَامِ . ثُمَّ قَالَ : « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » تَأْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ . ثُمَّ قَالَ : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ » فَيَبِينَ النِّسَابَةَ الَّتِي تَمْتَدُّ
إِلَيْهَا الْعُقُوبَةُ ، وَصِيَانَ الْبَدَلِ الَّذِي تَرْضَعُ بِهِ .

الثَّانِيَّةُ — وَقَدْ اختلف العلماءُ فِيمَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ ؛ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :
لَا يَقْبَلُ الْجِزْيَةَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً ، عَرَبًا كَانُوا أَوْ عَجَمًا لِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ فَلِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ
خُصُّوا بِالذِّكْرِ فَتَوَجَّهَ الْحُكْمُ إِلَيْهِمْ دُونَ سِوَاهُمْ ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : « قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ
حَتَّى يَدْفَعُوا إِلَيْكُمْ » . وَلَمْ يَقُلْ : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا قَالَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ . وَقَالَ : وَيَقْبَلُ
مِنَ الْمُجُوسِ بِالسُّنَّةِ ؛ وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ وَأَبُو ثَوْرٍ . وَهُوَ مَذْهَبُ الثَّوْرِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ .
وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ كُلِّ عَابِدٍ وَتَنَ أَوْ تَارَ أَوْ جَاهِدٍ أَوْ مَكْتَدٍ . وَكَذَلِكَ مَذْهَبُ
مَالِكٍ ؛ فَإِنَّهُ رَأَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الشَّرِكِ وَالْمُجْدِ ، عَرَبِيًّا أَوْ عَجَمِيًّا ، تَقْلِيًّا
أَوْ قَرَشِيًّا ، كَانَتْ مِنْ كَانَ ؛ إِلَّا الْهَرَنْدَ . وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَصْهَبُ وَيُحْتَمَنُ : تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ
مَجُوسِ الْعَرَبِ وَالْأَنْصَارِ كُلِّهَا . وَأَمَّا حَبِيدَةُ الْأَوْثَانِ مِنَ الْعَرَبِ فَلَمْ يَسْتَقِمْ اللَّهُ فِيهِمْ جِزْيَةً ، وَلَا يَتَّقِ
عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدٌ . وَإِنَّمَا لَمْ يَقْتُلُوا أَوْ الْإِسْلَامَ . وَيُوجَدُ لِابْنِ الْقَاسِمِ : أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ
مِنْهُمْ ؛ كَمَا يَقُولُهُ مَالِكٌ . وَذَلِكَ فِي التَّفَرِيعِ لِأَنَّ الْجَلَّابَ ، وَهُوَ احْتِمَالٌ لِنَصِّ ، وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ :

لا تقبل الجزية من مجوس العرب وتقبل من غيرهم . قال : لأنه ليس في العرب مجوساً إلا وجميعهم أسلم ، فمن وجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد ، يقتل بكل حال إن لم يسلم ، ولا تقبل منهم جزية . وقال ابن الجهم : تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام ؛ إلا ما أجمع عليه من كفار قريش . وذكر في تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار ، لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة . والله أعلم .

الثالثة — وأما المجوس فقال ابن المنذر : لا أعلم خلافاً أن الجزية تؤخذ منهم . وفي الموطأ : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع في أمرهم . فقال غنيد الرحمن بن عوف : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” سَنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكُتَّابِ “ . قال أبو عمر : يعني في الجزية خاصة . وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” سَنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكُتَّابِ “ دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هذا جمهور الفقهاء . وقد روى عن الشافعي أنهم كانوا أهل كتاب قبلوا . وأغلته ذهب في ذلك إلى شيء روى عن علي بن أبي طالب من وجه فيه ضعف ، يدور على أبي سعيد البقال ؛ ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى أنه قد كان بُعث في المجوس نبي اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعة — لم يذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه مقدارا للجزية المأخوذة منهم . وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية المأخوذة منهم ؛ فقال عطاء بن أبي رباح : لا توقيت فيها ، وإنما هو على ما صولحو عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبري ؛ إلا أن الطبري قال : أقله دينار وأكثره لا حد له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل البحرين على الجزية . وقال الشافعي : دينار على الثني والفقير من الأحرار البaltين لا يُنقص منه شيء ؛ واحتج بما رواه أبو داود وغيره من معاذ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ من كل حالم

دينارا في الجزية . قال الشافعي : وهو المبيع عن الله تعالى مراده . وهو قول أبي تور . قال الشافعي : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطأت بذلك أنفسهم قبل منهم . وإن صولحوا على ضيافة ثلاثة أيام جاز ، إذا كانت الضيافة معلومة في الخبز والشعير والبن والإدام ، وكذا ما على الوسط من ذلك وما على الموسر ، وذكر موضع القول والكن من البرد والحمر . وقال مالك فيها رواه عنه ابن القاسم وأشهب ومحمد بن الحارث ابن زنجويه : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الورق ، الفتي والفقيير سواء ولو كان مجوسيا . لا يُزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر ، لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل : إن الضميف يُخفف عنه بقدر ما يراه الإمام . وقال ابن القاسم : لا يُنقص من فرض عمر لسر ولا يزاد عليه لفتي . قال أبو عمر : ويؤخذ من فقراهم بقدر ما يحمّلون ولو درهما . وإلى هذا رجع مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر ، وأربعة وعشرون ، وأربعون . قال الثوري : جاء عن عمر بن الخطاب في ذلك ضربا مخففة ، فللوالى أن يأخذ بأبها شاء ، إذا كانوا أهل ذمة . وأما أهل الصلح فاصولحوا عليه لا غير .

الخامسة — قال عابدا زنا رحمة الله عليهم : والذي دلّ عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المغاقلين ، لأنه تعالى قال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ » إلى قوله — « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل . ويدلّ على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلا ، لأنه لا مال له . ولأنه تعالى قال : « حَتَّى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يعطى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والنزرة والسبيد والمجانين المغلولين على عقولهم والشيخ القاني . واختلف في الرهبان ، فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مُطَرِّف وأهل المساجشون : هذا إذا لم يرتكب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ارتكب لم يسقطها تركه .

السادسة — إذا أعطى أهل الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ، إلا أن يهجروا في بلاد غير بلادهم التي أقرّوا فيها وصولحوا عليها . فإن خرجوا

تجارا عن بلادهم التي أتروا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونص من ذلك بأيديهم ، ولو كان ذلك في السنة مرارا ؛ إلا في حلهم الطعام الحنطة والزيت إلى المدينة ومكة خاصة ، فإنه يؤخذ منهم نصف العشر على ما قبل عمر . ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر في تجارتهم الآمرة في الحول ، مثل ما يؤخذ من المسلمين ، وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجاعة من أئمة الفقهاء . والأوّل قول مالك وأصحابه .

السابعة - إذا أذى أهل الجزية بزيّتهم التي ضربت عليهم أو صولحوا عليها خلى بينهم وبين أموالهم كلها ، وبين كرومهم وعصرها ما ستروا نخورهم ولم يسلوا بيعها من مسلم . ومُنِعُوا من إظهار الخمر والخزير في أسواق المسلمين ؛ فإن أظهروا شيئا من ذلك أوقعت الخمر عليهم ، وأدب من أظهر الخنزير . وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تمذّى ، ويجب عليه الضمان . وقيل : لا يجب ، ولو غصبها وجب عليه ردّها . ولا يُعْتَرَضُ لهم في أحكامهم ولا مناجرتهم فيما بينهم بالزبا . فإن تماكروا إلينا فالحاكم غير ، إن شاء حكم بينهم بما أزل الله وإن شاء أمرض . وقيل : يحكم بينهم في المظالم على كل حال ، ويؤخذ من قوتهم لضعفهم ؛ لأنه من باب الدفع عنهم . وعلى الإمام أن يقاتل عنهم عدوهم ويستعين بهم في قتالهم . ولا حظ لهم في الشيء ، وما صولحوا عليه من الكائن لم يزيدوا عليها ، ولم يمنحوا من إصلاح ما وصى منها ، ولا سبيل لهم إلى أحداث غيرها . ويأخذون من اللباس والحيفة بما يبينون به من المسلمين ، ويمنعون من التشبه بأهل الإسلام . ولا بأس باشتراء أولاد المدّ من أهل الجزية إذا لم تكن لهم ذنبة . ومن لدّ في أداء جزية أدب على لئله وأخذت منه صاغرا .

الثامنة - اختلف للعلماء فيما وجبت الجزية عنه ؛ فقال علماء المالكية ؛ وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر . وقال الشافعي : وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنه الجزية لما مضى ، ولو أسلم قبل تمام الحول بيوم أو بعده عند مالك . وعند الشافعي أنها دين مستقر في الذمة فلا يسقطه

الإسلام كأجرة النار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنما وجبت بدلًا عن النصر والجهاد . واختاره القاضي أبو زيد وزعم أنه سر الله في المسألة . وقول مالك أجمع ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " ليس على مسلم جزية " . قال سفيان : معناه إذا أسلم الذي يبد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنه . أخرجه الترمذى وأبو داود . قال عابداً : وعليه يدل قوله : « حتى يُعْطُوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون » لأنَّ بالإسلام يزول هذا المعنى . ولا خلاف أنهم إذا أسلموا فلا يؤذون الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون . والشافعى لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذى قاله الله تعالى . وإنما يقول : إن الجزية دين ، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توفى شر القتل ، فصارت كالدَّيْن كلها .

التاسعة - لو عاهد الإمام أهل بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم وأمنتوا من أداء ما يلزمهم من الجزية وغيرها ، وأمنتوا من حكم الإسلام من غير أن يظلموا ، وكان الإمام غير جائر عليهم ، وجب على المسلمين غزوهم وقتلهم مع إمامهم . فإن قاتلوا وغلبوا حكم فيهم بالحكم في دار الحرب سواء . وقد قيل : هم ونسائهم قه ولا تخمس فيهم ، وهو مذهب .

العاشرة - فإن خرجوا متلصقين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسلمين إذا لم يمتنعوا الجزية . ولو خرجوا منقطعين نظر في أسرهم وردوا إلى الفتنة وأبصروا من ظالمهم ، ولا يُسترق منهم أحد وهم أحرار . فإن نقض بعضهم دون بعض فمن لم ينقض على عهده ، ولا يؤخذ بنقض غيره ، وتُعرف إقامتهم على المهاد بإنكارهم على الناقضين .

الحادية عشرة - الجزية وزنها فيلة ؛ من جزى يجزى إذا كافأ عما أسدى إليه ، فكانهم أعطوها جزءاً ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسة . ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يجزيك أو يثي عليك وإن من • أنى عليك بمنّا فطت كن جزى

(١١) الثانية عشرة - روى مسلم عن هشام بن حكيم بن حزام ومرة على ناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس - في رواية: وصَّب على رؤوسهم الزيت - فقال: ما شأنهم؟ فقال يجلسون في الجزية. فقال هشام: أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا". في رواية: وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين، فدخل عليه لخدمته فأمرهم تغلُّوا. قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا استنصوا من أديانهم مع التكنُّ بخلاف، فأما مع تبيين عجزهم فلا تحصل عقوبتهم؛ لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه. ولا يكلف الأغنياء إدامها عن الفقراء. وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ظلم مهادنا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة".

الثالثة عشرة - قوله تعالى: (عَنْ يَدٍ) قال ابن عباس: يدفعها بنفسه فير مستنيب فيها أحداً. روى أبو البخترى عن سلمان قال: مذمومين. وروى ممر عن قتادة قاله و من قهر. وقيل: "عن يد" عن أنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. عكرمة: يدفعها وهو قائم والآخذ جالس؛ وقاله سعيد بن جبير، ابن العربي: وهذا ليس من قوله: "عن يد" وإنما هو من قوله: "وهم صاغرون".

الرابعة عشرة - روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إدبوا علياً خير من إيد السفل واليد العليا المنقضة والسفل السائلة" وروى "واليسر العليا هي المعطية". بل بل يد المعطى في الصدقة علياً، وجعل يد المعطى في الجزية سفلى. ويد الآخذ علياً، ذلك بأنه الزافع الخافض، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، لا إله غيره.

الخامسة عشرة - عن حبيب بن إسماعيل قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إن أرض الخراج يسجز عنها أهلها أفاعمها وأزرعها وأؤدى نراجها؟ فقال لا. وجاءه آخر

فقال له ذلك ؛ فقال لا ، وتلا قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَةِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ »
إلى قوله « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أَيْعَدَ أَحَدَكُمْ إِلَى الصَّغَارِ فِي عَقِّ أَحَدِهِمْ فَيَتَرَمَّه فَيَجْعَلُهُ
فِي عُنْقِهِ ! وَقَالَ كَلِيبُ بْنُ وَائِلٍ : قُلْتُ لِابْنِ عَمْرِو اشْتَرَيْتَ أَرْضًا ؛ قَالَ : الشَّرَاءُ حَسَنٌ .
قُلْتُ : فَإِنِّي أَعْطِي عَنْ كُلِّ جَرِيبٍ أَرْضَ دَرَاهِمًا وَنَفْسَةَ طَلَامٍ . قَالَ : لَا تَجْعَلْ فِي عُنُقِكَ
صَغَارًا . وَرَوَى تَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : مَا يُسْتَرَى أَنْ لِي الْأَرْضُ
كُلُّهَا بِبِزْيَةِ خَمْسَةِ دَرَاهِمٍ أَفْرِ فِيهَا بِالصَّغَارِ عَلَى نَفْسِي .

قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ بْنُ أَبِي اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَقْوَمِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأول — قَرَأَ عاصِمٌ وَالْكَسَائِيُّ «عِزْرُ بْنُ أَبِي اللَّهِ» بِتَوْنِ عِزْرِ ، وَالْمُنْثَنَّى ابْنُ «أَبَا» عَلَى
هَذَا خَبَرُ ابْتِدَاءِ عَنْ عِزْرِ ، وَ «عِزْرِ» يَنْصَرَفُ عَجْمًا كَانَ أَوْ عَرَبِيًّا . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ
وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبْنُ عَاصِمٍ «عِزْرِ بْنِ» بَرَكَ التَّنْوِينُ لِاجْتِمَاعِ السَّاكِنَيْنِ ؛ وَهِيَ قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ
« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ » ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الشَّعْرِ ، وَأَنْشَدَ الطَّبْرِيُّ
فِي ذَلِكَ :

لَتَجِدَنَّيَ بِالْأَمِيرِ بَرًّا • وَبِالْفَتَاةِ مَذْمُومًا
• إِذْ غَطِيفُ السُّلَيْمِيِّ قَرَأَ •

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ هَذَا لَفْظُ نَجْرٍ عَلَى الْعَوْمِ وَمَعْنَاهُ
الْمَخْصُوصُ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ الْيَهُودِ قَالُوا ذَلِكَ . وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « الَّذِينَ قَالُوا لَمْ

(١) الْغَرِيبُ مِنَ الْأَرْضِ : مَقْدَارُ سَلِيمِ الْتَرَاعِ وَالْمَسَاحَةِ . وَالتَّفْزِيزُ : مِكْيَالٌ .

(٢) رَجُلٌ مَدْعُوسٌ (بِالسَّيْنِ وَالْعِيَادِ) : طَائِفٌ .

النَّاسُ هـ ولم يقل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى من اليهود مسلّم بن يشك
ونيمان بن أبي أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصّيف؛ قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم . قال
الفاش : لم يبق يهودى يقولها ، بل انقراضوا ؛ فإذا قالها واحد فبتره إن نزل الجماعة شتمه
المقاله ؛ لأجل نباهة القائل فيهم . وأقوال النبهاء أبدا مشهورة في الناس **يُخْجِجُهَا** . فمن
ها هنا مع أن تقول الجماعة قول نبيها . والله أعلم . وروى أن سبب ذلك **القول أن اليهود**
قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرجع الله عنهم التوراة وعامها من تلويهم ، فخرج عزير
يسبح في الأرض ؛ فأثاه جبريل فقال : " أين تذهب ؟ " قال : أطلب العلم ، فله التوراة
كلها فجاء عزير بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلمهم . وقيل : بل حفظها الله عزيرا كرامة منه
له ؛ فقال لبني إسرائيل : إن الله قد حفظني التوراة ؛ فعملوا يدرسونها من عنده . وكانت
التوراة مدفونة ، كان دفنها هلمأثم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب ، **فَإِذَا**
يُخْتَصَّمُ إياهم . ثم إن التوراة المدفونة وجدت فإذا هي متساوية لما كان عزير يدرس ؛
ففضلوا عند ذلك وقالوا : إن هذا لم يتألمزير إلا وهو ابن الله ؛ حكاه الطبري . وظاهر
قول النصاري أن المسيح بن الله ؛ إنما أرادوا بنوة النسل ؛ كما قالت العرب في الملائكة .
وكذلك يقتضى قول الضحاك والطبري وغيرهما . وهذا أشنع الكفر ؛ قال أبو المعالي :
أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ابن إله . قال ابن عطية : ويقال إن بعضهم
يستقدها بنوة حورومة . وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البنوة عليه ، وهو كفر .

الطالبة — قال ابن العربي : في هذا دليل من قول ربنا تبارك وتعالى على أن من
أخبر عن كفر غيره الذي لا يجوز لأحد أن يتدبى به لا حرج عليه ؛ لأنه إنما ينطق به على معنى
الاستنظام له والرد عليه ، ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد ، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد
أذن بالإخبار عنه ؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان ، والرد عليه بالحق والبرهان .

الرابعة - قوله تعالى : (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) قيل : معناه التأكيد ، كما قال تعالى :
يَكْتُمُونَ الْحَقَّ بِالْيَمِينِ ^(١) وقوله : « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » ^(٢) وقوله : « فَإِنَّا نُنْخِصُ
فِي الصُّورِ نَفْعَةً وَاحِدَةً » ^(٣) ومثله كثير . وقيل : المعنى أنه لما كان قول ساذج ليس فيه بيان
ولا برهان ، وإنما هو قول بالتم مجرد نفس دعوى لا معنى تحته صحيح ، لأنهم معترفون بأن
الله سبحانه لم يفتقد صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا ، فهو كذب وقول لسان فقط ، بخلاف
الاقوال الصحيحة التي تمضيها الأدلة ويقوم عليها البراهين . قال أهل المساء : إن الله
سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأنواء والألسن إلا وكان قولاً زوراً ، كقوله : « يَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » ^(٤) و « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انْقَضَىٰ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ أَن يَنْبُتَ الْكَافُّورُ »
و « يَقُولُونَ بِاللَّيْلِ إِنَّا نَأْتِيهِمْ فَمَا يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ » ^(٥) .

الخامسة - قوله تعالى : (يُضَاهِفُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) « يضاهفون »
ثماهون ، ومنه قول العرب : امرأة ضهاة لتي لا تحيض أو التي لا تدرى لها ، كأنها أشبهت
الرجال . والعلماء في « قول الذين كفروا » ثلاثة أقوال : الأول - قول جده الأديان : اللات
والعزى ومناة الثلاثة الأخرى . الثاني - قول الكفرة : الملائكة بنات الله . الثالث -
قول أسلافهم . فقد قدم في الباطل وأتبعهم على الكفر ، كما أخبر عنهم بقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِهِ » .

السادسة - اختلف العلماء في « ضياء » هل يمدأ لا ، فقال ابن ولادة : امرأة ضياء
وهي التي لا تحيض ، مهموز غير ممدود . ومنهم من يمد وهو سيويه فيجعلها على فاعلة بالمة ،
والهمزة فيها زائدة ، لأنهم يقولون نساء ضياء ، فيحذفون الهمزة . قال أبو الحسن قال لي

- (١) آية ٧٩ سورة البقرة . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) آية ١٣ سورة المائدة .
(٤) آية ١٦٧ سورة آل عمران . (٥) آية ٥ سورة الكهف . (٦) آية ١١ سورة التمسح .
(٧) آية ٢٢ و ٢٣ سورة الزمر .

النَّجِيرِيِّ : ضيافة بالمد والماء . جمع بين علامتي تانيث ؛ حكاية عن أبي عمرو الشيباني في النوادر . وأنشد :

• ضيافة أو عاقر جحاد •

أبن عطية : من قال « بضاهنون » مأخوذ من قولهم : امرأة ضيياء فقوله خطأ ؛ قاله أبوعل- لأن الممونة في « ضاهأ » أصلية ، وفي « ضيياء » زائدة كخمراء .

السابعة - قوله تعالى : (قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَيْ يُؤْكُونُ) أي لنهم الله ، بنى اليهود والنصارى ، لأن المسمون كالمقتول ، قال ابن جرير : « قاتلهم الله » هو بمعنى « يجب » . وقال ابن عباس : كل شيء في القرآن قتل فهو لمن ؛ ومنه قول أبيان بن تطلب :

قاتلها الله تعالى وقد علمت • أي لغضبي إنساني وإصلاح

وحكي النقاش أن أصل « قاتل الله » الدعاء ، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخبر والشر ، ولم لا يريدون الدعاء ، وأنشد الأصمعي :

يا قاتل الله ليس كيف تعجبي • وأخبر الناس أني لا أباها

قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبَشِّرُهُمْ غَمًّا يُنْزِلُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) الأحبار جمع حبر ، وهو الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه بحسن البيان عنه . ومنه توب عبراني جمع الرتبة . وقد قيل في واحد الأحبار : حبر يكسر الحاء . والمفسرون مل فتحها . وأهل اللغة على كسرهما . قال يونس : لم اسمه إلا بكسر الحاء ، والدليل على ذلك أنهم قالوا : يسير يريدون مداد عالم ، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للسداد سير . قال الفراء : الكسر والنفع

(١) في الأصول « جناد » بالنون ، وهو تعريف . والجناد : الناقة التي لا لبن بها .

لنتان . وقال ابن السكيت : الحبر بالكسر اللداد ، والحبر بالفتح العالم ، والزمان جمع راحب مأخوذ من الزحبة ، وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس ، ويعمل زمانه له وعمله معه وأمنه به .

قوله تعالى : ﴿ أَرْيَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال أهل المعاني : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرياب حيث أطاعوهم في كل شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَقْنَعُوا حَتَّى إِذَا جِئْتُمْ نَارًا ﴾ أي كالنار . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك • وأحبار سوء ورهبانها

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي بصير قال : سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْيَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ هل عيودهم ؟ فقال لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه . وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في عني صليب من ذهب . فقال : " ما هذا يا عدي ؟ أطرحه منك هذا اللون " وسمعت يقرأ في سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْيَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ ثم قال : " أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه " . قال : هذا حديث ضريب لا يعرف إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وخُطيف بن أُعَيْن ليس بمعروف في الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ مضى الكلام في اشتقاقه في « آل عمران » . والمسح : الترقى يسيل من الجبين . ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال :

افرح فسوف تألف الأحرانا • إذا شجعت الحشر والميزانا

وسأل من جينك المسيح • وكأنه جداول قسيح

ومضى في « النساء » معنى إضافته إلى مريم أمه .

(١) آية ٩٦ سورة الكهف . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٨ طبة أول أدلة ٤٠٤ .

(٣) راجع ج ٦ ص ٣١ طبة أول أدلة ٤٠٤ .

قوله تعالى : **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ**
إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : **(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ)** أى دلائله وحججه على توحيدِهِ . جعل
 البراهين بمنزلة النور لما فيها من اليان . وقيل : المعنى نور الإسلام ، أى أن يُعبدوا دين الله
 بتكذيبهم . **(بِأَفْوَاهِهِمْ)** جمع فوه على الأصل ؛ لأن الأصل فى قيم فوه ، مثل حوض
 وأحواض . **(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ)** يقال : كيف دخلت « إلا » وليس فى الكلام
 حرف قى ، ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزعم الفراء أن « إلا » إنما دخلت لأن فى الكلام
 حرفاً من الجتمد . قال الزجاج : الجحد والتحقيق ليسا بلفظ أطراف . وأدوات الجحد : ما ،
 ولا ، وإن ، وليست : وهذه لا أطراف لها يُنطق بها ، ولو كان الأمر كما أراد بلال كرهت
 إلا زيدا ، ولكن الجواب أن العرب تختلف مع آبى . والتقدير : وبأبى الله كل شئ إلا أن
 يتم نوره . وقال علي بن سليمان : إنما جاز هذا فى « آبى » لأنها متع أو امتناع ، فصارحت
 النفى . قال النحاس : فهذا حسن ، كما قال الشاعر :

وعل لى أم قريها مبت تركتها . أبى الله إلا أن أكون لما أجتأ

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ**
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ)** يريد عبداً صلى الله عليه وسلم . **(وَالْهُدَى)**
 أى بالقرآن . **(وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)** أى بالهجة والبراهين . وقد أظهره على
 شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شئ منها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « ليظهره »
 أى ليظهر الدين الإسلام على كل دين . قال أبو هريرة والضحاك : هذا عند نزول موسى
 عليه السلام . وقال السدي : ذلك عند خروج المهدي ؛ لا يبق أحد إلا دخل فى الإسلام
 وأدى الجزية . وقيل : المهدي هو عيسى فقط ، وهو غير صحيح ، لأن الأخبار الصراح قد

نوارت على أن المهدي من عتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز حمله على عيسى .
والحديث الذي ورد في أنه لا مهدي إلا عيسى غير صحيح . قال البيهقي في كتاب البعث
والنشور : لأن راويه محمد بن خالد الجندي وهو مجهول ، يروي عن أبان بن أبي عياش
— وهو متروك — عن الحسن بن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منقطع . والأحاديث التي
قبله في التنصيص على خروج المهدي ، وفيها بيان كون المهدي من عتبة رسول الله صلى الله
عليه وسلم أصح إسنادا .

قلت : قد ذكرنا هذا وزدناه بيانا في كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبار المهدي
ستؤلفه والحمد لله . وقيل : أراد « يُظهِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ كُلِّهِ » في جزيرة العرب ، وقد نقل .

قوله تعالى : يَكْفُرُ بِالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لَيَكُونُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الاولى — قوله تعالى : (لَيَكُونُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) دخلت اللام على يفعل ،
ولا تدخل على فعل ، لمضارمة يفعل الأسماء ، والأحبار علماء اليهود . والرهبان مجتهدو النصراني
في العبادة . (بِالْبَاطِلِ) قيل : إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم
الكلاس واليَّح وغير ذلك ، مما يرمونهم أن التفتة فيه من الشرع والتزلُّف إلى الله تعالى ،
وهم خلال ذلك يمجِّبون تلك الأموال ، كالذي ذكره سَلَسَانُ الفارسي عن الراهب الذي
استخرج كثره ، ذكره ابن إسحاق في السير . وقيل : كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم
ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون في الأحكام ، كما يفعله اليوم

كثير من الولاة والحكام ، وقوله : ((بِالْبَاطِلِ)) جميع ذلك كله . (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)
 أى يمنعون أهل دينهم عن الدخول في دين الإسلام ، وأتباع محمد عليه السلام .
 الثانية - قوله تعالى : ((وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)) الكثر أصله في اللغة
 الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله عليه السلام : " ألا أخبركم
 بخير ما يكثر المرأة الصالحة " . أى يضمه لنفسه ويجمعه . قال :
 ولم تزود من جميع الكثر • خير بخسوط ووثيث ^(١)
 وقال آخر :

لَا دَرْدَرَى إِنْ أَطْعَمْتُ جَانِعَهُمْ • قَرَفَ الْحَقِّيَّ وَعَسَدَى الْبُرِّ مَكْنُوزَ
 قَرَفَ الْحَقِّيَّ هُوَ سَوِيْقُ الْمَقْلِ • يقول : إنه تزل يقوم فكان يقرأه عندهم سويق المقل ،
 وهو الحقي ، فلما تزلوا به قال هو : لَا دَرْدَرَى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر
 لأنه لا يطلع عليه ، بخلاف سائر الأموال . قال الطبري : الكثر كل شيء مجسوع بمضه
 إلى بعض . و يطن الأرض كان أو على ظهرها . وسى الذهب ذهباً لأنه يذهب ، والفضة
 لأنها تفض فتفرق ، ومنه قوله تعالى : « لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ » وقد مضى هذا المعنى
 في آل عمران ^(٢) .

الثالثة - واختلقت الصحابة من المراد بهذه الآية ، فذهب معاوية إلى أن المراد بها
 أهل الكتاب ، وإلى ذهب الأئمة ، لأن قوله : « وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ » مذكور بعد قوله :
 « إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَالِ الْبَاطِلِ » . وقال أبو ذر وغيره : المراد
 بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ، لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة
 لقال : وَيَكْتَرُونَ ، غير الذين . فلما قال : « وَالَّذِينَ » فقد استأنف معنى أكثر بين أنه
 عطف جملة على جملة . فالذين يكثران كلام مستأنف ، وهو وقع على الابتداء . قال السدي :
 عن أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيسه دليل على أن الكفار عندهم

(١) الزيت : البالي ، واليز : نوع من الخياب .. (٢) المقل نمر جهر الدم ينجح ويكفل .

(٣) راجع ج ٤ ص ٢٤٩ طعة أدب أو ثانية .

عن طيوس بن عوف الشريفة . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : صررت بالربذة فإذا أبا بى نزلت له : ما أترك مترك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاخلفت أنا ومعاًوية في « الذين يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ؛ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب . قلت : نزلت فينا وفيهم ؛ وكان بيني وبينه في ذلك . فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ؛ فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تحييت فكتنت قريبا ؛ فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمروا علي حبشياً لسمعت وأطعت .

الرابعة — قال ابن خزيمة : تضمنت هذه الآية زكاة العين ، وهي يجب بأربعة شروط : حرية ، وإسلام ، وحول ، ونصاب سليم من الدين . والنصاب مائتا درهم أو عشرون ديناراً . أو يكفل نصاب أحدهما من الآخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا . وإنما قلنا إن الحرية شرط ؛ فلا ن المبد ناقص الملك . وإنما قلنا إن الإسلام شرط ؛ فلا ن الزكاة طهرة والكافر لا تلحقه طهرة ، ولأن الله تعالى قال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » نفوطب بالزكاة من خوطب بالصلاة . وإنما قلنا إن الحول شرط ؛ فلا ن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في مالي زكاة حتى يحول عليه الحول » . وإنما قلنا إن النصاب شرط ؛ فلا ن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في أقل من مائتي درهم زكاة وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة » . ولا يراعى كمال النصاب في أول الحول ، وإنما يراعى عند آخر الحول ؛ لا نفاقهم أن الربح في حكم الأصل . يدل على هذا أن من كانت معه مائتا درهم فتجر فيها نصارت آخر الحول ألفاً أنه يؤدى زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولاً . فإذا كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادراً عن نصاب أو دونه . وكذلك أعفوا أنه لو كان له أربعون من الغنم ، فتوالدت له رأس الحول ثم ماتت الأمهات إلا واحدة متبل ، وكانت السخال ثمة النصاب فإن الزكاة تُخرج عنها .

الخامسة - وأختلف العلماء في المال الذي أدت زكاته هل يسمى كذا أم لا ؛ فقال قوم نعم . ورواه أبو الضحّا عن جملة بن هبيرة عن عليّ رضي الله عنه ، قال عليّ : أربعة آلاف فادونها نفقة ، وما كثر فهو كثر وإن أدت زكاته . ولا يصح . وقال قوم : ما أدت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكثر . قال ابن عمر : ما أدت زكاته فليس بكثر وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تؤدّ زكاته فهو كثر وإن كانت فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح . وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيران يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ به يمينه يعني شقيقه ثم يقول أنا مالك أنا كثرك " ثم تلا - « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ » الآية . وفيه أيضا عن أبي ذر ، قال : انتهيت إليه - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - قال : " والذي نفسي بيده - أو والذي لا إله غيره أو كما حلف - ما من رجل تكون له إبل أو بقرا أو غنم لا يؤدى حضا إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون واسمته تظلوه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أنحرها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس " . فدلّ دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر في صحيح البخاري هذا المعنى . قال له أعرابي : أخبرني عن قول الله تعالى : « والذين يكتزون الذهب والنفضة » قال ابن عمر : من كثرها فلم يؤدّ زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزل جعلها الله طهرا للأموال . وقيل : الكثر ما فضل عن الحاجة . وروى عن أبي ذر وهو ما نقل من مذهبه ، وهو من شدائده وما أقدر به رضي الله عنه .

قلت : ويحتمل أن يكون مجمل ما روى عن أبي ذر في هذا ، ما روى أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم ، ولم يكن في بيت المال ما يشبعهم ، وكانت السنون الجوائح حاجبة عليهم ، فهوأ من إساءك شيء من المال إلا على قدر الحاجة ، ولا يجوز أخذها من الذهب والنفضة في مثل ذلك الوقت .

فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أنوجب صلى الله عليه وسلم في مائتي درهم خمسة دراهم،
وفي حشرين دينارا نصف دينار؛ ولم يوجب الكل، واعتبر مدة الاستئثار؛ فكان ذلك منه
بيانا صلى الله عليه وسلم. وقيل: الكثر لما لم تؤد منه الحقوق العارضة؛ كغفك الأسير
وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل: الكثرة المجموع من التقدين، وغيرهما من المال محمول
عليهما بالقياس. وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حليا؛ لأن الحلي ماذون في أخذه ولا حق
فيه. والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمى كثر لثمة وشرا. والله أعلم.

السادسة - واختلف العلماء في زكاة الحلي؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد وإسحاق
وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه. وهو قول الشافعي بالعراق، ووقف فيه بعد ذلك
بمصر وقال: استخبر الله فيه. وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي: في ذلك كله
الزكاة. احتج الأولون فقالوا: قصد الثناء يوجب الزكاة في العروض وهي ليست بحمل
لإيجاب الزكاة، كذلك قطع الثناء في الذهب والفضة بأخذها حليا للثنية يسقط الزكاة.
احتج أبو حنيفة بعموم الإنفاذ في إيجاب الزكاة في الفدين، ولم يفرق بين حل وغيره. وفرق
الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صنع حليا ليفترقه من الزكاة، وأسقطها فيما كان منه يلبس
توسيرا. وفي المنذهب في الحلي تفصيل، بيانه في كتب الفروع.

السابعة - روى أبو داود عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «والذين
يكتزون الذهب والفضة» قال: كبر ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أفرج عنكم؛ فانطلق
فقال: يا نبي الله، إنه كبر على أصحابك هذه الآية. فقال: «إني لم يفرض الزكاة
إلا لطيب ما بين أموالكم وإنما فرض الموارث - وذكر كلمة - لتكون لمن بعدهم»
قال: فكبر عمر. ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آلا أخبرك بخبري ما يكثر المرء
المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته». وروى

(١) ما بين الخطين موجود في نسخ الأصل، غير موجود في سنن أبي داود. والذي في كتاب الدر المنثور
للبيهقي: «... وإنما فرض الموارث من أموال بين بعدهم».

البر، وقد روي عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: قد ذم الله سبحانه نهب وتعضه، فلو علمنا أن المال حرام حتى نكسبه، فقال عمر: أما أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله فقال: «لأن ذاكر وقلب شاكر وزوجة تدين المرء على دينه». قال حديث حسن.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يقل ينفقونها، فيه أحوبة ستة: الأول - قال ابن الأثير: قصد الأغلب والأعم وهو الفضة، ومثله قوله: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ» رد الكفاية إلى الصلاة لأنها أعم، ومثله «وَأَذًا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَخْفَضُوا إِلَيْهَا» فأعاد الماء إلى التجارة لأنها الأعم، وترك اللهو؛ لأنه كثير من المفسرين، وأبى بعضهم وقال: لا يشبهها؛ لأن «أو» قد فصلت التجارة من اللهو فحسن عود الضمير إلى أحدهما، الثاني - العكس، وهو أنت يكون «ينفقونها» للذهب والثاني معطوف عليه، والذهب تؤنثه العرب تقول: هي الذهب الحمراء، وقد تذكر والثانيث أشهر، الثالث - أن يكون الضمير للكنوز، الرابع - للأموال المكتنزة، الخامس - للزكاة، التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكتنزة، السادس - الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، وهذا كثير في كلام العرب، أنشد سيويه: نحن بما عتدنا وأنت بما • عتلك راضٍ والرأى مختلف

ولم يقل راضون.

وقال الأبر:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي • بِرَيْثَا وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

ولم يقل برِيثين، ونحوه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه:

- (١) آية ٥٥ سورة البقرة . (٢) أكثر سورة البقرة . (٣) البيت لنفس ابن الخطيم
(٤) حواشي آخر، وأصح حمود، وصف في البيت رجلا كان يده ويده مشابة في يده - وهو الطوى -
فذكر أنه رماه بأمر يكرهه رضى أباه بمثل حل برأيهما من أجل المشابة التي كانت بينهما . (من شرح الشواهد)

إن شرح الشباب والشعر الأس - جود ما لم يُعاص كان جنونا

ولم يقل بما صيا .

التاسعة - إن قيل : من لم يكتر ولم ينفق في سبيل الله وأتقى في المعاصي ، هل يكون حكمه في الوعيد حكم من كتر ولم ينفق في سبيل الله . قيل له : إن ذلك أشد ، فإن من بذر ماله في المعاصي عصى من جهنم ؛ بالإففاق والتناول ؛ كشراء الخمر وشربها ، بل من جهات إذا كانت المعصية مما تمتد ؛ كمن أعان على ظلم مسلم من قتله أو أخذ ماله إلى غير ذلك . والكانز عصى من جهنم ، وهما منع الزكاة وحبس المال لا غير . وقد لا يراعى حبس المال ، والله أعلم .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿ يَشْرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تقدم معناه . وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : " بَشَرُ الْكَافِرِينَ بِكَيْ تَطْهَرُوا مِنْ جُنُوبِهِمْ وَبَكَيْ مِنْ قِيلِ أَفْقَاهِهِمْ يَخْرُجُ مِنْ جَبَاهِهِمْ " الحديث . أخرجه مسلم . رواه أبو ذر في رواية : " بَشَرُ الْكَافِرِينَ بِرَضْفٍ يُحَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُوضَعُ عَلَى حُلْمَةٍ تَدْبِي أَسْلَحَهُمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نَفْضٍ كَيْفِيهِ وَيُوضَعُ عَلَى نَفْضٍ كَيْفِيهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حُلْمَةٍ تَدْبِيهِ فَيَقْرُزُ " الحديث . قال علماؤنا : فخرج الرضف من حُلْمَةٍ تَدْبِيهِ إِلَى نَفْضٍ كَيْفِيهِ لَمُذِيبِ قَلْبِهِ وَبَاطِنِهِ حِينَ آمَنَّا بِالْخُرُوجِ بِالْكَثْرَةِ فِي الْمَالِ وَالسُّرُورِ فِي الدُّنْيَا ، فَعُوقِبَ فِي الْآخِرَةِ بِالْهَمِّ وَالْعَذَابِ .

الحادية عشرة - قال علماؤنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كتر ولا ينفق في سبيل الله ، ويتمرض للواجب وغيره ؛ غير أن صفة الكثرة لا ينبغي أن تكون معتبرة ؛ فإن من لم يكتر ودفع الإلتفات في سبيل الله فلا بد وأن يكون كذلك ؛ إلا أن الذي يجنب تحت الأرض هو الذي يُمنع إلتفاتة في الواجبات عرقاً ؛ فلذلك خص الوعيد به . والله أعلم .

(١) الرضف : الحجة المحممة .

(٢) النفض (بالضم والفتح) : أغل الكف ، وقيل : هو العلم الزيق المحن على طرف .

قوله تعالى : يَوْمَ يُخَمَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ
وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُتِبَتْمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٢٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَوْمَ يُخَمَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ) « يوم » ظرف ، والتقدير يعذبون
يوم يُمْنَى . ولا يصح أن يكون على تقدير : فبشرهم يوم يُمْنَى عليها ، لأن البشارة لا تكون
حينئذ . يقال : أحميت الحديد في النار ، أى أوقدت عليها . ويقال : أحميته : ولا يقال :
أحميت عليه . وهاتان قال عليها ، لأنه جعل « عل » من صلة معنى الإحماء ، ومعنى الإحماء
الإيقاد . أى يوقد عليها فتكوى . الكى : الصباغ الحار من الحديد والنار بالمضمر حتى يحترق
الجلد . والجلاء جمع الجبهة ، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناصية . وجبته فلانا بكذا ،
أى استقبلته به وضربت جبهته . والجنوب جمع الجنب . والكى في الوجه أشهر وأجمع ،
وفي الجنب والظهر ألم وأوجع ، فذلك خصها بالله كرم من بين سائر الأعضاء . وقال علماء
الصوفية : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طوّروا كشفاً من الفقير
إذا جالسهم كويت جنوبيهم ، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتادوا عليها كويت
ظهورهم . وقال علماء الفلاس : إنما خص هذه الأعضاء لأن الفنى إذا رأى الفقير زوى
ما بين جبهته وقبض وجهه . كما قال :^(١)

يَرِيدُ يَمْنَعُ الْعُزْفَ عَنِ كَأَنَّمَا • زوى بين عينيه على المحاسن

فلا ينسبط من بين عينيك ما أنزوى • ولا تَلَقَّسْنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وإنما سأل طوى كشحه ، وإذا زاده في السؤال وأكثر عليه ولآه ظهره . فرتب الله العقوبة
على حال المعصية .

(١) طوى كشحه عه : إذا أعرض عنه .

(٢) جمعه وجمعه .

(٣) القائل هو الأعشى ، كما في اللسان .

التائيسية ... واختلقت الآثار في كيفية الكي بذلك ؛ فني صحيح مسلم من حديث أبي ذر
 ، اذ كونا من ذكر الرضف . وفيه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤذى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح
 من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم
 كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما
 إلى النار " . الحديث . وفي البخاري : أنه يمثل له كثره شعاع أفرع . (قد تقدم في غير
 الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤذ زكاته ، طوَّفه يوم القيامة
 شعاعاً أفرع ينقر رأسه

قلت : ولعل هذا يكون في مواطن : موطن يمثل المال فيه نعياناً ، وهو موطن يكون
 صفائح ، وهو موطن يكون رصفاً . فتتغير الصفات والجسمية واحدة ؛ فالشجاع جسم والمسال
 جسم . وهذا التمثيل حقيقة ؛ بخلاف قوله : " يؤذى بالموت كأنه كبش أملع " ، فإن تلك طريقة
 أخرى ، وقد إن يفصل ما يشاء . وخُصَّ الشجاع بالذكر لأنه المدرك الثاني للثقاق . والشجاع
 من الحيات هو الحية الذكر الذي يوايب الفارس والراجل ، ويقوم على ذنبه ورما بلغ الفارس ،
 ويكون في الصماري . وقيل : هو الثعبان . قال الخليلي : يقال لمحبة شجاع ، وثلاثة أشجعة ،
 ثم شجعان . والأفرع من الحيات هو الذي تمتط رأسه وأبيض من السم . في الموطأ :
 له ز بيتان ؛ أي تقطنان متفخخان في شذيقه كالزغوتين . ويكون ذلك في شدة الإنسان
 إذ غضب وأكثر من الكلام . قالت [أم] غيلان بنت جرير : ربما أشدت أبي حتى يترتب
 شذقاي . ضرب مثلاً للشجاع الذي كثر سمه فيمثل المسال هذا الحيوان فليقل صاحبه غضبان .
 وقال ابن دُرَيْد : تقطنان سوداوان فوق عيبيه . في رواية : يمثل له شجاع يتبعه فيضطره
 فيعطيه يده فيقبضها كما يقبض الفعل . وقال ابن مسعود : والله لا يسدب الله أحداً بكثر
 فيمسن درهم درهم ولا دينار ديناراً ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على
 حذته . وهذا إما يصحح في الكافر — كما ورد في الحديث — لا في المؤمن . والله أعلم .

الثانية - أسد الطبري إلى أبي أمامة الباهلي قال : مات وجل من أهل الله .
فوجد في بطنه دينار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كَيْفَ " . ثم مات آخر يوم .
له دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كَيْفَان " . وهذا إنما لأيهما كانا يعيشان
من الصدقة وعندهما الثبر ، وإنما لأن هذا كان في صدر الإسلام ، ثم قرر الشرح بنية
المال وأداء حقه ، ولو كان ضبط المال ممنوعا لكان حقه أن يُخرج كله ، وليس في الآية
من يلزم هذا ، وحسبك حال الصحابة وأموالهم وضوان الله عليهم . وأما ما ذكر عن أبي ذر
وهو مذهب له ، رضي الله عنه . وقد روى موسى بن عبيدة عن عمران بن أبي أنس عن
" بن أوس بن الحذافان عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من جمع
- نارا أو درهما أو تيرا أو فضة ولا يُعده لغريم ولا ينفق في سبيل الله فهو كثر يَكْوَى به يوم
القيامة " .

قلت : هذا الذي يليق بأبي ذر رضي الله عنه أن يقول به ، وأن ما فضل عن الحاجة
طيس بكثير إذا كان معدا لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خُفّ يرضا أو صُفراً كُرى بها
مغفورا له أو غير مغفور له ، إلا إن حلية السيف من ذلك . وروى ثوبان أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : " ما من رجل يموت وعنده أحر أو أبيض إلا جعل الله له بكل
قيراط صفيحة يَكْوَى بها من فوقه إلى قدمه مغفورا له بعد ذلك أو معدبا " .

قلت : وهذا محمول على ما لم يؤد زكاته بدليل ما ذكرنا في الآية قبل هذا . فيكون
التقدير : بعنده أحر أو أبيض لم يؤد زكاته . وكذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله
عنه : من ترك عشرة آلاف جعلت صفايح يعطب بها صاحبها يوم القيامة . أي لم يؤد زكاتها ،
لئلا تنافض الأحاديث . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : (هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أي يقال لهم هذا ما كنتم
لغف . (فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) أي عذاب ما كنتم تكفرون .

قوله تعالى : **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَتَلَبُّوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْلِبُونَ كُفَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾**

قوله تعالى : **(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ)** ^(١) فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ)** جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلك الشهر؛ وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا؛ فإله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربي : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضى ذلك ثلاثة أشهر؛ لأنه أقل الجمع الذى يقتضيه صيغة قول فى جمع قُل . ومعنى **(عِنْدَ اللَّهِ)** أى فى حكم الله وفيما كتب فى اللوح المحفوظ . **(اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا)** أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ؛ لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة « عشر » بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر « عشر » بحزم الشين . **(فِي كِتَابِ اللَّهِ)** يريد اللوح المحفوظ . وأعاده بعد أن قال « عند الله » لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله ؛ كقوله : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » ^(٢) .

الثانية — قوله تعالى : **(يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)** إنما قال « يوم خلق السموات والأرض » ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك ، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأزل ذلك على آياته فى كتبه المنزل . وهو معنى قوله تعالى : **« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا »** . وحكمه باقى

(١) يلاحظ أن المسائل ثمان . لاسع . (٢) آء سورة قحان .

صل ما كانت عليه لم يُطْلَعْ عن ترتيبها تغييرُ المشركين لأسمائها، وتقديمُ المُقدم في الاسم منها .
والمقصود من ذلك اتباعُ أمر الله فيها ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء
الشهر وتقدمها ، وتعلقُ الأحكام على الأسماء التي رتبها عليه ؛ ولذلك قال عليه السلام
في خطبته في حجة الوداع : « أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات
والأرض » على ما يأتي بيانه . وأن الذي فعل أهل الجاهلية من جعل المحرم صفراً وصفر محزوماً
لبس يتغير به ما وصفه الله تعالى . والعامل في « يوم » المصدر الذي هو « في كتاب الله » ،
وليس يعني به واحد الكُتُب ؛ لأن الأعيان لا تعمل في الظروف . والتقدير : فيما كتب الله
يوم خلق السموات والأرض . و« عند » متعلق بالمصدر الذي هو المدة ، وهو العامل فيه .
و« في » من قوله : « في كتاب الله » متعلقة بمحذوف ، هو صفة لقوله : « اثنا عشر » .
والتقدير : اثنا عشر شهراً معدودة أو مكتوبة في كتاب الله . ولا يجوز أن تتعلق بمدة لما
فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بغير إك .

الثالثة - هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما
يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب ، دون الشهور التي تعتبرها المعجم والروم والفيظ
وإن لم تزد على اثني عشر شهراً ؛ لأنها مختلفة الأعداد ، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص ،
وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص ، والذي ينقص ليس يتعين له
شهر ، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج .

الرابعة - قوله تعالى : « مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » (١) الأشهر الحرمُ المذكورة في هذه الآية
ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى الآخرة وشعبان ، وهو رجب مضر ، وقيل
له رجب مضر لأن ربيعة بن زرار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً . وكانت مضر
تحرم رجباً نفسه ؛ فذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « الذي بين جمادى وشعبان »
ورفع ما وقع في اسمه من الاختلال بإليان . وكانت العرب أيضاً تسميه مُنْصِلَ^(٢) الأيسنة ؛

(١) منصل الأيسنة : غريبتها من أماكنها . كانوا إذا دخل رجب رعوا أيسنة الرماح وضالوا السهام ؛ أي :
قتلوا فيه ، وقطعوا لأسباب الحرب .

روى البخاري عن أبي رَجاء العطاردي - واسمه عمران بن ملثان وقيل عمران بن تيم - قال : كنا نهد الحجر ، وإذا وجدنا حجرا هجرنا أخيرا منه التيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حذوة من تراب ثم جئنا بالشاء خللنا عليه ثم طفأ به ، فإذا دخل شهر رجب قلنا متصلا الأسننة فلم ندع رجحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا تركناها فالتيناه .

الخامسة - قوله تعالى : (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) أى الحساب الصحيح والعدل المستوفى . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : « ذلك الدين » أى ذلك القضاء . مقاتل : الحق . ابن عطية : والأصوب عندي أن يكون الدين هاهنا على أشهر وجوهه ، أى ذلك الشرع والطاعة . (القَيِّمُ) أى القام المستقيم ، من قام يقوم . بمنزلة سيد من ساد يسود . أصله قَيِّوم .

السادسة - قوله تعالى : (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ) على قول ابن عباس راجع إلى جميع الشعوب . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحرم خاصة ؛ لأنه إليها أقرب ولها منزلة في تنظيم الظلم ، لقوله تعالى : « فَلَا رَقَّتْ وَلَا تُسَوَّقُ وَلَا يُجَادَلُ فِي الْحَجِّ » لأن الظلم في غير هذه الأيام جائز على ما نبينه . ثم قيل . في الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا فيمن أنفسكم بالقتال ، ثم نسخ بإباحة القتال في جميع الشعوب ؛ قاله قتادة وعطاء الخراساني والزهرى وسفيان الثوري . وقال ابن جرير : حلف بالله عطاء بن أبي رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها ، وما تسخت . والصحيح الأول ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بمحني وثيفا بالطائف ، وحاصرهم في شؤال وبعض ذى القعدة . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة . الثاني - لا تظلموا فيمن أنفسكم بارتكاب الذنوب ؛ لأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة ، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمة ممتدة ؛ فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح . فاق من أطلع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس

العرب هذا . وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي : حَلَّوْا . وفيها فوقها حَلَّتْ . لا يقال : كيف جُصِلَ بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض ، فإننا نقول : للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ، ليس لفعله علة ولا عليه حرج ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تحفى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ أمر بالقتال . و ﴿ كَافَّةً ﴾ معناه جميعا ، وهو مصدر في موضع الحال . أى محيطين بهم وجميعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عاثة الله عاقبة وعاقبه عاقبة . ولا يبقى ولا يجمع ، وكذا عاثة ونحابة . قال بعض العلماء : كان الغرض بهذه الآية قد توجه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يعلم قط من شرع النبي صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا القتال ، وإنما معنى هذه الآية الحضر على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة . ثم قيدها بقوله : « كَمَا يُطَايَلُوكُمْ كَافَّةً » فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطَاعُوا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لِحُومِهِمْ سُوْرَةٌ أُعْمِلُوا فِيهَا وَلَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ هكذا يفرا أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يرد أحد عن نافع فيما علمناه «إنما النبي» بلا همز إلا وروى وحده ، وهو مشتق من نساه وناساه إذا أضره ؛ حكى اللغتين الكسائي ، الجوهري : النبي ، فيسبل بمعنى مفعول ؛ من قولك : نسأت الشيء فهو منسوء إذا أضره . ثم يحول منسوء إلى نسيء كما يحول مقتول إلى قتيل . ورجل ناسي وقوم نساء ، مثل فاسق وفسقة . قال الطبري : النبي ، بالهمزة معناه الزيادة ؛ يقال : نسا ينسا إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان ؛ كما قال تعالى :

«فَسُوا اللَّهَ فَتَسِيَهُمْ»، ورد على نافع قراءة، واحتج بأن قال: إنه يتعدى بحرف الجر، يقال: نسأ الله في أجلك كما تقول زاد الله في أجلك؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من مره أن يبتسط له في رزقه ويُنمأ له في أثره فليصل رحمه»^(١). قال الأزهري: أنسأت الشيء إنشاه ونسيئا؛ اسم وضع موضع المصدر الحقيقي. وكانوا يميزون القتال في المحرم، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرموا صقرا بدله وقاتلوا في المحرم. وسبب ذلك أن العرب كانت أمهات حروب وغارات، فكان يشق عليهم أن يمشوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها، وقالوا: لن نؤات علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلك. فكانوا إذا صبروا عن شيء يقوم من بني كنانة، ثم من بني فزاعة منهم رجل يقال له القلنس؛ فيقول أنا الذي لا أبرء لي قضاء. فيقولون: أسلنا شهرا، أي أحرنا حرمة المحرم واجعلها في صفر؛ فيحل لم المحرم، فكانوا كذلك شهرا شهرا حتى استدار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله فيه. وهذا معنى قوله عليه السلام: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض». وقال بجاهد: كان المشركون يصحون في كل شهر عامين؛ فخرجوا في ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور كلها حتى وافقت حجة أبي بكر إلى حجة الوداع قبل حجة الوداع من السنة التاسعة. ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة؛ فذلك قوله في خطبته: «إن الزمان قد استدار» الحديث. أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النسيء. وقول ثالث - قال إياس بن معاوية: كان المشركون يصحون السنة اثني عشر شهرا وخمسة عشر يوما؛ فكان الحج يكون في رمضان وفي ذي القعدة، وفي كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوما. فحج أبو بكر سنة تسع في ذي القعدة بحكم الاستدارة، ولم يصح النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

(١) آية ٦٧ من هذه السورة. (٢) الأثر: الأجل؛ وصح به لأنه يقع الصبر، واصله من أثر مشبه في الأرض، فإن من مات لا يتبع له حركة فلا يتبع لأفئدة في الأرض أثر. (من شرح القسطلاني).

في العشر ، ووافق ذلك الإهلة . وهذا القول أشبه بقول النبي صلى الله عليه وسلم :
 " إن الزمان قد استدار " . أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله يوم خلق
 السموات والأرض بأصل المشروعية التي سبق بها علمه ، وفقد بها حكمه . ثم قال : السنة
 اثنا عشر شهرا . يتنق بذلك الزيادة التي زادوها في السنة — وهي الخمسة عشر يوما —
 بتحكمهم ؛ فتمعين الوقت الأصلي وبطل التحكم الجعلي . وحكى الإمام المسازري عن الخوارزمي
 أنه قال : أول ما خلق الله الشمس أجراها في بروج الحمل ، وكان الزمان الذي أشار به النبي
 صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس بروج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف ؛ فإنه لا يتوصل
 إليه إلا بالنقل عن الأنبياء ، ولا نقل صحيحا عنهم بذلك ، ومن أدماء فليستهم . ثم إن النقل
 يجوز خلاف ما قال ، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج ، ويجوز أن يخلق ذلك كله دفعة
 واحدة . ثم إن علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس في بروج الحوت وقت قوله
 عليه السلام : " إن الزمان قد استدار " بينا وبين الحمل عشرون درجة . ومنهم من قال
 عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل في أول من نسا ، فقال ابن عباس وقتادة
 والضحاك : بنو مالك بن كنانة ، وكانوا ثلاثة . ودوى جوير من الضحاك عن ابن عباس
 أن أول من فعل ذلك عمرو بن لحي بن قعدة بن خثيف . وقال الكلبي : أول من فعل ذلك
 رجل من بني كنانة يقال له نعم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جنادة بن حوف ، وهو
 الذي إدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزهري : سمع من بني كنانة ثم من بني قُصيم
 منهم رجل يقال له القنيس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفي رواية : مالك بن كنانة . وكان
 الذي على القنيس يظفر بالرياسة لترئيس العرب إياه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

• ومنا ناسي الشهر القنيس •

وقال الكشي :

ألسنا الناسين على معد • شهور أيا ليجعلها حراما

(١) في نسخ الأمل « جريد » وهو تحريف .

قوله تعالى : (**زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**) بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر ؛ فإنها أنكرت وجود الباري تعالى فقالت : « وما الرحمن ^(١) » في أمح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « من يحيي العظام وهي رميم ^(٢) » . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : « أبشركم ^(٣) بما وعدنا نبيهم » . وزعمت أن التحليل والتحريم إليها ، فابتدعته من ذلتها مقتضية لشبهاتها ؛ فأحلت ما حرم الله . ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : (**يُضِلُّهُمُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحُكْمِهِمْ**) عَامًا وَيُحَرِّمُوهُمْ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) فيه ثلاث قراءات .
 قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يُضِلُّ » وقرأ الكوفيون « يُضِلُّ » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو ربيعة « يُضِلُّ » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدي عن معنى ؛ إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقدير : ويضل به الذين كفروا أن يقبل منهم .
 و (**الَّذِينَ**) في محل رفع . ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقدير : يضل الله به الذين كفروا ؛ كقوله تعالى : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ » ، وكقوله في آخر الآية : « والله لا يهدي القوم الكافرين » . والقراءة الثانية « يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعني المحسوب لهم ؛ واختار هذه القراءة أبو عبيد ؛ لقوله تعالى : « زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ؛ لأنهم كانوا ضالين به ، أي بالنسيء ؛ لأنهم كانوا يحسبونه فيضلون به .
 والهاء في « يَحِلُّونَ » ترجع إلى النسيء . وروى عن أبي رداء « يُضِلُّ » بفتح الياء والضاد . وهي لغة ؛ يقال : ضَلَّتْ أَضَلُّ ، وضَلَّلتْ أَضَلُّ . (**لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ**) نصب بلام كَيْ ؛ أي ليوافقوا .
 تواعا القوم على كذا أي اجتمعوا عليه ؛ أي لم يَحِلُّوا شهرا إلا حرموا شهرا لتيق الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح ؛ لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : إنهم صدروا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم ، وقرئوا به الحرم في التحريم ؛ وقاله عنه قطرب والطبري .
 وعليه يكون النسيء بمعنى الزيادة . والله أعلم .

(١) آية ٦٠ سورة الفرقان . (٢) آية ٧٨ سورة يس . (٣) آية ٢٤ سورة النمر .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلُم إِلَى الْأَرْضِ وَأَرْضِيكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ^(١)
فَمَا مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ^(٢)

فيه مسائلان .:

الأولى - قوله تعالى : (مَا لَكُمْ) « ما » حرف استنهام بمعنى التقرير والتوبيخ ؛
القد ير : أى شيء يمنعكم عن كذا ؛ كما تقول : مالك من فلان مُرْعًا . ولا خلاف أن هذه
الآية نزلت كتابا على نخف من نخف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ،
وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتي ذكرها في آخر السورة إن شاء الله .
والنقد : هو التثقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ؛ يقال في ابن آدم : نَقَر إلى
الأمس يتغير نفورا . وقوم نفور ، ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ اَعْلَىٰ اَنْبَاؤِهِمْ نَفُورًا » . ويقال
في العداة : نَفَرَت تَنْفَر (بضم الفاء وكسرهما) نفارا ونفورا . يقال : في العداة نفار ، وهو اسم
مثل الجحان . ونفر الحاج من يَمَنٍ نَفَرًا .

الثانية - قوله تعالى : (أَتَأْتَلُم إِلَى الْأَرْضِ) قال المفسرون : معناه أتأقلمتم إلى
نعم الأرض ، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعناكب على التقاعد من
المبادرة إلى الخروج . وهو غرور من أخذ إلى الأرض . وأصله نأقلم ، أدمعت الماء في الماء
لقربها منها ، واحتاجت إلى قلب الوصل لنصل إلى النطق بالسكن ؛ ومنه « اذكروا »
و « أذكراهم » و « أظلمنا » و « أزيئت » . وأشد الكسائي :

تُولِي الضَّجِيجَ إِذَا مَا اسْتَأْنَفَهَا خَيْرًا . عَذَبَ الْمَسْأَلُ إِذَا مَا أَتَاهُ النَّبِيلُ^(٣)

(١) آية ٤٦ سورة الإسراء

(٢) ماف لشيء يسره ويساهه سوا وساهه واساهه ، كشيء . والنقص : البارد من كل شيء .

وقرأ الأعمش « تناظم » على الأصل . حكاة للمهدوي . وكانت تبوك -- ودعا الناس إليها --
في حرارة الفيظ وطيب الثمار وبرد الظلال -- كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي --
فاستول على الناس الكل ، ففاعدوا وثناقلوا ، فوجهم الله بقوله هذا ، وعاب عليهم الإتيار
للدنيا على الآخرة . ومعنى (أَرْضَيْتُمْ بِحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ) أى بدلا ، التقدير : أرضيتم
بنعم الدنيا بدلا من نعم الآخرة . فـ « حين » تتضمن معنى البدل ، كقوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ كَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ » (١) أى بدلا منكم .
وقال الشاعر :
(٢)

فلت لنا من ماء زمزم شربة • مبردة باتت على طهيات

ويروى : من ماء حنّان (٣) . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبردة . والطهيات : عود
بنصب في ناحية الدار للهواء ، يلتقى عليه المساء حتى يبرد . طابهم الله على إتيار الراحة في الدنيا
على الراحة في الآخرة ، إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم
لما نشأ وقد طافت راكية : « أجرك على قدر نصيبك » . نرجه البخاري .

قوله تعالى : إَلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

فيه مسألة واحدة -- وهو أن قوله تعالى : (إَلَّا تَنْفَرُوا) شرط ، فذلك حذف منه
النون . والجواب « يُعَذِّبُكُمْ » ، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعد مؤكد
في ترك التغيير . قال ابن العربي : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده
أكثر من انتضاء الفعل . فاما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه

(١) قوله : « ودعا الناس إليها » قال ابن اصحاق : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما خرج
في غزوة الاكثى منها وأخبر أنه يريد خير الوجه الذي يصمد له ، الا ما كان من غزوة تبوك فانه فيها لباس لبد الشفة
وشدة الزمان ... الخ . (٢) آية ٦٠ سورة الزمزم . (٣) هو بل بن مسلم بن قيس الشكري
كان الساني . وقبل أنه الأحول الكندي . (٤) حنان : مكة .

الانقضاء ، وإنما يكون العذاب بالخبر عنه ؛ كقوله : **إِنْ لَمْ تَفْعَلْ كَذَا عَذَبْنَا بِكَذَا** ؛ كما ورد في هذه الآية . فوجب بقتضائها التفرع للجهاد والغزو إلى الكفار لمقتانهم على أن تكون كلمة الله هي العليا . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : **« إِنْ لَا تَنْفِرُوا بِمَذَبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »** و **« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ - إِلَى قَوْلِهِ - يَسْمَلُونَ »** نسختها الآية التي تليها : **« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »** . وهو قول الضمالة والحسن وعكرمة . **« (بُعْدُكُمْ) »** قال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم . قال ابن العرفي : فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من ابن قاته ، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو والتار في الآخرة .

قلت : قول ابن عباس ترجمه الإمام أبو داود في سننه عن ابن مسعود قال : سألت ابن عباس عن هذه الآية **« إِنْ لَا تَنْفِرُوا بِمَذَبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »** قال : فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم . وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعاً عن ابن عباس قال : استفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فقدمت ، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به . و **« أَلِيمٌ »** بمعنى مؤلم ؛ أي موجب . وقد تقدم **« (وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا بَقَوْمٍ) »** **« تَوَعَّدَ أَنْ يَبْدِلَ رَسُولَهُ قَوْمًا لَا يَقْعُدُونَ »** عند استغاثته بإياهم . قيل : أبناء فارس . وقيل : أهل اليمن . **« (وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) »** عطف . والماء قيل لله تعالى ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم . والتناقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد . فإما من غير كراهة فمن عينة النبي صلى الله عليه وسلم حرم عليه التناقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية ؛ ذكره القشيري . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية وجوب التفرع عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم . وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء قبل هذا لا يتجه الجبل على وقت ظهور المشركين ؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء ، لأنه متعين . وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستغاثة يجب أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل ؛ إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يمكن لهم أن يتناقلوا عند التعين ، وبصير بشيئهم فرضاً على من عينه لا إمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام . والله أعلم .

(١) آية ١٢٠ و ١٢١ من هذه السورة . (٢) راجع ج ١ ص ١٩٨ طبعه دار الفکر في

قوله تعالى : **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : **(إِلَّا تَنْصُرُوهُ)** يقول : يُعينوه بالتفرغ له في غزوة تبوك . عابهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة . والمعنى : إن تركتم نصره فانه يتكفل به ، إذ قد نصره الله في موطن القلعة وأظهره على عدوه بالعلبة والتمرة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأييده له وحمله على عقه ، وبوفائه ووفائه له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ما أحب الأنبياء طيهم السلام مثل أبي بكر الصديق . وقال سفيان بن عيينة : نرج أبو بكر هذه الآية من المعصية التي في قوله : **«إِلَّا تَنْصُرُوهُ»** .

الثانية - قوله تعالى : **(إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا)** وهو نخرج بنفسه فاراً ، لكن بالباطم إلى ذلك حتى فعله ، فنسب الفعل إليهم ورتب الحكم فيه طيهم ؛ ولهذا يقتل المكر على القتل ويضمن المال الخلف بالإكراه ، لإجلائه القاتل والخلف إلى القتل والإللاف .

الثالثة - قوله تعالى : **(ثَانِيَ اثْنَيْنِ)** أي أحد اثنين . وهذا كالثالث ثلاثة ورابع أربعة . فإذا اختلف اللفظ فقلت : رابع ثلاثة وخامس أربعة ؛ فالمعنى صير الثلاثة أربعة بنفسه والأربعة خمسة . وهو منصوب على الحال ؛ أي أخرجوه منفرداً من جميع الناس إلا من أبي بكر . والباصل فيها « نصره الله » أي نصره منفرداً ونصره أحد اثنين . وقال علي بن سليمان : التقدير **فخرج ثاني اثنين** ؛ مثل « **وَأَنَّهُ أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَيْنَاءً** » . وقرأ جمهور الناس

(١) آية ١٧ سورة نوح .

« ثَانِي » ينصب الياء . قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا . وقرأت فرقة « ثَانِي » بسكون الياء . قال ابن جني : حكاه أبو عمرو بن العلاء ، ووجهه أنه سكن الياء تشبيها لها بالالف . قال ابن عطية : فهي كقراءة الحسن « مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا » وكقول جرير :
هو الخليفة فأَرْضُوا ما رِضَى لَكُمْ • ما ضَى الصَّرِيعة ما ضَى حُكْمُهُ جَنْفٌ

الرابعة - قوله تعالى : (إِذْ هُمَا فِي النَّارِ) النار : ذهب في الجبل ، يعني غار ثور . ولما رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة قالوا : هذا شر شافل لا يطلق ؛ فأحجموا أمرهم هل قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتوه وروصوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج ؛ فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله أن يحمي عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم نخرج وقد غشيهم النوم ، فوضع على رؤوسهم ترابا ونهض ، فلما أصبحوا خرج عليهم علي رضي الله عنه وأخبرهم أن ليس في النار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . وتواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق للهجرة ، فدعما راحتهما إلى عبد الله بن أرقط . ويقال ابن أرقط ، وكان كافرا لكنهما وتقا به ، وكان دليلا بالطرق فاستأجراه ليذل بهما إلى المدينة . ونخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خَوْفَةٍ في ظهر دار أبي بكر التي في بني جُمُع ونهضا نحو النصارى جبل ثور ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس ، وأمر مولاه عاصم بن فهيرة أن يري غنمه ويربغها^(٢) عليهما ليلا فيأخذ منها حاجتهما . ثم نهضا فدخلوا الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر الصديق تأتيهما بالطعام ويأتيهما عبد الله بن أبي بكر بالأخبار ، ثم يتلوها عاصم بن فهيرة بالتميم فيُفِي آثارهما . فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بقائف معروف بقاء الأثر ، حتى وقف على الغار فقال : هنا اتقطع الأثر . فنظروا فإذا بالكبوت قد نسج على قم النار من ساحتها ؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله . فلما راوا نسج التكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا وجعلوا في النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن رده عليهم .

(١) داجع ج ٣ ص ٣٦٩ طبعه أدب أولانية .

(٢) يربغها : يربطها .

الخبير مشهور ، وقصة سراقته بن مالك بن جشم في ذلك مذكورة . وقد روى من حديث أبي ازداء وثوبان : أن الله عز وجل أمر حمامة فباضت على نسيج العنكبوت ، وجعلت ترفد بلى يعضها ، فلما نظر الكفار إليها ردمهم ذلك عن النار .

الخامسة - روى البخاري عن عائشة قالت : استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الدليل هاديا^(١) حريتا ، وهو على دين كفار قريش ، فدفعا إليه راحلتهما وواعداه غار قور بعد ثلاث ليال ، فأتاهما براحلتهما صبيحة ثلاث ، فارتحلا وارتحل معهما عمر بن قهيرة والدليل^(٢) التيلي ، فأخذ بهم طريق الساحل .

قال المهلب : فيه من الفقه اثنتان أهل الشرك على السر والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة ، اثنتان النبي صلى الله عليه وسلم هذا المشرك على يتره في الخروج من مكة وعلى الباقرين . قال ابن المنذر : فيه استعجار المسلمين الكفار على هداية الطريق . وقال البخاري في ترجمته : زاب استعجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام . قال ابن بطلان : إنما قال البخاري في ترجمته (أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) من أجل أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عامل أهل خيبر على العمل في أرضها إذ لم يوجد من المسلمين من ينوب متابهم في عمل الأرض ، حتى قوى الإسلام وأستغنى عنهم أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يميزون استعجارهم عند الضرورة وغيرها . وفيه : استعجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لها . وفيه : دليل على جواز الفرار بالدين خوفا من العدو ، والاستيفاء في الغيران وغيرها ، وآلا يلق الإنسان بيده إلى العدو توكلًا على الله واستسلاما له . ولو شاء ربكم لعضمه مع كونه معهم ، ولكنها سنة الله في الأنياء وغيرهم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا أدل دليل على فساد من منع ذلك وقال : من خاف مع الله سواء كان ذلك تقصا في توكله ، ولم يؤمن بالقدر . وهذا كله في معنى الآية ، وفيه الحمد والهداية .

(١) الخريت : الدليل الخافق . (٢) الساحل : موضع بينه ؟ ولم يرد به ساحل بحر .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ هذه الآية تضمنت فضائل الصديق رضي الله عنه . روى أصبغ وابن زيد عن ابن الفارم عن مالك « ثَانِي أَتَيْنَا لَمَّا فِي النَّارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » هو الصديق . حقق تعالى قوله له بكلامه ووصف السجدة في كتابه . قال بعض العلماء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع . ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن . ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنصر والراية والحفظ والكلاءة . روى الترمذى والحارث بن أبى أسامة قالا : حَسَنًا عَفَانُ قَالَ حَسَنًا هَامُ قَالَ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَسَنٌ قَالَ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي النَّارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا نَحْتَهُ قَدَمَيْهِ ؛ فَقَالَ : " يَا أَبَا بَكْرٍ مَا عَلَيْكَ بَانْتَيْنِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا " . قَالَ الْخَاشِعِيُّ : بِمَعْنَى مَعَهَا بِالنَّصْرِ وَالِدَفَاعِ ؛ لِأَنَّ عَلَى مَعْنَى مَا مِمَّ بِهِ الْخِلَاقُ . قَالَ : « مَا يَكُونُ مِنْ يَجُورِي تَلَاةٍ إِلَّا هُوَ رَأَاهُمْ » . لعنه العموم أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

السابعة - قال ابن العربي : قالت الإلهية قبحها الله : حزنُ أبى بكرٍ في النار دليل على جهله وقصسه ، وضغف قلبه ونزفه . وأجاب علماءنا عن ذلك بأن إضاعة الحزن إليه ليس بنقص ؛ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه : « نَزَّكُمُ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ » . فلم ينقص موسى قوله : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ » . وفي لوط : « وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ » . فهؤلاء المقال صلووات الله عليهم قد وجهت عندهم التيقن نصاً ، ولم يكن ذلك طعناً عليهم ووصفا لهم بالنقص ؛ وكذلك في أبى بكر . ثم هى عند الصديق احتمال ؛ لأنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . جواب ثان - إن حزن الصديق إنما كان خوفاً من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر ،

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) انشقق (بالهم) : الحق وضغف الرأى .

(٣) آية ٧٠ سورة هود . (٤) آية ٦٧ سورة طه . (٥) آية ٢٣ سورة التكميت .

ولم يَنْهَى النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت معصوماً، وإنما نزل عليه « وَأَلَّهْ يَمِصُّكَ مِنْ النَّاسِ » .

الثامنة - قال ابن العربي : قال لنا أبو الفضائل المصلي قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِينَ » وقال في بحمد صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » لا جرم لما كان الله مع موسى وحده ارتد أصحابه بعده، فرجع من عنده وبه ووجدهم يعبدون العجل . ولما قال في بحمد صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » يقى أبو بكر مهتدياً موحداً عالماً جازماً قائماً بالأمر ولم يتطرق إليه اختلاف .

التاسعة - خرج الترمذي من حديث نُفَيْطِ بْنِ ثُرَيْطٍ عن سالم بن عبيد - له محبة - قال : أغى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ؛ الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا في هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضى الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « ثَانِي أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » من « هُمَا » ؟ قال : ثم بسط يده فباعه وباعه الناس ببيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهذا قال بعض العلماء : في قوله تعالى « ثَانِي أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ » ما يدل على أن الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ؛ لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً . وسمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثاني اثنين لقيامه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ كقيام النبي صلى الله عليه وسلم به أولاً . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ارتدت العرب كلها، ولم يبق إلا بالمدينة ومكة وجوفاً ؛ فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاظهم على

(١) آية ٦٧ سورة المائدة . (٢) اضطربت نسخ الأصل في هذا الاسم . والله في كتاب

أحكام القرآن لابن العربي المطبوع : « أبو القضاة بن المصلي » وفي النسخة المخطوطة « أبو الفضائل المصلي »

(٣) آية ٦٢ سورة الشعراء . (٤) موضع بالبحرين .

الدخول في الدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستحق من هذه الجبهة أن يقال في حقه ثاني اثنين .

قلت — وقد جاء في السنة أحاديث صحيحة ، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده ، وقد انقسم الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والفادح في خلافه مقطوع بخطه وتفسيره . وهل يكفر أم لا ؛ يختلف فيه ، والأظهر تكفيره . وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في سورة « الفتح »^(١) إن شاء الله . والذي يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة . فلا مبالاة بأقوال أهل الشيع ولا أهل البدع ؛ لأنهم بين مكفر تضرب رقبته ، وبين مبتدع مفسد لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق ؛ ثم بعده عثمان . روى البخاري عن ابن عمر قال : كنا نختبر بين الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضيراً أباً بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف في عثمان وعلى ؛ فالجمهور منهم على تقديم عثمان . ورؤى عن مالك أنه توقف في ذلك . وروى عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ فيه قولان : أحدهما — على النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني — على أبي بكر . ابن العربي : قال علماؤنا وهو الأقوى ؛ لأنه تخاف على النبي صلى الله عليه وسلم من القوم ؛ فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكن جاشه وذهب روعه وحصل الأمن ، وأثبت الله سبحانه ثمته ، وألم الوكر هناك حمامة ؛ وأرسل المنكبوت فلمسجت بيتاً عليه . لما أضعف هذه الجندود في ظاهر الحس وما أغواها في باطن المعنى ؛ ولهذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم لمرحين تغامر مع الصديق : " هل أتم تاركو لي صاحبي إن الناس كلهم قالوا كذبت وقال أبو بكر صدقت " رواه أبو الدرداء .

(١) في المائدة الخامسة من قوله تعالى : " محمد رسول الله وآقرين معه ... " أكر السورة .

(٢) التمام : تيسير يعرف في البادية .

(٣) الخاتمة الخاصة . راجع الحديث بطوله في صحيح البخاري في باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أى من الملائكة . والكتابة في قوله « وأيده » ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والضميران يختلفان ، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ أى كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعد النصر . وقرا الأعمش ويعقوب « وكلمة الله » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم القراء أن قراءة النصب بعيدة ؛ قال : لأنك تقول أعنى فلان غلام أبيه ، ولا تقول غلام أبي فلان . وقال أبو حاتم : نحواً من هذا . قال : كان يجب أن يقال وكلمته هي العليا . قال النحاس : الذى ذكره القراء لا يشبه الآية ، ولكن يشبهها ما أنشد سيويه :

لا أرى الموت يسبق الموت شيئا . فنقص الموت ذا النقي والفقيهما

فهذا حسن جيد لا إشكال فيه ، بل يقول النحويون الخذاق : في إعادة الذكر في مثل هذا فائدة . وهي أن فيه معنى التعظيم ؛ قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأُخْرِجَتِ زُرُوسُ أَشْقَالَهَا » فهذا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة تكلم . وتعين تقول : هي كلمة بكسر الكاف . وحكى القراء فيها ثلاث لغات : كلمة وكلمة وكلمة مثل كبد وكبد ، وورق وورق . والكلمة أيضا الفصيذة بطولها ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى - روى سفيان عن حصين بن عبد الرحمن عن أبي مالك الباقري قال : أول ما نزل من سورة براءة « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال أبو الشَّعْثَا ذلك أيضا . قال : ثم نزل أولها وآخرها .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ نصب على الحال ، وفيه عشرة أقوال : الأول - يذكر عن ابن عباس « ^(١) إِنْفِرُوا ثَبَاتٌ » : سرّاً متفرقين . الثاني - روى عن ابن عباس أيضاً وقادة : نشاطاً وغير نشاط . الثالث - الخفيف : الخفيف ، والثقل : البقيير ؛ قاله مجاهد . الرابع - الخفيف : الشاب ، والثقل : الشيخ ؛ قاله الحسن . الخامس - مشاغل وغير مشاغل ؛ قاله زيد بن علي والحكم بن عتيبة . السادس - الثقل : الذي له عيال ، والخفيف : الذي لا عيال له ؛ قاله زيد بن أسلم . السابع - الثقل : الذي له ضيعة يكره أن يدعها ، والخفيف : الذي لا ضيعة له ؛ قاله ابن زيد . الثامن - الخفاف : الرجال ، والثقال : الفرسان ؛ قاله الأوزاعي . التاسع - الخفاف : الذين يسبقون إلى الحرب كالطلعة وهو مقدم الجيش ، والثقال : الجيش بأسره . العاشر - الخفيف : الشجاع ، والثقل : الجبان ؛ حكاه النفاذ . والصحيح في معنى الآية أن الناس أمروا بجملة ؛ أي انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . وروى أن ابن أم مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « أعلّ أن انفروا ؟ فقال : " نعم " حتى أنزل الله تعالى « ليس على الأعمى حرج » . وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة .

الثالثة - واختلف في هذه الآية ؛ فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى » . وقيل : ^(٢) الناسخ لها قوله « فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ » ، والصحيح أنها ليست بمنسوخة . روى ابن عباس بن أبي طلحة في قوله تعالى : « ^(٣) إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » قال شيبان وكهولاً ، ماسع الله مُدرأحد . فخرج إلى الشام بغاهد حتى مات رضي الله عنه . وروى حماد عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة « براءة » فأتى على هذه الآية « ^(٤) إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » فقال : « أي بني ، جَهْزُونِي جَهْزُونِي » فقال بنوه : يرحمك الله ! قد غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أبي بكر حتى

(١) كذا في بعض الأصول . ولا بد أن المؤلف رحمه الله مرض لآية النساء ، وهي قوله تعالى : « ^(١) اقروا نيات أمر اقروا بها » آية ٧١ . وثبت : جمع ثبة ، وهي الجملة من الناس .
(٢) آية ٦٤ سورة النور . (٣) آية ٩١ من هذه السورة . (٤) آية ١٢٢ من هذه السورة .

مات، ومع صهر حتى مات، فصنع نفرو عنك . قال : لا ، جهزوني . ففزا في البحر فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفونوه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغير رضى الله عنه . وأستند الطبري عن رأى المقداد بن الأسود يحصى على ثابت صرائف ، وقد فضل على الثابت من تيمنه وهو يتجهز للفرز . فقيل له : لقد مدرك الله . فقال : أنت علينا سيرة البعث « إنفروا خفافا وثقالا » . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الخزرج فذهب إحدى عينيه . فقيل له : إنك طيل . فقال : استغفر الله الخفيف والثقل ، فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع . وروى أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر؛ فقال له : يام ، إن الله قد مدرك . فقال : يا بن أمي ، قد أصرنا بالفرخفافا وثقالا . ولقد قال ابن أم مكتوم رضى الله عنه - واسمه عمرو - يوم أحد : أنا رجل أعمى ، فسأبوا لى اللواء؛ فإنه إذا انهمز حامل اللواء انهمز بالجيش ، وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أتج . فأخذ اللواء يومئذ مصعب بن عمير على ما تقدم فى « آل عمران » بيانه . فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين . قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها تغير الكل ، وهى :

الرابعة - وذلك إذا تبين الجهاد بطله المدق على قطر من الأقطار، أو بجلوله بالمقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا، شبايا وشيوخا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بنير إذنه ومن لا أب له، ولا يختلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بدورهم كان على من قادهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يسلوا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن مدقهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياهم لزمه أيضا الخروج إليهم؛ فالمسلمون كلهم يد على من سواهم؛ حتى إذا قام بدفع المدق أهل الناحية التى نزل المدق عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب المدق

دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله ويُنمى النِّصَّةُ وتُحفظ الحقُّوة ويُنجزى الصدُّو . ولا خلاف في هذا .

وقسم ثان من واجب الجهاد - فرض أيضا على الإمام إغراء طائفة إلى الصدِّو كلِّ سنة مرة ، يخرج معهم بنفسه ، أو يُخرج مَنْ يثق به ليدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم ، ويكشف أذاهم ويظهر دين الله عليهم ، حتى يدخلوا في الإسلام أو يُعطوا الجزية عن يد .

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة بسد طائفة ، وبثُّ السُّرايا في أوقات النِّزَّة وعند إمكان الفرصة ، والإرصاد لهم بالزُّباط في موضع الخوف ، وإظهار التَّقوَّة . فإن قيل : كيف يصنع الواحد إذا قصَّر الجميع ، وهى : -

الخامسة - قيل له : يبعد إلى أسير واحد فيقديه ، فإنه إذا قدى الواحد فقد أذى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة ، فإن الأغنياء لو أقتسموا فداء الأسارى ما أذى كل واحد منهم إلا أقل من درهم . ويفترو بنفسه إن قدر وإلا جهَّز غازيا . قال صلى الله عليه وسلم : " من جهَّز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا " أخرجه الصحيح . وذلك لأن مكانه لا يفتى وماله لا يكتفى .

السادسة - روى أن بعض الملوك هاد كفاراً على ألا يجهسوا أسيراً ، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فز على بيت مغلق ، فنادته امرأة أنى أسيرة ، فأبلغ صاحبك خبرى ، فلما اجتمع به واستطعمه عنده وتجاذا ذيل الحفيث ، انتهى الخبر إلى هذه المعذبة ، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه ونرج غازيا من فوره ، ومشى إلى الثغر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع ، رضى الله عنه . ذكره ابن العربى وقال : « ولقد نزل بنا العدو - قصصه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فحاس ديارنا وأمر خيرتنا ووسط بلادنا في مدد هال الناس عدده ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حدوده . فقلت للوالى والمولى عليه : هذا صدق الله قد حصل في الشُّرك والشُّبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نُصرة الدين المتبينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط

به ؛ فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله . فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي ،
وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره . فإنا لله وإليه
راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ أمر بالجهاد ، وهو مشتق من الجهد (وَأَوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ) روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاهدوا المشركين
بأموالكم وأنفسكم والستكم " . وهذا وصف لأكل ما يكون من الجهاد وأنفذه عند الله تعالى .
لخص على كمال الأوصاف ، وقدم الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز . فرتب
الأمر كما هو في نفسه .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ
بُعِثْتَ عَلَيْهِمُ الْآسَفَةُ وَسَيَّطِلُونُ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا نَخْرَجَنَّ مَعَكُمْ
يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥﴾

لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم . والرس :
ما يمرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنمة قريبة . أخبر عنهم أنهم لو دُعوا إلى غنمة
لاتبعوه . (عَرَضًا) خبر كان . (قَرِيبًا) نعت . (وَسَفَرًا قَاصِدًا) عطف عليه . وحذف
أسم كان لدلالة الكلام عليه . التقدير : لو كان المدعو إليه عَرَضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا
- أي سهلًا معلوم الطريق - لاتبعوك . وهذه الكناية للنافقين كما ذكرنا ؛ لأنهم داخلون
في جملة من خوطب بالنفير . وهذا موجود في كلام العرب ، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإشمار
عائدًا على بعضها ؛ كما قيل في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أنها القياس . ثم قل
جل وعز : « ثُمَّ يُخَيِّمُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا وَتَدْرُ الْفَالِجِينَ فِيهَا جُنُودًا » يعني جل وعز جهنم . وتفسير
هذه الآية من السنة في المعنى قوله عليه السلام : " لو يعلم أحدكم أنه يبعد عظمًا سمينا

أَوْ مَرَاتَيْنِ حَسْبَيْنِ لَتَنِيْدَ الشَّيْءَ" . يقول : لو علم أحدكم أنه يحسد شيئا حاضرا . متجلا
ياخذ لآي للمسجد من أجله . (وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) حتى أبو عبيدة وفيه أن
الشقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شقة شاقة . والمراد بذلك كفة غزوة تبوك .
وحكى الكسائي أنه يقال شقة وشقة . قال الجوهري : الشقة بالضم من الثياب ، والشقة
أيضا السفر البعيد وربما قالوه بالكسر . والشقة شَيْطَانٌ يُسْقِطُ مِنْ لَوْحٍ أَوْ خَشَبَةٍ . يقال
للفضيان : احتد فطارت منه شقة ، بالكسر . (وَسَيَقُولُونَ بِاللهِ لَوْ أَسْطَعْنَا) أي لو كان لنا
سعة في الظهور والمال . (نَخْرُجَنَّا مَعَكُمْ) نظيره « وفيه على الناس حج البيت من استطاع
إليه سبيلا » فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « زاد وراحلة » وقد تقدم . (يَكُونُونَ
أَنْفُسَهُمْ) أي بالكذب والفتاق . (وَأَنْتَ بِعِلْمِ أَنْتُمْ لَكَادِبُونَ) في الاعتلال .

قوله تعالى : عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ) قبل : هو افتتاح كلام ؛ كما يقول :
أصلحت الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وصل هذا التأويل يحسن الوقف على قوله :
« عفا الله عنك » ؛ حكاه مكي والمهدي والنحاس . وأخبره بالفوق قبل التنبؤ لئلا يطير
قلبه فرقا .^(١) وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم ؛ فلا يحسن الوقف
على قوله : « عفا الله عنك » على هذا التقدير ؛ حكاه المهدي واختاره النحاس . ثم قيل :
في الإنذن قولان : الأول - « لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ » في الخروج منك ، وفي خروجهم بلا علة ونية
صادقة فساد . الثاني - « لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ » في القعود لما احتلوا بأعداء ذكرهما القسيري .
قال : وهذا عتاب تلفظ ؛ إذ قال : « عفا الله عنك » . وكان عليه السلام أذن من غير
وحي نزل فيه . قال قتادة وعمر بن ميمون : ثلثان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر

(١) مراتين (بكر الميم) وقد فتح . تخية مزمنة ، وهي ظف الناة ، أو ما بين ظفها من المم .

(٢) راجع ج ٤ ص ١٥٣ طبة أول أو ثانية . (٣) الفرق بالتحريك : الخوف والمخزج .

جما : إذنه لطافته من المنافقين في الخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى القيدية ؛ فمات به الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما بدر منه ترك الأولى ، فقدم الله له المفعول على الخطاب الذى هو في صورة المتاب .

قوله تعالى : (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) أى ليتبين لك من صدق من نفاق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين ، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستاذن في الجلوس ، فإن أذن لنا جلسنا ، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسخ هذه الآية بقوله في سورة النور : « فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَمُضَ شَأْنُهُمْ فَأَذَنَ لِيَن شَأْنَهُمْ » . ذكره التماس في معاني القرآن له .

قوله تعالى : لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أى في القعود ولا في الخروج ، بل إذا أمرت بشيء اجتدره ، فكان الاستئذان في ذلك الوقت من علامات النفاق لغير حذر ، ولذلك قال : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) : روى أبو داود عن ابن عباس قال : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله » نسختها التي في النور « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله — إلى قوله — غفور رحيم » . (أَنَّ يُجَاهِدُوا) في موضع نصب بإضمار في ، عن الزجاج . وقيل : التقدير

كراهية أن يعاهدوا ، كقوله : « يَسِّرْ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَفْزَحُوا » . (وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ) شَكَتْ فِي السَّيْنِ . (فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ) أى فى شكهم يذنبون ويرجعون .

قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا أَنْخُرُوجَ لَأَعْدُوا لَهُ عِدَّةٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِبَاتِهِمْ فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ أَرَادُوا أَنْخُرُوجَ لَأَعْدُوا لَهُ عِدَّةٌ) أى لو أرادوا الجهاد لنا هوأ أنفة السفر . فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم الخلف . (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِبَاتِهِمْ) أى خروجهم منك . (فَشَبَّطَهُمْ) أى حبسهم عنك وخلفهم ؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا فى الجولس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين . ويدل على هذا أن بعده « لَوْ نَخْرُجُوا فِيكُمْ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا » . (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) قيل : هو من قول بعضهم بعض . وقيل : هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون هذا هو الإذن الذى تقدم ذكره . قيل : قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبا ، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ؛ أى أوقع الله فى قلوبهم القمود . ومعنى (مَعَ الْقَاعِدِينَ) أى مع أولى الضرر واليمين والزمن والنسوان والصبيان .

قوله تعالى : لَوْ نَخْرُجُوا فِيكُمْ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ انْفِتَّةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (لَوْ نَخْرُجُوا فِيكُمْ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا) هو تسلية للمؤمنين فى تخاف المنافقين عنهم . والخبال : الفساد والخيمة وإغاع الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء منقطع ؛ أى ما زادكم قوة ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى لا يزيدونكم نيا يزدون من الرأى إلا خبالا ؛ فلا يكون الاستثناء مقطعا .

قوله تعالى : (وَلَا دُضْعُوا حَلَالَكُمْ) المعنى لا أسرعوا فيما بينكم بالإفساد . والإيضاح :
سرعة السير . وقال الزُّبَيْرُ :

بالبقي فيها جدع • أحبب فيها وأضع

يقال : وضع البعير إذا عدا ، يضع وضعا ووضوعا إذا أسرع السير . وأوضعه حملته
على العدو . وقيل : الإيضاع سير مثل الخبب . والحلل الفرجة بين الثبطين ، والجمع الحلال ،
أى الفرج الذى تكون بين الصفوف . أى لا واضعوا خلالكم بالقيمة وإنساد ذات البين .
(وَيَتَوَكَّفُونَ الْفِتْنَةَ) مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة ، أى الإفساد والتعريض . ويقال :
أبنيته كذا اعتسه على طلبه ، وبتيته كذا طلبته له . وقيل : الفتنة هنا الشرك . (وَفِيكُمْ
سَمَاعُونَ لَكُمْ) أى عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم . قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم
ويطيعهم . النحاس : والقول الأول أولى ، لأنه الأغلب من معنيه أن معنى سَمَاعٍ بسمع
الكلام : ومثله « سَمَاعُونَ لِلْكَذِيبِ » . والقول الثانى - لا يكاد يقال فيه إلا سماع ،
مثل قائل .

قوله تعالى : لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (١٨)

قوله تعالى : (لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ) أى لقد طلبوا الإفساد والخلال من قبل
أن يظهر أمرهم ، ويقل الوحي بما أسروه وما سيفعلونه . وقال ابن جرير : أراد الله عز وجل
رجلا من المنافقين ، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .
(وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ) أى صرفوها وأجالوا الراى فى إبطال ما جئت به . (حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ
وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ) أى دينه (وَهُمْ كَارِهُونَ) .

(١) حودد بن الصمة : كان فى الحسان . (٢) الذى فى كتب اللغة أنه يقال : وضع البعير وضعا
وموضوعا . أى الوضع فهو من معاد قولهم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوعا (يفتح الصاد وكسرهما) إذا أذله .
(٣) آية ٢٤ سورة المائدة . (٤) الثنية : الطريقة فى الجبل كالقبة ، وقيل الطريق البالى به . والوداع :
راد بفتح د وثنية الوداع مشبهة إليه .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ سَأَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي) من أذن يا ذن . وإذا أمرت زدت حمزة مكسورة وبسما حمزة هي فاء الفعل ، ولا يجمع همزتان ، فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إذن . فإذا وصلت زالت السلة في الجمع بين همزتين ، ثم همزت فقلت : « وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي » . وروى ورش عن ثعلب « وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَوْذُنَّ لِي » خفف المهدوي . قال التماس : يقال إذن لقنان ثم إذن له ، وجاء الأولى والثانية واحد بألف وياه قبل القال في الخط . فإن قلت : إذن لقنان وأذن لغيره كان الثاني بشير ياء ، ركنا الفاء . والفرق بين ثم والواو أنت ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولا ينفصلان . قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجد بن قيس أني بنى سائمة لما أراد الخروج إلى تبوك : « يا جد ، هل لك في جلد بني الأصفر فخذ منهم سراري ووصفاء » فقال الجد : قد عرف قومي أني مفسر بالنساء ، وإن أخشى أن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهم ، فلا تفتني وأذن لي في القعود وأعنيك بما لي ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « قد أذنت لك » فتركت هذه الآية . أي لا تفتني بصباحة وجوههم ، ولم يكن به حلة إلا الثفاق . قال المهدوي : والأصفر زبل من الحبشة ، كانت لم يبات لم يكن في وقتي أجل مني ، وكان ببلاد الروم . وقيل : سُمُوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم ، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة ، فكان سُمُوا لُصًّا . قال ابن عطية : في قول ابن إسحاق قنور . وأسند الطبري أن رسول الله

(١) أي أبدلا وأراد لنفسه الام قبلها ، فخلق باللام كأنها مصلة يروا الجماعة . (٢) القس : سواد اللثة والشفة . وقيل : القس واللمة : سواد يطرقة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد في حمرة .

صلى الله عليه وسلم قال : « افترؤا فتمنوا بنات الأصغر » فقال له الجند : إذن لنا ولا فتننا بالنساء . وهذا مترع غير الأول ، وهو أشبه بالفاق والمعاقة . ولما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم لبنى سلمة - وكان الجند بن قيس منهم : « من سيدكم يا بنى سلمة » قالوا : جند بن قيس ، غير أنه بجيل جبان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « واتى داه أدوى من البهل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور » . فقال حسان بن ثابت الأنصاري فيه :

وسود بشر بن البراء لجوده • وحق لبشر بن البراء أن يسودا
أنا ما أتاه الوفد أذهب ماله • وقال خذوه إننى عائد فدا

(ألا في الفتنة سقطوا) أى في الإثم والمعصية وقعوا . وهى الفاق والتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم . (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى مسيرهم إلى النار ، فهى محيطة بهم .

قوله تعالى : (إن تصيبك حسنة فسنؤم) شرط ومجازاة ، وكذا (وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا) عطف عليه . والحسنة : النعمة والظفر . والمصيبة الأثر . ومعنى قولهم : « أخذنا أمراً من قبل » أى احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخرج إلى القتال . (ويتولوا) أى عن الإيمان . (وهم فيحون) أى معجون بذلك .

قوله تعالى : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) قيل : فى اللوح المحفوظ . وقيل : ما أخبرنا به فى كتابه من أنا إما أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا ، وإما إن تقتل (١) أى أى عيب أتبعه . قال ابن الأثير : « والصواب أبدأ بالسر » وموضعه المثلج والبارى ولكن عكس يردى ، إلا أن يحصل من باب دوى يدوى دوا فهو إذا ملك برش باطن » .

ف تكون الشهادة أعظم حسنى لنا . والمعنى كل شيء بقضاء وقدر . وقد تقدم في « الأعراف »
 أن العلم والقدر والكتاب سواء . (هُوَ مَوْلَانَا) أى ناصرتنا . والتوكل تفويض الأمر إليه .
 وقراءة الجمهور « يَصِيَّتْنَا » نصب بن . وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يجرم بها . وقراء
 طلحة بن مُصَرِّف « هل يَصِيَّتْنَا » . وحكى عن أُتَيْبٍ قاضى الزمى أنه قرأ « قل لن يَصِيَّتْنَا »
 بنون مشددة . وهذا نحن ؛ لا يؤكّد بالنون ما كان خبراً ، ولو كان هذا في قراءة طلحة
 لجاز . قال الله تعالى : « هَلْ يُدْرِيكَ مَا يَفْعَلُ ^(١) »

قوله تعالى : قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا إِلَّا أَهْدَى الْحَسَنَيْنِ ^ط وَنَحْنُ
 نَنْتَرِبُ ^ط بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبُّصُوا
 إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ^(٢)

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا) والكوفيون يدعون اللام في التاء . فاما لام
 المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام ، كما قال جل وعز : « التَّائِبُونَ » لكثرة لام المرفة في كلامهم .
 ولا يجوز الإدغام في قوله : « قل تعالوا » لأن « قل » متصل ، فلم يجعوا عليه ملتين .
 والتربص الانتظار . يقال تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الغلاء . والحسن تأنيث
 الأحسن . وواحد الحسنين حسنى ، والجمع الحسن . ولا يجوز أن ينطق به إلا مؤنفاً .
 لا يقال : رأيت امرأة حسنى . والمراد بالحسنين النعمة والشهادة ؛ من ابن عباس
 وبجاهد وغيرهما . واللفظ استفهام والمعنى توبع . (وَنَحْنُ نَنْتَرِبُ بِكُمْ) أى يُصِيبَكُمُ اللَّهُ
 بعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) أى عقوبة تهلككم ؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم . (أَوْ بِأَيْدِينَا)
 أى يؤذّن لنا في قتالكم . (فَتَرَبُّصُوا) تهديد ووعيد . أى انتظروا مواعد الشيطان إنا
 منتظرون مواعد الله .

(١) راجع ٧ ص ٢٠٣ حبة أمد أو تانية . (٢) آية ١٥ سورة الحج .

قوله تعالى : قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٠٠﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قال ابن عباس : نزلت في الجذ بن قيس إذ قال الله لي في القعود وهذا ما لي أعيذك به . ولفظ (أنفقوا) أسر ، وسناه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب في مثل هذا ، تأتي بأو ، كما قال الشاعر ^(١) :

أسيئ بنا أو أحسن لا ملومة • لدينا ولا مقلبة إن قلت

والملومة إن أسأت أو أحسنت فنحن على ما نعرفين . ومعنى الآية : إن أنفقت طامعين أو مكرمين فلن يقبل منك . ثم بين جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : « وَمَا مِنْهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » فكان في هذا أدل دليل وهي : -

الثانية - على أن أفعال الكافر إذا كانت برأ كصلة القرابة وجبر الكسيرة وإفائة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينفع بها في الآخرة ، بسبب أنه يُطعم بها في الدنيا . دليله ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت : يا رسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بمسلمات ما عمل به في الدنيا حتى إذا أنفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزي بها » . وهذا نص . ثم قيل : هل يحكم هذا الوعد الصادق لا بد أن يطعم الكافر ويعطى بمسلماته في الدنيا ، أو ذلك مقيد بمشبهة الله المذكورة في قوله : « نَحْنُ لَهُ فُتَاةٌ لِمَا أَنْشَأَ لِيَنَّ زَيْدٌ » وهذا هو الصحيح من القولين ، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب

(٢) هو كثير مرة ، كما في كتاب الأمل لأبي علي الخليل . (٣) آية ١٨ سورة الإسراء .

ظن الكافر؛ وإلا فلا يصح منه قُرْبَةٌ؛ لعدم شرطها المصحح لها وهو الإيمان . أو سُئِيت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهراً . قولان أيضاً .

الثالثة — فإن قيل : فقد روى مسلم عن حكيم بن حزام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي رسول الله ، أرايت أمورا كنت أتحث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رَجِمَ فيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسألت على ما أسألت من خير " . قلنا قوله " أسألت على ما أسألت من خير " مخالف ظاهر للأصول؛ لأن الكافر لا يصح منه التقرب لله تعالى فيكون مثاباً على طاعته؛ لأن من شرط التقرب أن يكون عارفاً بالتقرب إليه، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى في الحديث : إنك اكتسبت طباعاً جميلة في الجاهلية اكتسبتك عادة جميلة في الإسلام . وذلك أن حكيماً رضى الله عنه عاش مائة وعشرين سنة؛ ستين في الإسلام وستين في الجاهلية؛ فاعتق في الجاهلية مائة رقبة وحل على مائة بعير؛ وكذلك فعل في الإسلام . وهذا واضح . وقد قيل : لا يبعد في كرم الله أن يشبه على فعله ذلك بالإسلام ، كما يسقط عنه ما ارتكبه في حال كفره من الآثام . وإنما لا يتاب من لم يسلم ولا تاب ومات كافراً . وهذا ظاهر الحديث . وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمان في عدم ثواب ما يفعله من الخير ثم أسلم ومات مسلماً بشرط عقل لا يثبتل . والله أكرم من أن يضعف عمله إذا حسن إسلامه . وقد تأول الحربي الحديث على هذا المعنى فقال : " أسألت على ما أسألت "؛ أي ما تقدم لك من خير عمله فذلك لك . كما تقول : أسألت على ألف درهم؛ أي على أن أحرزها لنفسه . والله أعلم .

الرابعة — فإن قيل : فقد روى مسلم عن العباس قال : قلت يا رسول الله [إن] إيا طالب كان يحوطك وينصرلك، فهل فعله ذلك ؟ قال : " نعم ، وجدته في غمرات من النار فأمرجته إلى تخفصاح " . قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العذاب بما عمل

(١) التحث : التنبه .

(٢) التخفصاح في الآدمر .

جد من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكمين . فاستأخره فلان .

من الخير، لكن مع انضمام شفاعته كما جاء في أبي طالب . فاما غيره ففسد أخير التبريل بقوله : « قَدْ تَنَفَّعَهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » ^(١) . وقال خبرا عن الكافرين : « قَدْ لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . ولا صديق حميم » . وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عنه أبو طالب فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجِزَل في حَقِّصَاح من النار يبلغ كعبه يَنُتَلَى منه دماغه » . من حديث العباس : « ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » .

قوله تعالى : (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) أي كافرين .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴿٥١﴾

فيهم ثلاث مسائل :

الأولى - : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ) « أن » الأولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع . والمعنى : وما مَنَعَهُمْ من أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم . وقرأ الكوفيون « أن يقبل منهم » بالياء ؛ لأن النفقات والإفلاق واحد .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى) قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى وإن انفرد لم يصل ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا ينشئ في تركها عقابا . فالنفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة . وقد هدم في « النساء » ^(٢) القول في هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث السلاء موعبا . والحمد لله .

الثالثة - قوله تعالى : (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ) لأنهم يشدون بها مَنَعُوا ومنعها مَنَعًا . وإذا كان الأمر كذلك فهي خير متقبلة ولا يثاب عليها حسب ما تقدم ،

(١) آية ٤٨ سورة المثر . (٢) آية ١٠٠ سورة الشعراء .

(٣) راجع ج ٥ صفحة ٤٢٢ طيبة أولى أو ثانية . (٤) لعل صوابه : حديث الأعرابي .

قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِأَلَلِهِ إِنَّهُمْ لِمُنْكَرٍ وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٍ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾

أى لا تستعجب ما أعطيتهم ولا تمل إليه فإنه استدراج . (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا) قال الحسن : المعنى باستدراج الزكاة والإنفاق في سبيل الله . وهذا اختيار الطبري . وقال ابن عباس وقتادة : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله يعذبهم بها في الآخرة . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس . وقيل : يعذبهم بالنصب في الجمع . وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيها ولا تأخير ، وهو حسن . وقيل : المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله يعذبهم بها في الدنيا لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيمذبون بما ينفقون . (وَتَزْهَقُ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) نعى في آت الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك القضاء . (وَيَحْلِفُونَ بِأَلَلِهِمْ لِمَنْكَرٍ) بين أن من أخلاق المنافقين الحلف بأنهم مؤمنون . نظيره : إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ^(١) الآية . والفرق الخوف ؛ أى يخافون أن يظهر ما هم عليه فيقتلوا .

قوله تعالى : لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً) كما الوقف عليه . وفي الخط الباقين : الأول همزة ، والثانية عوض من التووين ؛ وكذا [رأيت] جرما . والمالبا الحصن ؛ عن قتادة وغيره . ابن عباس : الحرز ؛ وهما سواء . يقال : ملأ إلى بلى (بالحرى) وملأها والتجأت إليه

(١) أول سورة المنافقون . (٢) هذه عبارة الجمهور في صحاحه . والقى في اللسان والقاموس أنه يقال ملأ بلى ، مثل ملأ منى . وبنى بلى مثل فرح فرحا .

بمَنَى . والموضع أيضا بَلَاً وَمَلَجَا . والتَّيَجَّةُ الإِكْرَاهُ . وألجأته إلى الشيء اضطرته إليه .
 وألجأت امرئ إلى الله أسندته . وعمر بن لُحَا التَّيْمِيَّ الشاعر ، عن الجوهري : « أَوْ مَقَارَاتٍ »
 جمع مَقَارَةٍ ، من غار يُغِير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يُغِير ، كما قال الشاعر :
 الحمد لله مُسَانَا وَمُصَبَّحَنَا ^(١) .

قال ابن عباس : المغارات الغيران والسراديب ، وهي المواضع التي يستتر فيها ، ومنه غار
 المساء وغارت العين . « أَوْ مَدْخَلًا » مفتعل من الدخول ، أي مسلكا تخفى بالدخول فيه ،
 وأما لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصل فيه مَدْخَلٌ ، قلبت التاء دالا ؛ لأن الدال
 مجهورة والتاء مهموسة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مَدْخَلٌ على مُتَّعِلٍ ، كما
 في قراءة أبي : « أَوْ مَدْخَلًا » ومعناه دخول بعد دخول ، أي قوما يدخلون معهم . المهدوي :
 مَدْخَلًا من تَدْخُلُ مثل تَفْعُلُ إذا تكلف الدخول . وعن أبي أيضا مُنْدَخِلًا من اندَسَلَ .
 وهو شاذ ، لأن ثلاثيه غير متعده عند سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق
 وابن محيصن « أَوْ مَدْخَلًا » بفتح الميم وإسكان الدال . قال الزجاج : وقرأ « أَوْ مَدْخَلًا »
 بضم الميم وإسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثاني من أدخل يدخل . كذا المصدر
 والمكان والزمان كما أفند سيبويه :

« مَقَارَاتٍ هَامٍ عَلَى حَقِّ خُصْمَا » ^(٢) .

وروي عن قتادة وعيسى والأعمش « أَوْ مَدْخَلًا » بتشديد الدال وإخلاء . والجهور
 بتشديد الدال وحدها ، أي مكابا يدخلون فيه أنفسهم . فهذه ست قراءات . « أَوْ لَوْأَ إِلَهٍ »

(١) كذا في الصحاح جوهري « التيمى » . والصواب أنه التيمى . لأنه من تيم بن عبد ساه بن أذ بن طابخة .
 ودات حمر بن لُحَا بالأهواز ، وكان يهاجس جريرا . (عن التمر والشراء) . (٢) هذا صدر بيت لأمية بن

أبي الصلت ، وبجزة :
 « بِالْعَرِيبَةِ رُبِّي وَمَسَانَا »

(٣) هذا مجزيت طه بن ثور ، وصدره :
 « وَمَا هِيَ إِلَّا فِي إِزَارِ رَحْمَةٍ »

وصف امرأة كانت صغيرة السن كانت تلبس اللقطة وهي من لباس الجوارى ، وهي ثوب فضير بلا كمين تلبسه الصبية
 تلعب فيه ، وقال له الألب والبقرة ، وكانت تلبسه وقت اغارة ابن همام دلي هذا البيت . وحسن قوله من ابن
 (عن شرح الشواهد) .

أى لرجعوا إليه . (وَمَنْ يَجْعَلْ) أى يسرعون ، لا يردّ وجوههم شئ . من جمع الفرس إذا لم يردّه الجلام . قال الشاعر :

سَبَّوحًا يَجْمَعُهَا وَإِحْضَارُهَا • تَكْمَعَةُ السَّعْفِ الْمَوْقِدِ^(١)

والمنى : لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولّوا إليه مسرعين هربا من المسلمين .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) أى يطنن عليك ; من قتادة . الحسن : يبيك . وقال مجاهد : أى يروّزك^(٢) ويسالك . النحاس : والقول عند أهل اللغة قول قتادة والحسن . يقال : لمّزه يلمّزه إذا عابه . والقر في اللغة العيب لى السر . قال الجوهري : القر العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لّمزه يلمّزه ويقره يقره « ومنهم من يلمّزك في الصدقات » . ورجل لمّاز ولمّزة أى عياب . ويقال أيضا : لّمزه يلمّزه إذا دفعه وضربه . والملمّز مثل القر . والهامز والمهاز العيَاب ، والملمّزة مثله . يقال : رجل مُمّزة وأمرأة مُمّزة أيضا . وممّزه أى دفعه وضربه . ثم قيل : القر في الوجه ، والملمّز بظهور القيب . وصف الله قوما من المنافقين بأنهم طابوا النبي صلى الله عليه وسلم في تخريق الصدقات ، وزعموا أنهم فقراء يعطيهم . قال أبو سعيد الخدري : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حرقوم بن زهير أصل الخوارج ، ويقال له ذوالخويرة التيمى ، فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : « وَيَلْكَ وَتَن يعدل إذا لم أعدل » فزلت الآية . حديث صحيح أخرجه مسلم بجملة . وعندما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق . فقال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابه يقرمون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية » .

(١) البيت لأحمرى القيس . والإحصار : العدو . (٢) الرد : الانتعاض والتقدير .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ) جواب « لو » محذوف ، التقدير لكان خيرا لهم .

قوله تعالى . إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
فيه ثلاثون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ) خص الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراجهم منهم يؤتونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بقوله : « وَمَا مِنْ ذَايَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » .
الثانية - قوله تعالى : (لِلْفُقَرَاءِ) تبين لمصارف الصدقات والمحل ، حتى لا يخرج عنهم . ثم الاختيار إلى من يقسم ، هذا قول مالك وأبي حنيفة وأصحابهما . كما يقال : السرج للباية والباب للدار . وقال الشافعي : اللام لام التملك ، كقولك : المال لزيد وعمرو وبكر ، فلا بد من التسوية بين المذكورين . قال الشافعي وأصحابه : وهذا كما لو أوصى لأصناف معينين أو لقوم معينين . واحتجوا بلفظة « إِنَّمَا » وأنها تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف ، وعضدوا هذا بحديث زياد بن الحارث الصدائي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومي جيشا فقلت : يا رسول الله ، احبس جيشك فانا لك بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبته إلى قومي بخاء إسلامهم وطاعتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " يا أبا صُداء المطاع في قومه " . قال : قلت بل من الله عليهم وهذا هم ؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى يجرأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك " رواه أبو داود والدارقطني . واللفظ للدارقطني . وحكى عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لم يرزقهم . وتمسك علماءنا بوجهه تعالى : « إِنَّ يُبَدَّلُوا الصَّدَقَاتِ فَيَتِيَّاهِمْ وَإِنْ تُخَفِّفُوا وَتُزَوِّدُوا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » . والصدقة التي أطلقت في القرآن فهي صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أخذ الصدقة من أغنيائكم وأرثها على فقراكم " . وهذا نص في ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنًا وسنة ، وهو قول عمر بن الخطاب وعليّ وأبن عباس وحذيفة . وقال به من التابعين جماعة . قالوا : جائز أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أي صنف منها دفعت جاز . روى المنهال بن عمرو عن زُر بن حُبَيْش عن حذيفة في قوله : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ » قال : إنما ذكر الله هذه الصدقات لتُعرف ، وإلى صنف منها أعطيت أجزاءك . وروى سميد ابن جُبَيْر عن ابن عباس « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ » قال : في أيها وضعت أجزاء عك . وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما . قال النكا الطبري : حتى ادعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة ؛ فإنه لا يعلم لم يخالف منهم على ما قال أبو عمر ، والله أعلم .
أبن العربي : والذي جعلناه فيصلا بيننا وبينهم أن الأمة أخفت على أنه لو أعطى كل صنف حقه لم يجب تجميعه ، فكذلك تعمم الأصناف مثله . والله أعلم .

الطائفة — واختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أحوال : فذهب يعقوب بن السكيت والثوري ويونس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من

المسكين . قالوا : الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين الذي لا شيء له ؛ واحتجوا بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته . وفقَّ اليبال فلم يُترك له سبدٌ^(١)

وذهب الى هذا قوم من أهل اللغة والحديث منهم أبو حنيفة والقاضي عبد الوهاب ، والوفى من الموافقة بين الشيتين كالإتمام ؛ يقال : حلوبته وفق عياله أى لما لبث قدر كفايتهم لأفضل فيه ؛ عن الجوهري . وقال آخرون بالعكس ؛ فغلبوا المسكين أحسن حالا من الفقير . واحتجوا بقوله تعالى : « أَمَّا السَّيْفَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَمْلِكُونَ فِي الْبَحْرِ »^(٢) . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال . وعَضِدُوهُ بِمَا رَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تَمَوَّذَ مِنَ الْفَقْرِ . وروى عنه أنه قال : « اللَّهُمَّ أَحِبَّنِي مَسْكِينًا وَأَمْنِي مَسْكِينًا » . فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لثاقض الخبران ؛ إذ يستحيل أن يتموَّذَ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالا منه ؛ وقد استجاب الله دعاه وقَبَضَهُ وَلَهُ مَالٌ مِمَّا آفَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ ولكن لم يكن معه تمام الكفاية ؛ ولذلك رَحَنَ دِرْهَمَهُ . قالوا : وأما بيت الراعي فلا حجة فيه ؛ لأنه إنما فَاكَّرَ أن التفسير كانت له حَلُوبَةٌ فِي حَالٍ . قالوا : والفقير مِمَّا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْمَفْقُوزُ الَّذِي زُحِتَ يَفْقَرُ مِنْ ظَهَرِهِ مِنْ شِدَّةِ الْفَقْرِ فَلَا حَالَ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ »^(٣) . وأستشهدوا بقول الشاعر :

لما رَأَى بُدُّ النُّسُورِ تَطَايَرَتْ . رَفَعَ الْقُبُودُ كَالْفَقِيرِ الْأَعْرَلِ^(٤)

أى لم يفلح الطليان نصار بمنزلة من أقطع صلبه ولصق بالارض . ذهب الى هذا الأصمعي وغيره ، وحكاها الطحاوي عن الكوفيين . وهو أحد قول الشافعي وأكثر أصحابه . وللشافعي

(١) السبد : البرء . وقيل النمر . والرب يقول : ما له سيد ولا له ؛ أى ما له ذور ولا صوف طيد ؛ ويمكن أيضا من الإبل والغنم . (٢) آية ٧٩ سورة الكهف . (٣) النقرة (الكسر) والفقرة والفقارة (بضمها) : ما انتخذ من عظام الصاب من لدن الكاظم الى العجب . (٤) آية ٢٧٣ سورة البقرة . (٥) البيت البديع . ولقد : اسم كثر نسو لقنان بن عاذ ؛ ساء بذلك لأنه ليدقق لا يذهب ولا يموت . والنواد : أريج أو حشروشات في طقم الجناح ؛ الواحدة قاذفة .

قول آخر : أن الفغير والمساكين سواء ، لا فرق بينهما في المعنى وإن اختلفا في الاسم ، وهو القول الثالث . وإلى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف .

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير ، وأنهما صفتان ، إلا أن أحد الصفتين أشد حاجة من الآخر ، فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفًا واحدًا ، والله أعلم . ولا حاجة في قول من احتج بقوله تعالى : « أَنَا السَّيِّئَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ » . لأنه بمحمل تكون مستأجرة لهم ، كما يقال : هذه دار فلان إذا كان ساكنها وإن كانت لغيره . وقد قال تعالى في وصف أهل النار : « وَلَهُمْ مَقَامٌ مِّنْ حَرِّدٍ » فاضافها إليهم . وقال تعالى : « وَلَا تَزُولُ السُّفَهَاءُ أَمْوَالَكُمُ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من باع عبدا وله مال » . وهو كثير جدا يضاف الشيء إليه وليس له . ومنه قولهم : باب العمار . وجعل الباب ، وشرح الفرس ، وشبهه . ويجوز أن يُسموا مساكين على جهة الرحمة والاعتطاف ؛ كما يقال لمن آمنحت نكبة أو دفع إلى بلية مسكين . وفي الحديث « مساكين أهل النار » وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم • عليها تراب النمل بين المقابر
وأما ما تأوله من قوله عليه السلام : « اللهم أحيني مسكينا » الحديث . رواه أنس ، فليس كذلك ؛ وإنما المعنى ها هنا : التواضع لله الذي لا جبروت فيه ولا نخوة ، ولا كبر ولا بطر ، ولا تكبر ولا أشتر . ولقد أحسن أبو المناهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلهم • فأنظر إلى ملك في زى مسكين
فذاك الذي عظمك في الله ورضيته • وذلك يصلح للدينا ولدين

وليس بالسائل ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكره السؤال ونهى عنه ، وقال في امرأة سوداء أبت أن تزول عن الطريق : « دَعُوها فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ » . وأما قوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْيَاوُا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَغْنُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فلا يمنع أن يكون لهم شيء . والله أعلم . وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعي في أنها سواء حسن . ويقرب منه ما قاله

مالك في كتاب ابن عُثْمُون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين السائل ، وروى ابن عباس وقاله الزُّهْرِيُّ ، واختاره ابن سفيان وهو القول الرابع . وقول خامس — قال محمد ابن مسلمة : الفقير الذي له المسكن والخادم الى من هو أسفل من ذلك . والمسكين الذي لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى اليها؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسكنه؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإن لي خادما ، قال : فأنت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين ، والمساكين من الأعراب الذين لم يهاجروا ، وقاله الضحاك . وقول سابع — وهو أن المسكين الذي يتشمع ويستكنّ وإن لم يسأل . والفقير الذي يتحمل ويقبل الشيء سرا ولا يتشمع ، قاله عبيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعكرمة والزُّهْرِيُّ — المساكين الطوائف ، والفقراء فقراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وسياى .

الرابعة — وهي قائمة الخلاف في الفقراء والمساكين ، هل هما صنف واحد أو أكثر ، تظهر فيمن أوصى بثلاث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ، فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصف الثلث الثاني . ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلثا .

الخامسة — وقد اختلف العلماء في حدّ الفقر الذي يميز منه الأخذ — به إجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لا يستغنى عنها أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللعلى أن يسطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج اليه منها جاز له الأخذ وإلا لم يميز؛ ذكره ابن المنذر . ويقول مالك قال النخعي والثوري . وقال أبو حنيفة : من ماله عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

فأعتبر النصاب لقوله عليه السلام : " أمرت أن أأخذ الصدقة من أغنيائكم وأرثها في أفئدتكم ". وهذا واضح ، ورواه المصنف عن مالك . وقال الثوري وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ من له خمسون درهما أو قدرها من الذهب ، ولا يعطى منها أكثر من خمسين درهما إلا أن يكون غارما ، قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الثارقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهما " . في إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ، قاله الثارقي رحمه الله . وقال أبو عمر : هذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو مقبول . وعن علي وعبد الله قالوا : لا تحل الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، ذكره الثارقي . وقال الحسن البصري : لا يأخذ من له أربعون درهما . ورواه الواقدي عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الثارقي عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غني جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش " . قيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : " أربعون درهما " . وفي حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من سأل منك وله أوقية فقد سأل إلفا والأوقية أربعون درهما " . والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطى من الزكاة من له أربعون درهما؟ قال نعم . قال أبو عمر : يحتل أن يكون الأول قويا على الاكتساب حسن التصرف . والثاني ضعيفا عن الاكتساب ، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعي وأبو ثور . من كان قويا على الكسب والتصرف مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يفتيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام . وأحتاج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم " لا تحل الصدقة لفتي " ولا لذي مِرَّة سيئ^(١) . رواه عبد الله بن عمر ،

(١) المِرَّة (الكسر) : القوة والشدة . والسيئ : الصبيح الأعضاء .

وأخرجه أبو داود والترمذي والدارقطني . وروى جابر قال : جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة فركبه الناس ؛ فقال : " إنها لا تصلح لني . ولا لصحيح ولا لعامل " أخرجه الدارقطني . وروى أبو داود عن عبيد الله بن عدي بن الحيار قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسالاهما ، فرفع فينا النظر وخفضه ، فرأنا جلدين فقال : " إن شئنا أعطيتكما ولا حظ فيهما لني . ولا لقوي مكتسب " . ولأنه قد صار غنيا بكسبه كني غيره بماله فصار كل واحد منهما غنيا عن المسئلة . وقاله ابن خزيمة مناد ، وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغي أن يزول عليه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطعم الفقراء ووقوفها على الزمن باطل . قال أبو عيسى الترمذي في جامعه : إذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شيء فتصدق عليه اجزا من المصدق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم حل المسئلة . وقال البيهقي الطبري : والظاهر يقتضي جواز ذلك ؛ لأنه تفسير مع قوته وصحة بدنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه ويقيه سنة فإنه يسطى الزكاة . وحجته ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذبحهما إفاء الله عليه قوت سنة ، ثم يجعل ما سوى ذلك في الكراع^(١) والسلاح مع قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ قَاتِلًا قَاتِلًا » . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بد له منه . وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غني ؛ وروي عن علي . واحتجوا بحديث علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة من ظهر غنى استكثر بها من رصف جهنم " قالوا : يا رسول الله ، وما ظهر الغنى ؟ قال : " عشاء ليلة " . أخرجه الدارقطني وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحنفية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يغنيه فلم يأخذ يستكثر من النار " . وقال الثعلبي في موضع آخر " من جمر جهنم " . فقالوا : يا رسول الله

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل . وقيل : هراس يجمع الخيل والبلابح .

وما بنينه ؟ وقال الثَّغَلِي في موضع آخر : وما الفنى الذى لا يتبني معه المسئلة ؟ قال :
 " قدر ما ينديه ويشيه " . وقال الثَّغَلِي في موضع آخر : " أن يكون له شمع يوم ليلة
 أوليلة ويوم " .

قلت : فهذا ما جاء في بيان الفقر الذى يجوز معه الأخذ . ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضى
 الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة ؛ ولكن تظاهرت الأخبار في أن الصدقات تؤخذ
 من أغنياء المسلمين تُقَرَّد في قرائتهم . وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين ؛ والمساكين فقراء
 أهل الكتاب . وقال أبو بكر البسى : رأى عمر بن الخطاب ذيقاً مكفوقاً مطروحاً على باب
 المدينة فقال له عمر : مالك ؟ قال : استكروني في هذه الجزية ، حتى إذا كنت بصري تركوني
 وليس لي أحد يعود علي بشئ . فقال عمر : ما أنصفت إذا ؛ فامر له بقوته وما يصلحه .
 ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية . وهم
 زَنَعَى أهل الكتاب . ولما قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية ، وقابل
 الجملة بالجملة وهي جملة الصدقة بجملة المصرف بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال لما ذه
 حين أرسله إلى اليمن : " أخبرهم أن الله اقتضى عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد
 في قرائتهم " . فأختص أهل كل بلد بركة بلده . وروى أبو داود أن زيادا أو بعض الأمراء
 بعث عمران بن حصين على الصدقة ، فلما رجع قال لعمران : أين المال ؟ قال : ولائى
 أرسلنى ! أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها
 حيث كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الثَّغَلِي والترمذى عن
 عَوْن بن أبى جَحِيْفَةَ [عن أبيه] قال : قدم علينا مصدق النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ
 الصدقة من أغنيائنا فجعلها في قرائتنا فكنت غلاما يتبنا فأعطاني منها قُلُوصاً . قال الترمذى :
 وفى الباب عن ابن عباس حديث أبى جَحِيْفَةَ حديث حسن .

السادسة - وقد اختلفت المأبأ في قتل الزكاة عن موضعها على ثلاثة أقوال :
 لا تنقل ، قاله ثُخُونُ وأَبْنُ القاسم ، وهو الصحيح لما ذكرناه . قال ابن القاسم أيضا : وإن نُقل
 بعضها لضرورة رأيتها صوابا . وروى عن ثُخُونُ أنه قال : ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة
 شديدة جازله نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ؛ فإن الحاجة إذا تزايدت وجب تقديمها على
 من ليس محتاجا " والمسلم أخو المسلم لا يُسلمه ولا يظلمه " . والقول الثاني تنقل . وقاله مالك أيضا .
 وحجة هذا القول ما روي أن ماذا قال لأهل اليمن : يا ستوني بجييس أو ليس أخذهم منكم مكان الذرة
 والشعير في الصدقة فإنه أيسر عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة . أخرجه الثارقلاني وغيره .
 والخميس لفظ مشترك ، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع . ويقال : سُمِّيَ بذلك لأن أول
 من عملته الخُمس مَلِكٌ من ملوك اليمن ؛ ذكره ابن فارس في المُجْمَل والجوهري أيضا . وفي هذا
 الحديث دليلان : أحدهما - ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن إلى المدينة ؛ فيقول النبي
 صلى الله عليه وسلم قسمتها . ويضد هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ » ولم يفصل بين
 فقير بلد وفقير آخر . والله أعلم . الثاني - أخذ القيمة في الزكاة . وقد اختلفت الرواية عن
 مالك في إخراج القيم في الزكاة ؛ فأجاز ذلك مرة ومنع منه أخرى ، فوجد الجواز . وقال
 أبو حنيفة بهذا الحديث . وثبت في صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه
 وسلم " من بلغت عنده [من الإبل] صدقة الجذعة وليست عنده [جذعة] وعنده حقة فإنه
 تؤخذ منه وما استبرأ من شاتين أو عشرين درهما " . الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم :
 " أغنؤهم عن سؤال هذا اليوم " يعني يوم الفطر . وإنما أراد أن يُنْفُوا بما يستحاجتهم ،
 فأبى شيء سدا حاجتهم جاز . وقد قال تعالى : « حُدِّثُوا أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً » ولم يخص شيئا من
 شيء . ولا يدفع عند أبي حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة ؛ مثل أن يجب عليه خمسة دراهم
 فأسكن فيها فقيرا شهرا فإنه لا يجوز . قال : لأن السكني ليس بمال .

(١) أي لا يتركه مع من يؤذيه بل يجهه .

(٢) الزيادة من صحيح البخاري .

(٣) في البخاري : « فاتها قبل من الحقة ويعمل بها شاتين إن استبرأ له أو عشرين درهما » .

(٤) آية ١٠٣ من هذه السورة .

ووجه قوله « لا تجزى القِيم » — وهو ظاهر المذهب — فلان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « في خمس من الإبل شاة وفي أربعين شاة شاة » فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بمأمور به ، وإذا لم يأت بالمأمور به فالأمر باق عليه .

القول الثالث — وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم في الموضع ، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأول أصح . والله أعلم .

السابعة — وهل المتبر مكان المال وقت تمام الحول فتفرق الصدقة فيه ، أو مكان المالك إذ هو مخاطب ، قولان . واختار الثاني أبو عبد الله محمد بن خُوَيْرَمَتَد في أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المال تبعاً له ، فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطبة . كإن السبل فانه يكون غنياً في بلده فقيراً في بلد آخر ، فيكون الحكم له حيث هو .

مسئلة — وأختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيراً مسلماً فأكتشف في ثاني حال أنه أعطى عبداً أو كافراً أو غنياً ، فقال مرة : تجزيه ومرة لا تجزيه . وجه الجواز — وهو الإصح — ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل لا تصدق الليلة بصدقة تخرج بصدقة فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتصدقون تصدق الليلة على زانية قال اللهم لك الحمد على زانية لا تصدق بصدقة تخرج بصدقة فوضعها في يد غنى فأصبحوا يتصدقون تصدق على غنى قال اللهم لك الحمد على غنى لا تصدق بصدقة تخرج بصدقة فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتصدقون تصدق على سارق فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق فأني فقير له أنا صدقتك فقد قبلت أما الزانية فلعلها تستغف بها عن زناها ولعل النبي يعتبر فيبقى مما أعطاه الله ولعل السارق يستغف بها عن سرقة » . وروى أن رجلاً أخرج زكاة ماله فأعطاها إياه ، فلما أصبح علم بذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « قد كتبت لك أجر زكائك وأجر صلاة الرحم فك أجزان » . ومن جهة المنة أنه سوغ له الاجتهاد في المعطى ، فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

وجه قوله « لا يجزى » أنه لم يضعها في مستحقها؛ فأشبه العمد، ولأن العمد والخطا في ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أُلْف على المساكين حتى يوصله إليهم .

الثامنة - فإن أخرج الزكاة عند محلها فهلكت من غير تقييد لم يضمن؛ لأنه وكيل للفقراء . فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت ضمنين؛ لأنها خرجت عن محلها فتعلقت بتمتة فلذلك ضمن . والله أعلم .

التاسعة - وإذا كان الإمام يعدل في الأخذ والصرف لم يسع لئلا أن يتولى الصرف بنفسه في الناس ولا في غيره . وقد قيل : إن زكاة الناس على أربابه . وقال ابن المايثون : ذلك إذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصة؛ فإن احتيج إلى صرفها لغيرهما من الأصناف فلا يفرض عليهم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة؛ هذه أهمها .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿ وَالْمَالِ يَنْزِلُ عَلَيْنَا ﴾ يعني السعة والجدبة الذين يمتثلهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكل على ذلك . روى البخاري عن أبي حميد السامدي قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنس من الصدقات بنى سليم يدعى ابن اللثية^(٢)، فلما جاء حاسبه . واختفى العلماء في المقدار الذي يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهد والشافعي : هو الثمن . ابن عمر ومالك : يُعطون قدر عملهم من الأجرة ؛ وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . قالوا : لأنه عطل نفسه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أحواله في ما لم ؛ كالمراة لما عطلت نفسها لحق الزوج كانت نفقتها ونفقة أتباعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تستمر بالثمن ، بل تعتبر الكفاية فمما كان أو أكثر ؛ كرزق القاضي . ولا تعتبر كفاية الإخوان في زمنا لأنه إسراف محض . القول الثالث - يُعطون من بيت المال . قال ابن العربي : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) الناس من المال : هو درهم والدينار ؛ وإنما يسمى ناسا إذا تحول نقدا بعد أن كان مئانا .

(٢) اختفى في ضيق ؛ قيل يضم اللام وسكون اللام . وسكن ضمها . وقيل يفتح اللام المنة . والله عهده ، وكان من بني ثعلبة من الأزد . وقيل : اللثية أنه .

أبي أُويس ودلود بن سعيد بن زنبوعة، وهو ضعيف دليلاً؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بهمهم فيها نصاً فكيف يخلفون عنه استقراء وسبهاً . والصحيح الاجتهاد في قدر الأجرة؛ لأن البيان في تعديد الأصناف إنما كان للحل لا للسحق، على ما تقدم .

وأختلفوا في المامل إذا كان هاشمياً؛ فتمه أبو حنيفة لقوله عليه السلام: "إن الصدقة لا تحمل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس" . وهذه صدقة من وجه؛ لأنها جزء من الصدقة فنلتحق بالصدقة من كل وجه كرامة وتزجيا لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غسالة الناس . وأجاز عمله مالك والشافعي، ويُعطى أجر عماله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب مصدقاً، وبهتة عاملاً إلى اليمن على الزكاة، وولّى جماعة من بني هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك . ولأنه أُبهر على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشمي وغيره اعتباراً بسائر الصناعات . قالت الحنفية: حديث علي ليس فيه أنه فرض له من الصدقة، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودل قوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ فِيهَا﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالسباي والكتب والقسام والمائير وغيرهم فالتائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة؛ فإن الصلاة وإن كانت متوجهة على جميع الخلق فإن تقدم بعضهم من فروض الكفاية، فلا يرم يجوز أخذ الأجرة عليها . وهذا أصل الباب، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما تركت بعد ثقة نسائي وبؤنة عامل فهو صدقة" ^(١) قاله ابن العربي .

الثانية عشرة — قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ لا ذكر للوفسة فلوهم فم التزليل في غير قسم الصدقات؛ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم . قال الزهري: "المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً . وقال بعض المتأخرين: أختلف في صفتهم؛ فقيل: هم صنف من الكفار

(١) في ابن العربي: «عالم» .

يُطُون لِيَتَأْلَفُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا لَا يُسَلِّمُونَ بِالْفَهْرِ وَالسَّيْفِ، وَلَكِنْ يُسَلِّمُونَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ. وَقِيلَ: هُمْ قَوْمٌ أَسْلَمُوا فِي الظَّاهِرِ وَلَمْ تَسْتَقِنْ قُلُوبُهُمْ، فَيُعْطَوْنَ لِيَتَسَكَّنَ الْإِسْلَامُ فِي صُدُورِهِمْ. وَقِيلَ: هُمْ قَوْمٌ مِنْ عِظَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُتَابَعُوا لِيَتَأْلَفُوا أَتَابِعَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ. قَالَ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ، وَالْقَصْدُ بِجَمِيعِهَا الْإِعْطَاءُ لِمَنْ لَا يَتَّبِعُنَّ إِسْلَامَهُ حَقِيقَةً إِلَّا بِالْعَطَاءِ؛ نَكَاتُهُ ضَرْبٌ مِنَ الْجِهَادِ. وَالْمُشْرِكُونَ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ: صِنْفٌ يَرْجِعُ بِإِقَامَةِ الْبُرْهَانِ. وَصِنْفٌ بِالْفَهْرِ. وَصِنْفٌ بِالْإِحْسَانِ. وَالْإِمَامُ النَّازِلُ لِلْمُسْلِمِينَ يَسْتَعْمَلُ مَعَ كُلِّ صِنْفٍ مَا يَرَاهُ سَبِيلًا لِنَجَاتِهِ وَتَخْلِيصِهِ مِنَ الْكُفْرِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْنَى لِلْأَنْصَارِ: «فَإِنِّي أُعْطِي رَجُلًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكَفَرٍ أَنَا لِقَهُمْ» الْحَدِيثُ». قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَعْطَاهُمْ بِتَأْلِفِهِمْ وَبِتَأْلِفِ بِهِمْ قَوْمَهُمْ. وَكَانُوا أَشْرَافًا، فَأَعْطَى أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى ابْنَ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى سُهَيْلَ بْنَ عَمْرِو مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى حُوَاطِبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزَى مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى صَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةٍ مِائَةَ بَعِيرٍ. وَكَذَلِكَ أَعْطَى مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ وَالسَّلاَةَ بْنَ جَارِيَةَ. قَالَ: فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ الْمُنِينِ. وَأَعْطَى رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ دُونَ الْمِائَةِ مِنْهُمْ خُسْرَمَةَ بْنَ ثَوَّلٍ الزَّهْرِيَّ، وَحُمَيْرَ بْنَ وَهَبٍ الْجُمَيْحِيَّ، وَهِشَامَ بْنَ عَمْرِو الْعَامِرِيَّ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَهَؤُلَاءِ لَا أَعْرِفُ مَا أَعْطَاهُمْ. وَأَعْطَى سَعِيدَ بْنَ يَرْبُوعٍ خَمْسِينَ بَعِيرًا، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ صِرْدَاسٍ السُّكْنِيَّ أَرْبَعًا قَلِيلَةً فَسَيَّطَلَهَا. فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

كَانَتْ نِيَابًا تَلَايَتْنَهَا • بَوَّيْ عَلَى الْمُتَّهِرِ فِي الْأَجْرِ

وَالْإِخْلَافُ الْقَوْمَ أَنْ يَرْتَدُّوا • إِذَا هَجَّ النَّاسُ لَمْ أَجْعِ

فَأَصْبَحَ تَهَيَّ وَتَهَيَّ السَّيِّدَيْنِ عَيْنَةَ وَالْأَفْرَجِ

وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَائِدَرًا • فَلَمْ أُعْطِ شَيْطَانًا وَلَمْ أُنْصَحْ

(١) الْأَجْرِ: الْمَكَانُ الْوَاسِعُ الَّذِي فِيهِ جُرُودَةٌ وَمَشْوَقَةٌ. (٢) الْعِيدُ (مَعْنَى): أَسْمُ فَرَسٍ الْبَاسِ

ابْنُ مَرْدَاسٍ. (٣) ذَوْدُنَا (بِضْمِ اللَّامِ): أَيُّ ذُو جَيْمٍ لَا يَتَرَقَّى وَلَا يَهَابُ، فَهُوَ قُوَّةٌ عَلَى دَفْعِ أَعْدَاءِهِ.

أَلَا أَفْأَلَّ أُعْطِيْتُمْ ۖ عَدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعُ^(١)
وما كان حِصْنٌ ولا حَائِصٌ ۖ يَضْبُوقَانِ مِرْدَاسٌ فِي الْجَمْعِ
وما كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا ۖ وَمَنْ يَضْعُ الْيَوْمَ لَا يَرْفَعُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا فأقطعوا عني لسانه " . فأعطوه حتى رَضِيَ ؟
فكان ذلك قُطْعَ لِسَانِهِ . قال أبو عمر : وقد ذُكِرَ في المؤلفَةِ قلوبهم التَّضْيِيرُ بن الحارث بن ملقمة
ابن كَلْدَةَ ، أخو التضر بن الحارث المقتول بسدر صَبْرًا ، وذكر آخرون أنه فِيمَن هاجر إلى
الحبيشة ، فإن كان منهم فَمَعَالُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَوْفَةِ قلوبهم ، ومن هاجر إلى أرض الحبشة
فهو من المهاجرين الأوَّلِينَ مِن رِجَالِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَقَاتِلِ دُونِهِ ، وليس عَن يُولُفٍ عَلَيْهِ .
قال أبو عمر : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف بن سعد التَّمُرِي
على مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قِبَالِ قَيْسٍ ، وأمره بمناوذة تَقْيِيفِ فَعْلٍ وَضَيْقِ طَلِيمٍ ، وحسُنْ
إِسْلَامِهِ وَإِسْلَامِ الْمَوْفَةِ قلوبهم ، حاشَا عَيْنَةَ بِنِ حِصْنٍ فَلَمْ يَزَلْ تَقْمُوزًا عَلَيْهِ . وسائرُ المؤلفَةِ^(٢)
متفاضلون ، منهم الخليل الفاضل المَجْتَمِعُ عَلَى فَضْلِهِ ، كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام ،
وعكرمة بن أبي جهل ، ومسيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . وقد فضل الله التَّيْبِينَ وسائرَ
عباده الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ . قال مالك : بلغني أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ أُنْجِرَ
مَا كَانَ أَحْطَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَوْفَةِ قلوبهم فَتَصَلَّقَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

قلت : حكيم بن حزام وَهُوَ يَطِيبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ عَاشَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً وَعِشْرِينَ
سَنَةً ، سَتَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ وَسَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَصَمَتَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَظِيمِ يَقُولُ :
شَخْصَانِ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاشَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَتَيْنِ سَنَةً وَفِي الْإِسْلَامِ سَتَيْنِ سَنَةً ، وَمَاتَا بِالْمَدِينَةِ سَنَةً
أَوْجَعٍ وَنَحْسِينِ ، أَحَدُهُمَا حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَكَانَ مَوْلَدُهُ فِي جَوْفِ الْكُفَّةِ قَبْلَ عَامِ الْفِيلِ ثَلَاثَ
عَشْرَةِ سَنَةٍ . وَالثَّانِي حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بْنِ الْمُنْدَرِ بْنِ حَرَامِ الْأَنْصَارِيِّ . وَذَكَرَ هَذَا أَيْضًا أَبُو عَمْرٍو
وَعُمَيْانُ الشَّهْرُزُورِيُّ فِي كِتَابِ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ عِلْمِ الْحَدِيثِ لَهُ ، لَمْ يَذْكُرَا غَيْرَهَا . وَهُوَ يَطِيبُ ذَكَرَهُ

(١) الْأَفْأَلُ : صَارَ الْإِيْلُ . (٢) الْقَضُوءُ : الْقَتْلُ .

أبو الفرج الجوزي في كتاب الوفا في شرف المصطفى . وذكره أبو عمر في كتاب الصعابة أنه أدرك الإسلام وهو ابن ستين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حنن بن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف، أنه عاش في الإسلام ستين سنة وفي الجاهلية ستين سنة وقد عُدَّ في المؤلفات قلوبهم معاوية وأبوه أبو سفيان بن حرب . أما معاوية فبعد أن يكون منهم ؛ فكيف يكون منهم وقد اتهمه النبي صلى الله عليه وسلم على وحي الله وقرآنه وخطبه بنفسه . وأما حاله في أيام أبي بكر فاشهر من هذا وأظهر . وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهم . وفي عدده اختلاف ، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر على ما تقدم ، والله أعلم وأحكم .

الثالث شرة - واختلف العلماء في بقائهم ؛ فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم : انقطع هذا الصنف بمن الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي . قال بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين - لنهزم الله - اجتمعت الصعابة رضوان الله عليهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على سقوط سهمهم . وقال جماعة من العلماء : هم باقون ؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس : سألت الزهري عنهم فقال : لا أعلم نسبا في ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعل هذا الحكم فيهم ثابت ، فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويحتاج أن تلتصق المسلمين منه أمة ، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعد دفع إليه . قال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة . وقال ابن العربي : الذي عدى أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم ؛ فإن في الصحيح : "بدأ الإسلام غربيا وسيعود كما بدأ" .

الرابعة عشرة - فإذا فزعنا على أنه لا يُرد إليهم سهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما رآه الإمام ، وقال الزهري : يُعطى نصف سهمهم لعمار المساجد . وهذا مما يدلك على أن الأصناف الثمانية محل لا مستحقون تسوية ؛ ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إليهم ؛ كما لو أوصى لقوم معينين فمات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بقى منهم . والله أعلم .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى فى فَكِّ الرِّقَابِ ؛ قاله ابن عباس وابن عمر ؛ وهو مذهب مالك وغيره . فيجوز للإمام أن يشتري رقاباً من مال الصدقة يمتنها عن المسلمين ؛ ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين . وإن اشتراهم صاحب الزكاة واعتهم جاز . هذا تحصيل مذهب مالك ، وروى عن ابن عباس والحسن ، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو عبيد . وقال أبو ثور : لا يتباع منها صاحب الزكاة نسمة يمتنها بجزء ولاه . وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي ورواية عن مالك . والصحيح الأول ؛ لأن الله عز وجل قال : « وفي الرقاب » فإذا كان الرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشتري رقبة يمتنها . ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشتري الفرس فيحمل عليه في سبيل الله . فإذا كان له أن يشتري فرسا بالكيل من الزكاة جاز أن يشتري رقبة بالكيل ؛ لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ الأصل فى الولاة ؛ قال مالك : هى الرقبة تتق ولولاها للمسلمين ، وكذلك إن أعفها الإمام . وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاة وعن هبته . وقال عليه السلام : « الولاة ثمة كلعمة السب لا يتباع ولا يوهب » . وقال عليه السلام : « الولاة لمن أعتق » . ولا ترث النساء من الولاة شيئاً ؛ لقوله عليه السلام : « لا ترث النساء من الولاة شيئاً إلا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن » وقد وزت النبي صلى الله عليه وسلم ابنة حمزة من مولاهما النصف ولا يترثه النصف . فإذا ترك المعتق أولاداً ذكروراً وإناثاً فالولاة للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاة إنما يورث بالتعصيب المحض ، والنساء لا تعصبن فيهن فلم يرثن من الولاة شيئاً . فافهم تعصب .

السابعة عشرة — وأختلف هل يمان منها المكاتب ؛ فقول لا . روى ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لما ذكر الرقبة دل على أنه أراد المتى الكامل ، وأما المكاتب فإنما هو داخل فى كلمة الفارين بما عليه من دين الكتابة ، فلا يدخل فى الرقاب . والله أعلم . وقد روى عن مالك من رواية المدنيين وزيد عنه : أنه يمان منها المكاتب فى آخر كتابته بما يتق .

وعلى هذا جمهور العلماء في تأويل قول الله تعالى : « وفي الرقاب » . وبه قال ابن وهب
والشافعي والثوري والحنفي وغيرهم . وحكى عن ابن موسى القمي الحنفى في أحكامه : أنهم
أجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا في عتق الرقاب؛ قال اليكا الطبري : « وذكر وجهاً^(١)
بينه في منع ذلك فقال : إن العتق إبطال ملك وليس بملك ، وما يدفع إلى المكاتب تمليك ،
ومن حق الصدقة ألا تجزى إلا إذا جرى فيها التملك . وقوى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن
النازم في دينه بغير أمره لم يميزه من حيث لم يملك فلان لا يجزى ذلك في العتق أولى . وذكر
أن في العتق جزأ الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل في دفعه للمكاتب . وذكر أن ممن العبد إذا
دفعه إلى العبد لم يملكه العبد ، وإن دفعه إلى سيده فقد ملكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء
والعتق فهو قاض دينه وذلك لا يجزى في الزكاة » .

قلت : قد ورد حديث ينص على معنى ما ذكرنا من جواز حق الرقبة وإعانة المكاتب
معاً ، أخرجه الثوري عن البراء قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دُفني
على عمل يجزى من الجنة ويصادني من النار . قال : «^(٢) إن كنت أقصرت الخبطة لفسد
أعرضت المسألة أعتق النسيئة وفك الرقية » . قال : يا رسول الله ، أوليسنا واحداً؟ قال :
« لا ، يفتى النسيئة أن تفرد بعتقها وفك الرقية أن تمين في ثمنها » وذكر الحديث .
الثامنة عشرة - واختلفوا في فك الأسارى منها؛ فقال أصبغ : لا يجوز . وهو قول
ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز ؛ لأنها رقية ملكك بملك الرق فهي تخرج من رق إلى
حق ، وكان ذلك أحق وأولى من فكالك الرقاب الذي بأيدينا ؛ لأنه إذا كان فك المسلم عن
رق المسلم عبادة وجازاً من الصدقة ، فأحرى وأولى أن يكون ذلك في فك المسلم عن رق
الكافر ودفعه .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : (وَالْفَارِصِينَ) هم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به ،
ولا خلاف فيه . اللهم إلا من آذان في سفاقة فإنه لا يعطى منها ولا من فيها إلا أن يتوب .

(١) أى القسي . (٢) الذى في أحكام القرآن الكبار : « وذكر وجهها بينة في منع ذلك ، منها أنه
العتق ... » الخ . (٣) أى جئت بالخطبة نصيرة وبالمسألة رابسة كثيرة .

وَيُعْطَى مِنْهَا مَنْ لَهُ مَالٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مُحِيطٌ بِهِ مَا يَقْضَى بِهِ دَيْنُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَهُوَ فَقِيرٌ وَغَارِمٌ يُعْطَى بِالْوَصْفَيْنِ . رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : أَصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَسَارُعِ أَسْبَاطِهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ " . فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنُهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمِهِ : " خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ " .

المؤنية عشرين — ويجوز التحمل في صلاح وير أن يعطى من الصدقة ما يؤدي ما تجمل به إذا وجب عليه وإن كان غنياً ، إذا كان ذلك يخفف بما له كالغريم . وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وأحجج من ذهب هذا المذهب بحديث قبيصة بن عمار قال : تحتل حاملة فأنيت النبي صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : " أقم حتى تأتينا الصدقة فأنامرك بها — ثم قال — يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة رجل يحمل حاملة خلعت له المسألة حتى يصيبها ثم يميك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله خلعت له المسألة حتى يصيب قواماً من ميث — أو قال سداً من ميث — ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى النجى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة خلعت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش — أو قال سداً من ميث — فساووهن من المسألة يا قبيصة تحتلن بأكملها صاحبها تحتلن " . فقوله : " ثم يميك " دليل على أنه غني ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يميك . وافته أعلم . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ذوى فقر مذيق أو لذى غرم مفطع أو لذى دم موجب " . وروى عنه عليه السلام : " لا تحل الصدقة لنفسي إلا بخسة " الحديث . وسيأتي .

- (١) الحالة (بالفتح) : ما يحميه الإنسان من ضره من دية أو غرامة ؛ مثل أن تقع حرب بين فرقتين تسفك فيها الدماء ، فيدخل بينهم رجل يشل ديات القتل ليعالج ذات الدين . والحمل : أن يحملها منهم على نفسه . (عن النهاية لابن الأثير) . (٢) أي حتى يقوموا على ورس الأبطال فائزين ؛ إن فلاذا أصابه فاقة الخ (٣) كذا رواية مسلم ؛ أي اخذه تحتاً ، أو يركل تحتاً . روى غير مسلم بالرفع . (٤) المقع : التشديد ، يضى صاحبه إلى القضاء ، وهي التراب . وقيل : هو سوء أحوال الفقر . (٥) المقطع : التشديد بالنزع . (٦) هو أن يحمل دية فيسقى فيها حتى يؤديها إلى أولياء القتل ؛ فإن لم يؤديها قتل المحلل عنه فوجبه قتله .

الحادية والعشرون - واختلقوا هل يقضى منها دين الميت أم لا ؟ فقال أبو حنيفة : لا يؤدي من الصدقة دين ميت . وهو قول ابن المَوَاز . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها من عليه كفاية ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما الفارم من عليه دين يسجن فيه . وقال علماءنا وغيرهم : يقضى منها دين الميت لأنه من الفارمين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلاحله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلى " ^(١) .

الثانية والعشرون - قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هم الفزاة وموضع الرباط ، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الجحاج والعُدَار . ويؤثر عن أحمد وإسحاق رحمهما الله أنهما قالاً : سبيل الله الحج . وفي البخاري : ويذكر عن أبي لاس : حملنا النبي صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُعْتَقُ من [زكاة] ماله ويُعطى في الحج . خرج أبو محمد عبد الفتي الحافظ حدثنا محمد بن محمد انلياش حدثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدي بن عيون عن محمد بن أبي يعقوب عن عبد الرحمن ابن أبي نعيم ويحكى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأنشأ امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجي أوصى بماله في سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كما قال في سبيل الله . فقلت : أما زدتها فيما سألت عنه إلا غمًا . قال : فما تأمرني يا بن أبي نعيم ، أمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجلبوس الذين يخرجون فيعتدون في الأرض ويقطعون السبيل ! قال : قلت فما تأمرها . قال : أمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ؛ ثلاثا يقولها . قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان ؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فيمنعون إليهم الحديث ، ويسمعون من المسامين بالكذب ؛ فيجازون الجواز ويعطون عليه العطايا .

(١) الفتيان (بالفتح) : الفيل وأصله مصدر ضاع ضيع ضياعا ؛ فسي الفيل بالفتح ؛ كما تقول : من مات

وزك فمرا ؛ أي ضراء .

(٢) الزيادة عن صحيح البخاري .

وقال محمد بن عبد الحكم : ويعطى من الصدقة في الكراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكف الصدق عن الحوزة ؛ لأنه كله من سيل القزو ونصفته . وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة في نازلة سهل بن أبي حثمة إطفاء للنائرة .

قلت : أخرج هذا الحديث أبو داود عن بشير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبي حثمة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وداه مائة من إبل الصدقة ، بنى دية الأنصاري الذي قُتل بختيار . وقال عيسى بن دينار : تحمل الصدقة لغاز في سبيل الله ، قد احتاج في غزواته وغاراته عنه غناؤه ووفره . قال : ولا تحمل لمن كان معه ماله من الغزاة ، إنما تحمل لمن كان ماله ثائبا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحبه : لا يُعطى الفساري إلا إذا كان فقيرا متقطعا به . وهذه زيادة على النص ، والزيادة عند على النص نسخ ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر ، وذلك معدوم هنا ، بل في صحيح السنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لفتى إلا خمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لعارم أو لرجل اشتراها أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للفتى " . رواه مالك مرسل عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . ورفع معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا الحديث مفسرا لمعنى الآية ، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها ، ومفسرا لقوله عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لفتى " ولا لذي مرة سوى " لأن قوله هذا يحمل ليس على عمومته بدليل الخمسة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لفتى أن يأخذ من الصدقة ما يستعين به على الجهاد وينفق في سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك التارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يقي به ماله ويؤدى منها دينه وهو عنها غني . قال : وإذا احتاج الفساري في غزواته وهو غني له مال غلب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا ويستقرض ، فإذا بلغ بلده أدى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم ، وزعم أن ابن نافع وغيره خالفوه في ذلك . وروى أبو زيد وغيره

عن ابن الناصب أنه قال : يعطى من الزكاة الغازي وإن كان معه في غزائه ما يكفيه من ماله وهو غني في بلده . وهذا هو الصحيح ؛ فظاهر الحديث : " لا نحل الصدقة لغني إلا خمسة " . وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاه ومواضع الرباط فقراء كانوا أو أغنياء .

الثالثة والمشرون — قوله تعالى : ﴿ وَابْنُ السَّبِيلِ فِي السَّبِيلِ الطَّرِيقِ ﴾ ؛ ونُسب المسافر إليها لئلا يمتنع إياها ومروره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن تسالوني عن الحموي فأنا الحموي • وابن الحموي وأخو الحموي وأبوه

والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله ؛ فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده ، ولا يلزمه أن يشغل ذهنه بالسلف . وقال مالك في كتاب ابن محنون : إذا وجد من يسلفه فلا يعطى . والأول أصح ؛ فإنه لا يلزمه أن يدخل تحت مئة أحد وقد وجد مئة الله تعالى . فإن كان له ما يفيقه ففى جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل وروايتان : المشهور أنه لا يعطى ، فإن أخذ فلا يلزمه رده إذا صار إلى بلده ولا إخراج .

الرابعة والمشرون — فإن جاء وأدعى وصفاً من الأوصاف ، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فأما الذين فلا بد أن يثبتوه ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد له ويكفى به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير [عن أبيه] قال : سمنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في صدر النهار ، قال : بغاه قوم حفاة عراة مجتأئي الخمار أو العباء متقلدي السيوف ، عاتقهم من مضرة بل كلهم من مضرة ، فمصر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فامر بلالا فأذن وأقام فصل ، ثم خطب فقال : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم — الآية إلى قوله — رقيباً " والآية التي في الحشر « ولتنظر نفس ما قدمت لنفسه » تصلى رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره — حتى قال — ولو بشق تمر » قال : بغاه رجل

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) اجتاب القميص : لبه ، والثار (بكر التون) : كل شئة خضلة من ثار الأهراب ؛ كأنها أخذت من لون الثر لها فيها من السواد والياض . (٣) تمر : تمر .

من الأنصار بَشْرَةَ كادت كَفَّهُ تَعِيزَ عنها بل قد عجزت ، قال : ثم ستاج الناس حتى رأيت
 كَوَّمين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يَهْلِكُ كأنه مُنْجَبَةٌ^(١)
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من
 عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئة كان عليه
 وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " . فاكتمى صلى الله
 عليه وسلم بظاهر حالم وحث على الصدقة ، ولم يطلب منهم يَسَّة ، ولا استغنى هل عندهم
 مال أم لا . ومثله حديث أبرص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره . وهذا لفظه : عـ
 أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أن في بنى إسرائيل أبرص
 وأقرع وأعمى فأراد الله أن يطيِّبهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال أي شيء أحب إليك
 فقال لَوْنٌ حَسَنٌ وجِلْدٌ حَسَنٌ ويذهب عني الذي قد قَذَرَنِي النَّاسُ قال فسمعه فذهب عنه قذره
 وأعطى لونا حسنا وجِلدا حسنا قال فأتى المال أحب إليك قال الإبل — أو قال البقر ، شك
 إسحاق ، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال آخر البقر — قال فأعطى ناقة
 عَشْرَةَ قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك قال شَعْرٌ حَسَنٌ
 ويذهب عني هذا القذى قد قَذَرَنِي النَّاسُ قال فسمعه فذهب عنه قال فأعطى شعرا حسنا قال
 فأتى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأعمى
 فقال أي شيء أحب إليك قال أن يَرُدَّ الله إلي بصري فأبصر به الناس قال فسمعه فردَّ الله إليه
 بصره قال فأتى المال أحب إليك قال النَّمْ فأعطى شاة والدا فأنتج هذان ورثه هذا قال^(٢)
 فكان لهما وإد من الإبل ولهذا وإد من البقر ولهذا وإد من النَّمْ قال ثم إنه أتى الأبرص
 في صورته وهيئة فقال رجل مسكين في الجبال في سفري فلا يُلَاحِظُ في اليوم إلا
 بالله وبك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجِلْدَ الحسن والمال بعيرا أتُبَغِّ عليه في سفري

(١) أى خضة مرقعة يذهب في إثر الله ، (٢) كذا في الأصول وصحح مسلم . ورواية البخاري :
 « شك إسحاق في ذلك أن الأبرص » بغير لفظ « إلا » . (٣) أى صاحب الإبل والبقر .
 (٤) الجبال : جمع جبل . والمراد الأسباب التي ينشغلها في طلب الرزق .

فقال له الحقوقي كثيرة فقال له كأتى أعزك ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيرا فاعطاك الله فقال إنما ورثت هذا المال كايما عن كابر فقال إن كنت كاذبا ففسيك الله الى ما كنت فقال وأنى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد على هذا فقال إن كنت كاذبا ففسيك الله الى ما كنت قال وأنى الأعمى في صورته وهيته فقال رجل مسكين وابن سبيل انقطعت في الجبال في سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك أسالك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفرى فقال قد كنت أعمى فرد الله الى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوافقه لا أجهدك اليوم شيئا أخذته الله فقال أليسك مالك فإنا آتيتك فقد رضى عنك ومخط على صاحبك . وفى هذا اهل دليل على أن من ادعى زيادة على فقره من عيال أو غيره لا يكشف عنه خلافا لمن قال يكشف عنه إن قدر ؛ فإن في الحديث " فقال رجل مسكين وابن سبيل أسالك شاة " ولم يكلفه إثبات السفر . فاما المكاتب فإنه يكلف إثبات الكتابة لأن الرق هو الأصل حتى تهت الحرية .

الخامسة والعشرون - ولا يجوز أن يعطى من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدين والولد والزوجة . وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز . وأما أن يتناول ذلك هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضا . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته ، ولا يعطى منها مكاتب ولا مدبره ولا أم ولده ولا عبدا احتق نصفه ؛ لأنه مأمور بالإتياء والإخراج الى الله تعالى بواسطة كف الفقير ، ومنافع الأملك مشتركة بينه وبين هؤلاء ؛ ولهذا لا تقبل شهادة بعضهم لبعض . قال : والمكاتب عبد ما بين عليه درهم وربما يعجز فيصير الكسب له . ومعتق البعض عند أبى حنيفة بمنزلة المكاتب . وعند صاحبيه أبى يوسف ومحمد بمنزلة حر عليه دين فيجوز أدائها إليه .

السادسة والعشرون - فإن أعطاهما لمن لا تلزمه نفقتهم فقد اختلف فيه ؛ فمنهم من جزؤه ومنهم من كرهه . قال مالك : خوف المحمدة . وحكى مطرف أنه قال : رأيت مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدي قال مالك : أفضل من وضعت فيه زكاته

قربانك الذين لا تقول . وقال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : " لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة " . واختلفوا في إعطاء المرأة زكاتها لزوجها ، فذكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز ، وحالفه أصحابه فقالا : يجوز . وهو الأصح لما ثبت أن زينب امرأة عبد الله أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أريد أن أتصدق على زوجي أيمزني ؟ فقال عليه السلام : " لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة " . والصدقة المخلقة هي الزكاة ، ولأنه لا نفقة للزوج عليها ، فكان بمنزلة الأجنبية . احتل أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لا تقبل شهادة أحدهما لصاحبه . والحديث يحمل على التطوع . وذهب الشافعي وأبو ثور وأشبه إلى إجازة ذلك ، إذا لم يصرفه إليها فيما يلزمه لها ، وإنما يصرف ما يأخذه منها في نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والمشرون — واختلفوا أيضا في قدر الممطى ، فالنارم يطى قدر دينه ، والفقير والمسكين يطبان كفتابتهما وكفاية عيالهما . وفي جواز إعطاء النصاب أو أقل منه خلافاً بيني على الخلاف المتقدم في حد النفر الذي يجوز معه الأخذ . وروى علي بن زياد وابن نافع : ليس في ذلك حد ، وإنما هو على اجتهد الوالي . وقد يقل المساكين وتكثر الصدقة . فمطى الفقير قوت سنة . وروى للمغيرة : يطى دون النصاب ولا يلفه . وقال بعض المتأخرين : إن كان في البلد زكاتان قد حُرث أخذه ما يلفه إلى الأخرى . قال ابن العربي : الذي أراه أن يطى نصاباً ، وإن كان في البلد زكاتان أو أكثر ، فإن الفرض إعطاء الفقير حتى يصير غنياً . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هذا مذهب أصحاب الرأي في إعطاء النصاب . وقد كره ذلك أبو حنيفة مع الجواز ، وأجازه أبو يوسف ، قال : لأن بعضه لحاجة مشغول المال ، فكان الفاضل عن حاجته للمال دون المساكين ، وإذا أعطاه أكثر من مائتي درهم جملة كان الفاضل عن حاجته للمال قدر المساكين فلا يجوز . ومن متأخري الحنفية من قال : هذا إذا لم يكن له عيال .

ولم يكن عليه دين، فإن كان عليه دين فلا بأس أن يعطيه مائتي درهم أو أكثر، مقدار ما لو قس به دينه يفي له دون المائتين. وإن كان مبيلا لا بأس أن يعطيه مقدار ما لو وزع على عياله أصحاب كل واحد منهم دون المائتين؛ لأن التصدق عليه والمنى تصدق عليه وعلى نباله، وهذا قول حسن.

الثامنة والعشرون - اعلم أن قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ مطلق ليس فيه شرط ونفيده، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بني هاشم أو غيرهم؛ إلا أن السنة وردت باعتبار شروط: منها ألا يكونوا من بني هاشم، وألا يكونوا ممن لا تلزم التصديق نفقته. وهذا لا خلاف فيه، وشرط ثالث ألا يكون قويا على الاكتساب؛ لأنه عليه السلام قال: "لا تحمل الصدقة لفتي ولا لفتي مرة سوى". وقد تقدم القول فيه. ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحمل للفتي صلى الله عليه وسلم، ولا لبني هاشم ولا لمواليهم. وقد روى عن أبي يوسف جواز صرف صدقة الهاشمي للهاشمي؛ حكاه الشيخ الطبري. وشذ بعض أهل العلم فقال: إن موالى بني هاشم لا يحرم عليهم شيء من الصدقات، وهذا خلاف الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبي رافع مولاة: "وإن موالي القوم منهم".

الثامنة والعشرون - واختلفوا في جواز صدقة التطوع لبني هاشم؛ فالذي عليه جمهور أهل العلم - وهو الصحيح - أن صدقة التطوع لا بأس بها لبني هاشم ومواليهم؛ لأن عليا والعباس وفاطمة ورضوان الله عليهم تصدقوا وأوقفوا أوقافا على جماعة من بني هاشم، وصدقائهم الموقوفة معروفة مشهورة. وقال ابن الماسجون ومطرف وأصبخ وابن حبيب: لا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ولا من التطوع. وقال ابن القاسم: يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع. قال ابن القاسم: والحديث الذي جاء: "لا تحمل الصدقة لآل عبد" إنما ذلك في الزكاة لا في التطوع. وأختار هذا القول ابن خزيمة، وبه قال أبو يوسف وعبد الله بن القاسم: ويعطى موالىهم من الصدقتين. وقال مالك في الواضحة: لا يعطى لآل عبد من التطوع. قال ابن القاسم: - قيل له يعني مالكا - فوالله؟ قال: لا أدرى ما الموالى.

فاحتجبت عليه بقوله عليه السلام : "مَوَّلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ" . فقال قد قال : "ابن أخت
السوم منهم" . قال أصبَحَ : وذلك في البرِّ والحُرمة .

المؤبة ثلاثين - قوله تعالى : (فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ) بالنصب على المصدر عند سيويه .
أى فرض الله الصدقات فريضة . ويجوز الرفع على القطع في قول الكسائي ؛ أى من فريضة .
قال الزجاج : ولا أعلم [أنه] قرئ به .

قلت : قرأ بها إبراهيم بن أبي عبلة، جعلها خبراً، كما تقول : إنما زيد خارج .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ
خَيْرٌ لَّكَ يَوْمَنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكَ
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾

بين تعالى أن في المنافقين من كان يسبط لسانه بالوقية في أذية النبي صلى الله عليه وسلم
ويقول : إن عاتني حلفت له بأني ما قلت هذا فيقبله ؛ فإنه أُذُنٌ سامعة . قال الجوهري :
يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ؛ يستوى فيه الواحد والجمع . وروى عن ابن
أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى « هو أذن » قال : مستمع وقابل . وهذه الآية
نزلت في عتاب بن قشير ، قال : إنما هد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو يتنقل بين الحارث ؛
قاله ابن اسحاق . وكان يتنقل رجلاً جسيماً نازحاً شعر الرأس والحمية ، آدم أحمر العينين أسفع
الخدين مشوه الخلق ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى
الشيطان فلينظر إلى يتنقل بن الحارث " . السُفْعَةُ (الضم) : سواد مُشْرَبٌ بحمرة . والرجل
أسفع ؛ عند الجوهري . وقرئ « أذن » بضم النال وسكونها . (قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكَ)
أى هو أذن خير لا أذن شر ؛ أى يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكَ »
بالرفع والتنوين ، الحسن وطام في رواية أبي بكر . والباقون بالإضافة ، وقرأ حمزة « ورحمة »
بالخفض . والباقون بالرفع عطفت على « أذن » ، والتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمة ،

أى هو مستمع خير لا مستمع شر، أى هو مستمع ما يحب استماعه، وهو رحمة، ومن خاضع فعل العطف على « خير » . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد؛ لأنه قد نباعد ما بين الآسمين، وهذا يقع في المفعول، المهدوي : ومن جر الرحمة فعل العطف على « خير » والمعنى مستمع خير ومستمع رحمة ؛ لأن الرحمة من الخير . ولا يصح عطف الرحمة على المؤمنين ؛ لأن المعنى يصدق بالله ويصدق المؤمنين ؛ فللام زائدة في قول الكوفيين . ومثله « لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » أى يرهبون ربهم . وقال أبو علي : هو كقوله « رَدِفَ لَكُمْ » وهى عند المبرد متعلقة بمصدر دل عليه الفعل، التقدير : إيمانه للمؤمنين ؛ أى تصديقه للمؤمنين لا للكفار . أو يكون محمولا على المعنى ؛ لأن معنى يؤمن يصدق ، فعلى باللام كما عدى في قوله تعالى : « مُصَدِّقَاتِ يَدَيْهِ » .

قوله تعالى : يَخْلُقُونَ بِإِلَهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَافُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا ، فهم الجلاس بن شويد ووديعه بن ثابت ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه فكلوا وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الخير . ففضب الغلام وقال : والله إنما يقول حق وأنتم شر من الخير؛ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم ، فحفوا أن عامرا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك وقال : اللَّهُمَّ لَا تَفْزُقْ بَيْنَنَا حَتَّى يَنْتَبِهُ صِدْقُ الصَادِقِ وَكَذِبُ الْكَاذِبِ . فأنزل الله هذه الآية وفيها « يَخْلُقُونَ بِإِلَهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ » .

الثانية - قوله تعالى : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ) ابتداء وخبر . ومذهب سيويه أن التقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ، ثم حذف ؛ كما قال : نحن بما عندنا وأنت بما عندك رايش والراى مخيلف

وقال محمد بن يزيد : ليس في الكلام محذوف ، والتقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله ، على التقديم والتأخير . وقال الفراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله أفتاح كلام ، كما تقول : ما شاء الله وشئت . قال النحاس : قول سيويه أولها ؛ لأنه قد صرح عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن أن يقال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقدر في شيء تقديم ولا تأخير ، ومعناه صحيح :

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضا في رضا ؛ ألا ترى أنه قال : « من طيع الرسول فقد أطاع الله » . وكان التوزيع بن خنم إنما مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : رَفَّ وأيمًا حرف ، فوض إليه فلا يأمرنا إلا بخير .

الثالثة - قال علامنا : تضمنت هذه الآية قبول يمين الحالف وإن لم يلزم المحلوف له الرضا . وإجماع حق للدعي . وتضمنت أن يكون اليمين بالله عز وجل حسب . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف فليحلف بالله أو ليصمت ومن حلف له فليصدق » . وقد مضى القول في الإيمان والاستثناء فيها مستوفى في المسألة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَخْزَىٰ أَلْعَظِيمِ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا) بنى المنافقين . وقرأ ابنُ هريرة والحسن « تعلموا » بالياء على الخطأ . (أَنَّهُ) في موضع نصب بـ يعلموا ، والهاء كناية عن الحديث . (مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ) في موضع رفع بالابتداء . والمحادة : وقوع هذا في حدّ وذلك في حدّ ؛ كالشأن . يقال : حاذ فلان فلانا أي صار في حدّ غير حده . (فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) يقال : ما بعد الفاء في الشرط مبتدأ ؛ فكان يجب أن يكون « فَإِنَّ » بكسر الهزنة . وقد أجاز الخليل وسيبويه « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » بالكسر . قال سيويه : وهو جيد وأنشد :

وعلى إندام المياه فلم تزل • قلائص تحدى في طريق طلائع^(١)
وإني إذا ملئت رصكابي مناعها • فإني على خطي من الأمر جاع

إلا أن قراءة العامة «فان» بفتح الهمزة. فقال الخليل أيضا وسيبويه: إن «أق» الثانية مبدلة من الأولى. وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجرجي، قال: إن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام، ونظيره «وهم في الآخرة هم الآخسون»^(٢). وكنا «فكان عاقبتهم أئمتنا في النار خالدين فيها»^(٣). وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له. وإنكره المبرد وقال: هذا خطأ من أجل إق. «أن» المفتوحة للمشددة لا يبتدأ بها ويضمير الخبر. وقال علي بن سليمان: المعنى فالواجب أن له نار جهنم، فان الثانية خبر ابتداء محذوف. وقيل: التقدير فله أن له نار جهنم. فان صرورة بالاستقرار على إحصاء المحرور بين الفاء وإن.

قوله تعالى: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٧﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) خبر وليس بأمر. ويدل على أنه خبر أن ما بعده «إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجٌ مَا تَحْذَرُونَ» لأنهم كفروا عنادا. وقال السدي: قال بعض المنافقين والله وددت لو أني قدمت بغلتم مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا؛ فنزلت الآية. يحذر: أي يتحيز. وقال الزجاج: معناه ليتحذر؛ فهو أمر؛ كما يقال: يفعل ذلك.

(١) البتادلان مقلد. وشاهد فيها كسر «ذ» الثانية. والأندام: المياه الغامرة قلعة الوارد، وأحدا سدم. وتحدى: تسرع. والقلع: القبة لظلم البحر. وسنى: ملك ركباني مناعها: نوال سفرها وأمانتها. وأبحاها: وأجلاها. والمضج: المضج على وجهه. أي لا يكرهى طول السفر ولكن أخصي قد ما لا أرى به من الخطأ أمرى. (من شرح الشواهد) - (٢) آية سورة النمل - (٣) آية ١٧ سورة الحشر.

الثانية — قوله تعالى : ﴿ اُنْ تَزَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ « اُنْ » في موضع نصب ، أى من اُنْ تَزَلْ . ويجوز على قول سيبويه اُنْ تكون في موضع خفض على حذف من . ويجوز اُنْ تكون في موضع نصب مفعولة ليحذر؛ لأن سيبويه أجاز : حذرت زيدا؛ وأشد :

حذرت أمورا لا تبسر وأمين • ما ليس مُتَّجِيةً من الأقدار

ولم يُجْزَءْ المُبْدَءُ لأن الحذر شئ، في الهيئة . ومعنى ﴿ عليهم ﴾ أى على المذنبين (سورة) في شأن المنافقين تحريم بخازيم ومساوهم ومثلهم ؛ ولهذا تُمِيتُ الطامحة والمثيرة والمبعدة ، كما تقدم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الفارة لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ قُلِ اسْتَزِنُوا ﴾ هذا أمر وعيد وتهديد . ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ أى مظهر ﴿ مَا تَخْتَرُونَ ﴾ ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سميون رجلا، ثم نسخ تلك الأسماء من القرآن رافة منه ورحمة ؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والباس يغير بعضهم بعضا . فعل هذا قد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَخْتَرُونَ ﴾ . وقيل : إخراج الله أنه عرف نية عليه السلام أحوالهم وأسماءهم لا أنها نزلت في القرآن ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ وهو نوع إلام . وكان من المنافقين من يرتدد ولا يقطع بنكذب محمد عليه السلام ولا بصدقه . وكان بينهم من يعرف صدقه ويصاد .

قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — هذه الآية نزلت في غزوة تبوك . قال الطبري وبهره عن قتادة : بينا النبي

صل الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسبرون بين يديه فقالوا

(١) آية ٣٠ سورة محمد .

انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر ! فاطلمه الله سبحانه على ما في قلوبهم وما يتحدثون به ، فقال : " احبسوا على الركب - ثم انعم فقال - قلم كذا وكذا " خلّفوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ؛ يريدون كما غير مجدين . وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديسة بن ثابت متعلقاً بحَقَب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشيها والحجارة تنكبه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . والنبي صلى الله عليه وسلم يقول « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَزِيدُونَ » . وذكر النقاش أن هذا المتعلق كان عبد الله بن أبي بن سُلَول . وكذا ذكر القشيري عن ابن عمر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ، لأنه لم يشهد تبوك . قال القشيري : وقبل إنما قال عليه السلام هذا لوديسة بن ثابت وكان من المنافقين وكان في غزوة تبوك . والخوض : الدخول في الماء ، ثم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذى .

الثانية - قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جذاً أو هزلاً ، وهو كيف كان كفر ، فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة ، فإن التحقيق أخو العلم والحق ، والهزل أخو الباطل والجهل . قال علامونا : انظر إلى قوله « أَتَقْعِدُنَا هُزْلاً » قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ » .

الثالثة - واختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال : لا يلزم مطلقاً . يلزم مطلقاً . التفرقة بين البيع وغيره . فيلزم في النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعي في الطلاق قولاً واحداً . ولا يلزم في البيع . قال مالك في كتاب محمد : يلزم نكاح المازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم في المتبعة : لا يلزم . وقال علي بن زياد : يُسَخِّحُ قَبْلَ وَبَعْدُ . وللشافعي في بيع المازل قولان . وكذلك يخرج من قول علامتنا القولان . وحكي ابن المنذر الإجماع في أن يحد الطلاق وهزله سواء . وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن انفقا على الهزل في النكاح والبيع لم يلزم ، وإن آخفا غلب الجسد الهزل . وروى أبو داود والترمذي والدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث يجتهدن

يَدَّ وَهَزَلْتُ يَدَ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثُ حَمْنٍ غَرِيبٌ ، وَالْمَعْمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ اخْتِصَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهِمْ .

قُلْتُ : كَذَا فِي الْحَدِيثِ "وَالرَّجْعَةُ" . وَفِي مَوْطَأِ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : ثَلَاثُ لِبَسٍ فَيَنْ لِبَسَ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْمَتَى . وَكَذَا رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي الْوَدَّاءِ ، كُلُّهُمْ قَالَ : ثَلَاثُ لَا لِبَسَ فَيَنْ وَاللَّاعِبِ فَيَنْ جَاءَ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْمَتَى . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عُمَرَ قَالَ : أَرْبَعُ جَائِزَاتٍ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ الْعَتَى وَالطَّلَاقِ وَالنِّكَاحِ وَالنِّذْرُ . وَعَنِ الضَّمَالِكِ قَالَ : ثَلَاثُ لَا لِبَسَ فَيَنْ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالنِّذْرُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَاقِفَةٍ مَنَكَرُ نَعْدَبِ طَاقِفَةٍ يَا أَيُّهَا كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) عَلَى جِهَةِ التَّوْبَةِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا تَفْعَلُوا مَا لَا يَنْفَعُ ، ثُمَّ حَكَّمَ عَلَيْهِمُ بِالْكَفْرِ وَعَدَمِ الْإِعْتَارِ مِنَ الذَّنْبِ . وَاعْتَذَرَ بِمَعْنَى أَعْذَرَهُ أَيْ صَارَ قَدْ عَفِرَ . قَالَ يُسَيْدٌ :

وَمَنْ يَكْ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ .^(١)

وَالْإِعْتِذَارُ مَعْوِثُ الْمُؤْمِنَةِ ، يَقَالُ : اعْتَذَرْتُ الْمَنَازِلَ دَرَبَتْ . وَالْإِعْتِذَارُ الدَّرُوسُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

أَمْ كُنْتُ تَعْرِفُ آيَاتِ فَقْدِ جَعَلْتُ • أَسْلَالُ إِلَيْكَ بِالْوَدَّ كَأَنَّمَنْذِرُ
وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : أَصْلُهُ الْقَطْعُ . وَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ قَطَعْتُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمُؤْمِنَةِ . وَمِنْهُ عُدَّةُ الْغَلَامِ وَهُوَ مَا يَقْطَعُ مِنْهُ عِنْدَ الْخِتَانِ . وَمِنْهُ عُدَّةُ الْجَارِيَةِ لِأَنَّهُ يَقْطَعُ خِتَامَ مُدْرَتِهَا .

(١) حَفَا بِجَزَيْتٍ ، وَصَدْرُهُ : • إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ مَلِكًا •

(٢) هَوَانِ أَخْرَاجُ الْعَمَلِ ، كَأَنَّ السَّلَامَ مَادَّةُ « طَرَفٍ » .

قوله تعالى : (إِنْ نَفَعْنَا غُلَامًا مِنْكُمْ مَتَابَعَةً بِاتِّمَامٍ كَانُوا مِنْكُمْ) قيل : كانوا ثلاثة نفر؛ هَرَبُ اثْنان وضمك واحد؛ فالمعروف عنه هو الذي ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة ، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنباري : يطلق لفظ الجمع على الواحد؛ كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفا ، والهاء للبالغة . واختلف في اسم هذا الرجل الذي عُفِيَ عنه على أقوال . فقيل : عُثَيِّ بْنِ حُمَيْرٍ ، قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : ويقال فيه ابن عُثَيٍّ . وقال خليفة ابن خياط في تاريخه : اسمه عُثَيْنُ بْنُ حُمَيْرٍ . وذكر ابن عبد البر عُثَيْنُ الْحَمِيرِيُّ . وذكر جميعهم أنه أَسْتَشِيدَ بِالْإِمَامَةِ ، وكان تاب وسمى عبد الرحمن ، فذبحا الله أن يقتل شيئا ولا يعلم بغيره ، واختلف هل كان منافقا أو مسلما . فقيل : كان منافقا ثم تاب توبة نصوحا . وقيل : كان مسلما ، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم .

قوله تعالى : **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ**) ابتداء . (**بَعْضُهُمْ**) ابتداء ثان . ويجوز أن يكون بدلا ، ويكون الخبر « من بعض » . ومعنى (**بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ**) أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين . وقال الزجاج : هذا متصل بقوله : « يحضنون بالله لانهم منكروا وما هم منك » أي ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض ، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . وقبض أيديهم عبارة عن [ترك] الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق . والنسيان : الترك هنا أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك . وقيل : أنهم تركوا أمره حتى صار كالمُنَافِقِ فصيهم بمنزلة المُنَافِقِ من نوابه . وقال قتادة : « نسيهم » أي من الخيرة ، فأما من الشر فلم ينسهم . والفسق : الخروج عن الطاعة والدين . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَذَابُهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ) يقال : وعد الله بالخير وعداً . وعد بالشر وعيذاً . (خَالِدِينَ) نصب على الحال والسامل محذوف ، أى يصلونها خالدين . (هِيَ حَسْبُهُمْ) ابتداء وخبر ، أى هى كفاية وواء لجزاء أعمالهم . واللين : البعد ، أى من رحمة الله ، وقد تقدم . (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) أى واصب دائم .

قوله تعالى : كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأُولَئِكَ اسْتَمْتَعُوا بِخُلْفِهِمْ فَأَسْمَتَعْتُمْ بِخُلْفِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلْفِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أى وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلهم . وقيل : المعنى فعلتم كإنسال الذين من قبلكم في الأمر بالمتكروا والتهى عن المعروف ، غفغ المضاف . وقيل : أى أتم كاذبين من قبلكم ، فالكاف في محل رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . ولم ينصرف « أشد » لأنه أعمل صفة . والأصل فيه أشد ، أى كانوا أشد منكم قوة فلم يتبأ لهم ولا أنكمهم رفع عذاب الله من وجب .

الثانية - روى سعيد عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم فزاعوا بذراع وشبرا وبأعاب بيع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل »

(١) راجع ٢٠ ص ٢٥ طبة ثانية .

يُخْرِصُ صَبَّ لَدِخْتُمُوهُ . قال أبو هريرة : وإن شئتُمْ فاقْرَءُوا الْقُرْآنَ : « كالذين من قبلكم كانوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتُوا بِخُلَافِهِمْ — قال أبو هريرة : وَالْخُلَاقِ الَّذِينَ — فَاسْتَمْتُمْ بِخُلَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلَافِهِمْ » حتى فرغ من الآية . قالوا : يا نبي الله ، فما صنعت اليهود والنصارى ؟ قال : « وما الناس إِلَّا هم » . وفي الصحيح عنه عن النبي صلى الله عليه و لم تَنْتَبِهَنَّ سَنَنْ مَنْ قَبْلَكُمْ شِعْراً بِشِيراً وَفِرَاعاً بِفِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا بَيْتَكَ لَدِخْتُمُوهُ » قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فَنُفُورٌ » وقال ابن عباس : ما أشبه الليلة ببارحة ، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم . ونحوه عن ابن مسعود .

الثالثة - قوله تعالى : (فَاسْتَمْتُوا بِخُلَافِهِمْ) أى انتقموا بنصبيهم من الذين كما يدل الذين من قبلكم . (وَخُرِجْتُمْ) خروج من النية إلى الخطاب . (كَالَّذِينَ خَافُوا) أى يخشونهم . فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، أى وخضتم خوفاً كالذين خافوا . و « الذى » اسم قص مشل من ، يبريه عن الواحد والجمع . وقد مضى في « البقرة » . ويقال : خَضْتُ لِمَاءٍ أَخْوَضَهُ خَوْضًا وَخِيَاضًا . والموضع خَاضَةٌ ، وهو ما جاز ليس فيها مشاة ورُكبان . ومعها الخَاضُ والخَاضُ أيضاً ، عن أبي زيد . وأخضت داجي في الماء . وأخاض القوم ، أى خاضت خيلهم . وخضت القمرات : اقتصمتها . ويقال : خاضه بالسيف ، أى حرك سيفه في المصروب . وخُوض في تجميعه شَدَدُ الْبَالغة . والمخوض للشراب كاللجج للسويق ، يقال منه : خَضْتُ الشَّرَابَ . وخاض القوم في الحديث ومخاضوا أى تفاوضوا فيه ، فالخى : خَضَمَ في أسباب الدنيا باللهو واللبس . وقيل : في أمر عجد بالكذب . (أُولَئِكَ حَبِطَتْ) بطلت . وقد تقدم ^(١٤) . (أَعْمَاهُمْ) حسنتهم . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وقد تقدم أيضاً ^(١٥) .

(١) راجع ج ١ ص ٣١٢ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) التبيع : الدم . وقيل دم الجوف خاصة .

(٣) المجدح : غشية في رأسها غشيتان مترتبان . (٤) راجع ج ٢ ص ٤٦ طبة أولى أو ثانية .

(٥) راجع ج ١ ص ٣٤٨ طبة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَهَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِيَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ) أى خبر (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) . والآلف لمعنى التفرير والتحذير، أى لم يسموا إهلاك الكفار من قبل . (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَهَمُودُ) بدل من الذين . (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ) أى عمود بن كتمان وقومه . (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ) اسم للبلد الذى كان فيه شبيب ، اهلكوا صواب يوم الظلة . (وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) قيل : يراد به قوم لوط ، لأن أرضهم اتفكت بهم ، أى انقلبت ، قاله قتادة . وقيل : المؤتفكات كل من اهلك ، كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا . (أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى جميع الأنبياء . وقيل : أت أصحاب المؤتفكات رسلهم ، فعلى هذا رسولهم لوط وخذه ، ولكنه بحث فى كل قرية رسولا ، وكانت ثلاث قريات ، وقيل أربع . وقوله تعالى فى موضع آخر : « وَالْمُؤْتَفِكَةُ ^(١) عَلَى طَرِيقِ الْجُلُسِ » . وقيل : أراد بالرسول الواحد ، كقوله « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ » ولم يكن فى عصره غيره . قلت — وهذا فيه نظر ، للحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنْ أَلْفَ سَاعِلٍ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ " الحديث . وقد تقدّم فى « البقرة » . والمراد جميع الرسل ، والله أعلم . (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِيَهُمْ) أى ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلُونَ) ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجّة عليهم .

قوله تعالى : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾

(١) فى آية ٥٢ سورة النجم . (٢) آية ٥١ سورة المؤمنون .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) أى قلوبهم متحدة فى التوافق والتحاب والتعاطف . وقال فى المنافقين « بعضهم من بعض » لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانية - قوله تعالى : (**يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**) أى بعبادة الله تعالى وتوحيده ، وكل ما أتبع ذلك . (**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**) عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبرى عن أبى العالية أنه قال : كل ما ذكر فى القرآن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة المائدة وآل عمران ، والمحمد لله .

الثالثة - قوله تعالى : (**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**) تقدم فى أول « البقرة » القول فيه . (٣) وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس ، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة . ابن عطية : والمدح عندى بالنوافل أبلغ ، إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرائض .

الرابعة - قوله تعالى : (**وَيُطِيعُونَ اللَّهَ**) فى الفرائض (**وَرَسُولَهُ**) فباشروا لهم . والسين فى قوله « سيرهم الله » مَدْخَلَةٌ فى الوعد مهلة لتكون النفوس تقدم برضاة ، وفضله تعالى زهم بالإتيان .

قوله تعالى : **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٣٦﴾

(١) راجع ج ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها .

(٢) راجع ج ٩ ص ٤٧ طبعة دار أوقاف .

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبعة دار أوقاف .

قوله تعالى : (وَعدَّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ) أى بساكنين (تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) من تحت أشجارها وغرفها الأنهار . وقد تضمنت في « البقرة » أنها تجري منضبطة بالقدرة في غير أخذود . (خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنٌ طَيِّبَةٌ) قصور من الزرجد والرز والياقوت ينوح عليها من مسيرة خمسمائة عام . (فِي جَنَّاتٍ مَعْدِنٍ) أى في دار إقامة . يقال : معدن : المكان إذا أقام به ؛ ومنه المعدن . وقال عطاء الخراساني : « جنات عدن » هي قصبة الجنة ، وسقفها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هي بطنان الجنة ، أى وسطها . وقال الحسن : هي قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حاكم عدل ؛ ونحوه عن الضحاك . وقال مقاتل والكلبي : عدن أعلى درجة في الجنة ، وفيها عين التسليم ، والجنان حولها محفوفة بها ، وهي مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . (وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ الْكَبِيرِ) أى أكبر من ذلك . (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢٧﴾
فيه ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفار . وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزبر والتنليظ . وروى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيسدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فأكفهم في وجوههم . وقال الحسين : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان - واختاره قتادة - وكانوا أكثر من يصيب للحدود . ابن العربي : « إما إقامة الحجمة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابتها الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ،

وليس العاصي يمتنع، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كائناً، لا بما تنبسط به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحدثين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانية - قوله تعالى : (وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمُ) العِلْظُ : تقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه . وليس ذلك في اللسان، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِنَّا زُنْتُ أُمَّةً أَحَدُكُمْ فَلْيَجْلِبْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثْرِبْ عَلَيْهَا» . ومنه قوله تعالى : « وَأَوْكُنْتُ فَطْلًا عَظِظَ قَلْبِي لَا تَقْضُوا مِنِّي حَوْلًا » . ومنه قول النسوة لعمر : أنت أظف وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعنى العِلْظُ خشونة الجانب . فهي ضد قوله تعالى : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . « وَأَخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » . وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح .

قوله تسأل : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعْلَمِ اللَّهُ عَبْدًا بِإِيمَانٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا هُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَاكِفٍ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٦٧﴾

(٦٧) أي لا يبرحها ولا يفرحها بالقرآن بعد الضرب . وقيل : أراد لا يفتح في عقوبتها بالتعريب ، بل يضربها الله فأذن للإمام أن يكن مع العرب مكروها ولا منكراً ، فأمرهم بعد الإيماء كما أمرهم بعد الحرائر . (نهاية ابن الأثير) . (٢) آية ٩ سورة آل عمران . (٣) دوى البخاري وسئل هذا الحديث في «باب مناقب عمر رضي الله عنه» قال : «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قریش يكلمه ويستكثره حالة أوصائهن على صوته» فلما استأذن عمر بن قنادون الجلب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك . قال عمر : أضحك الله منك يا رسول الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : «نجيت من هؤلاء إلا أن كن عتياً فلما سميت صوتك ابتدون الجلب» . قال عمر : أنت أحق أن يبرأ رسول الله . ثم قال عمر : يا عدوات أقسمن ، أتجنبن ولا تبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلن : نعم ! أنت أظف وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لها بآين الخطاب والله قسى يده ما لفك الشيطان سالكا بئاً إلا سلك بلا غيرك» . (٤) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (٥) آية ٢٤ سورة الاسراء .

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ إِلَهَهُ مَا قَالُوا ﴾ رُوى أن هذه الآية نزلت في الجلاس ابن سويد بن الصامت ، ووديع بن ثابت ، وقنوا في النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحير . فقال له عامر ابن قيس : أجل ! والله إن هذا لصديق مصدق ، وإنك لشر من حمار . وأخبر عامر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم . وجاء الجلاس خلف بالله عند نبي النبي صلى الله عليه وسلم إن عامراً لكاذب . وحلف عامر لنفسه قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً ، فزلت . وقيل : إن الذي سمعه عامر بن عدي . وقيل حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته واسمه حمير بن سعد ، فإنا قال ابن عباس . وقال غيره : اسمه مصعب . فمهم الجلاس . فقله لئلا يخرج بحجبه ، ففيه نزل : « وَهُمْ أَيْمَاءٌ لَمْ يَنْتَلُوا » . قال مجاهد : وكان الجلاس لما قال له صاحبه إني سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك هم بقله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك ، قال : ذلك هي الإشارة بقوله : « وَهُمْ أَيْمَاءٌ لَمْ يَنْتَلُوا » . وقيل : إنها نزلت في عبد الله بن أبي ، رأى رجلاً من غفار يتقاتل مع رجل من جبهة ، وكانت جبهة حلفاء الأنصار ، فعلا النصارى الجهنمي . فقال ابن أبي : يا بني الأوس والخزرج ، انصروا أحاً ! فوافاه ما مثلاً ومثل محمد إلا كما قال القائل : « سَتَنَ كَلْبُكَ بِأَكْلِكَ » ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبغاه عبد الله بن أبي خلف أنه لم يقله ، قاله فتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ، قاله الحسن . ابن العري : وهو الصحيح ، لعدم القول بوجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبي .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح . وقيل : « كلمة الكفر » قول الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن أشر من الحير . وقول عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال القشيري : كلمة الكفر سب النبي صلى الله عليه وسلم والطمع في الإسلام . ﴿ وَكَفَرُوا ﴾

بَدَّ إِسْلَامِهِمْ ؟ أَى بَعْدَ الْحُكْمِ بِإِسْلَامِهِمْ . نَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كُفَرَاءُ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا » دَلِيلٌ قَاطِعٌ .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ يَكُونُ بِكُلِّ مَا يَنَافِضُ التَّصَدِيقَ وَالْمَعْرِفَةَ ؛ وَإِنْ كَانَ الْإِيمَانُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَّا اللَّهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ إِلَّا فِي الصَّلَاةِ . قَالَ ابْنُ حَقَّاقٍ وَأَهْلُوهُ : وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَجْمَعُوا عَلَيْهِ فِي بَاقِي الشَّرَائِعِ ؛ لِأَنَّهُمْ بِاجْمَعِهِمْ قَالُوا : مَنْ عُرِفَ بِالْكَفَرِ ثُمَّ رَأَوْهُ يَصِلُ الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا حَتَّى صَلَّى صَلَوَاتٍ كَثِيرَةً ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مِنْهُ إِقْرَارًا بِاللِّسَانِ أَنَّهُ يَحْكُمُ لَهُ بِالْإِيمَانِ ، وَلَمْ يَحْكُمُوا لَهُ فِي الصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

الثالثة - قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَهُمْ أَيْمَانًا لَمْ يَتَّأَلَوْا) يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا . قَالَ حَذِيفَةُ : سَمَّاهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عَدِمَهُمْ كُلَّهُمْ . قُلْتُ : أَلَا تَبْعُثُ إِلَيْهِمْ نَفْسَهُمْ ؟ فَقَالَ : " أَكْرَهَ أَنْ أَقُولَ الْعَرَبُ لِمَا ظَفِيرَ بِأَحْبَابِهِ أَقْبَلَ يَقْتُلُهُمْ بَلْ يَكْفِيهِمْ اللَّهُ بِالْذُّبِيسَةِ " . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الدُّبَيْسَةُ ؟ قَالَ : " شَهَابٌ مِنْ جَهَنَّمَ يَجْعَلُهُ عَلَى نِيَابِطِ فُرَادٍ أَحَدُهُمْ حَتَّى تَزْعُقَ نَفْسُهُ " . فَكَانَ كَذَلِكَ . خَرَجَهُ مُسْلِمٌ بِعَمَاءِهِ . وَقِيلَ هُمَا بِقَعْدِ النَّاجِ عَلَى رَأْسِ ابْنِ أَبِي لَيْجَمِ عَلَيْهِ . وَقَدْ قَدَّمَ قَوْلَ عَجَاهِدٍ فِي هَذَا .

الرابعة - قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) أَى لَيْسَ يَنْفَعُونِ شَيْئًا ؛ كَمَا قَالَ الثَّانِفَةُ :

وَلَا قَيْبَ فِيهِمْ فَيَرِ أَنْ سَيُوفُهُمْ • بَهْسَنَ ثُلُوفٍ مِنْ فِرَاعِ الْكَتَابِ
وَيَقَالُ تَقَمَّ يَنْفَعُ ، وَتَقَمَّ يَنْفَعُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
مَا قَعَمُوا مِنْ بَنَى آيَةٍ إِلَّا هُ • أَنَّهُمْ يَحْمَلُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَقَالَ زُهَيْرٌ :

يُؤْتَرَفِيوْضِعَ فِي كِتَابٍ يُدْخَرُ • لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُسَجَّلَ فِيهِمْ

بشد بكسر القاف وفتحها . قال الشعبي : كانوا يطلبون دية فيفرض لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوا . ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً . ويقال : إن القتل كان موقى الجلاس . وقال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم في ضحك من العيش ، لا يكون الخيل ولا يجوزون الفتيحة ؛ فلما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالفتنم . وهذا المثل مشهور (أتى شر من أحسن إليه) . قال القشيري أبو نصر : قيل للبيهي أتجد في كتاب الله تعالى اتى شر من أحسن إليه ؟ قال نعم ، « وما قموا إلا أن اغنام الله ورسوله من فضله » .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَتُوبَا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ روى أن الجلاس قام حين نزلت الآية فاستغفر وتاب ، فدل هذا على توبة الكافر الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان ، وهو الذي يسميه الفقهاء الزنديق . وقد اختلف في ذلك العلماء ؛ فقال الشافعي : تقبل توبته . وقال مالك : توبة الزنديق لا تعرف ؛ لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر ، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله . وكذلك يفعل الآن في كل حين ، يقول : أنا مؤمن وهو يضر خلاف ما يظهر ؛ فإذا عثر عليه وقال : تبت ، لم يتغير حاله عما كان عليه . فإذا جاءنا ثاباً من قبل نفسه قيل أن يسر عليه قبلت توبته ؛ وهو المراد بالآية . والفتنم علم . السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتُوبَا ﴾ أى يرضوا عن الإيمان والتوبة (يرضيهم الله عذاباً ألياً) في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار . (وما لهم في الأرض من ولي) أى مانع يمنعهم (ولا نصير) أى معين . وقد تحققت .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ أَسْنَدًا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٦٩﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ﴾ قال قتادة : هو رجل من الأنصار قال : لئن رزقني الله شيئا لأؤذين فيه حقه ولأتصدقن؛ فلما آتاه الله ذلك فعل ما نص عليك، فاحذروا الكذب فإنه يؤدى الى الفجور . وروى علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى (قتيبه) قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أدع الله أن يرزقني مالا . فقال عليه السلام : " وَيَحْكُ يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تَوَدَّى شُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطْلُقُهُ " . ثم عاد ثانيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَحْيِ اللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعَ الْجِبَالِ ذَهَابًا لَسَارَتْ " . فقال : والذي يهلك بك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتخذ غنما فنمت كما تنمي الدود ، فضاعت عليه المدينة فتنتحى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى يصل الظهور والمصر في جماعة ، وترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنبئ حتى ترك الجمعة أيضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةُ ثَلَاثًا . ثم نزل « خُدَّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . فبعت صلى الله عليه وسلم رجلين عل الصدقة ، وقال لما : " مُرَّأً شَعْلَبَةُ وَبُغْلَانٌ - رجل من بني سليم - نخذا صدقاتهما " . فأتيا ثعلبة وأقرآه بحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا ، الحديث ، وهو مشهور . وقيل : سبب غناء ثعلبة أنه وريث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيل إن ثعلبة بن حاطب هو الذي نزل فيه « ومنهم من عاهد الله » الآية ، إذ منع الزكاة ، فافقه أعلم . وما جاء فيمن شاهد بدرا يعارضه قوله تعالى في الآية « فَاعْقِبْهُمْ يَتَأَقَّ فِي قُلُوبِهِمْ » الآية .

قلت : وذكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية أن حاطب بن أبي بلتعة أبطأ عنه ماله بالشام ، خلف في مجلس من مجالس الأنصار : إن سلم ذلك لأتصدقن منه ولأصلن منه . فلما سلم يميل بذلك غزلت .

قلت : وثعلبة يَدْرِي أنصارى ومن شهد الله ورسوله بالإيمان؛ حسب ما أتى بيانه في أول المنجزة؛ لما روى عنه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجل من المنافقين يَتَّبِلُ بن الحارث وجرَّ بن قيس ومُصَنَّب بن قشير .

قلت : وهذا أشبه بقول الآية فهم ؛ إلا أن قوله « فاعقبهم ثقافا » يدل على أن الذي عاهد لم يكن منافقا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم ثقافا فثبوا عليه إلى المبات ، وهو قوله : « إلى يوم يلقونه » على ما أتى .

الثانية - قال علماءنا : لما قال تعالى « ومنهم من عاهد الله » احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يتقده بقلبه . واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سره الخائفة ؛ فإن الأعمال بخبرائنها والأيام بواقبها . و « من » رفع بالابتداء والخبر في المجرور . ولفظ اليقين ورد في الحديث وليس في ظاهر القرآن بين إلا يفرد الارتباط والالتزام ، أما أنه في صيغة القسم في المعنى فإن اللام تدل عليه ، وقد أتى بلامين الأول للقسم والثانية لام الجواب ، وكلاهما للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ، والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثة - العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المسرة ولا يقتصر إلى غيره فيه فإنه يلزم منه ما يتقده بقصده وإن لم يلفظ به ؛ قاله علماءنا . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لما لنا . ابن العربي : والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أنسب عن مالك ، وقد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه ؛ كما يكون مؤثما بقلبه ، وكافرا بقلبه . قال ابن العربي : وهذا أصل بدعي ، وتحريمه أن يقال : عقد لا يقتصر فيه الملة إلى غيره في التزامه فاعتقد عليه بنية . أصله الإيمان والكفر .

(١) لاحظ أن الذي سيذكره المؤلف في أول سورة النجدة إذا هو حاطب بن أبي بنه ، لا ثعلبة بن حاطب .

قلت : وحجة القول الثاني ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو يتكلم به". ورواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن أعقد بقلبه الطلاق لم ينطق به لسانه فليس بشيء . هذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه ، كما يكفر بقلبه وإن لم ينطق به لسانه . والأوّل أصح في النظر وطريق الأثر ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تجاوز الله لأمتي عما وسوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو تعمه يده " .

الرابعة - إن كان نفرا فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية . وإن كانت ميتا فليس الوفاء باليمين واجبا باتفاق . بيد أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يمين عليه فرض الزكاة ؛ فقال الله مالا يلزمه فيه الزكاة ويؤدى ما تعين عليه من فرضه ، فلما آتاه الله ما شاء من ذلك ترك ما التزم مما كان يلزمه في أصل الدين لو لم يلزمه ، لكن التعاطي يطلب المال لأداء الحقوق هو الذى أوردناه إذ كان عليه من الله تعالى بنير نية خالصة ، أونية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . فعوذ بالله من ذلك .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : " إذا تمسّى أحدكم فليظفر ما يمتحن فإنه لا بدرى ما كتب له في غيب الله عز وجل من أميته " . أى من عاقبتها ، فربّ أمية يفتن بها أو يطفى فتكون سببا للهلاك دنيا وأخرى ، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطيرة غائبتها . وأما تمى أمور الدين والأخرى فتتميتها مجرد العاقبة محضوض عليها مندوب إليها .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَتَصَّدَّقَنَّ ﴾ دليل على أن من قال : إن صدقت كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : لا يلزمه . والخلاف في الطلاق مشله ، وكذلك في العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك في العتق . ولا يلزمه في الطلاق ؛ لأن العتق قرينة وهي تنبت في القصة بالنذر ؛ بخلاف الطلاق فإنه

تَصَرَّفَ في محل، وهو لا يثبت في الذمة . احتج الشافعي بما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نَدْرُ لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك " لفظ الترمذي . وقال : وفي الباب عن عليٍّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشة حديثُ عبد الله بن عمرو حديثُ حسن، وهو أحسن شيء رُوي في هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم . ابن العربي : وسرد أصحاب الشافعي في هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصح منها شيء فلا يَتَوَلَّ عليها ، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي أعطاهم . ﴿ يَخْتَالُوا بِهِ ﴾ أي بإعطاء الصدقة وإيقاق المال في الخير، وبالوفاء بما حُتِمُوا والترمو . وقد مضى البخل في « آل عمران » . ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أي عن طاعة الله . ﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الإسلام، أي مظهرون للإعراض عنه .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقِبْهُمْ غَنَاقًا ﴾ مفعولان ؛ أي أعقبهم الله تعالى غناقا في قلوبهم . وقيل : أي أعقبهم البخل غناقا ؛ ولهذا قال : « بخلوا به » . ﴿ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ ﴾ في وضع خفض ؛ أي يلقون بخلهم ، أي جزاء بخلهم ؛ كما يقال : أنت تلقى غداً علك . وقيل : « إلى يوم يلقونه » أي يلقون الله . وفي هذا دليل على أنه مات منافقا . وهو يبعد أن يكون المنزل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر : " وما يدريك لعل الله أطلع كل أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " . وثعلبة وحاطب عن حضرة بدرًا وشهدا . ﴿ وَمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَمِمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ نِفَاقًا ﴾ النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر . فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أربع من كن فيه كان منافقا خالبا

ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من التفاق حتى يدعىها : إذا اتهم خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر . نخرجه البخارى . وقد مضى في «البقرة» اشتقاق هذه الكلمة ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس في تأويل هذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدث بحديث يعلم أنه كذب ، ويمهد عهدا لا يتصدق الوفاء به ، وينتظر الأمانة للهيانة فيها . وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن علي بن أبي طالب رضى الله عنه لقي أبا بكر وعمر رضى الله عنهما خارجين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال علي : ما لي أراكما ثقيلين ؟ قالوا : حديثنا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين . إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا اتهم خان وإذا وعد أخلف . فقال علي : إنكلا سألتهما ؟ فقالا : هيتا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكنني سأسأله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، نخرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ما قلناه ، فقال : « قد حدثتما ولم أحكما على الوضع الذى وضعا ولكن المنافق إذا حدث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف وإذا اتهم وهو يحدث نفسه أنه يثبون » . آبن العربى : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه التخصيص لا يكون كافرا ، وإنما يكون كافرا باعتماد يهود إلى الجهول بالله وصفاته أو التكذيب له . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعلقوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس قالوا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه فقلنا : يا رسول الله ، إنك قلت « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتهم خان ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث التفاق » فقلنا أنا لم نسلم منهن أو من بعضهن ولم يسلم منهن كثير من الناس ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما لكم ولعن إنا خصصت بين المنافقين كما خصصهم الله في آية أما قولى إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل « إذا جاءك المنافقون » - الآية - أفأتم

كذلك؟ قلنا لا . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برء ، وأما قولي إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله على " ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله « — الآيات الثلاث — " أفأنتم كذلك ؟ " قلنا لا ، والله لو عاهدنا الله على شيء أفينا به . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برء ، وأما قولي وإذا أنتم خان فذلك فيما أنزل الله على " « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » — الآية — فكل إنسان مؤتمن على دينه فالمؤمن ينتقل من الجنة إلى السر والعلانية [والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية] أفأنتم كذلك ؟ قلنا لا . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برء " . وإلى هذا صار كثير من التاجين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلل الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربي : والذي عندي أنه لو غلبت عليه المعاصي ما كان بها كافرا مالم تؤثر في الاعتقاد . قال علماءنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهدوا أباهم فأخفوه ، وحدثوه فكذبوه ، وانتمهم على يوسف نفاقوه وما كانوا منافقين . قال عطاء بن أبي رباح : قد فعل هذه الخلل إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : الشقاق خافان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ، فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة . وروى البخاري عن حذيفة أن الشقاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخ ، وإن كان عالما فإنه سيجازيهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخَسِرُ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْزُجُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ هذا أيضا من صفات المنافقين . قال قتادة : « يمزجون » يسيون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصدق بنصف ماله ، وكان ماله ثمانية آلاف فتصدق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ؟ فانزل الله ﴿الَّذِينَ يَمْزُجُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ . وجاء رجل من الأنصار بنصف صبرة من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ؟ فانزل الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ . وخرج مسلم عن أبي مسعود قال : أمرنا بالصدقة — قال : كما نحمل ، في رواية : على ظهورنا — قال : فتصدق أبو عقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إن الله لنفي عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الاخر إلا رياء ؟ فزلت « الَّذِينَ يَمْزُجُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحجاب . والجُهد : شيء قليل يعيش به القليل . والجُهد والجُهد بمعنى واحد . وقد تقدم . و « يمزجون » يسيون . وقد تقدم . و « المطَّوِّعِينَ » أصله المتطوعين أدمجت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرعا من غير أن يجب عليهم . والذين « في موضع خفض عطف على « المؤمنين » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه . و « فيستخرون » عطف على « يمزجون » . ﴿يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أي يتخير منهم حيث صاروا إلى النار . ومعنى يتغافر الله مجازاتهم على سيئتهم . وقد تقدم في « البقرة » .

قوله تعالى : أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

(١) الصبرة (الضم) : ما جمع من الطعام بلا كل ولا وزن بضه فوق بض . (٢) مائة : تحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة وتصدق من تلك الأجرة أو تصدق بها كلها . (٣) راجع ج ٧ ص ٦٢ طبعة أدل أو ثانية . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٩ طبعة أدل أو ثانية .

قوله تعالى : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) يأتي بيانه عند قوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا » .

قوله تعالى : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلِيفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ) أى بقعودهم . قعد قعودا ومقعدا ؛ أى جلس . وأفسده غيره ؛ عن الجوهرى . والمخلف المترك ؛ أى خلقهم الله ويخطبهم ، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لما علموا تناقلهم عن الجهاد ؛ قولان . وكان هذا فى غزوة تبوك . (خَلِيفَ رَسُولِ اللَّهِ) مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدرا . والخلاف الخالفة . ومن قرأ « خلف رسول الله » أراد التأخر عن الجهاد . (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) أى قال بعضهم لبعض ذلك . (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ) أى قل لهم يا محمد نار جهنم . (أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) ابتداء وخبر . « حرا » نصب على البيان ؛ أى من ترك أمر الله تعرض لتلك النار .

قوله تعالى : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾

فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا) أمر ، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أنت تكون اللام مكسورة لحذف الكسرة لتقلها . قال الحسن : « فليضحكوا قليلا » فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » فى جهنم . وقيل : هو أمر بمعنى الخبر . إنهم مريضون قليلا وسيكون كثيرا . (جَزَاءً) مفعول من أجله ؛ أى مجزاء .

الثانية - من الناس من كان لا يضحك احتياماً بنفسه وفساد حاله في اعتقاده من شدة الخوف، وإن كان عبداً صالحاً . قال صلى الله عليه وسلم : " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ونظرتم إلى الصُّدُاتِ^(١) تجارون إلى الله تعالى لو ددت أني كنت شجرة تُعْضِدُ " ترجمه الترمذی . وكان الحسن البصري رضي الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول : الله أضحك وأبكى . وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يطلب على صاحبه مذموم منهي عنه ، وهو من فعل السفهاء والبطالة . وفي الخبر : " أن كثرت تيمت القلب " . وأما البكاء من خوف الله وعقابه فمحمود ؛ قال عليه السلام : " ابكوا فإن لم تبكوا فباكوا فإن أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل السماء فتقرح العيون فلو أن سَفْتاً أبحرت فيها بلحرت " . ترجمه ابن المبارك من حديث أنس ، وابن ماجه أيضا .

قوله تعالى : فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِلِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) أى المناقضين . وإنما قال : « إلى طائفة » لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان فيهم معذرون ومن لا صدر له ، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خَلُّوا . وسيأتي . (فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) أى عاقبتهم ألا تصحبهم أبداً . وهو كما قال في سورة الفتح : « قُلْ لَنْ يُبْعِثُوا^(٢) » . و (الْخَائِلِينَ) جمع خالف ؛ كأنهم خَلُّوا الخارجين . قال ابن عباس :

(١) الصدات : هى الطرق ، وهى جمع صمد . وصمد جمع صيد ؛ كطريق وطرق وطراقت . وقيل : هى جمع صعدة كتفلة ، وهى فتاة . باب الله أرز الناس بين يديه . (٢) قال التبريدى : ويرى من غير هذا الوجه أن أباً ذوال لوددت أني كنت شجرة تعضد . (٣) آة ١٥

« الخالفين » من تخلف من المنافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال ، فقلب المذكر . وقيل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين ؛ من قولهم فلان خالفه أهل بيته اذا كان فاسدا فيهم ؛ من خلوف فيم الصائم . ومن قولك : خلف اللبن ؛ أى فسد بطول المكث في السقاء ؛ فعل هذا يعنى فاقعدوا مع الفاسدين . وهذا يدل على أن استصحاب المخنث فعلا نزوات لا يجوز .

قوله تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ
إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — روى أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سؤل وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما . وتظاهرت الروايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليه ، وأن الآية نزلت بعد ذلك . وروى عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبريل بحقيد ثوبه وتلا عليه « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا » الآية ؛ فأتصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلي عليه . والروايات الثابتة على خلاف هذا ؛ ففي البخاري عن ابن عباس قال : فصلي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من برائة فـ « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا » . ونحوه عن ابن عمر ؛ نحرجه مسلم . قال ابن عمر : لما توفي عبد الله بن أبي بن سؤل جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاله أن يعطيه قميصه يكنى فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه ، فقام عمر وأخذ بشوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا خَيْرِي الله تعالى فقال : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ » قال : إنه

مناقب . فعلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره» فترك الصلاة عليهم . وقال بعض العلماء : إنما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي بنائه على الظاهر من لفظ إسلامه . ثم لم يكن يفعل ذلك لما نهي عنه .

الثانية - إن قال قائل فكيف قال عمر : أنصلي عليه وقد نهاك الله أن تصل عليه ؟ ولم يكن تقدم نهي عن الصلاة عليهم . قيل له : يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره ، ويكون من قبيل الإلهام والتحدث الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان القرآن ينزل على مراده ، كما قال : «واقفت ربِّي في ثلاث . وجاء : في أربع . وقد تقدم في البقرة . فيكون هذا من ذلك . ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله تعالى : «استغفر لهم أولا تستغفر لهم» الآية . لا أنه كان تقدم نهي على ما دل عليه حديث البخاري ومسلم . والله أعلم . قلت : ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى : «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» لأنها تزلت بمكة . وسيأتي القول فيها .

الثالثة - قوله تعالى : «استغفر لهم» الآية . بين تعالى أنه وإن استغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الاستغفار . قال القسيري : ولم يثبت ما يروى أنه قال : «لا يزيد على السبعين» .

قلت : وهذا خلاف ما ثبت في حديث ابن عمر «وسأزيد على سبعين» وفي حديث ابن عباس «لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها» . قال : فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . نخرجه البخاري .

الرابعة - واختلف العلماء في تأويل قوله : «استغفر لهم» هل هو إياس أو تخيير ؟ فقالت طائفة : المقصود به الإياس بدليل قوله تعالى : «فلن يغفر الله لهم» . وذكر السبعين وفاق جرى ، أو هو عادتهم في العبارة عن الكثرة والإعياء . فإذا قال قائلهم : لا أكلمه

سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكله أبدا . ومثله في الإعياء قوله تعالى : وفي سبيل الله
 ذَرُّعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وقوله عليه السلام : ” من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه
 عن النار سبعين خريفاً “ . وقالت طائفة : هو تخيير — منهم الحسن وتصادة وعروة —
 إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر . ولهذا لما أراد أن يصل على ابن أبي قحافة قال عمر :
 لا تصل على جدِّ الله . القائل يوم كنا كذا وكذا . فقال : ” إني خِيتُ فاخترت “ . قالوا :
 ثم نسخ هذا لما نزل هـ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ هـ . ذلك بأنهم كفروا ،
 أي لا يغفر الله لهم بكفرهم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾
 الآية . وهذه الآية نزلت بمكة عند موت أبي طالب ، على ما يأتي بيانه . وهذا فهم منه
 النبي عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو مقدم على هذه الآية أتى فهم منها التخيير بقوله :
 ” إنا خيرنا الله “ وهذا مشكل . فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا
 مرجو الإجابة حتى تحصل له المغفرة . وفي هذا الاستغفار استاذن عليه السلام ربه في أن يأذن
 له فيه لأتمه فلم يأذن له فيه . وأما الاستغفار للنافقين الذي خُير فيه فهو استغفار لسايق
 لا ينفع ، وغايته تطيب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له . والله أعلم .

السادسة — وأختلف في إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم قبضه لعبد الله ؛ للحليل ؛
 إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قبضه يوم بدر .
 وذلك أن العباس لما أسير يوم بدر — على ما تقدم — وسلب ثوبه رآه النبي صلى الله عليه
 وسلم كذلك فاشتق عليه . فطلب له فبيضا فبأُجِد له قبض فبأدره إلا قبض عبد الله .
 لتقاربهما في طول القامة ؛ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء التميمي أن يرفع اليد عنه
 في الدنيا ، حتى لا يلقاه في الآخرة وله عليه يد بكافته بها . وقيل : إنما أعطاه التميمي
 إكراما لأبنته وإسماعيليا له في طلبته وتطيينا لقلبه . والأوّل أصح ؛ نخرجه البخاري عن جابر

ابن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أبي قحافة عليه ، فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه ، فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن قميصي لا يفتني عنه من الله شيئا وإنى لأرجو أن يسلم بفعل هذا ألف رجل من قومي » . وكذا في بعض الروايات « من قومي » يريد من متافئ العرب . والصحيح أنه قال : « رجال من قومه » . ووقع في مغازي ابن إسحاق وفي بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه القعدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخوارج .

السابعة - لما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ قال علماءنا : هذا نص في الامتناع من الصلاة على الكفار ، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه طل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّمَا كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ؛ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . ويكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّمَا عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمُئِذٍ نَّحْوُيونَ » ^(١) يعني الكفار ؛ فدل على أن غير الكفار يرونهم المؤمنون ؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية ، وهي الأحاديث الواردة في السبب ، والإجماع . ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا أَخَا لَكُمْ قَدْ مَاتَ فَقُومُوا فَمُصُّوا عَلَيْهِ » قال : فقمنا فمصنا صفيين ؛ يعني النجاشي . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلّى وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنازة المسلمين ، من أهل الجائز كانوا أو صالحين ؛ ورأى عن نعيم صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً . والمحدثه . واتفق العلماء على ذلك إلا في الشهيد كما تقدم ، وإلا في أهل البدع والبيئات .

الثامنة - والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثاً فزادوا واحدة . وقالت طائفة : يكبر نحسا ، وروى عن ابن مسعود وزيد بن أرقم . وعن علي : ست تكبيرات ، وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمؤول عليه أربع . روى الدارقطني عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلت على آدم فكبرت عليه أربعاً وقالوا هذه ستكم يا بني آدم " .

التاسعة - ولا قراءة في هذه الصلاة في المشهور من مذهب مالك ، وكذلك أبو حنيفة والثوري ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا صليت على الميت فأخلصوا له الدعاء " رواه أبو داود من حديث أبي هريرة ، وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقرأ بالفاتحة ؛ لقوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " حملا على عمومها . وبما خروجه البخاري عن ابن عباس وصلى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : لتعلموا أنها سنة . وخرج الشافعي من حديث أبي أمامة قال : السنة في الصلاة على الجنازة أن يقرأ في التسمية الأولى بأم القرآن مخافة ، ثم يكبر ثلاثاً ، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد بن نصر المروزي عن أبي أمامة أيضاً قال : السنة في الصلاة على الجنازة أن تكبر ، ثم تقرأ بأم القرآن ، ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص الدعاء لبي . ولا يقرأ إلا في التسمية الأولى ثم يسلم . قال شيخنا أبو العباس : وهذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند . والمدل على حديث أبي أمامة أولى ؛ إذ فيه جمع بين قوله عليه السلام : " لا صلاة " وبين إخلاص الدعاء لبي . وقراءة الفاتحة فيها إنما هي استفتاح للدعاء ، والله أعلم .

العاشرة - وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة ؛ لما رواه أبو داود عن أنس وصلى على جنازة فقال له الصلاة بن زياد : يا أبا حمزة ، هكنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل على الجنازة كصلاتك ، يكبر أربعاً ويقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة ؟ قال نعم . ورواه مسلم عن سمية بن جندب قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصل على أم كعب ماتت وهي نساء ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليها وسطها .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالثبوت ، على ما بناه (في التذكرة) والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
كرره تأكيداً . وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَقْدَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٥٦﴾

انتدب المؤمنون إلى الإجابة وتعلل المنافقون . فالأمر للمؤمنين باستدانة الإيمان وللناقدين باستدانة الإيمان . و (أن) في موضع نصب ، أي بأن آمنوا . و (الطول) الغنى ، وقد تقدم .
وخصمهم بالذكر لأن من لا طول له لا يحتاج إلى إذن لأنه مسنود . ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أي العاجزين عن الخروج .

قوله تعالى : رَضُّوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُلَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْغَيْرَتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَضُّوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ الخوالف ، جمع خالفة ، أي النساء والصبيان وأصحاب الأعداء من الرجال . يترجمه يقال للرجل : خالفة وخالف أيضاً إذا كان غير نجيب . على ما تقدم . يقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :

وأصله من خَلَفَ اللَّيْنُ يُخَلَفُ إِذَا حُضَّ مِنْ طَوْلٍ مَكْنَه . وَخَلَفَ فَمُ الصَّامِ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ ؛ وَمِنْهُ فَلَانَ خَلَفَ سَوْءُ ؛ إِلَّا أَنْ فَوَاعِلَ جَمْعُ فَاعِلَةٍ . وَلَا يَجْمَعُ « فاعل » صِفَةً عَلَى فَوَاعِلَ إِلَّا فِي الشَّعْرِ ؛ إِلَّا فِي حَرْفَيْنِ ، وَهُمَا فَارِسٌ وَهَالِكٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُجَاهِدِينَ : ﴿ وَأُولَئِكَ كُنتُمْ خَيْرَ الْخَيْرَاتِ ﴾ قِيلَ : النِّسَاءُ الْحَسَنَاتُ ؛ عَنْ الْحَسَنِ . دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « فِيمَنْ خَيْرَاتُ حَسَنَاتٌ » . وَيُقَالُ : هِيَ خَيْرَةُ النِّسَاءِ . وَالْأَصْلُ خَيْرَةٌ تَخْفَفُ ؛ مِثْلُ هَيْبَةٍ وَهَيْبَةٍ . وَقِيلَ جَمْعُ خَيْرٍ . فَالْمَعْنَى لَمْ يَنْتَفِعِ الدَّارِينَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْفَلَاحِ . وَالْجَنَاتُ : الْبُسَاتِينُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَيْضًا .

قوله تعالى : وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قَرَأَ الْأَعْرَابُ وَالضُّحَاكُ « الْمُعَذِّرُونَ » خَفِيفًا . وَرَوَاهُ أَبُو كَرْبٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ ، وَرَوَاهُ أَصْحَابُ الْقُرْآنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ » مُخَفَّفَةً ، مِنْ أَعْدَرَ . وَيَقُولُ : وَاقِعَهُ لَمْ كُنَّا أَنْزَلَتْ . قَالَ النَّحَّاسُ : إِلَّا أَنْ مَدَّاهَا عَلَى الْكُتُبِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْدَرَ ؛ وَمِنْهُ قَدْ أَعْدَرَ مِنْ أَنْذَرَ ؛ أَيْ قَدْ بَالِغٌ فِي الْعَذْرِ مِنْ تَقَدُّمِ إِلَيْكَ فَانْزَعَكَ . وَأَمَّا « الْمُعَذِّرُونَ » بِالشَّدِيدِ فَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَكُونُ الْحَقُّ ؛ فَهُوَ فِي الْمَعْنَى الْمُعْتَذِرُ . لِأَنَّهُ لَهُ عَذْرًا ، فَيَكُونُ « الْمُعَذِّرُونَ » عَلَى هَذِهِ أَصْلُهُ الْمُعْتَذِرُونَ ، وَلَكِنْ التَّاءُ قَلَبَتْ ذَالًا فَادْخَلَتْ فِيهَا وَجَعَلَتْ حُرْكَتَهَا عَلَى الْعَيْنِ ؛ كَمَا قُرِئَ « يَتَخَصَّمُونَ » بَفَتْحِ الْخَاءِ . وَيَجُوزُ « الْمُعَذِّرُونَ » بِكسْرِ الْعَيْنِ لِاجْتِمَاعِ السَّاكِنَيْنِ . وَيَجُوزُ ضَمُّهَا اتِّبَاعًا لِلْيَمِّ . ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَالنَّحَّاسُ . إِلَّا أَنَّ النَّحَّاسَ حَكَاهُ عَنِ الْأَخْفَشِ وَالْقُرَّاءِ وَأَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ الْمُعْتَذِرُونَ ، ثُمَّ ادْخَلَتْ التَّاءُ فِي الذَّالِ ؛ وَيَكُونُونَ الَّذِينَ لَمْ يَحْذَرُوا . قَالَ لَيْدٌ :

إِلَى الْحَبَسِ كُلِّهِمْ ثُمَّ أَسَمَ السَّلَامَ عَلَيْكَ • وَمَنْ يَبْكُ خَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ

(١) آية ٧٠ سورة الرحمن - (٢) راجع ج ١ ص ١٨٢ طبة ثانية أرتالة .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٢٩ طبة ثانية أرتالة - (٤) آية ٤٩ سورة يس .

والقول الآخر أن المعتذر قد يكون غير حق، وهو الذي يعتذر ولا مذر له، قال الجوهري: فهو المعتذر على جهة المقتل؛ لأنه المترض والمقصر يعتذر بغير عذر. قال غيره: يقال عذر فلان في أمر كذا تعذرا؛ أي قصر ولم يبلغ فيه. والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب. قال الجوهري: وكان ابن عباس يقول: لعن الله المعتذرين. كأن الأمر عنده أن المعتذر بالتشديد هو المظهر للمعذر، احتلا من غير حقيقة له في المعذر. النحاس: قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين؛ ولا يجوز الادغام فيقع اللبس. ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنب على قول الخليل وسيبويه، وأن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا مذر لهم، قال: لأنهم جاءوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يصدقون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا. قال النحاس: وأصل المعذرة والاعتذار والتعذير من شيء واحد وهو مما يصعب ويعتذر. وقول العرب: من عذري من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستعفى أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به؛ [فمن يعتذري] إن عاقبته. فعل قراءة التخفيف قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر فاذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: هم رهط طاهر بن الطفيل قالوا: يا رسول الله، فوضونا معك أغارت أصراب طي على حلائلنا وأولادنا ومواشينا؛ فعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم. وحمل قراءة التشديد في القول الثاني، هم قوم من غفار اعتذروا فلم يعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم. وقصد قوم بشر عذر أظهره جراءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والمراد بكتبهم قولهم: إنا مؤمنون. و﴿لِيُؤْذَنَ﴾ نصب بلام كي.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيُحْمَلَهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنَهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمَعِ حَزْنَا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٥٨﴾

فيه ست مسائل :

الأول - قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ﴾ الآية . أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، فثارة إلى بدل هو فعل ، وثارة إلى بدل هو عزم ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ؛ ونظير هذه الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وقوله : « لَيْسَ عَلَى الْإِنْعَمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتهم نسيرا ولا أنفقتم من ثقة ولا قطعتم من وإد إلا وهم معكم فيه » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون ، منا وهم بالمدينة ؟ قال : « حبسهم العذر » . فبينت هذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المسذورين ، وهم قوم عرف عنهم كارب باب الأمانة والمهرم والعمرى والرج ، وأقوام لم يصدوا ما ينتفون ؛ فبطل : ليس على هؤلاء حرج . ﴿ إِنَّا نَصَحُوا لِقَبِّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أوليائه وانضوا أعداءه . قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعداء ، وما صبرت القلوب ؛ فلج ابن أم مكتوم إلى أحد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير ، فقاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها ، فامسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فامسكه بصدده وقرا « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . هذه عزائم القوم ، والحق يقول : « لَيْسَ عَلَى الْإِنْعَمَى حَرَجٌ » وهو في الأول . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمر بن الجوح من نقباء الأنصار أعرج وهو في أول الجيش . قال له الرسول عليه السلام : « إن الله قد عثرَكَ » فقال : والله لأحقرن^(١) بمرجتي هذه في الجنة ؛ إلى أن مات حسب ما تقدم في هذه السورة من ذكرهم رضى الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف .

(١) كسر سورة البقرة . (٢) آية ٦٤ سورة التور . (٣) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

(٤) يقال : حفر الطريق إذا أرتبها بمشي عليها . (٥) أى يمشي فيها مستندا عليها من ضعفها .

الثانية - قوله تعالى : (إِذَا نَصَحُوا) النصيح إخلاص العمل من الفش . ومنه التوبة النصوح . قال خَطَّوَيْهِ : نصح الشيء إذا خلص . ونصح له القول أى أخذه له . وفي صحيح مسلم عن تميم السدازي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدين النصيحة " ثلاثا . قلنا لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " . قال المصنف : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتزويه عن النقائص ، والرغبة في محبة والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، ونوالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وتوقيره ، ومحبة محبة آل بيته ، وتعظيمه وتعظيم سنته ، وإحيائها بعد موته بالبحث عنها ، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها ، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم . وكذا النصيح لكتاب الله : قراءته والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به . والنصح لأئمة المسلمين : ترك الخروج عليهم ، وإرشادهم إلى الحق وتبليغهم فيما أغفلوه من أمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادهم وحب الصالحين منهم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكانتهم . وفي الحديث الصحيح " مثل المؤمنین في نواصيهم وراحهم ومناطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .

الثالثة - قوله تعالى : (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) « من سبيل » في موضع رفع اسم « ما » أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن . ولهذا قال مابؤنا في الذي يقتض من قاطع يده فيفضي ذلك في السراية إلى إتلاف نفهم : إنه لا دية له ؛ لأنه محسن في انتصاصة من المعتدى عليه . وقال أبو حنيفة : تنزله الآية . وكذلك إذا صال حل على رجل فقتله في دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه ؛ وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : تنزله لمالكه القيمة . قال ابن العربي : وكذلك القول في مسائل الشريعة كلها .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ رُوي أن الآية نزلت في عيرابض بن سارية . وقيل : نزلت في عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت في بني مقرن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم يحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومُعْقِل وعَقِيل وسُويد وسنان وسابع لم يسم . بنو مقرن المُرْتَبُونَ سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم - فيما ذكره ابن عبد البر جماعة - في هذه المكرمة غيرهم . وقد قيل إنهم شهدوا الخندق كلهم . وقيل : نزلت في سبعة نفر من بطون شَيْءٍ ، وهم البكائون أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ، فقولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، فسموا البكائين . وهم سالم بن عمير بن بنى عمرو بن عوف وعُطَيْة بن زيد أخو بنى حارثة . وأبو ليل عبد الرحمن بن كعب بن بنى مازن بن النجار . وعمرو بن الحُثَام من بنى سلمة . وعبد الله بن المغفل المزني ، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزني . وهَمْرَمَى بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعيرابض بن سارية الفزاري ، هكذا سماهم أبو حمزة في كتاب البرور له . وفيهم اختلاف . قال القشيري : مُعْقِل بن يسار وصغير بن خنساء ، وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وسالم بن حمير ، وعُطَيْة بن غَنَمَة ، وعبد الله بن معقل وأخوه . قالوا : يا نبي الله ، قد تدبنا للخروج معك ، فاحلنا على الخلفاء المرفوعة والنعال المخصوصة فَنَزَمَكَ . فقال : « لا أجد ما أحللكم عليه » فقولوا وهم ييكون . وقال ابن عباس : سألوهم أن يحملهم على العوالم ، وكان الريل يحتاج إلى مسيرين ، يسير يركبه وبغير يحمل مائه وزاده بعد الطريق . وقال الحسن : نزلت في أبي موسى وأصحابه أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ليستمحلوه ، ووافق ذلك منه غضبا فقال : « والله لا أحللكم ولا أجد ما أحللكم عليه » فقولوا ييكون ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم ثَوْدًا . فقال أبو موسى :

(١) لم يذكر الكوفي غير خمسة . والقي في القاموس (مادة قرن) : « وعبد الله وعبد الرحمن وعقيل ومُعْقِل والنعمان وسويد وسنان » أولاد مقرن كسقت صحابيون .

(٢) القوم من الأهل : ما بين الثلاث إلى العشرة ، وهي مؤنثة لا بإحد لها من قطعها . والكثير أزواد .

أَلَسْتُ حَلَفْتُ بِأَرْسُولِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَرْتَ عَنْ يَمِينِي » .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم بلفظه ومعناه . وفي مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بحسن ذَوْدِ غُرِّ الدُّرَى ^(١) ... الحديث . وفي آخره : « فَاظْلِقُوا فَإِنَّمَا حَلَمَكُمُ اللَّهُ » . وقال الحسن أيضا وبكر بن عبد الله : زلت في عبد الله بن مَعْقِلِ الْمُزَنِيِّ ، آتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحْمِلُهُ . قال الجرجاني : التقدير أى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد . فهو مبتدأ معطوف على ما قبله بغير واو ، والجواب « تَوَلَّوْا » . (وَأَعَيْنَهُمْ قَبِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ) الجملة في موضع نصب على الحال . (حَزَنًا) مصدر . (أَلَّا يَجِدُوا) نصب بأن . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ، يجعل لا بمعنى ليس . وهو عند البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامسة — والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه في غَزْوِهِ أنه لا يجب عليه . وقال طبري : إذا كانت عادته المسألة لزمه كالج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغير يتوجه الفرض عليه كتوجهه على الواحد . والله أعلم .

السادسة — في قوله تعالى : (وَأَعَيْنَهُمْ قَبِيضٌ مِنَ النَّعْمِ) ما يستدل به على قرائن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضروري ، ومنها ما يحتمل التردد . فالأول كن يمر على دار قد حلا فيها التي وثمشت الحدود وحطت الشعور وسُلِّقَتِ الأصوات ونرقت الجيوب وتادوا على صاحب الدار بالثبور ؛ فيعلم أنه قد مات . وأما الثاني فكموج الأتسار على أبواب الحُكْمِ ، قال الله تعالى خبرا عن إخوة يوسف عليهم السلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » . وهم الكاذبون ؛ قال الله تعالى خبرا عنهم : « وَجَاءُوا عَلَى قَبْسِهِ يَكْذِبُ » .

(١) أى يض الأسماء ؛ فإن « التز » جمع الأغر وهو الأبيض . والدرى : جمع ذرة ، وذرة كل شئ . أهله .

(٢) السقي : شدة الصوت .

ومع هذا فإنها قرآن يستدل بها في الغالب فتبقى عليها الشهادات بناء على ظواهر الأحوال وغالبا . وقال الشاعر :

إذا أشبكت دموع في خدود • تبين من بكى من تباكى
وساقى هذا المعنى في « يوسف » مستوفى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾**
قوله تعالى : **(إِنَّمَا السَّبِيلُ)** أى العقوبة والمساءم . **(عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ)** والمراد المنافقون . كرر ذكرهم التاكيد في التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعالى : **يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾**
قوله تعالى : **(يَسْتَعِذُّونَ إِلَيْكَ)** بنى المنافقين . **(لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ)** أى لن نصدقكم **(قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)** أى أخبرنا بسرائركم . **(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ)** فيما تناشون **(ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)** أى يحاسبكم بعملكم . وقد مضى هذا كله مستوفى .

قوله تعالى : **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَكَ إِذَا أَقْلَبْتُمُ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَؤْلُومٌ جَهَنَّمَ بَرَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾**

قوله تعالى : **(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَكَ إِذَا أَقْلَبْتُمُ إِلَيْهِمْ)** أى من يترك . والمحلوف عليه عذوف؛ أى يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج . **(لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ)** أى لنصفحوا عن

لوهيم . وقال ابن عباس : أى لا تكلموهم . وفي الخبر أنه قال عليه السلام لما قدم من
تَبُوك : « ولا تجالسوهم ولا تكلموهم » . (أَنَّهُمْ رَجِسٌ) أى عملهم رجس ؛ والتقدير :
إنهم ذوو رجس ؛ أى عملهم قبيح . (وَمَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ) أى منزلهم ومكانهم . قال الجوهري :
الماوى كل مكان يأوى إليه شيء لئلا أونارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أوياً ، على
فعل ، وإواء . ومنه قوله تعالى : « مَاوَى إِلَى جَبَلٍ يَخَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » . (١) وأوئته أنا
إبراء . وأوئته إذا أنزله بك ؛ فعلت وأفعلت ، بمعنى ؛ عن أبي زيد . وماوى الإبل (بكسر
الواو) لغة فى ماوى الإبل خاصة ، وهو شاذ .

قوله تعالى : يَحْيَاوْنَ لَكَ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ رَضُوا عَنْهُمْ فَلْيَنْزِلْ
لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧﴾

حلف عبد الله بن أبى ألا يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وطلب
أن يرضى عنه .

قوله تعالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا جُدُودَ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) فيه مسالتان :

الأولى - لما ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجاً منها ونائباً
عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد من معرفة السنن . وقيل :
لأنهم أقسى قلباً وأجنى قولاً وأغلظ طبعاً وأبعد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى
في حقهم : (وَأَجْدَرُ) أى أخلق . (الْأَعْرَابُ) « أن » فى موضع نصب بخفض الباء ؛
تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حدثت الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، وإن
أثبتت بالباء صلح بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أنت تقوم ، وجدير بالقيام .

ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ . وإنما صلح مع « أن » لأن أن يدل على الاستقبال فكأنها عوض من المحذوف . ﴿ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى فرائض الشرع . وقيل : جميع الله في الربوبية وبمئة الرسل لقله نظرم .

الثانية - ولما كان ذلك ودل على تقصم وحطهم عن المرتبة الكاملة عن سوامم تزيت على ذلك أحكام ثلاثة :

أولها - لاحق لهم في السيء والفتنة ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم من حديث بريدة ، وفيه : « ثم أذهبهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الفتنة والفتنة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ».

وثانيها - إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة ؛ لما في ذلك من تحقق التهمة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لا تراعى كل تهمة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعي إذا كان عدلا مرضياً ؛ وهو الصحيح لما بيناه في « البقرة » . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافاً ثلاثة : أحدها - بالكفر والضيق . والثاني - بأنه يتخذ ما يتفق مفرماً ويتربص بكم الدوائر . والثالث - بالإيمان بالله وباليوم الآخر ويتخذ ما يتفق قُرْبَات عند الله وصلوات الرسول ؛ فن كانت هذه صفته فعييد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثاني والأول ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام في هذا في « النباء » .

وثالثها - أن إمامتهم أهل الحاضرة ممنوعة بطههم بالسنة وتركهم الجمعة . وكره أبو جعفر إمامة الأعرابي . وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقوام . وقال سفيان الثوري والشافعي وإسحاق وأصحاب الرأي : الصلاة خلف الأعرابي جائزة . واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أَشَدُّ ، وقد تقدم . ﴿ كُفْرًا ﴾ نصب على البيان . ﴿ وَيَفَاقًا ﴾ عطف عليه . ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطف على أَشَدُّ ، ومعناه أخق ، يقال : فلان جدبر بكذا أى خلق به ، وأنت جدبر أن تفعل كذا ، والجمع جدراء وجدرون . وأصله من جَدَر الحائط وهو رفعه بالنساء . فقوله : هو أجدر بكذا أى أقرب إليه وأحق به . ﴿ إِلَّا يَمْلِكُوا ﴾ أى بالاعمالوا . والعرب : جيل من الناس ، والنسبة إليهم عَرَبِيٌّ بَيْنَ الْعُرُوبَةِ ، وهم أهل الأمصار . والأعراب منهم سكان البادية خاصة . وجاء في الشعر الفصيح أحاريت . والنسبة إلى الأعراب أعرابي لأنه لا واحد له ، وليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأتباط جمعا لنبط ، وإنما العرب اسم جذس . والعرب العاربة هم الخالص منهم ، وأخذ من اعقله وأكذبته كقولك : لَيْلٌ لائل . وربما قالوا : العرب العَرَباء . وتعرب تشبه بالعرب . وتعرب بعد هجرته أى صار أعرابيا . والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخالص ، وكذلك المنعربة ، والعربية هى هذه اللغة . ويعرب بن حطّان أول من تكلم بالعربية ، وهو أبو اليمن كاتهم . والعرب والعرب واحد ، مثل النجم والمجمع . والعرب تصغير العرب ، قال الشاعر :
وَمَكَّنَ الضَّبَابَ طَمامَ الْعُرَيْبِ • وَلَا تَشْتَبِيهِ قُوسُ الْعَجَمِ^(١)
إنما ضمهم تفعيلا ، كما قال : أَنَا جُذَيْلُهَا تُحْكُكُ ، وعديتها المَرْجَبُ كَلَه عن الجوهرى . وحكى الفسيري : وجمع العربيّ العرب ، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب . والأعرابي إذا قيل له يا عربيّ فريح ، والعربيّ إذا قيل له يا أعرابي غضب . والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب . وسميت العرب عربا لأن ولد إسماعيل نَشُوا من عَرَبَةٍ وهى من تِهَامَةٍ فقبوا إليها . وأقامت قريش بعربة وهى مكة ، وانتشر سائر العرب في جزيرتها .

(١) البيت لهب المزمن بن هب القندوس . والممكن : جنس الضية والجرادة ونحوها . (٢) الجذلي تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة . والحكك : الذى تحكك به الإبل الجري ، وهو يرد ينصب في مبارك الإبل لذلك . والذيق : تصغير الذوق ، وهو النخلة . والمرجب : الذى جعل له وجبة ، وهى دابة تنهى حوله من المجارة . وهو من قول الجلب بن المنذر الجروح الأنصارى يوم البقيعة عند بكة بكر رضى الله عنه . يريد أنه قد جرت الأمور وه رأى وعطى يشقّ بهما كما تفتش الإبل الجري باحتكاكها بالجذلي .

قوله تعالى : **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَخُذُ مَا يَبْتَغِي مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكَ**
الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَخُذُ**) « من » في موضع رفع بالابتداء . (**مَا يَبْتَغِي**
مَغْرَمًا) مفعولان ؛ والتقدير يبتغيه ، غلظت المساء لطول الاسم : (**مَغْرَمًا**) معناه غرماً
 وخساراً ، وأصله لزوم الشيء ؛ ومنه : « **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** » أى لازماً ، أى يرون
 ما يبتغونه في جهاد وصدقة غرماً ولا يرجون عليه ثواباً . (**وَيَتَرَبَّصُ بِكَ الدَّوَابِّ**) التربص
 الانتظار ، وقد تقدم . والدوائر جمع دائرة ، وهى الحلقة المظلمة عن النجاسة الى البلية ، أى
 يعمون الى الجهل بالإحاطة بسوء الدخلة وخبت القلب . (**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**) قرأه
 ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفي الفتح ، وفتحها الباقون . وأجمعوا على فتح السين
 في قوله : « **مَا كَانَتْ أَبْوَكُ أَمْرًا سَوِيًّا** » . والفرق بينهما أن السوء بالضم المكروه . قال
 الأخفش : أى عليهم دائرة العزيمة والشر . وقال الفراء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء .
 قالوا : ولا يجوز أصراً سوء بالضم ؛ كما لا يقال : هو أمرٌ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد
 ابن يزيد قال : السوء بالفتح الزدانة . قال سيويه : مررت برجل صديق ، ومعناه برجل
 صلاح . وليس من صديق اللسان ، ولو كان من صديق اللسان لما قلت : مررت بشوب
 صديق . ومررت برجل سوء ليس هو من سوءه ، وإنما معناه مررت برجل نبيذ . وقال
 الفراء : السوء بالفتح مصدر سوءاً وسوءاً وسوءاً وسوءاً . قال غيره : والقيل منه سوء
 يسوء . والسوء بالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكره .

قوله تعالى : **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَخُذُ**
مَا يُبْتَغِي قُرْبَتَ اللَّهِ وَصَلَّوْكَ الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَبِيلُ اللَّهِ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) داجع ٤٣ ص ١٠٨ طبعه اهل اربانة . (٢) آية ٢٨ سورة ص .

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى صدق . والمراد بنو مُقَرَّن مَزِينة ، ذكره المهدوي . ﴿ قُرْبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبَة ، وهى ما يتقرب به الى الله تعالى ، والجمع قُرْبٌ وقُرْبَاتٍ وقُرْبَاتٍ وقُرَاتٍ ، حكاه النحاس . والقربات (بالضم) ما تجترب به الى الله تعالى ، تقول منه : قَرَّبَ الله قُرْبَانَا . والقُرْبَة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء ، والجمع فى أدنى العدد قُرْبَاتٍ وقُرْبَاتٍ وقُرْبَاتٍ ، والكثير قُرْبٌ . وكذلك جمع كل ما كان على يظلة ، مبتل بسدرة وفقرة ، لك أن تفتح العين وتكسر وتسكن ، حكاه الجوهري . وقرا نافع فى رواية ورش « قُرْبَة » بضم الراء وهى الأصل . والباقون يسكنونها تخفيفا ، مثل كُتِبَ ورُسِلَ ، ولا خلاف فى قُرْبَات . وحكى ابن سعدان أن يزيد بن الققاع قرأ « أَلَا إِنَّمَا قُرْبَة لَمْ » . ومعنى ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ استغفاره ودعاؤه . والصلاة تقع على ضرور ؛ فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَبَلَائِكُمْ » . والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هى من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال : « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ » أى دعاؤك تثبيت لهم وطمانينة . ﴿ أَلَا إِنَّمَا قُرْبَة لَمْ ﴾ أى تقربهم من رحمة الله ، معنى تقفاتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعْنَا عَنْهُمْ أَزْوَاجَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - لما ذكر أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأتى عليهم . وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرقتين الفرض فيه إني شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ « وَالْأَنْصَارُ » رضا عطا على السابقين . قال الأخفش : الخلفى فى الأنصار

الوجه ؛ لأن السابقين منهما . والأنصار أسم إسلامي . قيل لأنس بن مالك : أريت قول الناس لكم : الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تدعون به في الجاهلية ؟ قال : بل أسم سمانا الله به في القرآن ؛ ذكره أبو عمر في الاستذكار .

الثانية - نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين ؛ في قول سعيد بن المسيب وطائفة . وفي قول أصحاب الشافعي هم الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وهي بيعة الحديبية ، وقاله الشعبي . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهي :

الثالثة - فقال أبو منصور البغدادي النخعي : أصحابنا يجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقيون إلى تمام العشرة ، ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

الرابعة - وأما أولهم إسلاما فروى مجاهد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلاما ؟ قال أبو بكر ، أو ناسمعت قول حسان :

إذا تذكّرت شجرة من أمي قبة • فأذكر أخاك أبا بكر بما فصلّا
خير البرية أقمها وأعدلها • بعد النبي وأولها بما حملّا
الثاني التالي المحمود مشبهه • وأول الناس صدق الرسلّا

وذكر أبو الفرج الجوزي عن يوسف بن يعقوب بن الماسجون قال : أدركت أبي وشيخنا محمد بن المنكدر وبيعة بن أبي عبد الرحمن وصالح بن كيسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأخنسي . وهم لا يشكون أن أول القوم إسلاما أبو بكر ، وهو قول ابن عباس وحسان وأسماء بنت أبي بكر ، وبه قال إبراهيم النخعي . وقيل : أول من أسلم علي ؛ روى ذلك عن زيد بن أرقم وأبي ذر والمقداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافا بين أصحاب التواريخ أن علياً أولهم إسلاما . وقيل : أول من أسلم زيد بن حارثة . وذكر معمر نحو

فذلك عن الزهري . وهو قول سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبي أنس .
وقيل . أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ، روى ذلك من وجوه عن الزهري ، وهو قول
قنادة وعبد بن إسماعيل بن يسار وجماعة ، وروى أيضا عن ابن عباس . وأدعى الثعلبي المفسر
لإتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيما أسلم بعدها .
وكان إسماعيل بن إبراهيم بن رَأْوَيْهِ الحنظلي يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أول من أسلم
من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن
العبيد بلال . والله أعلم ، وذكر محمد بن سعد قال : أخبرني مصعب بن ثابت قال حدثني
أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعا
أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين .
وروى أن عليا أسلم ابن سبع سنين . وقيل ابن عشر .

الخامسة - والمعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخاري في صحيحه : من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه
من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سميد بن المسيب أنه كان لا يثبث الصحابي إلا من
أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا
القول إن صح عن سميد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جابر بن عبد الله البجلي .
أو من شاركه في فقد ظاهر ما اشترطه فهم مما لا نعرف خلافا في عده من الصحابة .

السادسة - لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق . قال
ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل
هذه الوجوه سبق الصفات ، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : "نحن الآخرون
الأولون بيدناهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من هدمهم فهذا الذي اختلفوا فيه فهذانا
الله فاليهود غدا والنصارى بعد غد" . فأخير النبي صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم
بإيمانهم سبقناهم بالإيمان والامتنال لأمر الله تعالى والالتقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا

بتكليفه والاحتمال لوظائفه، لا تعرض عليه ولا تختار معه، ولا نبذل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب، وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه؛ وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله .

السابعة - قال ابن خزيمة : تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منفة من مناقب الشريعة، في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، في المطامع المسال والرتبة في الإكرام . وفي هذه المسألة خلاف بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . واختلف العلماء في تفضيل السابقين بالمعطاء على غيرهم؛ فروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان لا يفضل بين الناس في المعطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة . وكان عمر يقول له : اتعمل ذا السابقة كن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه . وكان عمر يفضل في خلافه ؛ ثم قال عند وفاته : لمن عشت إلى غد لأخفق أسفل الناس بأعلامي ؛

لأت من ليته . والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسالتان :

الأولى - قرأ عمر « والأنصار » وقفا « الذين » بإسقاط الواو معنا لأنصاره؛ فراجعه زيد بن ثابت ، فقال عمر أبي بن كعب فصلى زيدا ؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا وفننا رفعة لا ينالها معنا أحد . فقال أبي : مصداق ذلك في كتاب الله في أول سورة الجمعة : « وَاتَّخِزْ مِنْهُمْ لَكَ طَحْفُوا بِهِمْ » وفي سورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَيْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » . وفي سورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْدٍ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ » . فنبئت القراءة بالواو . وبين تعالى بقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من المغفوات والزلالات ؛ إذ لم يكونوا معصومين رضي الله عنهم .

الثانية - واختلف العلماء في التابعين وأمراتهم ؛ فقال الخطيب الحافظ : الثاني من صحب الصحابي ؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابى . وكلام الحاكم أبي عبد الله وغيره

شُعْرُ بَأَنَّهُ يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَسْمَعَ مِنَ الصَّحَابِيِّ أَوْ يَلْقَاهُ وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ الصَّحَابَةَ الْعَرَفِيَّةَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ أَسْمَ التَّابِعِينَ يُنْتَطَقُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْحَدِيثِيَّةِ ؛ كَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ وَمَنْ دَانَاهُمْ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ ؛ لِأَنَّهُ ثَبِتَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ شَكَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَخَالِدٍ : « دَعُوا لِي أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَتَقَى أَحَدَكُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ أُحُدَ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدُّ إِحْدِهِمْ وَلَا نَصْفَهُ » . وَبَنَ الْعَجَبَ عِنْدَ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ التَّمَنَاءُ وَسُوَيْدَا ابْنَيْ مُقَرَّنَ الْمَرْزِيِّ فِي التَّابِعِينَ عِنْدَ مَا ذَكَرَ الْإِخْوَةَ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَهِيَ صَحَابِيَانِ مَعْرُوفَانِ مَذْكُورَانِ فِي الصَّحَابَةِ ، وَقَدْ شَهِدَا الْخَنْدَقَ كَمَا تَقْدُمُ . وَاتَّقَهُ أَعْلَمُ . وَأكْبَرُ التَّابِعِينَ الْفَقْهَاءُ السَّبْعَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَتِيَّةٍ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَسَلْيَانُ بْنُ يَسَارٍ . وَقَدْ نَظَّمَهُمْ بَعْضُ الْأَجَلَّةِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فَقَالَ :

نَحْنُ نَحْمَدُ عِيْدُ اللَّهِ حُرُوءَ قَاسِمٍ * سَعِيدُ أَبُو بَكْرٍ سَلْيَانُ خَارِجَةُ .

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : أَفْضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ ؛ فَقِيلَ لَهُ : فَعَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ . فَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَعَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ . وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : أَفْضَلُ التَّابِعِينَ قَيْسُ وَأَبُو عَثَانَ وَعَلَقْمَةُ وَمَسْرُوقٌ ، هَؤُلَاءِ كَانُوا فَاضِلِينَ وَمِنْ عِلَّةِ التَّابِعِينَ . وَقَالَ أَيْضًا : كَانَ عَطَاءُ مَقِيٍّ مَكَّةَ وَالْحَسَنُ مَقِيٍّ الْبَصْرَةَ ، فَهَٰذَا أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُمْ ؛ وَأَبُوهُمْ . وَرَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ : سَعِيدَتَا التَّابِعِينَ مِنَ النِّسَاءِ حَفْصَةُ بِنْتُ يَسِيرٍ وَعُمَرَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَثَابِتُهُمَا - . وَلَيْسَتْ كُهُمَا - أُمُّ الْقَدَرَاءِ . وَرَوَى عَنْ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : طَبَقَةٌ تَعُدُّ فِي التَّابِعِينَ وَلَمْ يَصِحَّ سَمَاعُ أَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُوَيْدٍ النَّخَعِيُّ وَلَيْسَ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدٍ النَّخَعِيِّ الْفَقِيهِ ، وَبَكِيرُ بْنُ أَبِي السَّمِيطِ ، وَبَكِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْخِي . وَذَكَرَ غَيْرُهُمْ قَالَ : وَطَبَقَةُ عِدَادِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ فِي أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ ؛ وَقَدْ لَقُوا الصَّحَابَةَ مِنْهُمْ أَبُو الزِّنَادِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذَكْوَانَ ، لَقِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَأَسَا . وَهَشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، وَقَدْ أُدْخِلَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ،

(١) هو عبد الله بن عبد الله بن عتبة . (٢) هو أبو بكر بن عبد الرحمن .

(٣) في التقريب : « السميطة بفتح الهمزة » ويقال بالضم .

وجابر بن عبد الله وموسى بن عقبة، وقد أدرك أنس بن مالك . وأُمّ خالد بنت خالد بن سعيد .
وفى التابعين طبقة تسمى بالْمُخَضَّرَمِينَ ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم . واحدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خضرم، أى قطع عن
نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها . وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسا، منهم أبو عمرو
الشيثاني، وسويد بن غفلة الكندي، وعمرو بن سمون الأودي، وأبو عثمان التَّيْدِي،
وعبد خير بن يزيد الخيراني (بفتح الخاء) ، بطن من همدان، وعبد الرحمن بن مل . وأبو الحلال
التنكي ربيعة بن زُزارة . ومن لم يذكره مسلم، منهم أبو مسلم الخولاني، عبد الله بن ثوب،
والأحنف بن قيس . فهذه نبذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن
الكريم، رضوان الله عليهم أجمعين، وكفانا عن قوله جل وعز: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»
على ما تقدم . وقوله عز وجل: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» الآية . وقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: «وددت أنا قد رأينا إخواننا ...» الحديث . فجعلنا إخوانه، إن اتقينا الله
واقفينا آثاره حشرنا الله في زمرة ولا حاد بنا عن طريقته ومثلته بحق عهد وآله .

قوله تعالى: (وَمِنْ حَوْلِكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ أَحَدٌ مِّنْهُمْ سَتَلَبِثُكُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ
إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٦٦﴾)

قوله تعالى: (وَمِنْ حَوْلِكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ) ابتداء وخبر . أى قوم منافقون؛
بني مذبذبة وجبهة وأسلم ويغفار وأتبع . (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ) أى قوم
مردوا على النفاق . وقيل: «مردوا» من نمت المنافقين؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير،
المعنى: ومن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة بئس ذلك .
ومعنى: «مردوا» أقاموا ولم يتوبوا؛ عن ابن زيد . وقال غيره: بلجأوا فيه بأبواب غيره .

والمعنى متقارب . وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجود ؛ فكأنهم تجردوا للنفاق . ومنه وملة مرداء لا نبت فيها . وعُصْنُ أَمْرَدٍ لا ورق عليه . وفرس أَمْرَدٌ لا شعر على ثنائه .^(١)
وغلام أَمْرَدٌ بين المَرَدِّ ولا يقال جارية مرداء . وتجريد البناء تمليسه ؛ ومنه قوله : « صرح^(٢) بمزد . وتجريد الفصن تجريده من الورق ؛ يقال مرد يبرد مرودا ومبردا .^(٣)

قوله تعالى : (لَا تَتَّبِعِهِمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) هو مثل قوله « لَا تَعْلَمُهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » على ما تقدم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبة أئورهم وإنما نخشى نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : (سَتَعْلَمُهُمْ مَّرَاتٍ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ قَبِيلٍ) قال ابن عباس :
بالأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة . ففرض للمؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة .
وقيل : العذاب الأول القضيعة بأطلاع النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، على ما يأتي بيانه في المنافقين . والعذاب الثاني عذاب القبر . الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر .
ابن زيد : الأول بالمصائب في أموالهم وأولادهم ، والثاني عذاب القبر . مجاهد : الجوع والقتل . الفراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السباء والقتل . وقيل : الأول أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم ، والثاني عذاب القبر . وقيل : أحد المسلمين ما قال تعالى : « فَلَا تَحْبِكَ أَمْوَالُهُمْ » إلى قوله - إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٤) .
والفرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضييف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٥)

أي ومن أهل المدينة ومن حولكم قوم أقرؤا بذنوبهم ، وآخرون مرجون لأمر الله يحكم فيهم بما يريد . فالصنف الأول يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مردوا على النفاق ، ويحتمل

(١) التفة : مؤنر السخ ، وهي شرات مدلاط مشرفات من خلف
(٢) من باب نصر كرم . (٤) آية ٣٠ سورة الأتقال
(٣) آية ٤٤ سورة النمل
(٥) آية ٥٥ من هذه السورة .

أنهم كانوا مؤمنين . وقال ابن عباس : نزلت في عشرة تحلقوا عن غزوة تبوك؛ فأوتى سبعة منهم أنفسهم في سوارى المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ؛ ذكره المهدوي . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمانية ، وقيل كانوا ستة . وقيل خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة ، وذلك أنهم كلّموه في النزول على حكم الله ورسوله صل الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حلقه . يريد أن النبي صل الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا ، فلما اقتضح ثياب وندم وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يصفو الله عنه أو يموت ؛ فكثت كذلك حتى عفا الله عنه ، ونزلت هذه الآية ، وأمر رسول الله صل الله عليه وسلم بمحله ؛ ذكره الطبري عن مجاهد ، وذكره ابن اسحاق في السيرة أوجب من هذا . وقال أشهب عن مالك : نزلت « وآخرون » في شأن أبي لبابة وأصحابه ، وقال حين أصاب الذنب : يا رسول الله ، أجاورك وأفعل من مالي ؟ فقال : « يحزبك من ذلك التث وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » » ورواه ابن القاسم وابن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كفضل أبو لبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صل الله عليه وسلم يطلقهم ورضى عنهم ، فقال النبي صل الله عليه وسلم : « لو أننا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ورضوا عني وتحلقوا عن النزول مع المسلمين » فأنزل الله هذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبي صل الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خلفنا عنك ، فخصصك بها عنا وطهرنا وأستغفر لنا . فقال : « ما أمرت أن أأخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله تعالى « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . قال ابن عباس : كانوا عشرة أخس منهم أبو لبابة ؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارة الذنوب التي أصابوها . فكان عملهم السيئ الخلف بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا في الصلاح ؛ فقال الطبري وغيره : الاعتراف والتوبة والتندم . وقيل : عملهم الصالح الذي عملوه أنهم لحقوا برسول الله صل الله عليه وسلم ، وربطوا

أنفهم بسواى المسجد وقالوا : لا تقرب أهلا ولا ولدا حتى يزل الله عزونا . وقالت فرقة : بل العمل الصالح عزوهم فيما سلف من غزو النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية وإن كانت نزلت في أعراب فهى عاقبة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيطة ، فهى ترحى . ذكر الطبرى عن حجاج بن أبى زنب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما فى القرآن آية أرى عندى لهذه الأمة من قوله تعالى « وَأَتَرُونَ آعْتَرُفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا » . وفى البخارى عن سمره بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : « إنا فى الليلة آتينا فابتعثنا فأتينا إلى مدينة مبنية بلين ذهب ولين فضة فلقنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قال لم أذهبوا فقموا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك سوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قال لاى هذه جنة عدن وهذاك . متراك قال أتا القوم الذى كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح لأنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » . وذكر البيهقى من حديث الزبير بن أس عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : « ثم صعد بى إلى السماء ... » ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : « حيّاه الله من أخ وخليفة » . فتم الأخ ونم الخليفة ونم المئى جاء فإذا برجل أشمط^(١) جالس على كرسى عند باب ابنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفى ألوانهم شىء فأتوا نهرًا فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلّص من ألوانهم شىء . ثم إنهم أتوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلّص من ألوانهم شىء . ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقد خلّصت ألوانهم مثل ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقال يا جبريل من هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا النهر وقد خلّصت ألوانهم فقال هذا أبوك إبراهيم هو أوّل رجل شمط على الأرض وهؤلاء ما بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم يظلم — قال — وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم . فاما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثانى فنعمة الله .

(١) الشمط : يابس شعر الرأس يتخالط سواده .

وأما التبر الثالث فسقاهم ربهم شرباً طهوراً « وذكر الحديث . والواو في « وآخر سينا » قيل
 هي بمعنى الباء . وقيل بمعنى مع ، كقولك استوى الماء والخشب . وانكر ذلك الكوفيون وقالوا :
 لأن الخشب لا يجوز تقديمها على الماء ، و « آخر » في الآية يجوز تقديمه على الأول ، فهو
 بمنزلة خلطت الماء بالبن .

قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ
 عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾
 فيه سبع مسائل :

الأول - قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ، اختلف في هذه الصدقة المأمور بها ؛
 فقيل : هي صدقة الفرض ، قاله جوير عن ابن عباس ، وهو قول عكرمة فيما ذكره القشيري .
 وقيل : هو مخصوص بمن نزلت فيه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم ،
 وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء ، ولهذا قال مالك : إذا تصدق الرجل ببيع ماله أجزأه
 إخراج الثلث ، متمسكاً بحديث أبي ثابة . وعلى القول الأول فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
 وسلم يقتضى بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواه ، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه
 وزوالها بموته . وبهذا تعلق ماتمو الزكاة على أبي بكر الصديق وقالوا : إنه كان يعطينا عوضاً
 منها التطهير والتزكية والصلاة علينا وقد علمناها من غيره . ونظم في ذلك شاعرهم فقال : -

أعلمنا رسول الله ما كان بيننا • فيا عجبا ما بال ملك أبي بكر
 وانب الذي سالوكم فنعمتم • لكأنتم أو أختل لبهم من القم
 ستمتهم ما دام فينا بقية • كرام على الصراء في المرو واليسر

وهذا صنف من القامعين على أبي بكر امتناعهم طريقة ، وفي حقهم قال أبو بكر : والله لأفانن
 من فرق بين الصلاة والزكاة . ابن العربي : أما قولهم إن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
 لا يلحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ التريسة متلاعب بالقرآن ، فإن
 لخطاب في القرآن لم يرد بأياً واحداً ولكن اختلفت موارده على وجوه ، فمنها خطاب توجه إلى

جميع الأمة كقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » ونحوه . ومنها خطاب خُصَّ به ولم يشركه فيه غيره لفظا رلا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ » وقوله : « خَالِصَةً لَّكَ » . ومنها خطاب خُصَّ به لفظا وشركه جميع الأمة معنى وفصلا كقوله : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ اللَّهِ » الآية . وقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » وقوله : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ » . فكل من ذَكَرْتُ عليه الشمس غاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن غاطب بالاستعاذة . وكذلك من خاب بقيم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القليل قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنْتَ أَعْلَى النَّبِيِّينَ » إذا طلعت الشمس .

الثانية - قوله تعالى : (مِنْ أَمْوَالِهِمْ) ذهب بعض العرب وهى رموس : إلى أن المال الثياب والمتاع والمروض . ولا تسمى العين مالا . وقد جاء هذا المعنى في السنة الثابتة من رواية مالك عن ثَوْر بن زيد الدَّيْلِي عن أَبِي الثَّيْبِ سالم مولى أَبِي مُطِيع عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ خَيْبَرَ فَلَمْ نَعْمَ ذَهَبًا وَلَا وِرْقًا إِلَّا الْأَمْوَالَ الثِّيَابَ وَالْمَتَاعَ . الْحَدِيثُ . وَذَهَبَ غَيْرُهُمْ إِلَى أَنَّ الْمَالَ الصَّامِتُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ . وَقِيلَ : الْإِبِلُ خَاصَّةٌ . وَمَتَّعَ قَوْلُهُ : الْمَالُ الْإِبِلُ . وَقِيلَ جَمِيعُ الْمَاشِيَةِ . وَذَكَرَ ابْنُ الْأَثْبَارِيِّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى النُّحَوِيِّ قَالَ : مَا مَقْرَعٌ عَنْ بُلُوغٍ مَا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ فَلَيْسَ بِمَالٍ . وَأَنْشَدَ :

وَأَمَّا مَا بَلَغَتْ لِي قِسْمُ مَاشِيَةٍ • حَذَّ الزَّكَاةَ وَلَا إِبِلَ وَلَا مَالَ

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما مُمُولٌ وَمُتَمَلِّكٌ هو مال . لقوله صلى الله عليه وسلم : " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا أَكَلَ فَأَتَى أَوْ لَبَسَ فَأَتَى أَوْ تَصَدَّقَ

- | | | |
|--------------------------|---------------------------|---------------------------|
| (١) آية ٦ سورة المائدة . | (٢) آية ١٨٣ سورة البقرة . | (٣) آية ٧٨ سورة الاسراء . |
| (٤) آية ٩٨ سورة النمل . | (٥) آية ١٠٢ سورة النساء . | (٦) أول سورة الأحزاب . |
| (٧) أول سورة الطلاق . | | |

فأما « . وقال أبو قتادة : فأعطاني الدرع فابتعت به تحرقاً في بني سَلَمَةَ ، فإنه لأَوَّلُ مال تأتته في الإسلام . فن حلف بصدقة ماله كله فذلك كل نوع من ماله ، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن ، إلا أن ينوي شيئاً بينه فيكون على ما نواه . وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة . والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملك يسمى مالا . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه ، وإنما بيان ذلك في السنة والإجماع ، حسب ما نذكره . فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال . وقد أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الزكاة في المواشي والحبوب والتمين ، وهذا مالا خلاف فيه . واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العروض . وسيأتي ذكر الخيل والعسل في « النحل » إن شاء الله . روى الأئمة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورد صدقة وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة » . وقد مضى الكلام في « الأنعام » في زكاة الحبوب وما تنبت الأرض منسوقاً . وفي المعادن في « البقرة » وفي الحلي في هذه السورة . وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهماً ، فإذا ملك الحر المسلم مائتي درهم من فضة مضروبة — وهي الخمس أواق المنصوصة في الحديث — حولاً كاملاً فقد وجبت عليه صدقتها ، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم . وإنما اشترط الحول لقوله عليه السلام : « ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول » . أخرجه الترمذي . وما زاد على المائتي درهم من الورد فيحسب ذلك في كل شيء منه ربع عشره قل أو أكثر ، هذا قول مالك والليث والشافعي وأكثر أصحاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى والثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق وأبي عبيد . وروى ذلك عن علي وابن عمر . وقالت طائفة : لا شيء فيما زاد على المائتي درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهماً ، فإذا بلغت

(١) الحرف (بالفتح) : القطعة الصغيرة من النخل ، ست أوسق يشتريها الرجل لقرعة (الجني) . و قيل : هي حصة النخل ما يملك .
(٢) تأمل مالا : اكتسبه واتخذته ونحوه .
(٣) رابع ٧ ص ١٨
(٤) رابع ٣ ص ٢٢١ وما بعدها .

كان فيها درهم وذلك ربع عشرها . هذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس والشعي والزهرى ومكحول وعمرو بن دينار وأبي حنيفة .

الرابعة - وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلماء على أن الذهب إذا كان عشرين دينارا قيمتها مائتا درهم فإذا زاد أن الزكاة فيها واجبة ؛ على حديث على - أخرجه الترمذى عن حمزة والحارث عن على - قال الترمذى : سألت محمد بن اسماعيل عن هذا الحديث فقال كلاهما عندى صحيح عن أبي إسحاق ؛ يحتمل أن يكون عنهما جميعا . وقال البايع فى المتقى : وهذا الحديث ليس بإسناده هناك ، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمة ، والله أعلم . وروى عن الحسن والثورى ، وإليه مال بعض أصحاب داود بن على - على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين دينارا ، وهذا يردّه حديث على - وحديث ابن عمر وعائشة أن النبى - صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من كل عشرين دينارا نصف دينار ، ومن الأربعين دينارا دينارا ؛ على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذكر .

الخامسة - اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس دنانير من الإبل فلا زكاة فيه . فإذا بلغت خمسا نفيا شاة . والشاة تقع على واحدة من الغنم ، والغنم الضأن والمعز جميعا . وهذا أيضا اتفاق من العلماء أنه ليس فى خمس إلا شاة واحدة ؛ وهى فريضة . وصدقة المواشى مبنية فى الكتاب الذى كتبه الصديق لأتس لما وجهه إلى البحرين ؛ أخرجه البخارى وأبو داود والدارقطنى والنسائى وابن ماجه وضميرهم ، وكله متفق عليه . والخلاف فيه فى موضعين ؛ أحدهما فى زكاة الإبل ، وهى إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لبون ، وإن شاء أخذ حقتين . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فيكون فيها حقة وأبنا لبون . قال ابن القاسم : وروى على قول ابن شهاب . وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبى سلمة وعبد العزيز بن أبى

(١) ابن لبون : وله الناقة إذا استكمل السنة الثانية ، ودخل فى الثالثة . والمحق (بالكسر) : الذى استكمل

ثلاث سنين ودخل فى الرابعة .

حازم وابن دينار يقولون بقول مالك، وأما الموضع الثاني فهو في صدقة الفم، وهي إذا زادت على ثلثائة شاة وشاة، فإن الحسن بن صالح بن حبة قال: فيها أربع شياه. وإذا كانت أربعائة شاة وشاة ففيها خمس شياه، وهكذا كلما زادت، في كل مائة شاة. وروى عن إبراهيم النخعي مثله. وقال الجمهور: في مائتي شاة وثلاثة وثلاث شياه، ثم لا شيء فيها إلى أربعائة فيكون فيها أربع شياه، ثم كلما زادت مائة ففيها شاة، إجماعا واتفاقا. قال ابن عبد البر: وهذه مسألة ويوم فيها ابن المنذر، وحكى فيها عن العلماء الخطأ، وغلط وأكثر الغلط.

السادسة - لم يذكر البخاري ولا مسلم في صحيحهما تفصيل زكاة البقر، ونزجه أبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني ومالك في مؤلفاته وهي مرسلة ومقطوعة وموقوفة. قال ابن عمر: وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه. ومن أسنده بقة عن السعدي عن الحكم عن طاوس. وقد اختلفوا فيما يفرد به بقة عن الثقات. ورواه الحسن بن عمار عن الحكم كما رواه بقة عن السعدي عن الحكم، والحسن مجتمع على ضعفه. وقد روى هذا الخبر بإسناد متصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس، ذكره عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر والثوري عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تيمما أو تبيعة، ومن أربعين مئنة^(١)، ومن كل حالم ديناراً^(٢) أو عدله معاقر؛ ذكره الدارقطني وأبو عيسى الترمذي وصححه. قال أبو عمر: ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة في زكاة البقر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل: في ثلاثين بقرة تبيع. وفي أربعين مئنة؛ إلا شيء روى عن سبيد بن المسيب وأبي قلابة والزهرى وقادة، فإنهم يوجبون في كل خمس من البقر شاة إلى ثلاثين. فهذه جملة من تفصيل الزكاة بإصولها وفروعها في كتب الفقه. ويأتي ذكر الخطأ في سورة «ص» إن شاء الله تعالى.

(١) التبيع: ولد البقرة في أول سنة. والمسن: ما أدى سنين ودخل في الثالثة. (٢) زيادة عن صحيح المارغني والترمذي. (٣) المافر: يراد باليمن منسوبة إلى معاقر، وهي قبيلة باليمن. (٤) في قوله تعالى: «وان كثيرا من الخطاء ليبنى بعضهم على بعض» آية ٢٤.

السابعة - قوله تعالى : ﴿ صَدَقَ ﴾ مأخوذ من الصدق ؛ إذ هي دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره ، وأنه ليس من المنافقين الذين يلبسون المطوَّعين من المؤمنين في الصدقات . ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ حالين للمخاطب ؛ التقدير : خذها مطهرة لهم ومزكياً لهم بها . ويجوز أن يجعلها صفتين للصدقة ؛ أى صدقة مطهرة لهم مُزَكِّية ، ويكون فاعل تزكيتهم المخاطب ، ويعود الضمير الذي في « بها » على الموصوف المذكور . وحكى النحاس ومكي أن « تطهرهم » من صفة الصدقة « وتزكيتهم بها » حال من الضمير في « خذ » وهو النبي صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن تكون حالا من الصدقة ، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى فإني تطهرهم وتزكيتهم بها ، على القطع والاستئناف . ويجوز إلزامه على جواب الأمر ، والمضي : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم ؛ ومنه قول امرئ القيس :

• قفا نيك من ذكرى حبيب ومثل •

وقرأ الحسن تطهيرهم (بسكون الطاء) وهو منقول بالهمزة من طهر وأطهرته ، مثل
ظهر وأظهرته .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَصَلَّ عَلَيَّ ﴾ أصل في فعل كل إمام يأخذ الصدقة أن يدعو للتصديق بالبركة . روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى طَيْبٍ » فأتاه ابن أبي أوفى بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » . فذهب قوم إلى هذا ، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصل على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده خاصة ؛ لأنه خص بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » الآية . واثبت عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصل على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم . والأول أصح ؛ لأن الخطاب ليس مقصوراً عليه كما تقدم ، ويأتي في الآية بعد هذا . فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله

عليه وسلم، والثاني به؛ لأنه كان يمثل قوله : « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَّاتُكُمْ سَكَنَ لَمْ » أى إذا دعوت لم حين يأتون بصدقاتهم سَكَنَ ذلك فلو بهم وفرحوا به . وقد روى جابر ابن عبد الله قال : أتاني النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لأمرائى : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ههنا ولا نسأله شيئا ! فقالت : يا رسول الله، صل على زوبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صل الله عليك وعلى زوجك » . والصلاة هنا الرحمة والترحم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيها علمناه أن الصلاة في كلام العرب الدعاء ؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحزرة والكاسي « إِنْ صَلَّاتُكُمْ » بالتوحيد . وجمع الباقون . وكذلك الاختلاف في « أَصْلَاتُكُمْ تَامِرُكُمْ » وقرئ « سَكَنَ » بسكون الكاف . قال قتادة : معناه وقار لم . وَالسَّكَنُ : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الْبَدَلِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ أَتَوْابُ الرَّحِيمِ ﴿١١﴾
فيه مائتان :

الأول . — قيل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يكفون ولا يحسون ، فما لم الآن ؟ وما هذه الخاصة التي خُصوا بها دوننا ؟ فترلت : « أَلَمْ يَعْلَمُوا » ؛ فالضمير في « يَعْلَمُوا » طائفة إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين . قال معناه ابن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا ويطولوا أنفسهم . وقوله تعالى « هُوَ » تأكيد لأفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لاحتمال أن يكون قبول رسوله قبولاً منه ؛ فتبنت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه شيء ولا ملك .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا نص صريح في أن الله تعالى هو
 الاخذ لها والميتب عليها وأن الحق له جل وعز، والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة، فان تَوَقَّ
 فعامله هو الواسطة بعده، والله عز وجل حتى لا يموت . وهذا بين أن قوله سبحانه وتعالى
 « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ليس مقصورا على النبي صلى الله عليه وسلم . روى الترمذي عن
 أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه
 فِيرِيْبِهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يَرِيْ أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ حَتَّى أَنْ الْقَمَّةَ لِتَصِيرَ مِثْلَ أَحَدٍ وَتَصْدُقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ
 اللَّهِ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَيَحَقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَرِيْبُ الصَّدَقَاتِ " .
 قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم : " لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدُ بَخْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ
 إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ - فِي رِوَايَةٍ - قَتْرُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجِبَلِ " .
 الحديث . وروى " إِنْ الصَّدَقَةُ لَتَنُفَعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَنُفَعُ فِي كَفِّ السَّائِلِ فِيرِيْبِهَا كَمَا
 يَرِيْ أَحَدُكُمْ قُلُوبَهُ أَوْ فَيْصِلَهُ وَاقِهِ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم
 في تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول والجزاء عليها ؛ كما كنى بنفسه الكريمة
 المقدسة عن المريض تعطفًا عليه بقوله : " يَا بَنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي " الحديث . وقد
 تقدم هذا المعنى في « البقرة » . وخَصَّ الْيَمِينَ وَالْكَفَّ إِذْ كُلُّ قَابِلٍ لَشَيْءٍ إِنَّمَا يَأْخُذُهُ بِكَفِّهِ
 وَيَمِينِهِ أَوْ يَوْضَعُ لَهُ فِيهِ ؛ فَتُفْرَجُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَهُ ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ مَقَرُّهُ عَنِ الْجَارِحَةِ . وقد
 جاءت إيجين في كلام العرب بهنير معنى الجارحة ؛ كما قال الشاعر :

إِذَا مَا رَأَيْتُ رَفَعْتَ لِيْهِدَ • تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ الْيَمِينِ

أى هو مؤهل للجد والشرف ، ولم يُرَدِّ بِهَا يَمِينَ الْجَارِحَةِ ؛ لِأَنَّ الْجِدَّ مَعْنَى فَالْيَمِينِ الَّتِي تَلَقَّى
 بِهِ رَأْيَتِهِ مَعْنَى . وكذلك اليمين في حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى " تَرَبُّو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ " عبارة
 عن كَيْفَةِ الْمِيزَانِ الَّتِي تَوْزَنُ فِيهَا الْأَعْمَالُ ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ :
 تَرَبُّو فِي كَيْفَةِ مِيزَانِ الرَّحْمَنِ . وروى عن مالك والثوري وأبن المبارك أنهم قالوا في تأويل هذه

الأحاديث وما شابهها : أَمُرُوهَا بِلَا كَيْفٍ ؛ قاله الترمذى وغيره . وحكما قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

قوله تعالى : وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : (وَقُلْ أَعْمَلُوا) خطاب لجميع . (فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

أى بإطلاعه إياهم على أعمالكم . وقد انظر : " لو أن رجلا عمل في صحفة لا باب لها ولا كؤة يخرج عمله إلى الناس كأننا ما كان "

قوله تعالى : وَآخِرُونَ مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

نزلت في الثلاثة الذين توب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أمية من بني واقف ومرة ابن الربيع ؛ وقيل ابن ربيعي القمري ؛ ذكره المهدوي . كانوا قد تخلفوا عن نبوك وكانوا مبأسا على ما يأتي من ذكهم . والتقدير : ومنهم آخرون مَرَجُونَ ؛ من أرجأه أى أخرته . ومنه قيل : مُرَجَّةٌ ؛ لأنهم أنشروا العمل . وقرا حزة والكسائي « مَرَجُونَ » بنسب همز ؛ فقيس : هو من أرجسته أى أخرته . وقال المبرد : لا يقال أرجسته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء . (إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) « إنا » في العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ؛ أى ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا) معطوف ، أى ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ، عطف جملة على جملة . ويجوز أن يكون رُفعا بالإبتداء والخبر محذوف كأنه « يصدّون » أو نحوه . ومن قرأ « الذين » بغير واو وهى قراءة المذنبين فهو عنده رفع بالإبتداء ، والخبر « لا تقم » التثنية : الذين اتخذوا مسجداً لا تقم فيه ابتداءً أى لا تقم في مسجدهم ، قاله البكائي . وقال النحاس : يكون خبر الإبتداء « لا يزال بُنيانهم الذى يتنوّا ربيعةً في قلوبهم » . وقيل : الخبر « يصدّون » كما تقدّم . وزلت الآية فيها روى في أبى طاهر الراهب ؛ لأنه كان خرج إلى قيصر وتصرّ وهدم قيصر أنه سيأتيهم ، فبنوا مسجد الضرار يصدون مجيئه فيه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقد تقدّمت قصته في الأعراف . وقال أهل التفسير : إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجداً فبنا وبنا للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فانهم فصلّوا فيه ، فهدمهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : بنى مسجداً ونهضت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأنينا فيصل لنا كما صلى في مسجد إخواننا ، ويصل في أبى طاهر إذا قدم من الشام ، فاتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لدى الحاجة ، واليلة واليلة المطيرة ، ونحب أن تصل لنا فيه وتدعوا بالبركة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني على سفر وحالي شغل فلو قعدنا لأنينا كم وصلينا لكم فيه » . فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليبلسه ويأتيهم فقتل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم مالك بن النخشم ومعن بن عدي وعامر بن السخن وخشياً قاتل حمزة ، فقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلها فاهدموه وأحرقوه » فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن النخشم من منزله شعلة نار ، وتنفضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه أثنى عشر رجلاً : خذام بن خالد من بنى هبيل بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف

ومن داره أنخرج مسجد الضرار، ومعتب بن قُشير، وأبو حبيبة بن الأذعر، وعبد ابن حنيفة أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف . وجارية بن عامر، وابناه بُجَع وزيد بن جارية، وبُتَيْل بن الحارث، وبُجَاز، وبُجَاز بن عثمان، ووديسة بن ثابت، وشعبة ابن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر؛ لأنه شهد بدرًا . وقال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلًا منهم بماذا أعنت في هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشري يا سارية في عنتك من نار جهنم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ضَرَّارًا ﴾ مصدر مفعول من أجله . ﴿ وَكُفْرًا وَفِرْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْرَصًا ﴾ عطف كَلَّةً . وقال أهل التأويل : ضرارًا بالمسجد، وليس للمسجد ضرار، إنما هو لأهله . وروى الثَّارِقُطْنِيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ضَرَر ولا ضَرَارَ مَنْ ضَارَّ ضَرَّ الله به ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه » ، قال بعض العلماء : الضرر : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضَّرَّار : الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل هما بمعنى واحد، تكلم بهما جميعا على جهة التأكيد .

الثالثة — قال علماءنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه ؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكتفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا يبنى أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثاني؛ ومن صلى فيه الجمعة لم يُجزئه . وقد أحرقت النبي صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وهدمه . وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني ناضرة فوجد الصلاة قد فاته؛ فقيل له : إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد؛ فقال : لا أحب أن أصلي فيه ؛ لأنه بُني على ضرار . قال علماءنا : وكل مسجد بُني على ضرار أو رياء وشبهة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألا يصلي في كنيسة ونحوها ؛ لأنها بُنيت على شر .

(١) كذا في بعض الأصول، وفي البعض الآخر : « بنى عامرة » . وافق في الطبري : « بنى عامر » .

قالت : هذا لا يلزم ؛ لأن الكنيسة لم يقصد بنائها الضر بالغير ، وإن كان أصل بنائها على شر ، وإنما اتخذ النصراني الكنيسة واليهود البيعة موضعا يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا . وقد أجمع العلماء على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة . وذكر البخاري أن ابن عباس كان يصل في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم .

الرابعة - قال العلماء : إن من كان إماما لظالم لا يصل وراءه ، إلا أن يظهر عنده أو يتوب ؛ فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن جارية أن يصل بهم في مسجدهم ؛ فقال : لا ولا نعمة عين ! ليس بإمام مسجد الضرار ! فقال له مجمع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علي ، فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمرنا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاما فاردا للقرآن ، وكانوا شيوخا قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شيئا ، فصليت ولا أحسب ما صنعت إنما ، ولا أعلم بما في أنفسهم ؛ فعذره عمر وصدقته وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

الخامسة - قال علماءنا رحمة الله عليهم : وإذا كانت المسجد الذي يتخذ للعبادة وحض الشريعة على بنائه فقال : " من بنى لله مسجدا ولو كتم حص قطة بنى الله له بيتا في الجنة " يهدم إذا كان فيه ضرر بغيره ، فما ظنك بسواه ! بل هو آخرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على المتقدم . وذلك كمن بنى قُرْثًا أو رَحَى أو حفر بئرا أو غير ذلك مما يدخل به الضرر على الغير . وضابط هذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضررا مئع . فإن أدخل على أخيه ضررا بفعل ما كان له فعله في ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل ؛ فإن كان تركه أكبر ضررا من الضرر الداغل على الفاعل قطع أكبر

الضررين وأعظمهما حرمة في الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كُفَّة في منزله يطلع منها على دار أخيه وفيها البغال والأهل ، ومن شأن النساء في بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتقار في حوائجهم ، ومعلوم أن الإطلاع على المورات محرم وقد ورد التهي فيه ؛ فحرمة الإطلاع على المورات رأى العلماء أن ينفقوا على فتح الباب والكُفَّة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفي طلقه عليه ضرر ؛ لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين ، إذ لم يكن بد من قطع أحدهما . وهكذا الحكم في هذا الباب ، خلافاً للشافعي ومن قال بقوله . قال أصحاب الشافعي : لو حفر رجل في ملكه بئراً وحفر آخر في ملكه بئراً يسرق منها مائة البئر الأولى جائز ؛ لأن كل واحد منهما حفر في ملكه فلا يمنع من ذلك . ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كيفاً يُفسده عليه لم يكن له منعه ؛ لأنه لا تصرف في ملكه . والقرآن والسنة يردان هذا القول . وبالله التوفيق .

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه ، كدخان القرن والتمائم وغبار الأندُر^(١) والبرد المتولد من الزبل المهسوط في الزحانِب ، وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بأن ضرره وخشى تسماده . وأما ما كان ساعة خفيفة مثل ففض الثياب والحصر عند الأبواب ؛ فإفاد هذا مما لا يغني بالناس عنه ، وليس مما يستحق به شيء ؛ فنفي الضرر في منع مثل هذا أعظم وأكبر من الصبر على ذلك ساعة خفيفة . ولجار على جاره في أدب السنة أن يصبر على أذاه على ما يقدر ، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسة - - ومما يدخل في هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبي أويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عَرَّضَ لها ، يعني مساً من الجن ، فكانت إذا أصابها زوجها وأجبت أو دنا منها يشتد ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يقربها ، وأرى للسلطان أن يحول بيته ويبيتها .

(١) الأندُر : اليدبر ، وهو الموضع الذي يداس فيه الحظام .

السابعة - قوله تعالى : (وَكُفِّرُوا) لما كان اعتقادهم أنه لا حرمه لمسجد قُبَاءَ ولا لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله ابن العربي، وقيل : «وكفروا» أي بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به؛ قاله القشيري وغيره .

الثامنة - قوله تعالى : (وَتَقَرَّبَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ) أي يزورون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا يدلُّ على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد اللِّدَام والحزمة بفعل الدِّيانة حتى يقع الأُنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من ضرر الأحقاد .

التاسعة - تطفئ مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا يصلِّ جماعتان في مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء . وقد روى عن الشافعي المنع؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة ونزيرة إلى أن قول : من يريد الأفراد عن الجماعة كان له مضر فيقيم حاجته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال ابن العربي : وهذا كان شأنا معهم، وهو أثبت قدامهم في الحكمة وأصل بمقاطع الشريعة .

العاشرة - قوله تعالى : (وَأَرْسَلْنَا إِلَى حَارِثٍ ^(١) أَنِ ابْنِ أَبِي هَامِرٍ الرَّاهِبِ وَهُوَ بِذَلِكَ لَأَنَّهُ كَانَ يَتَّبِعِدُ وَيُتَمَسِّعُ الْعِلْمَ فَاتَّكَفَرَا بِتَقْسِيرَيْنِ بِدْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَانَّهُ كَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا أَجِدُ قَوْمًا يَفَاتُلُونَكَ إِلَّا فَاغْتَلَبْتُكَ بِهِمْ ، فَلَمْ يَزَلْ يَفَاتُلُهُ إِلَى يَوْمٍ حُنَيْنٍ . فَلَمَّا انْهَزَمَتْ هَوَازِنُ خُرَاجٍ إِلَى الرُّومِ يَسْتَنْصِرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ وَقَالَ : اسْتَعْمُوا بِنَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةِ وَسِلَاحٍ ، وَأَبْنُوا مَسْجِدًا فَأَنِي أَجْعَلُكُمْ فِيهِ بِمَنْدُ مِنْ الرُّومِ لَأَخْرِجَ عَمْدًا مِنَ الْمَدِينَةِ ؛ فَبَنَوْا مَسْجِدَ الضَّرَارِ . وَأَبُو هَامِرٍ هَذَا هُوَ وَالِدُ حَنْظَلَةَ غَسِيلِ الْمَلَكَةِ ^(٢) ، وَالْإِرْصَادُ : الْقَوْلُ ؛ أُرْصِدْتُ كَذَا إِذَا أُرْصِدْتُهُ مَرْتَبًا لَهُ بِهِ . قَالَ أَبُو زَيْدٍ : يُقَالُ رَصِدْتُهُ وَأُرْصِدْتُهُ فِي الْخَيْلِ ، وَأُرْصِدْتُ لَهُ فِي الشَّرِّ . وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ :

(١) تفسيران (كسراه وضع قانيه وشهد به ويكره) : كورة بالياء . (٢) غسيل الملكة لأنه استبد به ولم يأخذ رهنه الملكة ؛ وذلك أنه كان قد ألم بأحواله في حين خروجه إلى أحد ، ثم جهم عليه من الخروج في الفقر ما أنساه النسل ما أجدهم ؛ فلما كل شيئا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملكة ضلته . (عن الاستياب) .

لا يقال إلا أُرصدت، ومعناه ارتقت . وقوله تعالى : (مِنْ قَبْلُ) أى من قبل بناء مسجد الضرار . (وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى) أى ما أردنا ببنائه إلا القيلة الحسنى، وهى الرقى بالمسلمين كما ذكروا لدى العلة والحاجة . وهذا يدل على أن الأنفال تختلف بالمقصود والإرادات ؛ ولذلك قال وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) أى يعلم خُبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه .

قوله تعالى : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ . فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿٢٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) يعنى مسجد الضرار ؛ أى لا تقم فيه للصلاة . وقد يبرهن عن الصلاة بالقيام ؛ يقال : فلان يقوم الليل أى يصل ؛ ومنه الحديث الصحيح : " من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه " . أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ... ؛ فذكره . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يميز بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يتخذ مكانة تلقى فيها الجليف والأقذار والقهامات .

الثانية — قوله تعالى : (أَبَدًا) « أبدا » ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقرر كالיום، وظرف متبهم كالحين والوقت ؛ والأبد من هذا القسم ، وكذلك الدهر . وتشأ هنا مسألة أصولية ، وهى أن « أبدا » وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أعاد العموم ، فلم قال : لا تقم ، لكنى فى الانكشاف المطلق ، فإذا قال : « أبدا » فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان . فأما التكرار فى الإثبات إذا كانت خبرا عن واقع لم تتم ، وقد فهم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لاهمراه أنت طالق أبدا طَلَّقَتْ طَلَقًا واحدة .

الثالثة - قوله تعالى: (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) أى بُنِيَ جُذُورُهُ وَوُضِعَتْ قَوَائِدهُ . وَالْأُسُّ أصلُ البناءِ ؛ وكذلك الأساس . وَالْأُسُّ مقصور منه . وجمع الأُسِّ إساس ؛ مثلُ حُسٍّ وعِساس . وجمع الأساس أُسُس ؛ مثلُ قُدَالٍ وقُدُل . وجمع الأُسِّ آساس ؛ مثلُ سببٍ وأسباب . وقد أُسِّسَ البناءُ تأسيساً ، وقولم : كان ذلك على أُسٍّ الدهر ، وأُسٍّ الدهر ، وإسَّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِدمِ الدهر ووجه الدهر . واللام في قوله «للمسجد» لام قَسَم . وقيل لام الابتداء ؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلاً ؛ وهى مقتضية تأكيداً . (أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) نعت لمسجد . (أَحَقُّ) خبر الابتداء الذى هو «للمسجد» . ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتَّقَى بها العقوبة ، وهى قتل من وقيت ؛ وقد تقدم .

الرابعة - واختلف العلماء في المسجد الذى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء ؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتلقوا بقوله : «من أول يوم» ، ومسجد قباء كان أُسِّسَ بالمدينة أول يوم ؛ فإنه بُنِيَ قبل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عمر وابن المسيب ، ومالك فيها رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذى عن أبي سعيد الخدري : قال تَمَارَى رجلان في المسجد الذى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى من أول يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قباء ، وقال آخر هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هو مسجدى هذا» . حديث صحيح . والقول الأول أَلْبَقَ بالقصة ؛ لقوله «فيه» وخمير الظرف يفتضى الرجال المتطهرين ؛ فهو مسجد قباء . والدليل على ذلك حديث أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء «فيه رجال يحبون أن يَتَطَهَّرُوا والله يحب المُطَهَّرِينَ» قال : كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية . قال الشعبي : هم أهل مسجد قباء ، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : «إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الشأن في التطهر

فما تصنعون؟ قالوا : إنا نفسل أثر الباطل والبول بالماء؛ رواه أبو داود . وروى الشافعي عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » فقال : « يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهروكم هذا؟ » قالوا : يا رسول الله، نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهل مع ذلك من غيره؟ » فقالوا : لا غير، إن أحدا إذا نزع من الغائط أحب أن يستنحي بالماء . قال : « هو ذلك فليكن » . وهذا الحديث يقتضي أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء، إلا أن حديث أبي سعيد الخدري نص فيه النبي صلى الله عليه وسلم على أنه مسجده فلا نظر معه . وقد روى أبو كريب قال : حدثنا أبو أسامة قال حدثنا صالح بن حيان قال حدثنا عبد الله بن بريدة في قوله عز وجل « فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ » قال : إنما هي أربعة مساجد لم يلقن إلا النبي : الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وبيت أريحا بيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذين أسسا على التوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخامسة - (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) « من » عند النحويين مقابلة منذ في الزمان بمزلة من في المكان . فقيل : إن معناها هنا معنى منذ ، والتقدير : منذ أول يوم أبتئني بنيانه . وقيل : المعنى من تأسيس أول الأيام ، فدخلت على مصدر الفعل الذي هو أسس كما قال :

لَمِنَ الدِّيارِ بَقْنَةُ الْخَمْسِ « أَقْوَمَ مِنْ جَمِّجٍ وَمِنْ دَعِيرٍ ^(١)

(١) هذا البيت مطلع قصيدة لعمير بن أبي سلى مدح بها هرم بن سنان . ولفظة (القم) : أصل الجبل ، وأراد بها هنا ما أشرف من الأرض . والجرج (بكر الحمار) : منازل تمود بتاسية للنام عند وادي القرى . وأقير : خلون وأقرون : والجرج : السون . (راجع هذا البيت والكلام عليه في الشاهد الرابع والسبعين بعد السجدة من نزلة الأذن البيهقي) .

أى من مَرَّحِج ومن مَرَّ دهر . وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن « من » لا يُجَرُّها إلا زمان ، وإنما نُجِّرُ الأزمان بمنزلة تقول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فإذا وقعت في الكلام وهي يليها زمن فيقدر مضموع يليق أن يُجَرَّ بمن ، كما ذكرنا في تقدير البيت . أبى عطية . ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقدير ، وأن تكون « من » تجر لفظة « أول » لأنها بمعنى البداءة ، كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادسة - قوله تعالى : (أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) أى بان تقوم ، فهو في موضع نصب . « وأحق » هو أفعّل من الحق ، وأفعّل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين ، لأحدهما في المعنى الذى اشتركا فيه مزية على الآخر ، فسجد الضار وإن كان باطلا لا حق فيه ، فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للعبودية ، لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله ، والآخر حق باطنا وظاهرا ، ومنل هذا قوله تعالى : « أَقْضَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة ، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير ، إذ كل حزب بما لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحل من الخل ، فإن العسل وإن كان حلوا لكل شيء ملام فهو حلوا ، ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعة - قوله تعالى : (فِيهِ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فالهاء في « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » عائد إليه ، و « فيه رجال » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير في « فِيهِ » عائد إليه على الخلاف المتقدم .

الثامنة - إن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وأمر النظافة ، وهي مروة آدمية ووظيفة شرعية ، وفي الترمذي عن عائشة أنها قالت : مُرَرْنَا أَرْوَاجَكُمْ أَنْ يَسْتَطِيعُوا بِالماء فَنُفَى أَسْتَحْيِمَ . قال : حديث صحيح . وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم

كان يحمل الماء معه في الاستنباة؛ فكان يستعمل الحجارة تخفيفاً والماء تطهيراً. أبى العربي :
وفد كان علماء القيروان يتخذون في متوَضَّاتِهِمْ أحجاراً في تراب يتقون بها ثم يستنجون بالماء.
التاسعة - اللازم من نجاسة المخرج التخفيف ، وفي نجاسة سائر البدن والثوب
التطهير . وذلك رخصة من الله لعباده في حالتي وجود الماء وعدمه ؛ وبه قال عامة العلماء .
وشذَّ ابن حبيب فقال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء . والأخبار الناجزة
في الاستجمار بالأحجار مع وجود الماء نادرة .

العاشرة - واختلف العلماء من هذا الباب في إزالة النجاسة من الأبدان واليابس ،
بعد إجماعهم على التجاوز والغفر عن دم البراغيث ما لم يتفاحش على ثلاثة أقوال : الأول -
أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلى بثوب نجس ما لم يكن بذلك أو ساهياً ؛ وروى
عن ابن عباس والحسن وابن سيرين ، وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور ، ورواه ابن وهب
من مالك ، وهو قول أبي الفرج المالكي والطبري ؛ إلا أن الطبري قال : إن كانت النجاسة
قدر الدرهم أعاد الصلاة . وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف في مراعاة قدر الدرهم قياساً على
جلبه الذر . وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالسة من الثياب والأبدان ، وجوب سنة
وليس بفرض . قالوا : ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة في الوقت فإن خرج الوقت فلا
شيء عليه ؛ فهذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج ، ورواية ابن وهب عنه . وقال مالك
في يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة في وقت ولا بعده ، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو
هذا كله من مذهب مالك قول الليث . وقال ابن القاسم عنه : تجب إزالتها في حالة الذكر
دون النسيان ؛ وهي من مفرداته . والقول الأول أصح إن شاء الله ؛ لأن النبي صلى الله عليه
وسلم مرَّ على قبرين فقال : "إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أمَّا أحدهما فكان يمتنئ بالخمعة
وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله" . الحديث ؛ نزيه البخاري ومسلم ، وحسبك . وسأقي
في سورة "سبحان" ^(١) . قالوا : ولا يسلب الإنسان إلا على ترك واجب ، وهذا ظاهر .

(١) في قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ... » آية ٢١

ودوى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أكثر عذاب القبر في البول » . احتج الآخرون بجمع النبي صلى الله عليه وسلم عليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فنهما قذرا وأذى ... الحديث . نزجه أبو داود وضمه من حديث أبي سعيد الخدري ، وسيأتي في سورة « طه » إن شاء الله تعالى . ^(١) قالوا : ولمّا لم يُد ما صلى دل على أن إزالته أسنة وصلاته صحيحة ، ويبد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم ،

الحادية عشرة - قال القاضى أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البليغ ^(٢) ، [بني كبار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار] قياسا على المسربة ففاسد من وجهين ، أحدهما - أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني - أن هذا الذي خُفف عنه في المسربة وخصه للضرورة ، والحاجة والرخص لا يقاس عليها ، لأنها خارجة عن القياس فلا تُرد إليه .

قوله تعالى : أَقَمْنَ أَسَسَ بَنِيئَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسَسَ بَنِيئَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(٣)

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَقَمْنَ أَسَسَ) أى أصل ، وهو استفهام معناه التقدير . و « من » بمعنى الذى ، وهى فى موضع رفع بالابتداء ، وخبره « خير » . وقرأ نافع وابن عامر وجماعة « أَسَسَ بَنِيَّاهُ » على بناء أسس للفعول ورفع ببيان فيها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزرة والكساى « أَسَسَ بَنِيَّاهُ » على بناء الفعل للفاعل ونصب بانيه فيها ، وهى اختيار أبى عبيد لاختاره من قرأ به ، وإن الفاعل سقى فيله . وقرأ نصر بن عاصم وابن على « أَقَمْنَ

(١) فى المسألة الثانية من قوله تعالى : « فاشطع ضحكك انك بالرادى المقدس طوى » آية ١٢

(٢) دراهم ضربها رأس البعل لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . (٣) زيادة عن ابن العربى .

(٤) المسربة (بفتح الراء وضها) : مجرى الحديث من القبر ، يريد أعلى الحلقة .

أُسُسُ» بالرفع «بُيَانُهُ» بالنخض . وعنه أيضا «أساس بُيَانُهُ» وعنه أيضا «أُسُّ بُيَانِهِ» بالنخض . والمراد أصول البناء كما تقدم . وحكى أبو حاتم قراءة سادة وحى «أفن أساس بُيَانِهِ» . قال النحاس : وهذا جمع أُسٍّ ؛ كما يقال : خف وأخفاف، والكثير «إساس» مثل يخفاف . قال الشاعر :

أصبح الملك ثابت الأساس • في البهائم من بنى العباس^(١)

الثانية - قوله تعالى : (عَلَى قَوَّيْنِ مِنَ اللَّهِ) قراءة عيسى بن عمر - فيما حكى سيويه - بالتونين، والألف ألف الحلق كأنف تَتَرَى فيما تُؤْن، وقال الشاعر^(٢) :

يَسْتَنُّ فِي عَلَقٍ وَفِي مُكْرٍ^(٣) •

وانكر سيويه التونين، وقال : لا أدري ما وجهه . (عَلَى شَفَا) الحرف : الحرف والحذ، وقد مضى في «آل عمران» مستوفى . و (جُرْف) قرئ برفع الراء، وأبو بكر حمزة بإسكانها؛ مثل الشُّفْل والشُّفْل، والرُّسْل والرُّسْل، معنى جُرْفًا ليس له أصل، وبالجرف : ما يجرف بالسيول من الأودية، وهو جوانبه التي تنحفر بالماء، وأصله من الجُرْف والأجتراف؛ وهو اقتلاع الشيء من أصله . (هَارٍ) ساقط؛ يقال : تهوّر البناء إذا سقط، وأصله هائر، فهو من المقلوب يقلب وتؤنحرهاؤها، فيقال : هارٍ وهائر، قاله الزجاج . ومثله لَآت الشيءُ به إذا دار؛ فهو لِابِتْ أى لائت، وكما قالوا : شاكى السلاح وشاك . قال المجاج :

• لَآبِتٌ بِهِ الْأَشَاءُ وَالْعُبَيْرَى •

الأشياء النخل، والعُبَيْرَى السَّدر الذي عل شاطئه الأنهار . ومعنى لائت به مُطِيف به . وزعم أبو نعيم أن الأصل فيه هاوز، ثم يقال هائر مثل صائم، ثم يقلب فيقال هارٍ . وزعم الكسائي أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء، وأنه يقال : تهور وتهير . قلت : ولهذا يمال ويفتح .

(١) راجع هذا البيت وشرح في الأناض ج ٤ ص ٣٤ طبع دار الكتب المصرية . (٢) هو المجاج . وصف محمودا يرتقى في ضروب من الشجر، واللقن والكرور؛ ضربان من الشجر . ومعنى يستن : يرتقى، وسنّ المشاة رعبا . (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع ج ٤ ص ١٦٤ طبة أول أو ثانية .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَأَنْهَارُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل أنهار الجحيم ، كان قال :
فأنهار الجحيم بالبيان في النار ؛ لأن الجحيم مذكور . ويجوز أن يكون الضمير في به يعود
على من وهو الباقي ؛ والتقدير : فأنهار من أسس بنيانه على غير تقوى . وهذه الآية ضرب
مثل لهم ، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق .
وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها . والشقا : الشقي . وأشقى على
كذا أي دنا منه .

الرابعة - في هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والقصد
لوجهه الكريم فهو الذي يبين ويتسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه ، ويخبر عنه
بقوله : ﴿ وَبَيْنَ وَجْهِ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ على أحد الوجهين . ويخبر عنه أيضا
بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة - واختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْهَارُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ هل ذلك
حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأول - أن ذلك حقيقة وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرسل
إليه فهنهم رؤى اللهبان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جبير . وقال بعضهم : كان الرجل
يدخل فيه سعة من سعة النخل فيخرجها سوداء محترقة . وذكر أهل التفسير أنه كان يحفر
ذلك الموضع الذي أنهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبي النجود عن زاذ بن حبيش
عن ابن مسعود أنه قال : جهنم في الأرض ، ثم تلا « فَأَنْهَارُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » . وقال جابر
ابن عبد الله : أنا وأبى اللهبان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني -
أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البناء في نار جهنم ، فكانه أنهار إليه وهوى فيه ؛ وهذا
كقوله تعالى : « فَأُتِيَ هَاطِيَةً » . والظاهر الأولي ، إذ لا إحالة في ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمْ آلِدَىٰ بَنُو رِيْسَةٍ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ

تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (لَا يَزَالُ بُقِيَائُهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا) ببنى مسجد الضرار . (ريبة) أى شكاً
 فى قلوبهم ونفاقاً؛ قاله ابن عباس وقادة والضحاك . وقال الثابتة :
 حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله مَسْئَبُ

وقال الكلبي : حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا على بنيانه . وقال السدي وحبيب والمبرد :
 « ريبة » أى حزازة وغيظاً . (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) قال ابن عباس : أى تنصدع
 قلوبهم فيموتوا؛ كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » لأن الحياة تنقطع باقطاع الوتين^(١)؛ وقاله
 قتادة والضحاك ومجاهد . وقال سفيان : إلا أن يتوبوا . عكرمة : إلا أن تقطع قلوبهم
 فى قبورهم ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : ريبة فى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم .
 وقرأ الحسن وبهقوب وأبو حاتم « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون فى شك منه
 إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا ، واختلف القراء فى قوله « تَقَطَّعَ » فابيهود « تُقَطَّع » بضم
 التاء وضع القاف وشدد الطاء على الفعل المجهول . وقرأ ابن عامر وحزمة وحفص وبهقوب
 كذلك إلا أنهم قنعوا التاء . وروى عن بهقوب وأبي جند الرحمن « تَقَطَّعَ » على الفعل
 المجهول غنفت القاف . وروى عن شبل وابن كثير « تَقَطَّعَ » خفيفة القاف « قلوبهم »
 نصبا ، أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبد الله . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)
 تقسم .^(٢)

قوله تعالى : إِنْ اللَّهَ اشْتَرَيْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
 لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْنَتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَلَىٰ عَلَيْهِ حَقًّا
 فِي التَّوْبَةِ وَالْإِجْلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
 بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾

(١) آية ٤٦ سورة الحاقة .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبة ثانية أو ثالثة .

فيه من مسائل :

الأول - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ قيل : هذا تمثيل ؛ مثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ » ^(١) . ونزلت الآية في البيعة الثانية ؛ وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سنًا حُقب بن عمرو ؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اشترط لي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا تقبل ولا نستقبل ؛ فنزلت : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَمْ يَلْحَقُوا بِاللَّحْنَةِ » الآية . ثم هي بعد ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانية - هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده ، وإن كان الكحل للسيد لكن إذا ملكه كامله فيما جعل إليه . وجائز بين السيد وعبده مالا يجوز بينه وبين غيره ؛ لأن ماله له وله انتزاعه .

الثالثة - أصل الشراء بين الخلق أن يعوضوا عما خرج من أيديهم ما كانت أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم في النفع ؛ فأشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته ، وإهلاكها في مرضاته ، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضاً عنها إذا فعلوا ذلك . وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوض ولا يقاس به ، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله التواب والنوال ؛ فسمى هذا شراء . وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فوق كل يَرٍ يَرٌ حتى يبذل العبد دمه فإذا فعل ذلك فلا يَرٍ فوق ذلك » . وقال الشاعر :

الجلود بالمال جود فيه مكربة • والجلود بالنفس أقصى غاية الجود

وَأَشَدُّ الْأَمْصَىٰ لِحُمْفِرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَتَأْمِنُ بِالنَّفْسِ الْفَاسِقَةِ رِبِّهَا * وَلَيْسَ لَهَا فِي الْإِلَاقِ كَلِمَةٌ مِّنْ

بِهَا تُشْتَرَى الْجَنَاتُ ، إِنْ أَنَابَتْهَا * بِشَيْءٍ سِوَاهَا إِنْ ذَلِكُمْ فَتْرٌ

لِّثَنِّ ذَهَبٍ نَفْسِي بِدُنْيَا أَصْبَتْهَا * لَقَدْ ذَهَبْتُ نَفْسِي وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ

قال الحسن : وصراعي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : « إِنْ أَلَّه

أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » فقال : كلام من هذا ؟ قال : « كلام الله » قال : بيع والله

مُرَّحٌ لَا ثِقِيلَهُ وَلَا نَسْتَقِيلَهُ . فخرج إلى التَّوْبَةِ وَاسْتَشْهَدَ .

الرابعة — قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين البائنين المكلفين كذلك اشترى من

الأطفال قائلهم وأسقمهم ؛ لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبائنين ، فإنهم

لا يكونون عند شيء أكثر صلاحاً وأقل فساداً منهم عند ألم الأطفال ، وما يحصل للوالدين

الكافرين من التوبان فيما ينالهم من الهم ويتعلق بهم من التربية والكفالة . ثم هو من وجب

يؤمض هؤلاء الأطفال عروضا إذا صاروا إليه . ونظير هذا في الشاهد أنك تكثرى الأجير ليبي

وينقل السراب وفي كل ذلك له ألم وأذى ، ولكن ذلك جائز لما في عمله من المصلحة

ولما يصل إليه من الأجر .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان لما يقاتل له وطيه ، وقد

تقدم . ﴿ يَقَاتِلُونَ وَيُقَاتِلُونَ ﴾ قرأ النخعي والأعمش وحزرة والكاسي وخلف بتقديم المفعول

على أفعال ، ومنه قول امرئ القيس :

• إِنْ قَتَلْتُمَا قَتَلْتُمَا •

أى إن قتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا . وقرأ الباقر بتقديم الفاعل على المفعول .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ إخبار من

الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى

عليه السلام . و « وَعَلَا » و « حَقٌّ » مصدران مؤنكبان .

السابعة - قوله تعالى : (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) أى لا أحد أوفى بعهد من الله . وهو يتضمن الوفاء بالوعد والعهد ، ولا يتضمن وفاء البارئ بالكل ؛ فأما وعده فلجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وبعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدم هذا المعنى مستوفى .

الثامنة - قوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَبِغُوكُمُ اللَّهُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) أى اظهروا السرور بذلك . والبشارة بإظهار السرور فى البشارة . وقد تقدم . وقال الحسن : والله ماعل الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . (وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى الظفر بالبيعة والخلود فيها .

قوله تعالى : (أَلَتَنَبَّيُونَنَا أَلْعَلِيْدُونَ أَلْحَمِيدُونَ أَلَسَدِّحُونَ أَلَرَّكِعُونَ أَلَسَنَدِيدُونَ أَلَايُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَنْسِرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١)
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَلَتَنَبَّيُونَنَا أَلْعَلِيْدُونَ) التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى مصيبة الله إلى الحالة الحميدة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع ، والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المصيبة لجمعه بين الأمرين . (أَلَعَلِيْدُونَ) أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . (أَلْحَمِيدُونَ) أى الراضون بقضائه المصروفون نعمته فى طاعته ، الذين يمدحون الله على كل حال . (أَلَسَدِّحُونَ) الصائغون ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعالى : « مَا يَدَايِ سَاحَاتٍ » . وقال سفيان بن عيينة : إنما قيل للصائم ساحع لأنه يترك اللذات كلها من المظم والمشرى والنكاح . وقال أبو طالب :

وبالصائحين لا ينفقون قطرة • (ربيهم والذاكرات الموالم)

(١) راجع ١٠٧ ص ٢٣٨ طبع ثانية أو ثالثة . (٢) آية • سورة التحريم .

وقال آخر :

بِرَّاً يَصِلُ إِلَيْهِ وَنَهَارَهُ . يَطَّلُ كَثِيرَ الذِّكْرِ سَامِحاً

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، أسنده الطبري . ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتي الصيام " . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض . وقد قيل : إنهم الذين يديون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أمامة أن رجلاً أسأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " . صححه أبو محمد عبد الحفيظ . وقيل : السائحون المهاجرون ، قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هم الذين يسألون لطلب الحديث والعلم ، قاله عكرمة . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيده وتظيمه ، حكاه النقاش . وحكي أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فادخل أصبعه في أذن القدح وبعد يتفكر حتى طلع الفجر ، فقيل له في ذلك فقال : أدخلت أصبعي في أذن القدح فذكرت قول الله تعالى : « إِذْ الْأَغْلَاقُ فِيَ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » وذكرت كيف اتقى النمل وبقيت ليل في ذلك أجمع .

قلت : لفظ " سائح " يدل على صحة هذه الأقوال ، لأن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء ، فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره ، فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون يهول قلوبهم فيما ذكر . وفي الحديث : " إن الله ملائكة سياحين متسائمين في الأفاق يبلغوني صلاة أمتي " ويرى " سياحين " بالصاد ، من الصياح . (الرَّكْعُونَ السَّاجِدُونَ) يعني في الصلاة المكتوبة وغيرها . (الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) أي بالسنة . وقيل بالإيمان . (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) قيل عن البدعة . وقيل عن الكفر . وقيل : هو عموم في كل معروف ومنكر . (وَالْحَافِظُونَ لِمَنْوَدِ اللَّهِ) أي الحافظون لما أمر به والمتهون عما نهى عنه .

الثانية - واختلف أهل التأويل في هذه الآية، هل هي متصلة بما قبل أو منفصلة؛ فقال جماعة: الآية الأولى مستقلة بنفسها؛ يقع تحت تلك المبايعة كل وعود قائل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات في هذه الآية الثانية أوباكثرها. وقالت فرقة: هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان؛ فلا يدخل تحت المبايعة الا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبدلون أنفسهم في سبيل الله؛ فإله الضعفاء. قال ابن عطية: وهذا القول يخرج وتضييق، ومعنى الآية هل ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكفاية من المؤمنين، ذكرها الله ليستيق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى مرتبة. وقال الزجاج: الذي عندي أن قوله «التائبون العابدون» رفع بالإبتداء وخبره مضمرة؛ أي التائبون العابدون - إلى آخر الآية - لم الجنة أيضا وإن لم يحادوا، إذا لم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك الجهاد؛ لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض في الجهاد. واختار هذا القول القشيري وقال: وهذا حسن؛ إذ لو كان صفة للمؤمنين المذكورين في قوله: «اشترى من المؤمنين» لكان الوعد خاصا للجاهدين. وفي مصنف عبد الله «التائبين العابدين» إلى آخرها؛ ولذلك وجهان: أحدهما الصفة للمؤمنين على الإتيان. والثاني النصب على المدح.

الثالثة - واختلف العلماء في الراو في قوله: «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» فعيل؛ دخلت في صفة التامين كما دخلت في قوله تعالى: «حَسْبُكَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ». فأفرد الذنب وقايل التوب؛ فذكر بعضها بالواو والبعض بديرها. وهذا سائق مناد في الكلام ولا يطلب لئله حكمة ولا علة. وقيل: دخلت لمصاحبة التامى عن المنكر الأمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفردا. وكذلك «تَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا». ودخلت في «وَالْحَافِظُونَ» لقربه من المطوف. وقد قيل: إنها زائدة، وهذا ضعيف لا معنى له. وقيل: هي و التائبية؛ لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح. وكذلك قالوا في قوله: «تَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا».

وقوله في أبواب الجنة : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » وقوله : « ويقولون سبعة وتأميمهم كلهم »^(٢٢)
وقد ذكرها ابن خالويه في مناقبته لأبي علي الفارسي في معنى قوله : « وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »
وأكثرها أبو علي . قال ابن عطية : وحديث أبي رضى الله عنه عن الأستاذ النحوي أبي
عبد الله الكوفي السالقي ، وكان ممن استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن حنبل أنه
قال : هي لغة فصيحبة لبعض العرب ، من شأنهم أن يقولوا إذا عدلوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة
خمس ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة ؛ وهكذا هي لغتهم . ومتى جاء في كلامهم أمر بمخانة
أدخلوا الواو . قلت : هي لغة قريش . وسيأتي بيانه ونقصه في سورة « الكهف »^(٢٣) إن شاء
الله تعالى وفي الزمر^(٢٤) .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٧﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب
الوفاء وجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية
ابن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك
بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب .
فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب
آخراً كلمتهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أنت يقول لا إله إلا الله . فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أكن منك » فأنزل الله عز وجل
« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ » . وأنزل الله في أبي طالب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ

(١) آية ٧٣ سورة الزمر . (٢) آية ٢٢ سورة الكهف . (٣) في قوله تعالى : « يستغفرون » - يستغفرون
لأنهم رأوا بهم كلهم ... آية ٢٢ (٤) في قوله تعالى : « ربي الذين اغفروا بهم ... » آية ٧٣

لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^(١) . فالآية على هذا ناطقة بالاستغفار النبي صلى الله عليه وسلم له ، فإنه استغفر له بعد موته على ما روى في غير الصحيح . وقال الحسين بن الفضل : وهذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، ومات طالب في صفوان الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانية - هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حجبهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ؛ فطلب القرآن للشرك مما لا يجوز . فإن قيل : فقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد حين كسروا رباعيته وفتحوا وجهه : " اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون " فكيف يجتمع هذا مع منع الله تعالى رسوله والمؤمنين من طلب المغفرة للمشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على سبيل الحكاية عن نفسه من الأنبياء ، والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمشي بينا من الأضياء ضربه قومه وهو يمسخ الدم عن وجهه ويقول : " رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون " . وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نبيا قبله فحبه قومه بفعل النبي صلى الله عليه وسلم يخبر عنه بأنه قال : " اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون " .

قلت : وهذا صريح في الحكاية عن قبله ، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبي الذي حكاه هو نوح عليه السلام ؛ على ما يأتي بيانه في سورة " هود " إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار في الآية الصلاة . قال بعضهم : ما كنت لأدفع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حيل من الزنى ؛ لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية . قال عطاء بن أبي رباح : الآية في النهي عن الصلاة على المشركين ، والاستغفار هنا يراد به الصلاة . جواب ثالث - وهو أن الاستغفار للأحياء جائز ، لأنه مرجو إيمانهم ، ويمكن

تألفهم بالقول الجليل وترغيبهم في الدين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعو الرجل لأبيه الكافرين ويستغفر لهم مادام حيين . فاما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له . قال ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فقلت ، فامسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثة - قال أهل المعاني : « ما كان » في القرآن يأتي على وجهين : على النفي نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِئُوا بَخْرَمَا » ^(١) ، « وَمَا كَانَ لَنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . والآخر بمعنى النهي كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » ، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١١﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى السائى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبيه وهما مشركان ، فقلت : استغفرلها وهما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فقلت ((وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)) . والمعنى لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ، فان ذلك لم يكن إلا عن وعدة . قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلص الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له ، فالكنية في قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم ، والواحد أبوه . وقيل : الواحد إبراهيم ، أى وعد إبراهيم إياه أن يستغفره فلما مات مشركاً تبأ منه . وذلك على هذا الوعد قوله : « مَا اسْتَغْفِرُكَ رَبِّي » . قال الفاضل أبو بكر بن العربي : تعالى النبي صلى الله عليه

(١) آية ٦٠ سورة الزل . (٢) آية ١٤٥ سورة آل عمران . (٣) آية ٥٣ سورة الأناب .

(٤) آية ٤٧ سورة مريم .

وسلم في الاستغفر لأبي طالب بقوله تعالى : « سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي » فأخبره الله تعالى أن استفاد إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه، فكيف تستغفر أنت لعلمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانية - ظاهر حالة المرء عند الموت يُحكم عليه بها ؛ فإن مات على الإيمان حكم له به ، وإن مات على الكفر حكم له به ؛ وربك أعلم بباطن حاله ؛ بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يا رسول الله ، هل نفعت عمك بشئ ؟ قال : « نعم » . وهذه شفاعته في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار ؛ على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .

الثالثة - قوله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) اختلف العلماء في الأَوَّاه على خمسة عشر قولاً : الأول - أنه الدعاء الذي يكثر الدعاء ؛ قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير . الثاني - أنه الرحيم بعباد الله ؛ قاله الحسن وقتادة ، وروى عن ابن مسعود . والأول أصح إسناداً عن ابن مسعود ؛ قاله النحاس . الثالث - أنه الموقن ؛ قاله عطاء وعكرمة ، ورواه أبو طليان عن ابن عباس . الرابع - أنه المؤمن بلسنة الحبشة ؛ قاله ابن عباس أيضاً . الخامس - أنه المسيح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة ؛ قاله الكلبي وسعيد ابن المسيب . السادس - أنه الكثير الذكر لله تعالى ؛ قاله عتبة بن عامر ، وذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم وجلا يكثر ذكر الله ويسبح فقال : « إنه لأَوَّاه » . السابع - أنه الذي يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروي عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن - أنه المتأوه ؛ قاله أبو ذر . وكان إبراهيم عليه السلام يقول : « آه من النار قبل ألا تنفخ آه » . وقال أبو ذر : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول في دعائه : « آوه آوه » فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « دعه فإنه أولاه » فخرجت ذات ليلة فلما أتته النبي صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . التاسع - أنه الفقيه ؛ قاله مجاهد والنخعي . العاشر - أنه المتضرع الخاضع ؛ رواه عبد الله بن شاذان بن الحاد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أنس : تكلمت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم بشئ كرهه فيها عز فقال النبي صلى الله عليه

وسلم : " دَعُوها فإِذَا أَتَاهَا " قيل : يا رسول الله ، وما الأتَاهَا ؟ قال : " التماسمة " .
 الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها ؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر —
 أنه الكثير التآوه من الذنوب ؛ قاله الفراء . الثالث عشر — أنه المحلم^{بالله} خير ؛ قاله سعيد
 ابن جبير . الرابع عشر — أنه الشفيق ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق
 رضى الله عنه يُسَمَّى الأتَاه لشففته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجع عن كل ما يكره الله
 تعالى ؛ قاله عطاء . وأصله من التآوه ، وهو أن يُسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء .
 قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تآوه . قال الجوهري : فوهم عند الشكاية
 آؤه من كذا (ساكنة الواو) إنما هو توجع . قال الشاعر :

فآؤه لَدَ كَرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتَهَا • وَمِنْ بَدِ أَرْضِ بَيْنَا وَسَمَاءَ

وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا : آه من كذا . وربما شقّدوا الواو وكسروها وسكنوا الماء
 فقالوا : آؤه من كذا . وربما حذفوا مع التشديد الماء فقالوا : آؤن من كذا ؛ فلا مد .
 وبعضهم يقول : آؤه ، بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة الماء تطويل الصوت بالشكاية .
 وربما أدخلوا فيها التاء فقالوا : أتواه ؛ يمد ولا يمد . وقد آؤه الرجل تآؤيا وتآؤه تآؤعا إذا
 قال آؤه . والاسم منه الآهة بالمد . قال المتنب العبدى :

إِذَا مَا قُتُّ أَرْسَلَهَا لِيَلِي • تَآؤُهُ آهَةٌ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

والحلم : الكثير الحلم ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم
 يعاقب أحدا قط إلا أن الله ولم يتصر لأحد إلا الله . وكان إبراهيم عليه السلام كذلك ،
 وكان إذا قام يصلى سُمع وجيب قلبه على ميتين .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْمُنَ
 هُمْ مَأْتِقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٦﴾

(١) سئل كل شيء : غفاته واضطرابه .

(٢) وجيب القلب : غفاته واضطرابه .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) أي ما كان الله ليقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يتقوه ، فعند ذلك يستحقون الإضلال . قلت : نفى هذا أدل دليل على أن الماعصي إذا ارتكب واتك حجابها كانت سببا إلى الضلالة والردى ، وسما إلى ترك الرشد والهدى . نسأل الله السداد والتوفيق والرشد بمنه . وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله في قوله « حتى يبين لهم » : أي حتى يمتحن عليهم بأمره ؛ كما قال : « وإذا أردنا أن نبيك قرية أمرنا مترفيا ففسقوا فيها »^(١) وقال مجاهد : « حتى يبين لهم » أي أمر إبراهيم ؛ أي لا يستغفروا للشركين خاصة وبين لهم الطاعة والمصيبة عامة . وروى أنه لما نزل تحريم الخمر وشد فيها سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن مات وهو يشربها ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هدام وإيمانهم ؛ كما تقدم .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ نَفْسَ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) تقدم معناه غير مرة .

قوله تعالى : لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾

روى الترمذي حدثنا عبد بن حيد حدثنا عبد الزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاهما حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ، ولم يأتب النبي صلى الله عليه وسلم أحدا تخلف عن بدرا ، إنما خرج يريد البئر فخرجت قريش مؤيدين لعيرهم ، فالتقوا عن غير موعد .

(١) آية ١٦ سورة الاسراء . (٢) راجع ج ١ ص ١٤٩ ، ١٨٦ طبع ثانية أرسطو .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦١ . راجع ج ١ ص ٦٩ طبع ثانية أرسطو .

فَإِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَلَعَمْرِي إِذَا أَشْرَفَ مُشَاهِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّاسِ لِيَدْرَ ، وَمَا أَحَبُّ أَتَى كُنْتَ شَهِدَتْهَا مَكَانَ بَيْتِي لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاقَعْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ لَمْ أَتَخَلَّفْ بَعْدَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ ، وَهِيَ آخِرُ غَزْوَةٍ غَزَاهَا ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرَّحِيلِ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ قَالَ : فَأَتَخَلَّفْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَهُوَ يَسْتَبِيرُ كَأَسْتَبِيرَةِ الْقَمَرِ ، وَكَانَ إِذَا سُرَّ بِالْأَمْرِ اسْتَبَارَ ، بَغَتْ بَغْلَتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ^{٢٢} «إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَكْرَبُ بْنُ مَالِكٍ خَيْرٌ بِرِيحٍ أَتَى عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أَمَّا» قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَمِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِكَ؟ قَالَ : «بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» — ثُمَّ تَلَاهُ هَذِهِ الْآيَةَ — ^{٢٣} «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ — حَتَّى بَلَغَ — إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» قَالَ : وَفِينَا أَنْزَلَتْ أَيْضًا «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ . وَسَيَأْتِي مَكَلًّا فِي مَجْمُوعِ مُسْلِمٍ فِي قِصَّةِ الثَّلَاثَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ التَّوْبَةِ الَّتِي تَابَهَا اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى أَقْوَالٍ ، فَقَالَ إِبْنُ عَبَّاسٍ : كَانَتْ التَّوْبَةُ عَلَى النَّبِيِّ لِأَجْلِ إِذْنِهِ لِلثَّائِقِينَ فِي الْقَعُودِ ؛ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ : «عَصَا اللَّهِ عَنْكَ لَمْ أَذْنَبْتُ لَهُمْ» وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مِيلِ قُلُوبٍ بَعْضُهُمْ إِلَى التَّخَلُّفِ عَنْهُ . وَقِيلَ : تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ اسْتِغْفَاؤُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْعُسْرَةِ . وَقِيلَ : خِلَاصُهُمْ مِنْ لُكَايَةِ الْعُسْرِ ، وَجَبَّ عَنْ ذَلِكَ بِالنُّسُوبَةِ وَإِنْ خَرَجَ عَنْ صَرْفِهَا لَوْجُودِ مَعْنَى التَّوْبَةِ لِنَفْسِهِ ، وَهُوَ الرَّجُوعُ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى . وَقَالَ أَهْلُ الْعَمَانِي : إِنَّمَا ذُكِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْبَةِ لِأَنَّهُ لِمَا كَانَ سَبَبَ تَوْبَتِهِمْ ذُكِرَ مَعَهُمْ ؛ كَقَوْلِهِ «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» وَلِلرَّسُولِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) أَيُّ فِي وَقْتِ الْعُسْرَةِ ، وَالْمُرَادُ جَمِيعُ أَوْقَاتِ تِلْكَ الْفَزَاةِ وَلَمْ يَرِدْ سَاعَةً بَيْنَهَا . وَقِيلَ : سَاعَةُ الْعُسْرَةِ أَشَدُّ السَّاعَاتِ الَّتِي صُرْتُ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْفَزَاةِ . وَالْعُسْرَةُ صُعُوبَةُ الْأَمْرِ . قَالَ جَابِرٌ : اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ عُسْرَةُ الظَّهْرِ وَعُسْرَةُ الزَّادِ

وعسرة الماء . قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم ، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المنخير والإهالة المنتنة ، وكان التمر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكلها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم ، فلا يبقى على التمرة إلا التواة ، ففَضُوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم وبينهم رضى الله عنهم . وقال عمر وقد سئل عن ساعة العسرة : نخرجنا في قيط شديد فترلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بصره فيمصر فرثه فيشر به ويعمل ما يقي على كبده . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عودك في الدماء خيراً فادع لنا . قال : " أحبب ذلك " ؟ قال نعم ؛ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فلثوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جازت المسكر . وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كما مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأصاب الناس جماعة وقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحن نواضعنا فاكلنا وأدعنا . [فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " افضلوا "] بقاء عمر وقال : يا رسول الله إن فاضلوا قل الظهور ، ولكن أدعهم بفضل أزوادهم فأدع الله عليا بالبركة لعل الله أن يعمل في ذلك . قال " نعم " ثم دعا بنطح فبسط ، ثم دعا بفضل الأزواد ، فجلس الرجل يبيء بكف ذرة ، ويبيء الآخر بكف تمر ، ويبيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطح من ذلك شيء يسير . قال أبو هريرة : فغزوته فإذا هو قد سدر رُبضة المتر ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة : ثم قال : " خذوا في أوعيتكم " فأخذوا في أوعيتهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقي في المسكروعاء إلا ملثوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ؛ وفضلت فضلة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يأتي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيُحجب عن الجنة " . ترجمه مسلم في صحيحه

(١) الإهالة : اللحم . (٢) القرث : السرجين (الزبل) ما دام في الكرش .

(٣) التناضح : البير يستقى عليه ثم يستعمل في كل بئر وإن لم يحمل الماء . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .

(٥) النطح : بساط من الأديم . (٦) رُبضة المتر (بضم الراء وتكرار) : جنباً إذا بركت .

بقتله ومعناه، والحمد لله . وقال ابن عرفة : سُمِّيَ جيشُ تبوك جيشَ الحُجْرَةِ لِأَن رسول الله صلى الله عليه وسلم تَدَبَّ الناس إلى الغزو في حِمَاة القَيْظِ، فَعَلَّطَ عليهم وَعَسَّرَ، وكان إِيَّانَ ابْتِغَاءِ الثَمَرَةِ . قال : وَإِنَّمَا ضُرِبَ المَثَلُ بِجَيْشِ العِمْرَةِ لِأَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَغْزِ قبله في عدد مثله ، لِأَن أَصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرَكانوا ثَلَاثِينَ وَبَضْعَةَ عَشَرَ، وَيَوْمَ أُحُدٍ سِتِّينَ، وَيَوْمَ خَيْبَرَ أَلْفًا وَخَمْسِينَ، وَيَوْمَ التَّحِيٍّ عَشْرَةُ أَلْفٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا؛ وَكَانَ جَيْشُهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَزِيَادَةً، وَهِيَ آخِرُ مَنَازِيهِ . وَتَخَرَّجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فِي رَجَبٍ وَأَقَامَ بِتَبُوكَ سَبْعِينَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ، وَبَتَّ سَرَايَاهُ وَصَالِحَ أَقْوَامِهَا عَلَى الْحِزْبَةِ . وَفِي هَذِهِ الْفَرَاةِ خَلَفَ عَلِيًّا عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : خَلَفَهُ بُغْضًا لَهُ ؛ فَخَرَجَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ نَبِيَّ بَنِي هَارُونَ مِنْ مُوسَى" ؟ وَبَيَّنَّ أَنَّ عَوْدَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَازِي فِي الْأَجْرِ خُرُوجَهُ مَعَهُ ؛ لِأَنَّ الْمَسِيرَ عَلَى أَمْرِ الشَّارِعِ . وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَوَكَّلُونَ حَتَّى تَبُوكَ، أَيْ يَدْخُلُونَ فِيهِ الْقُدْحَ وَيَحْكُمُونَ لِيُخْرِجَ الْمَاءَ، فَقَالَ : "مَا زِلُمْ تَتَوَكَّلُونَهَا بَوَّكًا" فَسَمِيَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزْوَةُ تَبُوكَ . الْحَسِي (بِالْكَسْرِ) مَا تَنَشَّغَهُ الْأَرْضُ مِنَ الرَّمْلِ ، فَإِذَا صَارَ إِلَى صَلَابَةِ أَمْسَكْتَهُ ، فَتَحْفَرُ عَنْهُ الرَّمْلُ فَتَسْتَفْرِجُهُ ، وَهُوَ الْأَحْتِسَاءُ ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ .

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) « قلوب » رفع يريغ، عند سيبويه . ويضمر في « كاد » الحديث تشبيها بكان ؛ لِأَنَّ الْحَبْرَ يَلْزِمُهَا كَالْزَمِ ، وَإِنْ شَلَّتْ رَفْعَتَهَا بِكَادَ ، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ يَرِيغُ . وَقَرَأَ الْإِسْمَعِيلِيُّ وَحَمَزَةً وَحَفْصٌ « يَرِيغُ » بِأَلْيَاءٍ ، وَزَعَمَ أَبُو حَاتِمٍ أَنَّ مِنْ قَرَأَ « يَرِيغُ » بِأَلْيَاءٍ فَلَا يَحْوِزُ لَهُ أَنْ يَرِيغَ الْقُلُوبُ بِكَادَ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَالَّذِي لَمْ يَحْزَمْ جَائِزٌ عِنْدَ فِرْعَهِ عَلَى تَذْكِيرِ الْجَمِيعِ . حَكَى الْفَرَّاءُ : رَحِبَ الْبِلَادِ وَأَرْحَبَتْ، وَرَحِبَتْ لِنَةِ أَهْلِ الْجَزَاةِ . وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى يَرِيغُ، فَقِيلَ : تَنَلَّفَ بِالْجُهْدِ وَالْمَشَقَّةِ وَالشَّدَّةِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَمَدَّلُ ، أَيْ تَمَيَّلُ — عَنِ الْحَقِّ فِي الْمَسَامَةِ وَالنَّصَرَةِ .

وقيل : من بعد ما هم فريق منهم بالتخلف والمصيان ثم لحقوا به . وقيل : هموا بالقول
تتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعالى : (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم ترغ ،
وذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أخطر عليهم
سحاب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منك أرجو ولست أعرف رباً • يُغَيِّبُ مِنْهُ بَعْضُ مَا مِنْكَ أَرْجُو
وإذا اشتدت الشدائد في الأر • ض على الخلق «استغاثوا وعجوا
وابتليت البعاد بالخوف والبحر • ع وصروا على الذنوب ولبسوا
لم يكن لي سواك ربِّي ملاذ • تَبَيَّنْتُ أُنَى بِكَ الْخَبْرُ

وقال في حق الثلاثة « ثم تاب عليهم ليتوبوا » قيل : معنى « ثم تاب عليهم » أى وفهم
للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم ؛ أى نسح لهم ولم يجعل عقابهم ليتوبوا . وقيل :
تاب عليهم ليتبتوا على التوبة . وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم . وبالجملة
فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا ؛ دليله قوله عليه السلام : « اعملوا
فكل ميسر لما خلق له » .

قوله تعالى : وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ
إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

قوله تعالى : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) قيل : عن التوبة ؛ عن مجاهد وأبى مالك .
وقال قتادة : عن غزوة تبوك . وحكى عن محمد بن زيد معنى « خَلَفُوا » تركوا ؛ لأن معنى خلفت
فلانا تركته وفارقته فأعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفُوا » أى أقاموا بعقب

ول الله صلى الله عليه وسلم، وروى عن جعفر بن محمد أنه قرأ «خالفوا». وقيل: «خلفوا»
 أي أرجئوا وأخروا عن المرافعة فلم يقض فيهم شيء. وذلك أن المنافقين لم يقبل توبتهم،
 واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن.
 وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما. واللفظ لمسلم قال كتب: كنا خلفنا
 أي الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا له
 فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه؛ في ذلك
 قال الله عز وجل: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» وليس الذي ذكره الله مع خلفنا تخلفنا
 عن الفزوة، وإنما هو تخلفه إيانا وإرجأه أمرنا عن حلف له واعتذره إليه فقبل منه.
 وهذا الحديث فيه طول، هذا آخره^(١).

والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك، ووسارة بن دبيعة العامري، وهلال
 ابن أمية الأقرني، وكلهم من الأنصار. وقيل ترج البخاري ومسلم حديثهم، فقال مسلم
 عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاهها قط
 إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدنا تخلف عنه، إنما خرج
 رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون حير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عذرم
 على غير مياد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواقتنا
 على الإسلام، وما أحب أن لي بها شهدة بدر، وإن كانت بدر أذكرك في الناس منها، وكان
 من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك: أني لم أكن
 قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راثنين
 قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة؛ فغزاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل
 سفرا بعيدا ومقاتلا، واستقبل عدوا كثيرا؛ فجلا للبلدين أمرهم ليأتوا أمة غزوهم فأخبرهم
 بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجتمعون ككاتب حافظ

(١) داجح صحيح مسلم تلخيص التوبة.

— يريد بذلك الديوان — قال كعب : قتل رجل يريد أن يتقرب ، يظن أن ذلك سيخفي له ما لم يتزل فيه ودى من الله تعالى ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الفتوة حين طابت السبل والظلال ، فانا إليها أصغر ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدولكن اتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتحدى بي حتى استقر بالناس الحد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاريا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل كذلك يتحدى بي حتى أسرموا وتفاطرت الفتوة ، فهتممت أن أرحل فأدركهم ، فإليني فقلت ! ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن صدق الله من الضمفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ” ما فعل كعب بن مالك ؟ “ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، حسبه برداء والنظر في عطفه . فقال له ماذا بن جبل : بلس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا ميسحا يزول به الشراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كن أبا خثيمة “ ، فإذا هو أبو خثيمة الأنصاري ، وهو الذي تصدق بصاع التمر حتى لمزّه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قانلا من تبوك حضري بئني ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من تحت ظهري هذا ، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهل ، فلما قيل لي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلل قادمنا زاح عن الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا ، فأجعت صدقه ، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمنا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه

(١) أي أميل . (٢) أي سلما عليه في دينه ، شيئا بالنفاق . (٣) هذا كلمة من كونه مسجبا بنفسه ، ذا زهو وتكبر . (٤) الميضي (بكسر الهمزة) : لا يلبس البياض . والشراب : ما يظهر في المواجر في البراري كأنه الماء . ويرد على أي يتحرك .

ركبتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطلقوا يستنزلون إليه ويحلقون له ، وكانوا بضعة وعشرين رجلا ، فقيل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علايتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جثت فلما سلمت تبسم تبسم المُنْقَض ، ثم قال : ” نمل “ بفت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ” ما خلفك ألم تترك “ قد أبغضت ظهرك “ ؟ قال : قلت يا رسول الله ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لأريت إني سائح من سخطه بفسنر ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا ، ولكنى والله لقد سلمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترقى به عنى ليوثكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إني لأرجو فيه عقي الله ، والله ما كان لى منر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أنا هذا فقد صدق قُم حتى يفيض الله فيك “ . فمضت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعوني فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ! لقد عجزت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المتخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى . قال : ثم قلت لم هل لى هذا ميع من أحد ؟ قالوا : نعم ! لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما ؟ قالوا : صرارة بن ربيعة المامرى وهلال : أمية الواقفى . قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدوا فيهما أسوة ، قال : فضيت حين ذكرهما لى . قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا آيتا التلاوة من بين من تخلف عنه . قال فاجتنبنا الناس ، وقال : تغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك نحسين ليلة ، فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أَسْبُ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشاهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلنى أسد ، وأتى

(١) أى ضامة وفوة كلام بحيث أخرج من عهده ما يسبب لى بما يقبل ولا يرد . (٢) تجد : تصب .

(٣) أى دبوا على .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في قصي : هل
حرك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي
نظر إلى - وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيتُ
حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلى فصلمت عليه ، فوافقه
ما ردة على السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله ! هل تملن أن أحب الله ورسوله ؟
قال : فسكت ، مددت فناشدته فسكت ، فمدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت
عياني ، وتوليت حتى تسوّرت الجدار ، فيبنا أنا أمشي في سوق المدينة إذا تبطلني من تبط أهل
الشام ممن قدّم بالطعام بيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فنفق
الناس يسرون له إلى حتى جاءني فدفع إلى ثيابا من ملك قسّان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا
فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يملكك الله بدار هوان ولا مضجعة
فألحق بنا ثوابك . قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من اللاء ! فنامت بها التور
فسجرت بها ، حتى إذا مضت أربوب من الحسين وأسلبت الوحي إذا رسول الله صلى
الله عليه وسلم ياتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل أمرائك . قال
فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعترلما فلا تهرّبها . قال : فأرسل إلى صاحبي
بمثل ذلك . قال فقلت لأمرائي : ألحقني بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .
قال : بغضت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله ،
إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل نكره أن أخذمه ؟ قال : " لا ولكن
لا يقرّبك " فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ! والله ما زال يبكي منذ كان من أمره
ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال بعض أهل لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
في أمرائك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تحمّده . قال فقلت : لا أستأذن فيها
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُدريني لماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

(١) أي أرفقه بالصحيفة . (٢) قال الرازي . هذا الرسول حريّة بن ثابت .

استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : فليتب بذلك عشر إيال ، فبُكِّل لنا خمسون ليلة من حين
يُرى عن كلالنا . قال : ثم أصليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ،
فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بمن
رَحِبْتُ سمعت صوت صائح أوقى على سَلْعٍ يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أئثر .
قال : تَهَرَّوْتُ ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج . قال : فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
الناس بتوبة الله علينا حين ألقى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قيل صاحبي
مُبَشِّرُونَ ، وركض رجل إلى قوسا ، وسمى صائح من أَسْلَمَ قِيل وأوقى الجبل ، فكان الصوت
أسرع من الفرس ، فلما جاهدني الذي سمعتُ صوته يبشرك تَوَبْتُ له فَوَيْ فكَسَوْتُهُ لِإِصْحَامِ
بِدِشَارِهِ ، وإله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستمرت ثوبين فلبستهما ، فأطلقت أنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يهتفون بالتوبة ويقولون : تَبَرَّكْتَ توبة
الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله
الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافني وهتافاً ، وإله ما قام رجل من المهاجرين
غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سأمت على رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول : " أئثر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك
أمك " . قال : فقلت أمان عند الله يا رسول الله أم من عندك ؟ قال : " لا إله من عند الله " .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة بقر . قال :
وكنا نعرف ذلك . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله حل
أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمسك
عليك بعض مالك فهو خير لك " . قال فقلت : فإني أمسك سميت الذي يتخبر . قال
وقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً
ما بقيت . قال : فوالله ما علمت أحداً من المسلمين إلا جئت في صدق الحديث من : كَرُتْ

(١) أي أشرف على جبل سلع . قال الرازي : هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا أحسن مما أبلاني الله به ، والله ما تعددت
كذبة منذ قلت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو الله أن يحفظني
فيا نبي ، فانزل الله عز وجل : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين أتبعوه
في ساعية السرة - حتى بلغ - إنه يرمي رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا
ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم - حتى بلغ - اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين » . قال كعب : والله ما أتم الله على من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام
أعظم من نفسي من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين
كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي قمر ما قال لأحد ، وقال الله تعالى :
« سَخِّطُونَ بِاللَّهِ لِكُلِّ إِذَا آتَيْنَاهُمُ الْبَيِّنَاتُ يُعْزِضُونَ عَنْهُمْ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ أَنه رجس وما وهم جهنم
جزاء بما كانوا يكبون . يحلفون لكم ليرضوا عنهم فإن رَضُوا عنهم فإن الله لا يرضى عن
الفسوق الفاسقين » . قال كعب : كما خلقنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قيل منهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا له فبايعهم وأستقر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله
عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة » ، وليس
الذي ذكر الله مما خلقنا تخلفنا عن النزول ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجأه أمرنا عن حلف
له وأعذر إليه فقيل منه .

قوله تعالى : (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) أي بما اتسعت ، يقال : متزل
رخب ورخب ورخاب . و « ما » مصدرية أي ضاقت عليهم الأرض برحبها ، لأنهم
كانوا مهجرين لا يملكون ولا يملكون . وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا .
قوله تعالى : (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ) أي ضاقت صدورهم بالهم والوشة ، وبما
لقوه من الصعابة من الخفوة . (وَظَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) أي يتقنوا أن لا ملجأ
يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه . قال أبو بكر الزقاق : التوبة النصوح
أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت . وتضيق عليه نفسه ، كدوبة كعب وصاحبه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فبدأ بالتوبة منه . قال أبو زيد : غَلَطْتُ في أربعة أشياء : في الابتداء مع الله تعالى ، غلطت أني أحبه فإذا هو أحبني ، قال الله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوهُ » . وغلطت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضى عني ، قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وغلطت أني أذكره فإذا هو يذكرني ، قال الله تعالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وغلطت أني أتوب فإذا هو قد تاب علي ، قال الله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليتوبوا على التوبة ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا » . وقيل : أي فصح لهم ولم يسجل عقابهم كما فعل بغيرهم ؛ قال جل وعز : « قَوْمٌ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَزَمْنَا لَهُمُ جَنَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ^(١) »

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأول — قوله تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين قنعهم الصدق ونهب بهم عن منازل المنافقين . قال مطرف : سمعت مالك بن أنس يقول : فلما كان وجعل صادقاً لا يكذب إلا نفع نفسه ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال ؛ فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين ؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله . ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين . أي كونوا على مذهب الصادقين وسيلهم ، وقيل : هم الأنبياء ؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة . وقيل : هم المراد بقوله : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجوهَكُمْ ^(٢) » الآية إلى قوله — أولئك الذين صدقوا . وقيل : هم المؤمنون بما عاهدوا ؛ وذلك لقوله تعالى : « وَجَلَّ صِدْقُوا مَا عَاهَدُوا ^(٣) »

(١) آية ١٣٦ سورة النساء . (٢) آية ١٦٠ سورة النساء . (٣) راجع ج ٢ ص ١٢٧ طبع ثانية .

الله عليه^(١) . وقيل : هم المهاجرون ؛ لقول أبي بكر يوم السَّيفَةِ : إن الله سمَّانا الصادقين فقال :
« لنفقر المهاجرين » الآية^(٢) ، ثم سمَّاهم بالمُفلسين فقال : « والذين تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ »
الآية . وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربي : وهذا القول هو
الحقيقة والغاية التي إليها انتهى ؛ فإن هذه الصفة يرشح بها النفاق في العقيدة واختلافه في الفعل ،
وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من
قال إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويقيم الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير
أبي بكر الصديق فهو الذي يتم الأقوال كلها ؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانية - حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلزم الصدق في الأقوال ، والإخلاص
في الأعمال ، والصفات في الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالآبرار ووصل إلى رضا الفقار ، قال
صل الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال
الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » . والكذب على الضد من ذلك ؛
قال صل الله عليه وسلم : « إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى
النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » . ترجمه سلم . فالكذب
حار وأهله منبوذون الشهادة ، وقد رَدَّ رسول الله صل الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبه كذباً .
قال صخر : لا أبرئ أ كذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل
شريك بن عبد الله قيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعته يكذب متعمداً لزمه خلفه ؟ قال لا .
وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحداً شيئاً
ثم لا ينجزه ، اقرءوا إن شئتم « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » هل ترون
في الكذب خصصة ؟ وقال مالك : لا يقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق
في حديث رسول الله صل الله عليه وسلم . وقال غيره : يقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب
لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه ؛ لأنه القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن
كُتِبَتْ خصلته ولا خصلته هي أنس من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات .

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب (٢) آية ٨ سورة الحشر (٣) لها « الصفاء » بالسر .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْظُمُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا جُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) ظاهره خبر ومناه أمره كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » وقد تقدم . (أَنْ يَتَخَلَّفُوا) في موضع رفع اسم كان . وهذه معانية المؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها ؛ كَبُرَّتِيَّةَ وَجُهَيْنَةَ وَأُصَيْعَةَ وَغَارَ وَأَسْلَمَ على التخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك . وللمعنى : ما كان هؤلاء المذكورين أن يتخلفوا ؛ فإن الضمير كان فيهم ، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُستَفَرَّوا ؛ في قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستفاد في كل مسلم ، ونخص هؤلاء بالتأنيب لقرابته وجوارحه ، وإنهم أحق بذلك من غيرهم .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) أي لا يرغبوا لأنفسهم بالتخلف والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المشقة ؛ يقال رغبت عن كذا أي تركت عنه .

الثالثة - قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ) أي عطش ؛ وقرا عيبه ابن عمر « ظمأ » بالمد . وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . (وَلَا نَصَبٌ) مله ، أي تعب ، ولا زائلة للتوكيد . وكذا (وَلَا مَخْمَصَةٌ) أي مجاعة . وأصله ضمور البطن ؛ ومنه زبل مجيرص

وأمرأة جمعانة . وقد تقدم^(١) . (في سبيل الله) أى فى طاعته . (وَلَا يَطْعَمُونَ مَوْطًا)
أى أرضا . (يَغِطُّ الْكَفَّارَ) أى يوطئهم إياها ، وهو فى موضع نصب لأنه نبت للوطئ ،
أى غاطضا . (وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّيَلَا) أى قتلا وهرمة . وأصله من نلت الشيء . أنال
أى أصبت . قال الكسائى : هو من قولهم أمر متيل منه ؛ وليس هو من التناول ، إنما
التناول من نلته العطية . قال غيره : نلت أنول من العطية ، من الوار والتيل من الباء ، تقول :
نلته فأنال ، أدركته . (وَلَا يَطْعَمُونَ وَاِدِيَا) العرب تقول : واد وادوية ، على غير قياس .
قال النحاس : ولا يعرف فيها هلست فاعل وأصله سواء ، والقياس أن يجمع ووادى ، فاستقلوا
الجمع بين وادين وهم يستقلون واحدة ، حتى قالوا : اقْتَتْنَا وقَتْنَا . وحكى الخليل وسيبويه
فى تصغير واصل اسم رجل أو يصل فلا يقولون غيره ، وحكى الفراء فى جمع واد أوداء .

قلت : وقد جمع أوداء ؛ قال جرير :

صرفت بركة الأوداء وشيئا • عيلا طال مهلك من رسوم

(إِلَّا كَيْبَ لَمْ) قال ابن جاس : بكل روعة تتالم فى سبيل الله سبحانه ألف حسنة .
وفى الصحيح :^(٢) الخليل ثلاثة ... وفيه - وأما التى هى له أجرة فىل ربهطها فى سبيل الله
لأهل الإسلام فى مَرَجٍ أو روضة فما أكلت من ذلك المَرَجِ أو الروضة إلا كتب له عدد
ما أكلت حسنة وكتب له عدد أرواثها وأبرامها حسنة . الحليث . وهذا هو
فى مواضعها فكيف إذا أذرب بها^(٣) .

الرابعة - استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن النعمة تستحق بالإدراك والكون
فى بلاد العدو ، فإن مات بعد ذلك ، فله سهمه ؛ وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قول
الشافعى . وقال مالك وآبن القاسم : لا شيء له ؛ لأن الله عز وجل إنما فى كفى هذه الآية
الأجر ولم يذكر السهم .

(١) راجع ج ٦ ص ٦٤ طبة أول آر ثانية ؛ (٢) فى ديوانه وسهم البلدان لماوت ؛ « بركة الرضا »
والوداد : واد أملاء لى المدرة والتم ، وأسلفه لى كيب وشية . (٣) المَرَج : مرعى الغناب .
(٤) أذرب القوم : دغلوا أرض العدو .

قلت - الأول أصح لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بشابة النيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذي يبينهم ويدخل القتل طيسم ، فهو بمنزلة نيل النعمة والقتل والأسر ، وإذا كان كذلك فالنسيئة تستحق بالإدراج لا بالحليزة ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : ما وطن قوم في غير دارهم إلا دلوا ، والله أعلم

الخامسة - هذه الآية مفسوخة بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً » وأن حكمها كان حين كان المسلمون في قلة ، فلما كثروا تسخت وأباح الله التختف لمن شاء ، قاله ابن زيد . وقال مجاهد : بعث النبي صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادي ليعلموا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا ، فأزل الله ، وما كان للمؤمنون ليعرفوا كافة . وقال قتادة : كان هذا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يختف عنه إلا بغيره ، فأما غيره من الأئمة والولاء فليمن شاء أن يختف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث - أنها عككة ، قال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعي وآبن المبارك والفراري والسبيعي وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية إنها لأهل هذه الأمة وأحرمها

قلت - قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك ، والله أعلم .

السادسة - روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما يترثم سيرا ولا اتفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا من واد إلا وهم معكم فيه " قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : " حسبهم المنذر " . أخرجه مسلم من حديث جابر قال : كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : " إن بالمدينة لرجالا ما يترثم سيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حسبهم المرء " . فأعطى صلى الله عليه وسلم للمنذر من الأجر مثل ما أعطى للقوى العامل . وقد قال بعض الناس : إنما يكون الأجر للمنذر غير مضاعف ، ويضاعف لئامل المبشر . قال ابن العربي : وهذا تحكّم من الله تعالى وتضييق لسمّة رحته ، وقد علب بعض الناس فقال :

لهم يطولن الثواب مضاعفا قطعا، ونحن لا قطع بالتضييف في موضع فإنه مبنى على مقدار
 النيات، وهذا أمر متيقن، والذي يُقطع به أن هناك تضييفا وربك أعلم بمن يستحقه
 قلت : الظاهر من الأحاديث والى المساواة في الأجر، منها قوله عليه السلام : " من
 جُلَّ على خير فله مثل أجر فاعله " وقوله : " من توبوا ونرجع إلى الصلاة فوجد الناس قد صلوا
 أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها " . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ
 مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » . وبديل أن النية الصادقة
 هي أصل الأعمال، فإذا نحت في فصل طاعة فمجز عنها صاحبها لمسانع منع منها فلا يبعد
 في مساواة أجر ذلك الماهز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه ؛ لقوله عليه السلام : " نية
 المؤمن خير من عمله " . والله أعلم -

قوله تعالى : وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
 مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٣٣﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ) وهي أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه
 فرض كفاية كما تقدم ؛ إذ لو نذر الكل لنضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم
 للجهاد ولْيُقيم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون
 بما يملأهم من أحكام الشرع، وما تجدد نزوله على النبي صل الله عليه وسلم، وهذه الآية تأسف
 لقوله تعالى : « لَا تَنْفِرُوا » وللاية التي قبلها؛ حل قول مجاهد وآبن زيد .

الثانية - هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم ؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون
 لينفروا كافة والله صل الله عليه وسلم مقيم لا ينفري فركوه وحده . (فَلَوْلَا نَفَرَ) بعد ما علموا
 أن النفير لا يسع جميعهم . (مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) وتبقى بقيتها مع النبي صل الله عليه

وسلم لنحملوا عنه الدين ويتفقوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه .
وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الإحسان . ويدل عليه أيضا
قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »^(١) . فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب
والسنة

الثالثة — قوله تعالى : « قُلُوا نَفَرًا » قال الأخفش : أي فهلا نفر . (من كل فرقة
منهم طائفة) الطائفة في اللغة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين
وللواحد على معنى نفس طائفة . وقد تقدم أن المراد بقوله تعالى : « إن نكف عن طائفة
منكم نكذب طائفة » رجل واحد . ولا شك أن المراد هنا جماعة لوجهين؛ أحدهما عقلا
والآخر لغة . أما العقل فلأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب، وأما اللغة فقوله « ليتفقوا
في الدين وليتدبروا قوتهم » بقاء بضمير الجماعة . قال ابن العربي : والقاضي أبو بكر والشيخ
أبو الحسن قبله يرون أن الطائفة هنا واحد، ويتضادون فيه بالدليل على وجوب العمل
بغير الواحد، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهة أن خبر
الشخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر .

قلت : أنص ما يستدل به على أن الواحد يقال له طائفة قوله تعالى : « وإن طائفتان
من المؤمنين اقتتلوا »^(٢) يعني قسمين . دليله قوله تعالى : « فاصليحوا بين أخويكم » بقاء بلفظ
التثنية، والضمير في « اقتلوا » وإن كان ضمير جماعة فأقل الجماعة اثنان في أحد القولين
للعلامة .

الرابعة — قوله تعالى : « ليتفقوا »^(٣) الضمير في « ليتفقوا » وليتدبروا » للقيمين
مع النبي صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة ومجاهد . وقال الحسن : هما الفرقة النافذة واختاره
الطبري . ومعنى « ليتفقوا في الدين » أي يتصروا ويتقنوا بما يريهم الله من الظهور على

(١) آية ١٢٤ سورة النحل . (٢) آية ٩٦ من هذه السورة . (٣) في الأصول لا يتصور
على صيغة التثنية . (٤) آية ٩٦ سورة المائدة .

المشركين ونصرة الدين . (وَلْيُتْلُوا قَوْمَهُمْ) من الكفار . (إِنَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) من الجهاد ليخبرونهم بنصرة الله تعالى نية والمؤمنين ، وأنهم لا يبدآن لهم بقتلهم وقال النبي صلى الله عليه وسلم : نقتلهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقادة آيين ، أى لتنفقه العاطفة المتأثرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغور في السرايا . وهذا يقتضى الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام ، إذ ليس ذلك في قوة الكلام ، وإنما أزم طلب العلم بأدقته ، قاله أبو بكر بن العربي .
الخامسة - طلب العلم ينقسم قسمين : فرض على الأعيان ، كالعبادة والزكاة والصيام .

قلت - وفي هذا المعنى جاء الحديث المروى " إن طلب العلم فريضة " . روى عبدة القدوس بن حبيب أبو سعيد الوضائلي عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم النخعي قال ضمت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرض على الكفاية ، كتحصين الحصون وإقامة الحدود والفصل بين المخصوم ومحوه ، إذ لا يصلح أن يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم وتنقص ويتطيل ما يشتمهم ، فتبين بين الحالين أن يقسم به البعض من غير تمييز ، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده ونفسه بينهم من رحمته وحكمته بساقي قدرته وكلته .

السادسة - طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبطة شريفة لا يوازها عمل ، روى الترمذى من حديث أبي الترداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رصاً لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العلم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه به أخذ بحظ

(١) يقال : مال بفلان يمان ، أى مائة . (٢) في الأصول : « كتصحيح المخرق » .

وافر» وروى النابلسي أبو محمد في مسنده قال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي عن الحسن قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل هذا العالم الذي يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضل علي أدناكم». أسنده أبو عمر في كتاب (بيان العلم) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي». وقال ابن عباس: أنفضل الجهاد من بحق مسجدنا يعلم فيه القرآن والفقه والسنة». ورواه شريك عن ليث بن أبي سليم عن يحيى بن أبي كثير عن علي الأزدي قال: أردت الجهاد فقال لي ابن عباس: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد، تأتي مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه، وقال الربيع سمعت الشافعي يقول: طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة. وقوله عليه السلام: «إن الملائكة ترفع أجنتها» الحديث يشمل وجهين: أحدهما - أنها تعطف عليه وترحمه؛ كما قال الله تعالى فيا ربنا به الأولاد من الإحسان إلى الوالدین بقوله «وأخفص لما جناح الذئب من الرحمة» أي تواضع لها. والوجه الآخر - أن يكون المراد بوضع الأجنته فرشها؛ لأن في بعض الروايات «وإن الملائكة تفرش أجنتها» أي إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنتها في رحلته وحمله عليها؛ فمن هناك يتعلم فلا يتقنى إن كان ماشيا ولا يتيما، وتخرب عليه الطريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض ونهاب المال وضلال الطريق. وقد مضى شيء من هذا المعنى في «آل عمران» عند قوله تعالى: «شهد الله» الآية^(١). وروى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». قال يزيد بن حارون: إن لم يكونوا أصحاب الحديث

فلا أدري من هم

(١) دايج ج ٤ ص ١٠٠ - عتبة أمه آية

قلت : وهذا قول عبيد الرزاق في تأويله الآية، إنهم أصحاب الحديث؛ ذكره الثعلبي .
سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوي المحدث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي
المعروف بأبي حنيفة رحمه الله يقول في تأويل قوله عليه السلام : " لا يزال أهل الغرب
ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " : إنهم العلماء ؛ قال : وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق
على الدلو الكبيرة وعلى مغرب الشمس ، ويطلق على قبضة من الدمع . فمضى " لا يزال أهل
الغرب " أي لا يزال أهل قبض الدمع من خشية الله عن علم به وإحكامه ظاهرين ؛
الحديث . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

قلت : وهذا التأويل يعضده قوله عليه السلام في صحيح مسلم : " من يرد الله به خيرا
يفقهه في الدين ولا يزال عصاية من المسلمين يقاثلونه على الحق ظاهرين على من ناوهم
إلى يوم القيامة " . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعالى : يَتَأَيَّبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَوْا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٦﴾

فيه مسألة واحدة - وهو أنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب
فالأقرب من العدو؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا
بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين ، فهي
من التدرج الذي كان قبل الإسلام . وقال ابن زيد : المراد بهتة الآية وقت نزولها العرب ،
فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وقد روى عن أبي هريرة
أن المراد بذلك الذئب . وروى عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم .
وقال الحسن : هو قتال الذئب والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم في قتال الأقرب
فالأقرب ، والأدنى فالأدنى .

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية، واختار ابن العربي أن يبدأ بالروم قبل الديلم، هل ما قاله أين عمر لثلاثة أوجه . أحدها - أنهم أهل كلب ، فالجدة طهيم أكثر وأكده .
الثاني - أنهم إيتا أقرب ، أعني أهل المدينة . الثالث - أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستغناها منهم أوجب . والله أعلم .

(وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أي شدة وقوة وجمحة . وروى الفضل عن الأعمش وعاصم « غِلْظَةٌ » بفتح النون وإسكان اللام . قال الفراء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر النون ، ولغة بني تميم « غِلْظَةٌ » بضم النون

قوله تعالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَلِيلَةً لِّمَعْنَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٦﴾

« ما » صلة ، والمراد المنافقون . (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَلِيلَةً) قد تقدم القول في زيادة الإيمان وقصصه في سورة « آل عمران » . وقد تقدم معنى السورة في مقدمة الكتاب ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز « إن للإيمان سنا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » . قال عمر بن عبد العزيز : فإن أحسن فسايتها لكم ، وإن أمت لها أنا على محبتكم بحريص » . ذكره البخاري . وقال ابن المبارك : لم أجده بهذا من أن أقول بزيادة الإيمان ، وإلا رددت القرآن .

قوله تعالى : وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ طة أول أو ثالثة . (٢) راجع ج ١ ص ٩٥ طة ثانية أو ثالثة .
(٣) انتهى في البخاري : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى علي بن عدي » الخ ، فراجع في كتاب الإيمان .

قوله تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ) أى شك وريب وهما .. وقد تقدّم .
 (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) أى شكاً إلى شكهم وكفراً إلى كفرهم . وقال مقاتل :
 إحصا إلى إحصائهم ، والمضى متقارب .

قوله تعالى : أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
 ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : (أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) قراءة العامة بالياء ،
 خبراً عن المنافقين . وقرأ حمزة ويحيى بالباء ، خبراً عنهم وخطاباً للؤمنين . وقرأ الأعشى
 « أولم يرؤا » . وقرأ طلحة بن مصرف « أو لا ترى » . وهى قراءة ابن مسعود ، خطاباً للرسول
 صلى الله عليه وسلم . (يُفْتَنُونَ) قال الطبري : يفتنرون . قال مجاهد : بالفتح والشدة .
 وقال عطية : بالإسراء والأوجاع ، وهى رواية الموت . وقال قتادة والحسن ومجاهد :
 بالفترو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرون ما وعد الله من النصر (ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ)
 لذلك (وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ) .

قوله تعالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ
 يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٧﴾
 قوله تعالى : (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) « ما » صلة ، والمراد المنافقون ؛
 أى إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآناً أنزل فيه فضيحته أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم
 إلى بعض نظر الرعب على جهة التقرير ، يقول : هل يراكم من أحد إذا تكلم بهذا فينبذه إلى
 محمّد ؛ وذلك جهل منهم بنبوته ، وأن الله جلّله على ما يشاء من غيبه . وقيل : إن « نظر »
 فى هذه الآية بمعنى أنباء . وحكى الطبري عن معمر أنه قال : « نظره » فى هذه الآية موضع قال .
 قوله تعالى : (ثُمَّ انْصَرَفُوا) أى انصرفوا عن طريق الإعتناء . وذلك أنهم حينئذ
 لم يكشف أسرارهم والإعلام بتبيلات أمورهم بفتح هم لا خالة تعجب وتوقف ونظر . فلو

اُعتَدُوا لَكَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مِظَنَةً لِإِيْمَاتِهِمْ ؛ فَمَه إِذْ يَصْمُومُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَيَتَبَكَّرُونَ فِيهِ كَانَتْهُمْ
انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مِظَنَةً للنظر الصحيح والاعتداء ، ولم يسمعوا قراءة النبي
صل الله عليه وسلم سَمَاعٌ مِنْ يَتَذَكَّرُهُ وَيَنْظُرُ فِي آيَاتِهِ ؛ « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمَمُ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ » . « أَمَّا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا »

قوله تعالى : (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) فيه ثلاث مسائل :

الأول - قوله تعالى : (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) دعاء عليهم ؛ أي قولوا لهم هذا . ويصوب
أن يكون خبرا عن صرفها عن التفسير مجازة على فعلهم . وهي كلمة يدعى بها ؛ كقوله :
« قَاتَلَهُمُ اللَّهُ » . « وَالْيَا فِي قَوْلِهِ : « يَا نَبِيَّكُمْ » صِلَةٌ لـ « صَرَفَ » .

الثانية - قال ابن عباس : يكره أن يقال انصرفنا من الصلاة ؛ لأن قوما انصرفوا
انصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا قضينا الصلاة ؛ أسنده الطبري عنه . قال ابن العربي :
وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح ؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لا يهل أحد انصرفنا من الصلاة ؛
فإن قوما قيل فيهم : « ثُمَّ انصرفوا صرف الله قلوبهم » . أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسني
الواعظ حدثنا أبو الفضل الجوهري سَمَاعًا مِنْهُ يَقُولُ : كُنَّا فِي جَنَازَةِ قَتَالِ الْمُنَزَّرِهَا : انصرفوا
وحكم الله ! فقال : لا يهل أحد انصرفوا فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم : « ثُمَّ انصرفوا
صرف الله قلوبهم » ولكن قولوا : اقبلوا وحكم الله ؛ فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم :
« فَأَقْبَلُوا بِرِزْقَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَضِلْ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » .

الثالثة - أخبر الله سبحانه تعالى في هذه الآية أنه صارف القلوب وعصرها وقالها
ومقبلها ؛ ردًا على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم يحكمهم ، يصرفون
بمشيئتهم ويحكمون بإرادتهم واختيارهم ؛ ولتلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب : ما أئين هذا في الرد
على القدرية ؟ لا يزال بُنَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ . وقوله عز وجل
لَنُوحِ : « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آسَ » فهذا لا يكون أبنا ولا يرجع ولا يزول .

(١) أدرك في الأمر إذا وقع فيه وشبه ما يقتضيه . (٢) آية ٢٢ سورة الأعداء
(٣) آية ٢٤ سورة محمد . (٤) آية ١٧٤ سورة آل عمران . (٥) آية ٢٦ سورة مريم .

قوله نساك : لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٧﴾

هاتان الآيتان في قول أبي أقرب القرآن بالسما عهدا . وفي قول سعيد بن جبير : آتس
ما نزل من القرآن « وأتوا يوما ترجعون فيه إلى الله » على ما تقدم . فيجحد أن يكون قول
أبي أقرب القرآن بالسما عهدا بعد قوله : « وأتوا يوما ترجعون فيه إلى الله » . والله أعلم .
والخطاب للمسلمين في قول الجمهور ، وهذا على جهة تمديد الممة عليهم في ذلك ؛ إذ جاء
بلسانهم وبما يفهمونه ، وشرّفوا به غابر الأيام . وقال الزجاج : هي مخاطبة بجمع العالم ؛
والملعى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب . قال ابن عباس : ما من قبيلة من
الغرب إلا ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكانه قال : يا بعشر العرب ، لقد جاءكم رسول ،
من بني إسماعيل . والقول الثاني أؤكد للجمعة ؛ أي هو بشر منكم لفهموا عنه واتّبعوا به .

قوله تعالى : ﴿مِنْ أَنفُسِكَ﴾ يقتضي مدحا لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من همم
العرب وخالصها . وفي صحيح مسلم عن عائشة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى
من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
«إني من نكاح ولست من سفاح» . معناه أن نبيه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام
لم يكن النسل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيه زنى . وقرا عبد الله بن قسيط المكنى من
«أنفيسكم» ففتح الفاء من النفاسة ؛ وزويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضى
الله عنها ؛ أي جاءكم رسول من أشرككم وأفضلكم ؛ من فولاك ؛ يعني نفيس إذا كان ضروبا
فيه . وقيل : من أنفيسكم ؛ أي أكثركم طاعة .

قوله تعالى : ﴿ عَزِزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي عزيز عليه مشغفكم . وكانت المشقة من قهرهم : أكمة عوت إذا كانت شاقة مهلكة . وقال ابن الأثير : أصل الثمت التشديد ؛ فإذا قالت العرب : فلان يمتت فلانا ويعته فإداهم يشتد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أدائهم . وقد تقدم في « البقرة » - « وما » في « عتيم » مصرية ، وهي ابتداء و « عزيز » غير مقدم . ويجوز أن يكون « ما عتتم » فاعلا بعزيز ، و « عزيز » صفة للرسول ، وهو أصوب . وكذا « حريص عليكم » وكذا « رموف رحيم » رفع على الصفة . قال الفراء : وأبو قرئ عزيزا عليه ما عتم حريصا رموفا رحيا ، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل في معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدي قال حدثنا عبد الله بن محمد الخزاز قال سمعت عمرو بن علي يقول : سمعت عبد الله بن داود الأنباري يقول في قوله عز وجل « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتيم » قال : أن تدخلوا النصار ، « حريص عليكم » قال : أن تدخلوا الجنة . وقيل : حريص عليكم أن تؤمنوا . وقال الفراء : شجع بأن تدخلوا النار . والحرس على الشيء : الشج عليه أن يضيع ويشتت . ﴿ الْمُؤْمِنِينَ رَمَوْا رَمِيًّا ﴾ الرموف : المبالغ في الرافة والشفقة . وقد تقدم في « البقرة » معنى « رموف رحيم » مستوف . وقال الحسين بن الفضل : لم يبع الله لأحد من الأنبياء أسمين من أسمائه إلا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : « للمؤمنين رموف رحيم » وقال : « إن الله والناس لرموف رحيم » . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رموف رحيم ، عزيز عليه ما عتيم لا يهمله إلا شأنكم ، وهو قائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عتيم ما أقم على شعثه ، فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة . قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي إن أهرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التي من الله عليهم بها قل حسي الله ، أي كافي الله تعالى . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ، وإليه توكلت جميع أموري . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ خص العرش

(١) راجع ٣٠ ص ٦٦ طبة أبل أو آنية .

(٢) راجع ٢ ص ١٥٨ طبة ثانية ، ر ١

(٣) آية ١٤٣ سورة البقرة .

ص ١٠٣ طبة ثانية أو ثالثة .

لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره . وقراءة العامة بخفض هـ العظيم « نعمنا
 للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب ، رويت عن ابن كثير ، وهي قراءة ابن عثيمين . وفي كتاب
 أبي داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه
 توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أحبه صادقاً كان بها أو كاذباً .
 وفي نوادر الأصول عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال عشر
 كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عنده مكيفاً يجزيه نعمس الدنيا ونعمس الآخرة حسبي
 الله لدين حسبي الله لدين حسبي الله لما أمني حسبي الله لمن بنى علي حسبي الله لمن
 يصدقني حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المسألة في القبر
 حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه
 أنيب » . وحكى النقاش عن أبي بن كعب قال : أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان
 الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة ؛ وقد بيناه . وروى يوسف بن
 مهزيان عن أبي عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وهذه
 الآية ؛ ذكره السوردي . وقد ذكرنا من أبي عباس خلافاً على ما ذكرناه في البقرة ، وهو
 أصح . وقال مقاتل : تقدم نزولها بمكة . وهذا فيه بعد ؛ لأن السورة مدنية ، والله أعلم .
 وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية في المصحف حتى
 يشهد عليها رجلان ؛ فقام رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول
 من أنفسكم » فقال عمر : واقع لا أسالك عليهما بيعة ، كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم ؛
 فأثبتهما . قال حسان : الرجل هو خزيمة بن ثابت ، وإنما أثبتهما عمر رضي الله عنه
 بشهادته وحده إتمام الدليل على صحته في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فتوى قريبة ثنى عن
 طلب شاهد آخر ، بخلاف آية الأحزاب « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فإن تلك ثبتت
 بشهادة زيد وخزيمة لأحدهما إياها من النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هذا المعنى
 في مقدمة الكتاب . والحمد لله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونس طيه السلام مكية في قول الحسن وعكرمة وطاء وجابر . وقال ابن عباس :
إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ إِلَى آخِرِهِمْ» وقال مقاتل : «إلا آيتين
وهي قوله : «فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ» ^(١) نزلت بالمدينة . وقال الكلبي : «مكية إلا قوله :
«وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ» نزلت بالمدينة في اليهود . وقالت فرقة : نزل
من أولها نحو من أربعين آية بمكة وبقايا بالمدينة .

قوله تعالى : اَلرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ①

قوله تعالى : (الر) قال النحاس : قرئ على أبي جعفر أحمد بن شعيب بن علي بن
الحسين بن حريث قال : أخبرنا علي بن الحسين عن أبيه عن زيد أن عكرمة حدثه عن
ابن عباس : «الر» وح ، وتون [حروف] الرحمن مفزقة ، لحقت به الأعمش فقال : عندك
أشياء هذا ولا تخبرني به . وعن ابن عباس أيضا قال : معنى «الر» أنا الله أرى . قال
النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ؛ لأن سبويه قد حكى مثله عن العرب وأشد :
بالخبر خبرات وإن شراً فآه . ولا أريد الشر إلا أن تأ

وقال الحسن وعكرمة : «الر» قسم . وقال سعيد عن قتادة : «الر» اسم السورة ؛ قال :
وكذلك كل هاء في القرآن . وقال مجاهد : هي فوائج السور . وقال محمد بن زيد : هي تنبيه ،
وكذا حروف التهجي . وقرأ «الر» من غير إمامة . وقرئ بالإمالة للإسبغ ما ولا من
الحسروف .

(٣) آية ٤٠

(٢) كما في نسخ الأصل وتفسير ابن عطية .

(١) آية ٩٤

(٤) أبو بكر بالخبر خبرات وإن كان منك شركان منى مثله ، ولا أريد الشر إلا أن تأ . (عن شرح الشواهد)

قوله تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) ابتداء وخبر؛ أى تلك التى جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن « تلك » إشارة إلى غائب مؤنث . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ؛ أى هذه آيات الكتاب الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خيلي منه وتلك ركابي • حتى صغر أولادها كل قريب

أى هذه خيلي . والمراد القرآن وهو أول بالصواب؛ لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر، ولأن « الحكيم » من نعت القرآن . دليله قوله تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته » وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة « البقرة » . والحكيم : المحكم بالخلل والحرام والحدود والأحكام؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم؛ أى أنه حاكم بالخلل والحرام، وحاكم بين الناس بالحق؛ فعيل بمعنى فاعل . دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مِنْهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » . وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أى حكم الله فيه العدل والإحسان ووليت ذى القربى؛ وحكم فيه بالنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ وبالحكمة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه؛ فهو فعيل بمعنى المفعول؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف؛ فعيل بمعنى مفعول، كقول الأعشى يذكر قصيدته التى قالها :

وغرية تانى الملوكة حكيمة • قد قلنا ليقال من ذا قالها

قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ مَثَلًا لَسَّخِرَ مُبِينٌ ﴿٥﴾

(٢) راجع ١٥ ص ١٥٧ وما بعدها طبعه ثانية أو ثالثة .

(١) أول سورة حمد .

(٢) آية ٢١٢ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عِجَابٌ ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ ، و « عجبا » خبر كان ، واسمها ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ وهو في موضع رفع ، أى كان إيمائنا عجبا للناس . وفي قراءة عبد الله « عجب » على أنه اسم كان . والخبر « أَنْ أَوْحَيْنَا » . ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ قرئ « رَجُلٌ » بإسكان الجيم ، وسبب النزول فيما روى عن ابن عباس أن الكفار قالوا لما بعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ؛ فزلت : « أَكَاَنَ لِلنَّاسِ » يبنى أهل مكة « عجبا » . وقيل : إنما تعجبوا من ذكر البعث ؛ قوله تعالى : ﴿ أَنَّنْ أُنذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في موضع نصب بإسقاط الخافض ؛ أى إن أنذر الناس ، وكذا ﴿ أَنَّنْ لَمْ يَدْعُمْ يَصِدْقٍ ﴾ . وقد تقدم معنى النذارة والبشارة وغير ذلك من ألفاظ الآية . واختلاف في معنى « قَدَّمَ صِدْقِي » فقال ابن عباس : قدم صدق مثل صدق ؛ دليله قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْنِي لِي مُدْخِلَ صِدْقِي » . وعنه أيضا : أبرأ حسنا بما قدموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قدم صدق » سبق السعادة في الذكر الأول ، وقاله مجاهد ، الزجاج : درجة عالية . قال ذو الرمة :

لَمْ يَدْعُمْ لِي بِعَكْرِ النَّاسِ أَنَهَا • مَعَ الْحَسْبِ الْعَالِي طَمَعَتْ عَلَى الْبَحْرِ

قائدة : سلف صدق . الربيع : ثواب صدق . عطاء : مقام صدق . يَمْنِي : إيمان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صَالِحٌ قدموه . المساورى : أن يوافق صدق الطاعة صدق الجزاء . وقال الحسن وقائدة أيضا : هو عبد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه شفيح مطاع يتقدمهم ؛ كما قال : «^(١) أَنَا قَرِطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ » . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال : «^(٢) هِيَ شَفَاعَتِي تَوَسَّلُونَ بِي إِلَى رَبِّكُمْ » . وقال الترمذى للحكيم : قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام الحمدود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم في التي حصل الله عليه وسلم . وقال

(١) رابع ١ ص ١٨٤ وص ٢٣٨ طبة ثانية أرقامه - (٢) آية ٨٠ سورة الإسراء

(٤) أى حذركم إليه .

(٣) في ديوانه ونفسه إلى «^(١) العالى » .

عبد العزيز بن يحيى : « قَدِمَ صَدِيقٌ قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ مِمَّا يَهْتَدِي اللَّهُ » . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : أَعْمَلًا قَسَمُوها ، وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ . قَالَ الْوُضَّاحُ :
صَلَّى لَدَى الْعَرْشِ وَأَتَمَّهُ قَدَمًا . تَجَبُّكَ يَوْمَ الْبَيَارِ وَالزَّلْ

وقيل : هو تقديم الله هذه الآية في الحشر من القبر وفي إدخال الجنة . كما قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق » . وحقيقته أنه كتابة عن السبي في العمل الصالح ، فكُنِيَ عنه بِالْقَدَمِ كما يَكُنَّى عن الإتمام باليد وعن التناء باللسان . وأشدَّ حسان :
لَا أَلْقَمَ الْعِلْمَ إِلَيْكَ وَخَلَقْنَا . لَاؤَلَسْنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة ، والله أعلم . وقال أبو حنيفة والكناني : كل سابق من حبر أو شرف أو عبد العرب قدم ؛ يقال : فلان قدم في الإسلام ، وله عندى قدم صدق وقدم شرف وقدم خير . وهو مؤثنت وقد يذكر ؛ يقال أقدم حسن وقدم صالحة . وقال ابن الأعرابي : القدم التقدم في الشرف ؛ قال التَّيَّاج .

زَلَّ بَسُو النَّوَامِ عَنْ آلِ الْحَكَمِ . وَرَكَعُوا الْمَلِكَ الْمَلِكُ ذِي قَدَمٍ

وفي الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لِي نَحْمَةُ أَسْمَاءَ . أَنَا عَبْدٌ وَاحِدٌ وَأَنَا الْمَسْحُ الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ وَأَنَا الْخَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ » يريد آخر الأتقياء ؛ كما قال تعالى : « وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ » .

قوله تعالى : « قَالُوا الْكَافِرُونَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَشَارٌ مِمَّنْ قَدْ بَارَكُوا وَتَلَاوَنَّا بِهِمْ » . فَرَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبْنُ كَثِيرٍ وَالْكُوفِيُّونَ هَاسِمَ وَحِزَةَ وَالْكَنَانِيَّ وَخَلْفَ الْأَعْمَشِ « لَسَاجِرَ » . فَنَتَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَرَأَى الْبَاقُونَ « لَسَحَر » . فَنَتَا لِقُرْآن . وَفَدَّ تَقْدَمَ مَعْنَى السَّحَرِ « الْبَقَرَةُ » .

قوله تعالى : « إِنَّا نَبِّئُكَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذَنْهُ . ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ رُبُّكُمْ . فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٢) آية ٤٠ سورة الأحقاف . (٣) ج ٢ ص ٢٣ ؛ طبعات .

قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) تقدم في الأعراب . (يَذُرُّ الْأَمْسِرَ) قَالَ مجاهد : يقضيه ويقدره ومثله . ابن عباس : لا يشركه في تدبير خلقه أحد . وقيل : يمت بالأمس . وقيل : يجرل به . وقيل : يأمر به ويمضيه ، والمضى متقارب . بغير ال للوحى ، وميكائيل للقطر ، وإسرائيل للصورة ، وعزرائيل للقبض . وحقيقته تدبر الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها ، واشتقاقه من الدبر . والأمس اسم جلس الأمور . (مَا مِنْ شَيْعٍ) في موضع رفع ، والمضى ما شفع (إِلَّا مِنْ بَدِإِهِ) وقد تقدم في « البقرة » معنى الشفاعة . فلا يشفع أحد نبي ولا غيره إلا بإذنه سبحانه . وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبده من دون الله : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تفعل .

قوله تعالى : (ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ) أى ذلك الذى فصل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . (فَأَعْبُدُوهُ) أى وحدوه وأخلصوا له العبادة . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى بخلافاته فتبدلوا بها عليه .

قوله تعالى : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٢١٨

قوله تعالى : (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ) رفع بالابتداء . (جَمِيعًا) نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . (وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا) مصدران ، أى وعد الله ذلك وعدا وحقيقته . حقا . صدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبى عبدة « وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » على الاستئناف .

(١) جامع ٧ ص ٢١٨ طبعه أمارة . (٢) جامع ٣ ص ٢٧٢ طبعه أمارة .

(٣) آية ١٨ من هذه السورة .

قوله تعالى : (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ) أى من التراب . (ثُمَّ يُعِيدُهُ) إليه . مجاهد : يشنه ثم يمته ثم يعيه للبعث ، أو يشنه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقسراً يزيد ابن القمقاع : أنه يبدأ الخلق « تكون » أن « في موضع نصب ؛ أى وعدمك أنه يبدأ الخلق . ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ؛ كما يقال : لَبَّيْتُ أَيْ الْحَمْدَ وَالنِّمَّةَ لَكَ ؛ والكسر أجود . وأجاز الضراء أن تكون «أن» في موضع رفع فتكون أسماء . قال أحمد ابن يحيى : يكون التقدير حقا إبداءه الخلق .

قوله تعالى : (يُخَيِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَحِلُّوا الصَّلَاةَ وَالْفَيْسُ) أى بالعدل . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَطَمَ شَرَابٌ مِنْ نَجِيمٍ) أى ماء حار قد انتهى حره ، والنجمة مثله . يقال : حَمَمْتُ الْمَاءَ أَجْمَهُ فهو حميم ، أى مجوم ؛ فاعل بمعنى مفعول . وكلُّ سَخْنٍ عند العرب فهو حميم . (وَعَذَابُ أَلِيمٌ) أى مومج ، يخلص وجهه لك قلوبهم . (وَإِنَّمَا كَانَ يُكْفِّرُونَ) أى بكفرهم ، وكان معظم قريش يمتنعون بأن الله خالقهم ؛ فاحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإغناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً) مفعولان ، أى مضيئة ، ولم يؤت لأنه مصدر ؛ أو ذات ضياء . (وَالْقَمَرَ نُورًا) عطوف ، أى مبرأ ، أوقا نور . فالضياء ما يضيئ الأشياء ، والنور ما يبين مكنى ؛ لأنه من النور من أصل واحد . والضياء جمع ضوء ؛ كالسباط والمباحض جمع سوط وحوض . وقرأ قبل عن ابن كثير « ضياء » بهمز الياء ولا وجه له ؛ لأن ياء كانت وأوا مفتوحة وهى بين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت في الصيام والقيام . قال المهدوى : ومن قرأ ضياء بالمعز فهو مغلوب ، قلنت

تؤمن التي بعد ثلاث فصار في قبل الألف فصار ضايا، ثم قلت الياء همزة لوقوعها بعد ألف اللام. وكذلك لغة قديده أن الياء حين ظهرت وجئت إلى الواو التي تقبلت عنها فإنها قلب همزة أيضا لوقوعه فلاح مقلوب من نعال . وبقال : إن الشمس والقمر نقي . وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعالى : (وَفَعَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) أي فامنازل . أو فقدرله منازل . ثم قيل : والمعنى وقدرهما ، فوجد إجماعا واختصارا ، كما قال : « وَإِنَّا وَأَوَّيْنَاهُ أَوْ لَمَّا أَتَوْا أَتَوْا » . وكما قال :

نحن بما حسدنا وأنت بما . حسدك واطئ والرائي خليل وقيل : إن الإخبار من القمر وحده ، إذ به تعصى الشهور التي طيبها العمل في الماملات ونحوها ، كما تقدم في « البقرة » . وفي سورة يس : (وَأَقْرَبُّ قَدْرًا مَنَازِلَ) أي على عدد الشهر ، وهو مائة وعشرون مثلا . ويومان للتقصان والمحاق ، وهناك يأتي بيانه .

قوله تعالى : (لَتَعْلَمُنَّ عِدَّةَ السَّنَةِ وَالْحَسَبَ) قال ابن عباس : لو جعلت شمسين فحسا بالنهار وحسا بالليل ليس فيها ظلمة ولا ليل ، لم يعلم عدد السنين وحساب الشهور . وواحد « السنين » سنة ، ومن العرب من يقول : سنوات في الجمع . ومنهم من يقول : سنات . والتصغير سنبة وسنبة .

قوله تعالى : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) أي ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك إلا الحكمة والصواب ، وإظهارا لصنفته وحكمه ، ودلالة على قدرته وعلمه ، ولتجزئ كل نفس بما كسبت ، فهذا هو الحق .

قوله تعالى : (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) تفصيل الآيات تعيينا ليُسَدَّلَ بها على قدرته تعالى ، لا اختصاص الليل بظلامه والنهار بضياءه من غير استحفاف لما ولا انتخاب .

(١) آخر سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٤١ روا بعدا طيبة نادرة . (٣) آية ٢٩ .

(٤) الحاق (بطة) ، آخر التبر إذا أفضى إجمالا لم .

فيكون هذا لم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد . وقرا ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب
« يفصيل » بإياه ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ
إِلَّا بِالْحَقِّ » . وبعده « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فيكون متبعا له . وقرا
ابن السكيت « تَفْصِل » بضم التاء وفتح الصاد على العمل المجهول ، و « الآيات » رفعا .
الباقون « فصل » بالنون على التعظيم :

قوله تعالى : **إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿٥٥﴾

تعلم في « البقرة » وفيها معناه ، والحمد لله . وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة
سألوا آية نرذم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها ، قاله ابن عباس . ﴿ اِقْرَأْ يَتَقُونَ ﴾ أي
الشرك ، فلما من أشرك ولم يستدل بالآية له آية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابَتِنَا غَافِلُونَ** ﴿٥٦﴾ **أُولَئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ « يرجون » يخافون ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرجع لسمها . وحالها في بيت نوب عواسل^(١)

وقيل يرجون بطمعون ، ومنه قول الآخر :

أرجو بنو مروان سمى وطاحي . وقسوي تيم والفلاة ورائيا

(١) داجج ج٢ ص ١٩١ طبعة ثانية . (٢) البيت لأب ذؤيب . وقوله : « وحالها » بالحاء المعجمة ؛
جاء إلى عسلا وهي طائفة زعمي . ويريد « وحالها » بالمهملة أي لازمها . والربوب : النحل ؛ لأنها ترمي ثم تنوب
إلى موضعها . ويريد : « عواسل » بدل « عواسل » وهي نقي نعل النمل والشمع . (من شرح ديوان أبي ذؤيب) .

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع أى لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً . وجعل لقاء المذابح والثراب لقاءً قد تفضيها لها . وقيل : يجرى اللقاء على ظاهره ، وهو الرؤية ، أى لا يطمعون فى رؤيتنا . وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع التجدد كقوله تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ بِهِ وَفَارًا » . وقال بعضهم : بل يقع بمعناه فى كل موضع دل عليه المعنى . قوله تعالى : (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى رَضُوا بها عوضاً من الآخرة فعملوا لها . (وَأَطَاعُوا نَايَا) أى فرحوا بها وسكنوا إليها ، وأصل أطاعان طابن طمانينة ، فقدمت ميمه وزيدت نون والف وصل ؛ ذكره الفزرى . (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا) أى عن أدلتنا (غَالُونَ) لا يعتبرون ولا يفكرون . (أُولَئِكَ مَا لَهُمْ) أى مناهم ومقامهم . (النَّارُ يَسَاءُ كَانُوا يَكُونُونَ) أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَرْجُونَ** .
يُرَاجِعُونَ . **يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدقوا . (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يَرْجُونَ رَجَعُوا .
 (يَرْجِعُونَ) أى يرددهم هداية ، كقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى » . وقيل : « يَرْجِعُونَ رَجَعُوا » إلى مكان تجري من تحتهم الأنهار . وقال أبو ذؤيب : يَرْجِعُونَ رَجَعُوا .
 (يَرْجِعُونَ) إلى الجنة . وقال عطية : « يَرْجِعُونَ » يَرْجِعُونَ . وقال مجاهد : « يَرْجِعُونَ » بالوزن على الصراط إلى الجنة ، يجعل لهم نوراً يمشون به . ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقوى هذا أنه قال : « يَتَلَقَّى الْمُؤْمِنُ عَمَلَهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَيُؤَنِّسُهُ وَيُرِيدُهُ وَيَتَلَقَّى الْكَافِرُ عَمَلَهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ فَيُوحِشُهُ وَيُضِلُّهُ » . هذا معنى الحديث . وقال ابن جرير : يجعل عملهم هادياً لهم . الحسن : « يَرْجِعُونَ » يَرْجِعُونَ .

قوله تعالى : (**يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**) قيل : فى الكلام وار محذوفة ، أى وتجري من تحتهم ، أى من تحت بساتينهم . وقيل : من تحت أسرَّتِهم وهذا أحسن فى التزهة والفرجة .

قوله تعالى : دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَّمَ وَبِإِحْرَ
دَعْوَتِهِمْ أَنْ يَحْمَدُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) دعواهم : دعاؤهم ؛ والدعوى مصدر
دعا يدعو ، كالشكوى مصدر شكى يشكو ؛ أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم .
وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخبروا السؤال بلفظ التسبيح وبغنون بالحمد . وقيل :
فدأواهم الخدم لآلئهم بما شاءوا ثم سبحوا . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التفتى ؛ قال الله تعالى :
« وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ » أى ما تفتنون . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَّمَ) أى تحية الله لهم أو تحية الملك أو تحية بعضهم
لبعض : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى التحية مستوفى . والحمد لله .

فوجه تعالى : (وَابْتَرَدَعْوَاهُمْ أَنْ يَحْمَدُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) فيه أربع مسائل :

الأولى - قيل : إن أهل الجنة إذا صر بهم الطير واشتهوه قالوا : سبحانك اللهم ؛ فيأتيهم
الملئك بما اشتبهوا ، فإذا أكلوا حيدوا الله ؛ فسؤالهم بلفظ التسبيح والتم بلفظ الحمد . ولم يحك
أبو عبيد إلا تخفيف « أن » ورفع ما بعدها ؛ قال : وإنما زعم اختاروا هذا وفرقوا بينها
وبين قوله عز وجل « أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ » و « أَنْ غَضِبَ اللَّهُ » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال :
الحمد لله . قال النحاس : منسوب الخليل وسيبويه أن « أَنْ » هذه مخففة من التثنية ،
والمعنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : « أَنْ الحمد لله » يعملها خفيفة عملها تعلية ؛
والرفع أقيس . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى ردة قرأ « وَابْتَرَدَعْوَاهُمْ أَنْ
يَحْمَدُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

قلت : وجه قراءة ابن محيصن ، حكاهما الفزرى ؛ لأنه يحكى عنه .

الثانية — التسبيح والمجد والتهليل قد يُسمى دعاء؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : " لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم " . قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب . وقال ابن عيينة وقد سئل عن هذا فقال : أما علمت أن الله تعالى يقول " إذا شغل عبدي شأؤه عن مسئني أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " . والذي يقطع النزاع وأن هذا يسمى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وتثناء عليه ما رواه النسائي عن سعد ابن أبي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له " .

الثالثة — من السنة لمن بدأ بالأكل أن يسمي الله عند أكله وشربه ويحمده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة ؛ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " .

الرابعة — يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وأتودعواهم أن الحمد لله رب العالمين ؛ وحسن أن يقرأ آخر الصفات فإنها حمت تزبه البارئ تعالى عما نسب إليه ، والتسليم على المرسلين ، وإختم بالحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : وَلَوْ يُعِصِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الْآثَرَ اسْتَعْبَاهُمْ بِأَخْبَرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

(١١) قوله تعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » ملاحم الزمخشري وأما « رب العالمين »

قوله تعالى : (وَلَوْ يُسْئَلُ اللَّهُ النَّاسُ اثْنًا عَشَرَ نَفِيسًا بِإِغْوَايِهِمْ لَفُتِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ)
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَوْ يُسْئَلُ اللَّهُ النَّاسُ اثْنًا عَشَرَ نَفِيسًا) : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستجابون الثواب والخير لماتوا ، لأنهم خلفوا في الدنيا خلقا ضحيقا ، وليس هم كنا يوم القيامة ، لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء . وقيل : المعنى لو فصل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فلهذه منهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ، وهو معنى «لَفُتِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ» . وقيل : إنه خاص بالكافر ، أي ولو يسأل الله الكافر العذاب هل كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله لينجس مذاب الآخرة ، قاله ابن إسحاق . مسائل : هو قول النضر بن الحارث : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْكَ فَأَمْطِرْ عَلَيَّ حَمَازًا مِنَ السَّمَاءِ فَاَوْعِلْ لِمِ هَذَا هَلَكُوا . وقال جاهد : نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللَّهُمَّ أَهْلِكَ ، اللهم لا تبارك له فيه وألمته ، لأنهم ههنا ، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لَفُتِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ . فالآية نزلت خاتمة لما قلنا فممن هو في بعض الناس يدعو في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوءه لخلق على الدماء في الشر ، فلو عجل لهم هلكوا

الثانية - وأختلف في إجابة هذا الدعاء ، فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ سَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يُسْتَجِيبَ دَعَاءَ حَبِيبٍ عَلَى حَبِيبِهِ » . وقال شهر ابن حوشب : قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للأنبياء المؤمنين بالبعد : لا تكتبوا على عبيدي في حال شجره شيئا ، لطفنا من الله تعالى عليه . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ، واحتج بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخر الكتاب ، قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بطن بواط ، وهو يطلب المقدسي بن عمرو الجهني

(١) بواط (بضم باء) : جبل من جبال جهينة بتاحية رضوى (جبل بالهبة عنه نبع) ، فزاد النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من الهجرة يريد ليرشاه

وَكَانَ السَّاحِخُ يَسْتَبِيهِ ^(١١) مَا اخْلَصَ وَالسَّيِّئَةُ وَالسَّيِّئَةُ ، فَدَارَتْ حَقِيْقَةُ رَجُلٍ مِنَ الْاَصْحَابِ عَلَى تَاَخُّجٍ لَهُ
فَانَاخَهُ فَرَكِبَ ، ثُمَّ يَسَّهَ فَلَذَنَ عَلَيْهِ بَعْضُ التَّلَذُّنِ ، فَقَالَ لَهُ : شَأْ ، لَعَنَ اللهُ ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بِعِيْرَةِ “ ؟ قَالَ : اَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : ” اَنْزِلْ عَنْهُ
فَلَا تَصْحَبُنَا بَلْمُونَ لَا تَدْعُوا عَلْ اَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلْ اَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلْ اَمْوَالِكُمْ لَا تَوَافِقُوا
مَنْ اللهُ سَاعَةً يُسَالُ فِيهَا عَطَاءٌ يُسْتَجِيبُ لَكُمْ “

فِي غَيْرِ مُسَلَّمٍ اَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ ظَنَنَ رَجُلٌ نَاقَتَهُ فَقَالَ : ” اَيْنَ الَّذِي
لِمَنْ نَاقَتُهُ “ ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ : اَنَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : ” اَنْزِلْهَا عَنْكَ فَقَدْ اُجِبْتَ فِيهَا “ .
ذَكَرَهُ الْحَلِيبِيُّ فِي مَهَاجِ الدِّينِ . « شَأْ » يَرُودُ بِالسِّينِ وَالشِّينِ ، وَهُوَ زَجْرٌ لِلْجَبْرِ بِمَعْنَى يَسِرُ .
الثَّلَاثَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ يُسْئِلُ اللهُ) قَالَ الْعُلَمَاءُ : التَّعَجُّلُ مِنْ اللهِ ،
وَالِاسْتِجَابَةُ مِنَ الْعَبْدِ . وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ : هَذَا مِنْ اللهِ ، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ ، اَيُّ وَلَوْ يُسْئِلُ
اللهُ النَّاسَ الشَّرَّ تَعْجِلاً مِثْلَ اسْتِجَابَتِهِ بِالْخَيْرِ ، ثُمَّ حَذَفَ تَعْجِلاً وَاَقَامَ صِفَتَهُ مَقَامَهُ ،
فَمِنْ حَذْفِ صِفَتِهِ وَاَقَامَ الْمُضَافَ اِلَيْهِ مَقَامَهُ ، هَذَا مَذْهَبُ الْخَطِّيلِ وَسَيِّدِيهِ . وَعَلَى قَوْلِ الْأَخْفَشِ
وَالْفَرَّاءِ كَاسْتِجَابَتِهِ ، فَمِنْ حَذْفِ الْكَافِ وَنَقِصِبِ . قَالَ الْفَرَّاءُ : كَمَا تَحُولُ ضَرْبَتُ زَيْدٍ ضَرْبَكَ ،
اَيُّ كَضَرْبِكَ . وَقَسْرُ ابْنِ حَامَرٍ « قَفَضَى إِلَيْهِمْ لِجَلْبِهِمْ » . وَهِيَ قِرَاءَةٌ حَسَنَةٌ ، لِأَنَّهُ يُتِمَّلُ
بِقَوْلِهِ « وَلَوْ يُسْئِلُ اللهُ النَّاسَ الشَّرَّ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَتَنَّا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) اَيُّ لَا يُسْجَلُ لَهُمُ الشَّرُّ فَرَجَبًا يَتَوَبُّ مِنْهُمْ
تَائِبٌ ، أَوْ يُخْرِجُ مِنْ اَسْلَاحِهِمْ مَوْثِقٌ . (فِي طُنُجَانِيْمٍ يَمْشُونَ) اَيُّ يَمْشُرُونَ . وَالطُّنُجَانِ :
الْمَلَقُ وَالْاِرْتِفَاعُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْبَقَرَةِ » . وَقَدْ قِيلَ : اِنْ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ اَهْلُ مَكَّةَ ، وَاِنِهَا
تُرِيدُ حَيْثُ قَالُوا : « اَللَّهُمَّ اِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الْآيَةَ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَاقَعَ اَعْلَمُ .

(١) اَيُّ يَتَأَخَّرُ فِي الرُّكُوبِ رَاحَةً بِدِرَاسَةٍ . وَهَقِيْقَةُ : الْفَرِيْقَةُ . (٢) ظَنَنَ : تَكَادَرَفَ دَامَ يَبْتَغِي .

(٣) دَاجِمٌ ص ١٠٩ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ اَرْبَعَةٌ . (٤) ص ٧ ط ٣٩٨ طَبْعَةٌ اَوَّلَى ثَانِيَةٌ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِثِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِكْ ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ
ذُرِّيُّنَ الْمُنْسِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِثِّهِ) قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر ،
فقال : هو أبو حذيفة بن اليمانية المشرك ، نصيبه البأساء والشدة والجهد . (دَعَا لِحِثِّهِ)
أى هل جنبه مضطجعا . (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وإنما أراد جميع حالاته ، لأن الإنسان لا يمدو
إحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضر أشد في غالب
الأمر ، فهو يدعو أكثر ، واجتهاده أشد ، ثم القاعد ثم القائم . (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ)
لأنه استتر على كفره ولم يشكر ولم ينطق .

قلت : ومثله صفة كثير من المخلصين الموحدين ، إذا أصابته العافية مر على ما كان
عليه من المعاصي ، فالآية نعم الكافر ونعيمه . (كَانَ لَمْ يَدْعُنَا) قال الأخفش : هى « كان »
التيبة خففت ، والمعنى كأنه ، وأشد .

وَيَ كَانَ مِنْ يَكُنْ لَهُ تَسْمِيَةٌ . بهمه ومن يفتقر يفتقر ميسر ضم
(كَذَلِكَ ذُرِّيُّنَ) أى كاذبين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء (ذُرِّيُّنَ الْمُنْسِفِينَ)
أى لشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي . وهذا الترتيب يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن
يكون من الشيطان ، وإضلاله دعائه إلى الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾
قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) أى الأمم الماضية من قبل
أهل مكة أهلكناهم (لَمَّا ظَلَمُوا) أى كفروا وأنكروا . (وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

لما جاءت رسلهم من الله بالبينات والبراهين والبراهين .

أى بالمعجزات الواضحات والبراهين الثابتة . (وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) أى اهلككم لعلنا أنهم لا يؤمنون . يخوف كفار مكة عذاب الأثم المأخوذة ، أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء . نكذبهم عما صلى الله عليه وسلم ، ولكن نعلمهم لعلنا بأن نهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلاهم من يؤمن . وهذه الآية تزد على أهل الضلال القائلين بخلاف الهدى والإيمان .
وفيل : معنى ه وما كانوا ليؤمنوا ، أى جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ، ويدل على هذا أنه قال : (كذلك نجزي قوم الحيرين)

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً) مفعولان . والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدم آخره الأمام ، أى جعلناكم سكانا في الأرض (مِنْ بَعْدِهِمْ) أى من بعد القرون المهلكة . (لِنَنْظُرَ) نصب بلام تية ، وقد تقدم نظاره وأمناله ، أى ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم يزل يعلمه غيبا . وقيل : ياملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل . وقيل : النظر . وراجع إلى الرسل ، أى ليظهر رسلنا وأوليائنا كيف أعمالكم . وه كيف ، نصب بقوله تعملون ، لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله تعالى : وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِنَّا نُنزِّلُ الْغَيْمَ آيَاتًا) « نزل » ههنا ، و « ينات » نصب على الحال ؛ أى واهضات لا ليس لهناء ولا إشكال . (قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) بنى لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : بنى مشرك أهل مكة . (إِنِّي مُرْسِلٌ فِيهِمْ هُمُومًا أَوْ بَلَاءً) والفرق بين تبديله والإتيان به أنه إن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإتيان به قد يجوز أن يكون معه ؛ وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها — أنهم سأله أن يحزل الهمد ويبدا الوعد ، والحلال حراما والحرام حلالات ، قاله ابن جرير الطبري .

الثاني — سأله أن يسقط ما في القرآن من حجب آياتهم ونسبهم أحلامهم ؛ قاله ابن عباس .

الثالث — أنهم سأله إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ؛ قاله الزجاج .

الثانية — قوله تعالى : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي) أى قل يا عبد ما كان لي (أَنْ أَسْأَلَ مِنْ تِلْكَ نَفْسًا تَقِي) ومن عندي ؛ كما ليس لي أن ألقاه بالحق والتكذيب . (إِنِّي أَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى لا أنبئ إلا ما أنتم عليه من وعد ووعد ، ونهزم وتجليل ، وأمر ونهى . وقد يستدل بهذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنّة ؛ لأنه تعالى قال : « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي » وهذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت في طلب المشركين مثل القرآن نظما ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قادرا على ذلك ، ولم يسأله تبديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان وحيا لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من عند الله تعالى .

الثالثة — قوله تعالى : (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي) أى إن خالفت في تبديله وتغييره أو في ترك العمل به (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يعنى يوم القيامة .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ
فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ) أى لو شاء الله ما أرسلت
اليكم فلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ، يقال : دريت الشيء وأدراى الله
به ، ودريته ودريت به . وفى العراية معنى الختل ، ومنه دريت الرجل أى خنته ، ولهذا
لا يطلق الدارى فى حق الله تعالى وأيضاً عدم فيه التوقيف . وقرأ ابن كثير « ولأدراكم به »
بغير ألف بين اللام والميم ، والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتله عليكم ، فهى
لام التاكيد دخلت على ألف أنزل . وقرأ ابن عباس والحسن « ولا أدراكم به » بقول
الياء ألفاً^(١) على لغة بنى عيل ، قال الشاعر :

لمعرك ما أخشى التبعك ما بينى . على الأرض قيسى يسوق الأبحرا

وقال آخر .

ألا أدنت أهل الجمامة طيئ^(٢) . بحرب كاصبات الأغر المنهبر

قال أبو حاتم : سمعت الأصمى يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا
أدراكم به » وجه ؟ فقال لا . وقال أبو عبيد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراكم به »
إلا النطق . قال النحاس : معنى قول أبى عبيد « لا وجه » إن شاء الله على النطق ، لأنه يقال :
دريت أى علمت ، وأدريت فبرى ، ويقال : درأت أى دفعت ، فبقع النطق بين دريت
ودرات . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب « ولا أدريتكم به » فابدل من الياء ألفاً على
لغة بنى الحارث بن كعب ، يدلون من الياء ألفاً إذا اضطر ما قبلها ، مثل « إن هذان لساخران »^(٣)
قال المهدي : ومن قرأ « أدراكم » فوجهه أن أصل الهمزة ياء ، فأصله « أدريتكم »
فقلبت الياء ألفاً وإن كانت ساكنة ، كما قال : يابن قيس وطائى فى طيئ^(٤) ، ثم قلبت الألف

(١) أى إن الأصل ، « أدريتكم » - (٢) أى آفة ١٢ سورة هـ .

همزة على لسة من قال في العالم العالم وفي الخاتم الخاتم . قال النحاس : وهذا غلط ، والرواية من الحسن « ولا أدراككم » بالهمزة ، وأبو حاتم وغيره تكلم أنه بغير همز ، ويجوز أن يكون من درأت أي دفت ، أي ولا أمر تك أن تدفوا فتكروا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا) ظرف ، أي مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة . (مِنْ قَبْلِهِ) أي من قبل القرآن ، تعرفوني بالصدق والأمانة ، لا أفرا ولا أكتب ، ثم جئتكم بالمعجزات . (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قبل . وقيل : معنى « لبثت فيكم عمرا » أي لبثت فيكم مدة شبابي لم أعص الله ، أفتريدون مني الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله ، وأغير ما يتره علي . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة ، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء ، وتوَقَّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنين وستين سنة

قوله تعالى : قَنَ أَنْظَلُمْ مِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُنْجِرُونَ ﴿٧﴾

هذا استفهام بمعنى الجحد ، أي لا أحد أنظلم عن افتري على الله الكذب ، وبذلك كلامه وأضاف شيئا إليه مما لم يتره . وكذلك لا أحد أنظلم منكم إذا أنكرتم القرآن وأقرتم على الله الكذب ، وقلم ليس هذا كلامه . وهذا مما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لم . وقيل : هو من قول الله ابتداء . وقيل : البقري للمشرک ، والمكذب بالآيات أهل الكلاب . (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُنْجِرُونَ) .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يريد الأسماء .
 ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وهذه غاية الجهالة منهم؛ حيث يخطر على الشفاعة
 في المسأل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال . وقيل : « شفعاؤنا » أى تسفع لنا عند
 الله في إصلاح معاشنا في الدنيا . ﴿ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾
 قراءة العامة « تدعون » بالتشديد . وقرا أبو السَّالَةِ الْمَدِينِي « أدعون الله » مخففاً ، من أنبا
 يني . وقراءة العامة من نبأ يني تيفقه ؛ وهما بمعنى واحد ، جمعها قوله تعالى : « من أنبأك
 هَذَا قَالَ نَبَأُيُ الْبَلِيغِ الْخَيْرِ » أى أخبروني الله أن له شريكا في ملكه أو شفعا بغير إذنه ، والله
 لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض ؛ لأنه لا شريك له فذلك لا يعلمه . فظنوه
 قوله : « أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » ثم نزهه وقدمها عن الشرك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أى يبدعون
 ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » فيكذبون ؛ وهل شيئا لكم
 أن تنبئوه بما لا يعلم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ! . وقرا حمزة والكسايني « تذكرون »
 بالثاء ، وهو اختيار أبي عبيد . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾

تقدم في « البقرة » معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك .
 وقيل : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلَفوا عند البلوغ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
 لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر ؛ أى لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضى
 بينهم فيما اختلفوا فيه بالتراب والمقابر دون القيامة لقضى بينهم في الدنيا ، فأدخل المؤمنين
 الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فدخل

(١) آية ٣٠ سورة الصرح (٢) آية ٢٢ سورة الرعد (٣) باج ٣٠٣ ص ٢٠ طبة امداد آية ٢

موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو روق : « لُقِضَ بينهم » لأقام عليهم الساعة . وقيل :
 لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أخر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب
 في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لُقِضَ بينهم بتزول العذاب أو بإقامة الساعة .
 والآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عن كفره . وقيل : الكلمة السابقة
 أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو لإرسال الرسل؛ كما قال : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
 رَسُولًا » وقيل : الكلمة قوله : « سبقت رحمتي غضبي » ولولا ذلك لما أنذر العصاة إلى
 التوبة . وقرأ عيسى : لُقِضَ ، بالفتح .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
 الْغَيْبُ لِلَّهِ فَاصْتَبِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٦٥﴾

يريد أجل مكة، أى حلا أنزل عليه آية، أى معجزة غير هذه المعجزة، فيجعل لنا الجبال
 ذهباً ويكون له بيت من زئفر، ويحيى لنا من مات من آبائنا . وقال الضحاك : عصا كعصا
 موسى . (قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ) أى قل يا محمد إن نزول الآية غيب . (فَاصْتَبِرُوا) أى
 تربعوا . (إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) لتروها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا باظهار الحق
 على المبطل .

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ
 إِذَا هُمْ مَكْرِفٌ آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ
 مَا نَمْكُرُونَ ﴿٦٦﴾

يريد كفار مكة . (رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ) قيل : رضاء بعد شدة، ونخب بعد
 جشع . (إِذَا هُمْ مَكْرِفٌ آيَاتِنَا) أى استهزاء وتكذيب . وجواب قوله « وإذا أذقنا » : « إذا
 لم » على قول الخليل وسيدييه . (قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ) ابتلاء وسبر . (مَكْرًا) على اليان ، أى

أجل عقوبة على جزاء مكرم، أى أن ما ياتىهم من العذاب أسرع في إهلاكهم مما أتوه من المكر. (إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا نَمَكُونُ) يعنى بالرسل الحفظة . وقراءة العامة « نَمَكُونُ » بقاء خطأ . وقرا يعقوب في رواية رؤيس وأبو عمرو في رواية هارون التيمي « يَمَكُونُ » بالياء ، لقوله : « إِذَا لَمْ يَمَكُنْ آيَاتُنَا » قيل : قال أبو سفيان لِحَطْنِا بِدَعَائِكَ فَإِنْ سَفِينَا صَدَقْنَاكَ ؛ فَسَفَرُوا بِأَسْتَفَانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا ، فهذا مكرم .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بِيَمٍ يَبْرِجُ طَيْبَةً وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْغَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُخِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لِمَا يُغْنِيكَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بِيَمٍ) أى يملكك في البر على الدواب وفي البحر على الفلك . وقال الكلبي : يحفظك في السير . والآية تتضمن تهديد التمر فيما هي الحلال بسبيله من ركوب الناس الدواب والبحر . وقد مضى الكلام في ركوب البحر في « البقرة » . و (يُسَيِّرُكُمْ) قراءة العامة . ابن طاهر « يشرركم » بالنون والشين ، أى يتركهم ويفترقهم . والفلك يقع على الواحد والجمع ، وبذكر ويؤنث ، وقد تقدم القول فيه . وقوله (وَجَرْنَ بِيَمٍ) خروج من الخطاب الى التثنية ، وهو في القرآن وأشطر العرب كثير ؛ قال النابغة :

بَادِرَ مَيْتَةٍ بِالْقِيَاءِ فَالْتَمَدَ • أَفَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

قال ابن الأنباري : وجازى اللغة أن يرجع من خطاب النبية إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : « وَسَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » فأبدل الكاف من الماء .

قوله تعالى : « يَرْيَحُ طَيِّبَةً وَفَرِحُوا بِهَا » تقدم الكلام فيها في البقرة . « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » الصمري « جاءت » للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة ؛ يقال : عاصفت الريح وأعصفت . فهي عاصف ومُعَصِف ومُعَصِفَة أى شديدة ؛ قال الشاعر :
حتى إذا أعصفت ريح مُرْعِزَة • فيها قطار ورعد صوته زَجَل

وقال « عاصف » بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر ، وهي الفاصف أيضا . والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ » والموج ما ارتفع من الماء . « وَظَنُّوا » أى ايقنوا « أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم البلاء ؛ يقال لمن وقع في بلية : قد أحيط به ، كأن البلاء قد أحاط به ، وأصل هذا أن المدح إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . « دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفي هذا دليل على أن الخلق جئوا على الرجوع إلى الله في الشكائد ، وأن المضطر يحجب دعاؤه وإن كان كافرا ؛ لا تنقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأبواب ؛ على ما يأتي بيانه في « النمل » ان شاء الله تعالى .
وقال بعض المفسرين . إنهم قالوا في دعائهم أهيا شراهي ؛ أى يا حي يا قيوم ؛ وهي لغة البهم .
مسألة - هذه الآية تدل على ركوب البحر مطلقا ، ومن السنة حديث أبي هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء... الحديث . وحديث أنس في قصة أتم حرام يدل على جواز ركوبه في الفزوة ، وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » مستوفى والحمد لله . وقد تقدم في آخر « الأعراف » حكم راكب البحر في حال ارتجاعه وغليانه ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه ؛ فتأمل هنا^(١)

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٧ طبع ثانية . (٣) في قوله تعالى :
أمن يجيب المضطر إذا دعاه... آية ٦٢ (٤) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طبع ثانية . (٥) راجع ج ٢ ص ٢٤١ طبع أول مرة .

قوله معنى : (**يَنْتَهِينَا مِنْ هَذِهِ**) أى من هذه الشدائد والأحوال . وقال الكلبي :
من هذه الریح . (**لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) أى من العاملين بطاعتك هل نعمة الخلاص و
(**فَلَمَّا أَتَاهُمْ**) أى خلّصهم وأقّدهم . (**إِذَا هُمْ يَبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِبَنِي الْحَقِّ**) أى يعملون
في الأرض بالفساد والبلاص . والبني : الفساد والشرك ؛ من بني الجرح إذا فسد وأصله الطلب ،
أى يطلبون الاستملاء بالفساد . (**بِشَرِّ الْحَقِّ**) أى بالكذب ؛ ومنه بنت المرأة طلبت غير زوجها .
قوله تعالى : (**يَأْتِيهَا النَّاسُ أُمَمًا يَبْتَغِيكَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**) أى والله عائد عليكم ، وتم الكلام ،
ثم ابتدأ فقال : (**مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أى هو متاع الحياة الدنيا ، ولا بقاء له . قاله
النجاشي : « **بِشَرِّكُمْ** » رفع بالابتداء وخبره « متاع الحياة الدنيا » . و « **عَلَى أَنْفُسِكُمْ** » مفعول
معنى فعل البني . ويحوز أن يكون خبره « **عَلَى أَنْفُسِكُمْ** » وتضمير مبتدأ ، أى ذلك متاع
الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ وبين المعنيين فرق لطيف ، إذا رفعت متاعا على أنه خبر
« **بِشَرِّكُمْ** » فالمنى إنما بقى بعضكم على بعض ، مثل « **فَسَلُّوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ** » وكذا « **لَقَدْ جَاءَكُمْ**
رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » . وإذا كان الخبر « **عَلَى أَنْفُسِكُمْ** » فالمنى إنما فسادكم راجع عليكم ؛ مثل
« **وَأِنْ أَسَأَمْتُمْ فَلَهَا** » . وروى عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البني متاع الحياة الدنيا ،
أى عقوبته تعجل لصاحبه في الدنيا ؛ كما يقال : **الْبَنَى مُصْرَعَةٌ** . وقرا ابن أبي إسحاق « متاع »
بالنصب على أنه مصدر ؛ أى يمتحنون متاع الحياة الدنيا ، أو يترع الخافض ، أى لمتاع . أو مصدر
بمعنى المفعول على الحال ، أى ممتحنين . أو هو نصب على الظرف ، أى في متاع الحياة الدنيا .
ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل في البني . و « **عَلَى أَنْفُسِكُمْ** » مفعول ذلك المنى .
قوله تعالى : (**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ**
فَنَاقَلَطُ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ يَمَا يُأْكُلُ الْإِنْسَانُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَغْلَقَتِ
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأُزْهِتْ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَالِدُونَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَوُ تَغْنَّ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتْرَنتَهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والتخيل، أى صفة الحياة الدنيا ن فائئاً وزوالها وقلة خطرهما والملاذ بها كماء، أى مثل ماء، فالكتاب فى موضع رفع، وسياق لهذا التشبيه مزيد بيان فى «الكهف» إن شاء الله تعالى. ﴿ أَتْرَنتَهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ نعت لماء. ﴿ فَأَخْطَلَتْ ﴾ روى عن نافع أنه وقف على «فأخطلت» أى فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتداء « به نبات الأرض » أى بالماء نبات الأرض؛ فأنجرت ألوانا من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يخف على « فاختلط » مرفوع باخطلت؛ أى اختلط النبات بالمطر، أى شرب منه فتتدى وحسن وأخضر. والاختلاط تداخل الشيء بفضه فى بعض.

قوله تعالى: ﴿ يَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿ وَالْإِنْتَامِ ﴾ من السكلا والتين والشعير. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أى حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء؛ ومنه قيل للذهب زخرف. ﴿ وَأَزْيَنْتِ ﴾ أى بالحبوب والثمار والأزهار؛ والأصل تربنت أدغمت التاء فى الزاى وحى بالفتح الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبو ابن كعب « وتربنت » على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأزبنت » أى أنت بالزينة عليها، أى الغلة والزرع؛ وجاء بالفعل مل أصله ولو أعلمه لقال وأزانت. وقال هوف ابن أبى جيلة الأعرابي: قرأ أشياخنا « وأزبنت » وزنه اسواقت. وفى رواية المقدسي « وأزبنت » والأصل فيه تربنت، وزنه تقاعست ثم ادغم. وقرأ الشعبي وقائدة « وأزبنت » مثل أفملت. وقرأ أبو عثمان التَّيْدِي « وأزبنت » مثل أفملت، ومنه أيضا « وأزبانت » مثل افصالت، وروى عنه « أزبانت » بالهمزة؛ ثلاث قراءات.

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَهْلُهَا ﴾ أى أيقن. ﴿ أَنَّهُمْ قَائِدُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض والموتى النبات إذ كان مفهوما وهو منها. وقيل: ردة

إلى الجنة، وقيل إلى الرينة. ﴿أَتَاهَا أَمْرًا﴾ أى عذابنا، أو أمرنا بهلاكها. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان. ﴿يَجْعَلُنَاهَا جَمِيدًا﴾ مفعولان، أى محصودة مقطوعة لاشئ فيها. وقال «حصيدا» ولم يؤت لأنه فعيل بمعنى مفعول. قال أبو عبيد: الحصيد المستأصل. ﴿كَأَنَّمْ تَمَنَّيْنَا بِالْأَمْسِ﴾ أى لم تكن عاصرة؛ من غنى إذا أقام فيه وعموه. والمغافى فى اللغة: المظزل التى يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تتم. قال ليد:

وغيثت سبتا قبل تجرى داحيس • لو سكان للنفس القوج خلود^(١)

وقراءة السامة «تن» بالناء ثانياث الأرض. وقرأ قتادة «ين» بالياء، يذهب به إلى الزخرف، أى فكذلك هذا الزرع هكذا كفلك الدنيا. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى نبينها. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى آيات الله.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ لما ذكر وصف هذه الدار وهى دار الدنيا وصف الآخرة فقال: ان الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام، أى إلى الجنة. قال قتادة والحسن: السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات. ومن أسمائه سبحانه السلام. وقد بينا، فى (الكتاب الأسمى فى شرح أسماء الله الحسنى). وياتى فى سورة «الحشر» إن شاء الله. وقيل: للمنى والله يدعو إلى دار السلامة. والسلام والسلامة بمعنى كالرضاع والرعاية؛ قاله الزجاج. قال الشاعر:

نُحْيِي بِالسَّلَامَةِ أُمَّ بَكْرٍ • وهل لك بعد قومك من سلام

(١) البيت: المبرزة من الشعر. وداحيس: أطم قهرس. (٢) قوله تعالى: «وإن شاء الله»

وقيل : أراد الله يدعو إلى دار النجاة ؛ لأن أهلها يتأولون من الله النجاة والسلام ، وكذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة ، وهو نعيمهم ؛ كما قال : « وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعا الله إلى دار السلام فانظر من أين نجيه ، فإن أجبت من دنياك دخلتها ، وإن أجبت من قبرك سبها . وقال ابن عباس : الجنان سبع ؛ دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعم .

قوله تعالى : (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ثم بالدعوة إظهارا لجمته ، وخصا بالهداية استثناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعالى " . وقيل الإسلام ؛ رواه النزاس بن سحمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده أبو بكر وصهر رضي الله عنهما . وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له أسمع سمعت أذنك وأعقل عقل قلبك إنما منك مثلك ومثل أمثلك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طاعته فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فافقه الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها — ثم تلاه يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . وقال قتادة ومجاهد : « والله يدعو إلى دار السلام » . وهذه الآية بينة الحجية والرد على القدرية ؛ لأنهم قالوا : هدانا الله الخلق كأهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فردوا على الله نصوص القرآن .

قوله تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ روى من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وزيادة» ، قال : «الذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم» . وهو قول أبى بكر الصديق وطىء ابن أبى طالب فى رواية ، وحذيفة وعبد بن الصامت وكعب بن عجرة وأبى موسى وصهيب وابن عباس فى رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، وهو الصحيح فى الباب . وروى مسلم فى صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إنا دخل أهل الجنة الجنة وتجتأ من النار قال فيكشف المحجَّب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر الى ربهم عز وجل» . وفى رواية ثم تلا — للذين أحسنوا الحسنى وزيادة — ونترجه النساء أيضا عن صهيب قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية «الذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال : «إنا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد أهل الجنة إن لكم موعنا عند الله يريد أن يُخْرِجُوه قالوا ألم يبيض الله وجوهنا ويثقل موازيننا ويُخْرِجَنَا من النار قال فيكشف المحجَّب فينظرون إليه فوافاه ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ولا أقرأ عنهم» . ونخرجه أبى المبارك فى دقائقه عن أبى موسى الأشعرى موقوفا ، وقد كتبه فى كتاب التذكرة ، وذكرنا هناك معنى كشف المحجَّب ، والحمد لله . ونخرج الترمذى الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا حلى بن حجر حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادة فى كتاب الله ، فى قوله «الذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال : «النظر الى وجه الرحمن» . ومن قوله «وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون» قال :

«خسرون ألفاً» . وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسابات إلى أكثر من ذلك ؛ وروى عن أبي عبيد . وروى عن علي رضي الله عنه : الزيادة عشرة من لؤلؤة واحدة لما أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة ، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاهم الله في الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ قال الله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»^(١) . وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتطهرهم من كل الفواكه التي لم يروها ، وتقول : يا أهل الجنة ، ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرهم إياه . وقيل : الزيادة أنه ما يتر عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطفئ بمثل أحدهم سبعون ألف ملك ، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه ، ما رأوا مثل تلك الهدايا قط ؛ فسبحان من لا تنفد مقدوراته . وقيل : «أحسنوا» أى معاملة الناس . والحسنى : شفاعتهم . والزيادة : إن الله تعالى فيها وقوله .

قوله تعالى : (وَلَا يَمُنُّ) قيل : معناه يلحق ؛ ومنه قيل : غلام مرافق لما يلحق بالرجال . وقيل يعلو . وقبل يضيئ ؛ والمعنى متقارب . (قَتَرٌ) غبار . (وَلَا ذِلَّةٌ) أى مفلة ؛ كما يلحق أهل النار ؛ أى لا يلحقهم غبار في عرشهم إلى الله ولا تشاهم ذلة . وأنشد أبو حنيفة للفردق :

مَسْرُوجٌ يرداه الملك يتبعه « موج ترى فوقه الرباب والقتر »

وقرأ الحسن « قَتَرٌ » بإسكان التاء . والقَتَر والقَتَرَة والقَتَرَة بمعنى واحد ؛ قاله النجاشي . وواحد القَتَرَة ؛ ومنه قوله : « تَهْفَأُ قَتَرَةً » أى تسلوها عبرة . وقيل : قَتَرٌ كَابَةٌ وكسوف . أخبر عباس : القتر سواد الوجوه . ابن بحر : دخان النار ؛ ومنه قَتَرُ القَتَر . وقال ابن أبي ليلى : هو بُعد نظرهم إلى دينهم عن وجل .

قلت : هذا به بطرء ؛ لأن الله عز وجل يقول : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون - إلى قوله - لا يحزنهم الفزع الأكبر » وقال في غير آية : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا » . وهذا عام فلا يتغير بفضل الله في موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجه المحسن بسواد من كآبة ولا حزن ، ولا يعلو شيء من دخان جهنم ولا غيره ، « وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْحَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِبٍ كَأَمْمَ أَغَشِيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنْ أَلْبِلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧)

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ) أى عملوا الماوى . وقيل الشرك . (جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا) جزاء صرفوع بالابتداء ، وغيره بمثلها . قال ابن كيسان : الباء زائدة ؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها . وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهى متعلقة بحذوف قامت مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها ؛ كقولك : إنما أنا بك ، أى إنما أنا كائن بك . ويجوز أن تتعلق بجزاءه ، التقدير : جزاء سيئة بمثلها كائن ؛ لحذف خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون « جزاء » صرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة ؛ فيكون مثل قوله « فَمِئَةٌ مِنْ أَلْبَمِ اشْر » أى فعليه عدة ، وشبهه ، والباء على هذا التقدير تتعلق بحذوف ، كأنه قال لم جزاء سيئة ثابت بثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المِثْلَةِ أن ذلك الجزاء مما يمد مما لا لتوهم ، أى هم غير مظلومين ، وفعل الرب غير مثل بعله . (وَرَحَقَهُمْ ذِلَّةٌ) أى يشاهم هوان ونزى . (مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ) أى من عذاب الله . (مِنْ غَاصِبٍ) أى مانع يمنهم منه . (كَأَمْمَ أَغَشِيْتَ) أى ألبست .

(١٧) آية ١٠١ سورة الأنعام . (٢) آية ٣٠ سورة فصلت . (٣) آية ١٠٧ سورة آل عمران .

﴿وَجُوعُهُمْ قَطْعًا﴾ جمع قطعة، وعلى هذا يكون «مظلمًا» حال من الليل؛ أي أغشيت وجوعهم قطعا من الليل في حال ظلمته. وقرأ الكسائي وأبن كثير «قطعا» بإسكان الطاء؛ ثم «مظلمًا» على هذا نعت، ويجوز أن يكون حالا من الليل. والقطع اسم ما قطع فسقط. وقال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل؛ وسيأتي في «هود» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ قَزِيلًا يَنْهَمُ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ لِإِنَاءِ تَعْبُدُونَ ﴿١١٠﴾ قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ) أي نجعلهم؛ والحشر الجمع. (جَمِيعًا) حال. (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا) أي الخسوف مع الله شريكا. (مَكَانَكُمْ) أي الزموا وأتبعوا مكانكم، وقهوا مواضعكم. (أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ) وهذا وعيد. (قَزِيلًا يَنْهَمُ) أي قزقا وقطعا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا؛ يقال: زَيْتُهُ قَزِيلٌ، أي قوته خفوق، وهو قَلْتُ؛ لأنك تقول في مصدره تزيلا، ولو كان قَيْلَتْ لقلت زَيْلَةً. والمزايلة المفارقة؛ يقال: زايله الله مزايلة وزَيْلًا إذا فارقه. والترايل التباين. قال الفراء: وقرأ بعضهم «قزايلا بينهم»؛ يقال: لا أزايل قلائ، أي لا أفاقره؛ فإن قلت: لا أزاوله فهو بمعنى آخر، معناه لا أضايله. (وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ) عني بالشركاء الملائكة. وقيل الشياطين، وقيل الأصنام؛ فينطقها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاوره. وذلك أنهم أَدْعَوْا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهم أمرهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا. قال مجاهد: ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نعبدكم إنا تَعْبُدُونَ، وما أمرناكم بعبادتنا. وإن حُلَّ الشركاء حل الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دعشا، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص، وقد يجري مثل هذا غدا؛ وإن صارت المعارف ضرورية.

قوله تعالى: فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ ﴿١١١﴾

(١) في قوله تعالى: «فأمر بأهلك قطع من الليل» آية ٨١

قوله تعالى : (فَكُنْ يَاقَالَهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ) « شَهِيدًا » مفعول ، أى كفى الله شهيداً ،
أو تميزه ، أى اكشف به شهيداً بيننا وبينكم إن كنا أسأناكم بهذا أو رضىنا منكم . (إِنَّ كُنَّا)
أى ما كنا (عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَنَافِلِينَ) إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نقول ، لأننا كنا جماداً
لأرواح نينا .

قوله تعالى : هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ
مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (هُنَالِكَ) فى موضع نصب على الظرف . (تَبْلُوا) أى فى ذلك الوقت ،
« تَبْلُوا » أى تذوق ، وقال الكفنى : تعلم ، مجاهد : تختبر . (كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ) أى جزاءه .
ما عملت وقدمت . وقيل : تسلم ، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها .
وفرا حزة والكسائي « تَبْلُوا » أى تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتِبَ عليها . وقيل « تَبْلُوا »
تبع ، أى تتبع كل نفس ما قدمت فى الدنيا ، قاله السدى . ومنه قول الشاعر :

إِنَّ الْمُرِيبَ يَتَّبِعُ الْمُرِيبَا • كَمَا رَأَيْتُ الذِّبْيَ يَتَّبِلُ الذَّبَا

قوله تعالى : (وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ) بالخلفض على البدل أو الصفة . ويؤيد
نصب الحق من ثلاث جهات ، يكون التقدير : وردوا حقاً ، ثم جاء بالآلف واللام . ويؤيد
أن يكون التقدير : مولاهم حقاً لا ما يعبدون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مذهباً ، أى
أعنى الحق . ويؤيد أن يقع « الحق » ، ويكون المعنى مولاهم الحق — على الابتداء والخبر ،
والقطع بما قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منه
كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه ؛ أى كل عدل وحق لمن قبله . وقال ابن عباس :
« مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » أى الذى يجازيهم بالحق . (وَضَلَّ عَنْهُمْ) أى جلت . (مَا كَانُوا يَقْتِرُونَ)
« يقترون » فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر ، أى اقتراؤهم . فإن قيل كيف قال : وردوا
إلى الله مولاهم الحق وقد أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم . قيل : ليس بمولاهم فى النصره
والمعونة ، وهو مولى لهم فى الرزق وإدراار النعم .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾

المراد بمساق هذا الكلام الرُّدُّ على المشركين وتقرير ألجحة عليهم ؛ فمن أعترف منهم فألجحة
ظاهرة عليهم ، ومن لم يعترف فيقر عليه أن هذه السموات والأرض لا بد لها من خالق ؛
ولا يمتدأ في هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبة الضرورة . (مِنْ السَّمَاءِ) أى بالمطر .
(وَالْأَرْضِ) بالنبات . (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) أى مَنْ جعلهما وخافهما لكم .
(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) أى النبات من الأرض ، والإنسان من النطفة ، والسُّبُلَةَ
من الحبة ، والطير من البيضة ، والمؤمن من الكافر . (وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ) أى يقدره ويقضيه .
(فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) لأنهم كانوا يعتقدون أن الملائكة هو الله ؛ أو سيقولون هو الله إن فكروا
وأصفوا قائل لهم يا محمد (أَفَلَا تَتَّقُونَ) أى أفلا تخافون عقابه وقمته في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ قَدْ آذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنَّى تُصِرُّونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ قَدْ آذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) فيه ثمان مسائل :
الأول : قوله تعالى : (قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ) أى هذا الذى يفعل هذه الأشياء
هو ربكم الحق ، لا ما أشركتم معه . (قَدْ آذَا بَعْدَ الْحَقِّ) « ذا » صلة ، أى ما بعد عبادة
الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال . وقال بعض المفسرين : ظاهر هذه الآية يدل
على أن ما بعد الله هو الضلال ؛ لأن أولها « فذلكم الله ربكم الحق » وآخرها « فآذا بعد
الحق إلا الضلال » فهنا في الإيمان والكفر ليس في الأعمال . وقال بعضهم : أن الكفر
تمضية الحق ، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى ؛ فالحرمان ضلال والمباح هدى ؛ فإن الله

هو المسيح والمزموم، والصحيح الأول؛ لأن قبله «كُلٌّ مِنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ثم قال «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ» أي هذا الذي رزقكم، وهذا كله فعله هو. (رَبُّكُمْ الْحَقُّ) أي الذي تعق له الألوهية ويستوجب العبادة، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق.

الثانية - قال علامونا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل مترلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرهما، وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنما هو في تحديد وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها : «لِكُلِّ جَمَلًا بَيْنَكُمْ شِرْعةٌ وَمِنْهَا» ، وقوله عليه السلام : «الْحلالُ بَيْنَ الْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنِهِمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ» . والكلام في الفروع إنما هو في أحكام طائفة على وجود ذات مقرر لا يختلف فيها وإنما يختلف في الأحكام المتعلقة بها .

الثالثة - ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : «اللهم لك الحمد» الحديث . وفيه «أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق وقضائك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنيون حق وعمد حق» الحديث . فقوله «أنت الحق» أي الواجب الوجود ، وأصله من حق الشيء أي ثبت ووجب، وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، ويجوز عليه لحاق عدم ، ووجوده من موجد له لا من نفسه . وإخبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة ليد :

«أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَقَ اللَّهُ بَاطِلٌ» .

وإيه الإشارة بقوله تعالى : «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ» .

الرابعة - مقابلة الحق بالضلal عرف لغة وشرا، كما في هذه الآية . وكذلك أيضا مقابلة الحق بالباطل عرف لغة وشرا ، قال الله تعالى : «ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ . والضلال حقيقته الذهاب عن الحق ؛ أخذ من ضلال الطريق ، وهو المدول عن سبته . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل القصد ؛ يقال : ضل عن الطريق وأضل الشيء إذا أضاعه . وخص في الشرع بالعبارة عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال ؛ ومن غريب أمره أنه يسير به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يفتن بصدمة جهل أوشك ، وعليه حل العلماء قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » أى غافلاً ، في أحد التأويلات ، يتحقق قوله تعالى : « مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

الخامسة - روى عبد الله بن عبد الحكم وأشب من مالك في قوله تعالى . « فلما بد الحق إلا الضلال » قال : اللَّيْبُ بِالشُّطْرَيْجِ وَالْعَزْ مِنْ الضَّلَالِ . وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة ؛ فقال مالك : ما يعجبني ! وليس من شأن المؤمنين ، يقول الله تعالى : « فلما بد الحق إلا الضلال » . وروى يونس عن أشهب قال : سئل - يعنى مالكا - عن اللعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ؛ وليس بنبي وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبئ لدى العقل أن تنهاه القية والشب عن الباطل . وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أحبا .

السادسة - اختلف العلماء في جواز اللَّيْبِ بِالشُّطْرَيْجِ وغيره إذا لم يكن على وجه التقار ؛ فتخصيص مذهب مالك وجمهور الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهل في بيته مستترا به مرة في الشهر أو العام ، لا يُطْلَعُ عليه ولا يُعلم به أنه مَعْفُو عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخَلَّعَ به واشتهر فيه سهكت صروته وعدلته وركبت شهادته . وأما الشافعي ؛ فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادة اللاعب بالترد والشطرنج ، إذا

(١) آية ٦٢ سورة الحج . (٢) آية ٢٠ سورة شوري . (٣) تخلف في الشراب : انهك فيه ولازمه فلا ينهار .

كان عدلا في جميع أفعاله . ولم يظهر منه سوء ولا ريبة ولا كيرة إلا أن يفسد به فساده ، فان لعب بها قارا وكان بذلك معروفا سقطت عدالته وسفّه نفسه لأكله المسال بالباطل .
وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والترد والأربعة عشر وكلّ اللهو ؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه ثبتت شهادته عندهم . قال ابن العربي : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف الترد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال الفريضة . والترد قار غرر لا يعلم ما يخرج له فيه كالأستقسام بالأزلام .

السابعة - قال علماؤنا : الترد قطع مملوءة من حشب البقس ومن عظم القيل ، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه غدّي بلبانه . والترد هو الذي يعرف بالطليل ويسرف بالكلاب ويعرف في الجاهلية أيضا بالأرز ويعرف أيضا بالتردشير . وفي صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه من النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالتردشير فكأنما غس يداه في لحم خنزير ودينه " . قال علماؤنا : ومعنى هذا أي هو كمن غس يده في لحم الخنزير يدينه لأن إكله ، وهذا الفعل في الخنزير حرام لا يجوز ؛ بيّنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من لعب بالترد فقد عصي الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبي موسى الأشعري وهو حديث صحيح ، وهو يحزم النصب بالترد جملة واحدة . وكذلك الشطرنج ، لم يستثن وقتا من وقت ولا حالا من حال ، وأخبر أن فاعل ذلك عاصي لله ورسوله ؛ إلا أنه يحتدل أن يكون المراد باللعب بالترد المنهي عنه أن يكون على وجه القمار ؛ لما روي من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قمار . وحمل ذلك على المصوم قارا وغير قار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحلي في كتاب منهاج الدين : وما جاء في الشطرنج حديث يروي فيه كما يروي في الترد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالشطرنج فقد عصي الله ورسوله " . وعن علي رضي الله عنه أنه مرّ على مجالس من بني تميم وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال : " أما والله لعير هذا خلقكم ! أما والله لولا أن تكون سة لضربت به وجوهكم " . وعنه رضي الله عنه أنه مرّ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أتم لها عاكفون ؛ لأن يمس أحدكم

(١) اضطربت الأمور في كتابة هذه الأحكام ؛ ولم تهتد إلى وجه الصواب فيها .

جرأ حتى يعلنا خبر من أن يسما . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هي شر من التمد .
وقال أبو موسى الأشعري : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج
فقال : دعونا من هذه الجوسية . وفي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وإن
من لعب بالنرد والشطرنج والحوذ والكتاب مقلته الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج
ليغفل إليهم عُتِمَتْ عنه حسناته كلها وصار ممن مقلته الله » . وهذه الآثار كلها تدل على تحريم
اللعب بها بلا قيار ، والله أعلم . وقد ذكرنا في المسألة بيان تحريمها وأنها كالخمر في التحريم
لاقتنائها به ، والله أعلم . قال ابن العربي في نفسه : وقد جَوَّزَه الشافعي ، واتهم حال بعضهم
بأنهم أن يقول : هو مندوب إليه ، حتى القنوه في المدرسة ، فإذا أُمِيَ الطالب من القراءة لعب
به في المسجد . وأسندوا إلى قوم من الصحابة والتابعين أنهم لعبوا بها ، وما كان ذلك قط !
وثاناه ما سنها يد تقي . ويقولون إنها تشبه الدخن ، والبيان يكتفيهم ، ما تبهر فيها فط رجل
له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل عطاه المغنسي يقول بالمسجد الأقصى في المناظرة : إنما
تعلّم الحرب . فقال له الطرطوشي : بل تفسد تدبير الحرب ، لأن الحرب المقصود منها الملك
واغتياؤه ، وفي الشطرنج تقول : شاء إليك : الملك تحه عن طريق ، فاستضحك الحاضرين .
وتارة شئت فيها مالك وحزمها وقال فيها : « لماذا يمد الحق إلا الضلال » . وتارة استهان
بالقيلب منها والأهون ، والقول الأول أصح والله أعلم . فإن قال قائل : روى حري عن عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقيل له : إن امرأة
كان لها ابن وكان مليكا فأصيب في حرب دون أصحابه ، فقالت : كيف يكون هذا أروني
حيانا ؟ فعمل لها الشطرنج ، فلما رآته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمرو رضي الله عنه
فقال : لا بأس بما كان من آلة الحرب ، قيل له : هذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس
بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب . وإنما قال لأنه شبه عليه أن اللعب
بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أساليب الحرب ، فلما قيل له ذلك ولم يحط به حله قال :

لا بأس بما كان من آلة الحرب، إن كان كما تقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصعبة أنه لم يثب عنه، فإن ذلك محمول منه على أنه ظن أن ذلك ليس ينتهي به، وإنما يرد به السبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المستند لم يبلغهم. قال الحليسي: وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجية فيه على الكافة.

الثامنة - ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مرّ ببلدان يلبون بالكعبة، وهى حفر فيها حصى يلبون بها، قال فسأها ابن عمر ونهاهم عنها. وذكر الهروي في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس: في كل شيء فإرخى في لعب الصبيان بالكعبة؛ قال ابن الأعرابي: هو أن يأخذ الصبي خرقه فينثرها كأنها كرة، ثم يتقاسرون بها. وكج إذا لعب بالكعبة.

قوله تعالى: ﴿فَأَن تَصْرُفُونَ﴾ أى كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيى ولا ييت.

قوله تعالى: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أى حكمة وقضاؤه وعلمه السابق. (على الذين فسقوا) أى خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا. (أنهم لا يؤمنون) أى لا يصدقون. وفى هذا أقوى دليل على القدريّة. وقرأ نافع وابن عامر هنا وفى آخرها «كذلك حقت كلمات ربك» وفى سورة غافر بالجمع فى الثلاثة. الباقون بالإنفراد. و«أن» فى موضع نصب؛ أى بأنهم أو لأنهم. قال الزجاج: ويجوز أن تكون فى موضع رفع على البدل من كلمات. قال الفراء: يجوز «إنهم» بالكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَن تُوَفَّقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ) اى الشرك ومعبوداتكم . (مَنْ يَشَاءُ الْخَلْقُ ثُمَّ يَشَاءُ) اى قل لهم يا عبد ذلك هل جهة التوبيخ والتعزير ، فان اجابوك والا فـ (قُلْ اللَّهُ يَشَاءُ الْخَلْقُ ثُمَّ يَشَاءُ) وليس غيره يفعل ذلك . (فَأَيُّ تَوَكُّونَ) اى فكيف تتقبلون وتصرفون عن الحق الى الباطل .

قوله تعالى : قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ) يقال : هداه الطريق والى الطريق بمعنى واحد ، وقد تقدم . اى هل من شركائكم من يهتد الى دين الإسلام ، فـ قالوا لا ولا بد منه قل لهم (الله يهدي للحق) ثم قل لهم موثقا ومقرا (أَلَمْ يَهْدِ) اى يرشد (إِلَى الْحَقِّ) وهو الله سبحانه وتعالى . (أَفَمَنْ يُتَّبِعُ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ) يريد الأصنام التى لا تهتدى أحدا ، ولا تمنى إلا أن تهمل ، ولا تنفل من مكانها إلا أن تنقل . قال الشاعر :
 لفتى قبل يعيش به . حيث تهدي مساقه قنمه

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم الى هدى إلا أن يرشدوا .

وفى « يهتدى » غرابت ست .

الأولى — قرأ أهل المدينة إلا ورثا « يهتدى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ، بجمعا فى قرأتهم بين ساكنين كما فعلوا فى قوله « لَا تَهْدُوا » وفى قوله « يَحْصُمُونَ » . قال الحسن : واجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد لمن وام مثل هذا أن يجره حركة خفية الى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاس الحركة .

(١) راجع إلى ص ١٩٠ طبة آفة أمة .

(٢) موطوعة ، كافي اللسان .

(٣) راجع إلى ص ١٩٠ طبة آفة أمة .

الثانية - قرأ أبو عمرو وقالون في رواية بين التفتح والإسكان، على مذنب في الاختفاء
والإخلاص .

الثالثة - قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن عيص « يهْدَى » بفتح الياء والماء
وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بيّنة في العربية، والأصل فيها يهْدَى أدغمت التاء
في الدال وقلبت حركتها على الماء .

الرابعة - قرأ حفص ويعقوب والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم
كسروا الماء، قالوا : لأن الجزم إذا أُلْغِطَ إلى حركته حُرِّكَ إلى الكسر . قال أبو حاتم :
هي لغة سُتَلِّ مضر .

الخامسة - قرأ أبو بكر من عامر « يهْدَى » بكسر الياء والماء وتشديد الدال، كل ذلك
لإتياع الكسر الكسر كما تقدم في البقرة في « يَطْفُفُ » . وقيل : هي لغة من قرأ « ونستعين »
و « ان تمسنا النار » ونحوه . وسيدويه لا يجيز « يهْدَى » ويجيز « يهْدَى » و « يهْدَى »
و « إهدى » قال : لأن الكسرة في الياء تنقل .

السادسة - قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بن وثاب والأعمش « يهْدَى » بفتح
الياء وإسكان الماء وتخفيف الدال، من هَدَى يهْدَى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان
في العربية وإن كانت بعيدة، واحد الوجهين أن الكسائي والقراء قالوا : « يهْدَى » بمعنى يهْدَى .
قال أبو العباس : لا يعرف هذا، ولكن التقدير أن لا يهْدَى غيره، ثم الكلام، ثم قال ،
« إلا أن يهْدَى » استأنف من الأولى، أي لكنه يحتاج أن يهْدَى، فهو استثناء مطلق، كما
تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أي لكنه يحتاج أن يسمع . وقال أبو إسحاق ،
« فإلّا لكم » كلام تام، والمعنى : فأى شيء لكم في عبادة الأوثان . ثم قبل لم : (كَيْفَ
تُحْكَمُونَ) أي لا تفهمون وتفتنون بهذا الباطل الصراح، فيبدون آلهة لا تفتي عن أمورها شيئاً
إلا أن يفعل بها، واض يفعل ما يشاء فتكون عبادة، فوضع « كيف » نصب بدعته يكون .

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٢ طبع ثانية أرنالك . (٢) راجع ج ١ ص ١٢٦ طبع ثانية أرنالك .

قوله تعالى : وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) يريد الرؤساء منهم ؛ أى ما يتبعون إلا حسنا وتخريصا في أنها آفة وأنها تشفع ، ولا حجة معهم . وأما اتباعهم فيبغونهم تحليدا . (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) أى من عذاب الله ؛ فالحق هو الله . وقيل : الحق : هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكتفى بالظن في العقائد . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) من الكفر والتكذيب ، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ) « أن » مع « يفتى » مصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء ؛ كما تقول : فلان يحب أن يركب ، أى يحب الركوب ؛ قاله الكسائي . وقال الفراء : المعنى وما ينبغي لهذا القرآن أن يفتى ؛ كقوله « وَمَا كَانَ لِي أَنْ يَبْلُغَ » « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وقيل : « أن » بمعنى اللام ، تقديره : وما كان لهذا القرآن ليفتى . وقيل : « معنى لا ، أى لا يفتى . وقيل : المعنى ما كان يتبأ لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه ؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه . (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) قال الكسائي والفراء وعبد ابن مسدد : التهديد ولكن كان تصديق ؛ ويؤيد عليهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . (الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، فإنها قد بشرت به بظاهر

مصدقاً لما في تلك البشارة، وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم شاهدوه قبل أن يحسوا منه القرآن . « وتخصيل » بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين في تصديق . والتخصيل : التبيين ، أي يبين ما في كتب الله المتقدمة . والكتاب أسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بين في القرآن من الأحكام . (لَا رَيْبَ فِيهِ) الماء عائدة للقرآن ، أي لا شك فيه . أي في نزوله من قبل الله تعالى .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلٌّ فَأَتَوْا سُورَةَ مِنْهُ وَادَّعَوْا مَنْ اسْتَطَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلٌّ) أم حائنا في موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها . وقيل : هي أم المفعلة التي تكثر بمعنى بل والمهمزة كقوله تعالى : ألم تنزل الكتاب لأريب فيه من رب العالمين . أم يقولون اقراءه . أي بل يقولون اقراءه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ، مجازة . ويقولون اقراءه . وقيل : ألم صلة ، والتقدير : يقولون اقراءه ، أي اخشاق محمد للقرآن من قبل نفسه ، فهو استفهام بمعنى التفرع . (قُلٌّ فَأَتَوْا سُورَةَ مِنْهُ) ومعنى الكلام الاحتجاج ، فإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله ، لأنه مصدق الذي بين يديه من الكتب وموافق لما من غير أن يتكلم محمد عليه السلام عن أحد . وهذه الآية إلزام بأن أتوا بسورة مثله إن كان مفتري . وقد مضى القول في إعجاز القرآن ، وأنه معجز في مقدمة الكتاب ، والحمد لله .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يُعَذِّبُهُ ﴾ أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره ، وطعنهم أن يسلموا ذلك بالسؤال ؛ فهذا يدل على أنه يجب أن ينظر فى التأويل .
 وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى ولم يأتهم حقيقة نافية التكذيب من نزول العذاب بهم .
 أو كذبوا بما فى القرآن من ذكر البعث والجنة والنار ، ولم يأتهم تأويله أى حقيقة ما وعدوا فى الكتاب ؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد فى القرآن (من جهل شيئا عاده) قال نعم ، فى موضعين : « بل كذبوا بما لم يُحِبُّوا يُعَذِّبُهُ » وقوله « وَإِذْ لَمْ يُتِلَّ بِهِ فَنَسِفُوا هَذَا إِنَّكَ قَدِيمٌ » . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخالية ، أى كذا كانت سبلهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ فَانْتَظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى اخذهم بالهلاك والعذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ . وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيل : المراد أهل مكة ، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه ؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من أهل السعادة . و « مَنْ » وقع بالابتداء والخبر فى الجزور . وكذا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمعنى ومنهم من يصر على كفره حتى يموت ؛ كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل : المراد أهل الكتاب . وقيل : هو عام فى جميع الكفار ؛ وهو الصحيح . وقيل : إن الضمير فى « به » يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فاعلم الله سبحانه أنه إنما أمر العقوبة لأن منهم من سيؤين . ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى من يصر على كفره ؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَلَىٰ عَمَلِكُمْ بِرِيعُونَ ﴾
 ﴿ إِنَّمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

(١) آية ١٥ سورة الأحقاف .

قوله تعالى : (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ) رفع بالأبتداء، والمعنى : لي أبواب عمل في التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . (وَلَكُمْ عَمَلٌ) أي جزاءه من الشرك . (أَنْتُمْ بِرِيشَةٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ) أي لا يؤخذ أحد بذنب الآخر . وهذه الآية مسوخة بآية السيف في قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) يريد بطواهرهم ، وقلوبهم لا تقي شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن ؛ ولهذا قال : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ) أي لا تسمع ؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفي ، وجعلهم كالصم للتم على قلوبهم والطبع عليها ، أي لا تقدر على هداية من أضلّه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى في : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ) أخبر تعالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهذا وما كان مثله يرد على القدرية قولهم ؛ كما تقدم في خبر موضع . وقال : « يستمعون » على معنى « من » و « ينظر » على اللفظ ؛ والمراد تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي كما لا تقدر أن تسمع من سلب السمع ولا تقدر أن تخلق للأعمى بصرا يهتدى به ، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا . ومعنى : (يَنْظُرُ إِلَيْكَ) أي يديم النظر إليك ؛ كما قال : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَتَوَرَّعُهُمْ كَالَّذِي يَفْتَنِي بِهِ مِنَ الْمَوْتِ » قيل : إنها نزلت في المستزينين ، والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ

يَظْلِمُونَ

لما ذكر أهل الشفاء ذكر أنه لا يظلمهم، وإن قدر الشفاء عليهم وسلبه سمع القلب
ويعصره ليس ظلماً منه؛ لأنه تصرف في ملكه بما شاء، وهو في جميع أفعاله عادل. (ولكن
الناس أنفسهم يظلمون) بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم. وقرأ حمزة والكسائي
«ولكن» خففاً «الناس» رفعا. قال النحاس: زعم جماعة من الصحويين منهم الفراء
أن العرب إذا قالت «ولكن» بالواو آتت التشديد، وإذا حذفوا الواو آتت التخفيف،
واحتل في ذلك فقال: لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت بل تخففوها ليكون ما بعدها كما بعد بل،
وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشدوها ونصبوا بها، لأنها «إن» زيدت عليها لام وكاف
وصيرت حرفاً واحداً، وأتتد:

• ولكني من حبيبا لعميد •

بجاء باللام لأنها «إن» •

قوله تعالى: وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرَّ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَتَبُوا يَلْقَاءُ اللَّهَ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرَّ يَلْبَثُوا) يعني كانوا لم يلبثوا
في قبورهم. (إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ) أي قدر ساعة؛ يعني أنهم استقصوا طول مقامهم
في القبور طول ما يكون من البحث؛ دليله قولهم: «لَيْتَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»^(١). وقيل:
إنما قصرت مدة ليثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم في القبر. ابن عباس:
وأما أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة. (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) في موضع نصب على الحال
من المساء والميم في «يُحْشَرُهُمْ». ويجوز أن يكون مقطعا، فكأنه قال فهم يتعارفون: قال
الكتبي: يعرف بعضهم بعضا كمرقتهم في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم؛ وهذا التعارف تمارف
توبيخ وانقضاء؛ يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغرقتني وحلتني على الكفر؛ وليس

(١) آية ١٩ سورة الكهف.

تعارف شسفة ورأفة وحلف . ثم تقطع المصرة إذا عاينوا أحوال يوم القيامة كما قال :

« وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ ^(١) » . وقيل : يعنى تعارف التوبيخ وهو الصحيح لقوله تعالى : « وَلَا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » ، وقوله :

« كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتُ ^(٢) أَخْبَتَهَا ^(٣) » الآية ، وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَانَنَا ^(٤) » الآية .

فاما قوله « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ ^(٥) » وقوله « فَإِنَّا نُنْخِثُ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ^(٦) » فمعناه لا يسأله سؤال رحمة وشفقة ، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى « يتعارفون » يتسللون ، أى يتسألون كم لهم ؟ كما قال « وَأَقْبَلْ بِمَعْصُومٍ عَلَىٰ بِضْعِ ثَمَالٍ » وهذا حسن . وقال الضحاک : ذلك تسألت تعاطف المؤمنين ، والكافرون لا تعاطف عليهم ، كما قال « فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ » . والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) أى بالمرض من الله . ثم قيل : يجوز أن يكون هذا إخبارا من الله عز وجل بعد أن دل على البعث والقيامة ، أى خسروا ثواب الجنة . وقيل خسرنا فى حال لقاء الله ، لأن المصير إنما هو فى تلك الحالة التى لا يرجع فيها إقالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم ، يقولون هذا . (وَمَا كَانُوا مُهْتَبِينَ) يريد فى علم الله .

قوله تعالى : « وَإِنَّمَا تَرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُهُمْ أَوْ نتَوَفَيْنَكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ^(٧) »

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تَرِيَّتْكَ) شرط . (بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُهُمْ) أى من إظهار دينك فى حياتك ، وقال المفسرون : كان البعض الذى وعدهم قتل من قتل وأسر من أسر بيد . (أَوْ نتَوَفَيْنَكَ) عطف على « تَرِيَّتْكَ » أى أو نتوفيتك قبل ذلك . (فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) جواب

- | | | |
|---------------------------|-----------------------------|---------------------------|
| (١) آية ١٠ سورة الماعج . | (٢) آية ٢١ سورة يونس صبا . | (٣) آية ٢٨ سورة الأعراف . |
| (٤) آية ٦٧ سورة الأعراف . | (٥) آية ١٠١ سورة المؤمنون . | (٦) آية ٢٧ سورة الصافات . |

« إنا » - والمقصود إن لم تنقم منهم طبعاً استقمنا منهم آجلاً . (ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ) أى شاهد لا يحتاج إلى شاهد (عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) من عاربك وتكذيبك . ولو قيل : « ثم الله شهيد » بمعنى هناك ، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ؛ مثل « فكيف إذا جئت من كل أمة بشيعة » . وقال ابن عباس : شكر الكفار غداً بحجى الرسل إليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول قد أبلستم الرسالة ؛ فيلنقض يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونُ الرَّسُولُ حُجَّتَكُمْ شَيْئاً » . ^(١) ويعود أن يكون المعنى أنهم لا يذبون في الدنيا حتى يرسل إليهم ؛ فمن آمن فاز وبها ، ومن لم يؤمن هلك وعُذب . دليله قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبَيَّنَ رَسُولاً » . ^(٢) والنسب : العدل . (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) أى لا يذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾
يريد كفار مكة قروط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى يبدنا محمد . وقيل : هو يوم في كل أمة كذبت رسوله

قوله تعالى : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٣٧﴾

(١) آية ١٥٣ سورة البقرة . (٢) آية ١٥ سورة الإسراء .

قوله تعالى : (قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صُلُوكَ لِي) .
 بالعباد قال الله له قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا، أى ليس ذلك لى ولا لغيرى .
 (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجل فلا تستعجلوا .
 (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) أى هلاكهم وعنايتهم وقت معلوم فى علمه سبحانه . (إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ)
 أى وقت اقضاء أجلهم . (فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ) أى لا يمكنهم أن يستأذروا
 ساعة باقين فى الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَهَارًا مَاذَا
 يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَهَارًا) طرفان، وهو جواب لقولهم :
 « متى هذا الوعد » ونسفيه لأرائهم فى استعجالهم العذاب ؛ أى إن أتاكم العذاب فافعلكم
 فيه، ولا ينفذكم الإيمان حينئذ . (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) استفهام معناه التهوريل
 والتعظيم ؛ أى ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبته : ماذا
 تحب على نفسك ! والضمير فى « منه » قيل يعود على العذاب، وقيل يعود على الله سبحانه
 وتعالى . قال النحاس : إن جعلت الهاء فى « منه » تعود على العذاب كان لك فى « ماذا »
 تقديران : أحدهما أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء، و « ذا » بمعنى الذى، وهو خبر
 « ما » والعايد محذوف . والتقدير الآخر أن يكون « ماذا » اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء،
 والخبر فى الجملة ؛ قاله الزجاج . وإن جعلت الهاء فى « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت
 « ما » و « ذا » شيئا واحدا، وكانت فى موضع نصب بـ « يستعجل » ؛ والمعنى : أى شئ
 يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِ الْفُلَّانَ وَوَقَعَ عَمَتُّهُمَا^{٥١} فَقَالَتَا قَدْ كُنْتَ
 فَتَعَجِلُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ اَنْتُمْ اِذَا مَا وُقِعَ اَنْتُمْ بِهِ الْاَلَانِ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : اناستون ان ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم اذا حل : اَلَا اَنْتُمْ به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاه بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت االف الاستفهام على « ثم » والمعنى التقرير والتوبيخ ، ويسدل على ان معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : ان « ثم » ها هنا بمعنى « ثم » بفتح التاء ، فتكون ظرفا ، والمعنى اهانك ، وهو مذهب الطبري ، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « اَلَا » قيل : اصله فعل مبنى مثل حان ، والالف واللام لتحويله الى الاسم . المثلل : بنيت لانتفاء الساكنين ، والالف واللام للمهد والإشارة الى الوقت ، وهو حد الزمانين . ﴿ وَفَدَّ كُنْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالعذاب ﴿ تَسْتَمِيلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ اِلَّا رَمًا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى يقول لهم خزنة جهنم . ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى الذى لا يتقطع . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ اِلَّا رَمًا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى جزاء كفرهم

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْشِئُونَكَ اَحَقُّ هُوَ قُلْ اِى وَرَدِّ اِنَّهُ لَحَقُّ

وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْشِئُونَكَ ﴾ أى يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . ﴿ اَحَقُّ ﴾ ابتداء . ﴿ هُوَ ﴾ هذا قول سيويه . ويجوز ان يكون « هو » مبتدأ ، و « اَحَقُّ » خبره . ﴿ قُلْ اِى ﴾ أى « كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . ﴿ وَرَدِّ ﴾ قسم . ﴿ اِنَّهُ لَحَقُّ ﴾ جوابه ، أى كائن لا شك فيه . ﴿ وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين عن هذاه وبجازاته .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ
وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أى اشركت وكفرت (مَا فِي الْأَرْضِ)
أى ملكا ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أى من عذاب الله ، يعنى ولا يقبل منها ، كما قال : هـ إنا الذين
كفروا وماتوا وهم كُفَّارٌ لَنْ يَبْتَغِيَ مِنْ أَحَدٍ مِلَّ الْأَرْضِ تَعْبًا وَلِوَلَّيْتُمْ بِهِ . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ ﴾ أى أخفوها ، يعنى رؤسهم ، أى أخفوا ندامتهم عن
اتباعهم . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار ، فإذا وقوا في النار أُنْهِم النار
عن التصح ، بدليل قولهم « رَبَّنَا عَلَّتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » . فبين أنهم لا يكتفون ما بهم .
وقيل : « أسروا » أظهِروا ، الكلمة من الأضداد ، ويبدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلد
وتعذب . وقيل : يوجدوا ألم الحسرة في قلوبهم ، لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى • برقة جمال فاضرة المنادى

وذكر المبرد فيه وجهًا ثالثًا — أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم ، وهى تكاسير الجبهة ، وأصلها
يسرار . والندامة : الحسرة لوقوع شئ . أو فوت شئ ، وأصلها الزوم ، ومنه الندم لأنه يلزم
المجالس . وفلان نادم سادم . والسدم اللعج بالشئ . ويندم وتندم بالشئ أى اهتم به . قال
الجنهري : السدم (بالتحريك) الندم والحزن ، وقد سدم بالكسر أى اهتم وحزن . ورجل
نادم سادم ، وندمان سدمان ، وقيل هو إتباع . وماله ثم ولا سدم إلا ذلك . وقيل : الندم
مقلوب النمن ، والندم الزوم ، ومنه فلان مدمن الخمر . والندم : ما اجتمع في الدار وتلد
من الأوبال والأبصار ، سمي به لزومه . والندمة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دمن . وقد
دمنت قلوبهم بالكسر ، يقال : دمنت على فلان أى ضمنت . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾
أى بين الرؤساء والسُّلُط بالعدل (وهم لا يظلمون)

قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٥٦﴾

« أَلَا » كلمة تنبيه السامع ترد في أول الكلام ، أى انتبهوا لما أقول لكم : إن لله ما في السموات والأرض إلا إن وعد الله حق ، له ملك السموات والأرض فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك .

قوله تعالى : **هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ** ﴿٥٧﴾

بين المعنى ، وقد تقدم .

قوله تعالى : **يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (يَتَأْتِيَ النَّاسُ) يأتى فرينا ، (قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ) أى وعظ ، (مِنْ رَبِّكُمْ) ببنى القرآن ، فيه مواضع وحكم . (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) أى من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . (وَهُدًى) أى ورشدا لمن أتبعه . (وَرَحْمَةٌ) أى نعمة . (لِلْمُؤْمِنِينَ) خصهم لأنهم المستفهمون بالإيمان ، والكل صفات القرآن ، والعطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :
إلى الملك القرم وابن الحمام • وليت الكتيبة في المزدحم

قوله تعالى : **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضى الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمته أن يجعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ، على العكس من القول الأول . وقيل غير هذا . (فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تسمى « بذلك » للواحد والاثنين والجمع . وروى عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قرأ « فبذلك فليفرحوا » بالياء ؛ وهي قراءة يزيد بن القفّاع ومقبوب
 وضربها ؛ وفي الحديث « لتأخذوا مصافكم » . والفرح لغة في القلب بإدراك المحبوب . وقد
 ذمّ الفرّح في مواضع ؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » وقوله : « إِنَّهُ أَقْرَحُ
 نَحْوَرُ » ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرّح لم يكن ذمّا ؛ لقوله : « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ »
 وهاهنا قال تبارك وتعالى : « فبذلك فليفرحوا » أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ؛ فزيد . قال
 هارون : « وفي حرف أبيّ » فبذلك فافرحوا » . قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون بالألف
 ليكون معه حرف جازم كما أن مع النبی حرف ؛ إلا أنهم يحذفون من الأمر للغاطب استغناء
 بخطابته . وربما جاءوا به على الأصل ؛ منه « فبذلك فلفرحوا » . (هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)
 يعنى في الدنيا . وقراءة العامة بالياء في الفعلين ؛ وروى عن ابن عامر أنه قرأ « فليفرحوا » بالياء
 « يجمعون » بالياء ؛ خطأ للكافرين . وروى عن الحسن أنه قرأ بالياء في الأول ، و « يجمعون »
 بالياء هل المعكس . وروى أبان عن أنس عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال : « من هداه الله
 للإسلام وصلبه القرآن ثم شكّا الفاقة كتب الله الثقلين عليه إلى يوم يلقاه به » ثم تلا :
 « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ
 حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ إِذْ ذَكَرْتُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥١﴾
 قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا)

فيه مسائل ثلث :

الأولى ~ قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) يخاطب كفار مكة . (مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ
 رِزْقٍ) « ما » في موضع نصب بإرأيتهم . وقال الزجاج : في موضع نصب بأنزل . (وَأَنزَلَ)
 يعنى خلق ؛ كما قال : « وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةً لِّزَاجٍ » . « وَأَنزَلْنَا الْحَبِيدَ فِيهِ
 (١) آية ٧٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠ سورة هود . (٣) آية ١٧٠ سورة آل عمران .
 (٤) آية ٦ سورة الزمر .

بِأَسْـَٔدٍ . - فيجوز أن يبر عن الخلق بالإنزال ؛ لأن الذي في الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر . (لَجَعَلْنَاهُ مِنْ حَرَامًا وَحَلَالًا) قال مجاهد : هو ما حكوا به من تحريم البعيرة والسائبة والوصيلة والحمام . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وجعلوا يَمَسًّا ذَرَأًا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ بَصِيًّا » . (قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ) أى فى التحليل والتحرير . (أَمْ عَلَى اللَّهِ) « أم » بمعنى بل . (تَفْتَرُونَ) هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانية - استدلل بهذه الآية من نفي القياس ، وهذا بعيد ؛ فانه القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحرير من الله تعالى عند وجود دلالة نصها الله تعالى على الحكم ، فان خالف في كون القياس دليلًا لله تعالى فهو خروج عن هذا القرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعالى : وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَهُمْ قَضِيلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ) « يوم » منصوب مل الطرف ، أو بالظن ؛ نحو ما ظنك زيداً والمعنى : يحسبون أن الله لا يؤاخذهم به . (إِنَّ اللَّهَ لَهُمْ قَضِيلٌ عَلَى النَّاسِ) أى فى التأخير والإمهال . وقيل : أراد أهل مكة حين جلوسهم في حرم آمن . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ) يعنى الكفار . (لَا يَشْكُرُونَ) الله على نعمه ولا فى تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » أى لا يوحّدون .

قوله تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا يَتَّبِعُوكَ مِنْ قَرْبَةٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٥ طبة أول اوراقه ٥٠
(٣) راجع ج ٧ ص ٨٩ طبة أول اوراقه .

فوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » للبعد ، أى لست فى شأن ، يعنى من عبادة أو غيرها إلا والرب مطلع عليك . والشأن الخطب ، والأمر ، وجمعه شؤن . قال الأخفش : تقول العرب ما شأنت شأنه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفراء والزجاج : الماء فى « منه » تعود على الشأن ، أى يتحدث شأنا فيتل من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو يترل فيه قرآن فيتل . وقال الطبرى : « منه » أى من كتاب الله تعالى . ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أعاد تفعيها كقوله : « إِنِّى أَنَا اللَّهُ » . ﴿ وَلَا تَمْلِكُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وما تكون فى شأن » خطاب له والمراد هو وأمنه ، وقد يخاطب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِلَّا لَأَنَّا عَلَمُكُمْ شُكُودًا ﴾ أى نعلمه ، ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ ^(١) » . ﴿ إِذْ يُفَيْضُونَ فِيهِ ﴾ أى تآخذون فيه ، والماء عائدة على العمل ، يقال : أنافض فلان فى الحديث والعمل إذا أتدفع فيه . قال الراعى :

فأنفَضَ بسد كظومهمس بجزء • من ذى الأباطح إذ رعتين حبيلا

ابن عباس : « يُفَيْضُونَ فِيهِ » تفعلونه . الأخفش : شكلمون . ابن زيد : تفوضون . ابن عباس : تنشرون القول . وقال الضحاك : الماء عائدة على القرآن ، المعنى : إذ تبيعون فى القرآن السكذب . ﴿ وَمَا يَمْرُؤٌ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيث . وقال أبو روق : يبعد . وقال ابن عباس : يذهب . وقرأ الكسائى : يعزب « بكسر الزاى حيث وقع ، وضم الباقون ، وهما لثتان فصيحتان ، نحو عيرش وعرش . ﴿ مِنْ مِثْقَالٍ ﴾ « من » صلة ، أى وما يعزب من ربك مثقال ذرة ؛ أى وزن ذرة ، أى نيلة حمراء صغيرة ، وقد تقدم فى « النساء » . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أُصْغِرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ^(٢) ﴾ عطف على لفظ مثقال ، وإن شئت على ذرة . وقرأ يعقوب وحسنة برفع الراء ليهما عطفان على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد . وقال الزجاج : ويؤوز للرفع على الابتداء ، وخبره ﴿ إِلَّا

(١) آية ٧ سورة المجادلة - (٢) جامع ٥٥٥ من ١٩٥ طبة أملا أو تانية

في كتاب مبین (یعنی اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به .. قال الجرجاني : « إلا » بمعنى واو النسق ، أى وهو في كتاب مبین ؛ كقوله تعالى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُسْلِمِينَ » .
 « أَلَا مَنْ ظَلَمَ » أى ومن ظلم . وقوله : « لَلْأَكْثَرِ النَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ »
 أى والذين ظلموا منهم ؛ ذ « إلا » بمعنى واو النسق ، واضمر هو بعده ، كقوله : « وقولوا حِطَّةٌ » أى هى حِطَّة . وقوله : « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَ ^(١) » أى هم ثلاثة . ونظير ما نحن فيه :
 « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَوْقَةٍ إِلَّا يَلْمُهَا وَلَا حِجَّةَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ ^(٢) » وهو في كتاب مبین .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٣)

قوله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) أى فى الآخرة . (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

لفقد الدنيا . وقيل : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى من تولاها الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن . قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا أَمْ يَخْشَوْنَ - أَمْ يَخْشَى اللَّهَ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُونَ » .
 « وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ : مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟
 فَقَالَ : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ بِحَقِّهِمْ » . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من عباد الله عبادة ما هم بآبياء ولا شهداء تنبئهم الآبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى » . قيل : يارسول الله ، خبرنا من هم وما أعمالهم فاعلمنا نجيبهم . قال : « هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس - ثم قرأ - أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وقال

(١) آية ١٠ سورة البقرة - (٢) آية ١٥٠ سورة البقرة - (٣) آية ٨١ سورة البقرة -

(٤) آية ٥٩ سورة البقرة - (٥) آية ٥٩ سورة الأنعام - (٦) آية ١٠١ وما بعدها

سورة المائدة ٥٥

عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي مَعَهُمْ صَاعِقُ الْوَجْهِ مِنَ الْغَوَاةِ، عَمَّسَ الْعَيْنُ مِنَ الْبَرِّ، يُخْصِصُ الْبَطُونَ مِنَ الْجَوْعِ، يُبْسُ الشَّقَاءُ مِنَ اللَّهِ^(١)، وَقِيلَ: «لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ» فِي ذُرِّيَّتِهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّاهُمْ، ﴿وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ﴾ عَلَىٰ ذَنْبِهِمْ لِتَوْبَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ فِي أَوْلَادِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ لِأَنَّهُ وَلِيُّهُمْ وَمَوْلَاهُمْ

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٠٠﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى؛ يكون «الذين» في موضع نصب على البدل من اسم «إن» وهو «أولياء». وإن ثبت على أفعى. وقيل: هو ابتداء، وخبره «لم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة»؛ فيكون مقطوعاً بما قبله. أى يتقون الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: لَكُمْ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عن أبي الترداء قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: «ما سألني أحد عنها غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة بإيها المسلم أو ترى له» خرجته الترمذي في جامعه. وقال الزهري: وعطاء وقادة هي البشارة التي تبشر بها الملائكة للمؤمن في الدنيا عند الموت. وعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استغفمت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: «السلام عليك وعلى الله الله بقرئك السلام». ثم نزع بهذه الآية «الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم» ذكره ابن المبارك. وقال قتادة والضحاك: هي أن يسلم أين هو من قبل أن يموت. وقال الحسن: هي ما يشرهم الله تعالى في كتابه من جنته وكراماته لقوله: «يُشْرَهُمْ رَبُّهُمُ

(١) ذى السوء والفضل يذى ذى وأزراً وكلاماً ذليلاً وضواظراً وهو ألا يصحوا يوماً بضرب الملائكة في رءوسهم

(٢) أى إذا اجتمعت فيه تريد التورج كما يستفتح المبال لمرادها وأرادها للخصم الوج. (الذين آمنوا)

(٣) آية ٤٤ سورة النمل.

برحمته منه ورضوان^(١) » ، وقوله : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات^(٢) » ،
 وقوله : « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ولهذا قال : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ »
 أى لا خلف لمواعيده ، وذلك لأن مواعيده بكلماته . (وفي الآخرة) قيل : بالجنة اذا خرجوا
 من قبورهم . وقيل : اذا خرجت الروح بُشِّرَتْ برضوان الله . وذكر أبو اسحاق الثعلبي :
 سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجوزي يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكبا
 يرتوفاً عليه طيسان وعمامة ، فسلمت عليه وقلت له : أهلاً بك ، إنا لانزال نذكرك ونذكر
 محاسنك ، فقال : ونحن لانزال نذكرك ونذكر محاسنك ، قال الله تعالى : « لم ألمش
 في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الثناء الحسن ، وأشار بيده . (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) أى
 لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره ، أى لا ينسخها بشيء ، ولا تكون إلا كما قال .
 (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

قوله تعالى : وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ⑤

قوله تعالى : (وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ) ثم الكلام ، أى لا يحزنك انقراضهم وتكذيبهم لك ،
 ثم ابتدأ فقال (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) أى القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ،
 فهو ناصرك ومعينك ومانعك . (جَمِيعًا) نصب هل الحال ، ولا يعارض هذا قوله : « وَ لِلَّهِ
 الْبَرَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَالْأَمِينُ » فإن كل مرة بالله فهي كلها لله ، قال الله سبحانه : « سُبْحَانَ رَبِّكَ
 رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ » . (هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) السميع لأقوالهم وأصواتهم ، العليم بأعمالهم
 وأقوالهم وجميع حركاتهم .

(١) آية ٢٩ سورة البقرة . (٢) آية ٢٥ سورة البقرة . (٣) آية ٣٠ سورة فصلت .

(٤) محطبة لك جنة (بضم) لغة بلسان . (٥) آية ٨ سورة الناقصون .

(٦) سورة النقصان .

قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ**
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (**أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**) أى يحكم بينهم بما يريد ،
 ويفعل فيهم ما يشاء سبحانه ! .

قوله تعالى : (**وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ**) « ما » للنسب ،
 أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع . وقيل : « ما » استفهام ،
 أى أى شئ يتبع الذين يدعون من دونه الله شركاء فقيحا لغناهم ، ثم أجاب بقوله :
 (**إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**) أى يُعِدِّسون ويكذبون ، وقد تقدم ^(١) .

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ**
مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**) بين أن الواجب عبادة من يقدر
 على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شئ . (**لِتَسْكُنُوا فِيهِ**) أى مع أزواجكم
 وأولادكم ليزول التعب والكلال بكم . والسكون : الهدوء عن اضطراب .

قوله تعالى : (**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**) أى مضئاً ليهتدوا به في حوائجكم . والمبصر : الذى
 يبصر ، والنهار مبصر فيه . وقال : « مبصر » تجوزاً وتوسماً على عادة العرب في قولهم « ليل
 قاتم ، ونهار جاتم » . وقال جرير :

لقد أُنْيَا بآمٍ غِلَانٌ فِي السَّرَى • وَنَيْتٍ وَمَا لَيْلُ الْمَيْلِ بِنَائِمٍ

وقال قطرب : يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبهر أى صار ذا صياح وبصر .

قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أى علامات ودلالات . (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)
أى سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) ببنى الكفار . وقد تقدم . (سُبْحَانَهُ) تزه نفسه
عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . (هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)
ثم أخبر بصفاته المطلقة ، وأن له ما في السموات والأرض ملكا وخلقا ومعبدا ؛ « إِنْ كُلُّ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » . (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا)
أى ما عندكم من حجة بهذا . (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) من إثبات الولد له ، والولد
يقضى الجانسة والشبهة والله تعالى لا يجانس شيئا ولا يشابه شيئا .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١٢﴾
مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذَرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ) أى يمتثلون . (عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ)
أى لا يغوزون ولا يأمنون ، وهم الكلام . (مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا) أى ذلك متاع ؛ أو هو متاع
في الدنيا ؛ قاله الكسائي . وقال الأخفش : لهم متاع في الدنيا . قال أبو إسحاق : ويجوز
التصبي في غير القرآن على معنى يمتعون متاعا . (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) أى رجوعهم ؛ (ثُمَّ
نَذَرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ) أى العليظ (وَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) أى يكفرون .

قوله تعالى : وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ تِبْيَانًا تَوْحِيدًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ
كَبِيرًا عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِقَائِلَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ
وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ تِبْيَانًا تَوْحِيدًا) أمره عليه السلام أن يذكرهم إقاصيص المتفدين،
ويخوفهم العذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من « انزل » لأنه أمر ؛ أي أقرأ عليهم
خبر توحيد . (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) « إذ » في موضع نصب . (يَا قَوْمِ إِنَّ كَذِبَكُمْ عَلَيَّ) أي
عظم وتغل علىكم . (مَقَامِي) المقام (بفتح الميم) : الموضع الذي يقوم فيه . (وَالمَقَامُ) بالضم
الإقامة . ولم يقرأ به فيما علمت ؛ أي إن طال عليكم لثني فيكم ، (وَتَذَكِيرِي) أي إياكم ،
وتحويي لكم (وَيَأَيَّتِ اللَّهُ) وعزمت على قتل وطردي (فَقَالَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ) أي اعتمدت .
وهذا هو جواب الشرط ، ولم يزل عليه السلام متوكلاً على الله في كل حال ، ولكن بين أنه
متوكل في هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ؛ أي إن لم تصرفوني فإني
أنتوكل على من ينصرفي .

قوله تعالى : (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) قراءة الصامة « فاجمعوا » بقطع الألف
« شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ عاصم الجحدري « فَأَجْمِعُوا » بوصل الألف وفتح الميم ؛ من
جمع جمع . « شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ويعقوب « فاجمعوا » بقطع
الألف « شُرَكَاءَكُمْ » بالرفع . فأما القراءة الأولى من أجمع على الشيء ، إذا عزم عليه . وقال
الفسراء : أجمع الشيء أمده . وقال المؤرج : أجمعت الأمر أنصح من أجمعت عليه .
وأنشد :

بأبنت شمري والموتى لا تنفع . هل أغلوت يوماً وأمرى بجمع

قال النحاس : وفي نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائي والفراء : هو بمعنى وأعدوا شركاءكم لنصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إختيار هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى ؛ كما قال :

يأليت زوجك في الوقي • متقلداً سبقاً ورثاً

والرخ لا يُتقلد ، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم ؛ كما يقال : التي الماء والخشب . والقراءة الثانية من الجمع ، اعتباراً بقوله تعالى : « يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ إِيَّايَ » . قال أبو مازن : ويجوز أن يكون معنى جمع وأجمع بمعنى واحد ، « وشركاءكم » على هذه القراءة مضاف على « أمركم » ، أو على معنى فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم ، وإن شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسمت أبا إسحاق يميز قام زيد وعمرأ . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع في أجمعوا ، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعده ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يرفى المصاحف واو في قوله « وشركاءكم » ، وأيضاً فإن شركاءهم الأصنام ، والأصنام لا تصنع شيئاً ولا فعل لها حتى تجتمع . قال المهدوي : ويجوز أن يرفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أي وشركاءكم ليجمعوا أمرهم ، ونسب ذلك إلى الشركاء وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعالى : (ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً) اسم يكن خبرها . وغمة وغم سواء ، ومعناه الغطية ؛ من قولهم : غم الهلال إذا استتر ؛ أي لكن أمركم ظاهرًا منكشفًا تتكثرون فيه مما شقتم ؛ لكن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى على بئمة • نهارى ولا ليل على بئرمد

الزجاج : نعمة ذا غم ، وهم والنعمة كالكتب والكربة . وقيل . إن النعمة ضيق الأمر الذي
يوجب الغم فلا يتبين صاحبه لأمره مصدرا لنتزج عنه ما ينفعه . وفي الصراح : والنعمة
الكربة . قال الصراح :

لو شهدت الناس إذ تَكُونُوا^(١) . نعمة لو لم تخرج عَسُوا

يقال : أمرٌ نعمة ، أى مُهم ملتبس ؛ قال تعالى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » . قال
أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق . والنعمة أيضا : قمر النحر^(٢) وغيره . قال غيره : وأصل هذا
كله مشتق من النعامة .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ) ألف « أقضوا » ألف وصل ، من قضى .
بفضى . قال الأخفش والكسائي : هو مثل « وَفَضِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ » أى أنيابه إليه .
والبغاة إياه . وزوى عن ابن عباس « ثم أقضوا إلى ولا تنظرون » قال : أمضوا إلى
ولا تؤخرون . قال التماس : هذا قول صحيح فى اللغة ؛ ومنه : قضى للميت أى مضى .
وأعابهم بهذا أنهم لا يصلون إليه ، وهذا من دلائل النبوة . وحكى القراء عن بعض القراء
« ثم أمضوا إلى » بالقاء وقطع الألف ، أى توجهوا ؛ يقال : أفضت الخلافة إلى فلان ،
وأفصى إلى الوجع . وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله
واثقا ، ومن كيدهم غير خائف ؛ يعلم ما به بانهم وألمتهم لا ينفعون ولا يضررون . وتزيه نبيه
صلى الله عليه وسلم وتقوية لقلبه .

قوله تعالى : فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مَّا سَأَلْتُمْ مِّنْ آثَرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَأَمْرُهُ إِنَّهُ أَلْهُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(٣)

(١) تكمروا : غموا بالهم (٢) النسي (بالكسر) : زلزاله . (٣) آية ٦٦ سورة الحجر

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ) أى فإن أمرضتم مما جئكم به فليس ذلك لأنى سألتكم إبرا يفعل عليكم مكاناى . (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ إِذَا عَلَى اللَّهِ) فى تبلغ رسالته . (وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى الموحدين لله تعالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عاصم وحفص ياء . أجرى . حيث وقع ، وأسكن الباقون .

قوله تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي آتِ الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَضْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَائِلَتِنَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (فَكَذَّبُوهُ) بنى نوحا . (فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ) أى من المؤمنين . (فِي آتِ الْفَلَكَ) أى السفينة ، وسبأى ذكرهما . (وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ) أى سكان الأرض وخلفا بمن غرق . (فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) بنى أترام الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا . قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِجَاءَهُمْ وَالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ) أى من بعد نوح . (رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ) كهود وصاغ وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . (بِجَاءَهُمْ وَالْبَيِّنَاتِ) أى بالمعجزات . (فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل . وقيل : « بما كذبوا به من قبل » أى من قبل يوم النور ، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أنه لقوم بأعينهم ، مثل « أنذرتم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . (كَذَلِكَ نَطْبَعُ) أى نغم . (عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ) أى المبالزين الحسد فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا يرد على القدوة قولهم كأنهم

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
يَايَتُنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أى من بعد الرسل والامم . (مُوسَىٰ وَهَارُونَ .
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) أى أنشرف قومه . (يَايَتُنَا) يريد الآيات التسع ، وقد تقدم ذكرها .
(فَاسْتَكْبَرُوا) أى عن الحق . (وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) أى مشركين .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ
مِّمَّنْ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْمُرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يريد فرعون وقومه . (قَالُوا إِنَّ هَذَا
لَيْسَ شَيْءٌ مِّمَّنْ) حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ثُمَّ أَسْمُرُ
هَذَا) قيل : فى الكلام حذف ، المعنى : أقولون للحق هذا سحر . فبدأ هؤلاء بإنكار وقولهم
عذوف أى هذا سحر ، ثم أسأفب إنكار آخر من قبله فقال أسمر هذا ! . فغضب قولهم الأئله .
اكشفاء ، بالثانى من قولهم ، منكرا على فرعون وملئه . وقال الأخفش : هو من قولهم ، ودخلت
الآلف حكاية لقولهم ، لأنهم قالوا أسمر هذا . فقيل لهم : أقولون للحق لما جاءكم أسمر
هنا ، وروى عن الحسن . (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) أى لا يفلح من أتى به .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْحَنَّ عَنْمَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ
لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَفْسِنَا ﴾ أى نصرقنا وتلويحنا ، يقال : لفته يلفته لفتنا إذا لواه وصرفه . قال الشاعر :

تَلَفْتُ نَحْسَ الحَيِّ حَتَّى رَأَيْتُ . وَجِئْتُ مِنَ الإِسْثَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا

ومن هذا التلفت إنما هو عدل عن الجهة التي بين يديه . ﴿ وَنَحْنُ وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريد من عبادة الأصنام . ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى المظلة والملك والسلطان . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر . ويقال لذلك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا . ﴿ وَوَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » بالياء لأنه تائب غير حقيق وقد فعل بينهما . وحكى سيبويه : حضر القاضي اليوم أمرانان .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتَوْنِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ٣٦

إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش « سحر » . وقد تقدم في الأعراف القول فيها .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ٣٧

أى اطرحوا على الأرض ما معكم من جبالكم وعصيكم . وقد تقدم في الأعراف القول في هذا مستوفى .

قوله تعالى : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَهُمْ ٣٨ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ٣٩

(١) البيت لصحة التفسير . والاصناء الجبل . والبيت (الكسر) . صفة الحق . والأخدع . وقرئ في نسخة أخرى :

(٢) راجع ٧٧ ص ٢٥٧ وما بعدها طبة أول أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَتَوْا قَالَ مَوْسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ﴾ تكون « ما » في موضع رفع بالابتداء ، والخبر « جئتم به » والتقدير : أي شيء جئتم به ، على التوبيخ والتصغير لما جاءوا به من السحر . وقراءة أبي عمرو « السحر » على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير : أهو السحر . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، التقدير : السحر جئتم به . ولا تكون « ما » على قراءة من استفهم بمعنى الذي ، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقون « السحر » على الخبر ، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ما جئتم به سحر » . وقراءة أبي « ما أتيتم به سحر » ؛ فبما « بمعنى الذي » ، و « جئتم به » الصلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والخبر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جعلتها بمعنى التي نصبا لأن الصلة لا تعمل في الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم ، وتكون ما للشرط ، وجئتم في موضع جزم بما والفاء محذوفة ، التقدير : فإن الله سيظهره . ويجوز أن ينصب السحر على المصدر ، أي ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين ، فلا يحتاج على هذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا القول النحاس ، وقال : حذف الفاء في المجازاة لا يجهز كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر كما قال :

• من فعل الحشرات الله يشكرها •

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجهز البتة . وسمعت علي بن سليمان يقول : حدثني محمد ابن يزيد قال حدثني المازني قال سمعت الأصمعي يقول : غير النحويين هذا البيت ، وإنما الرواية • من فعل الخير فالرحمن يشكره •

وسمعت علي بن سليمان يقول : حذف الفاء في المجازاة جائز . قال : والدليل على ذلك « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ » . « وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم » فراءتان مشهورتان معروفتان . ﴿ إِنْ أَفَاءَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يعني السحر . قال ابن عباس : من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية « ما جئتم به السحر إن الله سيظهره إن الله لا يصلح عمل المفسدين » لم يضرة كيد ساحر . ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه للنحر .

قوله تعالى : وَيُحِثُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٥٥﴾
قوله تعالى : (وَيُحِثُّ اللَّهُ الْحَقَّ) أى بيّنه ويوضحه . (بِكَلِمَاتِهِ) أى بكتابه وحججه
وبراهينه . وقيل : بعذابه بالنصر . (وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) من آل فرعون .

قوله تعالى : فَآءَ أَمِّنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ
مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ
لِمَن الْأَمْرَيْنِ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : (فَآءَ أَمِّنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ) الماء غائلة على موسى . قال مجاهد :
أى لم يؤمن منهم أحد ، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى إسرائيل ، لطول
الزمان هلك الآباء وبقى الأبناء فأمنوا ، وهذا اختيار الطبري . والذرية أعقاب الإنسان ،
وقد تكرر . وقيل : أراد بالذرية موسى بنى إسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ،
وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا
ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « من قومه » يعنى من قوم فرعون ، منهم مؤمن
آل فرعون وخازن فرعون وأمرأته وماشطة أبنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوام آبائهم
من القبط ، وأمھاتھم من بنى إسرائيل فسموا ذرية كما يسمى أولاد القرس الذين توالدوا
بالبحر وبلاد العرب الأبناء ، لأن أمھاتھم من غير جنس آبائھم ، قاله الثراء . وعلى هذا فالكتابة
فى « قومه » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمھات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : (عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ) لأنه كان مسلطا عليهم عاتيا . (وَمَلَئِهِمْ)
ولم يقل وملئه ، وعنه ستة أجوبة : أحدها - أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه فعمل
الجميع . الثانى - أن فرعون لما ذكر علم أن معه ضيره ، فعاد الضير عليه وطعهم ، وهذا
أحد قولى الثراء . الثالث - أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل نمود . الرابع - أن يكون
التقدير : على خوف من آل فرعون ، فيكون من باب حذف المضاف مثل « واسئل القرية » ،

وهو القول الثاني للزاد . وهذا الجواب على من ذهب سيويه والخليل خطأ ، لا يجوز عندهما قامت هند ، وأنت تريد غلامها . الخماس - من ذهب الأخفش سعيه أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملاذ الذرية ، وهو اختيار الطبري . السادس - أن يكون الضمير يعود على قومه . قال النحاس : وهذا الجواب كأنه الجنبها . (أَنَّ يَفْتَنَهُمْ) وحدهم يفتنهم على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهم بالعقوبات ، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بـ « خَوْفٌ » . ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معرفة . (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ) أى مات منكبر . (وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ) أى المجاوزين الحدائق الكفر ، لأنه كان عبداً فأدعى الربوبية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿١٠٠﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ) أى صدقتم . (بِاللَّهِ تَعَالَىٰ تَوَكَّلُوا) أى اعتمادوا . (إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ) كسر الشرح تأكيداً ، وبين أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) أى أسلمنا أموره إلى الله ، ورضينا بفضائه وقدره ، وانهينا إلى أمره . (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى لا تنصرهم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أولاً تمنحنا بأن تعذبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا ، ولا تعذبنا بمذاب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم تسلط عليهم ، فيقتلوا . وقال أبو جابر وأبو الضحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيردوا عنهم خير مما يزدادوا علينا .

قوله تعالى : وَجِئْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾
قوله تعالى : (وَجِئْنَا بِرَحْمَتِكَ) أى خلصنا (مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) أى من فرعون وقومه ، لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

قوله تعالى : **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّنْ مِمَّصِرَ يَبُوتَا**
رَاجِعَلُوا يَبُوتَا قِبَلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّنْ مِمَّصِرَ يَبُوتَا**) فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا**) أي آتَيْنَا . (**لِقَوْمِكَ**) **مِمَّنْ مِمَّصِرَ يَبُوتَا**) يقال : يَبُوتُ زيداً مكاناً ، ويَبُوتُ لزيد مكاناً . والمبُوتُ المنزل المأبُوت ؛ ومنه **يَبُوتَا** الله منزلاً ، أي أَلَزَمَهُ إِيَّاهُ وَأَسْكَنَهُ ؛ ومنه الحديث : " من كَذَبَ عَلَىٰ تَتَمُّدٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " قال الرازي :

نحن بنو عدنان ليس شك • تبوَّأ المجد بنا والملك

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية ؛ في قول عاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر ، ومصر ما بين البحر إلى أسوان ، والإسكندرية من أرض مصر :

الثانية - قوله تعالى : (**وَأَجْعَلُوا يَبُوتَا قِبَلَهُ**) قال أكثر المفسرين : كان بنو إسرائيل لا يصلُّون إلا في مساجدهم وكانهم وكانت ظاهرة ، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل نظرت كلها ومنعوا من الصلاة ؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن آتخذوا مختاراً لبني إسرائيل يَبُوتَا مصر ، أي مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة . وهذا قول إبراهيم وأبن زيد والزيبي وأبي مالك وابن عباس وغيرهم . وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى : واجعلوا يَبُوتَا مقابل بعضها بعضاً . والقول الآخر أصح ، أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة ؛ قيل : بيت المقدس ، وهي قبلة لليهود إلى اليوم ؛ قاله ابن بحر . وقيل الكعبة . عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه ، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام ، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة ومستلزمات العورة واستقبال القبلة ؛ فإن ذلك أُلغِيَ في التكليف وأوفر للعبادة . وقيل : المراد صلُّوا في بيوتكم مراعاتاً ؛ وذلك حين أضافهم فرعون فأمرهم بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت ، والإسلام

على الصلاة ، والدعاء إلى أن يجز الله وعده ، وهو المراد بقوله : « قال موسى يَقُومِهِ أَتَيْتُنَا وَإِلَهُ رَاضِيًا بِمَا آتَيْنَاهُ آلَاءَهُمْ وَلَا يَلُوكَ آلَاءَهُمْ » . وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيح والكأنس ما داموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم . قال ابن العربي : والأول أظهر القولين ؛ لأن الثاني دعوى .

قلت : قوله « دعوى » صحيح ؛ فإن في الصحيح قوله عليه السلام : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » وهذا مما خص به دين الأنبياء ؛ فحق بمحمد الله تعالى في المساجد والبيوت ، وحيث أدركتنا الصلاة ؛ إلا أن النافلة في المنازل أفضل منها في المساجد ، حتى الركوع قبل الجمعة بعدها . وقبل الصلوات المفروضة وبعدها ؛ إذ الباقى يحصل فيها الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك ، وكلما خُصَّ العمل من الرياء كان أوزن وأزنت عند الله سبحانه وتعالى . روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوعه قالت : كان يصلى في بيتي قبل الظهر أربعاً ، ثم يخرج فيصل بالناس ، ثم يدخل فيصل ركعتين ، وكان يصلى بالناس المغرب ، ثم يدخل فيصل ركعتين ، ثم يصلى بالناس العشاء ، ويدخل بيتي فيصل ركعتين ... الحديث . وعن ابن عمر قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل الظهر مبعدين وبعدها مبعدين وبعد المغرب مبعدين ؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيته . وروى أبو داود عن كعب بن عجرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى مسجد بني الأشهل فصلّى فيه المغرب ؛ فلما قضوا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال : « هذه صلاة الليوت » .

الثالثة - واختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان ، هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد ؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضل لمن قوى عليه ، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحاب الشافعى . وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعى إلى أن حضورها في الجماعة أفضل . وقال الألب : لو قام الناس في بيوتهم ولم يقيم أحد في المسجد

لا ينبغي أن يخرجوا إليه . واجبة لمالك ومن قال بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : " فليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " نزع البخاري . احتج المخالف بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاها في الجماعة في المسجد ، ثم أخبر بالمع الذي منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم ، فلذلك قال لهم : " فليكم بالصلاة في بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أو زاعا متفرقين ، إلى أن جمعهم عمر بن قارىء واحد فأستقر الأمر على ذلك وثبت سنة .

الرابعة - وإذا نزلنا على أنه كان أبيع لهم أن يصلوا في بيوتهم إذا طافوا على أنفسهم يستدل به على أن المذنب بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والمذنب الذي يبيع له ذلك المرض الحابس ، أو خوف زيادته ، أو خوف جور السلطان في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم يقطع ، ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يخرجه ، وقد صل ذلك ابن عمر .

الخامسة - قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أي بشر بني إسرائيل بأن الله سيظهرهم على مسلميهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ) آتيت أي أعطيت . (زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي مال الدنيا ، وكان لهم من سطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزربريد والزمرد والياقوت .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصبرورة ، وفي الخبر " إن لله تعالى ملكا ينادي كل يوم ليدوا الموت وابنوا القرباب " . أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا . وقيل : هي لام كن ، أي أعطيتهم لكي يضلوا ويتطروا ويتكبروا . وقيل : هي لام أجل ، أي أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم . وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لتلا بضلوا ، خذفت لا كما قال عز وجل : « يبين الله لكم أن ^(١) تضلوا » . والمعنى : لتلا بضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن الرب لا تخذف « لا » إلا مع أن ، فوه صاحب هذا الجواب بقوله عز وجل « أن تضلوا » . وقيل : اللام للدعاء ، أي ابتلهم بالضلال من سبيلك ، لأن بعده « أطيس على أموالهم » وأكد . وقيل : الفعل معنى المصدر أي إضلالهم ، كقوله عز وجل « ليعرضوا عنهم » . قرا الكوفيون « ليضلوا » بضم الهمزة من الإضلال ، ونحوها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَطِيسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أي عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم . قال الزجاج : طمس الشيء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ويحيى بن كعب : صارت أموالهم ودرامهم حجارة مقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم يتفع به أحد بعد . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزرورهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا ترى ، يقال : صين مطموسة ، وطمس الموضع إذا صفا ودرس . وقال ابن زيد : صارت دنائيرهم ودرامهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة . ثمند ابن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صاروا حجرين ، قال : ومالي عمرين عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فخرج منها الفواكه والدرهم والدينارين وإنها حجارة . وقال السدي : وكانت إحدى الآيات السبع « وأشدد على قلوبهم » . قال ابن عباس : أي امسحهم الإيمان . وقيل : قسها وأطبع عليها حتى لا تنسح للإيمان ، والمعنى

واحد . (فَلَا يُؤْمِنُوا) قيل : هو عطف على قوله « ليضلوا » أى آيتهم التم ليضلوا ولا يؤمنوا ،
قوله الزواج والمبرد . وعمل هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء . وقوله « ربنا اطمس ،
واشدد » كلام معترض . وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو فى موضع جزم
عندهم ، أى اللهم فلا يؤمنوا ، أى فلا آمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينسبط من بين عينك ما أتروى • ولا تلقى إلا وانفك راغم

أى لا أنسبط . ومن قال « ليضلوا » دعاء - أى ابتلهم بالضلال - قال : عطف عليه
« فلا يؤمنوا » . وقيل : هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر ، أى واشدد على قلوبهم
فلا يؤمنوا . وهذا قول الأخفش والفراء أيضا ، وأشد الفراء :

باتقى سرى عتقا فيجا • إلى سليمان فنبستر بها

فصل هذا حذف النون لأنه منصوب . (حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) قال ابن عباس : هو
الفرق . وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء
إيمان فهمهم ، فالجواب أنه لا يحسوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه
ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام : « أنه
لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » وعند ذلك قال : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
الْكَافِرِينَ دَارًا » ^(١) . والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) قال أبو العالية : دعا موسى وأثن هارون ؛
وقد آمن على الدماء داعيا . الثامين على الدعاء أن يقول آمين ؛ فقولك آمين دعاء ، أى رب

استجب لي . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال اهل المعاني : ربما خاطبت المرب
الواحد بخطاب الاثنين ، قال الشاعر :

قللت لصاحبي لأستجلا * بقرع أصوله فأجتر شيئا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وأن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت علي بن سليمان
يقول : الدليل على أن الدعاء لما قول موسى عليه السلام « ربنا » ولم يقل رب . وقرا علي
والسلي « دعواتك » بالجمع . وقرا ابن السكيت « أجبت دعوتك » خبرا عن الله تعالى ، ونصب
دعوة بعده . وتقدم القول في « آمين » في آخر الفاتحة سنوفاً . وهو مما خص به نبيا محمد
صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى طيبا السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أعطى أمي ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهي تحية أهل
الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون » ذكره الترمذي الحكيم في نوادر
الأصول . وقد تقدم في الفاتحة .

قوله تعالى : (فَاسْتَجِبْ) قال الفخره وغيره : أمر بالاستجابة على أمرهما وإتيان عليه
من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان ، إل أن يأتيهما تأويل الإجابة . قال محمد بن علي وابن جرير :
مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استجبا » أي على
الدعاء ، والاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يسقط الاستعجال
من القلب إلا باستقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بفرضا الحسن بجمع ما يبدو
من النيب . (وَلَا تَيَمَّانْ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ) بتشديد النون في موضع جزم على النبي ،
والنون للتوكيد وحركت لانتقال الساكنين واختير لما الكسر لأنها أشبهت نون الاثنين . وقرا
آمين ذكران بتخفيف النون على النفي . وقيل : هو سأل من استجبا ، أي استجبا غير متجبن ،
والمنفي . لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى وعيدى .

قوله تعالى : وَجَازَنَّا بَيْنِي وَإِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
بَغْيًا وَعَدُوا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وَجَازَنَّا بَيْنِي وَإِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ) تقدم القول فيه في « البقرة » في قوله
« وَلَدَّ فِرْعَوْنُ يَمُّ الْبَحْرِ » . وقرا الحسن « وجوزنا » وما لفتان . (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ)
يقال : تبع وأتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه وأدركه . وأتبع (بالتشديد) إذا سار خلفه . وقال
الاسمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه ، وأتبعه (بوصل الألف) إذا أتبع أثره ،
أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرا قتادة « فأتيهم » بوصل الألف . وقيل :
« أتبعه » (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به . وأتبعه (بقطع الألف) خيرا أو شرا ؛ هذا قول
أبي عمرو . وقد قيل هما بمعنى واحد . فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا ،
وتبعه فرعون مئبها في التي ألف وستمائة ألف . وقد تقدم . (بَغْيًا) نصب على الحال .
(وَعَدُوا) معطوف عليه ؛ أي في حال بغى واعتداء وظلم ؛ يقال : عدوا وعدوا ، مثل غزا وغزا
غزوا . وقرا الحسن « وعدوا » بضم العين والدال وتشديد الواو ؛ مثل علا وعلوا . وقال
المفسرون : « بنوا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدوا » في الفعل ، فهما نصب على
المفعول له . (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) أي ناله ووصله . (قَالَ ءَآمَنْتُ) أي صدقت . (أَنَّهُ)
أي بانه . (لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ) فلما حذف الخافض تعدى الفعل فنصب .
وقرى بالكسر ؛ أي صرت مؤسما ثم استأنف . وزم أبو حاتم أن القول محذوف ، أي آمنت
فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية الباس ، وأما بعدها وبعد
الخاطئة فلا تقبل ، حسب ما تقدم في « النبا » . بانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول

(٢) راجع ١٠ ص ٣٨٧ طبة آية أربعة .

(٣) راجع ١٠ ص ٣٨٧ طبة آية أربعة .

(٤) راجع ١٠ ص ٣٨٧ طبة آية أربعة .

البحر وكان على حصان آدم^(١) ولم يكن في خيل فرعون فرس أثني؛ بغاه جبريل على فرس وذيق
 - أي شيبى - في صورة هامان وقال له : تهتّم ، ثم خاض البحر فبعثها حصان فرعون ،
 وميكائيل يسوقهم لا يشدّ منهم أحد ، فلما صار آتوهم في البحر وهم أظلم أن يخرج أطلق
 عليهم البحر ، وأبلم فرعون النرق فقال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ؛ فدمس جبريل
 في فيه حال البحر . وروى الترمذى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما
 أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو
 رأيته وأنا آخذ من حال البحر فادسه في فيه خافة أن تدركه الرحمة " . قال أبو موسى ،
 هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه ؛ قاله أهل اللغة . ومن
 ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر : " أن جبريل جعل يدس في في فرعون
 الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه " . قال : هذا حديث حسن
 غريب صحيح . وقال عون بن عبد الله : بلغني أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما ولد
 إبليس أبغض إلى من فرعون ، فأنه لما أدركه النرق قال « آمنت » الآية ، تخشيت أن يقول
 فيرحم ، فأخذت تربة أوطية خشوتها في فيه . وقيل : إنما قيل هذا به عقوبة له على عظيم
 ما كان يأتي . وقال كعب الأحبار : أسك الله نيل مصر عن الجحري في زمانه ، فذالت له
 القبط ؛ إن كنت وبنا فاجر لنا الماء ؛ فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا ينفون على
 دوجاتهم وقفز حيث لا يرونه وتزل من دابته وليس ثيابا له أخرى وسجد وتضرع لله تعالى
 فاجرى الله له الماء ، فأنه جبريل وهو وحده في هيئة مستغفٍ وقال : ما يقول الأسير
 في رجل له عبد قد نسا في نعمته لاستنله فيه ، فكفرتم به ووجد حقه وأدعى السيادة بونه ؛
 فكذب فرعون : يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان جرّاه أن ينزق في البحر ؛
 فأخذ جبريل وصرا فلما أدركه النرق ثاوله جبريل عليه السلام خطه . وقد معنى هذا
 في « البقرة » من عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا ؛ وكان هنا في يوم عاشوراء
 على ما تهتّم بيانه في « البقرة » أيضا فلا معنى للإطالة .

قوله تعالى : (وَأَنَّا مِنَ الْمُتْلِينَ) أى من الموحدين المسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : (وَأَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل هو من قول جبريل . وقيل ميكائيل ، صلوات الله عليهم ، أوحىهما من الملائكة صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن قد قول باللسان بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة ، ونظيره : إِنَّمَا نَحْنُكُمْ لِرَبِّهِ أَتَمُّ ، أى عليهم الرب بما فى ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بفظهم ، والكلام الحقيقى كلام القلب .

قوله تعالى : (فَأَلَيْكُمُ نَجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ)

قوله تعالى : (فَأَلَيْكُمُ نَجِيكَ بِبَدَنِكَ) أى تنقذك على نجوتك من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأننا من ذلك ، فآفاه الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه . قال أوس بن حجر يصف مطرا :
فرب يبقونه كن ينجونه • والمسيك كن ينجي ويرواح^(١)

وقرأ الزبيدي وابن السميع « نقيك » بالحاء من النجوة ، وحكاها طلمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جرير : فرمى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان نصيرا محررانه نور . وحكى طلمة عن عبدالله أنه قرأ « بدائك » من النداء . قال أبو بكر الأنباري : وليس بخالف لهما مصحفنا ، إذ سبيله أن يكتب بياء وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من بدائك فى ترتيب خط المصحف كما سقطت من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بها الحذف استوى مجاء بدئك وبدائك ، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه طائفة المسلمين ، والقراءة ستة ما خلفها آخر من أوله ، وفى منها نقص عن

(١) البقرة والعنفة : الباء وما حرك الدار والهاء ، وجما غند . والرواح : الأوجه المارئة للفسر .

ذويل فراءتاء، إذ ليس فيها للصدر ذكر، الذي شابت الأثر بأن بني إسرائيل اختفوا
 في غرق فرعون، وسألوا الله تعالى أن يرهم إياه غرقها فاقوه على نجوة من الأرض يبدنه
 ذو درعه التي يلبسها في الحروب. قال ابن عباس وعبد بن كعب القرظي: وكانت درعه
 من لؤلؤ منظم. وقيل من الذهب وكان يعرف بها. وقيل من حديد؛ قاله أبو جعفر. والبدن
 المدرع القصيرة. وأشد أبو عبدة للأعشى:

وبيضاء كألبي مؤنونة • لها قوتس فوق جيب البدن

وأشد أيضا لعمرو بن نعد يركب:

ومضى نساؤهم بكل مفاضة • جدلاء سابة وبالابدان^(١)

وقال كعب بن مالك:

رأى الأبدان فيما سببات • على الأبطال واللب الحصية

أراد بالأبدان الدروع، واللب الدروع الثمانية، كانت تؤخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض،
 وهو اسم جنس الواحد لية. قال عمرو بن كلثوم:

طينا البيض واللب الجاني • وأسباب يمين وتحتينا

وفي: «بيدك» يمسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد. قال الأخفش: وأما قول من قال
 بدعك فليس بشيء. قال أبو بكر: لأنهم لما ضرعوا إلى الله بسألوه مشاهدة فرعون ضريفا
 أبرزه لهم فأروا جسدا لا روح فيه، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم! يا موسى هذا فرعون وقد
 فارق، فخرج الشك من قلوبهم وأبطل البحر فرعون كما كان. فبلى هذا «تبيك بيدك»
 احتمل معنيين: أحدهما - تبيك كل نجوة من الأرض. والثاني - نظهر جسدي الذي
 لا روح فيه. والقراءة الشاذة «بنداك» يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة؛ لأن التداء
 بفسر تفسيرين، أحدهما - تبيك بصياحك كلمة التوبة، وقولك بعد أن أغلق بابها ومضى

(١) البيضاء: الدرع واللبس (الفتح والكر)، فتنه: كل موضع يفتح فيه الماء. والمرضة: الدرع
 المتسورة. والتونس: أملحة في الحلية. (٢) المقاضة (بضم أله): الدرع القراصة. والجدلاء:

الفرج المحكة نسيج -

وقت قبوها «أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» على موضع وقع . والآثر - فالיום نزلك عن غامض البحر ينداك لما قلت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت تعينه بالبدن معاقبة من رب العالمين له على ما قوط من كفره الذي منه نذاهه انذني أوترى فيه وبهت ، وأدعى القدرة والأمر الذي يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له . قال أبو بكر الأتباري : فقرائتنا تتضمن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتزيد عليها .

قوله تعالى : (لَنُكَوِّنَنَّ لَهُمْ سُنْفًا) أي لني إسرائيل ولن يني من قوم فرعون ممن لم يولدوه الفوق ولم يثبه اليه هذا النذر . (وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافُونَ) أي معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها . وقرئ « لمن خلقك » (يفتح اللام) ؛ أي لمن يني بمدك يخلقك في أرضك . وقرأ علي بن أبي طالب « لمن خلقك » بالفاء ؛ أي تكون آية خلقتك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآءَ صِدْقٍ) أي منزل صدق محمود بخسار ، يعني مصر . وقبل الأرض وفلسطين . وقال الضحاك : هي مصر والشام . (وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) أي من الثمار وغيرها . وقال ابن عباس : يعني قريظة والنضير وأهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل ، فأنهم كانوا يؤمنون بحمد صلى الله عليه وسلم وينظرون خروجه ، ثم لما خرج حسدوه ؛ ولهذا قال : (فَمَا اخْتَلَفُوا) أي في أمر محمد صلى الله عليه وسلم . (حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) أي القرآن وعهد صلى الله عليه وسلم . والعلم بمعنى المعلوم ، لأنهم كانوا يجهلون قبل خروجه ؛ قاله ابن جرير الطبري . (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ) أي يحكم بينهم ويفصل . (يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) في الدنيا ، فينبط الطائع وباصب العاصي .

قوله تعالى : فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد فيه ، أى لست فى شك ولكن غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد سمعت الإمامين علياً والمبرد يقولان : معنى « إن كنت فى شك » أى قل يا محمد للكافر فإنت كنت فى شك مما أنزلنا إليك . (فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) أى يا عابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فأسأل من أسلم من اليهود ، بنى عبد الله بن سلام وأمثاله ، لأن عبدة الأوثان كانوا يقرءون اليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يسألوا من يقرءون بأنهم أعلم منهم ، هل يبعث الله برسول من بعد موسى . وقال قتادة : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا تصديقه صلى الله عليه وسلم ، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لا غيره ، والمعنى : لو كنت ممن يلحقك الشك فإنا أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك ضيق الصدر ، أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صيرة الأنبياء من قبلك هل أدى قومهم وكيف طاعة أمرهم . والشك فى اللغة أصله الضيق ، يقال : شك للتوب أى ضمه بخلاف حتى يصير كالوعاء . وكذلك السفرة تمتد علاقتها حتى تنقبض ، فالشك يقبض الصدر ويضيق حتى يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب العمل ولا تنجس ، والدليل عليه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه الآية : **وَأَنذَرْنَا**

أشك - ثم استأنف الكلام فقال - لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المتحيرين
أى الشاكين للمراتين . (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا وَبَيَّاتِ اللَّهُ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
والخطاب فى هاتين الآيتين للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) تقدم القول فيه فى هذه
السورة . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضب الله وخطبه بمعصيتهم لا يؤمنون . (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ
كُلُّ آيَةٍ) أنت « كلاً » على المعنى ، أى ولو جاءتهم الآيات (حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فيخشع
يؤمنون ولا ينفعهم .

قوله تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَنْفَعَهَا بِإِيمَانِهَا إِلَّا قَوْمُ
يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ) قال الأخفش والكسائي : أى فهلا .
وفى مصحف أبى وابن مسعود « فهلا » وأصل لولا فى الكلام التحضيض ، أو الدلالة على
منع أمر لوجود غيره . ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس ؛ فهو
بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره ما آمن أهل قرية
إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه ، وكذلك أدخله سيبويه فى (باب ما لا يكون
إلا منصوباً) . قال النحاس : « إلا قوم يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأول ،
أى لكن قوم يونس ؛ هذا قول الكسائي والأخفش والفراء . ويجوز « إلا قوم يونس »

بالرفع ، ومن أحسن ما قيل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج قال : يكون المعنى غير قوم يونس ، فلما جاء بالأمر أبصر الاسم الذي بعدها بأعراب غير ، كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارقة أخوه • تَمَرَّأَيْكَ إِلَّا الْقَرْدَانِ

وروى في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا يبنون من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا ، فقبل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيفس من إيمانهم ، فقبل له : أخبرهم أن المذنب مصيَّبهم إلى ثلاث فمصل ، وقالوا : هو رجل لا يكتب فارقيه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن أرحل عنكم فهو نزول المذنب لاشك ، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فابوا ودعوا الله وليسوا بالسوح وقروا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، ورفقوا المظالم في تلك الحالة . وقال ابن مسعود : وكان الرجل يأتي المجر قد وضع عليه أساس بيانه فيقتله فيرده ، والمذنب منهم فيما روى عن ابن عباس هل تلقى يسيل . وروى عن يسيل . وعن ابن عباس أنهم غشيهم ظُلمة وفيها حرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرَّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيهم المذنب كما يفسى الثوب القير ، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم المذنب . وقال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن يعب عليهم بعد ممانعة المذنب ، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم المذنب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على المذنب ، ولورأوا حين المذنب لما قطعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ، فإن الممانعة التي لا تنفع التوبة معها هي التمس بالمذنب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى المذنب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويضد هذا قوله عليه السلام : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يشره " . والفرغرة الحشرية ، وذلك هو حال التمس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا والله أعلم . وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، وأن يونس لما وصل المذنب إلى ثلاثة

إمام نرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأبوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ، وهذا يدل على توبتهم قبل رؤية علامة العذاب ، وسيأتي مستندا مينا في سورة « الصافات » إن شاء الله تعالى . ويكون معنى (كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ) أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنه يقتل بهم ، لأنهم رآوه ميانا ولا غفيلة ، وعلى هذا الإشكال لا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم . وبالجملة فكان أهل يثرب في سابق العلم من السعداء . وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : إنه الخلد لا يرد القدر ، وإن الدماء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : « إِنْ قَوْمٌ لُؤْسٌ لِمَا آمَنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . قال علي رضي الله عنه : وذلك يوم عاشوراء . قوله تعالى : (وَنَسْتَأْذِنُ إِلَى حِينٍ) قيل إلى أجلهم ، قاله السدي . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو النار ، قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) أى لاضطربهم إليه . « كُلَّهُمْ » تأكيد . « جَمِيعًا » عند سيويه نصب على الحال . وقال الاخفش : جاء بقوله جَمِيعًا بعد كل تأكيد ، كقوله : « لَا تَقْبَلُوا إِلَيْنِ أَشْيَاءَ » .

قوله تعالى : (أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمان جميع الناس ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له السيادة في الذكر الأول ، ولا يصل إلا من سبق له الشفاعة في الذكر الأول . وقيل : المراد بالناس هنا أبو طالب ، وهو عن ابن عباس أيضا .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ آرْجَسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾

(١) آية ٥١ سورة النحل .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) وما هي ، أي ما ينبغي أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره وشيئته وإرادته . (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ) وقرا الحسن وأبو بكر والمنفعل ونجمل بالثون على التعليل . والرجس : العذاب ، بضم الراء وكسرهما لتثنية . (عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) أمر الله من وجل دينه .

قوله تعالى : قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْأَيْتُ وَالنُّجُومُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أمر الكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الثلاثة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير موضع مستوف . (وَمَا تُعْطِي) ما هي ، أي ولن تتنى . وقيل استغماية ، التقدير أي شيء تعني . (الْأَيْتُ) أي الدلالات . (وَالنُّجُومُ) أي الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول صل الله عليه وسلم . (عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) أي عن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام المزمب أي بوقائعهم . قال قتادة : يعني وقائع الله في يوم نوح وعاد وهود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنتم أياما ، كقوله تعالى : وَذَكَرَتْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . (فَانظُرُوا) أي تریسوا ، وهذا تهديد ووعيد . (إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) أي المترصين لموعدهم .

قوله تعالى : **فَمَنْ يُنَجِّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ**

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : **(فَمَنْ يُنَجِّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا)** أي من سفلنا إذا أنزلنا بقوم هذا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين ، و « ثم » مباءة ثم اعلوا أنا نجى رسلا . **(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا)** أي واجبا علينا ، لأنه أخبر ولا خلف في خبره . وقرأ يعقوب « ثم نجى » غفقا . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب « نجى المؤمنين » غفقا ، وشدد الباقون ، وما لتان فصيحتان : انجى يُنجى إجماع ، ونجى يُنجى تجية بمعنى واحد .

قوله تعالى : **قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾**

قوله تعالى : **(قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ)** يريد كفار مكة . **(إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي)** أي في ريب من دين الإسلام الذي أدهوكم إليه . **(فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)** من الأوثان التي لا تغفل . **(وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)** أي يمتك ويقبض أرواحكم . **(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** أي المصدقين بآيات ربه .

قوله تعالى : **وَأَنْتَ أَقْسَمُ بِجَهَنَّمَ لَئِنْ لَدِينِ حَنِيفٌ وَلَا تُكَوِّنَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٥٩﴾**

قوله تعالى : **(وَأَنْتَ أَقْسَمُ بِجَهَنَّمَ)** « أن » عطف على « أن أكون » أي قيل لي كن من المؤمنين وأقم وجهك . قال ابن عباس : علك ، وقيل تسلك ، أي استقم بإقبالك على ما

أمرت به من الدين . (حَيْثَا) أى قويمًا به ما تلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب :

جِئْتُ اللهَ حينَ هدى قَوَادِي « من الإِشْرَاقِ للدينِ الخفيفِ »
وقد مضى في « الأنعام » اشتقاقه والحمد لله . (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى وقيل لى لا تشرك؛ والمطاب له والمراد غيره؛ وكذلك قوله : (وَلَا تَدْعُ) أى لا تعبد . (مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ) إن عبده (وَلَا يَضُرُّكَ) إن عصيته (فَإِنَّ قَمَلْتَ) أى عبت غير الله (فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) أى الراضعين المباداة فى غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) أى يصيبك به (فَلَا كَاشِفَ) أى لا دافع (لَهُ إِلَّا هُوَ) وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ) أى يصيبك بخير ونعمة (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ) أى بكل ما أراد من الخير والشر (مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ) لذنوب عباده وخطاياهم (الرَّحِيمُ) بأوليائه فى الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ) أى القرآن . وقيل الرسول صل الله عليه وسلم . (مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى) أى صدق بحمد أو آمن بما جاء به (فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)

(١) داحج ص ٧٨ • وقد ذكره فى البقرة سنن ترمذى لى ص ١٢٩ طبع ثانية

أى لخلاص نفسه (وَمَنْ صَلَّى) أى ترك الرسول والقرآن وأتبع الأصنام والأوثان (وَأَتَى
يَنْبُلُ عَلَيْهَا) أى وبال ذلك على نفسه (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) أى بحفظ أعمالكم
إنما أنا رسول . قال ابن عباس : نسخها آية السيف .

قوله تعالى : وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ
وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِكِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ) قيل : نسخ آية القتال . وقيل : ليس
منسوخا ، ومبناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لما نزلت جمع النبي صلى
الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : " إنكم ستجدون بدى أثره فاصبروا حتى
تلقوني على الخوض " . وعن أنس يمثل ذلك ، ثم قال أنس : فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما
أمره الله تعالى ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا بلغ معاوية بن حرب * أمير المؤمنين تآكلاما^(١)

بأنا صابرون ومنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام

• (حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِكِينَ) ابتداء وخبر ، لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

تمت سورة يونس ، والحمد لله وحده

(١) أى يثأر عليكم فيفضل غيركم ونصيه من الله . (٢) الثا في الكلام يطلق على التبع والحين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد الباقين في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَقْرِبُوا سُورَةَ هُودٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ » . وروى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شئتُ أن قال : « شَيْئَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَمَنْ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد رَوَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا مَرْسَلًا . وأخرجه الترمذي المحكم أبو عبد الله في « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » : حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ صَالِحٍ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنْ أَبِي جُبَيْنَةَ قَالَ : قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرَاكَ قَدْ شَيْئْتَ ! قَالَ : « شَيْئَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » . قال أبو عبد الله : فالفرع يورث الشيب وذلك أن الفرع يُنْهَلُ النَّفْسُ فَيَنْشِفُ رَطوبَةَ الْجَسَدِ ، وَتَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مَنِيْعٌ ، فَإِذَا نَشِفَ الْفَرْعُ وَطَوْبَتِهِ بَيَسَتْ الْمَنَاجِعُ فَيَبِسَ الشَّعْرُ فَأَبْيَضَ ؛ كَمَا تَرَى الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ يَبْغَاهُ ، فَإِذَا ذَهَبَ سَبَاغُهُ بَيَسَ بَأْيَضَ ؛ وَإِذَا بَيَضَ شَعْرُ الشَّيْخِ لَزَهَابٍ وَطَوْبَتُهُ وَبَيَسَ جِلْدُهُ ، فَالْنَفْسُ تَذْهَلُ بِوَعْدِ اللَّهِ ، وَأَهْوَالُ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ مِنَ اللَّهِ ، فَتَذِلُّ ، وَيُنْشِفُ مَا مَعَهَا ذَلِكَ الْوَعْدُ وَالْمَوَلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ لَهُ تَشْبِيهُ . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَحْمِلُ الْوَلَدَانِ شَيْئًا » ؛ فَإِنَّمَا شَابُوا مِنَ الْفَرْعِ . وأما سورة « هود » ؛ فَإِنَّمَا فِيهَا ذِكْرُ الْأُمَمِ ، وَمَا سَلَّ بِهِمْ مِنْ عَاجِلٍ بِأَسِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَاهْلُ الْيَقِينِ إِذَا تَلَوْهَا تَرَاهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ مَلَكَةٍ وَسُلْطَانَةٍ وَلِحَافَتِهِ الْبَطْشُ بِأَعْدَائِهِ ، فَلَوْ مَاتُوا مِنَ الْفَرْعِ لَحِقَ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْمَهُ يُلْطَفُ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْأَحْيَانِ حَتَّى يَقْرَأُوا كَلَامَهُ . وَإِنَّمَا أَخَوَاتُهَا فَأَشْبَهَهَا مِنَ السُّورِ ؛ مِثْلُ « الْحَاقَّةِ » وَ « سَاءَ سَائِلٌ » وَ « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ »

و القارعة » ، قى تلاوة هذه السور : ما يكشف لقلوب العارفين سلطاته ويطهه فنذهل منه النفوس ، و تشيب منه الرؤوس . وقد قيل إن الذي شوب النبي صلى الله عليه وسلم من سورة « هود » قوله : « فَأَسْتَقِيمُ كَمَا أُمِرْتُ » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مناسي فقرات عليه سورة « هود » فإذا ختمتها قال : « يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء » . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة ؛ لأنك لو سميت امرأة يزيد لم تصرف ؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هود بالتنوين على أنه اسم للسورة ؛ وكذا إن سمي امرأة يزيد ؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هود وأنت تريد سورة هود ؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : **الَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ فَصِلَتِ** مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① **أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ②** **وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ③** **وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ④** **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑤**

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، تقدم القول فيه . ﴿يَكْفُرُ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب ، وأحسن ما قيل في معنى « أصحاب آياته » قول قتادة ؛ أي جعلت عبدة كتابها لا خلل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أي نظمت نظماً شاملاً لا يلحقها تناقض ولا خلل . وقال ابن عباس : أي لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى ؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ . وقد تقدم القول فيه .

(١) راجع تفسير الآية الأولى من سورة « يونس » . (٢) راجع ج ١ ص ١٠ مطبعة أول ارتانة .

وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العباس : « أَحْكَمْتَ آيَاتَهُ » بالأمر والنهى (ثُمَّ قُضِلَتْ) بالوعد والوعيد والنواب والعقاب . وقال قتادة : أحكها الله من الباطل ؛ ثم فصلها بالحلل والحرام . مجاهد : أحكت جملة ؛ ثم بيّنت بذكر آية لية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها . وقيل : جُمعت في اللوح المحفوظ ، ثم فصلت في الترتيل . وقيل : « قُضِلَتْ » نزلت نهيًا تمامًا لتدبر . وقرا عكرمة « قُضِلَتْ » عطفًا أى حَكَتْ بالحق . (مِنْ لَدُنْ) أى من عند . (فِي حِكْمٍ) أى حكيم لأن مور . (خَيْرٍ) بكل كان وغير كان .

قوله تعالى : (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) قال الكلباني والقزاه : أى بالآ ؛ أى أحكت ثم فصلت بالإلتفات إلى الله . قال الزجاج : للآ ؛ أى أحكت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ) أى من الله . (نَذِيرٌ) أى مخوف من عذابه وسخطه لمن عصاه . (وَيَسِيرٌ) بالرضوان والبطنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أى لا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير ؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيَحْذَرُ كَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى » .

قوله تعالى : (وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) عطف على الأول . (ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ) أى أرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال القزاه : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هي الاستغفار . وقيل : استغفروهم من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المسائل متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكنايين . وقد تقسم هذا المعنى في « آل عمران » مستوفى . وفي « البقرة » عند قوله : « وَلَا تَتَّبِعُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة هي السبب إليها ، فالمغفرة أزل في المطلوب وآخر في السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروهم من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . (مَتَّعْتُكُمْ نِعَامًا حَسَنًا)

(١) جاي ٨ ص ٢١١ طبع أول مرة . (٢) جاي ٨ ص ٢١٠ طبع أول مرة .

هذه ثمرة الاستغفار والثوبة ، أى يمتنع بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعباد كما فعل بن أهلك قبلكم . وقيل : يمتنع بعمركم ، وأصل الإمتناع الإطالة ، ومنه أمتنع لهُ بك ومنع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق . وقيل : هو القناعة بالوجود وترك الحزن على المفقود . (إلى أجل نُسئى) قيل : هو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر محرف ، مما يكون في السبر وغيره من أهوال القيامة وتكرها ، والأول أظهر لقوله في هذه السورة : « وَبِأَنفُسِكُمْ أَتَشْفِقُونَ » ثم تَوَبُّوا إِلَيْهِ يَرْسِلُ السَّيَّءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَأُ وَكَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتلوا بالفضط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحترقة والقدر والجيف والكلاب . (وَبُذِّبَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ) أى يؤت كل ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : يؤت كل من فضلت حسنته على سيئاته « فَضْلُهُ » أى الجنة ، وهو فضل الله ، فالكتابة في قوله : « فَضْلُهُ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يحسبه الإنسان من كلام بقوله بلسانه ، أو عمل بعمله بيده أو رجله ، أو ما يطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتیه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . (وَأَن تَوَلَّوْا فَنَاقٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يحوز أن يكون ماضيا ويكون المضى : وإن تَوَلَّوْا فقل لهم إلى أخاف عليكم . ويحوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التامين والمعنى : قل لهم إن تَوَلَّوْا فَنَاقٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ .

قوله تعالى : (إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُكُمْ) أى بعد الموت . (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّهُمْ يُلْمُونَ صَلَواتَهُمْ لِيَسْتَغْفِرُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لِيَأْبَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِلَّا اللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صَلُودَهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ ﴾ أخبر عن معاناة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تنقّى على الله أحوالهم . « ينتون صدورهم » أى يطوونها على عداوة المسلمين فيه هذا الحلف . قال ابن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشّعاء والعداوة ، ويظهرون خلافه . زلت فى الأحنس بن شريق ، وكأنّ رجلاً حلّو الكلام حلّو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَنْتَوْنَ صَلُودَهُمْ » شكاً وأمرأه . وقال الحسن : ينتونها على ما فيها من الكفر . وقيل : زلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبي صلى الله عليه وسلم تنّى صدره وظهره ، وطلاطاً رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ، حكى معناه عن عبد الله بن شداد قالما جاء فى « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلبنا أبوابنا ، وأستغنيا ثيابنا ، وثبتنا صدورنا على عداوة محمد فن يعلم بنا ؟ فزلت الآية . وقيل : إن قوماً من المسلمين كانوا يَنْتَوْنَ بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فيبى الله تعالى أن التمسك ما أشملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : « ألا إنهم يَنْتَوْنَ صَلُودَهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ » قال : كانوا لا يخاصمون النساء ولا يأتون الفاسط وهم يفضون إلى السماء ، فزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صَلُودَهُمْ » يغيرون بصد الواو ، فى وزن تنطوى ؛ ومعنى يرتضى والقراءتين الآخرين مقارب ؛ لأنها لا تنهى حتى ينقوها . وقيل : كان بعضهم يخفى على بعض سياسته فى اللعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) فى الأصل : « تنوى » يغيرون بصد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالط ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ، فقد سؤيا عنها ؛ وأما رواية « تنوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن عيينة ، وبيّضه ما فى (اصراب القرآن لطاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « ألا إنهم تنوى صدورهم » يغيرون بصد الواو فى وزن تنطوى ... الخ ، وهو العبارة الآتية بالأصل . ونسب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها خاطئة فى النطق لا فى اللفظ . راجع روح المعاني والبحر وتفسير ابن عطية .

« لَيْسَتْخُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن عهد أو من الله . (« الْآخِينَ يَسْتَفْشُونَ يَتَبَسَّمُ »)
 أى يبتلون برسوم يتبسمهم . قال قتادة : أخفى ما يكون البعد إنا حتى ظهره ، واستغنى
 ثوبه ، واضمر في نفسه منه .

قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ
 مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ») « ما » هى « من » زائدة
 و « دابة » فى موضع رفع ، والتقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « من » ، أى
 من الله رزقها ؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلُّ مَا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ . وقيل : « على الله » أى
 فضلا لا وجوباً . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدم بيان هذا المعنى فى « النساء » وأنه
 سبحانه لا يجب عليه شئ . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ؛ وظاهر الآية
 العموم وممتاها الخصوص ؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرْزَق . وقيل : هى عامة ،
 وكل دابة لم ترزق رزقا تمش به فقد رُزِقت رُوحها ؛ ووجه النظم بما قبل : أنه سبحانه أخبر
 برزق الجنس ، وأنه لا يفُتَل عن تربيته ، فكيف تحفى عليه أحوالكم يا مشرك الكفار وهو
 يرزقكم ؟ والذابة كل حيوان يَدْب . والرزق حقيقته ما يتقذى به الحى ، ويكون فيه بقاء
 رُوحه ونمائه جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرْزَق وليس يصح
 وصفها بأنها مالكة لعلفها ؛ وهكذا الأفاعال تُرْزَق اللبن ولا يقال إن اللبن الذى فى الثدي
 ملك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء ملك ؛ ولأن الرزق
 لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك
 شال ؛ لأن البعد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى والحمد لله .
 وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الزمى يأتيها بالطعنين ، والذى شدى

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٤ طبة أول أورانية .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبة ثانية أورانية .

الإشفاق هو خالق الأرضاق . وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحانه الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله يتزكك دنائير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ماله إلا السماء ! يا هذا الأرض لله والسماء له ؛ فإن لم يؤتى رزق من السماء ساقه من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخاف الففسر والله رازق • ورازق هذا الخلق في العنبر والبئر
تَكْفُل بالأرزاق للخلق كلهم • وللغضب في الليالي والحوت في البحر

وذكر الترمذي الحكيم في « نواهد الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أزمعوا من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله : فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَبِأَمْرِ ذَابِقٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مبین » فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : ائبروا أآآكم الغوت ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قسصة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ماشوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو آآا ردة هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : آذهبوا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : « ما أرسلت إليكم طعاما » فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك شيء رزقكوه الله » .

(١) أرسلوا من الزاد : أي قد زادهم ؛ وأمله من الرجل كأنهم لمعوا بالزل ؛ كما قيل القفر الرب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَلْمُ مُسْتَفْزَهَا ﴾ أي من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أي الموضع الذي تموت فيه فدفن ، قاله يثقم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستفزها » أيام حياتها . « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « مستفزها » في الرحم . « ومستودعها » في الصلب . وقيل : « يلم مستفزها » في الجنة أو في النار . « ومستودعها » في القبر ؛ يدل عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار : « حُدِّنَتْ مُسْتَفْزَرًا وَمَقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَفْزَرًا وَمَقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِي يَكْبَابٍ مُبِينٍ ﴾ أي في ألواح المفوض .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ كُنْتُمْ مُبْغِوُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدم في « الأعراف » بيانه والجدد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والشاء . قال كعب : خلق الله يافوثة خضره فنظر إليها بالحية فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى ؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا ، ثم خلق الريح لجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وروى البخاري عن عمران بن حصين . قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : « أقبلوا البشري يا بني تميم » قالوا : بَشَرِيَّاهُ فَأَعْطَانَا [مشرتين] فدخل فأس من أهل اليمن فقال : « أقبلوا البشري يا أهل اليمن إذ لم قبلها بنو تميم » قالوا : قبلنا ، جئنا لتفقه في الدين ، وللساك من هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

في الله ترك كل شيء . ثم أتاني رجل فقال : يا عمران أدرك نافعك فقد جُعت ، فاطلعتها
أطلبها فإذا هي يقطع دونها السراب ؛ وأيم الله لو دبت أنها قد ذهبت ولم أقم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق ذلك ليبتل عباده بالاعتبار
والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قتادة : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أنتم
عقلا . وقال الحسن وسفيان الثوري : أيكم أزهد في الدنيا . وذكر أن عيسى عليه السلام
مرّ برجل قائم فقال : يا نائم قم فمجد ، فقال : يا روح الله قد تعبنت ، فقال : « وما تعبنت ؟ »
قال : قد تركت الدنيا لأهلها ؛ قال : ثمّ قد نعت العابدين . الضحاك : أيكم أكثر شكرا .

مقاتل : أيكم أنقى لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . وروى عن ابن عمر
أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قال : « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وأروى
عن عمار الله وأسرع في طاعة الله » فجمع الأفاضل كلها ، وسأني في « الكهف » هذا أيضا
إن شاء الله تعالى . وقد تقدم معنى الابتلاء . (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ) أي دلت يا محمد
على البعث ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكر ذلك للتركين لقالوا : هذا بخر . وكبرت « إن »
لأنها بعد القول بمبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فحقت اللام لأنه
فعل متقدم لاضمير فيه ، وبسده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و (يجر) أي غرور ، باطل ،
لبطلان السحر عندهم . وقرا حمزة والكسائي « إِنَّ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مِينٌ » كناية عن النبي صلى
الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ
مَا يَجْعَلُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام في « لَئِنْ » تنقسم
والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَى أُمَّةٍ » إلى أجل معدود وحين معلوم ؛ فالأمة هنا
(١) راجع المسئلة الثانية في تفسير قوله تعالى : « إِنَّا جَاءَنَا مَا نَحْنُ الْأَوْسَرُ زَيْتًا لَهَا » . الآية ٧

المدة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين . وأصل الأئمة الجماعة ، فبرهن
الحين والسنين بالأئمة لأن الأئمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ، والمضى
إلى معنى ، أئمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الخلافة . أو إلى اقتراض أئمة فيها من يؤمن
الآن يسي بعد آخرها من يؤمن . والأئمة أسم مشتق يقال على ثمانية أوجه ، فالأئمة
مكون الجماعة ، كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ » . والأئمة أيضا إنباع
الأنبياء عليهم السلام . والأئمة الرجل الجامع لمحير الذي يقتدى به ، كقوله تعالى : « إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأئمة الدين والملة ، كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى
أُمَّةٍ » . والأئمة الحين والزمان ، كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَكْثَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْتَدِلَةٍ »
وكذلك قوله تعالى : « وَأَذْكُرْ بِمُنَّةِ أُمَّةٍ » . والأئمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ، يقال من
ذلك : فلان حسن الأئمة أى القامة . والأئمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد ،
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يُبْعَثُ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ نُفَيْلٍ أُمَّةً وَحِدَةً » . والأئمة الأم ، يقال :
هذه أئمة زيد ، يعنى أم زيد . (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِبُهُ) يعنى العذاب ، وقالوا هذا إما تكديبا للعذاب
لتأخر عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ، أى مالى يحبه عنا . (أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا
عَنَّهُمْ) قيل : هو قتل المشركين بيد ، وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي . (وَحَاقَ بِهِمْ)
أى نزل وأحاط . (مَا كَانُوا يَسْتَزِيلُونَ) أى جزاء ما كانوا يستهزئون ، والمضاف محذوف .
قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ رَدَّعْنَاهَا مِنْهُ
إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كُفُورًا ① وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْبَاءَ بَعْدَ رَحْمَةٍ مَسَّه لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنْيَ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ② إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ③

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) الإنسان أسم شائع للجنس فى جميع
الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلة . وقيل : فى عهد الله بن أبي
(١) (يبحث فيه أئمة) لأنه كان نهرا من أديان المتركين ، وأمن بالله من الله ولم يزل يبه

آية العزيز . « رحمة » أى نعمة . (ثُمَّ زَمَنَّا مِنْهُ) أى سلبنا له . (إِنَّهُ لَيُؤَسُّ)
 أى يأمن من الرحمة (كَقُورٍ) للنم جاهد لها ، قاله ابن الأعرابي . الناس : « ليؤس »
 من يئس يئأس ، وحكى سيبويه يئس يئأس على قيل يفعل ، ونظيره حبيب يحسب ويئس
 يئس ، ويئس يئأس ، وبعضهم يقول : يئس يئس ؛ لا يصرف في الكلام إلا هذه الأربعة
 الأحرف من السالم جاءت على قيل يفعل ، وفى واحد منها اختلاف . وهو يئس و « يؤس » على
 التكسير كغفور للبالغة .

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَةً) أى محبة ورحاء وسعة فى الرزق . (بَعْدَ ضَرَاءٍ
 سَمَتْ) أى بعد ضرر وقهر وشدة . (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) أى الخطايا التى تسوء
 صاحبها من الشر والفساد . (إِنَّهُ لَفَرِحَ بُحْرًا) أى فرح وبخرا بما ناله من النعمة وليس
 شكر الله عليه ، يقال : رجل فاجر إذا انفرج - وغور للبالغة - قال يعقوب القارئ : وقرا
 بعض أهل المدينة « لفرح » بضم الراء كما يقال : رجل فطن وحذر ونفس . ويجوز فى كلتا
 التين الإسكان لتقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) أى المؤمنين ، مدحهم بالصبر على الشدائد . وهو
 فى موضع نصب . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا
 الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو استثناء من « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ » أى من
 الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو استثناء متصل
 وهو حسن . (أُولَئِكَ لَمْ يَصِفُوا) أى ابتداء وخبر . (وَأَبْرُ) معطوف . (كَبِيرٌ) صفة .

قوله تعالى : فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ
 أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
 وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشِيرَ
 سُورٍ مِثْلِهِ مَفْرَرٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَلْعَمْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

صَالِحِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَأْتَاكَ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى فلا اله لمعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تنوع أنهم يزعمونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا « لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك » هم أن يدع سب ألهم فترت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سب ألهم كما سالوك ؟ وتأكد عليه الأمر في الإيلاج ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيل : معنى الكلام الذى مع استبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشرك مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب ألهمنا لا نعتنك ، فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سب ألهم ؛ فترت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرفوع به ، والماء في « به » تعود على « ما » أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : « ضايق » ولم يقل ضيق لبشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضائق عارض ، والضيق أزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ في موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » أى لتلا تضلوا ، أو لأن يقولوا . (لولا) أى هلا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَثْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ . يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة الغزوي ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذره ، لا بأن تأتيهم بما يقرحونه من الآيات . ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشييد .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدم في « يونس » (١) أى قد أرحمت عليهم وإشكالهم في نيتك بهذا القرآن ؛ وتجيبتهم به ؛ فإن قالوا : اقترته — أى اختلقته — فليأتوا بمثله مفتحى برعهم . ﴿ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَعْطَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعران .

قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ يُسْتَجِيرُوا لَكَ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(١) في تفسيره تعالى : « أم يقولون اقراءه ... » آية ٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تنبأ لهم فقد قامت عليهم
 الحجة ؛ إذ هم الشنن البقاء ، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾
 . وأعلموا صدق محمّد ، وأعلموا ﴿ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَوْلُكُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام بمعنى الأمر .
 وقد تقدم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال :
 « قُلْ فَأْتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ ففيل : هو على تحويل المخاطبة
 من الأفراد ، إلى الجمع تعظيماً وتضخياً ؛ وقد يتخاطب الرئيس بما يتخاطب به الجماعة . وقيل :
 الضمير فى « لكم » وفى « فأعلموا » للجميع ، أى فليعلم الجميع « أُنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد .
 وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فأعلموا » للشركين ؛ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من يدعوهم
 إلى المعادنة ، ولاتيات لكم المعارضة « فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » . وقيل : الضمير فى « لكم »
 للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفى « فأعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نَفْسٌ وَآخِرُهَا
 أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١١٠﴾

فيه ثلاث مسائل ،

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ ﴾ كالت زائدة ، وهى كما جزم الجواب فقال :
 ﴿ نَفْسٌ وَآخِرُهَا ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَن كَانَ » فى موضع جزم بالشروط ، وجوابه
 « نَفْسٌ وَآخِرُهَا » أى من يكن يريد ، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ يَلْقَاهَا • وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّامِ بَسْلُمًا

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ ففيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ؛ واختاره
 النحاس ؛ بدليل الآية التى يسدها « أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آيَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى
 منهم بصلوة رجيح أو صدقة تكافئه بها فى الدنيا ، بصلصة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حصة

(١) قال فى البحر : وهى لا يصح إذا كانت زائدة لكان قبل الشرط « يريد » ؛ وكان يكون مجزئاً .

له في الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى في « براءة » مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا نُجِّلَ له الثواب ولم يُنْقَصْ شيئاً في الدنيا ؛ وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده ، ويُحْكَمُ ضميره ؛ وهذا أمر متفق عليه في الأئمة بين كل ملة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء « صُئِمَ وصَلَّتُمْ وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك » ثم قال : « إن هؤلاء أول من تُسَرِّبهم النار » . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بشدة وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا » وقرأ الآيتين ، خرج به مسلم بجمعه والترمذي أيضاً . وقيل : الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران ، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا أَوْقَى ثوابها ؛ فإن كان مسلماً مخلصاً وُقِيَ في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافراً وُقِيَ في الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بقزوه مع الهوى صلى الله عليه وسلم وثبها ، أَوْقَى أجر الثَّوَابِ ولم يُنْقَصْ منها ؛ وهذا خصوصاً للصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات » . وتلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يجمع عن رمضان ، وتدل على أن من توضأ للتبريد والتنظيف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان في معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التي في « الشورى » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدْنَاهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » قبحها وفسرها التي في « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَاجِدَةَ غَلَّظْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِئَلَّا يُرِيدَ » إلى قوله : « محطوراً » فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) راجع المسألة الثانية من تفسيره تعالى : « قل أففقوا طوعاً أو كرهاً » . آية ٤٠ .

في قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها مفسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » .
والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الإطلاق والتقييد ، ومثله قوله : « وَإِذَا نَأَى عَنِ الدَّاعِ »
عَنِ قَائِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر من إجابة كل داع دأما
على كل حال ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « قَيِّشْتُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . والنسخ
في الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبدل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛
فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذکور
في الأصول ؛ ويأتي في « النحل » ^(١) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ إشارة إلى التخلد ، والمؤمن
لا يُخلد ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » الآية . فهو
محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرأى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار في أيام
معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان ؛
وفي الحديث [المسأضي ^(٢)] يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في « النساء »
ويأتي في آخر « الكهف » . ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء ، وغيره ؛ قال أبو حاتم :
وحذف الماء ، قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ، لأنه بمعنى المصدر ؛ أي وباطل عمله .
وفي حرف أبي وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أي وكانوا
يعملون باطلا .

(١) في المسألة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن فرات النيل والأعصاب تغلفوه من سكر » آية ٦٧ .

(٢) في الأصل (المسأضي) وهو تحريف ، والمراد بالحديث المسأضي حديث أبي هريرة المتقدم في عمل المرأى

« منم ومنمتم » ... (٣) راجع ج ٥ ص ٢٢ ؛ طبعة أملا أر ٢٠٠٠

(٤) في تفسير قوله تعالى : « فمن كان يريتم لقاءه فليقبل عملا ما ... » آية ١١٠ .

قوله تعالى : **أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**
وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : **(أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ)** ابتدأه وأطبعه بحذف ؛ أي أفن كان على
 بينة من ربه في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه من الفضل ما تبين به كغيره من ربه
 الحياة الدنيا وزينتها ؟ عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن . وكذلك قال ابن زيد :
 إن الذي على بينة من أتبع النبي صلى الله عليه وسلم . **(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ)** من الله ، وهو
 النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : **« أفن كان على بينة من ربه »** النبي صلى الله
 عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : **« وَصَاحِبِي بِهِ صَدْرُكَ »** ؛ أي أفن كان معه بيان من الله ،
 ومعجزة كالتقرآن ، ومعناه شاهد بكبريل - على ما يأتي - وقد بشرت به الكتب السالفة بصدق
 صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُضَاهيه . والمساء في « ربه » تعود عليه . وقوله :
« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » روى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل ، وهو قول مجاهد والنخعي .
 والمساء في « منه » لله عز وجل ؛ أي يتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل .
 وقال مجاهد : الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويُسَدِّده . وقال الحسن البصري وفائدة :
 الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن علي بن الحنفية : قلت لأبي أنت
 الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وقيل : هو علي بن أبي طالب ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو علي بن أبي طالب ؛
 وروى عن علي أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال
 له رجل : أي شيء نزل فيك ؟ فقال علي : **« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ »** . وقيل : الشاهد هي
 صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخالته ؛ لأن من كان له فضل وعقل فسنل إلى

الذي صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالحاء على هذا ترجع إلى
الذي صلى الله عليه وسلم ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه
وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل ، فالحاء في « منه »
للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو
القرآن في التصديق ؛ والحاء في « منه » هه عنّ وجّل . وقيل : اليقينة معرفة الله التي أشرقت
لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكّب في دماغه وأشرق صدره بنوره .
(وَمِنْ قَبْلِهِ) أي من قبل الإنجيل . (تَكْتُبُ مُوسَى) رُفِعَ بِالْأَيْدِ ، قال أبو إسحق الزجاج :
والمنى يتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى
« يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ
قَبْلِهِ تَكْتُبُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوي عن الكوفي ؛ يكون معطوفا على المساء
في « يتلوه » والمنى : ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس
رضي الله عنهما ؛ المنى من قبله تلا جبريل كتاب موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره
ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرْفَع « كتاب » على أن يكون المنى : ومن قبله كتاب
موسى كذلك ؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا الفسّران على محمد . (إِنَّمَا) نصب على
الحال . (وَرَحْمَةً) معطوف . (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) إشارة إلى بني إسرائيل ، أي يؤمنون
بما في التوراة من الإشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛
جهاة القسري . والحاء في « به » يجوز أن تكون للقرآن ، ويجوز أن تكون للنبي صلى الله
عليه وسلم . (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ) أي بالقرآن أو بالنبي عليه السلام . (مِنَ الْأَحْزَابِ) يعني من
الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكذا قال سعيد بن جبّير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم
يَقْتَضِبُونَ . وقيل : قريش وحلفائهم ، (قَالَتِ الْأُمُودَةُ) أي هو من أهل البئر ؛ وأندد
حساب :

أوردتموها حياض الموت ضاحية . قائلار موعدها والموت لافئ

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني [ثم يموت] ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار " . (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ) أى فى شك . (مِنْهُ) أى من القرآن . (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبي : المعنى فلا شك فى مريية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَنُفِرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذباً ، فأضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكاً وولداً ، وقالوا للأشهاد هؤلاء شفعائنا عند الله . (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) أى يحاسبهم على أفعالهم . (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) يعنى الملائكة الحفظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال : الملائكة . الضحالك : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِرَسُولٍ مِنْ أَتَمَّةٍ يَشْهَدُ بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والمرسلون الذين بلغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلاق أجمع . وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : « وأما الكفار والمنافقون فبتأديهم على رموس الخلاق هؤلاء الذين كذبوا على الله » . (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) ، أى بعهده وتخطئه وإباده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض
فتنا للظالمين ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ، أى هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله
تعالى ، أى الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة . ﴿ وَيَفْتَنُهَا عِوَجًا ﴾ أى يبدلون
بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاذِبُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيداً .

قوله تعالى : أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ يُضَعِّفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال
آبن عباس : لم يُعْجِزُوا أن أسر الأرض فتخسف بهم . ﴿ وَمَا كَانُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أُولَئِكَ ﴾ معنى انصافاً ، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذى تقديره : أولئك لم يكونوا
معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ، وهو قول آبن عباس رضى الله
عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿ وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيتـه ما فعل
وبما فعل ، فيمضون الباء مرة ويثبتونها أخرى ، وأشد سبيو^١ه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . فقد تركت ذا مال وفا نسب .

ويجوز أن تكون « ما » ظرفاً ، والمعنى : يضاعف لهم أبداً ، أى وقت استطاعتهم السمع
والبصر ، والله سبحانه يعلمهم في جهنم مستطیع ذلك أبداً . ويجوز أن تكون « ما » نافية
لا موضع لها ، إذ الكلام قد تم قبلها ، والوقف على الصفات كافٍ ، والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الأزدی ، أراد (بالعبر) الخلف ووصل الفعل بنصب . والكتب : المال
الثابت كالضمان ونحوها . وقيل : الكتب جمع المال ، تكون حقه على الأهل بالمال ولا كفاً . (شواهد سبويه) .

يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سماعاً يتفهمون به، ولا أن يبصروا إبصاراً مهتد . قال الفراء :
ما كانوا يستطيعون السمع ؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبي
صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس :
وهذا معروف في كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك
تقبلاً عليه .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ** ﴿٣١﴾ **لَا يَحْرَمُ أَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ** ﴿٣٢﴾
قوله تعالى : **(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)** أي أفسدها وخبر . **(وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ)** أي ضاع عنهم أثمارهم وتلف .

قوله تعالى : **(لَا يَحْرَمُ)** للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « لا يَحْرَمُ » بمعنى
حق ، « فلا » و « يَحْرَمُ » عندهما كلمة واحدة ؛ و « أَتَى » عندهما في موضع رفع ؛ وهذا قول الفراء
ومحمد بن يزيد ؛ حكاه النحاس . قال المهدوي : وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا عالة ؛
وهو قول الفراء أيضاً ؛ ذكره النملبي . وقال الزجاج : « لا » هاهنا قى ؛ وهو رد لقولهم :
إن الأصنام تنفعهم ؛ كآت للمعنى لا يفهم ذلك ؛ ويحرم بمعنى كسب ؛ أي كسب ذلك الفعل
لم الإنسان ، وفاعل كسب مضمَر ، و « أَتَى » منصوبة بحرم ، كما تقول : كسب جفاؤك
زيداً غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

فصبنا رأسه في جُدع تحلى • بما حُرمت يده وما احتسبنا

أي بما كسبت . وقال الكسائي : معنى « لا يَحْرَمُ » لا صد ولا منع عن أنهم . وأبو عيل
المعنى لا قطع قاطع ، فحذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجزم القطع ؛ وقد حرم التحلل
وأجترته أي صرمة فهو جارم ، وقوم جرم وجُزأ وهذا زمن الجرام والجرام ؛ وحُرمت صوف
الشاة أي جزئها ؛ وقد حُرمت منه أي أخلت منه ؛ مثل جئت للشيء فجلت أي قطعت ؛

وجعلت الجزوراً عليها جلباً إذا أخذت ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجلته -
 ساكنة اللام - إذا أخذته أجمع، وهذه جملة الجزور - بالتحريك - أي لهما أجمع،
 قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جرم، ولا عن ذا جرم،
 ولا أن ذا جرم، قال: وناس من قرأة يقولون: لا جراثيم بغير هم. وحكى الفراء فيه
 لنتين آخرين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جرم، قال: وناس من العرب يقولون: لا جرم
 بضم الجيم.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾**

قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)** «الذين» أمم «إث» و«آمنوا» صلة، أي
 صدقوا. **(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)** عطف على الصلة. قال ابن عباس:
 أخبتوا اتابوا. مجاهد: اطاعوا. قتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: اخلصوا. الحسن:
 الإخبات انشروع للراحة النابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من اتخبت وهو
 الأرض المستوية الواسعة؛ فالإخبات انشروع والاطمئنان، أو الإجابة إلى الله من وجل
 المستمرة ذلك على استواء. «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون
 المعنى: وجهوا إخبارهم إلى ربهم. **(أُولَٰئِكَ)** خبر «إِنَّ».

قوله تعالى: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾**

قوله تعالى: **(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ)** ابتداء، والخبر **(كَالْأَعْمَىٰ)** وما بعده. قال الأخفش:
 أي كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى]، والأصم، ومثل فريق
 المؤمن كالسميع والبصير، ولهذا قال: **(هَلْ يَسْتَوِيَانِ)** فرد إلى الفريقين وهما أثنان؛
 (١) الزيادة من النحاس.

وروى عنه عن قتادة وغيره . قال الضحاك : الأعمى والأصم مثل للكافر . والسميع والبصير مثل للؤمن . وقيل : للمعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصم والسميع .
(مثلاً) منصوب على التمييز . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) في الوصفين وتظنون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٥﴾
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ آلِيسَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ) ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفبه الله أمرهم .
(إني) أي فقال : إني ؛ لأن في الإرسال معنى القول . وقرا ابن كثير وأبو عمرو والكسائي « أَنِّي » بفتح الهمزة ؛ أي أرسلناه إني لكم نذير مبين . ولم يقل « أَنَّهُ » لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه ؛ كما قال : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْبُوتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » ثم قال : « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » .
قوله تعالى : (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أي أتركوا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرا « إني » بالكسر جعله معترضا في الكلام ، والمعنى أرسلناه ألا تعبدوا [إلا الله] . (إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ آلِيسَ) .

قوله تعالى : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَدُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَدُّكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَيْدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَمِثْلَيْنِ ﴿٣٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَقَالَ الْمَلَأُ) قال أبو إسحق الزجاج : الملا الرؤساء ؛ أي هم ملئون بما يقولون . وقد تقدم هذا في « البقرة » وغيرها . (مَا تَرَدُّكَ إِلَّا بَشَرًا) أي (١) قال ابن حلية : وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية غاطية لقومه ؛ وليس هذا حقيقة الخارج من غيبة إلى غاطية ؛ بل كان الكلام أن أهدم أرواحهم لصح ذلك .
(٢) راجع ج ٣ ص ٢٤٢ طيبة أملا وثانية .

أدبياً. (مَنْعًا) نصب على الحال، وه مثلنا « مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين »
كما قال الشاعر :

• يَأْرُبُ مِنْكَ فِي النَّفْسِ غَيْرَةٌ •

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَزَّلْنَا بِكِ إِلَّا الْقُرْآنَ ﴾ أَرَادَ جَمْعَ أَرَادَ
وَأَرَادَ جَمْعَ رَدَّلَ ، مثل كَتَبَ وَأَكْتَبَ وَأَكَلَبَ . وقيل : الأَرَادَ جَمْعَ الأَرَدَ ، كَأَسَاوَدَ
جَمْعَ الأَسْوَدَ مِنَ الْحَيَاتِ . وَانْزَلَّ النُّزْلَ ؛ أَرَادُوا أَتَبِعَكَ إِخْسَافًا وَسَقَطًا وَسَفْطًا . قَالَ
الزَّجَاجُ : نَسَبُوهُمْ إِلَى الْحَيَاكَةِ ؛ وَلَمْ يَمْنُوا أَنَّ الصَّنَاعَاتِ لَا تُزِلُّهَا فِي الدِّيَانَةِ . قَالَ النَّحَّاسُ :
الْأَرَادَ هُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَالَّذِينَ لَا حِسَبَ لَهُمْ ، وَالْحَسْبُ الصَّنَاعَاتِ . وَفِي الْحَدِيثِ " إِنْهُمْ كَانُوا
حَاكَّةً وَتَجَامِينًا " . وَكَانَ هَذَا جَهْلًا مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ عَابُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَا عَيْبَ
فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْبَاهِيَةِ وَالْآيَاتِ ،
وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ تَغْيِيرُ الصُّوَرِ وَالْمِثَالِ ، وَهُمْ يَرْسِلُونَ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا ، فَإِذَا أَسْلَمَ مِنْهُمْ النَّاسُ
لَمْ يَلْعَقْهُمْ مِنْ ذَلِكَ نَقْصَانٌ ؛ لِأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْبَلُوا إِسْلَامَ كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ .

قلت : الأَرَادَ هُنَا هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالضُّعْفَاءُ ؛ كَمَا قَالَ هِرَقْلٌ لِأَبِي سَفْيَانَ : أَشْرَافَ النَّاسِ
أَتَبِعُوهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ ؟ فَقَالَ : بَلِ ضَعْفَاؤُهُمْ ؛ فَقَالَ : هُمْ أَتْبَاعُ الرَّسْلِ . قَالَ عَلَمَانُ : إِنَّمَا
كَانَ ذَلِكَ لَاسْتِغْلَاءَ الرِّيَاسَةِ عَلَى الْأَشْرَافِ ، وَصُوبَةِ الْإِنْفِكَالِ عَنْهُمْ ، وَالْأَنَفَةِ مِنَ الْإِقْتِيَادِ
لِلْفَقِيرِ خَلْفًا عَنْ تِلْكَ الْمَوَانِعِ ، فَهُوَ مَرِيعٌ إِلَى الْإِجَابَةِ وَالْإِقْتِيَادِ . وَهَذَا غَالِبُ أَحْوَالِ
أَهْلِ الدُّنْيَا .

الثالثة - اختلف العلماء في تعيين السَّفَلَةِ عَلَى أَقْوَالٍ ؛ فَذَكَرَ بَعْضُ الْمُبَارَكِ مِنْ سَفْيَانَ
أَنَّ السَّفَلَةَ هُمُ الَّذِينَ يَتَّقِلُونَ ^(١) ، وَيَأْتُونَ أَبْوَابَ الْقَضَاةِ وَالسَّلَاطِينِ يَطْلُبُونَ الشَّهَادَاتِ .

(١) هُوَ أَمْرٌ عَجِيزٌ يَتَّقِلُ ، وَتَمَامُ الْهَيْئَةِ

• يَبْذُلُ لَهُ مَتْنًا بِطَلَقٍ •

الْمُرِيدُ : الْمُرَّةَ بَيْنَ الْهَيْئَةِ وَمَتْنَهَا ؛ أَعْلَامًا مَا تَسْمَعُ بِهِ هَذِهِ مَلَاتِيهَا •

(٢) التَّقْلُسُ ؛ اسْتِغْلَاءُ الرِّيَاسَةِ مِنْ لَدُنْهُمْ بِأَصْنَافِ الْهُوَرِ •

رقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السَّفلة الذي يأكل الدنيا بدنيه؛ قيل له: فمن سفلة السَّفلة؟ قال: الذي يُصلح دنياه غيره بفساد دينه. وسئل على رضي الله عنه عن السَّفلة فقال: الذين إذا أجنبوا غلبوا، وإذا خففوا لم يبرفوا، وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه: من السَّفلة؟ قال: الذي يسب الصحابة. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأرذلون الحماكة والجمامون. يحيى بن أكرم: الدُّبَّاع والكَّاس إذا كان من غير العرب.

الرابعة - إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفلة، فقال: إن كنتُ منهم فأنيت طالق؛ فحكى النقاش أن رجلاً جاء إلى الترمذی فقال: إن امرأتی قالت لی يا سَفلة، فقلت: إن كنتُ سَفلة فأنيت طالق؛ قال الترمذی: ما صاعتك؟ قال: سمأك؛ قال: سَفلة والله، سَفلة والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك من سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابي لا يلزم شيء.

قوله: تصالي: (بأدب الرأي). أي ظاهر الرأي، ويأطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدأ يسدو إذا ظهر؛ كما قال:

• قال يوم حين بدون للنظار •

ويقال للبرية بادية لظهورها. وبدأ لي أن أقبل كذا، أي ظهر لي رأي غير الأول. وقال الأزهري: معناه فبايسدو لنا من الرأي. ويموز أن يكون «بأدب الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهزمة. وحق أبو عمرو الهزمة فقرأ «بأدب الرأي» أي أول الرأي؛ أي أتبعوك حين أتبدوا ينظرون، ولو أمتنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى هنا بالهمز وترك الهزمة. وانتصب على حذف «في» كما قال عز وجل: «وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ». (وما ترى لكم علينا من فضل) أي في أتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوته. (بل نطقكم كاذبين) الخطاب لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى : قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنْتَ رَحِمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْهِمْ أَفَلَا تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ لَمَّا كَذَبْتُمْ هُمْ وَيَقُولُ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا آتَانَا يَبْطِئُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنَّهُمْ لَمُتَّقُونَ رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا يَمُجِّلُونَ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَتُوبُ لَكُمْ عِنْدِي تَزَايُنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي) أى على يقين ، قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على معجزة ، وقد تقدم في « الأنعام » هذا المعنى . (وَأَنْتَ رَحِمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ) أى نبوة ورسالة ، عن ابن عباس ، وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالهداية . وقيل : الإيمان والإسلام . (فَعُمِيتَ عَلَيْهِمْ) أى غيبت عليهم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : غيبت عن كذا ، ونمى على كذا أى لم أفهمه . والمعنى : فغيبت الرحمة ، بقيل : هو مقلوب ، لأن الرحمة لا تمنى إنما يرمى عنها ، فهو كقولك : أدخلت في القلنسوة رأسى ، ودخل الخلف في رجل . وقراها الأعشى وحمة والكسائي « فَعُمِيتَ » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله ، أى فعماها الله عليكم ، وكذا في قراءة ابن « فعماها » ذكرها المأوردى . (أَفَلَا تَكْفُرُونَ) قبل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ، أى أكرمكم قبولها ، وأوجبها عليكم ؟ ! وهو استنفهام بمعنى الإنكار ، أى لا يمكن أن أضطرركم إلى المعرفة بها ، وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ . وَحَسَى الْكَسَافُ وَالْفَزَاءُ « أَنْتُمْ مَكُونُهَا » . بِإِسْكَانِ الْمِيمِ الْأُولَى تَخْفِيفًا ؛ وَقَدْ أَجَازَ
مِثْلَ هَذَا سَبِيحُهُ ، وَأَشَدُّ :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْفٍ • إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَائِلَ

وقال النحاس : وَيُجَوِّزُ عَلَى قَوْلِ يُونُسَ [فِي غَيْرِ الْفَرَّانِ] أَنْ تَزِيحُهَا بِحُرَى الْمُضْمَرِ بِحُرَى
الْمُظْهَرِ ، كَمَا يَقُولُ : أَنْزَلَكُمْ ذَلِكَ ، (وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) أَيْ لَا يَصِغُ قَبُولَكُمْ لَهَا مَعَ الْكَرَاهَةِ عَنْهَا .
قَالَ قَتَادَةُ : وَاقِهِ لَوْ اسْتَطَاعَ نَجَى اللَّهُ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَزْلَمِهَا قَوْمَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ ذَلِكَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ) أَيْ عَلَى التَّبْلِغِ ، وَالِدَمَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ
(مَا لَا) يُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ ، (إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ) أَيْ ثَوَابِي فِي تَبْلِغِ الرِّسَالَةِ .
(وَمَا أَنَا بِطَّائِرٍ الَّذِينَ آمَنُوا) سَأَلُوهُ أَنْ يَطْرُدَ الْأَرَاذِلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، كَمَا سَأَلَتْ قَرِيشُ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْرُدَ الْهَوَالِي وَالْفُقَرَاءَ ، حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ « فِي الْأَنْعَامِ » ، بَيَانُهُ ، فَأَجَابَهُمْ
بِقَوْلِهِ : (وَمَا أَنَا بِطَّائِرٍ الَّذِينَ آمَنُوا) إِيَّاهُمْ مُتَلَفُوا رَيْبَهُمْ (يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ هَذَا عَلَى وَجْهِ
الِإِعْظَامِ لَهُمْ بَقَاءِ اللَّهِ حَرًّا وَجَلًّا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ عَلَى وَجْهِ الْاِخْتِصَامِ ؛ أَيْ لَوْ فَعَلْتُ
ذَلِكَ تَخَاصُمُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ ، وَيَجَازِي مِنْ طَرْدِهِمْ . (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا
يَجْهَلُونَ) فِي اسْتِزْكَالِكُمْ لَهُمْ ، وَسُؤَالِكُمْ طَرْدَهُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ) قَالَ الْفَزَاءُ : أَيْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِهِ .
(إِنْ طَرَدْتَهُمْ) أَيْ لِأَجْلِ إِيْمَانِهِمْ . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أَدْعَمْتُ الشَّاءَ فِي الْقَدَالِ . وَيُجَوِّزُ
حَذْفُهَا فَيَقُولُ : تَذَكَّرُونَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي تَحَرُّيْتُ اللَّهَ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَتَوَاضَعَهُ اللَّهُ
حَرًّا وَجَلًّا ، وَأَنَّهُ لَا يَدْعَى مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ تَحَرُّاتٍ لِلَّهِ ، وَهِيَ إِعْظَامُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ؛

(١) الْبَيْتُ لِأَمْرِهِ الْقَدِيسِ ، وَالشَّاهِدُ فِيهِ تَسْكِينُ الْبَاءِ مِنْ قَوْلِهِ (أَشْرَبَ) فِي حَالِ الِزْفِ وَالْوَصْلِ . احْتَسَبَ الْإِيمَانُ
وَاسْتَحَقَّهِ احْتِصَالُهُ . وَالْوَرَاذِلُ الْهَاطِلُ عَلَى الشَّرَابِ وَهُوَ يَدْعُو لَهُ . يَقُولُ : حَلَّتْ لِي الْخَمْرُ فَلَا أَشْرَبُ بِهَا إِذْ قَدْ وَفَّيْتُ
بِذَنْبِي فِيهَا . وَكَانَ قَدْ تَلَوَّ الْأَشْرِبَةَ حَتَّى يَدْرِكَ تَأْرَابَهُ .

(٢) الزِّيَادَةُ مِنَ النِّحَاسِ . (٣) رَاجِعٌ جَدُّهُ ٦٣١ مَعَ حَذْفِ طَبْعَةِ أَمْلٍ إِذَا كَانَتْ .

وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل . (وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) أى لا أقول إن منزلي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : القائفة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ؛ لدوامهم على الطاعة ، وأتصال عبادتهم إلى يوم القيامة ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ) أى تستقل وتحترق أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذف الهاء والميم لطول الأسم . والقال ببدلة من تاء ؛ لأن الأصل في تزدري تزدري ، ولكن التاء تبدل بعد الزاى دالا ؛ لأن الزاى بجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من غيرهما . ويقال : أزدريت عليه إذا عنته . وذريت عليه إذا حقرت . وأشد الفراء .

يُأَعِدُّهُ الصَّادِقُ وَتَزْدِرِيهِ . حَلِيلُهُ وَيُتَبِّرُهُ الصَّغِيرُ

(لَنْ يُؤْمِنَهُمْ اللَّهُ خَبْرًا) أى ليس لاحتماركم لم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم . (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) فبجازيهم عليه ويؤاخذهم به . (إِنْ إِذَا بَيْنَ الظَّالِمِينَ) أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وإنا » ملغاة ؛ لأنها منسوبة .

قوله تعالى : قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ إِنَّمَا بَأْتَكُمْ بِهِ اللَّهُ بِمَا شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَرْتَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَأْيِ تِمَّ تَجْعِرُمُونَ

قوله تعالى : (قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا) أى غاصبتنا فأكثرنا خصومتنا وبالت فيها . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ؛ مشتق من الجدل

وهو شلة القتل، ويقال للصفر أيضاً أجدل لشدة الطير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنام»^(١)
 بأشبع من هذا. وقرا ابن عباس « فَأَكْثَرْتَ جَدْنَا » ذكره النحاس. والجدل في الدين
 مجود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فن قيله نجح وأفلح، ومن رده
 خاب وخسر. وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق مذموم، وصاحبه
 في الثارين ملوم. (فَأَيُّهَا يَمُتَدُّ) أي من العذاب. (إِنْ كُنْتُ مِنَ الْبَادِيَيْنِ) في قولك .
 قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ) أي إن أراد إهلاككم عذبتكم .
 (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أي بقاتين . وقيل : ببالغين بكمركم، لأنهم أعجبوا بذلك، كانوا
 ملكوا الأرض سهلاً وجبلاً على ما يأتي .

قوله تعالى : (وَلَا يَتَّبِعْكُمْ نَصِيحِي) أي إبلاغي وأجتهادي في إيمانكم . (إِنْ أَرَدْتُ
 أَنْ أَتَّصِحَ لَكُمْ) أي لآتم لا قبلون نصحا؛ وقد تقدم في «براءة» معنى النصيح لغة. (إِنْ كَانَ
 اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَوِّغَكُمْ) أي يضلكم . وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن
 وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يمضي العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يهوى
 التاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فرد الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
 يُبَوِّغَكُمْ »^(٢) . وقد مضى هذا المعنى في «الفاحة» وضميرها . وقد أكذبوا شيخهم السنين إبليس على
 ما يتناه في «الأعراف» في إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « قَبِّأَ أُغْوَيْتَنِي » ولا يحصى
 لهم من قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَوِّغَكُمْ » فاضاف إغواهم إلى الله
 سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي المضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علواً كبيراً .
 وقيل : « أَنْ يُبَوِّغَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يفضي إلى الهلاك . الطبري : « يبوغكم »
 يهلككم سذابه؛ حكى عن طيء : أصبح فلان غاوياً أي مريضاً، وأغويته أهلكتهم؛ ومنه
 « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . (هُوَ رَبُّكُمْ) فإليه الإغواء، وإليه الهداية . (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
 تهديد ووعيد .

(١) رابع ٧ ص ٧٧ طيبة أول أو ثانية . (٢) في تفسير قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ... »
 آية ٩٥ (٣) رابع ٦ ص ٩٩ طيبة ثانية أو ثالثة ؛ ٤ ص ٢٠ طيبة أول أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَكْفَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . أتدري أفضل ؟
 أى اختلق القرآن من قبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ، قاله مقاتل . وقال ابن
 عباس : هو من محادثة نوح لقومه وهو أظهر ؛ لأنه لبس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛
 فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِّي أَكْفَرُهُ ﴾ أى اختلقته واتصلته ، بنى الوحى والرسالة . ﴿ قُلْ
 إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى عقاب إبراهيم ، وإن كنت محققا فيما أقوله فليسكم عقاب تكذيبى . والإجماع
 مصدر أجرم ؛ وهو انتراف السيئة . وقيل : المعنى أى جزاء جزئى وكفى . وجرم وأجرم
 بمعنى ؛ عن الناس وغيره . قال :

طريد شعية ودهيت جرم • بما جرئت يدى وقبح لبانى

ومن قرأ « وإبراهيم » بفتح الميم ذهب إلى أنه جمع جرم ؛ وذكره الناس أيضا . ﴿ وَأَنَا
 بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحَ إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن
 قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعُ سَبِيلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ١١١ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَنِّطْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ ١١٢

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحَ إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ « أنه »
 فى موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسم فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون
 التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « يؤمن » ومعنى الكلام الإجابة من إيمانهم ،
 واستدماة كفرهم ، تحقيقا لقول الوعيد بهم . قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال :
 « رَبِّ لَا تَقْرَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح
 حل أبته على كنفه ، فلما رأى الصبي نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا ؛ أعطاه حجرا ، ورى
 به نوحا عليه السلام فادماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ

آمن» . (لَا تَقْتُلُوا نَفْسًا كَانَتْ بِكُمْ حَتَّى تَكُونَ بِالنَّاسِ أَى حَزِينًا .
وَالْبُؤْسَ الْحَزِينَ) ومنه قول الشاعر :

وَكَمْ مِنْ خَلِيلٍ أَوْ حَمِيمٍ رُزِنَتْهُ • لَسْمَ ابْتِلَاسٍ وَالرُّزْدُ فِيهِ تَجَلُّلٌ
يقال ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتأس حزن في أمثاله .

قوله تعالى : (وَأَصْبَحَ الْفُؤَادُ يَافِيئًا وَوَحِيئًا) أى أجعل السفينة تركبها أنت ومن آمن
معه . «يا عيننا» أى برأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : يحفظنا إياك حفظ
من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحر استأنا والمنى واحد ، فغير من الرؤية
بالأعين ، لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير ، كما قال تعالى : «فَتَنِمَّ
الْقَائِدُونَ» . «فَتَنِمَّ الْمُسَاهِدُونَ» . «وَالْمُؤَسِّمُونَ» . وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية
وغيرها إلى معنى عين ، كما قال : «وَلَوْصَحَّ عَلَّ عَيْنِي» وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة ،
وهو سبحانه مفرغ من الحواس والتشبيه والتكييف ، لا رب غيره . وقيل : المنى «يا عيننا»
أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك ، فيكون الجمع على هذا التكثير
على بابيه . وقيل : «يا عيننا» أى بلساننا ، قاله مقاتل : وقال الضحاك وسفيان : «يا عيننا»
بأصنافنا . وقيل : «يوحينا» . وقيل : بمعونتنا لك على صنمها . «ويوحينا» أى على ما أوحينا
إليك من صمتها . (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الدِّينِ غَالِمُونَ إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ) أى لا تطلب إيمانهم لأن
مُفْرَقِهِمْ .

قوله تعالى : . وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ بَخِرُوا
مِنْهُ . قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٦٧﴾ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ حَتَّى إِذَا
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَصَّعَ الْفُلْكَ ﴾ أى وطلق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يفرس الشجر ويقطعها ويبيعها ، ومائة سنة يعملها . وروى ابن القاسم عن ابن انرس عن مالك قال : بلغني أن قوم نوح ملأوا الأرض ، حتى ملأوا السهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن يزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصدوا إلى هؤلاء ، فكثرت نوح يفرس الشجر مائة عام لئلا يفسد السيفينة ، ثم جمعها ببيعها مائة عام ، وقومه يسخرون ، وذلك لما رآه يصنع من ذلك ، حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينة بفراع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لما استنقذ الله سبحانه وتعالى من الأصلاب والأرغام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بتجار ، قال : « بل فإن ذلك يعني » فأخذ القوم لعمله بيده ، وجعلت يده لا تمحط ، بلغوا يمزون به ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي صار تجارا ، فعلمها في أربعين سنة .

وحكى التلمی وأبو نصر القشیری عن ابن عباس قال : اتخذ نوح السفينة في ستين ، زاد التلمی : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن أصنعها بكمؤجزة الطائر . وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدي : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلم كيف يصنعها ، وأخذوا في طولها وعرضها ، فمن ابن عباس رضي الله عنهما كان طولها ثمانية ذراع ، وعرضها خمسون ، وسبكها ثلاثون ذراعا ، وكانت من خشب الساج . وكذا قال الكلبي وقتادة وعكرمة كان طولها ثمانية ذراع . واللقماني قال : المنيك قاله سلمان القارسي . وقال الحسن البصري : إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ثمانمائة ذراع . وحكاه التلمی في كتاب العرائس . وروى جلي بن زيد عن يوسف بن مهزيان عن ابن عباس قال قال الحواريون ليعسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يمددنا عنها ، فأطلق بهم حتى انتهى إلى كتييب من زاب فأخبر كفا من ذلك التراب ، قال أندرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هذا كتب سام بن نوح] قال فصرب الكتيب بمصره
وقال : قم بواذن الله فلذا هو قائم بنفض التراب من رأسه ، وقد شاب ، فقال له عيسى :
أهكذا هلكت ؟ قال : لا بل مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شئت . قال :
أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ،
وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير .
وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكوفي في حكاية النقاش : ودخل
الماء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ، باب فيه السباع والطير ، وباب فيه الوحش ،
وباب فيه الرجال والنساء . ابن عباس : جعلها ثلاث بطون ، البطن الأسفل للوحش
والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه
جسد آدم عليه السلام مقترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعد بيت المقدس ، وكان إبليس
صههم في الكوثر . وقيل : جاءت الحية والقرب للدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ،
لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فغاثا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضر أحداً ذكرك ، فن
قرأ حين يخاف مضرتهما « سلام على نوح في العالمين » لم تضره ، ذكره القشيري وغيره .
وذكر الحافظ بن حبان في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « من قال حين يمسي صلى الله على نوح وصل نوح والسلام لم تلدغه عقرب
تلك الليلة » . قوله تعالى : (وَكُنَّا) ظرف . (مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ تَخَبُّرًا مِنْهُ) .
قال الإخفش واليساقي يقال : تخبرت به ومنه . وفي تخبرتهم منه قولان : أحدهما - أنهم
كانوا يرونه يبنى سفينة في البر ، فيسبحون به ويستنزهون ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوة
نجارا . الثاني - لما رأوه يبنى السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يا نوح

(١) كذا في الطبري والهر الشور والكتاف ، وفي الأصل (قبر سام بن نوح) .

(٢) جاء في البحر : واختفرا في هيتا من التزييع والظول ، وفي مقصدارة : عملها ، وفي المكان الذي حملت
فيه ، ومقدار طولها ومنه على أقوال متعارفة لم يصح منها شيء .

وقال الشعر الرأزي : أعلم أن هذه المياست لا تمضي ، لأنها أمور لا حاجة إل معرفتها آتية ، ولا يشق معرفتها
قائمة أصلا . (٣) الكوثر : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون وناتهم . وقيل : هو المكان م

ما تصح ؟ قال : أبنى بيتا يمشى على الماء ؛ فصبروا من قوله وصبروا منه . قال أين عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ؛ فلذلك صبروا منه ؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان . (قَالَ إِنْ تَسْحَرُوا مِنَّا) أى من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . (فَإِنَّا نَسْحَرُمِنْكُمْ) فلذا عند الفرق . والمراد بالسحرة هنا الاستجهاال ؛ ومعناه إذا تسجھلونا فإننا نستجھلکم كما تسجھلونا .

قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) تهديد ، و « مَنْ » متصلة بـ « سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التصدي إلى مفعول ؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مَنْ » استهلامية ؛ أى أينما يأتيه العذاب ؟ . وفيل : « مَنْ » في موضع رفع بالأشهاد و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكشاف أن أناسا من أهل الجواز يقولون : سوف تعلمون ؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفَ تعلمون ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وتستعمل لثان ليست إحداها من الأخرى . (وَتَجِلُّ عَلَيْهِ) أى يحس عليه ويقل به . (عَذَابٌ مُّهِيمٌ) أى دائم ، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ) اختلف في التنور على أنوال صبة ، الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن حنينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت ومن معك . الثانى — أنه تنور النبل الذى يخبز فيه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان لحذاء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فأركب أنت وأصحابك . وأنبأ الله الماء من التنور ، فصامت به أمهاته فقالت : يا نوح فار الماء من التنور ؛ ففعل : جاء وحده ربي حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله عطاء وعطية عن ابن عباس : الثالث — أنه (١) ورد في القرآن ؛ فله قالوا سويكون لحفوا اللام ؛ وما يكون لحفوا اللام ؛ يقولوا الذين طلب الناقة

وسفي يكون لحفوا الذين .

موضع اجتماع الماء في السفينة ؛ عن الحسن أيضا . الرابع - أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح ؛ من قولهم نور الصبح تنورا ؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الخامس - أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علي بن أبي طالب أيضا ؛ وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية النور بالكوفة . وقال : أخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان النور على يمين النازل مما على حكمة . وكان فوران الماء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فَارْتَوُّهُمْ وَجَاشَ بِمَاءٍ • صَارَ فَوْقَ الْجِبَالِ حَتَّى عَلِمَا

السادس - أنه أحاط الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع - أنه العين التي بالجزيرة « عين الورد » رواء عكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تور آدم ، وإعساكن بالشام بموضع يقال له « عين وردة » . وقال ابن عباس أيضا . فارتو تور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمنافضة ، لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء ، الأرض ؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة . والقولان القيان ، والتور أسم إجمعي عربيته العرب ، وهو على بناء ففعل ؛ لأن أصل بناءه ففر ، وليس في كلام العرب نون قبل راء . وقيل : معنى « فارتو » التثليل لحضور المذابح ؛ فكولم يحيى الوطيس إذا أشند الحرب . والوطيس التور . ويقال : فارت قدر القوم إذا أشند حربهم ؛ قال شاعرهم :

رَكِمَ قَدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَا • وَقَدَّرَ الْقَوْمَ حَامِيَةً تَقُورُ

قوله تعالى : (قُلْنَا اهْبِثْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) يعني ذكرًا وأنثى ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان . وقرا حفص « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » بتثنية « كل » أي من كل شيء ، زوجين . والفراءتان ترجمان إلى معنى واحد معه آخر لا يستغنى عنه . ويقال نكثين : هما زوجان ، في كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن الرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعل إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حمام ، وعلبه زوجا

قيود ، قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ حَقَّ الزُّبُورِ لَكَ وَالْآخِ » . ويقال للمرأة هي زوج الرجل ، والرجل هو زوجها ، وقد يقال للثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى القهرين والتسعين ، وكل ضرب يدعى زوجا ، قال الله تعالى : « وَأَنبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْعًا » . أى من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكل زوج من الديساج يآسره • أبو قدامة عجز بذلك معا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » في موضع نصب بـ « أحمل » . « من » . « اثنين » تأكيد . (وَأَهْلَكَ) أى وأحمل أهلك . (إِلَّا مَنْ سَبَقَ) . « من » في موضع نصب بالاستثناء . (عَلَيْهِ الْقَوْلُ) منهم أى بالهلاك ؛ وهو أبنة كتمان وأمراته وإعله كانا كافرين . (وَمَنْ آمَنَ) قال الضحاك وابن جرير : أى أحمل من آمن بى ، أى من صدقت ، فـ « مَنْ » في موضع نصب بـ « أحمل » . (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بيته ، سام وحام وياث ، وثلاث كائن له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية التمانين بناحية الموصل . وورد فى خبر أنه كان فى السفينة ثمانية أناس ؛ نوح وزوجه غير التى عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ، وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جرير وعبد بن كعب ، فأصاب حام أمراته فى السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده أذانهم ، وأنهم حينئذ كان ولده يكونون عيينا لولد سام وياث . وقال الأعشى : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأته نوح . وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نساءهم ؛ نوح وبنوه سام وحام وياث ، وستة أناس من كل آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قَلِيلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة فى دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون فيهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما وإلا ، أوجب لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

قوله تعالى : وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّبْنَاهَا وَمُرْسَهَهَا إِنْ رَجَبٌ
لِنَفْثٍ رَجِيمٍ ﴿١١﴾ وَيَمَى تَجْرَى بَيْنَهُمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ
وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعْنًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾
قَالَ سَافِرٌ إِلَيَّ جَبَلٌ يَعْصِي مِنِّي أَمْرًا قَالِ لَا عِصْمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ
اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ
يَتَارِضُ آبِلَئِي مَاءً لِي وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَيَغِيضُ الْمَاءُ وَيُفْضِي الْأَمْرُ
وَأَسْتَوْتُ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) أمر بالركوب ، ويُحتمل أن يكون من الله تعالى ،
ويُحتمل أن يكون من نوح لقومه ، والركوب الملق على ظهر الشيء ، ويقال : ركبته الدين .
وفي الكلام حذف ؛ أي أركبوا الماء في السفينة . وقيل : المعنى أركبوها ، و « في » للتأكيد
كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وقائدة « في » أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها
لا على ظهرها . قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لمشرخلون من رجب ،
وَأَسْتَوْتُ عَلَى الْجُودَى لمشرخلون من الحرم ؛ فذلك ستة أشهر ؛ وقاله قتادة وزاده ؛ وهو يوم
عاشوراء ؛ فقال ابن كان معه : من كان صائما فليتم صومه ، ومن لم يكن صائما فليصمه ، وذكر
الطبري في هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب في السفينة أول يوم في رجب ،
وصام الشهر أجمع ، وجرى بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أُرْسِتْ عَلَى الْجُودَى ، فصامه
نوح ومن معه . وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة ،
ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد دفعها الله عن الترق فلم يثابها غرق ، ثم مضت إلى اليمن ،
ورجعت إلى الجودى فاستوت عليه .

قوله تعالى : (وَبِسْمِ اللَّهِ تَجْرِبْنَاهَا وَمُرْسَاهَا) قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم
فيهما إلا من شذ ، على معنى بسم الله إجرأها وإرساؤها ، فُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا في موضع رفع

بالابتداء ؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب ، ويكون التصدير : بسم الله وقت إجرائها
ثم حذف وقت ، وأقيم « مجراها » مقامه . وقرا الأعمش وحزمة والكان « بسم الله مجريها »
بفتح الميم و « مرساها » بضم الميم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب
« بسم الله مجراها ومرساها » بفتح الميم فيها ؛ على المصدر من جرت تجرى جريا وتجرى ،
ورست رسوا وسترسي إذا ثبتت . وقرا مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبو جوا
المطاردى « بسم الله مجريها ومرسيها » نعت لله عز وجل في موضع جر . ويجوز أن يكون
في موضع رفع على إخبار مبتدأ ؛ أي هو مجريها ومرسيها . ويجوز النصب على الحال . وقال
الضحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مرساها
رست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن حكيم عن الحسين بن علي عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « أمان لأمتي من الترق إذا ركوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم
« وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه
سبحانه وتعالى عما يشركون » « بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » . وفي هذه
الآية دليل على ذكر السلسلة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيناه في السلسلة ، وأحمد الله . (إن ربي
لغفور رحيم) أي لأهل السفينة . وروى من ابن عباس قال : لما كثرت الأرواح والأفئدة
أوحى الله إلى نوح أعجز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الزوث ، فقال نوح :
لو غرزت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فار وفارة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها
تقرضها ، وتقرض الأمتة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ، فأوحى الله إلى نوح أن أمسح
بجبهة الأسد لمسحها ، فخرج منها ستوران فأكلا الفرة ، ولما حل الأسد في السفينة قال ه
يارب من أين أطعمه ؟ قال : سوف أناضله ، فأخذته أطعم ، فهو الدهر محوم . قال ابن عباس :
وأزل ما حل نوح من البهائم في الفلك حل الأوزة ، وأحرما حل الحمار ، قال : وتلقى
إيليس بذنبه ، وبنده قد دخلنا في السفينة ، ورجلاه خارجة يمسد ، فحمل الحمار بضطربة

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : أدخل ويحك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : أدخل ويحك ! وإن كان معك الشيطان ؛ كلمة زلت على لسانه ، فدخل ووب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يغنى في السفينة . فقال له : يا لعين ما أدخلك بيتي ؟ ! قال : أنت أذنت لي ، فذكر له ؛ فقال له : قم فاترج . قال : مالك بقى أن تعطيني معك ؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك ، وكان مع نوح عليه السلام خريزتان مضيئتان ، واحدة مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر . أبى عباس : إحداهما بيضاء كياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا ظلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا ظلب بياض هذه سواد هذه ؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمْحِجْ بِرَسْمٍ فِي مَوْجٍ كَأَمْحِجَالٍ ﴾ الموج جمع موجة ؛ وهي ما ارتفع من جلة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهي في موضع خفض نعمت للوج . وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بحضة عشر ذراعا . ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ قيل : كان كافرا وأسمه كتمان . وقيل : يام . ويموز على قول سيويه « ونادى نوح ابنه » بحذف الواو من « ابنه » في اللفظ ، وأنشد :

• لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَبِيحُ حَادٍ •

فأما « وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ » فقرة شاذة ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تمحوز على أنه يريد « ابنها » لحذف الألف كما تقول : « ابنه » ؛ فنحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿ وَكَانَ فِي مَقِيلٍ ﴾ أي من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن ابنه كان كافرا ، وأنه

(١) البيت شاذ ؛ ولشاذ في « كأنه » حيث حذف الواو ضرورة ، ونحوه :

• إِذَا طَلَبَ الرُّسَيْفَةَ أَوْ زَيْبَ •

يعني جار وحسن حاجبا يطلب وسينه ، وهي أثناء التي يضيها ويجمعها ؛ من رست التي ، أي جمته . (دراود سيويه) .

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وسيأتي . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم النور؛ وقبل رؤية اليأس ، بل كان في أول ما فار التور، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم ﴿يَا بَنِيَّ ارْكَب مَعَنَا﴾ ففتح الياء، والباقيون بكسرها . وأصل « يا بني » أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير، وياء الفصل، وياء الإضافة؛ فادغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الزاء في هذا الموضع، وهذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا خلفه الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الزاء . قال النحاس: أما قراءة عاصم فشككة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بنيّاهم يحذف؛ قال النحاس: رأيت علي بن سليمان يلحبه إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحدا من النحويين جواز الكلام في هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا: « يا وَيْلًا » وكذا قال الشاعر:

• يَا عَجَبًا مِنْ رَحَلَهَا الْمُتَحَمِّلِ •

فيريد يا بنيّاهم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جادى عبدا لله في التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ أَيُّ أَرْجِع وَأَنْضَم﴾ (إلى جبل يمضي) أي بمعنى من المساء فلا أغرق . ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه المذابح على الكفار . وأتعب «عاصم» على التبرئة، ويجوز «لا عاصم اليوم» تكون لا بمعنى ليس . ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي لكن من رحمة الله فهو حصصه؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم، مثل «ماد فائق» أي مدقوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بطي القبايع وخيم الكلا . ع أمسي فؤادي به فليس

أى مفتونا . وقال آخر :

دج المصكارم لا تهض لبغيها . وأفعد فأنت أنت الطاعم الكايسي

أى الملعوم المكسور . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون «من» في موضع رفع ، بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراسم ؛ أى إلا الله . وهذا اختيار الأنطبرى .
ويحسن هذا أنك لم تجعل صاحبا بمعنى معصوم فتخرجه من باب ، ولا «إلا» بمعنى «لكن» .
(وَسَأَلْ يَتَيْمَهُمَا الصَّوْغُ) بمعنى بين نوح وأبنته . (فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ) قيل : إنه كان راجعا على فرس قد بطر بنفسه ، وأعجب بها ، فلما رأى المساء جاء قال : يا أبت فار التنور ، فقال له أبوه : «يا بني اركب معنا» لما أستمتم المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة فالتصمته هو وفرسه ، وحبل بينه وبين نوح ففرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصن فيه من المساء ، فلما فار التنور دخل فيه وأقفل عليه من داخل ، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك .
وقيل : إن الجبل الذى آوى إليه «طور سيناء» .

قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْيَ مَلِكٍ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَيْ) هذا مجاز لأنها موات .
وقيل : جعل فيها ما يميزه . والذى قال إنه مجاز قال : لو قُشَّ كلام العرب والمعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها ، وبلاغة وصفها ، واشتغال المعاني فيها . وفى الأثر :
أن الله تعالى لا يخل الأرض من مطرفى عام أو عامين ، وأنه مازل من السماء ماء فقط إلا يحفظ ملك موكل به إلا ما كان من ماء الطوفان ؛ فإنه نخرج منه ما لا يحفظه الملك . وذلك قوله تعالى : «إِنَّمَا طَلَى الْمَاءُ حَمَلَكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» فخرت بهم السفينة إلى أن تنهى الأمر ؛
فأمر الله المساء المنهمر من السماء بالإسلاك ، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بلع الماء يبلعه مثل منيع يمنع ويكس يبلع مثل حمد يحمده ، لغتان حكاهما الكسائى والنزاه . والبالوفا

الموضع الذي يشرب الماء . قال ابن العربي : التقى السامان على أمر قد قهر ، ما كان في الأرض وما نزل من السماء ، فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تنص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بإبتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَيَقِيلُ يَا أَرْضُ أَبْلَيِّي مَأْمُوكَ وَيَأْتِمَاءُ أَقْلَيِّي وَغِيضَ الْمَاءِ » . وقيل : ميز الله بين الماسين ، لما كان من ماء الأرض أمرها قبلته ، وصار ماء السماء بحاراً .

قوله تعالى : (وَغِيضَ الْمَاءِ) أى قصص يقال : فاض الشيء وفضته إذا ؛ كما يقال : قصص بنفسه وقصصه فيه ، ويعوز « غيظ » بضم الغين ، (وَغِيضَ الْأُمُرِ) أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعظم إرسامهم أى أرحام نسائهم قبل الفرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الريلدان بالطوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الفرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير ، بل ما تواا بأجلهم . وحكى أنه لما كثرت المياه في السكك خشيت أن تصب عليه ، وكانت تحبها شديداً ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء وقتها رقت بدنيا بأنها حتى ذهب بها الماء ، فلورحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي .

قوله تعالى : (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَيَقِيلُ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى هلاكهم . الجودى جبل يقرب الموصل ، استوت عليه في الماش من الحزم يوم عاشوراء ، ففصاه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها ففصاهم ، شكر الله تعالى ، وقد هدم هلكا المعنى . . . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترفع على واحد منها فتناولت ، وبنى الجودى لم يتناول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه . وبقيت عليه أعوادها . وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لقد بنى منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة » . وقال مجاهد : شاغت الجبال وتناولت ثلاثا الفرق ، فعلا .

الماء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن اليهودى، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يفرق، ودرست السفينة عليه . وقد قيل : إن اليهودى أسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل ^(١) :
سُبحانه ثم سُبْحاً يَسُودُهُ • وَقَبْلَنَا سَبْحُ الْيَهُودِيِّ وَالْجُنْدِ

ويقال : إن اليهودى من جبال الجنة ، فلهذا أَسْنَت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال ثلاثة نفر، اليهودى بنوح ، وطور سيناء بموسى ، وجرأ بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لما تواضع اليهودى وخضع عزرا ، ولما أرتفع غيره وأستل قل ، وهذه سنة الله في خلقه ، يرفع من يرضع ، ويضع من ترفع ، ولقد أحسن القائل ،

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابُ تَخَضَّعَا • يَتَنَا إِلَيْكَ فَيَسْزُهَا فِي ذُلِّهَا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسَمَّى الْمَسْبَاءَ ، وكانت لا تُسَبِّح ، فجاء أعرابي على فمود له فسبىها ، فاشتد ذلك على المسلمين ، وقالوا : سُبِّحت المسبأة ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وُضِعَ " . وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَا تَقَصَّتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِغَيْرِ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إِنْ لَمْ يَأْمُرْ إِلَى أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ " . ترجمه البخارى .

مسئلة : - نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . بذكر الحافظ ابن هشام كفى التباريح له من الحسن أن نوحاً أوّل رسول بعثه الله إلى الأرض ، فذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا تِسْعِينَ حَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المأصي ، وكثرت الجبابة وَعَتَوْا عَتَوْاً كَبِيراً ، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية ، وكان صبوراً حليماً ، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدَّ مما لقي نوح ، فكانوا يدخلون عليه

(١) شبه السان لآية بن أبي العلت ، وفى (سبح يا غوث) ، عزرايد بن عمرو ، وقيل لوعة بن نوفل . والجند

محمى ، جبل لى نصرطيه .

فيخونونه حتى يهلك ويفدأ، ويضربونه في المجالس ويطرد، وكان لا يدعو حل من يصنع به
 بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ أَغْفِرْ لِقَوِيَّ فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ» فكان لا يزيمهم ذلك إلا فرارا منه،
 حتى أنه ليحكم الرجل منهم فيلق رأسه بثوبه، ويجعل أصبعه في أذنيه ليكلا يسمع شيئا من
 كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَأَيُّ كُفَّا دَعْوَتِهِمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
 وَاسْتَفْشَوْا تِلْكَ» . وقال جاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى ينشئ عليه فلنا أفاق
 قال: «رَبِّ أَغْفِرْ لِقَوِيَّ فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ» . وقال ابن عباس: إن نوحا كان يضرب ثم
 يلق في ليد فيلقي في يسه يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعهم، حتى إذا بئس من إيمان
 قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني أنظر هذا الشيخ لا يتركك،
 قال: يا أبت أمكني من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضمني في الأرض فوضعه، فثنى إليه
 بالعصا فضر به فشججه شجرة موصضة في رأسه، ومالت السماء، فقال نوح: «رَبِّ قَدْ تَرَى
 مَا يَفْعَلُ فِي حِيَادِكَ فَإِنْ يَكْ عِبَادِكَ خَيْرِيَّة فَاهْدِمِ وَإِنْ يَكْ غَيْرُ ذَلِكَ فَصَبِّرْ» إلى أن تحكم
 وأنت خير الحاكمين «فاوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب
 الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن» قال: «وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ تَنْ يُؤْمِنُ مِنْ قَوْمِكَ
 إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» ، أى لا تخزن عليهم، «وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحْيِنَا» قال: يارب وأمرني الخشب؟ قال: أغرس الشجر . قال: فغرس الساج
 عشرين سنة، وكف عن الدماء، وكفوا عن الاستزاء، وكانوا يسفرون منه، فلما أدرك
 الشجر أمره به فقطعها وجففها، فقال: يارب كيف أخذ هذا اليت؟ قال: أجعله
 على ثلاثة صفوف، رأسه كراس الديك، وجوؤه كجؤ الطير، وذبته كذب الديك، وأجعلها
 مطبقة وأجعل لها أبوابا في جنبها، وشدها بئسر، يعنى سمير الحديد . ولما كلف الله جبريل
 فاعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تقبل . قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام
 دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها
 السباع والدواب في الباب الأتلى، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطلق عليهم،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذر معه في الباب الأعلى لضعفها إلا يطاها النواب .

قال الزهرى : إن الله عز وجل بعث ريسا حمل إليه من كل زوجين اثنين ، من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل خشرهم ، فجعل يضرب بسنجه على الزوجين فتضع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح المصارعة أن تدخل السفينة ، فدفنها بيده في ذنبا ، فمن ثم انكسر ذنبا فصار مققوفا وبدا حياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت ففسح على ذنبا فستر حياها ، قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من المهدد زوجين ، فأتت المهددة في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها المهدد فطلق بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طيبا ولا ترابا ، فرحمه وبه لحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه ، فذلك الرشح الناتج في قفا المهدد موضع التبر ، فذلك تآت أفنية المهادد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة " . وذكر صاحب كتاب « العروس » وفيه أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يموت من يأتيه بخبر الأرض قال النجاج : أنا ، فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت غثومة بخاتي لا تطيري أبدا ، أنت ينفع بك أمي ، قيمت للتراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتس قلعة ، وذلك يقتل في الحرم ، ودعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يالف البيوت . وبست الحماة فلم تجده قرارا فوقعت على شجرة بأرض سبأ فحملت وودة زينة ، ورجعت إلى نوح فلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بذلك فطاربت حتى وقعت بوادي الحرم ، فإذا المساء قد نضب من مواضع الكعبة ، وكانت طليتها حراء ، فأختضبت وجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشرى منك أن تهب لي الطوق في عنق ، والخصب في رجل ، وأسكن الحرم ، فسح يده على عنقها وطوقها ، ووعب لها الحرة في رجلها ، ودعا لها ولقرنتها بالبركة . وذكر النعماني أنه بعث بعد التراب

الْتَدْرُجُ كَانَ مِنْ جِنْسِ النَّجَاجِ ؛ وَقَالَ : إِنَّكَ أَنْ تَعْبُدَ ، فَاصْلِبْ لِنُصْرَةِ وَالْفِرْقَةِ
فَلَمْ يَرْجِعْ ، وَأَخَذَ أَوْلَادَهُ عِنْدَ رَهْطِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله تعالى : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ
وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَلِّ لَكَ بِهِ عَلَيْهِ عِلْمٌ إِيَّيَّ
أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٨﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) أى دماه . (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)
أى من أهل الدين وعدتهم أن يجيهم من الفرق ؛ ففى الكلام حذف . (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ)
يعنى الصدق . وقال علماءنا : وإنما سأل نوح ربه أبنه لقوله : « وأهلك » وترك قوله :
« إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهله قال : « رب إن أبى من أهل » يدل
على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمن
فى خلقه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن أبى من أهل » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ حال
أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إيجاب بعضهم ؛ وكان أبنه يُسر الكفر ويظهر الإيمان ؛
فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال أبنتك ما لم تعلمه
أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك استعمل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان
أبى أمراته . دليله قراءة على « ونادى نوح أبنا » . (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) ابتداء وخبر .
أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالفرق .

(١) التدرج كجرج : طائر يفر فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وروطه بلاد فارس . (حياة الحيوان)

الثانية - قوله تعالى : (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) الذين وعظهم أن
 أتبعهم ، قاله سعيد بن جبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ، فهو من
 محذوف مضاف ، وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ
 صَالِحٍ) فإِنَّ أَبْنِ عَبَّاسٍ وعُروَةَ وعِكْرَمَةُ وسُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » أي من
 الكفر والتكذيب ، واختاره أبو حنيفة . وقرا الباقر : « عَمَلٌ » أي ابنك ذو عمل غير صالح
 ملطف المضاف ، قاله الزجاج وغيره . قَالَ :
 تَوَحَّجَ مَا تَمَتَّتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرْتُ . قَامَسَا هِيَ إِقْبَالَ وَإِدْبَارَ

أي ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد . ويصور
 أن تكون المسألة للسؤال ، أي إن سؤالك لي أن أتبعه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقاله
 الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن أبنه . وكان لنير رشيده ، وقاله
 أيضا بجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان أبنه ، قلت إن الله أخبر عن
 نوح أنه قال : « إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِ » فقال : لم يقل مني ، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن
 أمهاته من زوج آخر ، فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : « إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِ » ونادى
 نوح أبنه . ولا يختلف أهل التكاثر أنه أبنه ، فقال الحسن : ومن يأخذ دينه من أهل
 الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرا « غفانتاهما » . وقال ابن جرير : ناداه وهو يحسب أنه
 أبنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت أمهاته خاتنه فيه ، ولهذا قال : « غفانتاهما » . وقال ابن
 عباس : ما بنت امرأة نبي قط ، وأنه كان أبنه لصلبه . وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد
 ابن جبير وميمون بن مهران وغيرهم ، وأنه كان أبنه لصلبه . وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح ،
 « إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِ » أكان من أهله ؟ أكان أبنه ؟ فسبح الله طويلا ثم قال : لا إله إلا الله !
 يحدث الله عبدا صلى الله عليه وسلم أنه أبنه ، ويقول إنه ليس أبنه ! نعم كان أبنه ، ولكن
 كان مخالفا في النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ، وهذا

(١) البيت للنساء نصف فاختص بها ولدها ، وعمن قصيدة تروى بها أسماها صبرة .

هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى بخلافه من قال به ، وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفي عنه أنه أبنة . وقوله : « فأتيناها » يعني في الذين لا في الفرائض ، وذلك أن هذه كانت خير الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فتي ؟ قال : إذا فار التنور ، فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يغور هذا التنور ، فهذه خيانتها ، وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عبلا كما يسمى كسبا ، كما في الخبر « أولادكم من كسبكم » . ذكره القشيري .

الثالثة - في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه ، قال فلم مالك أنه قد فهمه الناس ، فقال مالك : الأديب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخبر خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الذين من الأهل لفة وشرطا ، ومن أهل البيت ، فمن وصى لأهله دخل في ذك آبئه ، ومن تضمنه متزله ، وهو في عياله . وقال تعالى في آية أخرى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحًا قَلِيلًا مِّنَ الْمُجِيبِينَ . وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » فسمى جميع من ضمنه قوله من أهله .

الرابعة - ودلت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرها أن الولد للفراش ، ولذلك قال نوح ما قال أخذا بظاهر الفرائض . وقد روى سليمان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمر يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يقضي بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ، ذكره أبو عمر في كتاب « التمهيد » . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » يريد النخبة . وقيل : الزيم بالمجارة . وقرا حُريرة بن الزبير « وهاهى نوح أبنا » يريد أبنائه ، وهي تخشع القراءة المتقدمة عنه وعن علي رضي الله عنه ، وهي حجة الحسن ومجاهد ، إلا أنها قراءة شاذة ، فلا تترك المتفق عليها لها . والله أعلم .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَبْظُكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى أنهلك من هذا السؤال ، وأحذرک لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ، أى الآتين . ومنه قوله تعالى : « يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَوَدُّوا لِخَلِيلِهِ أَبَدًا » أى يعذرکم الله وبها کم . وقيل : المعنى أرفعت أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وحسنه زيادة من الله وموعظة برفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويحلبه بها إلى مقام العلماء والعارفين ، فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَسُودُ بَلَّكَ أَنْ أَتَاكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ حِلٌّ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشر الله تذكلا وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال . ﴿ وَرَحِمَنِي ﴾ أى بالتوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَائِرِينَ ﴾ أى أعمالا . فقال : « يا نوح أهبط بسلام ما » .

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سَمْتِهِمْ ثُمَّ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أى قالت الملائكة ، أو قال الله تعالى له : أهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ، فقد اجتملت الماء وجفت . « بسلام ما » أى بسلامة وأمن . وقيل : بخصية . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أى نعم ثابتة ، مشتق من برك الجمل وهو شوته وإفاته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، بجميع الخلق الآن من قبله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ، على قول قتادة وغيره ، حسب ما تقدم ، وفي التبريل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ، ودخل في قوله : ﴿ وَأَمَّا سَمْتِهِمْ ثُمَّ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة ، روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أم من معك ، وذرية أم ستمهم . وقيل : « من » للتبويض ، وتكون لبيان الجنس . « وأم ستمهم » ارتفع « وأم » على معنى وتكون أم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلت زيدا وعمرو جالسا . وأجاز الفراء في غير القراءة وأما ، وتقديره : ونمت أمسا . وأعيدت « على » مع

« أم » لأنه معطوف على الكاف من « عليك » وهي ضمير المجرور، ولا يعطى على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدم في « النساء » بيان هذا مستوفى في قوله تعالى : « وَأَتَوْهُا اللَّهُ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » بالخفض . والباء في قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها في موضع الحال ؛ أى أهبط مسأماً عليك . و « مِنَّا » في موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات . وعلى أم « متعلق بما تعلق به « عليك » ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » في قوله « بمن مكن » متعلق بمحذوف ؛ لأنه في موضع جر نعت للأمر . و « مكن » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أى بمن استقر مكن ، أو آمن مكن ، أو ركب مكن .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) أى تلك الأنباء ، وفي موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . (نُوحِيهَا إِلَيْكَ) أى لنقف عليها . (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ) أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والمحسوس الآن يذكرونه . وقيل : أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . (فَاصْبِرْ) أى اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على قومه . (إِنَّ الْعَذِيبَةَ) فى الدنيا بالظفر ، وفى الآخرة بالفوز . (لِلْمُتَّقِينَ) عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٦﴾ يَبْقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَبْقَوْمُ اسْتَغْفِرُوا

رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَىٰ رَبِّهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي الْهِتَابِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَئَيْتَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَأَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَظِيظٌ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٢﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِيلُ بِهَا قُرْآنًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَلَعَلَّ الْبَشَرَ لَدُنْ رَبِّهِمْ عَصَوا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٣﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَّا عَادُ أَتَانَهُمْ هُودًا ﴾ أي وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : يا خاتم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم ؛ وقد تقدم هذا في « الأعراف » وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شقار ولقيان المذكوران في قوله تعالى : « إِمْرَ ذَاتِ الْعِمَادِ » . وعاد آدم

وجل ثم استمر على قوم أنسبوا إليه . (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) بالخفض على اللفظ ، و « فِئَةٍ » بالرفع على الموضع ، و « فِئَةٍ » بالنصب على الاستثناء . (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) أى ما أنتم فى اتخاذكم المصاغية إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا عَلَى الْآلِئِ فَعَلْتُمْ) تقدم معناه . والفيطرة ابتداء الخلق . (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ما جرى على قوم فوج لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) تقدم أول السورة . (يَرْسِلُ السَّمَاءَ) جزم لأنه جناب وفيه معنى الخيازة . (عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) نصب على الحال ، وفيه معنى الكثير ، أى يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضها بعضاً ، والعرب تحذف الهاء فى مفعال على النسب ، وأكثر ما يأتى مفعال من أنزل ، وقد جاء هاهنا من قتل ، لأنه من دقت السماء تَدْرُ وتَدْرُ فهو مِدْرَار . وكان قوم هود أعنى عاداً أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدم فى « الأعراف » . (وَزِدْنَاهُمْ) عطف على يرسل . (قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) قال مجاهد : شدة على شدتكم . الضمك : خصباً إلى خصبتكم . على بن عيسى : عزاً على عزكم . حكمة : ولذا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حسب منكم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد ، فقال لهم هود : إن أنتم أحبى بلادكم وورثكم المال والولد وتلك النسوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم . (وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) أى لا تعرضوا عما أهدوكم إليه ، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) أى حجة واضحة . (وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

إصرار منهم على الكفر .

قوله تعالى : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا عَتَاكُ) أى أصابك . (بَعْضُ آلِهَتِنَا) أى أصنامنا . (يُسْرُونَ) أى يبتغون لسبك إياها ، عن ابن عباس وغيره . يقال : هراه الأمر واعتراه إذا ألم به . ومنه « وَأَطِيعُوا الْقَائِنِغَ وَالْمُسْتَرَّ » . (قَالَ إِنِّى أَنشِئُكُمْ آفَةً) أى على نفسى .

﴿ وَأَشْهَدُ ﴾ أى وأشهدكم ، لأنهم كانوا أهل شهادة ، ولكنه نهاية للتقرير ، أى لتصفوا
﴿ أَيْ رَبِّىَ ﴾ بِمَا تُشِيرُونَ أى من عبادة الأصنام التى تبدونها . ﴿ فَيَكِيدُونِ جَمِيعًا ﴾ أى أتم
وأوتانكم فى عداوى وضرى . ﴿ ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴾ أى لا تفترون . وهذا القول مع كثرة
الزعماء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وحده
يقول لقومه : « فَيَكِيدُونِ جَمِيعًا » . وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح
صلى الله عليه وسلم : « فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية

قوله تعالى : ﴿ إِنْى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّىَ وَرَبُّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره .
﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى هس تدب على الأرض ، وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
بِناصِيَتِهَا ﴾ أى يصرفها كيف يشاء ، ويمتها بما يشاء ، أى فلا تصلون إلى ضرى . وكل ما فيه
روح يقال له داب ودابة ، والماء للبالغة . وقال الفراء : مالكةا ، والقادر عليها . وقال
الفتن : قاهرها ، لأن من أخذت بناصيته فقد نهته . وقال الضحاك : يحبسها ثم يمتها ،
والمنى مقارب . والناصية قصاص الشعر من مقدم الرأس . ونصب الرجل أنصوه نصوا
أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنما خص الناصية ، لأن العرب تستعمل ذلك إذا
وصفت إنسانا بالثقة والخصوع ، فيقولون : ما ناصية فلان إلا يسيد فلان ، أى أنه مطيع له
يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمضى عليه جزوا ناصيته ليعرف
بذلك نفرا عليه ، فغاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال التميمي - الحكيم فى « نوادر الأصول »
قوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وجهه عندنا أن الله تعالى قدر مقادير أعمال
العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد أخذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن
يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيتهم ، فذلك النور آخذ بنواصيتهم ، فيخرجهم
إلى أعمالهم المقطرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض
بمخمين ألف سنة ، ورواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بمخمين ألف سنة » . ولهذا

قويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه متفادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فهم من الأعمال ، فأورهم حظا من الملاحظة أقزام في العزم ، ولذلك ما قوى هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ قَائِمَةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصت وبرزت من غيب النيب فصارت منصوبة في المقادير ، قد نفذ بصر الخلق في جميع حركات الخلق بقسرة ، ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حيا في جهته بين عينيه ، ففسى ذلك الموضع منه ناصية ، لأنها تنص حركات العباد بما قدر ، فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبي جهل فقال : « نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ » . يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة ، فعل مهبل ما تأولوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكتب وانحطت . (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قال النحاس : الصراط في اللغة المنهاج الواضح ، والمعنى أن الله جل ثناؤه وإن كانت يفسد على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خلل في تديبه ، ولا خلوات في خلقه سبحانه .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْا) في موضع جرم ، فذلك حذف منه التو ، والأصل تَوَلَّوْا ، فحذفت التاء لاجتماع تامين . (فَقَدْ أَلْهَيْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) بمعنى قد بينت لكم . (وَيَسْتَنفِثُ وَيَوْمًا أُخْرَى) أي يهلككم ويخاف من هو أطوع له منكم يوحدونه ويبعدونه . « وَيَسْتَنفِثُ » مقطوع مما قبله فذلك ارتفع ، أو معطوف على ما يجب فيما بعد التاء من قوله : « فَقَدْ أَلْهَيْتُكُمْ » . وروى عن حفص عن عاصم « وَيَسْتَنفِثُ » بالهمز حملا على موضع التاء وما بعدها مثل « وَيُدْرِمُ فِي طَيِّبَاتِهِمْ يَمْهَرُونَ » .

قوله تعالى : (وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا) أي تسولكم وإعراضكم . (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ) أي لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ، فهو يحفظني من أن أتألم بسوء .

(١) بالياء وسكون الراء فرائية ، كما في (صح المقتلات) .

قوله تعالى : (**وَلَا تَجَاءُ أُنُورًا**) أى عذابنا بهلاك عاد . (**تَجِيئًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا**)
 مَعَهُ رَاقِبَةٌ **يَتَّبِعُ**) لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى ، وإن كانت له أعمال صالحة .
 وفي صحيح مسلم والبخاري وغيرهما من النبي صلى الله عليه وسلم " **لَنْ يُجِيئَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ** "
 قالوا **وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟** قال : " **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّقِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ** " . وقيل : معنى
 « **بِرَحْمَةِ مَا** » بأن ينال المهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة
 آلاف . (**وَيَجِيئُهُمْ مِنْ مَدَائِبِ قِلَظٍ**) أى مذاب يوم القيامة . وقيل : هو الریح المقيم كما
 ذكر الله في « **الأنبياء** » وغيرها وساقى . قال القشيري أبو نصر : والمذاب الذى يتوعد
 به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه ، ثم لا يعد أن يحل الله نيا وقومه
 فيجمعهم بلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين ، وتحجيبا للمؤمنين ، إذا لم يكن مما تورعهم النبي به .

قوله تعالى : (**وَبَلَّغْ مَادًى**) ابتداء وغيره ، وحكى الكسائي أن من العرب من لا يصرف
 « **ماداً** » فيجعله أسماء لليلة . (**يَجْعَدُوا يَأْتِي رَيْبٌ**) أى كذبوا بالمعجزات وأنكروها .
 (**وَعَصَوْا وَاسْلُ**) يعنى هودا وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله
 تعالى : « **يَأْيَا الرُّسُلَ كُلَّاءِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، لأنه لم يكن
 في عصره رسول سواه ، وإتباع هذا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل .
 وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول يحدوا الكل .
 (**وَأَتَّبَعُوا أُنُورَ كُلِّ جَبَّارٍ ضَلِيلٍ**) أى أتبع سقاطهم رؤساءهم . والجبار المتعكبر . والبنيد
 الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذم له . قال أبو جريد : **البنيد والسود والنايد والمعانيد**
المعارض بالخلاف . ومنه قيل للبرق الذى ينفجر بالدم **مائد** . قال الزاجر :

• **إِنِّي كَيْدٌ لَا أُطِيقُ الْمُنَادَا** •

قوله تعالى : (**وَأَتَّبِعُوا فِي حَيَاةِ الدُّنْيَا لِقَنَةٍ**) أى ألحقوها . (**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أى
 وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك ، فالتسام على قوله : « **ويوم القيامة** » . (**أَلَا إِنَّ مَادًّا كَفَرُوا**)

• **إِلَّا رَسُلًا يَكْفُرُونَ وَمَادًّا** •

(١) صوابه •

رَبِّهِمْ ۖ قَالَ الْفِزْيَاءُ : اَيُّ كُفْرًا نِعْمَةً رَّبِّهِمْ ؟ قَالَ : وَيَقَالُ كَفَرْتُمْ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، مِثْلَ شُكْرِهِ
وَشُكْرَتِهِ لَهُ . (اَلَا بُدْنَا لِيْلَادٍ قَوْمِ هُوْدٍ) اَيُّ لَا زَالُوا مُبْعِدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ . وَابْعَدُ الْهَلَاكُ .
وَابْعَدُ التَّبَاعِدُ مِنَ الْخَيْرِ ، يَقَالُ : يَبْدُ يَبْعُدُ بَعْدًا اِذَا تَأَخَّرَ وَتَبَاعَدَ . وَيَبْدُ يَبْعُدُ بَعْدًا اِذَا هَلَكَ ۖ قَالَ :
لَا يَسْتَعِدُّنَّ قَوْمِي النَّهْنِ هُمْ . سَمِ الْمُدَّةُ وَآفَةُ الْبُحْبُورِ

وَقَالَ النَّابِضَةُ :

فَلَا تَبْعُدَنَّ اِنَّ الْمُنْبِئَةَ مَنَّهُلٌ . وَكُلُّ اَمْرٍ يَوْمًا بِهَ الْحَالِ زَائِلٌ
قَوْلُهُ هَسَالَى : وَهِيَ تَمْوِدُ اَحَاثَهُمْ صَالِحًا ۖ قَالَ يَنْقُورُ اَعْبُدُوا اَللهَ مَا لَكُمْ
مِنْ اِلَهٍ غَيْرِهِ ۖ هُوَ اَنْشَأَكُمْ مِنَ الْاَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ
ثُمَّ تُؤْتَوْنَ اِلَيْهِ اِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٣٦﴾
فِيهِ خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْأُولَى — قَوْلُهُ هَسَالَى : (وَإِلَى تَمْوِدَ) اَيُّ ارْسَلْنَا إِلَى تَمْوِدَ (اَحَاثَهُمْ) اَيُّ فِي النِّسْبِ .
(صَالِحًا) . وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ « وَإِلَى تَمْوِدَ » بِالتَّوْنِ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ ، وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ
الْجِسَنِ . وَاحْتَلَفَ سَائِرُ الْقُرَّاءِ فِيهِ فَصَرَفُوهُ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَصْرِفُوهُ فِي مَوْضِعٍ . وَزَمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ
أَنَّهُ لَوْلَا عَاطِلَةُ السَّوَادِ لَكَانَ الْوَجْهَ تَرَكَ الصَّرْفَ ؛ إِذْ كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِ التَّانِثُ . قَالَ النُّحَاسُ :
الَّذِي قَالَ أَبُو حَبِيْدَةَ — رَحِمَهُ اللهُ — مِنْ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّانِثُ كَلَامُ مُرْدُودٍ ؛ لِأَنَّهُ مُؤَدَّا بِقَالَ لَهُ
حَسَنٌ ؛ وَيُقَالُ لَهُ قَبِيلَةٌ . وَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْقَبِيلَةُ ، بَلِ الْأَمْرُ عَلَى ضِدِّ مَا قَالَهُ عِنْدَ سَيُودِيهِ .
وَالْأَخْبُوْدُ عِنْدَ سَيُودِيهِ فِيمَا لَمْ يُقَلَّ فِيهِ بَنُو فُلَانٍ الصَّرْفُ ؛ فَهُوَ قَرِيشٌ وَحَقِيفٌ وَمَا أَشْبَهَهُمَا ،
وَكَذَلِكَ تَمْوِدُ ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّذْكِيرُ الْإِصْلَ ، وَكَانَ يَقَعُ لَهُ مَذْكَرٌ وَمُؤَنَةٌ كَانَ
الْأَصْلُ الْإِنْخِفَ أَدْلَى . وَالتَّانِثُ جَدِيدٌ بِالْعِ حَسَنٌ . وَأَفْسَدَ سَيُودِيهِ فِي التَّانِثِ
فَطَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدَ تَسْمِيحًا ۖ وَكَفَى قَنْرِيْشَ الْمَعْضِلَاتِ وَصَادَعًا

(١) تَخْدَمُ شَرَحَ الْبَيْتِ فِي حَامِشٍ ص ٦٤ ص ١٤

(٢) الْبَيْتُ لَعْنَى بْنِ الرَّقَاعِ مَدْحَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ؛ وَلَنَاهَا فِيهِ تَرَكَ صَرْفَ قَرِيشٍ حَلَالًا عَلَى مَتْنِ الْقَبِيلَةِ ؛
وَالصَّرْفُ فِيهَا أَكْثَرُ مَا صَرَفَ لِأَنَّهُمْ فَعَّلُوا بِهَا فَعَدَّ الْحَسَنُ ، وَطَلَبَ ذَلِكَ مِنْهَا . (شَوَاهِدُ سَيُودِي) .

الشافية - قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .
 ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي ابتداء خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض
 على ما تقدم في « البقرة » و « الأنعام » وهم منه . وقيل : أنشأكم في الأرض . ولا يجوز
 إدغام الهاء من « غيره » في الهاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج .
 ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم محاربا وسكانها . قال مجاهد : ومعنى « استعمركم » أمركم
 من قوله : أَنعمر فلان فلانا داره ؛ فهي له عمرى . وقال قتادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين
 القولين تكون استعمل بمعنى أقبل ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : أطال
 أعماركم ، وكاتب أعمارهم من ثمانية إلى ألف . ابن عباس : أحاشكم فيها . زيد بن أسلم :
 أمركم بعبادة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى الممك
 عمارتها من الحرق والفرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثة - قال ابن العربي قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العبرة ،
 والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب ؛ قال القاضي أبو بكر : تأتي كلمة استعمل في لسان
 العرب على معان ؛ منها : استعمل بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أى طلبت منه حلافاً ؛
 ومعنى اعتقد ، كقولهم : استعملت هذا الأمر أعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً ،
 واستعملته أى أعتقدته عظيماً ووجدته ؛ ومنه استعملت بمعنى أصبت ، كقولهم : استجدته
 أى أصبته جيداً ؛ ومنها بمعنى فعل ؛ كقوله : فترى المكان واستقر ؛ وقالوا وقوله :
 « يستهزون » « ويستسخرون » منه ؛ فقوله تعالى : « استعمركم فيها » خلقكم لعمارها ،
 لا على معنى استجدته وأستعملته ؛ أى أصبته جيداً وسهلاً ، وهذا يستحيل في الخلق ، فيرجع
 إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يبر عن الشيء بفائدته مجازاً ؛ ولا يصح أن يقال إنه طلب
 من الله تعالى لعمارها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه استدعى

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ وما بعدها

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طية ثانية أو ثالثة .

عسارتها فإنه جاء بلفظ استعمل، وهو استنداء الفعل بالقول بمن هو دونه إذا كان اسرا، وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة]^(١).

قلت: لم يذكر استعمل بمعنى أقبل، مثل قوله: استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه وهي:

الرابعة - ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في «البقرة»^(٢) في السكنى والزقي. وأما المسمى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها - أنها تملك لنفسها الرقية حياة المَعْمَر مدة عمره، فإن لم يذكر عقبا فأت المعمر رجعت إلى الذي أعطاهما أولوته، هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي، وقد تقدم في «البقرة» صحة هذا القول. الثاني - أنها تملك الرقية ومناها وهي هبة مبتولة، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن بن حي وأحمد ابن حنبل وابن شبرمة وأبو حنيد، قالوا: من أعمرجلا شيئا حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته، لأنه قد ملك وقتها، وشرط المصلحة والحياة والعمر باطل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «العمري جائزة» و«العمري لمن وهبته له». الثالث - إن قال عمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأول، وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني، وبه قال الزهري وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد روى عن مالك، وهو ظاهر قوله في الموطأ. والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المَعْمَر، إذا اقتصر عقب المَعْمَر، إن كان المَعْمَر حيا، وإلا فلا من كان حيا من ورثته، وأولى الناس بعمراته. ولا يملك المَعْمَر بلفظ العمري عند مالك وأصحابه رقية شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ المَعْمَر المنفعة دون الرقية. وقد قال مالك في الحبس أيضا: إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه. وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك المَعْمَر قياسا، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة من ابن العرب. (٢) راجع ج ١ ص ٢١٢ طبة ثانية أو ثالثة. (٣) راجع ج ١

ص ٢٩٩ وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة. (٤) مبتولة: ماضية فيه راجعة إلى الموطأ.

عليه وسلم قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْمَرَ رَجُلًا عَمَّرَ لَهُ وَلَقِيَهُ فَقَالَ قَدْ أُعْطِيَتْكَهَا وَعَقِبَكَ مَا بَقِيَ مِنْكَ أَحَدٌ فَلَهَا لِمَنْ أُعْطِيَ وَأَنَّهُ لَا تَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أُعْطِيَ عَطَاءَ وَقْتٍ فِيهِ الْمَوَارِيثُ » . وعنه قال : إِنْ الْعَمْرَى إِلَى أَجَازِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ : هِيَ لَكَ وَلَقِيكَ ، فَأَمَّا إِذَا قَالَ : هِيَ لَكَ مَا عِشْتَ فَلَهَا . تَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِهَا ، قَالَ مَعْمَرٌ : وَبِذَلِكَ كَانَ الْأَمْرَى يَقْنَى .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثاني ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَالَ : « وَاسْتَعْمِرْكُمْ » بمعنى أَعْمِرْكُمْ ؛ فَأَعْمَرَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِيهَا مَدَّةَ حَيَاتِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ بِالذِّكْرِ الْحَلِيلِ وَالنِّسَاءِ الْحَسَنِ ، وَبِالْعَكْسِ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ ؛ فَالذِّنْيَا ظَرْفٌ لَهَا حَيَاةٌ وَمَوْتًا . وَقَدْ يُقَالُ : إِنْ التَّنَاءُ الْحَسَنُ يَجْرِي مَجْرَى الْعَقِبِ ، وَفِي التَّنْزِيلِ : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ » أَيْ تَنَاءً حَسَنًا . وَقِيلَ : هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » وَقَالَ : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَمَنْ ذُرِّيَّتُهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفِرُّوهُ ﴾ أَيْ سَلُوهُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ . ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيْ أَرْجِعُوا إِلَى عِبَادَتِهِ . ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أَيْ قَرِيبُ الْإِجَابَةِ لِمَنْ دَعَاهُ . وَقَدْ مَضَى فِي « الْبَقَرَةِ » عَنْهُ قَوْلُهُ : « فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ » الْقَوْلُ فِيهِ .

قوله تعالى : قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَ شَكٌّ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ مُرِيبٌ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَهَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٧٨﴾ وَيَقُومُ هَلْ يَمْلِكُ تَائِقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا

يَسْأَلُونَ فَيَأْخُذُهُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّنُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذَابٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن بَيْنِ يَدَيْ يَوْمِهِدَّ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿١٨﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِينِهِمْ جَثِمِينَ ﴿١٩﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) أى كانوا يرجون أن تكون
فينا مسيحا قبل هذا ، أى قبل دعوتك النبوة . وقيل كان صالح يبيع الخنجر ويشتريها ،
وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : أقطع رجائنا منك . (أَتَيْنَاكَ)
استفهام معناه الإنكار . (أَلَا تَعْبُدُ) أى عن أن تعبد . (مَا كَانَ بَعْدَ آبَائِنَا) فإن فى عمل
نصيب بإسقاط حرف الجر . (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ) وفى سورة إبراهيم : « وإنا » والأصل
« وإنا » فاستقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . (يَمَّا تَدْعُونَا) الخطاب لصالح . وفى سورة
إبراهيم : « تدعوننا » لأن الخطاب للرسول . (إِلَيْهِ مُرِيبٌ) من أربته فانا أربيه إذا
صلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال المصنف :

كُنْتُ إِذَا أَمَرْتُهُ مِنْ قَرِيبٍ • يَتَّبِعُ عَطْفِي وَيَسْتَرْفِئُ

• كَأَنَّمَا أَرَبُّهُ رَيْبٌ •

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةٌ) تقدم
معناه فى قول نوح . (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِّنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ) استفهام معناه الذى ، أى لا ينصرنى
منه إن عصيته أحد . (مَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَعْذِيرٍ) أى تضليل وإبعاد من التبرير ، قاله الفراء .

(١) حرواله بن زهير الملقب كانى اللسان ، وصدايقه الأتول :

• بالسم مال وأيا ذلبي •

(٢) (بن توفى) : يعلبه إليه •

والحجير لم يله صل الله عليه وسلم؛ فكانه قال : غير تخمير لكم لالي . وقيل : المعنى ما تريدونني باحتجاجكم بدين آباءكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَأْقُومُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ نصب على الحال ، والمامل معنى الإشارة أو التنبيه في « هذه » . وإنما قيل نافاة الله ؛ لأنه أخرجها لم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من حفرة سماء منفردة في ناحية الجحسر يقال لها الكائنية ، فلما ترجعت النافاة — على ما طلبوا — قال لهم صالح : « هذه نافاة الله لكم آية » . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وذّر ولا وأذّر إلا شاذ . وللصحويين فيه قولان ؛ قال سيوطي : استغنوا عنه بقرآن . وقال غيره : لما كانت الراو تتيلا وكان في الكلام فعل بمعناه لا واو فيه الفوه ؛ قال أبو إسحق الزجاج : « يجوز رفع « تأكل » على الحال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمْسُوهُمْ ﴾ جزم بالنهي . ﴿ وَسُور ﴾ قال الفراء : يقرء . ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ ﴾ جواب النهي . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أي قريب من عقربا .

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَحْتَمُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه سستان :

الأول — قوله تعالى : ﴿ فَتَقَرُّوْهَا ﴾ إنما عقربا بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدم الكلام في عقربا في « الأعراف » . ويأتي أيضا . ﴿ فَقَالَ تَحْتَمُّوْا ﴾ أي قال لهم صالح تَحْتَمُّوْا ؛ أي بنم الله عز وجل قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أي في بلدكم ؛ ولو أراد المثل لقال في دوركم . وقيل : أي يجمع كل واحد منكم في داره ومسكنه ؛ بكفوله : « يخرجكم طفلا » أي كل واحد طفلا . وصبر من التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يجمع بشيء ؛ فقترت يوم الأرباء ، فاقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأيامهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام ؛ لأن التصيل رفا ثلاثا على ما تقدم في « الأعراف » . فاصفرت الواهيس في اليوم الأول ، ثم أحمرت في الثاني ، ثم أسودت في الثالث ، وهلكوا في الرابع ؛ وقد تقدم في « الأعراف » .

الثانية : استدل علماءنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يجيئ على إقامة أربع ليال قصر ، لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة ، وقد تقدم في « النساء » ما للمفسر في هذا .

قوله تعالى : (ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ) أي غير مكذوب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) أي عذابنا . (نَحْنُ صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحَقَ بَيْنَا)

تقدم : (وَمِنْ نَحْرِي يَوْمَئِذٍ) أي ونجيتهم من نحري يومئذ ، أي من فضيحتهم وذلكة .

وقيل : الواو زائدة ، أي نجيتهم من نحري يومئذ . ولا يجوز زيادتها عند سيويه وأهل

البصرة ، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لسا » و « حتى » لا غير ، وقرا نافع والكسائي

« يَوْمَئِذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « لسا » . وقال أبو حاتم :

حششا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ « ومن نحري يومئذ » أدغم الياء في الياء ، وأضاف

وكسر الميم في « يومئذ » . قال النحاس : الذي يرويه النحويون — مثل سيويه ومن

قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا — الإخفاء ، فاما الإدغام فلا يجوز ، لأنه يفتي سا كان ،

ولا يجوز ، كسر الراء .

قوله تعالى : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ) أي في اليوم الرابع ينسحب بهم فأتوا ؟

وذكر لأن الصيغة والصباح واحد . قيل : صيغة جبريل . وقيل : صيغة من السماء فيها

صوت كل صاعقة ، وصوت كل شيء في الأرض ، فتقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا :

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ » وقال في « الأعراف » « فأخذتهم الرجفة » وقد تقدم

بيانه هناك . وفي التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم

الأمر بشقة ؟ قالوا : لسا نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورمائحهم ومعدنهم ، وكانوا فيما يقال

أثنى عشر ألف قبيلة ، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفتجاج ،

أزعوا يلاقون الصداق ، فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يسحبهم بجزاه ،

(١) تابع ج ٥ ص ٣٥٤ طبعه أول مرة . (٢) تابع ج ٧ ص ٢٤٤ طبعه أول مرة .

فأذاها من ربهم فاشتوت أيديهم ، وتملت الستم على صدورهم من السطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوز من تلك الميون من غلبانه حتى يبلغ السه ، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره ، فما زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقض أرواحهم تذبذبا لم إلى أن غمرت الشمس ، فصيح بهم فاهلكوا . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ) أي ساقطين مل وجوعهم ، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جئت . (أَلَا إِنَّ مَوْتَكُمْ قَدْ جَاءَكُمْ فَلَا يَبْدُو) ففهم منه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى قَالَوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْا أَيْتَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرْتُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ نُوحٍ ﴿٥٧﴾ وَأَمْرَأَتَهُ قَامَةً فَصَبَحَتْ فَبَشَرْنَهَا بِمَا تَحْتَى وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى) هذه قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت قري لوط بنواس الشام ، وإبراهيم بهلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بمذاب قوم لوط مروا بإبراهيم وزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراءه ، وكانوا مروا بشاره إبراهيم ، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل وإسراييل عليهم السلام ، قاله ابن عباس . القضاك : كانوا قسمة . القدي : أحد عشر ملكا على صورة الثلمان الحسن الوجوه ، ذوو وضاعة وجمال بارع . (بِالْبَشَرَى) قبل : بالولة . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشره بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . (قَالُوا سَلَامًا) نصب بوفوع القمل عليه ، كما نقول : قالوا خيرا . وهذا اختيار الطبري . وأما قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ ، قَالَتِلَا أَسْمَ غَيْرُ مَقُول . ولو رفعا جميعا

أو نصباً جميعاً « قالوا سلاماً قال سلام » جاز في العربية . وقيل : أنتصب على المصدر .
 وقيل : « قالوا سلاماً » أي فاتهم بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون
 قالوا سلاماً » أي صواباً ، فبلا ما معنى قولهم لا لفظه ، قال معناه ابن العربي وأخبره .
 قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بينه فقال خبراً عن الملائكة : « سلام
 عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طين » . وقيل : دَعَا لَهُ ؛ والمعنى سَلِمْتَ سَلاماً . (قال
 سلام) في رفعه وجهان : أحدهما - على إحصاء مبتدأ أي هو سلام ، وأمرى سلام .
 والآخر بمعنى سلام عليك إذا جعل بمعنى التحية ؛ فأخبر الخبر . وجاز سلام على التذكير لكثرة
 استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذف من لاهم في قولك اللهم . وقري « يلى » قال
 الفراء : السَلَمُ والسَّلَام بمعنى ؛ مثل الحِلِّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلِ حَبِيزَ ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :^{١١٧}

الأول - قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حتى ، قاله سكران
 النحويين ؛ حكاه ابن العربي . التقدير : فإبت حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع
 نصب بسقوط حرف الجر التقدير : فإبت عن أن جاء ؛ أي ما أبطل من عجلته بعجل ؛
 فلما حذف حرف الجر بقى « أن » في محل النصب . وفي « لبث » ضمير اسم إبراهيم .
 و « ما » نافية ؛ قاله سيدي . وقال الفراء : فإبت عجلته ؛ أي ما أبطل عجلته ؛ فأن
 في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي ،
 وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي فإبت لبث إبراهيم هو عجلته بعجل
 حبيز . و « حبيز » مشوي . وقيل : هو المشوي بحر الجارة من فزان تسمى النازة .
 يقال : حنطت الشاة أحنطها حنطاً أي شويتها ، وجعلت فوقها حجارة تحمى لتضجها فهي
 حبيز . وحنطت الفرس أحنطه حنطاً ، وهو أن تحمضه شوطاً أو شوطين ثم تطاير عليه
 الحلال في الشمس ليمرق ، فهو يمرق ، وحبيز وحبز ؛ لأن لم يرق قبل كذا ؛ وحنط موضع قرب
 (١) كما في الأصل والمائل المذكورة من الآية ٧٠ و٧١ أيضاً في الآية حسب .

من المدينة . وقيل : الحنيد السبيط . ابن عباس وغيره : حنيد فيبيع . وحنيد بمعنى محنود ؛ وإنما جاء بسجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانية - في هذه الآية من أدب الضيف أن يجعل قراءه ، فيقدم الموجود للميسر في الحال ؛ ثم يتبعه بشيء إن كان له بركة ، ولا يتكلف ما يضر به . والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ؛ ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أول من أضاف على ما تقدم في « البقرة » . وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة ثلاثة أيام وجازته يوم وليلة لساكن وراه ذلك فهو صدقة » . والجازة العطية والصلة التي أصلها على التذنب . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وإكرام الجار ليس بواجب لإجماع ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم : « ليلة الضيف حق » إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيها إشارة إليه كفاية ، والله الموفق للهداية ، قال ابن العربي : وقد قل قوم : إن وجوب الضيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف ؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدري نعيجه الأئمة ، وفيه : « فاستضيفناهم فأبوا أن يضيفونا فلدغ سيد ذلك الحية » الحديث . وقال هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقا لآلم النبي صلى الله عليه وسلم القوم الذين أبوا ، ولين لهم ذلك .

الثالثة - اختلف العلماء فيمن مخاطب بها ؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن الخطاب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سحنون : إنما الضيافة على أهل القرى ، وأما الحضر فالتمسك بزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة على أهل البر وليس على أهل المدن » . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أنس عبد الزقاق متروك الحديث منسوب

إلى الكتب ، وهذا مما أقره به ، ونسب إلى وضعه ، قاله أبو عرين عبد البر . قال ابن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ، ولا شك أن تضييف كريم ، والضيافة كرامة ، فإن كان غربيا فهي فريضة .

الرابسة - قال ابن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياس في موضع النقل ، من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم ، وعجل الثلاثة عظيم ، فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأى ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة - السنة إذا قدم للضييف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل ، فإن كرامة الضييف تجعل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ، فلما قبضوا أيديهم تكرم إبراهيم ، لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا يبتكون ^(١) قبحا كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم " نكروهم وأوجس منهم خيفة " أي أضمر . وقيل : أحسن ، والوجوس الدخول ، قال الشاعر :

جاء السريد بقرطاس يثقب به • فأوجس القلب من قرطاسه جزعا

وخيفة خوفا ، أي قرعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا ، فعالت الملائكة (لا تحفب إنا أرسلنا إلى قوم لوط) .

السادسة - من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغي أن يكون بثلث وسارقة لا بتعديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قباح (جمع قبح بالكسر) : السهم قبل أن يصل ويراث .

سليان بن عبد الملك، فرأى سليان قزعة الأعرابي شجرة فقال له: أزل الشجرة من لقمك؛ فقال له: أنتظر إلى نظر من يرى الشجرة في لقمي؟! والله لا أكلت منك.

قلت: وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليان، وأن الأعرابي تخرج من عنده وهو يقول:

وَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ [زبارة ^(١)] باخل * يلاحظ أطراف الأكل على عمد

السابعة - قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم؛ تقول: نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهده؛ قال الشاعر:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كُنْتُ الَّذِي نَكَّرْتُ * مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّبَّ وَالصَّلَامَا

بجمع بين اللتين. ويقال: نكرت لما تراه بينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء السبر. وقيل: كانت تحم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق: قائمة تصل. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: « وأمراته قائمة وهو قائم ».

التاسعة - قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّحَهُ ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقا للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي اليرس عند طهورها * وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقال آخر،

وَضَحَكَ الْأَرَائِبُ فَوْقَ الصُّفَا * كَنَلِ دَمِ الْجَبُوفِ يَوْمَ الْفَا

والعرب تقول: ضحك الأرب إذا حاضت؛ وروى عن أبي عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم: ضحكت الكالورة - وهي قشرة الطلعة - إذا انشقت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجب؛ قال أبو ذؤيب

(١) كما في القصة القريفة، وفي الأصول (زيارة) - (٢) البيت الأخير.

جاءه بزوج لم ير الناس مثله . هو الضحك إلا أنه عمل التحل

وقال مقاتل : ضحك من خوف إبراهيم ، وبعده من ثلاثة نفر ، وإبراهيم في حشمه .
 وخدمه ، وكان إبراهيم يتوهم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيف في اللغة
 بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والقراء ذلك ، قال القراء : لم أسمعه من ثقة ، وإنما هو كناية .
 وروى أن الملائكة مسحت العجل ، فقام من موضعه فطحن يأمه ، فضحكت سارة عند
 ذلك فبشروها بما حق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرمضيفه أقام سارة
 تحميمهم ، فلذلك قوله : « وأمراته قائمة » أي قائمة في خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروح
 إبراهيم « فضحكت » فتسولم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال القراء : فيه تهديم
 وتأخير : المعنى : فبشروها بما حق فضحكت ، أي ضحكت سرورا بالولد ، وقد هيئت
 والله أعلم أي ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها - أنهم لما لم ياكلوا أنكرهم وخافهم ،
 فلما قالوا لا تخف ، وأخبروه أنهم رسل ، فرح بذلك ، فضحكت أمراته سرورا بفرحه .
 وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سيقتل بهم عذاب فطمع لوطا إليك ،
 فلما جاءت الرسل بما قاله سررت به فضحكت ، قال النحاس : وهذا إن صح إستلذه فهو
 حسن . والضحك أن تكشف الأسنان . ويموز أن يكون الضحك إشراق الوجه ، تقول :
 رأيت فلانا ضاحكا ، أي مشرقا ، وأثبت على روضة تضحك ، أي مشرق . وفي الحديث
 « إن الله يبعث السحاب فيضحك أحسن الضحك » . جعل أنجلاءه من البرق ضحكا ، وهذا
 كلام مستعار . وروى عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي « فضحكت »
 بفتح الحاء ، قال المهدوي : وضع « الحاء » من « فضحكت » غير معروف . وضحك يضحك
 ضحكا وضحكا وضحكا [أربع لثات . والضحكة المرة الواحدة ، ومنه قول كثير :
 ضحكت لضحكته رقاب المال]^(١)

قاله الجوهري :

(١) وضرك الضحك هنا بالصل أرشد - راجع القامد مادة (ضحك)
 (٢) صدر البيت :
 • عمر الزاد إذا تبسم ضاحكا •

(١) الزيادة من كتب اللغة :

الناشرة - وروى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرسه ، فكانت أمهاته يومئذ خادمهم وهي المروس . قال سهل : لا تدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أقعنت له تمرات من الليل في تور ، فلما أكل مسقته إياه ، وأخرجته البخاري وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس » . قال عطاءنا : نبيه جواز خدمة المروس زوجها وإصحابه في عرسها ، وفيه أنه لما بأس أن يمرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخدمهم لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحادية عشرة - ذكر الطيري أن إبراهيم عليه السلام لما قدم البعل قابوا : لا تأكل طعاما إلا بشئ ، فقال لهم : « ثمته أن تذكروا الله في أوله ومحمدوه في آخره » فقال جبريل الإصحابه : بحق أخذ الله هذا حليلا . قال عطاءنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وقد كان من الملائكة يأمر الله للملائكة أن يشككوا في صفة الآدمي جسدا وهيئة أن يسر لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشري بقاء] .

الثانية عشرة - ودل هذا على أن التسمية في أول الطعام ، والحمد في آخره مشروع في الأئمة قبلنا ؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه ، فلي يوما رجلا ، فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمع الله ، قال الرجل لا أدرى ما الله ؟ فقال له : فأنرج عن طمائي ، فليس أخرج زل إليه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فرما يحذر دلاءه ، وقال : أرجع ، فقال : لا أرجع حتى تخبرني لم تردني لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : وهذا رب كريم ، آمنت ؛ ودخل وسبى الله وأكل مؤمنا .

(١) التور : إيا ، كريب فيه الحرب ، وقد يجزأه ؛ ويضع من سفر أو جارة .

(٢) الزيادة من ابن العربي .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر
تمت سارة أن يكون لها ابن ، وأُست لكبر سنّها ، فبشرت بولد يكون نيا زيدا فكان
هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَيَمِّنْ وَرَأَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حزة وعبد الله بن
عاصم « يعقوب » بالنصب . ورفع الباقون ، فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحق
يعقوب . ويجوز أن يرفع بالفعل الذي يعمل في « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء
إسحق يعقوب . ويجوز أن يرفع بالأبتداء ، ويكون في موضع الحال ؛ أي بشروها بإسحق
مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوب . وأجاز الكسائي
والأنخس وأبو حاتم أن يكون « يعقوب » في موضع جر على معنى : وبشرناها من وراء إسحق
بمعقوب . قال الفراء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولولت :
مرتت يزيد أول من أسس وأمس عمرو كان قبيحا ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه
وهو الواو ، كما تفرقت بين الجار والمجرور ؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور ، ولا بينه
وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَنْوِلْنِي أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ

هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٥٦﴾

فيه مستفادت :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلاها يا ويلتي ؛ فأبدل من الياء
ألف ، لأنها أخف من الياء والكسرة ؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفف
على أنفواه النساء إذا طرا عليهن ما يسجين منه ؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخا لخروجها
عن العادة ، وما نرجع عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ أَلَدُ ﴾ استفهام معناه العجيب .
﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أي شبيخة . ولقد عجزت تعجرت عجرا وعجرت تعجرت ؛ أي طعنت في السن .
(١) والوجه تنه (وأسن بمرور) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم ، عطلت بعجزتها فجزا وعجزا بضم الميم
وقتها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين .
ولعل غير هذا .

الثانية - قوله تعالى : (وَهَذَا بَلَىٰ) أي زوي . (شَيْخًا) نصب على الحال ،
والعامل فيه التنبية أو الإشارة . « وهذا بلى » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفي قراءة
أبن مسعود وأبى « وهذا على شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم ، زيد بدل من
هذا ، وقام خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدا « وزيد قائم » خبرين ، وحكى
سيبويه : « هذا حلو حامض » . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة ،
لكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرضت بقولها : « وهذا بلى شيخا » أي
عن ترك شيئا لها . وسأله هذه امرأة إبراهيم بنت هارون بن ناحور بن شاروع بن أرفوخ بن
فالح ، وهي بنت عم إبراهيم . (إِنَّ هَذَا لَنِيَّ) أي الذي بشرتوني به لني . عجيب .
قوله تعالى : قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ
تَبَارَكَ أَهْلُ الْبَيْتِ بِأَمْرِ حَمِيدٍ حَمِيدٍ ﴿١٠٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ) لما قالت : « وأنا عجوز وهذا
بلى شيخا » وتعبت أنكرت الملائكة عليها تمنعها من أمر الله ، أي من فضائه وقدره ،
أي لا عجب من أن يرزقها الله الولد ، وهو إسحق . وبهذه الآية استدل كثير من العلماء على
أن المسيح إسماعيل ، وأنه أسق من إسحق ، لأنها بشرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له
يقرب . وسبأ في الكلام في هذا ، وبيانه في « الصفات » إن شاء الله تعالى .

(١) في تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ منه السمع » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتها حسن وعاقب
عقبه من » آية ١١٣ .

الثانية - قوله تعالى : (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ) مبتدأ ، والخبر (عَلَيْكُمْ) . وحكى
سيبويه « عليكم » بكسر الكاف لجوارها الياء . وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخباراً اشرف ؛
لأن ذلك يقتضى حصول الرحمة والبركة لهم ؛ المعنى : أوصول الله لكم رحمته وبركاته أهل
البيت . وكونه دعاء إنما يقتضى أنه أمر يُرجى ولم يحصل بعد . ونصب « أهل البيت »
على الاختصاص ؛ وهذا منذهب سيبويه . وقيل على التناهد .

الثالثة - هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت ؛ فدل هذا على أن أزواج
الأنبياء من أهل البيت ؛ فعائشة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه
وسلم ؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرُهُمْ تَطْهِيرًا » وسيأتي .

الرابعة - ودلت الآية أيضا على أن منتهى السلام « وبركاته » كما أخبر الله عن صالح
عاده « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة التو والزيادة ؛ ومن تلك البركات أن
جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وعب بن كيسان عن
أبي نعيم عن عبد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه
رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئا مع ذلك ؛ فقال
أبن عباس - وهو يومئذ قد ذهب بصره - من هذا ؟ فقالوا اليماني الذى يشاك ؛ فزفوه
أباه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن علي رضى الله عنه أنه قال : دخلت
المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى عصابة من أصحابه ، فقلت : السلام عليكم ؛
فقال : « وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشر لك » . قال : ودخلت الثانية ؛ فقلت :
السلام عليكم ورحمة الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك » .
فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فقال : « وعليك السلام ورحمة الله
وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت فى السلام سواء » . (إله حميد مجيد) أى محمود
ماجد . وقد بيناهما فى « الأسماء » .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ بِحَدِيثِنَا فِي قَوْمِ لُوطَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُو بِرَبِّهِمْ أَعْرَاضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ لِرَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبُونَ ﴿٧٦﴾ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٧﴾ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خلف ؛ قال النابغة :

لارتاع من صوت كلابٍ فبات له • طوع الشوايت من خوف ومن صرد
﴿ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَى ﴾ أى يأتى يعطوب • وقال قتادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف • ﴿ يَتْلُو ﴾ أى يحادل ولسنا ؛ وأضاف إلى نفسه ، لأنهم تزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة ؛ وذلك أنهم لما قالوا : « إنا مهلكو أهل هذه القرية » قال لهم : أرايتم إن كان فيها يعمسون من المسلمين أتاكم بهم ؟ قالوا : لا . قال : فأرايتهم ؟ قالوا : لا . قال : فتلاون ؟ قالوا : لا . قال : فمشرقون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة — أو خمسة شك حميد — قالوا : لا . قال قتادة : نحواً منه ؛ قال فقال معنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرايتم إن كان فيها رجل مسلم أتاكم بها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عليه السلام ذلك : « إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا أمراته كانت من الظالمين » . وقال عبد الرحمن بن شمرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جرير : وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكناني أن « يعادلنا » في موضع « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب « لما » يجب أن يكون بالماضى فجعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضى مكانه . وفيه جواب آخر : أن يكون « يعادلنا » في موضع الحال ؛ أى أقبل يعادلنا ؛ وهذا قول القراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ (١) الكتاب : صاحب الكتاب . يصف الشاعر نوباً وحسناً بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، واليد الذى أصابه حيث مر ، وسبه على ذلك الحال مرة أعاداه .

أَوَاهُ مُنِيبٌ ﴿١١١﴾ تَقْلَمُ فِي « بَرَاءة » مَعْنَى « لِأَوَاهُ حَلِيمٌ » . وَالْمُنِيبُ الرَّاجِعُ ؛ يُقَالُ : أَتَابَ إِذَا رَجَعَ . وَإِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ رَاجِعًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا . وَقِيلَ : الْأَوَاهُ الْمُنَاقِضَةُ أَسْفَلَ عَلَى مَا قَدَّحَتْ قَوْمُ لُوطٍ مِنَ الْإِيمَانِ .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أَيْ دَعْ عَنكَ الْجِدَالَ فِي قَوْمِ لُوطٍ . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ مَذَاهِبُهُمْ . ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أَيْ فَالْزِلْ بِهِمْ . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُدٍ ﴾ أَيْ غَيْرُ مُعْرُوفٍ مِنْهُمْ وَلَا مَدْفُوعٍ .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِنْهُمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفِرُ هُنَآءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿١١٤﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَى رُحْمَىٰ شَدِيدٍ ﴿١١٥﴾ قَالُوا يَنْطُوقُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَانْصِرْ بِأَذْنِكَ يِقْطَعُ مِنَ الْبَلِيلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ اللَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَمُومٍ مُنْضَوْدٍ ﴿١١٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ سَعِيدٍ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِنْهُمْ ﴾ لَمَّا تَخَرَّجْتَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَقَرِيَةِ لُوطٍ أَرْبَعَةُ فَرَاسِخَ بَصُرَتْ بَنَاتُ لُوطٍ - وَهِيَ تَسْتَبْشِرُ - بِالْمَلَائِكَةِ (١) قِسْرَاءُ ١١٤ .

ورأنا حيلة حسنة، فقالنا: ما شأنكم؟ ومن أين أتيتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية.
 قالنا: فإن أهلها أصحاب الفواحش، فقالوا: أيها من يضيغنا؟ قالنا: نعم! هذا الشيخ
 وأشارنا إلى لوط؛ فلما رأى لوط حيلتهم خاف قومه عليهم. («يأيها يوم») أي ساءه مجيئهم
 يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوء فهو متعمد أيضا، وإن شئت ضمنت السين؛ لأن
 أصلها الضم، والأصل سيئ سيئ بهم من سوء؛ قلبت حركة الواو على السين فاقلبت ياء،
 وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «يأيهم» غفقا، ولغة شاذة بالتشديد.
 («وضائق يوم ذرعا») أي ضاق صدره بجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته، وأصله
 أن يلدغ البعير بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه؛ فإذا حيل على أكثر من طوقه ضاق
 عن ذلك، وضغف ومدّ عنقه؛ فضيق اللدغ عبارة عن ضيق الوسع. وقيل هو من ذرعه
 التي أي غلبه؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من
 جاحلهم، وما يعلم من فسق قومه. وقال: («هذا يوم عاصب») أي شديد في الشر. وقال
 الشاعر:

وإنك إلّا ترض بكر بن وائل • يكن لك يوم بالعراق عاصب

وقال آخر:

يوم عاصب بعصب الأبطال • عصب القوي السلم الطوال

ويقال: عاصب وعصيب على الكثير؛ أي مكرره مجتمع الشر وقد عصب؛ أي عصب
 بالشر عصابة؛ ومنه قيل: عصابة وعصابة أي يجمعو الكلمة؛ أي مجتمعون في اتهمهم.
 وعصبة الرجل المجتمعون معه في النسب؛ وتعصبت لفلان صرت كعصيته، ورجل معصوب،
 أي يجمع الخلق.

قوله تعالى: («وجاءه قومه يهرعون إليه») في موضع الحال. «يهرعون» أي يهرعون.
 قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا أمرا مع وعدة؛ يقال:
 أهرع الرجل إهراما أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو شئ، وهو مهرع؛ قال سهل:

بَلَّاءُوا يَـٰرِعُونَ وَمِنْهُمْ أَسَارَى • تَقُوذُهُمْ عَلَى رَغْسِ الْأَنْوَرِ

وقال أخسر :

• بِمَجَلَّاتٍ نَحْوَهُ مَهَارِع •

وهذا مثل : أولع فلان بالأسر ، وأرمد زيد ، وزهى فلان . ونجى ، ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرع أى أهرعه حرصه ، وعمل هذا « يرعون » أى يستحثون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أهرع الرجل أى أسرع ، على لفظ ما لم يسم فاعله . قال ابن القوطية : هُرع الإنسان هرعاً ، وأهرع : يبق وأستعجل . وقال المروى : يقال : هُرع الرجل فأهرع أى استحيى . قال ابن عباس وقتادة والسدي : « يرعون » يهرولون . الضحاك : يسمون . ابن مينة : كأنهم يدفعون . وقال يهرين عطية : هو مشى بين الهرولة والجنزى . وقال الحسن : مشى بين مشين ، والمضى متقارب . وكان سبب إسماعهم ما روى أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما روى مثلهم جمالاً ، وكذا وكذا ، فليفتد جاؤوا يرعون إليه . ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرت له . وقيل : وجدوا أبنته تستقي ماء في نهر سدوم ، فسألوها الدلالة حل من يضيفهم ، ودرأت هيتهم تخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليهم ، فقالوا : نريد أن نضيفنا الليلة ، فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض — وقد كان الله عز وجل قال للملائكة لا تدبروه حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات . ثم دخل بهم المدينة •

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِ ﴾ أى ومن قبل عيسى الرسل . وقيل : من قبل لوط • ﴿ كَانُوا يَمْعُونُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى كانت عاداتهم إتيان الرجال . فلما ساحوا إلى لوط وقصصوا أضيافه

قال الزجاج : ويدل بها على أن كان محتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : (فَأَنفِقُوا لِلَّهِ وَلِلْمَخْرُوفِينَ فِي صَبِيحٍ) أى لا تبخلوا ولا تملكون . ومنه قول حسن :

فانزلك ربى يا حبيب بن مالك • ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
مددت يميناً للتي تمسكها • وذبت فاه قطعت . بالبوارق
ويصور أن يكون من الخزاية ، وهو الحياه ، والنجمل ، قال ذو الرمة :
خزاية أدركته بعد جزوئيه • من جانب الحبل مخلوطاً بها الفضب
وقال آخره

من البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت به • بها مرطها أو زابل الحبل جيداً
وضيف يقع للثنين والجمع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ، قال الشاعر
لا تصدى الدهر شفاف الجازر • للفصيف والفصيف أحق زائر

• ويصور فيه التنية والجمع ، والأول أكثر كقولك : وجال صوم وفطر وزور • وتخزي
الرجل خزاية ، أى استعيا مثل قل وهان • وتخزي خزياً إذا اقتضع ، وتخزي فيها جميعاً •
ثم وبجهم بقوله : (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَشِيدٌ) أى شديد بأسه بالمعروف وينهى عن المنكر .
وقيل : « رشيد » أى ذو رشد • أو بمعنى راشد أو مرشد ، أى صالح أو مصلح • ابن
عباس : مؤمن • أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الرشيد ، والرشيد والرشاد الهدى
والاستقامة • ويصور أن يكون بمعنى المرشد ، كالحكيم بمعنى الحكيم .

قوله تعالى : (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ) روى أن قوم لوط خطبوا
بناته فردهم ، وكانت ستمهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحمل له أبداً ، فذلك قوله تعالى :

(١) (خزاية) أى من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام في وصف فرد وحتى نقارده الكلاب . وفيه ،
حتى إذا هومت في الأرض راجسه • كيم ولو شاد نحمي تمسه الحرب
بمعنى أن التوراة من الحرب ترجع إلى الكلاب •

« قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق » وبعد ألا تكون هذه الخاصية فوجه الكلام أنه ليس لنا إنا بناتك تملق، ولا هن قصصنا، ولنا عادة نطلب ذلك . (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ) إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ) لما رأى استمرارهم في غيهم ؛ وضعف عنهم ، ولم يدر على دفعهم ، حتى لو وجد عوناً على ردهم ؛ فقال على جهة التفتيح والاستكثارة : « لو أن لي بكم قوة » أى أنصاراً وأعواناً . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أن » في موضع رفع بفعل مضمر ، تقديره : لو أنفق أو وقع . وهذا يطرد في « أن » التابعة لهـلـو . وجواب « لو » عذوف ؛ أى رددت أهل الفساد ، وحلت بينهم وبين ما يريدون . (أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) أى أجا وأنصوى . وقرئ « أَوْ آوَى » بالنصب عطفاً على « قوة » كأنه قال : لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد أى وإن آوى ؛ فهو منصوب بإضمار « أن » ومراد لوط بالركن الشجرة ، والمنعة بالكنة . وبلغ به قبح فعلهم إلى قوله هنا مع علمه بما عند الله تعالى ؛ فبرى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد . وفي البحار عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « برسم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد » الحديث ؛ وقد تقدم في « البقرة » . ورحبه الترمذى : « زاد » ما بعث الله بعده نبياً إلا في قوة من قومه . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ؛ حديث حسن . ويرى أن لوطاً عليه السلام لما ظله قومه ، وهما بكسر الساب وهو يسكنه ، قالت له الرسل : تبع عن آليات ؛ فتتخى وانفتح الباب ؛ فضر بهم جبريل بينماه فطمس أعينهم ، وعثوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النبأ ؛ قال الله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم » . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بأبه والملائكة معه في الدار ، وهو يناظر قومه ويتأصمهم من وراء الباب ، وهم يحاولون قصور الجدار ؛ فلما رأت الملائكة ما لى من الجهد والكرب والتعب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد ، وإلهم آتيتهم عقاب فيما مردود ؛

(١) جامع ج ٢ ص ٢٩٨ طبعه أهل أرتانة . (٢) آية ٣٧ من سورة القمر .

وإذ أرسل ربك ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فصر بهم جبريل بجناحه على ما تقدم ، وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من حد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا أهدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أحمر من عل وجه الأرض ، وقد سمروا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وأضطرابه ومدافسته همومه بأضيقهم ، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول ، فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعمل أيديهم بحقت . ﴿ تَنْ يَصُلُّوا إِلَيْكَ ﴾ أى بمكره . ﴿ فَأَسْرِ بِأَمْلِكَ ﴾ قرئ : « فأسر » بوصول الألف وقطعها ؛ لفنان فصيحتان . قال الله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى » . وقال التابغة : يجمع بين اللتين : أسرت عليه من الجوزاء سارية . ترمى الشمال عليه جامدة البرد وقال آخر :

حتى التصنيرة رنة الحندير • أسرت إليك ولم تكن تسرى
وفد قيل : « فأسر » بالقطع إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه • قصى عملا والمرء ما عاش طاميل
وقال عبد الله بن رواحة :

عند الصباح يحمّد القوم السرى • ويحكي عنهم غيابات الكرى
﴿ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل . الضحاك : بغيمة من الليل . قتادة : بعد مضي صدر من الليل . الأخفش : أبعد جنح من الليل . ابن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بزمانه من الليل . وقيل : بعد هدوء من الليل . وقيل : هرب من

(١) وروى (مرت) . بقوله : إن السحابة سرت في الجوزاء . فذلك شيئا بالجوزاء .

الليل . وكأها متفاربة ، وقيل : إنه نصف الليل ، مأخوذ من قطعه نصين ، ومنه قول الشاعر :

ونائجة تسوح بقطع ليل * على رجل بقارعة الصعيد

فإن قيل : السرى لا يكون إلا بالليل ، فما معنى « بقطع من الليل » ؟ فأجواب : أنه لو لم يقل : « بقطع من الليل » جاز أن يكون أوله . (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ) أي لا ينظر وراءه منكم أحد . قاله مجاهد . ابن عباس : لا يظلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يستغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . (إِلَّا أَمْرًا نَكُ) بالنصب ، وهي الصراة الواضحة البينة المعنى ، أي فاسر بأهلك إلا أمرًا نك . وكذا في قراءة ابن مسعود « فاسر بأهلك إلا أمرًا نك » فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْغَائِرِينَ » أي من الغافلين . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « إِلَّا أَمْرًا نَكُ » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ، وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نك ، لأن المعنى يصير - إذا أبدلت وبزمت - أن المرء أبيع لما الانفتاح ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الجمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالة وعمله من العربية لا يجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لملاجه : فلان ، فلفظ النهي لفلان ومناه للغاطب ، أي لا تدعه يخرج ، ومثله قولك : لا يتم أحد إلا زيد ، يكون معناه : إنهم عن القيام إلا زيدا ، وكذا النهي للوط وقضه لنيره ، كأنه قال : إنهم لا يلتفت منهم أحد إلا أمرًا نك . ويجوز أن يكون استثناء من النهي عن الانفتاح لأنه كلام تام ، أي لا يلتفت منكم أحد إلا أمرًا نك فأنها تلفت وتهلك ، وإن لوطا خرج بها ، ونهى من معه من أسرى بهم إلا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ، فأنها لما سمعت هذه العذاب التفت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . (إِنَّهُ مُصِيبُهَا)

أَيُّ مِنَ الْعَذَابِ . وَالْكَاتِبَةُ فِي « إِنْهُ » تَرْجِعُ إِلَى الْأَمْرِ وَالشَّانِ ؛ أَيُّ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالشَّانَ وَالْقِصَّةَ . وَ« مُصِيبًا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ » لَمَّا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : « إِنَّا مُنْذِرُكُمْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قَالَ لُوطٌ : الْآنَ الْآنَ . اسْتَجَبَ لَهُمُ بِالْعَذَابِ لِنِيطِلُهُ عَلَى قَوْمِهِ ؛ فَقَالُوا : (الْيَوْمَ الصُّبْحُ يَقْرُبُ) وَقَرَأَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ « أَلَيْسَ الصُّبْحُ » بِضَمِّ الْبَاءِ وَهِيَ لَفَةٌ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَمَلُ الصُّبْحِ مِثْلًا لَهَا كَلَهُمْ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ فِيهِ أَوْدَعُ ، وَالنَّاسَ فِيهِ إِجْمَعُ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ : إِنْ لُوطًا نَجَّاهُ بِإِثْنَيْ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُمَا عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ لَهُ : إِنْ أَتَى قَدْ وَكَلِ هَذِهِ الْقَرْيَةَ مَلَائِكَةُ مَعَهُمْ صَوْتُ رَعْدٍ ، وَخُطْفُ بَرْقٍ ، وَصَوَاقٍ عَظِيمَةٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا لَمْ أَنْ لُوطًا سَيَخْرُجُ فَلَا تَوْذُوهُ وَأَمَارَتُهُ أَنَّهُ لَا يَنْفُتْ ، وَلَا تَنْفُتْ أَبْنَاءَهُ فَلَا يَهْلُوكُ مَا تَرَى ؛ نَفْرَجُ لُوطَ وَطَوَى اللَّهُ لَهُ الْأَرْضَ فِي وَقْتِهِ حَتَّى نَجَّاهُ وَوَصَّلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) أَيُّ عَذَابِنَا . (جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) وَذَلِكَ أَنَّ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ادْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ قَرْيَةِ قَوْمِ لُوطَ ، وَهِيَ نَمَسٌ : سَدُومٌ - وَهِيَ الْقَرْيَةُ الْمَعْلُومَةُ - وَعَامُورًا ، وَدَادُومًا ، وَضَمُّوهُ ، وَقَمُّ ، فَرَفَعَهَا مِنْ غُحُمِ الْأَرْضِ حَتَّى أَدْنَاهَا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا فِيهَا ؛ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نَهْيَ حَرَمِهِمْ وَصِيَاحَ دِيكَنِهِمْ ، لَمْ تَنْكُفْ لَمْ جَرَّةً ، وَلَمْ يَنْكُفِرْ لَمْ إِنْهَاءً ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَأَتْبَعَهُمْ إِلَهُ بِالْجَحْشَةِ . مَقَالٌ : أَهْلَكَتِ أَرْبَعَةً ، وَنَجَّيْتَ ضَمُّوهُ . وَقِيلَ : غَيْرَ هَذَا ؛ وَفَالَهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مِنْ سَجِيلٍ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مِنْ فَعْلٍ فَلَهُمْ حِكْمَةٌ الرَّجْمُ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْأَعْرَافِ » . وَفِي التَّفْسِيرِ : أَمْطَرْنَا فِي الْعَذَابِ ، وَمَطَرْنَا فِي الرَّحْمَةِ ؛ وَأَمَّا كَلَامُ الْعَرَبِ فَيُقَالُ : مَطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ ؛ حِكْمَةُ الْفَرْوَى . وَاخْتَفَافُ فِي السَّجِيلِ ؛ فَقَالَ النَّعَّاسُ : السَّجِيلُ الشَّدِيدُ الْكَثِيرُ ؛ وَجَبِيلٌ وَجَبِينٌ اللَّامُ وَالتَّوْنُ أَخْتَانٌ . وَقَالَ أَبُو حَيْدَةَ : السَّجِيلُ الشَّدِيدُ الْكَثِيرُ ؛ وَأَشْدُّ :

• ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ حَيًّا •

(١) فِي ضَبْطِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ اخْتِلَافٌ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ ذِكْرِهَا بَعْضُ الْقُرَّانِ . (٢) وَاجِبٌ بِهِ ٢٤٣ ص ٢٤٣ طَبْعَةُ أَمَلِ أَرَنَاتِيَّةٍ . (٣) كَذَا فِي بَعْضِ الْأَصُولِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَمْرِ (الْيَتَانِي) . (٤) سَيِّاقُ الْبَيْتِ يَتَاهُ فِي ص ٥٨٤ .

قال النحاس : ورد عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا مجين وذلك مجيل فكيف يستشهد به ؟ قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم ؛ لأن أبا حنيفة ذهب إلى أن اللام تبديل من التون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبي حنيفة برء من جهة أخرى ؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة حبيلا ؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو حنيفة عن الفراء أنه قد يقال حجارة الأرحاء مجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن حبيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن أبي عمير : إن حبيلا لفظه غير عربية حرّيت ، أصلها شح وجيل . ويقال : سنك وركل ؛ بالكاف ، موضع الجبل ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما المعرب بلفظهما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : « لا ترسل طينهم حجارة من طين » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشذبت . والسجيل عند العرب كل شديد صلب . وقال الضحاك : يعني الآجر . وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر ؛ وعنه أن حبيلا أسم السماء الدنيا ؛ ذكره الهروي ؛ وحكاه النحاس من أبي العالية ؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه زلت الحجارة . وقيل : هي جبال في السماء ، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله : « ويترسل من السماء من جبال فيها من برء » . وقيل : هو مما يجعل لم أي كتيب لم أن يصيبهم ؛ فهو في معنى مجين ؛ قال الله تعالى : « وما أدراك ما مجين » . يكاب مرقوم . قاله الزجاج وأخاره . وقيل : هو قيل من أمجته أي أرسلته ؛ فكانها مرسله عليهم . وقيل : هو من أمجته إذا أعطيته ؛ فكانه مذاب أعطوه ؛ قال :

مَنْ يُسَاجِلِي يُسَاجِلْ مَا جِدَا • يَمَلَأُ النَّوْءَ إِلَى عَقْدِ الْكَوْبِ

(١) البيت لقنن بن عباس بن حبة بن أبي لب . وأصل المساجلة أن يسبق سابقان فيخرج كل واحد منهما في جهة (دواء) مثل ما يخرج الأنثاء كلها كل قدة طب ؛ فخرج العرب مثلا لقننة . والمكرب : المحسل الذي يشعل النار منه المكين وهو الخيل الأول .

وقال أهل الماني ، السجبل والسجين الشديد من البحر والضرب ، قال ابن مقبل ،

ورجله يضربون اليقظ ضاربة ١١ ضرباً توافق به الأبطال يبعثه

(منضود) قال ابن عباس : متاج . وقال قتادة : نُضد بعضها فوق بعض . وقال

الزبيح : نُضد بضه على بعض حتى صار جسداً واحداً . وقال عكرمة : نصقوف . وقال بعضهم مرصوص ، والمعنى متقارب . يقال : نُضدت الخناجع واللين إذا جعلت بضه على بعض ، فهو منضود ونُضد ونُضدٌ ، قال ،

• وروفته إلى السجطين فالنضيد •

وقال أبو بكر المذلي : مُعد ، أي هو ما أمده الله لأعدائه القائلة . (مُسومة) أي مملأة ،

من السياء وهي العلامة ، أي كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر أسم من رمى به ، وكانت لانتاش كل حجارة الأرض . وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد

في بياض ، فذلك تسويها . وقال كعب : كانت مملأة بياض وحمرة ، وقال الشاعر ،

فلام رماه الله بالحسن يافعاً • له سيماء لا تشق على البصر

و «مُسومة» من نعت حجارة . و «منضود» من نعت «سجبل» . وفي قوله : (عند

ربك) دليل على أنها ليست من حجارة الأبرص ، قاله الحسن . (وما هي بين الظالمين ببيد)

يعني قوم لوط ، أي لم تكن تحطهم . وقال مجاهد : يُرهب فرساً ، المعنى : ما الحجارة من

ظالمى قومك يا محمد ببيد . وقال قتادة وعكرمة : يعني ظالمى هذه الأمة ، والله ما أجاز الله

منها ظالم بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سيكون في آخر أمتي قوم

يكنى رجالهم بالرجال ونساءهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا مذاهب قوم لوط أن يرسل

الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما هي بين الظالمين

(١) ويرى في السات : (يصر يون ليس من مرض)

(٢) البيت لأسيد بن خلف الفراءى يمدح عمه حين قاسمه ماله و ربهه :

كأنت القربى ما كنت بوقد تحسره • دأب جهده القنرى وفي وجهه القنر

وقوله : (له سيماء لا تشق على البصر) أي يفرح به من يراه

يُخَيَّرُ . وفي رواية عنه عليه السلام : « لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك » . وقيل : المعنى ما هذه القرى من الظالمين يبعيدوهي بين الشام والمدينة . وجاء « يبعيد » مذكرا مل معنى يمكن يبعد . وفي الحجارة التي أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفضها جبريل . الثاني — أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعالى : وَلَئِكَ مَدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُونَ أَبَعْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِيَّاكُمْ يَحْجِرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يُحِيطُ ﴿٨٥﴾ وَيَقُومُ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ بَقِيتَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٧﴾ قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أُمُورِنَا مَا نَسْتَوْا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٨﴾ قَالَ يَنْفِقُونَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكَ لَكَ مَا أَنْتَ بِكَ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٩﴾ وَيَنْفِقُونَ لَا يَخِفُونَ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٩٠﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩١﴾ قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ

وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ۝ قَالَ يَقَوْمِ أَأَلِغِيَّتِي أَنْتُمْ عَلَيَّ مِنَ اللَّهِ
وَأَجْعَلُونِي دُونَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ غَبِيطٌ ۝ وَيَقَوْمِ
اتَّخَذُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوِيفٌ تَعْمَلُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۝ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنُفِيتَنَا
شُعَبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيبَرِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ فِيهَا إِلَّا بِبُعْدِ آيَاتِنَا
كَمَا بَعْدَتْ نُفُودٌ ۝

قوله تعالى : (وَإِلَىٰ مَدِينٍ آتَاهُمْ شُعَبًا) أى وارسلنا إلى مدنين ، ومدنين هم قوم
شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدنين بن إراهيم ، فقبل : مدنين
والمراد بنو مدنين ، كما يقال . مَقَرُّ والمراد بنو مَقَر . الثاني — أنه أسم مديتهم ، ففسروا
إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدنين لأنه أسم مدينة ، وقد تقدم فى « الأعراف » هذا
المعنى وزيادة . (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) هتتم . (وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى) كانوا مع كفرهم أهل جنس وتطعيف ، كان إذا جدهم البائع بالطعام أخذوا بكل
زائد ، وأستوفوا بفاية ما يقديرون وظلموا ، وإن جدهم مشتري للطعام باعوه بكل ناقص ،
وشححو له بفاية ما يقديرون ، فأصروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نيا من التطعيف .
(إِلَىٰ أَرَأَيْتُمْ يَخْتَرُ) أى فى سعة من الرزق ، وكثرة من النعم . وقال الحسن : كان سمرهم
وخيصا . (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٌ) وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك
اليوم بالإحاطة بهم ، فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط بالذاب بهم ، وهو كقولهم
يوم شديد ، أى شديد حره . وأختلف فى ذلك العذاب ، فقبل : هو عذاب النار فى الآخرة .

وقيل : مذنب الاستئصال في الدنيا . وقيل : غلاء السحر؛ روى عنه عن ابن عباس .
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم الجنس في المكيال والميزان
إلا ابتلاهم الله بالفسطاط والقلاه " . وقد تهدم .

قوله تعالى : ﴿ وَبَا قَوْمِ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن
التطفيف تأكيداً . والإيفاء الإتمام . « بالقسط » أى بالعدل والحق ، والمقصود أن يصل
كل ذى نصيب إلى نصيبه ، وليس يريد إيفاء المكيال والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال
والميزان ، بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المهدود ، وكذا الصنجات . ﴿ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بين أن
الحياة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض ، وقد مضى في « الأعراف » زيادة
لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ هَيْهَاتُ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى ما يقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر
بركة ، وأحمد عاقبة مما تبقره أتم لأشكم من نضل التطفيف بالجبر والنظم ، فال معناه القبري .
وغيره . وقال مجاهد : « يقيه الله خيركم » يريد طاعته . وقال الزبيح : وصية الله . وقال
الفراء : مرأية الله . بن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حفظكم من ربكم خير لكم . وقال
ابن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا
إن كانوا مؤمنين . وقيل . يعمل أنهم كانوا يعرفون بأن الله خالقهم فطاعته بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَقِيقٍ ﴾ أى رقيب أرقبكم عند بكم ووزنكم ، أى لا يمكنني شهود كل معاملة تصدق
منكم حتى أواخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتبها لى أن أحفظكم من إزالة هم الله عليكم
بمصاصكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرًا ﴾ وقيل : « أَصْلَاتُك » من غير جمع . ﴿ تَأْتِيكَ أَنْ
تَرْكُ مَا يَبْعُدُ أَبَاؤُنَا ﴾ « أن » في موضع نصب ، قال الكاسي : موضعها خفض على إضمار الباء .

وروى أن شعبيا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول :
 الصلاة نهى عن الفحشاء والمنكر، فلما أمرهم ونهاهم ميروهم بما رأوه يستدبر عليه من كثرة الصلاة،
 واستهزؤا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سفيان
 عن الأعمش ، أى قراءة تأمرك ، ودل هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن : لم يبعث
 الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة . (**أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ**) زعم الفراء أن التقدير:
 أو نهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء . وقرأ السلي والضحاك ابن قيس « أو أن تفعل في أموالنا
 ما نشاء » بالياء في الفعلين ، والمعنى : ما نشاء أنت يا شعب . وقال النحاس : « أو أن » على هذه
 القراءة معطوفة على « أن » الأولى . وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان ما نهاهم عنه حذف^(١)
 الدرام . وقيل : معنى « أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم
 تمتنا منه ١٩ . (**إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**) يعنون عند نفسك بزعمك ، ومثله في صفة أبي
 جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أى عند نفسك بزعمك . وقيل : قالوه على وجه
 الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة . ومنه قولهم للبهشي : أبو البيضاء ، ولأبييض أبو الجون^(٢) ؛
 ومنه قول نخلة جهنم لأبي جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » . وقال سفيان بن عيينة :
 العرب تصف الشيء بضده للتطير والتفاؤل ؛ كما قيل للدينغ سليم ، وللغلاة مفازة . وقيل : هو
 تعريض أرادوا به السب ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدل ما قبله على صحته ، أى إنك أنت
 الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آبائنا ! ويدل عليه « أسألتك تأمرتك
 أن تترك ما يعبد آبائنا » أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون
 بأمرهم بترك ما كان يعبد آبائهم ، وبعدمه أيضا ما يدل عليه « قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ
 مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا جَسَدًا » أى أعلنا أنها كم من الضلال ! وهذا كله يدل على أنهم قالوه
 على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بنى قريظة للنبي صلى
 الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القردة » فقالوا : يا جد ما علمناك جهولا !

(١) حذف لئى . فله من أطرافه . (٢) الجون هنا الأسود .

مسئلة - قال أهل التفسير: كان مما بينهما عنة، وعذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لفضل لم القراضة، وكانوا يتاملون على الصحاح عداً، وعلى المقرضة وزناً، وكانوا يخشون في الوزن. وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كعبد بن المسيب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرها ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحاً قام منها، وظلّمت فاندثرت، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك للناس، ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» أنهم ذنوب الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي.

مسئلة: قال أصبح قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جندة مولى زيد بن الحارث التقي: من كسرها لم تقبل شهادته، وإن آخذت بالجهالة لم يعذر، وليس هذا موضع حذر؛ قال ابن العربي: أما قوله: لم تقبل شهادته فلائنه أتى كثيرة، والكجائر تسقط العدالة دون الصفائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلائنه أمر بين لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من البعد؛ كما قال مالك.

مسئلة: إذا كان هذا معصية وفساداً تزد به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومرة ابن المسيب رجل قد جلد فقال: ما هذا؟ قال: رجل يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ابن المسيب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن صفيان. وقال أبو عبد الرحمن النخعي: كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتني رجل وقد شهد عليه فضربه وسقاه، وأمر نطيف به، وأمره أن يقول: هذا جزاء من يذلع

الدرهم ؛ ثم أمر أن يرد إليه؛ فقال : إنه لم يمتنى أن أقطع بك إلا أنى لم أكن تقدمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدمت في ذلك فن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفضل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المصيبة ، وطريقا إلى التجميل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمصيبة ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ؛ وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدرهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : ليس الحرز أصلا في القطع ؛ فلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تبيتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما جزها ، وحرز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أفند ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدرهم . وقد قال علماءنا المسالكية : إن الدنانير والدرهم خواتيم الله عليها اسمه ، ولو قطع على قول أهل التأويل من كسرها كما كان أهل اللبك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أذهب ؛ وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قاله ابن العربي : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفضل ذلك أيام توليت الحكم ، إلا أنى كنت محفوقا بالجهال ، فلم أحب بسبب المقال للمسدة الضلال ، فن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله أحسبا بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ تفلسم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أى واسعا حلالا ؛ وكان شعيب عليه السلام كثير المال ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أى أفلا أنهاركم عن الضلال ؛ وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيتة من ربى » أتبع الضلال . وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيتة من ربى » أناصرونى بالصبيان في البخس والتطفيف ، وقد أغضى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ ﴾ في موضع نصب به « ما يريد » . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾ أى ليس أنهاركم عن شيء وأرتكبته ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾

مَا أَسْتَطَعْتُ) أى ما أريد إلا فعل الإصلاح ؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعدل ، وآخرتكم بالعبادة ؛ وقال : « ما أَسْتَطَعْتُ » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية ؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعى . (وَمَا تَوْفِيقِي) أى رشدى ، والتوفيق الرشد . (إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أى أَعْتَمَدْتُ . (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أى أرجع فيما يزل بى من جميع التائب . وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : (وَبِاقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَكُمْ) وقرا يحيى بن وثاب « يُؤْمِنُونَكُمْ » . (شِقَاقِي) فى موضع رفع . (أَنْ يُصِيبَكُمْ) فى موضع نصب ؛ أى لا يهلككم معاداتى على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : لا يكسبكم شقاقى أصابكم العذاب ، كما أصاب من كان قبلكم ؛ قاله الزجاج . وقد تقدم معنى « يؤمِّنكم » فى « المائدة » و « الشقاق » فى « البقرة^(١) » وهو هنا بمعنى العداوة ؛ قاله السدى ؛ ومنه قول الأخطل :
أَلَا مَن مَّيْلُغٌ عَنِّي رَسُولًا^(٢) . فكيف وجدتم طعم الشقاق

وقال الحسن : إضرارى . وقال قتادة : فراق . (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) وذلك أنهم كانوا حذيق عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد ؛ أى بمكان بعيد ؛ فلذلك وحد البعيد . قال الكسافى : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعالى : (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) تقدم . (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) آسمان من أسمائه سبحانه ، وقد بينهما فى كتاب « الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى » . قال الجوهرى : وقَدَّت الرجل أودته إذا أحبته ، والودود المحب ، والودَّ والودَّة والودَّة والمودة المحبة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شيئا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » .

(١) راجع به ٦ ص ٤٤ وما بعدها طبة أول أو ثالثة . (٢) راجع به ٢ ص ١٤٣ طبة ثالثة .

(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا ضَعِيفٌ مَّا فَعَلَ كَثِيرًا يَمَسُّ الْقَوْلَ) أى ما تفهم ، لأنك لمحملا على أمور غائبة من البت والنشور ، وصطفنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إضرارا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه ؛ يقال : ففقهه إذا فهم فقهها ؛ وحكى الكسائى فقهه فقهها وقفا إذا صار فقها . (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا) قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثوري ؛ وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن جبيرا يقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضر بذهاب بصره ؛ كما يقال له مكفوف ؛ أى قد كف عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علي بن خنيس . وقال السدي : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر به على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفا » نصب على الحال . (وَلَوْلَا رَهْطُكَ) رفع بالابتداء ؛ وrehط الرجل عشيرته الذى يستند اليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الرهطاء لجحر البريوع ؛ لأنه يتوقى به ويحيا فيه ولده . ومعنى (لَرَجْمَاكَ) لفتنناك بالزجر ؛ وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجوه بالجمرة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لَرَجْمَاكَ » لشتنناك ؛ ومنه قول الجعدى :

تراجشنا بمز القبول حتى • نصير كأننا قرسا رهان

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . (وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمُزِيرٍ) أى ما أنت طينا بقال ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ ارْهَطُوا) « ارهطوا » رفع بالابتداء ؛ والمعنى ارهطوا فلوهم (أَعْرِضْ عَنْكُمْ يَنْ آتِي) وأعظم وأجل وهو يملككم . (وَاتَّخِذُوا وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي) أى اتخذتم ما جئكم به من أمر الله ظهريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، واستتمتم من قتلى مخالفة قومي ؛

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصربت من كتب الله ؛ ومادة الأصل : فقهه إذا فهم فقهها وقفا ؛ حتى الكسائى فقهها وقفا نقها إذا صار فقها .

يقال : جعلت أمره يظهر إذا فصرت فيه ، وقد مضى في « البقرة » . (إِنَّ رَبِّي يَأْتَمِرُونَ)
أى من الكفر والمعصية . (غُيِّطَ) أى علم . وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : (وَيَأْتِيهِمْ أَنْهَالُ مَآثِقِهِمْ إِنْ عَامِلُوا سَوْفَ يَعْلَمُونَ) تهديد ووعد ؛
وقد تقدم في « الأنعام » . (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) أى يهلكه . و « من » في موضع
نصب ، مثل « يَعْلَمُ الْمُفْسِدُ مِنَ الْمُصْلِحِ » . (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) عطف عليها . وقيل :
أى وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : في عمل رفع ؛ تقديره : ويخزي من هو
كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فيعلم كذبه ؛ ويذوق وبال أمره . وزعم الفراء
أنهم إنما جاءوا به ، هو ، في « ومن هو كاذب » لأنهم لا يقولون من قائم ؛ إنما يقولون :
مَنْ قام ، وَمَنْ يقوم ، وَمَنْ القائم ؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فعل ويقبل . قال
النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله :

مَنْ رُسُولِي إِلَى اللَّهِ يَأْتِي . ضُمَّتْ دَرَجَةً بِهَجَرِهَا وَالْكِتَابِ

(وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَعْكَ رَسُولًا) أى أنتظروا العذاب والسخط ، فإن متظروا النصر والرحمة .

قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم
من أجسادهم . (نَحْنُ شُعْبَاءٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَةٌ مِّنَّا) وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ) أى
صيحة جبريل . وأنت الفعل على لفظ الصيحة ، وقال في قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا
الصيحة » فذكر على معنى الصياح . قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بسذاب واحد إلا
قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من
تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَانُوا
يَقْتُلُونَ فِيهَا الْإِنْسَانَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ) تقدم معناه . وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن
السبيعي قرأ « كَانُوا يَكْفُرُونَ » بضم العين . قال النحاس : المعروف في اللغة أنه يقال يسعد

(١) داجج ٢٠ ص ٤٠ طبة ثانية .

(٢) داجج ٢٠ ص ٧٩ طبة أول أو ثانية .

(٣) مؤخرين الآية .

يَعْدُ بَعْدًا وَبَعْدًا إِذَا هَلَكَ . وقال المهدوي : من ضم العين من « بعدت » فهي لغة تستعمل في الخبر ونشر ، ومصدرها البُعد ؛ وبُعدت تستعمل في الشر خاصة ؛ يقال : بُعِدَ بَعْدًا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللتين لتقاربهما في المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١٦
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ١٧
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ١٨
وَأَتَّبَعُوا فِي هُنْدِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ أَلْفُ الْمَرْفُودِ ١٩

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا) بين أنه أتبع النبي الذي لإقامة الحجّة ، وإزاحة كل حيلة « بِآيَاتِنَا » أي بالنبوة ؛ وقيل : بالمعجزات . (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أي حجة بينه ؛ يعني العصا . وقد مضى في « آل عمران » معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) أي شانه وحاله ، حتى أخذوه إلهًا ، وخالفوا أمر الله تعالى . (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) أي بسديد يؤدي إلى صواب . وقيل : « برشيد » أي بموئيد إلى خير .

قوله تعالى : (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قدّمهم بقدّمهم قدما وقُدّموا إذا تقدّمهم . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) أي أدخلهم فيها . تُكْرَرُ بلفظ الماضي ؛ والمعنى فيوردهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكانه كأن ؛ فهذا يبر عن المستقبل بالماضي . (وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ) أي بئس المدخل المدخول ؛ ولم يقل بئس لأن الكلام يرجع إلى المورود ؛ وهو كما تقول : تم المنزل دارك ، وضمت المنزل دارك . والمورود الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . (ولس أرفد المرفود) حكى الكسائى وأبو عبيدة : رَفَدَهُ أَرْفَدَهُ رَفْدًا ؛ أى أعتبه وأعطيته . وأسَمُ العطية الرَفْدُ ؛ أى بئس العطاء والإطاعة . والرَفْدُ أيضا الفدح الضخم ؛ قاله الجوهري ، والتقدير : بئس الرَفْدُ وفد المرفود . وذكر المساورى أن الرَفْدَ بفتح الراء الفدح ، والرَفْدُ بكسرهما ما فى الفدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمى ؛ فكانه ذم بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرَفْدَ الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الفرق النار ؛ قاله الكلبي .

قوله تعالى : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَيْنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٥٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قَدْ أَضَلَّتْ عَنْهُمْ سَبِيلُهُمْ ﴿١٥٦﴾ أَلَمْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَلَلِيًّا ﴿١٥٧﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْقَيْنِ وَهُمْ طَائِفَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَتَمَّ شَيْدٌ ﴿١٥٨﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٥٩﴾ وَمَا نَقَرُّهُمْ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٦٠﴾ يَوْمَ يَلُتْ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنُفِثَتْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٦١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَنُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنْ رَبُّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَنُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ ﴿١٦٤﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرَّةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَتُولًا مِمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ) «ذلك» رفع على إخبار مبتدأ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى : ذلك النبا المتقدم من أنباء القرى نقصه عليك . (مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) قال قتادة : القائم ما كان خاويًا على عروشه ، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العاصر ، والحصيد الخراب ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستاصل ؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والناس في قسم المنيّة بينهم * كالزّرع منه قائمٌ وحصيدٌ

وقال آخر :^(١)

إنما نحن مثلُ خاتمةِ زَرْجٍ • ففى يَأْتِ يَأْتِ حَصِيدُهُ

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود ، وجمعه حصيدى وحصائد مثل مرضى ومرضى ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصيدى ، مثل قتييل وقتلى . (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) أصل الظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه ، وقد تقدم فى « البقرة » مستوفى . (وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بالكفر والمعاصى . وحكى سيويه أنه يقال : ظلم لياؤه . (قَالَا أَغْنَتْ) أى دفت . (عَنْهُمْ) أَلَيْسَ بِهِمْ أَلَيْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ أَفَدٍ مِنْ قَبْلِ) فى الكلام حذف ؛ أى التى كانوا يدعون ؛ أى يبدون . (لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَحَبَّبُ) أى غير تحسّر ؛ قاله مجاهد وقاتة .

وقال ليلى :

فلقد رَيْتُ وكلَّ صاحبٍ جَدَّةٍ • لَيْسَ يَمُودُ وَذَاكُمْ التَّحَبُّبُ

والنَّبَابُ الهلاك والفساد ، وفيه إخبار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام - لحذف المضارع ؛ أى كانت عبادتهم لها قد خسرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى) أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وداود وعمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وثمرا حاصم الجحدري وطاسمة بن مصرف « وكذلك أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى » . وعن الجحدري أيضا « وكذلك أَخَذَ رَبُّكَ » كالجماة « إِذَا أَخَذَ

(١) البيت لطرام ؛ كما فى اللسان . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طبة ثانية أرتاللة .

القرى . قال المهدوي : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أخذ ربك من أخذ من الأمم المهلكة إذا أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر ، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذا مضى ، أى حين أخذ القرى ؛ وإذا استقبل . (وَيَحْيَ ظَالِمَةً) أى وأهلها ظالمون ؛ وخلف المضاف مثل : « وآسال القرية » . (إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ) أى عقوبته لأهل الشرك موجبة غليظة . وفي صحيح مسلم والترمذي من حديث أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح شريف .

قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أى لعبرة وموعظة . (لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) . (ذَلِكَ يَوْمٌ) ابتداء وخبر . (مَجْمُوعٌ) من نعمته . (لَهُ النَّاسُ) أسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل : مجموعون ؛ فإن قدرت أرفاع « الناس » بالابتداء ؛ والخبر « مجموع له » فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ؛ أى يحشرون لذلك اليوم . (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) أى يشهده البر والفاجر ؛ ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين اليمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : (وَمَا تَوْفِيقِي) أى ما توفيقك اليوم . (إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ) أى لأجل سبق به فضاءنا ، وهو معدود عندنا . (يَوْمَ يَأْتِي) وقرئ « يوم يأت » لأن الياء تخلف إذا كانت قبلها كسرة ؛ يقول : لا أدر ؛ ذكره القشيري . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج ؛ وحذفها في الوقف ؛ وروى أن أباياً وابن مسعود قرأا « يوم يأتني » بالياء في الوقف والوصل ؛ وقرأ الأعمش وحمة « يوم يأت » بفتح ياء في الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه في هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء ؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تخلف الياء ، ولا يحزم الشيء بغير جازم ؛ فاما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائي ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالخزوم ، تخلف الياء ، كما

تحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لجذف الياء في الوصل والوقف بمجتين؛ إحداهما - أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بغير ياء . والحجة الأخرى - أنه حكى أنها لغة هذيل؛ تقول: ما أدري؛ قال النحاس: أما حجتهم بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي: ذهب؛ وأما حجتهم بقولهم: « ما أدري » فلا حجة فيه؛ لأن هذا الجذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه . وأشدّ القراء في حذف الياء :

كَفَّارَكَ صَكَّفَ مَا يَلِيْقُ دِرْهَمًا • جَوْدًا وَآخِرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدِّمَاءَ

أنى تعطى، وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدري، فتحذف الياء ويجزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء؛ قال: والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة، وقد جاء مثله في كلام العرب: « لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ » الأصل نتكلم؛ حذف إحدى التامين تخفيفا، وفيه إحصاء، أى لا نتكلم فيه نفس إلا بالإذن فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك التبيين . وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل: إن لهم في الموقف وقفا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين، فيقول لم قال: « لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . وقال في موضع من ذكر القيامة: « وَأَقْبَلْ بِمَعْصُومٍ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَمُونَ » . وقال: « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ عَنْ نَفْسِهَا » . وقال: « وَيَقُولُ لِمَ كُنْتُ مَسْئُولُونَ » . وقال: « قِيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا نَجَّيٌّ » . والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضا، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فاما التكلم والناطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيرا، وخطابه فارغ عن الحجّة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء؛ ففسى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف في بعضها يمتعون من الكلام ، وفي بعضها يطلق لهم الكلام ؛ فهذا يدل على أنه لا نتكلم نفس إلا بإذنه . (فَبَشِّرْهُم بِشَقِّ وَسِيدٍ)
أي من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكرهم في قوله : « يوم مجموع له الناس » ، والشق الذي كتبت عليه الشقاوة . والتسيد الذي كتبت عليه السادة ؛ قال أيب :

فَنَهْمٌ سَمِيدٌ آخَذٌ بِنَيْصِيهِ • وَمِنْهُمْ شَقٌّ بِالْمَيْشَةِ قَانِعٌ

وروى الترمذي عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هذه الآية « فَبَشِّرْهُم بِشَقِّ وَسِيدٍ » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبي الله فعلام نعمل ؟ هل شيء قد فرغ منه ، أو هل شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « بل على شيء قد فرغ وجرى به الأقدام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له » . هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم في « الإعراف » .

قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا) ابتداء ، (فَبَشِّرْهُم بِشَقِّ) في موضع الخبر ، وكذا (لَمْ) فيها زفير وثيق ؛ قال أبو التالبي : الزفير من الصدر ، والشيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضد ذلك . وقال الزجاج : الزفير من شدة الأتربة ، والشيق من الاتربة المرتفع جدا ؛ قال : وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في الشيق ، والشيق بمنزلة [آخر] صوت الحمار في الشيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزفير الصوت الشديد ، والشيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثل أول نقيق الحمار ، والشيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر :

حَشَرَخٌ فِي الْجُوفِ تَحِيلاً أَوْ شَقٌّ • حَتَّى يُسَالَّ نَاهِسٌ وَمَا تَهَسُّرُ

وقيل : الزفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غماً فيخرج بالنفس ، والشيق رد النفس .
وقيل : الزفير ترويد النفس من شدة الحزن ، مأخوذ من الزفر وهو الحبل على الظهر لشدة به

(١) داجج ص ٧٤ طبعة أول أدرية . (٢) هو العجاج والتي من تصدده له يصف فيها المعازة مطلقا ؛

وقام الأعناق طارى الخفق • مشته الأعلام لمع الخفق

(٣) السجل : الصوت الذي يحد في صدر الحمار .

والشهباق النفس الطويل المنته؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاقق؛ أى طويل . والوزير والشهباق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » فى موضع نصب على الظرف؛ أى دوام السموات والأرض، والتقدير : وقت ذلك . واختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما علاك فأظلك ، والأرض ما استقر عليه قدمك ؛ وفى التنزيل : « وأورثنا الأرض نبتوا من الجنة حيث نشاء » . وقيل : أراد به السماء والأرض المهودتين فى الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جئ ليل ، أو سأل سيل ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ؛ فأومهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض فى الآخرة ترفقان إلى النور الذى أخذتا منه ؛ فهما دائماً أبداً فى نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأول — أنه استثناء من قوله : « قفى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبى سعيد الخدري أو جابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبى نضرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمصيبة " . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للمصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً فى الكفرة والمصاة ، ويكون الاستثناء من « خالدين » ؛ قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالخمعة ^(١) أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون « وقد تقدم هذا المعنى في « النساء » وغيرها . الثالث - أن الاستثناء من الزفير والشيق . أى لم فيها زفير وشيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنة من النعم ما ذكره ، وما لم يذكر . حكاه ابن الأثير . الرابع - قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهؤلاء يأخذ النار فتاكلهم وتفتتهم ، ثم يبتدئ خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والاستثناء له في الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس - أن هـ « إِلَّا » بمعنى « سوى » كما تقول في الكلام : ما معى رجل إلّا زيد ، ولّى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك ، قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود . السادس - أنه استثناء من الإنجاء ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول في الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ، فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ، ولكنه قد أصلهم أنهم خالدون فيها ، ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة ، قال : ولأهل المعاني قولان آخران ، فأحد القولين : « خالدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من مقدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللحاسبة ، وقدومكهم في الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر - وقوع الاستثناء في الزيادة على النعم والعذاب ، وتقديره : « خالدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة النعم لأهل النعم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي ، أى خالدِينَ فيها مقدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدة العالم ، وللسماوى والأرض وقت يتغيران فيه ، وهو قوله : « يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » خلق الله سبحانه الآدميين وعالمهم ، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم

(١) الخ : المراد بالناس وكل ما اشتق من النار ، والمراد به .

بالجنة ، وعلى ذلك بإيعام يوم الميثاق ، فن وفى بالمهد فله الجنة ، ومن ذهب بريقته يخذل
 فى النار بمقدار دوام السموات والأرض ، وإنما دامت للماملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود
 فى الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع فى مشيئة الله ؛ قال الله تعالى :
 « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل
 الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة ؛ ثم أوجب لهم الأبد
 فى كلتا الدارين لحق الأبدية ، فمن لقيه مؤمناً لأحدثته بى فى داره أبداً ، ومن لقيه مشركاً لأحدثته
 إلهسا بى فى السجن أبداً ، فاعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من
 زيادة المدة التى تميز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم فى الدارين
 أبداً . وقد قيل : إن « إِلَّا » بمعنى الواو ، قاله الفراء ، وبعض أهل النظر وهو - الثامن -
 والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة فى الخلود على مدة دوام السموات والأرض فى الدنيا .
 وقد قيل فى قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر :
 وكل أخ مفارقه أخوه • كعمر أهلك إلا الفرقدان

أى والفرقدان ، وقال أبو محمد مكي : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا »
 بمعنى الواو ، وقد مضى فى « البقرة » بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك ؛ كقوله تعالى :
 « وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى كما قد سلف ، وهو - التاسع -
 العائش - وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى
 تدب الشرع إلى استعماله فى كل كلام ، فهو على حد قوله تعالى : « تَتَذَكَّرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » فهو استثناء فى واجب ، وهذا الاستثناء فى حكم الشرط كذلك ؛ كأنه
 قال : إن شاء ربك ، فليس يوصف بمنصل ولا منقطع ؛ وبزيده ويقويه قوله تعالى :
 « عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبى عبيد قال : نقلت عن عزيمة المشيئة من الله تعالى

(١) البيت لسمر بن مدى كرب . وقيل : هو لحضرم بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير .
 قال سيوريه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدان مفارقه أخوه ؛ فقد ثبت « كلا » يا . (٢) لاجع ٢٦٩ ص
 طبع ثانية .

في خلود الفريقين في الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والمزمنة قد تقدمت في الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « تَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتماً ، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خياراً ؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالمزمنة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام ؛ ونحوه من الفراء ، وقول - حادى عشر - وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لاغيرهم ، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم ؛ وببأنه أن « ما » بمعنى « من » ، أستثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المفلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ وأستثنى من الداخلين في الجنة المفلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة ، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني ؛ كأنه قال تعالى : فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألا يحزنده فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الترمذى عن ابن عباس إذ قال : الذين سيدوا شقوا بدخول النار ثم سيدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحزرة والكسائي « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سيدوا أن الأول شقوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت على بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي « سَعِدُوا » مع عليه بالعربية ؛ إذ كان هذا لحناً لا يجوز ؛ لأنه إنما يقال : سَعِدَ فلان وأسعده الله ، وأسعد مثل أمرئض ؛ وإنما أحجج الكسائي بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوي : ومن ضم السين من « سَعِلُوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سعدة الله ، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبي : « سَعِدُوا » بضم السين أى رزقوا السعادة ؛ يقال : سَعِدَ وأسعد بمعنى واحد . وقرأ الباقون « سَعِدُوا » بفتح

السين قياساً على «شُقُوا» واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهري : «والمعادة خلاف الشقاوة» يقول : منه سُمِعَ الرجل بالكسر فهو سميع ، مثل سَلِمَ فهو سليم ، وسُمِعَ فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه مُسْعِدٌ ، كأنهم استغنوا عنه بمسعود . وقال الفسيري : أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَمِعَهُ الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعد ؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيوطه : لا يقال سُمِعَ فلان كما لا يقال شُيَ فلان ، لأنه مما لا يتعدى . (عطاءٌ غير مجدود)
 أى غير مقطوع ؛ من جَذَّ يَجْذُ أى قطعه ؛ قال الثانية :

تَجَذُّ السُّلُوكُ المضاعف تنجؤه . وتُوقَدُ الصَّفَاحُ نَارُ الْحَبَابِ

قوله تعالى : (فَلَا تَكُ) جزم بالنهي ، وحذفت النون لكثرة الاستعمال . (فِي صِرَافٍ)
 أى فى شك . (عَمَّا يَتَذَكَّرُونَ) من الآلة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا عبد لكل من شك « لانتك فى صِرَافٍ مما يعيد هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يبدونها كما كان آبائهم يفعلون تقليداً لهم . (وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ بِتَبْيِيهِمْ غَيْرِ مُنْقَرِفِينَ) فيه ثلاثة أقوال : أحدها - تبويبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثانى - تبويبهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد . الثالث - ما وعدوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضى الله عنهما .
 قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)

قوله تعالى : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) الكلمة : أنت الله عز وجل حكم أن يؤخروهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لفضى بينهم أجليم بأن ينهب المؤمن ويغصب الكافر . قيل المراد بين المختلفين فى كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصلح ومكذب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا عبد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق

(١) البيت الثانية الذى يأتى يصف فيه السيوف . ويرى (ويريد) . والسلوك : النهج المتروك إلى سابق ؛ قرينة بالبين . والمضاعف : الذى تسج حلقين . والصفايح : الخيابة للحراض . والحباب : ذباب له شعاع بالليل ، وقيل : نار الحباب ما انقطع من شر النار فى الهواء تصادم جهين .

الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ)
إن حلت على قوم موسى، أى لى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنَّ كَلَّا لَمَّا لَبِثْتُمْ رَبِّكَ أَعْمَلْتُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّ كَلَّا لَمَّا لَبِثْتُمْ رَبِّكَ أَعْمَلْتُمْ) أى إن كلاً من الأمم التى عدلتهم
يرون جزاء أعمالهم، فكذلك قومك يا محمد . وأختلف القراء فى قراءة (وَإِنَّ كَلَّا) فقراء
أهل الحرمين - فاع وأبن كثير وأبو بكر معهم - « وَإِنَّ كَلَّا » بالتحفيف، على أنها « إن »
الخفيفة من التثنية معاملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه : حدثنا من أتى
به أنه سمع العرب تقول : إن زيدا لمطلقاً، وأشد قول الشاعر^(١)
كَأَنَّ ظِلَّةً تَطْلُو لِي وَارِقَ السَّمِّ .

أراد كأنها ظلية تخفف ونصب ما بعدها، والبصريون يجوزون تحفيف « إن » المشكدة
مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شيء قرئ « وَإِنَّ كَلَّا » ! وزعم
الفرزدق أنه نصب « كلاً » فى قراءة من خفف بقوله : « لَبِثْتُمْ » أى وإن لبثتم كلاً؛
وأنكر ذلك جميع الصحويين، وقالوا : هذا من كسر النقط، لا يجوز عند أحد زيدا لأشهرته .
وشد الباقون « إن » ونصبوا بها « كلاً » على أصلها، وقرأ طاسم وحزمة وأبن طاسم : « كَلَّا »
بالتشديد، وخففها الباقون على معنى : وإن كلاً لبثتم، جعلوا « ما » صلة . وقيل : دخلت
لفصل بين اللامين اللتين تليان التثنية، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بهما . وقال
الزجاج : لام « كَلَّا » لام « إن » و « ما » زائدة مؤكدة؛ يقول : إن زيدا لمطلقاً، فإن

(١) هو : ابن مريم البكرى، وصدوليت :

• وربما قرأها بوجه قسم •

يجوز نصب الظية بكان شبيهاً بالفعل إذا حذف وعمل، وأخبر محذوف فعل السامع . ويجوز به التثنية على تقدير :
كظلية، وأن زائدة مؤكدة . (٢) قال القرطبي : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام الإيذان اسماء قبلها .

نقضى أنت يدخل على حبرها أو اسمها لام كقولك : إن الله لفسفور رحيم ، وقوله : « إن في ذلك لَذِكْرَى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يُتَلَقَّى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشددة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ « ما » و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفراء : « ما » بمعنى « مَنْ » كقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أى وإن كلا لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى « مَنْ » . وقيل : ليست بزائدة ، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر « إن » و « ليوفينهم » جواب القسم ؛ التقدير : وإن كلا خلق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « مَنْ » كقوله : « فَأَتَيْنَاهُ مَا كَلَّابٌ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ » أى مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدد « ما » وقرأ « وَإِنْ كَلَّا لَمَّا » بالتشديد فيهما - وهو حزة ومن واقع - فقيل : إنه لمن ، حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ، ولا يقال : إن زيدا إلا لضربته ، ولا لَمَّا لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال أيضا هو وأبو علي الفارسي : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين في ذلك أقوال : الأول - أن أصلها « لَمِنَ ما » فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميئات ، غذفت الوسطى فصارت « لِمَا » و « ما » على هذا القول بمعنى « مَنْ » تحذيره : وإن كلا لمن الذين ؛ كقولهم :

وإِنِّي لَمَّا أَصْدِرُ الْأَمْرَ وَجْهَهُ • إذا هو أعميا بالسبيل فتصايرُهُ

وزيف الزجاج هذا القول ، وقال : « مَنْ » اسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثانى - أن الأصل لَمِنَ ، غذفت الميم المكسورة لاجتماع الميئات ، والتقدير : وإن كَلَّا لَمِنَ خَلْقٍ ليوفينهم . وقيل : « لَمَّا » مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير توين حملا للوصول على الوقف ؛ فهي على هذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكَلًا لَمَّا » أى جامعا لال الماكول ، فالتقدير على هذا : وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمَّا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقرم . وقد قرأ الزهرى « لَمَّا » بالتشديد والتوين على هذا المعنى . الثالث -

أن « لما » بمعنى « إلا » حكى أهل اللغة : سألتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، ومثله قوله تعالى : « إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى إلا عليها ، فعنى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم ، قال القشيري : وزيف الزجاج هذا القول بأنه لا تقي لقوله : « وَإِنْ كَلَّا لَمَّا » حتى . قلندر « إلا » ولا يقال : ذهب الناس لما زيد . الرابع . — قال أبو غيثان المازني : الأصل وإن كَلَّا لَمَّا بتخفيف « لما » ثم نقلت ، كقوله :

لقد خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدًّا • فِي بَابِنَا ذَا بَسَدٍ مَا أَخْصَبَا

وقال أبو إسحق الزجاج : هذا خطأ ! إنما يخفف المتقل ، ولا يشقل المخفف . الخامس . — قال أبو عبيد القاسم بن سلام . يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَسْتُ الشيءَ لَمَسًا إذا جمعته ، ثم جى منه قُلْتُ ، كما قرئ « ثُمَّ أَرْسَلْنَا وَرُسُلَنَا تَتْرَى » بغير تنوين وبتنوين ؛ فالألف على هذا للتانيث ، وتعال على هذا القول لأصحاب الإمامة ؛ قال أبو إسحق : القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة ، وتكون بمعنى « ما » مثل : « إن كل نفس لما عليها حافظ » وكذا أيضا تشدد على أصلها ، وتكون بمعنى « ما » و « لما » بمعنى « إلا » حكى ذلك الخليل ومسيويه وجميع البصريين ؛ وأن « لما » يستعمل بمعنى « إلا » . قلت : هذا القول الذى ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره ؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له ، إلا أن ذلك القول « إِنَّ » فيه نافية ، وهنا مخففة من الثقيلة فافترا . وبقيت قراءتان ؛ قال أبو حاتم : وفي حرف أبي « وَإِنْ كُلُّ إِلَّا لِيُؤْفِقَهُمْ » . وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلُّ لَمَّا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » وتشديد « لما » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها « إِنَّ » بمعنى « ما » لا غير ، وتكون على التفسير ؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . (إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ كَبِيرٌ) تهديد ووعيد .

(١) البيت لزوية .

(٢) وردت العبارة الآية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبي ، وبدلة بكلمة (حاشية) : (مراب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتمد « إن » فيه مخففة من الثقيلة فافترا) .

قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل :
له والمراد أمته ؛ قاله السدي . وقيل : « استقم » أطلب الإقامة على الدين من الله وأسأله
ذلك . فتكون السنين بين السؤال ؛ كما تقول : استغفر الله أطلب الغفران . والاستقامة
الاستقرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمن والשמال ؛ أي فاستقم على امتثال أمر الله .
وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام
قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ! قال : « قل أنت بالله ثم استقم » . وروى الترمذي أبو محمد
في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني ! فقال :
نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، أتبع ولا تتدع . (وَمَنْ تَابَ مَعَكَ) أي استقم أنت
وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده عن أتبعه من أمته . قال ابن عباس :
ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك
قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : « شيبني هود وأخواتها » وقد
تقدم في أئمة السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا عبد الله السري يقول :
رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! روى عنك أنك قلت :
« شيبني هود » فقال : « نعم » فقلت له : ما الذي شيبك منها ؟ فقص ابن عباس وهلاك
الأمم ؟ فقال : « لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » » . (وَلَا تَطْغَوْا) نهي عن
الطغيان . والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » . وقيل : أي لا تعجبوا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمْسَكُوا النَّارَ وَمَا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۚ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) في الأصل (الفتوى) وصوب من (المر المتحد) .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتداد والسكون إلى الشيء والرضا به ؛ قال قتادة : معناه لا تودعهم ولا تطيعهم . ابن جرير : لا تقيلا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أفعالهم ؛ وكله متقارب . وقال ابن زيد : « الركون هنا الإيمعان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم » .

الثانية - قرأ الجمهور « تَرْكُنُوا » بفتح الكاف ؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وفرا طلحة بن مُصَرِّفٍ وقَتَادَةُ وغيرهما « تَرْكُنُوا » بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجود قوم رَكَنَ يَرَكُنُ مثل مَنَعَ يَمْنَعُ .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية ؛ وقد تقدم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية . وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن محبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ؛ وقد قال ^(١) :

عن المرة لا تسأل وسل عن قرينه • فكل قرين بالمقارب يقتدي
فإن كانت الصحبة عن ضرورة وثقة فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة » .
ومحبة الظالم على الثقة مستثناة من النهي بحال الاضطراب . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ تَمَسَّكُ النَّارُ ﴾ أى تحرقكم بخالطتهم ومصاحبتهم وعملاتهم على إعراضهم ومواقفتهم في أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ
أَحْسَنَتِ يَدَهِنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ ^(٢)

(١) الإدمان : المساندة . (٢) طريقة : بين اليد . (٣) رابع ج ٤ ص ٥٧ وما بعده
طبعة أول أرطانية . (٤) رابع ج ٦ ص ٢١٧ طبعة أول أرطانية .

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثمانية الإيمان ، وإليها يُفزع في النواصب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيخنا الصوفي : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ابن العربي : وهذا ضعيف ؛ فإن الأمر لم يتناول ذلك لإيجابها [فإنها خمس صلوات ^(١)] لا نفلا . فإن الأوراد معلومة ، وأوقات التوافل المرغب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يستمرل عليها التدب على البذل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيْ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ابن عطية . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ابن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطرف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضحاك . وقيل : الطرفان الظهر والعصر . وأُثِرَ المغرب والعشاء والصبح ؛ كان هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى المساوردي أن الطرف الأول صلاة الصبح بانفساق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقضه القول الذي قبله . ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ابن العربي : والمعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلّب القوس ركوة ^(٢) ، وحاد عن البرجاس غلوة ؛ قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع معه على ذلك أحد .

(١) (حزب) : زل به بهم ، أو أصابه غم ؛ (٢) الزيادة عن ابن العربي . (٣) هذا المثل كما في الصحاح وغيره (حارث القوس ركوة) و يضرب في الأدبار واقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالهمز) : غرض على رأس ربح أو نحوه سره . والغلوة : قنودية بهم .

قلت : هذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ، وقد ذكرنا على مجاهد أن الطرف الأول صلاة المصباح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمداً أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذا ؟ إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فنقل على صحة ما قاله الطبري في الصباح ؛ وتيق عليه المسرب والردة عليه فيه ما تقدم . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى في زلف من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القمقاع وابن أبي إسحق وغيرهما « وَزُلْفَا » بضم اللام جمع زليف لأنه قد نطق بـ زليف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلْفَة » لنفسه ؛ كبسرة وبُسْر ، في لغة من ضم السين . وقرأ ابن محيىن « وَزُلْفَا » من الليل بإسكان اللام ، والواحدة زُلْفَة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرة ودرة وبر . وقرأ مجاهد وابن محيىن أيضاً « زُلْفَى » مثل قُرَى . وقرأ الباقر « وَزُلْفَا » بفتح اللام كعُرْفَة وعُرْف . قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات ، واحدها زُلْفَة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بزاف الليل صلاة التمتع ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدم . وقال الأخفش يعني صلاة الليل ولم يبين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَجْتَبْتِ الْكِبَارَ » .

قلت : سبب النزول يعضد قول الجمهور ؛ نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو البسر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ؛ خلا بأمرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج . روى

الترمذى عن عبد الله قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني عاجلٌ امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أسماً وأما هذا فافض في " ما شئت " فقال له عمر : لقد شرتك الله ! لو سترت على نفسك فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فاتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فقال عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَقَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » الى آخر الآية ؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : " [لا] بل للناس كافة " . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وخرج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلته حرام فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فتركت « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَقَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولن عمل بها من أمتي " . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليسر قال : أتتني امرأة تتجاع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت ممي في البيت فأهويت إليها فقبلها ، فأنيت أبابكر فذكرت ذلك له فقال : أسر على نفسك وثب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأنيت عمر فذكرت ذلك له فقال : أسر على نفسك وثب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأنيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخْلَقْتَ فَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمَثَلِ هَذَا " حتى تمتى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوى الله إليه « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَقَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » . قال أبو اليسر : فاتته فقراها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يا رسول الله ! إلهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو ميسرة : هذا حديث حسن ضريب ، ويقس بن الربيع ضعفه وكيع وفيه ؛ وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة المصرف فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

« أشهدت معنا الصلاة » قال نعم ؛ قال : « أذهب فلانها كفارة لما فعلت » . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليه هذه الآية قال له : « ثم فصل أربع ركعات » . والله أعلم . وخرج الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثه لذنب قديم » ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

الخامسة - دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللس الحرام لا يجب فيهما الحد ؛ وقد يستدل به على أن لا حد ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا في ثوب واحد ؛ وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسئلة ذكر هذا الحديث مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيء ، وسيأتي ما للعلماء في هذا في « النور »^(١) إن شاء الله تعالى .

السادسة - ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقيم الصلاة » الآية . وقال : « أقيم الصلاة لعلك الشمس » الآية . وقال : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . وقال : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » . وقال : « واركعوا واسجدوا » . وقال : « وقوموا لله قانتين » . وقال : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » على ما تقدم . وقال : « ولا تجهروا أصواتكم ولا تخافتن بها » أي بمرءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأنت لنا إليك الذكر تبين للناس ما نزل إليهم » . فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجودات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها ، وما لا تصح إلا به من الترائض ، وما يستحب فيها من السنن والقضائل ؛ فقال في صحيح البخاري : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . ونقل ذلك عنه الكفاة عن الكفاة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى

(١) رابع المسئلة السابقة في تخيير آية ٢ .

بَيْنَ مَعَ مَا بِالنَّاسِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فَجَعَلَ الدِّينَ، وَأَوْضَحَ السَّبِيلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

قوله تعالى : (ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ) أى القرآن موعظة وتوبة لمن انظر وتذكر ؛ وخص بالذكر الذين بالذکر لأنهم المستفدون بالذکرى . والذکرى مصدر جاء بالالف التانيث .

قوله تعالى : وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (وَأَصْبِرْ) أى على الصلاة ؛ كقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » .
وقيل : للمعنى وأصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
يعنى المصلين .

قوله تعالى : (فَلَوْلَا كَانَ) أى هلا كان . (مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ) أى من الأمم التى قبلكم . (أُولُوا بَقِيَّةٍ) أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . (يَنْهَوْنَ) قومهم . (عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) أى أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ؛ وهذا توبيخ للكفار .
وقيل : لولا هاهنا للنفى ؛ أى ما كان من قبلكم ؛ كقوله : فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت .
(إِلَّا قَلِيلًا) استثناء منقطع ؛ أى لكن قليلا . (مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) نهوا عن الفساد فى الأرض .
قيل : هم قوم يونس ؛ لقوله : « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » . وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق .
(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى أشركوا وعصوا . (مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) أى من الاشتغال بالمال والذلات ، وإشراك ذلك على الآخرة . (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١١﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَٰذَٰكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسَانِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى) أى أهل القرى . (وَيُظْلِمُ) أى بشرك وكفر . (وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) أى فيما بينهم فى تعامل الحقوق ، أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وعده حتى يضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب بغش المكيل والميزان ، وقوم لوط . بالأوط ، ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد تقدّم . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لم تقصا من حقهم ، أى ما أهلك قوما إلا بعد إعدار وإنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ، لأنه تصرف فى ملكه ، دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ، أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) قال سعيد بن جبير : على ملة الإسلام وحدها . وقال الضحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى . (وَلَا يَرَاؤُونَ مُخْتَلِفِينَ) أى على أديان شتى ، قاله مجاهد وقتادة . (إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ) استثناء منقطع ، أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق ، فهذا

غنى « وَهَذَا قَبِيرٌ » إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ « بالتعاطف؛ قاله الحسن . (وَلَيْدِكَ خَلْقُهُمْ) قال الحسن ومقاتل وعطاء : إيماء الإشارة للاختلاف؛ أى وللإختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال : « ولذلك » ولم يقل ولذلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضاً فإن تأنيث الرحمة غير حقيقى، فحملت على معنى الفضل . وقيل: الإشارة بذلك للإختلاف والرحمة ، وقد ينسار بهذا « إلى شيئين متضادين ، كقوله تعالى : « لَا تَأْرِيضُ وَلَا يُزْكِرُ هَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » ولم يقل بين ذينك ولا تينك ، وقال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقال : « وَلَا يَجْهَرُونَ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهِمَا وَابْتِغَى بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » وكذلك قوله : « قُلْ يُفْضِلُ اللَّهُ وَرَجْمَهُ قِيدَ لَيْلٍ قَرُوحًا » وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم ، أى وليا ذكر خلقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضاً قال : خلقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه . قال المهدوى : وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأ جَهَنَّمَ من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » والمعنى : ولشهد ذلك اليوم خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « كُنْتُمْ شَوْءًا وَاحِدًا » أى للسعادة والشفاعة خلقهم .

قوله تعالى : (وَمَتَّ كَلِمَةً رَبُّكَ) معنى « تمت » ثبت ذلك كما أخبر وقتلوا في أنزله؛ وتمت الكلمة أمتناعها عن قبول التغير والتبديل . (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) « من » لبيان الجنس؛ أى من جنس الجنة وجنس الناس . « أجمعين » تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه أنه يملأ جنته بقوله : « ولكل واحدة منكم مثلاً » . ترجمه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

قوله تعالى : **وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : **(وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ)** «كلا» نصب بـ «نقص» معناه وكل الذي يحتاج إليه من أنباء الرسل قص عليك . وقال الأخفش : «كلا» حال مقدمة ، كقولك : **كَلَّا** ضربت القوم . **(عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ)** أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . **(مَا نَتَّبِعُ بِهِ فُؤَادَكَ)** أى على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : تريدك به تثبيتاً وبقينا . وقال ابن عباس : ما تشد به قلبك . وقال ابن جرير : نصب به قلبك حتى لا يجزع . وقال أهل المعاني : تطيب ، والمعنى متقارب . و«ما» بدل من «كلا» المعنى : قص عليك من أنباء الرسل ما تثبت به فؤادك . **(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ)** أى فى هذه السورة ، عن ابن عباس وأبى موسى وغيرهما ، وخص هذه السورة لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصها بالذكر تأكيداً وإن كان الحق فى كل القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . **(وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)** الموعظة ما ينظم به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرآن الخالية المكتبة ، وهذا تشریف لهذه السورة ، لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكر ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التخصيص . «وذكرى للمؤمنين» أى يذكرون ما نزل بن هلك فيتوبون ، وخص المؤمنين لأنهم المتقنون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : **وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ** ﴿١١٧﴾ **وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** ﴿١١٨﴾ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ تَهْدِيدٌ وَّوَعِيدٌ ۚ إِنَّا عَائِلُونَ ۚ وَآتِنظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر، وقد هُتِمَ معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما، لحذف لدلالة المعنى . وقال ابن عباس : خزانة السموات والأرض . وقال الضحاك : جميع ما غاب عن المباد فيهما . وقال الباقر : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض . وقال أبو علي الفارسي : « وَفِيهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى علم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً ؛ لأنه حذف حرف الجر، تقول : غبت في الأرض وغبت بسله كذا . ﴿ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أى يوم القيامة؛ إذ ليس مخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص « يَرْجِعُ » بضم الياء وفتح الجيم، أى يَرْجِعُ . ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى ألبأ إليه وثق به . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِفَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى كلأ بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بإثاء على المخاطبة . الباقر بيأه على الخبر . قال الأخفش سعيد : « يعملون » إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم؛ قال : وقال بعضهم « تعملون » بإثاء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لم « وما ربك بفاقل عما تعملون » . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة « هود » من قوله : « وَفِيهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة . تمت سورة « هود » وشملوها سورة « يوسف » عليه السلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها . وقال ابن عباس وقسادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فتزلت السورة ؛ وسيأتي . وقال سعد ابن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فقل « تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أفاضل الأنبياء في القرآن وكثرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ؛ بالفاظ متباعدة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرها ؛ فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : **الْأَسْرَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾**

قوله تعالى : (**الْأَسْرَ**) تقدم القول فيه ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : (**الْأَسْرَ**) اسم السورة ؛ أي هذه السورة المسماة « **الر** » . (**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**) يعني القرآن المبين ؛ أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه ومبادئه وبركته . وقيل : أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوراة .

قوله تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾**

قوله تعالى : (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « **قُرْآنًا** » على الحال ؛ أي مجموما . و « **عَرَبِيًّا** » نعت لقوله قُرْآنًا . ويجوز أن يكون توطئة للحال ؛ كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « **عَرَبِيًّا** » على الحال ،

(١) راجع ج ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعه ثانية أرتالة .

أى يُسرأ بفتحكم يا معشر العرب . أَعَرَبَ بَيْنَ ، ومنه « التَّيْبُ يُعَرَّبُ عَنْ نَفْسِهَا » .
 (تَلَكَّمْتُمْ تَقُولُونَ) أى لكى تعلوا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبمع العرب يأتى بأن
 مع « لعل » تشبيها بمعنى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ، كما قال الشاعر^(١) :
 يا أَيْتَا عَلِكَ أَوْ عَسَاكَ •

وقيل : وَلَكَّمْتُمْ تَقُولُونَ « أى لتكونوا على رجاء من تديره ، فيعود معنى الشك إليهم لا إلى
 الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أُنزلناه » أى أنزلنا خبر يوسف ، قال
 النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ، لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم أنتقل آل يعقوب من
 الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ،
 وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم - إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ
 كتابا ولا هو فى موضع كتاب - بمنزلة إحياء ميسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ) ابتداء وخبر . (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) بمعنى المصدر ،
 والتقدير : قصصنا أحسن القصص . وأصل القصص نقيع الشيء ، ومنه قوله تعالى : « وَقَالَتْ
 لِأُخْتِهِ قُصِّيه » أى ثبى أثره ، فالقاص ينقي الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القصص
 لا إلى القصة . يقال : فلان حسن الاختصاص للحديث أى جيد الساقفة له . وقيل :
 القصص ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الأسم ، كما يقال : الله رجائنا ، أى مرجونا ، فلذلك
 على هذا نحن نخبرك بأحسن الأخبار . (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أى بوحينا فى « ما » مع الفعل
 بمنزلة المصدر . (هَذَا الْقُرْآنَ) نصب القرآن على أنه نعمت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف
 بيان . وأجاز الفراء الخفض ، قال : على التكرير ، وهو عند البصريين على البذل من « ما » .

(١) الرجز للمعاجز وسدرا لبيت .

• تقولون قد أتى أنا كما •

وأجاز أبو إسحق الرقيع على إضمار مبتدأ ؛ كَانَ سائلاً سألَهُ عن الوحى فقبل له : هو القرآن .
 ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ التَّائِبِينَ ﴾ أى من التائبين عما عرّفناك .

مسئلة - واختلف العلماء لم تُسميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأناصيص ؟
 فقبل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ؛ وبما
 قوله في آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ » . وقيل : سمّاها أحسن القصص
 بحسن مجازة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم - بعد إلتفاتهم - عن ذكر
 ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَقْرِبْ عَلَيَّ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها
 ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والإنس والأنعام والطير ، وسير الملوك
 والأملاك ، والتجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنساء وحيلهنّ وسكرهنّ ، وفيها ذكر التوحيد
 واللقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرّة وتدير المماش ، وجمل الفوائد التي تصلح
 للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا
 بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها
 كان مآله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وأمرأة العزيز ؛ قيل : ولذلك أيضا أسلم
 بيوسف وحسن إسلامه ؛ ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيا يقال ؛ فما كان أمر الجميع
 إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَبْتَائِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
 كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إذ » في موضع نصب هل الظرف ؛ أى إذا ذكر لهم حين
 قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . ولما طلعا أبى مُصْرَفَ « يُوسُفَ » بالهمزة وكسر
 السين . وحكى أبو زيد « يُوسُفَ » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمى ؛ وقيل :
 هو عربى . ومثل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيما - عن « يوسف » فقال : الأسف في اللغة

الحزن، والاسيف العبد، وقد أجمعا في يوسف، فلذلك سُمي يوسف. (لأبيه يا أبت) بكسر الناء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحزرة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التانيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التانيث على المذكر فيقال: رجل نكمة ومُرّة؛ قال النحاس: إذا قلت «يا أبت» بكسر الناء فالناء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها - أن قولك: «يا أبه» يؤدّى عن معنى «يا أبي»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتى» لأن الناء بدل من الياء فلا يجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبت» فكسر دل على الياء لا غير، لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتى»؟! وقرا أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن حامر «يا أبت» بفتح الناء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتى» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يا أبتا» وحذفت الألف وبقيت الفتحة على الناء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما تبدل من الياء ألف فيقال: يا فلانا أقبل. وأجاز الفراء «يا أبت» بضم الناء. (إني رأيت أحد عشر كوكبا) ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءني أحد عشر، ورأيت ومررت بأحد عشر، وكذلك ثلاثة عشر وتسعة عشر وما بينهما؛ جعلوا الاسمين أسماء واحدا وأهزبوهما بأخف الحركات. قال السجستاني: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مستنتا، ورواه الحرث بن أبي أسامة قال: «جاء بستانة - وهو رجل من أهل الكتاب - فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذئبال وقابس والمصباح والضروح وذو الكنفات وذو القرع والفلق ووثاب والعمودان، وأما يوسف عليه السلام تسجد له. قال ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قتادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) كذا في «مجد الجان» فصح، وفي الأصل «الطلع».

آيـهـ . (رَأَيْتُمْ) توكيد . وقال : « رَأَيْتُمْ لِي سَاجِدِينَ » بغاء مذكرا ؛ فالقول عند التحليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن يعقل . وقد تقدم هذا المعنى في قوله : « وَرَأَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُقِّيَاكَ عَلَيَّ إِنْخَرْتُكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠﴾
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) أى يحضاروا في هلاكك ؛ لأن تأويلها ظاهرا ؛ فرما يملهم الشيطان على قصدك بسوء حيلته . واللام في « لك » تأكيد ؛ كقوله : « إِنَّ كُفْرًا لِلرُّؤْيَا تَهْبُونَ » .

الثانية - الرؤيا حالة شريفة ، ومثلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « لم يبق بعدى من الميشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادرة يراها الرجل الصالح أو ترى له » . وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى « من سبعمائة جزءا » . وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « جزء من أربعين جزءا من النبوة » . ومن حديث ابن عمر « جزء من تسعة وأربعين جزءا » . ومن حديث العباس « جزء من خمسين جزءا من النبوة » . ومن حديث أنس « من ستة وعشرين » وعن عبادة بن الصامت « من أربعة وأربعين من النبوة » . والمصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه في الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين ، وأما سائرهما فن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ابن بطال . قال أبو عبد الله المزاري : « والأكثر والأصح عند أهل الحديث « من ستة وأربعين » . قال الطبري : « والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فأما قوله :
 "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة" فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صادقة، ولكل
 مسلم رأيا في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله : "إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين"
 فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحل الذي ذكرت من الصديق - رضى الله عنه - أنه
 كان بهما، فمن كان من أهل إسباج الوضوء في السبرات^(١)، والصبر في الله على المكروهات،
 وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة - إن شاء الله - جزء من أربعين جزءا من
 النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصالحة بين الجزءين، ما بين الأربعين
 إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين، وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن
 عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عند اختلاف
 تضاد وتلاف - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على
 حسب ما يكون من صلح الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين، فعلى قدر
 اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خلصت نيته
 في عبادة ربه ويقينته وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء
 يتفاضلون؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض
 وطرحه؛ ذكر أبو سعيد الأسفاني من بعض أهل العلم قال : معنى قوله : "جزء من ستة
 وأربعين جزءا من النبوة" فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة
 ثلاثة وعشرين عاما - فيها رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما -
 فإذا قسمنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا،
 وإلى هذا القول أشار المازني في كتابه «المعلم»، واختاره القوتبي في تفسيره من سورة
 « يونس » عند قوله تعالى : « لم البشرى » وهو فاسد من وجهين : أحدهما - ما رواه

(١) السبرات (جمع سبرة) يسكون الياء : شدة طرده .

أبو سلمة عن ابن عباس وطائفة أن مدة الوحي كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بحث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشرينين ، وهو قول عروة والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه ، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثاني : — أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تنفي بغير معنى .

الثالثة : — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة ؛ لأن فيها ما يسجى ويمتنع كالطيران ، وقلب الأحياء ، والاطلاع على شيء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم " الحديث . وهل الجحفة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " وأن التصديق بها حق ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بدع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه ، ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشذوذة من المعتزلة .

الرابعة : — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلف أهلا لها ؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كتأم رؤيا الملك الذي رأى سبيع بقرات ، ومنام الفتيين في السجن ، ورؤيا ^{يوسف} الذي فسرها دانيال في ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة ، عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره وهي كافرة ، وقد ترجم البخاري : « باب رؤيا أهل السجن » فالجواب — أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة ؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة ؛ وقد تقدم في « الأنعام » أن الكاهن وضربه قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على الندور والقلّة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ، قال الموهب : « إنما ترجم البخاري »

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتنين صادقة؛ إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة.

الخامسة - الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلُم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما ثلثي عن قول كل قائل، روى عوف بن مالك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا ثلاثة منها أهويل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة"، قال قلت: سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِنخَرَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فَعَلَ كَالسَّقْيَا والبُشْرَى؛ وألغى للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقليل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره، ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم، فيخلق الله تعالى للرائى علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المتعادات. وقيل: إن الله ملكا يمرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صوراً محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين يكون مبشرة أو منذرة؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره: "رأيت سوداء تآثر الراس تخرج من المدينة إلى مِهْجَةٍ فَأَوَّلَتْهَا الْجُمُيْ".

(١) أي امرأة سوداء، كما في رواية النسائي. (٢) الهجمة: هي الهففة، يثاق أهل الشام.

و "رأيت منى قد أقطع صدره وقرأ يُقرأ فاولتهما رجل من أهل بيتي يُقْتَل والبقر نفر من اصحابي يُقتلون". و "رأيت أنى أدخلت يدى فى دِرع حصينة فاولتها المدينة". و "رأيت فى يدي سُودارين فاولتهما كذابين يُخرجان بعدى". إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى الثام فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فاولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فاولها بإخوته وأبويه .

السابعة - إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صبغيا وقت رؤياه، والصبغ لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لما حكم حتى يقول له أبوه: « لا تقصص رؤياك على إخوتك »؟ فالجواب - أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الخفي فى البقطة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان ابن أختى عشرة سنة .

الثامنة - هذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رزين العُقَيْلُ: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يهتد بها صاحبها فإذا هتدت بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عافلا أو غيا أو ناصحا » أخرجه الترمذى وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين اسمه ليظ بن عامر. وقيل لمالك: أخبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: « أبى النبوة يلمب » وقال مالك: لا يبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل: فهل يبرها على الغير وفى عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

التاسعة - وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذر المسلم أخاه المسلم من يخافه عليه، ولا يكون داخل فى معنى النبوة؛ لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيدا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على [إفحام] حوائجكم بالكتان فإن كل ذي نعمة محسود ». وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه، فإن الرجل يرد أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يرد ذلك لأخيه . ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهى عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يتبدل بذلك صبورهم، فعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردده القطع بمصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن حقوق الآباء، وتعرض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الكناز، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصنائع على ما تقدم ويأتي .

العاشرة - روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منكرة من قبل الله تعالى لا تسر رأيا، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لتزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل، تدل على محبته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدم في « يونس » في تفسير قوله تعالى : « نُمُّ الْبَشَرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاري - أخرجه على الأغلب، والله أعلم :

الحادية عشرة - روى البخارى عن أبى سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضى حتى سمعت أبا قتادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ولينفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره " . قال علماؤنا : جعل الله الاستانة منها مما يرفع إذاها ؛ ألا ترى قول أبى قتادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل على من الجليل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أهدأ شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتعوذ عن جنبه الذى كان عليه " . وفى حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليغم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحول ، والصلاة زيادة ، فعل الرأى أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه ، وإذا تغمض تغل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل .

قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٢١**

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف فى قوله : ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ و « ما » كافة . وقيل : « وكذلك » أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنزوة . والاجتناء اختيار معالى الأمور للجنس ، وأصله من جيت

الشيء أى حصته ، ومنه جئيت المساء فى الخوض ، قاله النحاس . وهذا بناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعدد فيما عدده عليه من النعم التى أتاه الله تعالى ، التحكين فى الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ، واجمعا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ، وذلك منتهى الرؤيا . ومعنى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصديق رضى الله عنه من أعب الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان مسعيد بن السيب فيما ذكروا . وقد قيل فى تأويل قوله : **(وَبَعَثْنَا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)** أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : **(وَبِهِمْ نِعْمَةٌ عَلَيْكَ)** أى بالنبوة . وقيل : بإخراج أخوتك إليك ، وقيل : بإخراجك من كل مكروه . **(كَمَا أَعْتَمَّا عَلَى آبَائِكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ)** بالخلعة ، وإيجائه من النار **(وَإِسْحَاقَ)** بالنبوة . وقيل : من الذبح ، قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : **(وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ)** أنه سيمطى بن يعقوب كلهم بالنبوة ، قاله جماعة من المفسرين . **(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ)** وما يعطيك . **(حَكِيمٌ)** فى فعله بك .

قوله تعالى : **(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ)** ١٠٠
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانَا مِنْهَا وَنَحْنُ عَصِيْبُهُ إِنَّ آيَاتَنَا لِنَعْلَمُ ضَلَالِ مُبِينٍ) ١٠١ **أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَهُ أَبْيَنُكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)** ١٠٢

قوله تعالى : **(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ)** يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آية » على التوحيد ، وأختار أبو عبيد « آيات » على الجمع ، قال : لأنها خبر كثير . قال النحاس : و « آية » هنا قراءة حسنة ، أى لقد كان للذين سألوا عن خبر

يوسف آية فيها خبروا به؛ لأنهم سألو النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا من وجل من الأنبياء كان بالشام أخرج أبنيه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ؛ وإنما وجه اليهود من المدينة يسألونه عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة ؛ فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ بمكة لإحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » معظمة ؛ وقيل : صبرة . وروى أنها في بعض المصاحف « صبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أى عجب . قال الشعبي في تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه ؛ قال ابن زيد : كانوا أنبياء ؛ وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ؛ فبغوه بالعداوة ؛ وقد تقدم رد هذا القول . قال الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ) واستأفم : روييل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويساخر ، وأهمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر ؛ دان ونفثالى وجاد وأشر ؛ ثم توفيت ليا قروج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلا . قال السهيلي : وأم يعقوب أسمها رفقا ، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين ، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب . وقيل : في أسم الأمتين ليا وتلتا ، كانت إحداها لراحيل ، والأخرى لأختها ليا ، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحل لأحد بعده ؛ لقول الله تعالى : « وَأَنْ تَحْمِلُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . وقد تقدم الرد على ما قاله ابن زيد ، والحمد لله .

قوله تعالى : (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ) « يوسف » رفع بالابتداء ؛ واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم ، أى والله ليوسف . (وَأَخُوهُ) عطف عليه . (أَحَبُّ إِلَى آبَائِنَا مِنَّا) خبره ، ولا يتلقى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل ؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتأسروا في كيد . (وَتَحْنُ حُصْبَةً) أى جماعة ، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة ؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والرمط . (إِنَّ أَبَاتِنِي ضَلَّالٌ مُبِينٌ) لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ؛ بل أرادوا لنفى ذهب عن وجه البدير ، في إثارة اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه . وقيل : لنفى خطايين بإيثارة يوسف وأخاه عليهما .

قوله تعالى : (أَفْتُلُوا يُوسُفَ) في الكلام حذف ؛ أي قال قائل منهم : « أفتلوا يوسف » ليكون أحسن لمادة الأمر . (أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا) أي في أرض ، فاسقط الخافض وانصب الأرض ؛ وأنشد سيويه فيها حذف منه « في » :
لَدُنْ هَؤُلَاءِ الْكَفِّفِ يَسِيلُ مَتْنُهُ • فِيهِ تَكَا عَسَلُ الطَّرِيقِ الثَّلَبِ

قال النحاس : إلا أنه في الآية حسن كثير ؛ لأنه يمتد إلى مفعولين ، أحدهما بحرف ، فإذا حذف الحرف امتد الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون ؛ قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأحبار ؛ دان . وقال مقاتل : روبيل ؛ والله أعلم . والمعنى أرضاً تبعد عن أبيه ؛ فلا بد من هذا الإسمار لأنه كان عند أبيه في أرض . (يَمْثَلْ) جزم لأنه جواب الأمر ؛ معناه : يخلص ويصفو (لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) فيقبل عليكم بكنيته . (وَتَكُونُوا مِنْ بَنِيهِ) أي من بعد الذنب . وقيل : من بعد يوسف . (قَوْمًا صَالِحِينَ) أي تائبين ؛ أي تحذثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم ؛ وفي هذا دليل على أن توبة القائل مقبولة ، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير إثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رحا لين المز ؛ فبه اضطرابه في نفسه أرق حال من بسلان التلب في سيره ؛ والسلان ؛ سير سريع في اضطراب . والدين ؛ الثام البين . ويروي ؛ قد ؛ أي مسند عده الخزلية . (شراذم سيويه) .

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ) القائل هو يونا، وهو أكبر ولد يعقوب؛
فأله ابن عباس، وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال : « فلن أرح الأرض » ،
وقيل: شمعون . (وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) قرأ أهل مكة وأهل البصرة. وأهل الكوفة
« في غيابة الجلب » . وقرأ أهل المدينة « في غَيَابَاتِ الجلب » وأختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه
على موضع واحد القوه فيه ، وانكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضيق في اللغة ؛
« وغيايات » على الجمع [يجوز من وجهين] : حكى سيويه سير عليه عشيات وأصيلات ،
يريد عشية وأصيلا ، فجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ، فكنا جعل كل موضع مما يُغيب
غَيَابَةً ، [والآخر — أن يكون في الجلب غيايات (جماعة) . ويقال : غاب يغيب] غَيَا وَغَيَابَةً
وغَيَابًا ، كما قال الشاعر :

أَلَا فَالْبَيْتَ شَهْرَيْنِ أَوْ نَصْفَ ثَالِثٍ • أَنَا ذَاكَمَا قَدْ غَيْبْتُ غِيَابِيَا

قال المروسي: والغَيَابَةُ شبه الجُفِيفِ أو طاق في البرفرق للماء، يغيب الشيء عن العين .
وقال ابن عَرَبٍ: كل شيء غُيِبَ عنك شيئا فهو غَيَابَةٌ . قلت : ومنه قيل القبر غَيَابَةٌ ؛
قال الشاعر :

فَلَا أَنَا يَوْمًا غَيْبْتُ فِي غِيَابَتِي • فَيَسِّرُوا بَسِيرِي فِي الْبَسِيرَةِ وَالْأَهْلِ
وَالْجِبِّ الرَّكْبَةَ الَّتِي لَمْ تَطْلُ، فَإِذَا طُلُوْتُ فَهِيَ بَرٌّ • قَالَ الْأَعْمَشُ :
لَنْ كُنْتُ فِي جُبِّ سَمَائِينَ قَامَةً • وَرُفِيتْ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ^(١)

وسميت جباً لأنها قُطِعَتْ في الأرض قطعاً، وجمع الجلب جَلْبٍ وجباب وأجباب، وجمع بين
الغَيَابَةِ والجلب لأنه أراد القوه في موضع مظلم من الجلب حتى لا يلاحظه نظر الناظرين . قيل :

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) الجلب : الناحية من الخوض أو البرياك الماء فجمع كالنحو .

(٢) بسده :

لَيْسَ عَرَبِيٌّ بِكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَبْزَ • وَتَصِلَ إِلَى عَتَمٍ غَيْرِ مَطْمٍ
وَتَشْرُقَ بِالْقَوْلِ إِلَى هَذَا حَتَّى • كَأَنَّهُ تَرَفَعَتْ مَدْرَافَتُهُ مِنَ الدَّمِ

هو بر بيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ؛ قاله وهب بن منبه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانية - قوله تعالى : (يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) جزم على جواب الأمر ، وقرا مجاهد وأبرياء والجسن وقتادة : « تَلْقَاهُ » بالياء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السَّيَّارَةِ سَيَّارَةٌ ، وقال سيويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد :
وَتَشْرِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعَتْهُ • كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَتَاةِ مِنَ الدَّمِ
وقال آخره :

أَرَى مَرَّ السَّيِّئِ أَخَذَنِي • كَمَا أَخَذَ السَّرَّازُ مِنَ الْحِلَالِ

ولم يقبل شريق ولا أخذت . والسَّيَّارَةُ الجمع الذين يسرون في الطريق السفراء ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السَّيَّارَةِ يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجهها في التديريح حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يأذن لهم أبوه ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة - وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاد ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يذبحون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يسجد في القتل زلة نبي ، فكانت هذه زلة منهم ؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه . وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة - قال ابن وهب قال مالك : طرح يوسف في الحب وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه ، يعني أنه كان صبغيا ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ »

- (١) البيت اللائقي ، وهو يخاطب يزيد بن سهر السبياني ، وكانت بينهما مباحة ومهاجاة ؛ فيقول له : يهود طيبك مكره ما أذعت من القول ونسبه إلى من النجس ، فلا تجد به غلطا . والشرق بالماء كالغصن بالطعام .
(٢) مراد الشهور (بفتح السين المهملة وكسر هاء) وسره ؛ كقولها منه .

فِي غَيَابَةِ الْحَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قال : ولا يلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أُرْسِلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ وَنَا لَهُ كَمَا يَفْعَلُونَ » .

الخامسة - الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللقيط واللقطة ؛ ومن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أي يبعده من غير أن يمتصه . وقد اختلف العلماء في اللقيط ؛ فقليل : أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن علي أنه قضى بأن اللقيط حر ، وبلا « وَشَرُّهُ شَرٌّ يَحْتَسِبُ دَرَاهِمَ مَعْدُونَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علي وجماعة . وقال إبراهيم التيمي : إن نوى رقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حر . وقال مالك في موطنه : الأمر عندنا في المنبذ أنه حر ، وإن ولاه جماعة المسلمين ، هم يرمونه ويقولون عنه ، وبه قال الشافعي ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَهْتَقَ » قال : نفى الولاء عن غير المتيق . وانفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللقيط لا يؤلى أحدا ، ولا يرمه أحد بالولاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللقيط يؤلى من شاء ، فمن ولاه فهو يرمه ويقول عنه ؛ وعند أبي حنيفة له أن يتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقل عنه الذي ولاه ، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن يتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن علي بن رضى الله عنه : المنبذ حر ، فإن أحب أن يؤلى الذي التقطه ولاه ، وإن أحب أن يؤلى غيره ولاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حر . قال ابن العربي : إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ، ففرض بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذًا بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زينة اليهود فهو يهودي ، وإن وجد عليه زينة النصارى فهو نصراني ، وإلا فهو مسلم ؛ إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام، وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغريباً لحكم الإسلام الذي يعمل ولا يعمل عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبداً ، لأن أجمعه مسلماً على كل حال ، كما أجمعه حراً على كل حال . واختلف الفقهاء في المنهوض نبل البيئة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولنا في ذلك ، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هو حر ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيئة في أنه عبد . وقال ابن القاسم : تقبل البيئة في ذلك ؛ وهو قول الشافعي والكوافي .

السادسة - قال مالك في القليط إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيئة أنه آتبه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحة متممداً ، وإن لم يكن طرحة ولكنه ضل منه فلا شيء على الأب ، والملتقط متطوع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على القليط فهو متطوع ، إلا أن يجره الحاكم . وقال الأوزاعي : كل من أنفق على من لا يجب له عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعي : إن لم يكن للقليط مال وجبت نفقته في بيت المال ، لأن لم يكن فيه قولان : أحدهما - يستقرض له في ذمته . والثاني - يقسط على المسلمين من غير عوض .

السابعة - وأما القطة والضوال فقد اختلف العلماء في حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : القطة والضوال سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي ، وأنكر قول أبي عبيد القاسم بن سلام - أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان والقطة في غير الحيوان - وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإفك للمسلمين : « إن أمتك ضلّت فلا تدّنها » فاطلق ذلك على التلادة .

الثامنة - أجمع العلماء على أن القطة مالم تكن تافها يسموا أو شيئاً لا يباع لها فإنها تُعرف حولاً كاملاً ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمه فإن ذلك له ، وإن تصدق بها فصاحبها غير ضميرين التضمين وبين أن يتزل على أجزائها ، فأى ذلك تحير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . واجمعوا أن ضالة الغنم الخوف عليها إن له أكلها .

التاسعة - وأختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها، فمن ذلك أن في الحديث دليلًا على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلا . وقال في الشاة: " لك أو لأخيك أو للذئب " يحضه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيغ أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالة الإبل ، والله أعلم . وبجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها، هذا قول إسماعيل ابن إسحق رحمه الله . وقال المزني عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أمينًا عليها، قال : وسواء قليل اللقطة وكثيرها .

العاشرة - روى الأئمة مالك وغيره من زيد بن خالد الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : " أعترف عقاصها ووكامها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها والإفشائك بها " قال : فضالة الغنم يا رسول الله ؟ قال : " لك أو لأخيك أو للذئب " قال : فضالة الإبل ؟ قال : " ما لك ولها معها يفتأوها وحذاؤها ترد الماء وتاكل الشجر حتى يلقاها ربها " . وفي حديث أبي قال : " أحفظ عذدها ويعدها ووكامها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها " ففى هذا الحديث زيادة العدد؛ تحريمه مسلم وغيره . واجمع العلماء أن عقاص اللقطة ووكامها من إحدى علاماتها وأدلتها عليها ، فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دفعت له ، قال ابن القاسم : يجزى على دفعها ، فإن جاء مستحق يستحقها بينة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئًا ، وهل يخلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثاني لابن القاسم ، ولا يلزمه بينة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له ، وهو بخلاف نص الحديث ،

(١) العقاص : الرعاة ، الذى يكون به اللقطة ، جدها كان أو غيره . والوكام : هو الخيط الذى يشده به الرعاة . والمراد بالعقاص والوكام أن يعلم الملتقط صدق راعيتها من كذبها ، وبالحذاء خفيها ، ففى نفوسها بأخطائها على السير وروادها . والشجر .

ولو كانت اليانة شرطاً في الذبح لما كان لذكر البفاص والوكاء والقَدَد معنى ؛ فإنه يستحقها باليانة على كل حال ؛ ولما جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة - نص الحديث على الإبل والفم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماءنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالفم ؟ قولان ؛ وكذلك اختلف أئمتنا في النفاط الخليل والبقال والحير ، وظاهر قول ابن القاسم أنها تنقطع ، وقال أشهب وابن بكارة : لا تنقطع ؛ وقول ابن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " أحفظ على أخيك المؤمن ضائته " .

الثانية عشرة - واختلف العلماء في النفقة على الضوالم ؛ فقال مالك فيها ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق المتقطع على الدواب والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ؛ وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كالأمن . وقال الشافعي : إذا أنفق على الضوالم من أخذها فهو متطوع ؛ حكمه منه التوقيع . وقال المزني عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت ديناً ، وما أَدْعَى قُبِلَ منه إذا كان مثله قصداً . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع ؛ وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة - ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللقطة بعد التعريف : " فاستمتع بها " أو " فشابك بها " أو " فهي لك " أو " فاستفحقها " أو " ثم كُلها " أو " فهو مال الله يؤتبه من يشاء " على ما في صحيح مسلم وغيره ما يدل على التملك ، وسقوط الضمان عن المتقطع إذا جاء رجا ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرف^(١)

(١) (إن لم تعرف) : أي إن لم تعرف صاحبها .

فاستنقِها ولكن ودعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأذاها إليه " في رواية " ثم
كُلها فإن جاء صاحبها فأذاها إليه " أخرجه البخاري ومسلم. وأجمع العلماء على أن صاحبها متى
جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف، لتلك
الظواهر، ولا تنفك لقوله، لخالفه الناس، ولقوله عليه السلام: " فأذاها إليه ".

قوله تعالى: قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِاحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفَظُونَهُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ((قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)) قيل الحسن: أَيْحَسِدَ الْمُؤْمِنِ؟
قال: ما أفساك بنى يعقوب! ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب؛ فعند ذلك
أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال. وقالوا ليعقوب: « يَا أَبَانَا
مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الشافى عادوا إلى
يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سالوه قبل ذلك أن يخرج
معه يوسف فأبى على ما يأتي. فقرأ يزيد بن القمقاع وعمرو بن عبيد والزهرى « لَا تَأْمَنَّا »
بالإدغام، وبغير إشماس وهو القياس؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكنا. وقرأ طلعة بن
مُصَرِّف « لَا تَأْمَنَّا » بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رزين - وروى
عن الأعشى - « لَا تَيْمَنَّا » بكسر التاء، وهى لغة تميم؛ يقولون: أنت تضرب؛ وقد تقدم.
وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشماس ليدل على حال الحرف قبل إدغامه. ((وَإِنَّا لَهُ لَنَصِاحُونَ))
أى فى حفظه وغفقه حتى نرتد إليك. قال مقاتل: فى الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة
يوسف قالوا لأبيهم: « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا » الآية؛ فحينئذ قال أبوه: « إِنْ لِي لِحِزْنِي أَنْ
تَلْعَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله: « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الآية. ((أَرْسِلْهُ مَعَنَا
غَدًا)) إلى الصحرَاء ((يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ)) « غدا » ظرف، والأصل عند سيبويه قَدُو، وقد
نطق به على الأصل؛ قال الضمر بن شبيل: ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدوة،

وكذا بكرة . « نزع وتلب » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « ترتع » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « يرتع وتلب » بالياء وإسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ والقراءة الأولى من قول العرب رَتَعَ الإنسان والبصير إذا أَكَلَا كَيْفَ شَاءَ ؛ والمعنى : تنسَع في الحَصَب ؛ وكل حَصَب رَاتِع ؛ قال :

« فارتع فزارة لأهناك المرتع » .

وقال آخر^(١) :

ترتّع ما غفلت حتى إذا أذكرت . فإنيما هي إقبال وإدبار

وقال آخر^(٢) :

أكفراً بعد ردّ الصوت عني . وبعد عطائك المائة الزناتا

أى الزامة لكثرة المرحى . وروى معمر عن قتادة « ترتع » تسمى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إنا ذنبنا نستيق » لأن المعنى : نستيق في العبد إلى غاية بينتها ؛ وكذا « يرتع » بإسكان العين ؛ إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتّع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك ويتجبل ؛ فتوة يرتع ، ومرة يلعب بصفره . وقال القتيبي « ترتع » تنحارس وتتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضاً ؛ من قولك : رعاك الله ، أى حفظك . « وتلب » من اللعب . وقيل لأبي عمرو بن العلاء : كيف قالوا « وتلب » وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يؤمنون أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانسياط ، لا اللعب المخطور الذى هو ضد الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « وتلب » . ومنه قوله عليه السلام : « فهلاً يتركوا تلعابها وتلاعبك »^(٣) .

(١) لى الأصل (فارعى) وهو محرف - (٢) البيت لقنصاء من قصيدة ترقى بها أختها صفرا . ومعنى (يرتع) يرمى . نصف ناقة أرى بقسرة قتلت ولها ، فكيف غلقت ده رمت ، فإذا أذكرته حنت إليه فأنبئت وأدبرت ؛ فسر بها تلعابها صفرا . (٣) هو القنصاء . (٤) الخطاب بلابرين مبدأ ؛ وذكر ملا على من الطيبي : أن الإجماع عبارة عن الألفاظ الثابتة ، فإن التلب قد تكون مطلقا للعب بالزوج الأول ، فلم تكن محبة كالتب ، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقتادة : « يَرْتَع » على معنى يَرْتِع مطبته ، فحذف المفعول ، « وَيَلْبَسُ » بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : وهو ممن يلبس . (وَإِذَا لَهُ لَحَافِيْلُونَ) من كل ما تحاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجالا . وقد قل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما فابوا عن حيث طرحوه ليعدو معهم لاضراراه .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ . وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَبَحْنُ عُصْبَةٍ إِنَّا إِذَا تَلَخَسِرُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) في موضع رفع ، أي نهابكم به . أخبر عن حزنه لفريقته . (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ) وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف ، فظنك خافه عليه ، قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكان يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد أحوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتراى يوسف فيها ثلاثة أيام ، فكانت المبرة أخوته ، لما تناولوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتوابعه في الأرض هو مقامه في الحب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ، لخوفه . إنما كان من قتلتهم له ، فكفى عنهم بالذئب مسارة لهم ، قال ابن عباس : فسيام ذكاي . وقيل : ما خافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحاري . والذئب يأخوذ من تذابعت الرعي إذا جاءت من كل وجه ، كما قال أحمد بن يحيى ، قال : والذئب يهجم

(١) (يرتع) من ارتع ؛ وقد ورد في الأصول بالياء ، والذي في تفسير ابن حبة والأوسى وإلى جانب من مجاهد وقتادة هو (باليون) وجرم (شب) قال ابن حبة : (وقراءة مجاهد وقتادة « يرتع » بنم الهمزة وكسر اللام ، و « يلبس » بالهمزة والجرم) . (٢) ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري ، وقال الأمامي : إن تذابعت مشتق من الذئب ؛ لأن الذئب يعض في عدوه ، ويعقب بأن أخاه القمل من الأسماء الجمادة قليل فحالفه لقياس .

لأنه يحيى من كل وجه ، وروى ورش عن نافع « الذئب » بشير هز ، لما كانت الحمزة ساكنة وقبلها كسرة تخففتها جارت ياء . (وأنتم عنه قائلون) أى مشتغلون بالرى .

قوله تعالى : (قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) أى جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . (إِنَّا إِنَّمَا نَحْنُ سُرُونَ) فحفظنا أغنامنا ، أى إذا تكا لا تقدر على دفع الذئب عن أغنامنا فنحن اعجز أن ندفعه من أغنامنا . وقيل : « ناسرون » بلأهلون بمقه . وقيل لما جزون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ ابْنِ حَبِيبٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْفِيتَنَّهُمْ بِأَمْرٍ مِّنْ هُنَا لَهُمْ لَآ يَسْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ) « أن » فى موضع نصب ، أى هل أن يجعلوه فى غيبة الحب . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا طليطا ليحفظته ، وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنى شفقى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فأسقاه ، وإن أعيا فأحمله ثم عجل برده إلى . قال : فأخفوا يحملونه كل أكافهم ، لا يضعه واحد إلا رضعه آخر ، ويعقوب يُسيعهم ميلا ثم رجع ، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماء الذى كان يحملهم إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من النبط والسمف ، فاستنثت روبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى على ، وأقرب الأخوة إلى ، فأرحمنى وأرحم ضغنى » فلطمه لطمه شديدة وقال : لا قرابة بنى وبينك ، فادع الأحد عشر كركبا فتجلبك منا ، فعمل أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا ابنى ! أرحم ضغنى وعجزى وحدانية سنى ، وأرحم قلب أبيك يعقوب ، فأسرع ما تناسيت وصيته وتقضيتهم عهد ، ففرق قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما مدت حيا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبي إلى أبيه ، وتماحده

ألا يحدث والده بشئ مما جرى أبداً ، فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكاثة عند يعقوب ، والله لئن لم تدعه لتقتلك معه ، قال : فإن آيتكم إلا ذلك فهاهنا هذا الحب الموحش القفر ، الذي هو ماوى الحيات والموام فالقوه فيه ، فإن أصيب بشئ من ذلك فهو المراد ، وقد استرحم من دمه ، وإن انفلتت على أيدي سيارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ، فاجمع رأيهم على ذلك ، فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يُمَيِّسُوهُ فِي غَيْبَةِ الْجَبِّ ﴾ وجواب « لسا » محذوف ، أى فلما ذهبوا به واجمعوا على طرحه في الحب عظمت فتحتهم . وقيل : جواب « لسا » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِىُّ » . وقيل التقدير : فلما ذهبوا به من عند أبيهم واجمعوا أن يمسوه في غيبة الحب جعلوه فيها ، هذا على مذهب البصريين ، وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة ، والواو عند هم تراد مع لسا وحتى ، قال الله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَُا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى دعت ، وقوله : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَقَارَ التَّنُورُ » أى فار . قال امرئ القيس :

﴿ فَلَمَّا أَبْرَأْنَا سَاعَةَ الْحَيِّ وَانْقَضَى ۙ ﴾

أى انقضى ، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَفَاتَيْنَاهُ ۙ أَى تادبناه . وفى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة : أعطاه الله النبوة وهو فى الحب على حجر مرزق عن المساء . وقال الكلبي : أتى فى الحب وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، فما كان صغيراً ، ومن قال كان صغيراً فلا يبعد فى العقل أن يتبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » . وقيل : كان مناماً ، والأوّل أظهر . والله أعلم . وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَنُنَبِّئَنَّكُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ فيه وجهان - أحدهما - أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوضحهم على ما صنعوا ، فعل هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الحب تقوية لقلبه ، وتبشيره له بالسلامة . الثانى - أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ، فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

في الحب إنذارا له . (وَمَنْ لَا يَشْرُونَ) أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أنشئ
إليه الأمر بمصر ألا يغرب أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوته ؛ قاله ابن عباس
ومجاهد . وقيل : « الماء » يعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيرفهم
بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . وما ذكر من قصته إذ أتى في الحب -
ما ذكره السدي وغيره - أن إخوته لما جعلوا يدلون في البئر تعلق بشفير البئر ، فربطوا
يديهم وتزحوا قيصة ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردوا علي قيصة أتوارى به في هذا الحب ، فإن مت
كان كفني ، وإن عشت أوارى به عورتى ؛ فقالوا : أدع الشمس والقمر والأحد عشر
كوكبا فلنؤنسك وتكسك ؛ فقال : إني لم أر شئنا ، فلو في البئر حتى إذا بلغ نصفها القوة
إرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان في البئر ما فسقط فيه ، ثم أوى إلى حفرة فقام طابعا .
وقيل : إن شمعون هو الذي قطع الحبل لإرادة أن يتقنط على الصخرة ، وكان جبريل . ت
ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عبيد ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى
طارسته بين الزمى والوقوف فأقصده على الصخرة سالما . وكان ذلك الحب مأوى الهوام ؛
فقام على الصخرة وجعل يبكي ، فتأدوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ،
فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنهم يهودا ، وكان يهودا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل
جبريل إليه ؛ وكانت إبراهيم حين أتى في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة
فألبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شب يوسف
جعل يعقوب ذلك القميص في تمويذة وجعله في عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما أتى
في الحب عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على
الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتي ، قالوا : وما هي ؟ قال :
إذا اجتمعتم كلكم قانسي بفضكم بعضا فاذكروا وحشتي ، وإذا أكثتم فاذكروا جموعي .
وإذا شربتم فاذكروا عطشي ، وإذا رأيتم غربيا فاذكروا غربى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا
شبابي ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كُف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الداء عندا

بمكان ، ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كل غريب ، يا صاحب كل وحيد ، يا ملجأ كل خائف ، يا كاشف كل كربة ، يا عالم كل نجوى ، يا منتهى كل شكوى ، يا حاضر كل ملجأ ، يا حي يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي هم ولا شغل فترك ، وأن تجعل لي من أمري فرجا وفرجا ، إنك على كل شيء قدير ، فقالت الملائكة : إلهنا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبي ، والدعاء دعاء نبي . وقال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الحب فقال له : ألا أملك كلمات إذا أنت قاتن عجل الله لك خروجك من هذا الحب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل تنكير ، ويا شاهد كل تجهي ، ويا حاضر كل ملجأ ، ويا مفرج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، آيتي بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحدا سواك ، فرددها يوسف في ليلته مرارا ، فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الحب .

قوله تعالى : وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٠١﴾

فيه مستطاف :

الأولى - قوله تعالى : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً » أى ليلا ، وهو ظرف يكون في موضع الحال ، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء في العيين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجج في الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاهم قال : ما بكم ؟ أجرى في الغم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا فنسيتك فأكله الذئب ؛ فيكي وصاح وقال : أين قبصه ؟ على ما يأتي بيانه . وقال السدي وابن حبان : إنه لما قالوا أكله الذئب نزع مشيا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يعب ؛ قال وهب : ولقد وضع يوفذا يده على محارج نفس يعقوب فلم يمس بنفس ، ولم يتحرك له عرق ؛ فقال لهم يوفذا : ويل لنا من ديان يوم الدين ! ضيعنا أمانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يبق يعقوب إلا يردد السجدة ، فأفاق ورأسه في حجر روبيل ؛

فقال : ياروبيل ! ألم آمنتك على ولى؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت اكف عني بكلمة أخبرك ، فكف يعقوب بكلمة فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانية - قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تعصبا ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الذئب المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إِذَا أَشْبَهْتَ دَسُوعَ فِي خُدُودِهِ تَيَبَّتَ مِنْ بَيْتِي يَمُنْ تَبَاكِي

قوله تعالى : قَالُوا يَكَايُنَا إِنَّا فَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّيْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾
فيه سبع مسائل :

الأول - قوله تعالى : « نستبق » فتعلل ، من المسابقة . وقيل : أى تتفضل ، وكذا في قراءة عبد الله « إنا ذهبنا نتفضل » وهو نوع من المسابقة ، فإله الزجاج . وقال الأزهري : التفضل في التهام ، والرهان في الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القشيري أبو نصر : « نستبق » أى في الرمي ، أو على القوس ، أو على الأقدام ، والفرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو ، لأنه الأكلة في قتال العدو ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السيدي وابن حبان : « نستبق » فتد جريا لرى أينما سبق . قال ابن العربي : المسابقة شريعة في الشريعة ، وتخصلة بدعية ، وعون على الحرب ، وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وبجيلة ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ، فقال لها : « هذه بتلك » .

قلت : وسابق سلمة بن الأكوع رجلا لما رجعوا من ذي قرد إلى المدينة فسبقه سلمة ،

نحوه مسلم :

التائسدة - وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التي قد أُخْصِرَتْ ^(١) [من الحَفِيَاءِ] وكان أمدها ثِيَّةُ الْوَدَاعِ، وسابق بين الخليل التي لم تُخْصَرْ من الثِيَّةِ إلى مسجد بني زُرَيْقٍ، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها، وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط، فلا يجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة، الثاني - أن تكون الخليل متساوية الأحوال، الثالث - ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة، والليل التي يجب أن تُخْصَرَ ويسابق عليها، وتقام هذه السنة فيها هي الخليل الملعنة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة - وإما المسابقة بالنهال والإبل، فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا متراً فإنا من يصلح خيابه، ومنا من يتفضل، وذكر الحديث، وخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا سبق إلا في نَصْلٍ أو خُفٍّ أو حافر». وثبت ذكر النصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي، وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى الغنماء لا تُسَبَّقُ - قال: حميد: أو لا تكاد تُسَبَّقُ - بغاء أعرابي على قعود فصبغها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفته، فقال: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضمه».

الرابعة - أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على نوجه الزهان إلا في الخف والحافر والنصل، قال الشافعي: وما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها إقرار. وقد زاد أبو البختري

(١) تفسير الخليل: هو أن يظهر عليها باللف حتى تقسن، ثم لا تلف إلا قوماً ينفذ. وقيل: قتله عليها مروبها، وبحال الأجلة حتى تمزق تحتها، فيذهب وظهرها ويشتد لها، ويكون ذلك لفر أو ساق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك)، والحفيا: (بالمد والمصر): موضع بالمدينة بين رين ثبة الرودعة ستة أميال أو سبعة.

(٣) الثيَّة في الخليل كالثيَّة فيه، وقيل: هو الخليل الذي قتلى فيه، وقيل: أهل الخليل في رأسه وثية الوداع مشقة على المدينة سميت بذلك، لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثمراً منها في مسجد بني زُرَيْقٍ ميل.

(٤) «لا سبق»: هو يمنع الباء، ما يجعل لسابق على سبقه من المال، وإن يكون مصدر، قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح، أي لا يتحل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

القاضي في حديث الخلف والحافر والتصل «أو جناح» وهي لفظة وضعها الرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد روى عن مالك أنه قال: لا سَبَقَ إلا في الخيل والرمي؛ لأنه قوة على أهل الحرب؛ قال: وسَبَقَ الخيل أحب إلينا من سَبَقِ الرمي. وظاهر الحديث يسوق بين السَبَقِ على التَّجَبُّبِ والسَبَقِ على الخيل. وقد منع بعض العلماء الزعمان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤَوَّلُ قوله؛ لأن حمله على العموم يؤدي إلى إجازة القمار، وهو محرم باتفاق.

الخامسة - لا يجوز السَبَقُ في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا؛ وكذلك الرمي لا يجوز السَبَقُ فيه إلا بغاية معلومة ورشق معلوم، ونوع من الإحابة؛ مشترط خَصَصًا أو إصابة بشرط. والأسياق ثلاثة: سَبَقِ يعطيه الولي والرجل غير الولي من ماله متطوعا فيجعل السابق شيئا معلوما؛ فمن سبق أخذه. وسَبَقِ يخرج أحده المتسابقين دون صاحبه؛ فإن سبقه صاحبه أخذه؛ وإن سبق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له؛ ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسَبَقُ الثالث - اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرج به صاحبه؛ فأيها سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخل بينهما محلا لا يأمن أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلل أحرز السبقين جميعا وأخذهما وحده؛ وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه؛ ولا شيء للمحلل فيه؛ ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران - من أصحاب الشافعي -؛ وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولا جريه؛ ونحو محلا لأنه يحلل السبق للتسابقين أوله. وأتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قار؛ ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

(د) غفر الله لهم وثق إذا أصاب الرمية وقعة فيها.

عليه وسلم قال : " من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس يقار ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قار " . وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال : ليس برهان الخليل يأمن إذا دخل فيها محالاً ، فإن سبق أخذ السبق ، وإن سبق لم يكن عليه شيء ؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم . واختلف في ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحال في الخليل ، ولا تأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة - ولا يخل حل الخليل والإبل في المسابقة إلا عتلم ، ولو ركبا أو بابها كان أولى ؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخليل في السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السبق أن يسبق بالمهادي أو بعضه ، أو بالكفل أو بعضه ، والسبق من الرماة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى أبو بكر وثقت عمر ؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعني أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصّلون موضع العجز .

قوله تعالى : ﴿ وَرَكَّابُ يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِهِ ﴾ أي عند ثيابنا وأمتعتنا حارس لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » أخذوا ذلك من فيه فتحرموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أي بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أي وإن كنا ؛ قاله المبرد وآبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ في قولنا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتي بيانه . وقيل : « وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقنا ، ولا كنتمنا في هذه القضية ، لشدة عيبك في يوسف ؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما .

قوله تعالى : وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
 أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٥٨﴾
 قوله تعالى : (وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم تَحْلَةٍ أو جَدَى ذبجوه .
 وقال قتادة : كان دم ظلية ؛ أى جاءوا على قَيْصِهِ بدم مكتوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ،
 فصار تقيده : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وأسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان
 بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْبُ الأمير ، أى : ضروبه ، وماء سَكَبِ أى : مسكوبه ، وماء غُور
 أى : غائر ، ورجل عَدَلِ أى : عادل .

وقرأ الحسن وطائفة : « بِدَمٍ كَذِبٍ » بالتدال غير المعجمة ، أى بدم طرية ؛ يقال
 للدم الطرية الكذيب . وحكى أنه المنعبر ؛ قاله الشعبي . والكذب أيضا البياض الذى يخرج
 فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه التَّم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر
 من جهة اختلاف اللونين .

الثانية — قال علماؤنا رحمه الله عليهم : لما أرادوا أن يعملوا الدم علامة على صدقهم
 قرّن الله هذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنِيب ؛ إذ لا يمكن اقتراس
 الذنب ليوسف وهو لا لبس التميمص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه
 السلام القميص فلم يجد فيه ترقوا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا
 الذنب حكما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ وروى إسرائيل عن
 يَمَّالَ بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم تَحْلَةٍ . وروى سفيان عن يَمَّالَ
 عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذنب أكله لخرق القميص .
 وحكى الساموردى أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدَّ
 قَيْصُهُ مِنْ دُبُرٍ ، وحين أُلْقِيَ حِلَّ وَجْهِ أَبِيهِ فَأَرَادَتْهُ بَصِيرًا .

قلت : وهذا مردود؛ إن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قُذِّ، وغير القميص الذي أتاه البشير به . وقد قيل: إن القميص الذي قُذِّ هو الذي أتى به فارتد بصيرا، على ما يأتي بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فأتهمهم، فقال لهم يعقوب : تزعمون أنب الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده، وما أرى بالقميص من شقٍّ، ويزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه، هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » عن الحسن وغيره؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثة : استدلل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدلل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلاحظ الأمارات والعلامات إذا تمارضت، فلا ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله ابن العربي .

قوله تعالى : (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ النَّفْسُ مَرًا فَنَصْبِرَ جِيلٌ)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى أن يعقوب لما قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فأتوني به أسنانس به ؟ ! ألم يترك لي ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا: بل! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءَهُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَثِيرٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أروني قميصه، فأروه فتشبه وقبله، ثم جعل يقبله فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا؛ فقال : والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالأيوم ذئبا أحكم منه ؛ أكل ابنى واختلسه من قميصه ولم يزعقه عليه ؛ وعلم أن الأشر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمنفصب بأبكا حزينا وقال : يا معشر ولدي ! دلوني على ولدي؛ فإن كان حيا رددته إلى؛ وإن كان ميتا كفتته ودفتته ؛ فقبل قالوا حيثشذ : ألم تزوا إلى أيننا كيف يكذبنا في مقاتلتنا! اتألوا يخرجوه من الحب وقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصيدنا

في مقاتنا ويقطع بأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لا تكونن لكم عدوا ما بقيت ، ولا خبرن
أحداكم بسوء صنعكم ؛ قالوا : فإذا منعنا من هذا فمالوا نصطد له ذنبا ، قال : فاصطادوا
ذنبا واطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذنب
الذي يحل بأنعامنا ويفترسها ، ولعله الذي أبغنا بأخيها لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال
يعقوب : أطلقوه ، فاطلقوه ، وتبصيص له الذنب ، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له : آذن
آذن ، حتى الصق خذته بحذقه فقال له يعقوب : أيها الذنب ! لم جفنتي بولدي وأورثتني
حزنا طويلا ؟ ثم قال : اللهم أطلقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والذي أصلفك نيا ما أكلت
لحمه ، ولا مزقت جلده ، ولا تنفت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالي بولدي عهد ، وإنما
أنا ذنب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقد ، فلا أدري أسي هو أم ميت ،
فاصطادني أولادك وأوثقوني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت طينا وعلى جميع الوحوش ، والله لا
أقتت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأنطقه يعقوب وقال : والله لقد
أنتم بالهجة على أنفسكم ؛ هذا ذنب بهم خرج يتبع ذمام أخيه ، وأنتم ضيعتم أحاكم ، وقد جاءت
أن الذنب يرى ، مما جئتم به . (بَلْ سَوَّلَتْ) أي زينت . (لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) خير ما تصفون
وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وهي :

الثانية - قال الزجاج : أي فشانى والذي اعتقده صبر جميل . وقال قُطْرُب :
أي نصبري صبر جميل . وقيل : أي فصبر جميل أولى بي ؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف .
ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال : " هو الذي لا شكوى
معه " . وسياق له مرزبد بيان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر
فيما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال : وكذا قرأ الأشهب الثقفي ؛ قال وكذا
في مصحف أنس وأبي صالح . قال المبرد « فصبر جميل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن
المعنى : قال رب عندي صبر جميل ؛ قال : وإنما النصب على المصدر ، أي فلا صبرت صبرا
جميلا ؛ قال :

نَسَكَ إِلَى بَيْتِ طُولِ الشَّرَى • صَبْرًا جِيلًا فَيَكْلَتَا مَبْلً

والصبر الجليل هو الذي لا يزعج فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كتابة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ، وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخبتهم . وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ، فقبل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحران ، فأوحى الله إليه أن تسكنى يا يعقوب ؟ قال : يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لي . (وَأَلَّهِ الْأَسْتَأْنِ) ابتداء وخبر . (عَلَى مَا تَقْبُلُونَ) أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة — قال ابن أبي رفاعه : ينبغي لأهل الرأي أن يهتدوا بهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبي ، حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَبِيلٌ » فأصاب هناك ، ثم قالوا له : « إِنَّ أَبْنَاءَكَ سَرِقُوا وَمَاتَ شَيْدُنَا إِلَّا رَجَا عَلَيْهِمَا وَمَا كُنَّا لِنُتِيبَ حَافِظَيْنِ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » فلم يصعب .

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْلَاهُمْ قَالَ يَبْشُرُونَ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعةٍ وَأَلَّهُ عَلَيْهِمْ رَحْمًا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) أى رفة مارة يسرون من الشام إلى مصر فأخطروا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجلب ، وكان الجلب في قفرة بييدة من العمران ، إنما هو ثلاثة والمجتاز ، وكان مأوى ملحا فغلب حين أتى فيه يوسف . (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) فذكر على المعنى ، ولو قال : فأرسلت واردة لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » . والوارد الذى يرد الماء يستنى للقوم ، وكان اسمه — فيا ذكر المفسرون — مالك بن دعر ، (١)

(١) ويرى (صبر جميل) في البيت ، ويحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويرى (صبرا جميل) على نداء الجلب .

(٢) دعر : هو بالهال المهملة وبالذال تصحيف كاف في القاموس .

من العرب العاربة . (قَاتَلَتْ دُثُوهُ) أى أرسلته ، يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملاها ، ودلّاه أى أخرجها ، عن الأصمعي وغيره . ودلّاه من ذوات الواو- يدلو دلوًا ، أى جنب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردهه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ، قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ، اتباعا للمستقبل . وجمع دُثُو في أقل العدد أدلى فلما كثرت قلت : دُثِي ودُثِي ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التثنية ، ويفرق بين الواحد والجمع ، ودلّاه أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : « فلما أنا بيوسف إذا هو قد أعطى سَطْرَ الحسن » . وقال كتب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والمضفين ، تبيض البطن ، صغير الثرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شُعاع الشمس من ثنائه ، لا يستطيع أحد وصفه ، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ، وكانت قد أعطيت سدس الحسن ، فلما رآه مالك بن دُحْر قال : « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ، إلا أن ابن أبي إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يميز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ، وفي معناه قولان : أحدهما - أسم الغلام ، والثاني - يا أيها البشري هذا حييك وأوائك . قال قتادة والسدي : لما أدلى المذلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشري هذا غلام ، قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدي : نادى رجلا اسمه بشري . قال النحاس : قول قتادة أولى ، لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ، وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَبْصُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عقبة ابن أبي مَيْبُط ، وبمده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ غُلَامًا خَيْلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكب . من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عبياه ! أى يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيويه ، وكذا قال السهيلي . وقيل هو كما تقول : واسرروا ؛ وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهذا أصح لأنه لو كان اسما صلا لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعل هذا يكون « بشرى » فى موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ؛ أى انبهوا لفرحى وسرورى ؛ وعل قول السدى يكون فى موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك ياربلا ، وقوله : « يَا جَمْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . (وَأَسْرُوْهُ بِضَاعَةً) الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فاما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بِضَاعَةً » نصب على الحال . قال مجاهد : أسره مالك بن دُعر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرقعة ، وقالوا لم : هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشرك . وقال ابن عباس أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الحب ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أبى ، وقالوا ليوسف بالمصرية : إما أن تُفتر لنا بالعبودية فتبيطك من هؤلاء ، وإما أن تأخذك نفقتك ؛ فقال : أنا أفر لكم بالعبودية ، فأقر لهم بفاعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن أعترف لأخوتك بالعبودية فأبى أخشى إن لم تفعل فتلوك ؛ فلعل الله أن يحصل لك خرجا ، وتنجو من القتل ، فحكم يوسف شأنه غافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه حمة العبيد ؛ قالوا : هو ترعى فى مجورنا ، وتتناق بأخلاقنا ، وتأذب بأدابتنا ؛ فقال : ما تقول يا غلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى مجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بتموه منى اشتريته منك ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعالى : وَاسْرُوْهُ يَمْعَنَ بِمِيسَ دَرَاهِمَ مَعْدُوْدَةٍ وَكَانُوْا فِيْهِ مِنْ

الزَّاهِدِيْنَ ﴿٦٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَشَرُّهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى أشرتيت، وشريت بمعنى
بعت لغة؛ قال الشاعر^(١) :

وَشَرَيْتُ بَرًّا لَيْسَنِي * مِنْ بَعْدِ بَرِّكَ كُنْتُ هَامَةً .

أى بعت . وقال آخر :

فَلَمَّا شَرَّاهَا فَاضَتْ الْعَيْشُ عَبَّةً * وَفِي الصَّدْرِ حَزْازٌ مِنَ الْوَلَمِ حَامِرٌ^(٢)

﴿ بَيْتٌ بِحُسٍّ ﴾ أى قصص، وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم، أى باعوه بطن مخبوس،
أى مقبوس. ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه
من خلق وجه أبيهم عنه. وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الحب فأخبر
إخوته بغاموا وباعوه من الواردة. وقيل : لا بل طادوا بعد ثلاث إلى البئر يشترقون الخبر،
فراؤا أثر السيارة فاتبعهم وقالوا : هذا عبدنا أبى منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بحس »
ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدى وابن عطية : « بحس » حرام . وقال ابن العربي :
ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه
فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلق وجه أبيهم
عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقطعا؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا
بضاعة فراؤا أنهم لم يسطوا عنه ثمنًا وأما ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدل على أنهم لو أخذوا
القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدى وغيره ؛ لأنهم
أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشَّعْبِيّ :
قليل . وقال ابن حبان : زَيْفٌ . وحنَّ ابن عباس وآبَن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ
كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قتادة والسدى . وقال أبو العالية

(١) هو : يَرْبِزُ بَيْنَ مَرْغِ الْحَمِيءِ ؛ وَ (يَرْدُ) اسم عبد كان له قدم جل بعه . (٢) البيت للشاعر ، قاله
في ربيع باع قومه من ربيع . وسامن : حاضر ، وقيل : أى بعت بحرق . (السان) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما ، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمن ؛ وقاله مجاهد .
وقال عكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصمابة أولى . و « بنيس » من لعت
« ثني » . « دراهم » على البذل والتفسير له . وقال : دراهم على أنه جمع درهم ، وقد
يكون اسم الجمع عند سيبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مد الكسرة فصارت ياء ، وليس
هذا مثل مد المقصور ؛ لأن مد المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره . وأنشد
التحويون :

تَنبِيْهِ يَدَاها الحَصَى في كُلِّ حَاجِرَةٍ • تَقَى الدَّرَاهِمَ تَتَقَادُ الصَّبَا رِيفَ^(١)

(ممدودة) نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم هذا لاوزنا بوزن . وقيل :
هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون
ما دون الأوقية ، وهي أربعون درهما .

الثانية — قال القاضي ابن العربي : وأصل التقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم :
« لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى » .
والزينة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينا فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها المد تخفيفا عن
الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم بلأز بيع بعضها ببعض
هذا إذا لم يكن فيها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت حاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك
كان كسرها أو قرضها من التصاد في الأرض حسب ما تهتم .

الثالثة — وأختلف العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا ؟ وقد اختلفت
الرواية في ذلك من مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظاهر من قول
مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب ابن القاسم إلى أنها تتعين ، وحكى عن الكوفي ؛ وبه
قال الشافعي . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعين فإذا قال : يمتلك هذه الدنانير بهذه
(١) البيت للقرطبي ؛ وصف فاقة سريفة البير في المواجه ؛ فشب خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم .
من الأصابع إذا قدت .

الدرهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدرهم بذمة صاحبها؛ ولو تبينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتها شيء، وبطل المقد كبيع الأعيان من العروض وضربها .

الرابعة - روى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللقيط أنه حر، وفرأ : « وَشَرُّهُ يَحْنِي بِحَيْسِ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة . وقيل : الواردة ؛ وكل أى تقدير فلم يمكن عندهم غيطا، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبى منا - والزهد قلته الرغبة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، وراوا أن القليل من منته في الانفراد أولى .

السادسة - في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع ذرة ذات خطر عظيم بدينار ثم قال لم أعلم أنها ذرة وحسبنا غشلبة^(١) لم يفسد البيع ولم يفسد إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى في حبه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى سيويه والكشاف زهلت وزهلت بكسر الهاء وقضها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

(١) الغشلبة : نزع أبيض بشاكل الخوخ .

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ؛ إذ لم يكن ذلك حقدًا ، مثل : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » .
وقيل : إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء ، فخرى هذا اللفظ على ظاهر الظن ، قال الضحاك :
هذا الذي اشتراه ملك مصر ، ولقيه العزيز . السبيل : وأسمه قطفير . وقال ابن إسحق :
إطفير بن رويص اشتراه لامرأته راعيل ؛ ذكره الماوردي . وقيل : كان اسمها زليخا .
وكان الله ألقى عبدة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ؛ ذكره القشيري . وقد ذكر
القبولين في اسمها التلمحي وضميره . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر ، وهو
الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان ، وهو ربل من العالقة . وقيل : هو فرعون
موسى ؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْيَنَانِ » وأنه عاش أربعمائة سنة .
وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتي في « غافر » ^(١) . وسمي به . وكان هذا
العزيز الذي اشترى يوسف على خزان الملك ؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعر بعشرين
دينارًا ، وزأده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الزنقة . وقيل : تزادوا في ثمنه فبلغ
أضعاف وزنه مسكًا وعتبرا وحريرا وورقا وذهبًا ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فاشتراه
قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبه . وقال وهب أيضا وضميره : ولما اشترى
مالك بن دُعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما اشترى مالك بن دُعر
من بني يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما ، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه
لا يتقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودعهم يوسف عند
ذلك ، فجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذلتوني ، ربحكم الله وإن
لم ترحموني ؛ قالوا : فآلقت الأغنام ما في بطونها دما عبيطا لثمة هذا التدبوع ، وحلوه على
قصب بغير غطاء ولا وطاء ، مقيدا مكبلا مسلسلا ، فتر على مقبرة آل كتمان فرأى قبر أمه — وقد
كان وكل به أسود يحرسه فنفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمه وجعل يتوخ

ويعتق القبر ويضطرب ويقول : يا أماء ! أرفعى رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا
مفلولا، تزقوا بيني وبين والدي، فسلم إلى الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين،
تفقدته الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو بياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فكرهبه
برجله في التراب وصرغه وضربه ضربا وجيعا، فقال له : لا تفعل ! والله ما هربت ولا أقيت،
وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون، فقال الأسود :
والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ؟ فرفع يديه
إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أحلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي
إبراهيم وإسماعيل ويعقوب أن تنفصر لي وترحمني، فضجّت الملائكة في السماء، ونزل جبريل
فقال له : يا يوسف ! غص صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض
فأجعل عاليها سافلها؟ قال : ثبت يا جبريل، فإن الله حليم لا يعجل، فضرب الأرض بمجناحه
فأظلمت، وأرتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا، فقال
رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ - فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطرٌ مثل
هذا - فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لأعرفه،
ولا أشك أنه دعا علينا، فقال له : ما أردت إلا هلاكنا ! أيقنا به، فاتاه به، فقال له :
يا غلام ! لقد لطمت بكفانا ما رأيت، فإن كنت تهتمص فأقتص من شئت، وإن كنت تمنغو
فهو الظن بك، قال : قد عفوت رجاء أن يغفو الله عني، فأنجلت النبرة، وظهرت الشمس،
وأضاء مشارق الأرض ومنازلها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه حتى وصل إلى
مصر فاعتقل في سجنه وأذهب الله عنه كآبة السفر، وردّ عليه جماله، ودخل به إلى بلد نهارا -
فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطيفر وزير الملك، قاله ابن عباس على
ما تقدم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك
ويوسف يومئذ على خزائن الأرض، فلك بعده قابوس وكان كافرا، فدعاه يوسف إلى
الإسلام فأبى . « اكريمى مشواه » أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن، وهو

ماخوذ من حوى بالمكان أى أقام به ووقه تقدم فى « آل عمران » وغيره . (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا)
أى يكفيننا بعض المهمات إذا بلغ . (أَوْ نَنْفَعَهُ وَلَدًا) قال ابن عباس : كان حصورا
لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحق : كان فقيرا لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف
قال « أَوْ نَنْفَعَهُ وَلَدًا » وهو ملكه ، والولادة مع العبدية متناقض ؟ قيل له : يستقضى ثم ينفذه
ولدا بالثبوت ، وكان الثبوت فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام ، على ما يأتى
بيانه فى « الأحزاب » إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة
ثلاثة ؛ المزريق بن نفوس فى يوسف فقال : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْفَعَهُ وَلَدًا » ، وبنت
شعيب حين قالت لأبيها فى موسى « أَسْتَأْجِرُهُ إِنْ خَيْرَ مِنِّي أَسْتَأْجِرْتُ الْقَوَى الْأَمِينُ » ، وأبو بكر
حين استخلف عمر . قال ابن العسرى : عجبا للقمرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر !
والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر » وليس كذلك فيما تفصلوه ، لأن
الصديق إنما ولى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها ، والاطلاع
على ما شاهد منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت
معهما العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى « القصص » . وأما امر المزريق فيمكن أن يجعل فراسة ؛
لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكذا
أنفذه من إخوته ومن الحب فكذلك مكأله ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه حتى
تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى المالك مستول عليه . (وَلَعَلَّهُمْ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)
أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » . وقيل : المعنى
مكأه لنوحى إليه بكلام منا ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . (وَاللَّهُ
غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أى لا يظلم الله شيئا ، بل هو الغالب على أمر

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ طبعة أول أوتانية . (٢) راجع المسئلة الأول والثانية فى تفسير آية هـ .

(٣) راجع تفسير آية ٧٥ . (٤) راجع تفسير آية ٢٦ .

نفسه فيما يريد أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يهلكه إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد . (وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أي لا يظلمون على غيره . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيره . وقيل : المعنى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماة في هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » حيث أمره يقرب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص ؛ ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا ومعهذا بين يديه ، ثم أراد الإخوة أن يخلوهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وأفكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة ، فقال : « يَا أَسَفًا عَلَى يَوْسُفَ » ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين ، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة ، وقالوا لأبيهم : « إِنَّا كُنَّا سَاغِطِينَ » ثم أرادوا أن يغذوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » ثم احتالوا في أن يزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه ، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن أبشده بالكلام فغلبته ، فغلب أمر الله حتى قال العزيز : « أَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ » ، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساق فغلب أمر الله ففنى الساق ، وليث يوسف في المعجن يضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) « أشده » عند سيوويه جمع ، واحده شدة . وقال الكسائي : واحده شد ؛ كما قال الشاعر :

عَهْدِي بِهِ شَدَّةُ النَّهَارِ كَأَمَّا • خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْمِطْلَمِ

(١) حر حنة العيسى - وشدة النهار : أي أشده ، بيني أعلاه . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ؛ وقيل : ما بين اللتين ، ويرى : « اللبان » . والظلم صارة شجر أو نبت يصح به ، أو الوصية ، وهي شجرة ورغها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون التقصان بعد . وقال مجاهد وقطادة : الأشدُّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الأشدُّ بلوغ الحلم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و«الأعام» مستوفى . (أتيناه حُكْمًا وَعِلْمًا) قيل : جعلناه المستوى على الحُكْم، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أى وأتيناه علما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحُكْمُ النبوة ، والعلم علم الدين ؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتي النبوة صبيًا قال : لما بلغ أشده زدناه فهما وعلما . (وَكَذَلِكَ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان أخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيتك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك في الأرض .

قوله تعالى : وَرَوَدَتْهُ الْمَلِكُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَهَنَ بِهِ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى : (وَرَوَدَتْهُ الْمَلِكُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يوافقها . وأصل المراودة الإراادة والطلب برفق ولين . والرود والرئاد طلب الكلا ؛ وقيل : هى من رويد ؛ يقال : فلان يمشى رويدا ، أى برفق ؛ والمراودة الرفق فى الطلب ؛ يقال

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية .

و الرجل : راودها عن نفسها ، وفي المرأة راودته عن نفسه . والراود الثاني ؛ يقال : أرودتني أمهاتي . (وَغَلَقْتُ الْأَبْوَابَ) غَلَقَ للكثير ، ولا يقال : غَلَقَ الباب ؛ وأغلق يقع للكثير والقليل ؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء :

« ما زلتُ أغلقُ أبواباً وافتحتها » حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمرو

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعه إلى نفسها . (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) أي هَلُمَّ وأقبل وتعال ؛ ولا مصدر له ولا تصرف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجل ما فيها وأصحها إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنما أقرأ كما علمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنما أقرأ كما علمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والماء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبيرة والحسن وبجاهد وعكرمة ؛ وبهاقرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحزمة والكسائي . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا في القرآن ؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هَلُمَّ وَتَعَالَ . وقرأ ابن أبي إسحق النخعي « قلت هَيْتَ لَكَ » بفتح الميم وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وابن كثير « هَيْتَ لَكَ » بفتح الميم وضم التاء ؛ قال طرقة :

ليس قومي بالأهلين إذا ما . قال داود من التشبية هَيْتَ

فهذه ثلاث قراءات الميم فيمن مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » بكسر الميم وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثاب « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الميم وفتح التاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس وبجاهد وعكرمة « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الميم وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ابن طاهر وأهل الشام « وَقَالَتْ هَيْتُ » بكسر الميم وبالحمزة وفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هَيْتُ لَكَ » بفتح التاء لانقضاء الساكنين ، لأنه صوت نحومة وصحة يجب ألا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل الاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر الاء فإنما كسرهما لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلاّن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعائى لك ، فلما حذف الإضافة بقى على الضم ؛ مثل حيث وبعد . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما - أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر . والآخر - أن يكون فعلا من هَاء يهـىء مثل جاء يهـىء ؛ فيكون المعنى فى « هَيْتَ » أى حسنت هَيْتَكَ ، ويكون « لَكَ » من كلام آخر ، كما تقول : لَكَ أحنى . ومن همز وضم الاء فهو فعل بمعنى تهيأت لك ؛ وكذلك من قرأ « هَيْتَ لَكَ » . وانكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة - معمر بن المثنى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم الاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! انهب فاستعرض العرب حتى انتهى إلى اليمن هل تعرف احدا يقول هـنا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تَحُكْ « هَيْتُ » عن العرب . قال عكرمة : « هَيْتُ لَكَ » أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربية . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجل يهـاء ويهـىء هياءَ فهـاء يهـىء مثل جاء يهـىء ، وهَيْتُ مثل جئت . وكسر الهاء فى « هيت » لفظة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهاء والاء ؛ قال طرفة :

ليس قوى بالأبعدين إذا ما * قال داغ من الشمية هَيْتَ

بفتح الهاء والاء .

وقال الشاعر فى علي بن أبي طالب رضى الله عنه :

أبلغَ أميرَ المؤمنينَ أبا العراقِ إذا أتيتَ
إلى العراقِ وأهلكَ * سَلَّمَ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسرانية تدعوه إلى نفسها . وقال السدى : معناها بالقبطية هلم لك . قال أبو عبيد كان الكسائى يقول : هى لفة لأهل حوران وقعت إلى أهل الجواز مناهى ؛ قال أبو عبيد : فسالت شيخا طالبا من حوران فذكر أنها

لنهم ، وبه قال عكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة صربية تدعوها إلى نفسها ، وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهري : يقال هَوَّتْ به وهَيْتْ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قد رأيته أن الكرى أنسا • لو كانت معينا بها لميتا

أى صاح ؛ وقال آخر :

يحدو بها كل قى حيات •

قوله تعالى : (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ) أى أعوذ بالله واستجير به بما دعوتنى إليه ؛ وهو مصدر ، أى أعوذ بالله معاذا ؛ فيحذف المفعول ويتصحب المصدر بالفعل المحذوف ، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : مررت بزيد مرور عمرو أى كمرورى بعمرو . (إِنَّهُ رَبِّى) أى هو سيدى أكرمته فلا أخوته ؛ قاله مجاهد وأبو إسحق والسدى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولانى بطفه ، فلا أركب ما حرته . (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرحم مؤثرى ربى ؛ قالت : يا يوسف ! أحسن شعرك ! قال : هو أول شئ يتلى منى فى قبرى ؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن عيليك ؟ قال : بهما أنظرنى إلى ربى . قالت : يا يوسف ! أرفع بصرك فانظرنى وجهى ، قال : إني أخاف العى فى آخرى . قالت : يا يوسف ! أدنو منك وتباعد منى ؟ قال : أريد بذلك التقرب من ربى . قالت : يا يوسف ! القيطون فادخل معى ، قال : القيطون لا يستترى من ربى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقض حاجتى ، قال : إذا ذهب من الجنة نصيبى ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها ، إلى أن هم بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف مبسل شهوة حتى نبأه الله ، فالتى عليه هبة النبوة ؛ فثقلت هيئته كل من رآه عن حسنه . واختلف العلماء فى همه ؛ ولا خلاف أن همها كان المعصية ، وأما يوسف نوم بها

(١) القيطون : الخدع ، أجمى ، قليل ؛ لغة أهل مصر وربر

(لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولكن لما رأى البرهان ما هم ؛ وهذا لوجوب المعصية للأنبياء ؛ قال الله تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنُصِرفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فإذا في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي لولا أن رأى برهان ربه هم بها . قال أبو حاتم : كنت أقرأ بغريب القرآن حل أبي عبيدة فلما أتيت على قوله : « وَأَقْدَمْتُ بِهِ وَعَمَّ بِهَا » الآية ؛ قال أبو عبيدة : هذا حل التقديم والتأخير ؛ كأنه أراد ولقد هممت به ولولا أن رأى برهان ربه لم هم بها . وقال أحمد بن حنبل : أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرية ، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به ؛ فيبين المحتين فرق ؛ ذكر هذين القولين المروي في كتابه . قال جميل :

هَمَمْتُ بِهِمْ مِنْ بُيُوتِنَا لَوْ بَدَأَ شَفِيفُ ظِلَالِيتِ الْهَوَىٰ مِنْ قُرَادِيَا
أَخْصَرُ :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَسْلَمْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي . تَرَكْتُ عَلَى عَثَاثٍ تَيْسَكِي جَلَالَهُ

فهذا كله حديث نفس من غير همزم . وقيل : هم بها حتى زوجها . وقيل : هم بها أي يضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قضدها بالحرام فامتعت فضر بها . وقيل : إن هم يوسف كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من أمراته ؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وطائفة ؛ فيما ذكر القشيري أبو نصر ، وأبن الأثيري والنحاس والمناوردي وغيرهم . قال ابن عباس : حل الميثاقان^(١) وجلس منها مجلس الخاتن ، وعنه : استفت حل ففأها وقعد بين رجلين يترج ثيابها . وقال سعيد ابن جبير : أطلق يكة سراويله . وقال مجاهد : حل السراويل حتى بلغ الإكيتين ، وجلس منها مجلس الرجل من أمراته . قال ابن عباس : ولما قال : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟ ! فقال عند ذلك : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » . قالوا : والآنكفأف في مثل هذه الحالة دال على الإخلاص ، وأعظم للثواب .

(١) الميثاقان شداد السراويل .

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفيل حسب ما يأتي بيانه في «ص»
 إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأضى
 ما هم به ؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَقَالَمُونَ عَلِمَ الْبَاقِينَ» وجوابه لم تتناسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا
 القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة في ذلك أن يكون مثالا للذين يبروا
 أن توبتهم ترجع إلى صفو الله تعالى كما رجعت بمن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ،
 وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيها روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجل زليخا وأخذ في حل
 ثيابه وتكته ونحو ذلك ، وهي قد استفتت له ؛ حكاه الطبري . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام :
 وأبن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها ، وهو أعلم بالله وبتأويل كتابه ، وأشد تعظيما
 للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بشيء علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصي
 الأنبياء ليعبرم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا يمسوا من التوبة . الفوزى : مع أن زلزلة الأنبياء حكايا
 زيادة الرجل ، وشدة الحياء بالجل ، والتخل عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بسد
 الأمل ، وكونهم أمة رجاء أهل الزلل . قال القشيري أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف
 هم ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للمقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ
 به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب المساء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا
 لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما مجس في النفس ؛
 والبرهان صريح عن هذا المم حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وعن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به في هذه
 الآية إن كون يوسف في هذه المنازلة لم يصح كونه نبياً ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان
 كذلك فهو مؤمن قد أوق حكا وعلماء ، ويجوز عليه المم الذى هو إرادة الشيء دون موافقته
 وأن يستصحب الخاطى الردى على ما في ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت
 فلا يجوز عليه عندى إلا المم الذى هو خاطى ، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكته

(١) راجع تفسير آية ٤٨ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة . وما روى من أنه قيل له : « تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل الأنبياء » وإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح ؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه ، وهو قول جماعة من العلماء ؛ وإن كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون المهمل الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر ؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق ، إذ لا قدرة للكلف حل دفعه ؛ ويكون قوله : « وَمَا أَرَى نَفْسِي » — إن كان من قول يوسف — أى من هذا المهمل ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والإعتراف ، لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرىء ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » على ما تقدم بيانه ، وخبر الله تعالى صديق ، ووصفه صحيح ، وكلامه حق ؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته ، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله ، فما تعرض لأمرأة العزيز ، ولا أجاب إلى الراودة ، بل أدبر عنها وفر منها ؛ حكمة خُص بها ، وعملًا بمقتضى ما علمه الله . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ رَبِّ ذَاكَ عَبْدٌ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ فَقَالَ أَرْقِبُوهُ إِنْ لَحِمَهَا فَاكْتَبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً إِنْ تَرَكَهَا مِنْ جَرَأِيٍّ » . وقال عليه السلام غبرا عن ربه : « إِنْ أَرَأَيْتُمْ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ حَسَنَةً » فإذا كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب ؛ وفي الصحيح : « إِنْ أَرَأَيْتُمْ عَبْدِي عَمِلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَتَكَبَّرْ بِهَا » وقد تقدم . قال ابن العربي : كان بمدينة السلام إمام من أئمة البصوفية ، — وأى إمام — يعرف بابن عطاء بالتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر سيرته مما نسب إليه من مكروه ؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليفة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدي ! فإذا يوسف هم وتمام ؟ قال : نعم ! لأبى النهاية من قَم . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وانظر إلى فطنة البصير في سؤاله ،

(١) ابن جرير : أى من أجل ؛ وفي نسخة من صحيح مسلم « من جرأت » .

وجواب المالم في اختصاره وأسفاؤه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « ولما بلغ أشده أُنْيَأُ حَكْمًا وَعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إيمان قلبه الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تقررت عصمته وبرامته بقاء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَبُ بْنُ عَثَانَ : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته امرأة فسامته ففهمها فامتنع عليها وذكروها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرتك ؛ فخرج وتركها ، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالبا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذي هممت ، وأنت سليمان الذي لم تهتم ؟ ! فإن هَذَا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو عال ؛ ولو قدرنا يوسف غير نبى فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو ؛ ولو فُتحت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصلابة تخيف عليه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَوَلَّى أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والجواب عن جواب السامع ، أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير المذكور في القرآن ؛ فروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكمل بالتر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستعى من إلى هذا أن يراني في هذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستعى من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا في سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » . وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها « وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : تولى يا يوسف ! أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل لعمل البهفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران حاضيا على أنمله يتوعدته فسكن ، ونجرت شهوته من أنامله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حل سرابله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسف ! فولى هاربا . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال : مثل له يعقوب فعزب

صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب
 أنثى عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، وقص تلك الشهوة ولله ؛ وقيل غير
 هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وأمتنع
 عن المعصية .

قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَتُصَرِّفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ الكاف من «كذلك» يجوز
 أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر ابتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر
 محذوف ؛ أى أرىناهم البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل :
 السوء التآكل القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة .
 وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن طاهر «المخلصين» بكسر
 اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم
 الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان غليظا فى طاعة
 الله تعالى ، مستخلصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا
 لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
 أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ﴾

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ .

فيه مستثنان :

الأول :- قوله تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قالت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز
 الذى يتجمع فيه المعاني ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها بجماديا ، هى لترذه إلى
 نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فادركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خلفه ؛
 قبضت فى أعلى قيصه فتخزق القميص عند طوقه ، وتزل التخزيق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السبق إلى الشيء، ومنه السباق . ولقد قطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، قال النابغة :

تَقَدَّ السُّلُوكُ الْمُضَاعَفَ نَسْبُهُ * وَتَوَقَّدَ الصُّفَاحُ نَارَ الْحَبَابِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عرضاً . وقال المفضل بن حرب : قرأت في مصحف « قلماً رأى قيسه عَطَّ مِنْ دُرِّ » أى شَقَّ . قال يعقوب : العَطَّ الشَّقُّ في الجلد الصحيح واللوب الصحيح . وحذفت الألف من « استيقا » في اللفظ لسكونها وسكون الهمزة بعدها، كما يقال : جاءني عبداً الله في التثنية، ومن العرب من يقول : جاءني عبداً الله بإثبات الألف بغير همز، ويصح بين ما كتبت، لأن الثاني مدغم، والأول حرف مد ولين . ومنهم من يقول : عبداً الله بإثبات الألف والهمز، كما تقول في الوقف .

الثانية - في الآية دليل على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة، لما ذكر من قد القميص مقبلاً ومدبراً، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم، وذلك أن القميص إذا جُيِّد من خلف تمرق من تلك الجهة، وإذا جُيِّد من قدام تمرق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : (وَالْفَإِ سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) أى وجدا العزيز عند الباب، وعنى بالسيد الزوج، والقبط يسمون الزوج سبيداً . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه والاطه ولاطه كله بمعنى واحد، فلما بات زوجها طلبت وجهها الجميلة وكادت فقالت : (مَا بَرَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) أى زنى . (أَلَا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) تقول : يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيمًا . و « ما جزاه » ابتداء، وغيره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع « أن يسجن » لأن المعنى : إلا السجن . ويؤوِّز أو عذاباً أيماً بمعنى : أو يعذب عذاباً أيماً، قاله الكسائي .

(١) يصف السوف، وله تقدم فرح البيت يماشى من ١-٣ من هذا الجزء .

(٢) كما العبارة في الأصل « البحر المحيط »، ولم تقف على مادة (وارط زوالط ولاط) بمعنى (أنى)

قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا
 إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٨﴾
 وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٩﴾
 فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَوْنِيذٍ إِنَّ كَوْنِيذُكُمْ
 عَظِيمٌ ﴿٨٠﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ لِإِنَّكَ كُنتِ
 مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) .
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة في حبه — لأن من شان
 المحب إثارة المحبوب — قال « هي راودتني عن نفسي » فعلق يوسف بالحقي في مقابلة بهما
 وكذبها عليه . قال نوف الشامي وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم ين عن كشف القضية ،
 فلما بقيت به غضب فقال الحق .

الثانية — (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) لأنهما لما تمارضا في القول احتاج للملك إلى
 شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أي حكم حاكم من أهلها ، لأنه
 حكم منه وليس بشهادة . وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول — أنه
 طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ؛ لمحيث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه
 وسلم ، وهو قوله : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » وذكر فيهم شاهد يوسف ، وقال
 القشيري أبو نصر : قيل كان صبيا في المهد في النار وهو ابن خالتها ؛ وروى سعيد بن
 جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر
 منهم شاهد يوسف ؛ فهذا قول . الثاني — أن الشاهد قد التميمي ؛ رواه ابن أبي نجيح
 عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الجلال ألغى من لسان المقال ؛

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتعتبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كبير في أشعارها وكلامها؛ ومن أسلاء قول بعضهم: قال الحائط للوثة لم تشقني؟ قال له: سل من يدقني. إلا أن قول الله تعالى بعد « من أهلها » يطل أن يكون القميص . الثالث - أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنس ولا بجن؛ قاله مجاهد أيضا؛ وهذا يردده قوله: « من أهلها » . الرابع - أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير في أموره؛ وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبداد والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدري أيا كان قد قام صاحبه؛ فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدي . قال السدي: كان ابن عمها؛ وروى عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، وألفه أعلم . وروى عن ابن عباس - روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة - قال: كان رجلا ذا حلية . وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك . وقال عكرمة: لم يكن بصبي، ولكن كان رجلا حكيما . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا . قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك بخفاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تنفي عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بخلاف الحديث " تكلم أربعة وهم صفار " منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صفرا ليس بشيخ؛ وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد توارث الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي .

قلت: قد روى عن ابن عباس وأبي ثمره وابن جبير وهلال بن يساف والضحاك أنه كان صبيّا في المهد؛ إلا أنه لو كان صبيّا تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى

استدلال بالتمييز، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة، والله أعلم. وميأق من
تكم في المهدي من الصبيان في سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثة - إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلاً صغيراً فلا يكون فيه دلالة على العمل
بالأمارات كما ذكرنا، وإذا كان رجلاً فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في التفتة وكثير
من المواضع، حتى قال مالك في اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة بقاء قوم فأدعوها ،
ولست لهم بينة فإن السلطان يتلوم لهم في ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد
في مناع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل : إن ما كان للرجل فهو للرجل، وما كان للنساء
فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شرح وإياس بن معاوية يملان على
العلامات في الحكومات ؛ وأصل ذلك هذه الآية ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ قِيَصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ) كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو
ما يشكل ، لأن حروف الشرط ترفع الماضي إلى المستقبل ، وليس هذا في كان ، فقال المبرد
محمد بن يزيد : هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن ؛
أى إن يعلم ، والعلم لم يقع ، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قَدْ مِنْ قُبُلٍ » تفجر عن
« كان » بالفعل الماضي ؛ كما قال زهير :

وكان طوى كشفاً على سُتَيْكَةٍ • فلا هو أبداها ولم يتقدم^(٢)

وقرأ يحيى بن يعمر وأبى إسحق « مِنْ قُبُلٍ » بضم القاف والباء واللام ، وكذا « دُرٌّ »
قال الزجاج : يحملها غايتين كقبيل وقبيل ، كأنه قال : من قبيله ومن دُرِّه ، فلما حذف
المضاف إليه - وهو مراد - صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له .
ويجوز « مِنْ قُبُلٍ » « ومن دُرٍّ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف ؛ لأنه معرفة ومزال
عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « مِنْ قُبُلٍ » « ومن دُرٍّ » بحذفان مجروران .

(١) الخدم : النظر للأمر تريد . (٢) الكشح : لينب ؛ ويقال : طوى كشفاً على كذا إذا
أخبره . والمستكة : الحقة . وروى : (ولم يهجم) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأنفال » (١) : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عظيم » لعظم قسطنطين وأحيانته في التخلص من ورطته . وقال بقاتل عن يحيى بن أبي كنبر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أى يا يوسف ، غذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأجد وأكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنت (أستغفري لذنوبك) يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا بمايقك . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ولم يقل من الظالمات لأنه قصد الإخبار عن الذكر والمؤنث ، فقلب المذكر والمهي : من الناس الظالمين ، أو من القوم الظالمين ؛ مثل « إنها كانت من قوم كافرين » « وَكَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ » . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولما استغفري زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فذلك كان ساكنا . وعدم السيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثاني — أن الله تعالى سلبه النيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنًا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَحْدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ
فَلْيَكُنْ الَّذِي لُمْنُنِي فِيهِ وَاقْدِرْ رُوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِنْ
لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) ويقال : «نِسْوَةٌ» بضم النون، وهي قراءة الأعمش
والمفضل والسائي، واجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت
الأعراب وقال الأعراب، وذلك أن القصة انتشرت في أهل مصر فتحدثت النساء . قيل :
أمرأة ساقى العزيز، وأمرأة خيازه، وأمرأة صاحب دوابه، وأمرأة صاحب مجننه . وقيل :
أمرأة الحاجب، عن ابن عباس وغيره . (تَرَاوَدُّ قَتَاةً عَنْ نَفْسِهِ) التقى في كلام العرب
الشاب، والمرأة قتاة . (قَدْ شَفَعَهَا حُبًّا) قيل : شفعها عليها . وقيل : دخل حبه في شفافها،
عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل تحت شفافها .
وقال الحسن : الشفف باطن القلب . السدى وأبو عبيد : شفاف القلب غلافه، وهو جلدة
عليه . وقيل : هو وسط القلب، والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى
شفافها فغلب عليه، قال النابغة :

وقد حال ثم دون ذلك داخل * دخول الشفاف تفتيته الأصابع^(١)

وقد قيل : إن الشفاف داء، وأنشد الأصبغى للرازي :

* يَلْبِغُهَا وَيَحِي لَهُ شَفَافٌ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن عبيد بن الحسن «شَفَعَهَا» بالعين غير معجمة، قال ابن الأعرابي :
معناه أنرق حبه قلبها، قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهري : وشَفَعَهُ الحبُّ أحرق
قلبه، وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شَفِعَ بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن «قَدْ شَفَعَهَا»
قال : بَطَلَهَا حُبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كلُّ مذهب،

(١) يعني أصابع المطينين، يقول : قد حال عن البكاء، حل البازم دخل في الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

لأن شفاف الجبال أعاليها ، وقد شُفِفَ بذلك شُفُفا بإسكان النين إذا أُولع به ، إلا أن
أبا عبيدة أنشد بيت امرئ القيس :

لَفَتَنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فَوَادَهَا • كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءُ الرَّجُلُ الطَّالِي

قال : فشبهت لوحة الحب وجواه بذلك . وروى عن الشعبي أنه قال : الشغف بالنين
المعجمة حب ، والشغف بالعين غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَهَا »
بكسر النين ، ولا يصرف في كلام العرب إلا « شَغِفَهَا » بفتح النين ، وكذا « شَعَفَهَا » أى تركها
مشعوفة . وقال سعيد بن أبي عمرو بن العباس : الشفاف حجاب القلب ، والشفاف
سويداء القلب ، فلو وصل الحب إلى الشفاف لمات ، وقال الحسن : ويقال إن
الشفاف الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبه بقلبها كلفوق
الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي صَدَائِلٍ مُّبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قتادة : « فاهأ »
وهو قى زوجها . لأن يوسف كان عندهم فى حكم المالك ، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال
مقاتل عن ابن عباس التَّهْدِي من سلمان الفارسي قال : إن امرأة العزيز آستوهبت زوجها
يوسف فوجه لها ، وقال : ما تضمنين به ؟ قالت : آتخذنه ولدا ، قال : هو لك ، فربته حتى
أضع وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتقرين وتدعوه من وجه اللطف
فقصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِمَكَرِهِنَّ ﴾ أى تبينتن لإيهاء ، وأحيانهن فى ذمها . وقيل .
إنها أطلعتهن واستأمتتهن فافتنين سرها ، فسمى ذلك مكارا . وقوله : ﴿ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ ﴾
فى الكلام حذف ، أى أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة تُؤفِصهن فيها وقتت فيه ، فقال مجاهد
عن ابن عباس إن امرأة العزيز قالت لزوجها : إني أريد أن آتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة ؛
فقال لها : افعل ؛ فآتخذت طعاما ، ثم تجملت لمن البيوت ، فجملت أى زينت ، والتجبد ما يتجبد .

(١) المهنوء : الخلية بالقطران ، وإذا هى البيرة بالقطران يجد له لذة مع سقفة ، كسرة الحوى مع لذة .

به البيت من المتاع أى يُزَيَّن، والجمع مُجُود؛ عن أبى عبيد؛ والتجيد التزين؛ وأرسلت إليه
أن يحضرن طعامها، ولا تختلف منكّن أمرأة عن سميت . قال وهب بن منبه : إني كن
أربعين امرأة يفتن عليّ كثر منهن ، وقد قال فيهن أمية بن أبى الصلت ،
حتى إذا جثها قسرا . ومهدت لمن أنضادا وكجا^(١)

ويروى أنماطا . قال وهب : يفتن وأخذن مجالسهن . (وأخذت لمن متكا^{سورة يوسف})
أى هيات لمن يجالس يتكنى عليها . قال ابن جبير : في كل مجلس جامع فيه صل وأترج
وسكن ساد . وقرأ مجاهد ومعيد بن جبير « متكا » غفقا غير مهموز بمولتك هو الأترج
بلغة القبط ، وكذلك فسر مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المتكا مقلا
الطعام ، والمتكا غفقا الأترج ؛ وقال الشاعر :

تَشْرَبُ الإِثْمَ بِالصُّوَاغِ جَهَارًا • وَتَرَى الْمُتَكَ بَيْتًا مُسْتَعَارًا

وقد قول أُرْدُ شَوْنَةً : الأثرية المتكا ؛ قال الجوهري : المتكا ما يثقبه الخلد . واصل
المتكا الزمأورد^(٢) . والمتكا من النساء التي لم تحض . قال الفراء : حدثني شيخ من فئات أهل
البصرة أن المتكا غفقا الزمأورد . وقال بعضهم : إنه الأترج ؛ حكاه الأخفش . بن زيد ،
أثرنا (علا ياكل به) قال الشاعر :

فَظَلْنَا بِنَمِصَةٍ وَأَتَكْنَا • وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةِ

أى اكنا .

التعاس : قوله تعالى : (وَأَقْبَحَتُ) من المتاد ؛ وهو كل ما جعلته مذة لشيء . (متكا)
اصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : جلسا ، وأما قول جماعة
من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز حل تقدير : طعام متكا ، مثل « وآسأل القرية » . ويدل على

(١) كما البيت في الأصل . (٢) الزمأورد ، والرفاق المقوف بالهم وغيره ، أو هو من شبه الأترج .

(٣) خفض الجارية ؛ حنبا ، وكذا الصبي ، والأعراف أن للخفض الجارية والحنان للصبي . (٤) هو يدل

إلى سمر ، ما قيل جمع لغة ، والله الحب النظم . عليه : ليلته الكثرة . وقيل : الكثرة العينية . والله يعرفك .

هذا الخذف «وَأَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا» لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يقطع بالسكاكين ؛ كذا قال في كتاب «إصراب الفرقان» له . وقال في كتاب «معاني القرآن» : وروى متمر عن قتادة قال : «المتكا» الطعام . وقيل : «المتكا» كل ما أتى عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ؛ إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى اللّٰهوتيّ أنه يقال : أتكانا عند فلان أى أكلنا ؛ والأصل في «متكا» موتكا ، ومثله مكرن ومكعد ؛ لأنه من وزنت ووجدت وركأت ، ويقال : أتكايتكى أنكاه . (كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا) مفعولان ؛ وحكى الكسائي والفراء أن السكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

قَبِيتَ فِي السَّاعِ قَدَاءً قُرٌّ • بِسَكِينٍ مُوقَسَةٍ النَّصَابِ

الجوهري : والنائب عليه التذكير ، وقال :

بِرِّى نَاحِصًا نَسِياً بَدَأَ فَإِنَّا حَلَا • فَذَلِكَ سَكِينٌ عَلَى الْحَلِيقِ حَازِقٌ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله نصاب : (وَقَالَتْ أَنْتَ خَرَجَ عَلَيْنِ) بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تنقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل إنها قالت لمن : لا تقطن ولا تأكلن حتى أصلكن ، ثم قالت لخادماها : إذا قلت لك أدع لي إيلاء فادع يوسف ؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شدّ مِزره ، وحسن من ذراعيه ؛ فقالت لخادم : أدع لي إيلاء ؛ أى أدع لي الرب ؛ وإيل بالعبادية الرب ؛ قال : فتعجب النسوة وقنن : كيف يحيى ؟ فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما انحدر قالت لمن : أقطنن ما يمكن . (فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّنِينَ أُيْدِينَ) بالمدي خفي بلغت السكاكين إلى العظم ؛ وقاله وهب بن منبه . سعيد بن جبير : لم يخرج طين حتى زيقته ، فخرج طين بقاء فدهش فيه ، وتحميدن لحسن وجهه وزيقته وما عليه ، بلغن قطنن أيدين ، ويحسنن أنهن بلغن الأترج ؛ واختلف

في معنى « أَكْبَرَهُ » فَرَوَى جَوَيْرُ عَنْ الضَّحَّاكِ عَنْ أَبِي عِيَّاسٍ : أَغْلَطْنَاهُ وَهَيْبُهُ ؛ وَعَنْ إِسْحَاقَ
أَمْتِنَ وَأَمْتِنَ مِنَ الدَّهْشِ ؛ وَقَالَ الشَّامِيُّ :

إِذَا مَا رَأَى الْقَمَلَ مِنْ فَوْقِ قَارِيَةٍ • صَهْلَانِ وَأَكْبَرَتِ الْمَتَى الْمَلْفَقَا

وَقَالَ أَبُو سَمَانَ مِنْ عِلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ : إِنَّهُمْ قَالُوا أَمْتِنَ عَشَقًا ؛ وَهَيْبُ بْنُ مُتَيْبٍ : عَشَقَهُ
حَتَّى مَاتَ مِنْهُنَّ عَشْرَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ دَهْشًا وَحَيْرَةً وَوَجَدَا يَوْسُفَ . وَقِيلَ : مِنْهُمَا حَضَنُ
مِنَ الدَّهْشِ ؛ قَالَهُ تَعَادَةُ وَمَقَاتِلُ وَالسَّيِّدُ ؛ قَالَ الشَّامِيُّ :

ثَانِي النِّسَاءِ عَلَى أَطْهَارِهِمْ وَلَا • ثَانِي النِّسَاءِ إِذَا أَكْبَرْتِ إِجَارًا

وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ وَقَالُوا : لَيْسَ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؛ وَلَكِنَّهُ يَمُوزُ أَنْ يَكُنْ حَضَنُ
مِنْ شِدَّةِ إِعْظَامِهِمْ لَهُ ؛ وَقَدْ تَفَرَّعَ الْمَرْأَةُ فَتَسْقُطَ وَلَدُهَا أَوْ تَحْبِضَ . قَالَ الزَّجَّاجُ : يُسَالُ
أَكْبَرَهُ ؛ وَلَا يُقَالُ حَضَنُهُ ؛ فَلَيْسَ الْإِجَارُ بِمَعْنَى الْحَبِضِ ؛ وَأَجَابَ الْأَزْهَرِيُّ فَقَالَ : يَمُوزُ
أَكْبَرَتْ بِمَعْنَى حَاضَتْ ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا حَاضَتْ فِي الْإِبْتِدَاءِ خَرَجَتْ مِنْ حَيْثُ الصُّغُرِ إِلَى الْكِبَرِ ؛
فَالْ : وَالْمَاءُ فِي « أَكْبَرَهُ » يَمُوزُ أَنْ تَكُونَ هَاءُ الْوَقْفِ لَا هَاءَ الْكِتَابَةِ ؛ وَهَذَا مُزِيْفٌ ؛ لِأَنَّ
هَاءَ الْوَقْفِ تَسْقُطُ فِي الْوَصْلِ ؛ وَأَمَّا مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الْأَثْبَارِيِّ : إِنَّ الْمَاءَ كِتَابَةً عَنْ مَصْدَرِ الْفِعْلِ ؛
أَيُّ أَكْبَرْتِ إِجَارًا ؛ بِمَعْنَى حَضَنَ حَيْضًا . وَعَلَى قَوْلِ أَبِي عِيَّاسٍ الْأَوَّلِ تَمُودُ الْمَاءُ إِلَى يَوْسُفَ ؛
أَيُّ أَغْلَطْنَاهُ يَوْسُفَ وَأَجْلَلْنَاهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَطَعْنَا أَيْدِيَهُمْ) قَالَ عِجَاهُ : قَطَعْنَاهَا حَتَّى الْقَتِينَا . وَقِيلَ : خَدَشْنَاهَا .
وَرَوَى أَبُو أَبِي تَجِيحٍ قَالَ : حَرًّا بِالسَّكِينِ ؛ قَالَ النَّصَّاسُ : يَرِيدُ عِجَاهُ أَنَّهُ لَيْسَ قَطَعْنَا تَمِيمًا
مِنْهُ الْيَدَ ؛ إِنَّمَا هُوَ خَدَشَ وَحَرَّ ؛ وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي الْفَتْحِ أَنْ يُقَالَ إِذَا خَدَشَ الْإِنْسَانُ يَدَ صَاحِبِهِ
قَطَعَ يَدَهُ . وَقَالَ عِكْرَمَةُ : « أَيْدِيَهُمْ » أَكَامَهُمْ ؛ وَفِيهِ بَعْدُ . وَقِيلَ : أَدَامَلَهُمْ ؛ أَيْ مَا وَجَدْنَاهُمْ
أَلْسِنًا فِي الْقَطْعِ وَالْجُرْحِ ؛ أَيْ لَشَغْلَ قُلُوبِهِمْ بِيُوسُفَ ؛ وَالتَّضْلِيعُ يَسِيرُ إِلَى الْكُتْفَةِ ؛ فَيُمْكِنُ أَنْ
تَرْجِعَ الْكُتْفَةُ إِلَى وَاحِدَةٍ جَرَحَتْ يَدَهَا فِي مَوَاضِعَ ؛ وَيُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَدَمَتِهَا .

(١) لِقَارَةٍ • لِبَلِيلِ الصُّغْرِ الْمُقَطَّعِ مِنَ الْبِلَالِ ؛ وَبَلِيلٌ : الصُّغْرَةُ الْعَلِيَّةُ ؛ وَقِيلَ مِنْ ذَلِكَ

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله، وروى الأحمسي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن السلاء. «وَقُلْنَ حَاشًا لِلَّهِ» بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في «ه» عوضا منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وَحَاشَا لَكَ وَحَاشَ لَكَ وَحَاشَ لَكَ. ويقال: حَاشًا زَيْدًا وَحَاشًا زَيْدًا، قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى، لأنه قد صح أنهما فعل لقولهم حاش زيد، والحرف لا ي حذف منه؛ وقد قال الثانية:

• وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَنْوَاعِ مِنْ أَحَدٍ^(١) •

وقال بعضهم: حاش حرف، وأحاشى فعل. ويقل هل كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أمراء بني: اللهم أغفر لي ولن يسمع، حاشا الشيطان وأيا الأصمعي^(٢)؛ فنصب بها. وقرأ الحسن «وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضا «حاش الإله». ابن مسعود وأبو: «حَاشَ اللَّهُ» بغير لام، ومعه قول الشاعر:

حَاشَا أَبِي قُبَابٍ إِنْ يَهْ • حَاشًا عَنِ الْمَلَاءِ وَالشَّمْ

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحاشا بمعنى الناحية، تحول: كنت في حاشا فلان أى في ناحيته؛ فتروك: حاشا لزيد أى تحي زيد من هذا وتباعد عنه، والاستثناء: إخراج حاشية من جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من الحاشاة؛ أى حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية بما قرئ به، أو من أن يكون مشرا؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جر عند سيبويه، وهل ما قال المبرد وأبو علي فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمترلة لبس، تقول: ليس زيد قائما، و«ما هَذَا بَشَرًا» و«ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ». وقال الكوفيون: لما حذفنا الباء

(١) صدرايت، ولا اى فاعل في الناس بينه •

وهو من نصبة يمدح بها الثمان ويظهر إليه • (٢) كلام سحر - (٣) حوسبة بن حميد

الأسدي، وابل، هو الجميع الأسدي، واسمه مقلد بن طلاح - والمطاة: القوم •

نصبت؛ وشرح هذا - فيما قاله أحمد بن يحيى - أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلي، فوضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الانقضاء؛ فلما حذفت الباء نصبت لنيل على محلها، قال : وهذا قول الفراء، قال : ولم تعمل «ما» شيئاً؛ فالزعم البصريون أن يقولوا : زيد القمر؛ لأن المعنى كالمصر ! فرد أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخلت في حروف الانقضاء من الكاف؛ لأن التكاف تكون أسما - قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يناقض؛ لأن الفراء أجاز نصاً ما بمنطلي زيداً، وأنشد :

أَمَا وَاللَّهِ أَنِّي لَوَكُنْتُ رَجُلًا • وَمَا بِالْمُحْرَّمَاتِ وَلَا التَّحْنِي

ومنع نصاً النصب؛ ولا تعلم بين النحويين اختلافاً أنه جائز؛ ما فيك براغب زيد، وما إليك بقاصد عمرو؛ ثم يحذفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون ما زيد بمنطلي بالرفع؛ وحكى البصريون أنها لغة تميم؛ وأنشدوا

أَتَيْتُكَ تَجْعَلُونِي إِلَى يَدَيْكَ • وَفَاتَيْتُكَ لِيَدِي حَسْبَ نَذِيرٍ

النذ والنذير والنذيرة المثل والنظير. وحكى الكسائي أنها لغة تيمامة ونجد. وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجوهين؛ قال أبو إسحق: وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى

قلت: وفي مصحف حفصة رضي الله عنها «مَا هَذَا بِشَيْرٍ» ذكره الفراء في «قال القشيري» أبو نصر: وذكر في النسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر؛ بل هو في صورة ملك؛ وقال الله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهم: «حاش لله» تيمية ليوسف عما رمت به امرأة العزيز من المراودة؛ أي بعد يوسف من هذا؛ وقولهم: «الله» أي نظوفه؛ أي براءة الله من هذا؛ أي قد نجها يوسف من ذلك؛ فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى: أنه في التيمية من المماثلة؛ فكل هذا لا تناقض. وقيل: المراد تزيينه عن مشابهة البشر في الصورة؛ لمرط جماله. وقوله: «الله» تأكيد لهذا المعنى؛ فكل هذا المعنى قالت لنفسه ذلك فلما نهى أن يصور الملك أحسن؛ وما يلحقه قوله

تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » فإنه من كتابنا . وقد ظن بعض الضمعة أن هذا القول لو كان علنا باطلاً منتهى لوجب على الله أن يرده عليهن ، وبين كذبهن ، وهذا باطل ؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما ينسب به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه ؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في الفيح كأنه شيطان ، وفي الحسن كأنه ملك ؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة ؛ فهو بناء على ظن في أن صورة الملك أحسن ، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وسدده عن التهم . (إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ) أي ما هذا إلا ملك ؛ وقال الشاعر :

فَلَسْتُ لِأَنْتَى وَلَكِنْ لِمَلَايِكَةٍ • تَسْتَلُّ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ بِصُورِ

وروي عن الحسن « مَا هَذَا بِشَيْءٍ بِكسر الباء والشين ، أي ما هذا عبداً مشتقاً ، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع ، فوضع المصدر موضع اسم المفعول ، كما قال : « أَيْلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ » أي مصيده ، وشبه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بجن ، أي مثله لا يجن ولا يقرم ؛ فيراد بالشراء على هذا المثل المشتري به ، كقولك : ما هذا بألف إذا فقت قول القائل هذا بألف ، قاله على حديثاً متعلقة بمحذوف هو الخبر ؛ كأنه قال : ما هذا مقفراً بشراء . وقراءة العادة أشبه ؛ لأن بعده « إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » مبالغة في تفضيله في مجلس الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولأن مثل « بِشَيْءٍ » يكتب في المصحف بإلiale

قوله تعالى : (فَتَلَيَّكُنَّ الْمَوْتَى لَمْ يَكُنَّ لَهَا رَأَتْ) أفتأتين بيوسف أظهرت صدر نفسها بقولها : تلتقي فيه ، أي بحبه ، وذلك بمعنى « هذا » وهو اختيار الطبري . وقيل : الماه الحب ، وذلك على ما به ، والمعنى : ذلك الحب الذي تلتقي فيه ، أي حب هذا هو ذلك الحب . والزم الوصف بالفيح . ثم أقرت وقالت : (وَلَقَدْ رَآهُنَّ مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَعَصَمَ) أي امتنع ،

(١) حرديل من جد القوس جاهل ؛ يمدح بحسن الفكر ؛ قيل : هو النهان وقال ابن السكيت : هو لأب ورجل يمدح به الله بن الزهر . وذلك — كما قال الكسائي — لأنه ما كان يتقدم الحضرة من الأولاد ، وهو الرسالة ؛ لم يلبث وداست الأم قليل . خلافة ، ثم تركت حمزة لكثرة الاستعمال قليل ؛ ملك ، فليسا يجمع وهدوا إليه ضالهما ؛ خلافة وملكه أيضاً . (الحسن) .

وسميت المصمة عصفرة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل : « استعصم » أى استعصى ،
والمنع واحد . (وَلَيْتَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسَّيْنَهُ) جازدته المراودة بمحض منتهى ، وهتكت
جلباب الحياء ، ووعدت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تحش لولم ولا مقالا
خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . (وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاهِرِينَ) أى الإذلاء .
وخط المصحف « وليكونا » بالالف وتقرأ بنون غففة للتأكيد ، ونون التأكيد تنقل وتخفف
والوقف على قوله : « ليسين » بالنون لأنها متقلة ، وعلى « ليكونا » بالالف لأنها غففة ،
وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا ، ومثله قوله : « لَنَسْتَبَئِرَ
بِالنَّاسِيَةِ » وبحرها الوقف عليها بالالف ، كقول الأعشى :
وَلَا تَعِيدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَأَعِيدَا^(١) .

أراد فاعيدا ، فلما وقف عليه كان الوقف بالالف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَلَا تُصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاشِفِينَ ﴿٦﴾
فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) أى دخول السجن ،
مخفف المضاعف ، قاله الزجاج والنحاس . « أحب إلى » أى أسهل على وأهون من الوقوع
فى المعصية ، لا أن دخول السجن مما يحب على التحقيق . وحكى أن يوسف عليه السلام
لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف ! أنت حسبت نفسك جئت
قلت السجن أحب إلى ، ولو قلت العافية أحب إلى لموتى » . وحكى أبو حاتم أن عثمان
ابن عفان رضى الله عنه قرأ « السِّجْنُ » بفتح السين وحكى أن ذلك قراهم بن أبى إسحق

(١) صدر البيت : وهذا الصب المتروك لا تفككه .

صحر من عبادة يمدح بما عبده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج ويقوب، وهو مصدر تَجَنَّبْتُمَا . (وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنْ كَيْدِهِنَّ) أى كيد النسوان . وقيل : كيد النسوة اللاتي رأينه، لأنهن أمرنه بمقاومة امرأة العزيز، وقيل له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز، والقصد بذلك أن تعدله فى حقها، وتأمره بمساعدتها، فلمله يحجب، فصارت كل واحدة تخطو به على حدة تقول له : يا يوسف ! أغضب لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك، فدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده، فقال : يا رب كانت واحدة نصرن جماعة . وقيل : كيد امرأة العزيز فيادجه إليه من الحاجة، وكفى عنها بغطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، وإما ليدل على التصريح إلى التريص . والكيد الاحتيال والاجتهاد، ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتياال الناس فيها، قال عمر بن الخطاب :

تَرَامَتْ كَيْ تَكِيدَكَ أَمْ يُثِيرُ • وَكَيْدٌ بِالتَّجَرُّجِ مَا تَكِيدُ

(أَمْسَبُ الْيَتِيمَ) جواب الشرط، أى أيل اليتم، من صبا يصبر - إذا مال واشتاق - صبراً وصبراً، قال :

إِلَى حَسْبِ صَبَا قَلْبِي • وَهَسْبُ يَتْلُهَا يُصْبِي

أى إن لم تطف بى فى اجتناب المعصية وقعت فيها . (وَأَتَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجاهل، ودل هذا على أن أحدا لا يتبع عن معصية الله إلا بعون الله، ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ) أى قال . (وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنْ كَيْدِهِنَّ) تعرض للدعاء، وكأنه قال : اللهم أصرف عن كيدهن، فاستجاب له دعاءه، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . (تَكِيدُنَّ) قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يبنى كيد النساء . وقيل : يبنى كيد امرأة العزيز، على ما ذكر فى الآية قبل، والعموم أولى .

قوله تعالى : ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُنْدُهُمْ

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٥﴾

فيه أربع مسائل .

الأول - قوله تعالى : (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ) أى ظهر للعزير وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف - من قَدِّ القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وخر الأيدي ، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف - أن يسجنوه كتماناً للقصة ألا تنسج في العامة ، وللمبالغة بينه وبينها . وقيل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ، والأول أصح . قال مقاتل من مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : أبلاها انجمل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بإحجاب مكان خوف الذهاب ، لتشتنى إذا منعت من نظره ، قال :

وما صباؤه مشتاق على أمل • من اللقاء كشتاق بلا أمل

أو كادت رجاء أن يمل حسه فيذل نفسه .

الثانية - قوله تعالى : (لَيْسَ جُنْدُهُمْ) فى موضع الفاعل ، أى ظهر لهم أن يسجنوه ، هذا قول سيويه . قال المبرد : وهذا غلط ، لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دل عليه « بدأ » وهو المصدر ، أى بدأ لهم يَدَأُ ، لحذف لأن الفعل يدل عليه ، كما قال الشاعر :

ورحق لمن أبو موسى أبوه • يؤلفه الذى تصب الجبال

أى ورحق الحق ، لحذف . وقيل : للمنى ثم بدأ لم رأى لم يكونوا يعرفونه ، وحذف هذا لأن فى الكلام دليلاً عليه ، وحذف أيضاً القول ، أى قالوا : ليس جند ، واللام جواب ليمين مضمرة ، قاله اللزاء ، وهو فعل مذكر لا فصل مؤنث ، ولو كان فعلاً مؤنثاً لكان يسجناته ،

و يدل على هذا قوله «لم» ولم يقل لمن ، فكانه أخبر عن النسوة وأعاونتهن سلب المذكر ؛
قوله أبو علي . وقال السدي : كان سب حبس يوسف أن امرأه العزيز شكت إليه أنه
شهرها ونشر خبرها ، فالضمير على هذا في «لم» للثلاث .

الثالثة - قوله تعالى : (حَتَّى جِئَ) أى إلى مدة غير معلومة ؛ قاله كثير من
المفسرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة . وقال سعيد بن جبير :
سنة أشهر . وحكى اليعاقبة أنه عتق ثلاثة عشر شهرا ، عكرمة : تسع سنين . الكلبي : خمس
سنين . مقاتل : [انتهى عشرة سنة ^(١)] . وقد معنى في «البقرة» القول في الحين وما يرتبط
به من الأحكام . وقال وهب : أقام في السجن اثني عشرة سنة . و «حتى» بمعنى إلى ؛
كقوله : «حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة . وكان
العزيز - وإن صرف برائة يوسف - أطاع المرأة في محبة يوسف . قال ابن عباس : شر
يوسف ثلاث شرات : حين هم بها فسجن ، حين قال للفتى : «أذكرني عند ربك» فلبث
في السجن بضع سنين ، حين قال لأخوته : «إِنكُمْ تَسَارِقُونَ» فقالوا : «إِنْ نَسْرِقُ فَقَدْ
سَرَقَ أَخُ لَهُ مِنْ قَبْلُ» .

الرابعة - أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ،
وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له
إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه
يسقط عنه إثم الزنى وحده . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحد ، وهو ضيف ؛
فإن الله تعالى لا يجمع على عبده المذابين ، ولا يصرفه بين بلائين ؛ فإنه من أعظم الإحراج
في الدين ومما جمل عليكم في الدين من حرج . وسيأتي بيان هذا في «النمل» إن شاء الله .
وصبر يوسف ، واستأذى به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدم .

(١) الزيادة من (روح الباني) وتفسير (مجمع الزاوي) . (٢) رابع به ص ٢١١ وما بعدها

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ لَاحُظْ إِنِّي لَأَرْتِي
 أَنْصُرُ بِخَبْرٍ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي لَأَرْتِي أَجْمَلَ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ
 الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِثَتَا يَتَّوِيلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا
 طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَآئِكُمَا يَتَّوِيلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا طَلَسِي
 رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كُمْهُونَ ﴿١٨﴾
 وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ
 بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ) « فتیان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الباء ،
 وقولهم : اَلْفَتَى شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف الى السجن مقيدا مل حمار ، وطيف
 به « هذا جزء من معنى سيده » وهو يقول : هذا ايسر من مقطعات النيران ،
 وسرايل القيطران ، وشرب الخمر ، واكل الزقوم ؛ فلما انتهى يوسف الى السجن وجد فيه
 نوما قد أقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : أصبروا وإبشروا تؤجروا ؛
 فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال :
 أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقاله
 ابن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني ، وأنا أريد أن تسجنه ،
 فسجنه في السجن ؛ فكان يَمْزِي فيه الحزين ، ويمود فيه المريض ، ويلوى فيه الجريح ،
 ويصل الليل كله ، ويبكي حتى تنبكي منه جذر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ،
 واستأنس به أهل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن
 (١) مقطعات النار : هي على نحو قوله تعالى : « فقلت لم ثياب من نار » أي غطيت راسي وبت وجلت لباسي .

مع يوسف ، وأخيه صاحب السجن فوضع عليه يده ، ثم قال : يا يوسف لقد أحبتك حبا
لم أحب شيئا حبك ، فقال : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل
في إخواني ما فعلوه ، وأحبتي سيدتي فقتل بي ماري ، فكان في حمسه حتى غضب الملك على
خيازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عمر فيهم فلوه ، فدسوا إلى خيازه وصاحب شرابه
أن يئماه جميعا ، فأجاب الخيـاز وأبي صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر
الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستألفا يوسف ، فذلك قوله : « ودخل معه السجن
قتبان » وقد قيل : إن الخيـاز وضع السم في الطعام ، فلما حضر الطعام قال الساق : أيها الملك !
لا تأكل فإن الطعام مسموم . وقال الخيـاز : لا تشرب ! فإن الشراب مسموم ، فقال الملك
للساق : أشرب ! فشرب فلم يضره ، وقال الخيـاز : كُلْ ، فإني ، بخرب الطعام على حيوان
ففتق مكانه ، فحبسهما سنة ، وبقي في السجن تلك المدة مع يوسف . وأسم الساق متبا ،
والآخر عجلت ، وذكره التعلبي عن كعب . وقال القاش : اسم أحدهما شرم ، والآخر
صرم ، الأول بالشين المعجمة ، والآخر بالسين المهملة . وقال الطبري : الذي رأى أنه
يصمر نمرأ هو بنوه ، قال السهيلي : وذكر أسم الآخر ولم أتبعه . وقال « فتبان » لأنها كانا
عبدين ، والمبتدئ يسمى فتى ، صغيرا كان أو كبيرا ، وذكره المسعودي . وقال القشيري :
ولعل الفتى كان اسما للعبد في صرهم ، ولهذا قال : « تُراوِدُ فتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » . ويحتمل
أن يكون الفتى اسما للقادم وإن لم يكن مملوكا . ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف
أو بعده أو قبله ، فغير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه . « قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَأَيْتُ أُعْصِرُ
تَمْرًا » أي عينا ، كان يوسف قال لأهل السجن : إني أعبر الأحلام ، فقال أحد الفتيين
لصاحبه : تمال حتى يجرب هذا العبد البراني ، فسألاه من غير أن يكون رأيا شيئا ، قاله
أبن مسعود . وحنى الطبري أنهما سألاه عن حلمه فقال : إني أعبر الرؤيا ، فسألاه عن
رؤياهما ، قال أبن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صديق رأياها وسألاه عنها ، ولذلك صدق
ناويلها . وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اصدقكم رؤيا أصدقكم

حسبنا . " . وقيل : إنها كانت رؤيا كذب ملكها حينها ، وملكها حينها ابن مسعود
والسدي . وقيل : إن المصلوب منها كان كاذبا ، والآخر صادقا ، والله أبو يعقوب . ودعى
الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب كاذبا كُفِّ يوم القيامة
أن يعقيد بين شيرين [ولن يعقيد بينهما] " . قال أبو موسى : هذا حديث حسن صحيح .
وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب في حلمه كُفِّ يوم القيامة عند شيرين " .
قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لما رآها رؤياها أصبحا مكرويين ، فقال لها يوسف
ما لي أراكما مكرويين ؟ قالا : يا سيدنا إنا رأينا ما كرهنا ، قال : قصصا علي ، قصصا عليه .
قالا : نبلنا بتأويل ما رأينا ، ومعنا يدل على أنها كانت رؤيا صادق . (إنا نزلنا من المحسين)
لإحسانه ما كان يعود المرضى ويلاوهم ، ويؤزي الخزانى ، قال الضحاك : كان إذا عرض
الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وتسع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له .
وقيل : « من المحسين » أي العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله للفراء . وقال ابن إسحق :
« من المحسين » لنا إن قسره ، كما تقول : أفضل كذا وأنت عمن . قال : لها وأيتها ؟
قال الخباز : رأيت كافي اختبرت في ثلاثة تنابير ، وجمعت في ثلاث سلال ، فوضعت على رأسي
بجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كافي أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبريض ،
فصبرت في ثلاث أوان ، ثم صفت فسقيت الملك كمادق فيها مضى ، فذلك قوله : « أي
أراني أعصر تمرًا » أي عنبًا ، بلفظ عمان ، قاله الضحاك . وقول ابن مسعود « أي أراني
أعصر عنبًا » . وقال الأصمعي : أخبرني المعتز بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومنه عنب فقال
له : ما ملك ؟ قال : تمر . وقيل : معنى « أعصر تمرًا » أي عنب تمر ، لجنف المضاعف .
ويقال : تمره وتمر وتمرور ، مثل تمره وتمر وتمرور . قال : لها يوسف : (لا تأتينا طعامًا

(١) الزيادة عن صحيح الترمذي ، قال شارحه : لما نبه نظري ظهوره إلى أن القرآن بما لم يرد من الكلام فيها
بالإسلام بشر به أي لم يله ، فقل له أحد بين شيرين ولا يعقده ذلك أبدا ، فقرة إلهية بين كذبات لم يكن منها
في ، فتكون العقوبة من جنس المحبة .

تَرْزَقَانِي) يعني لا يبيحك عدا طعام من متركلك (إِلَّا نَبَاتُكَ بِنَاوِيلِهِ) لتعلم أني أعلم ناوليل رؤياك ، فقال لا أفعل لا فبيحك كذا وكذا ، فكان حل ما قال ، وكان هذا من علم الغيب خُص به يوسف . وبين أن الله خصه بهذا العلم ، لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك ، ومعنى الكلام عندي : العلم بناوليل رؤياك ، والعلم بما يأتيك من طعامك والاسلم بدين الله ، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتتسعدوا ، ولهذا لم يسر لهما حتى دماهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبِي الشَّجَرِ أَرَأَيْتَ مَنَعَرَقُونَ خَيْرًا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما بقى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاها إلى الإسلام ليستمدا به . وقيل : إن يوسف كره أن يبر لها ما سالا لها عليه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالها ، وأخذ في ضيقه فقال : « لَا يَأْتِيكَ طَعَامُ تَرْزَقَانِي » في النوم « إِلَّا نَبَاتُكَ » بتفسيره في اليقظة ، قاله السُّدِّي ، فقال له : هذا من فعل التَرْزَافِ والكَيْفَةِ ، فقال لها يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علمنيه ربى ، إني لا أخبرك به تكهنا وتقيا ، بل هو يوحى من الله عز وجل . وقال ابن جرير : كان الملك إذا أراد فنسأل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمنى : لا يأتيك طعام تَرْزَقَانِي في اليقظة ، فعل هذا « تَرْزَقَانِي » أى يخبرني عليك من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقك الله . قال الحسن : كان يخبرها بما غاب ، كهمى عليه السلام . وقيل : إنما دماها بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارها بالنبوء

قوله تعالى : (وَأَتَيْنَتْ مَلَأَةَ آتَانِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاقَ وَيَعْقُوبَ) لأنهم أنبياء على الحق . (مَا كَانَ) أى ما يلحق . (لَنَا أَنْ نُشِيرَكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) «مين» للتاكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا) إشارة إلى عصمته من الزنى . (وَعَلَى النَّاسِ) أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا» إذ جعلنا أنبياء ، «وعلى الناس» إذ جعلنا الرسل إليهم . (وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) على نعمته بالتوحيد والإيمان .

قوله تعالى : **يَصْنَعِي السِّجْنَ** «أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» (١) **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ** «سميتوها أنتم وبآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٢)

قوله تعالى : **(يَصْنَعِي السِّجْنَ)** أى يساكنى السجن ؛ وذكر الصعبة لطول مقامها فيه ، كقولك : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . **(أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ)** أى فى الصغر والكبر والنوسط ، أو متفرقون فى العدد . **(خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)** وقيل : الخطاب لها ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك الزاماً للجهة ، أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع «خير أم الله الواحد القهار» الذى فهو كل شيء . نظيره «الله خير مما يُشْرِكُونَ» . وقيل : أشار بالفرق إلى أنه لو تصدق الإله لفرقوا فى الإرادة ولعلنا بعضهم على بعض ، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : **(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ)** بين بجز الأصنام وضمها فقال : «ما تعبدون من دونه» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها . **(سَمَّيْتُوهَا)** من تلقاء أنفسكم . وقيل : عني بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم ؛ لأنها جمادات . وقال : «ما تعبدون» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . **(إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)** حذف المفعول الثانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتوها آلهة من عند أنفسكم . **(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)** ذلك فى كتاب . قال سعيد بن جبير : **(مِنْ سُلْطَانٍ)** أى من حجة . **(إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ)** الذى هو خالق الكل . **(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)** . **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَسِيمُ)** . أى التسويم . **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** .

قوله تعالى : **يَمْصَحِيحِي إِلَيْكَ يَا أُمُّ أُحُدٍ كَمَا فَتَنَنِي رَبِّيَ تَمَرًا**
وَأَمَّا الْآخَرُ فُضِّلْتُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾

فيه سئلان :

الأول - قوله تعالى : (**يَا أُمُّ أُحُدٍ كَمَا فَتَنَنِي رَبِّيَ تَمَرًا**) أى قال للساق : إنك تُرَدِّ
 على عمك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال الآخر : وأما أنت فُدْعَى
 إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ، قال : رأيت
 أو لم تر (**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**) . وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لثنان بمعنى
 واحد ، كما قال الشاعر :^(١)

سَقَى قَوْمِي نَبِيَّ جَدِّهِ وَأَسْقَى . ثُمَّ بَا وَفِيَالٍ مِنْ حِلَالِ

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاء تأوله فشرب ، أو صَبَّ الماء في حلقه ،
 ومعنى أسقاء جعل له سقيا ، قال الله تعالى : « **وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قُرًاتًا** » .

الثانية - قال علماءنا : إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها بما يراد به أيلزمه حكما ؟
 قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي ، وتفسير النبي حكم ، وقد قال :
 إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته ، فإن قيل : فقد روى
 عبد الرزاق عن معمر بن قنادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيت كافي
 أغشيت ثم أجديت ثم أغشيت ثم أجديت ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن
 ثم تكفر ، ثم يموت كافرا ، فقال الرجل : ما رأيت شيئا ، فقال له عمر : قد قُضِيَ لك ما فُتِنِي
 لصاحب يوسف ، قلنا : ليست لأحد بعد عمر ، لأن عمر كان محدثا ، وإذا تكلم به وقع ،

(١) حولىد ، ومجه : أبة نعيم بن غالب بن فهر ، وهو أم كلاب وكليب بن ربيعة . وقيل من هو المهر .

(٢) حدث : منهم ، أو يلحق في رده النبي ، أو يجري الصواب على لسانه من غير قصد . (المتكلمون) .

هل ما ورد في أخباره ؛ وهي كثيرة ؛ منها - أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهن
فكان كالظن ؛ خرج به بناري . ومنها - أنه سأل رجلا عن اسمه فقال له أسماء فيها النار
كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال ، خرج به الموطن . وسبأني لهذا مزيد
بيان في سورة «الحجر» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ
فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ) «ظن» هنا بمعنى أيقن ، في قول أكثر المفسرين .
وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظن يوسف نجاة له لأن العابر زينا
ظنا ، وبك يخلق ما يشاء ، والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء ، وإن ما قاله للفتين في تمييز الرؤيا
كان من وصي ، وإنما يكون ظنا في حكم الناس ، وأما في حق الأشياء فإن حكمهم حق
كيفما وقع .

الثانية - قوله تعالى : (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أي سيذك ، وذلك معروف في اللغة ؛
أن يقال للسيد رب ، قال الأعشى :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نَفْسَةً • وَإِذَا تَوَشَّدَ فِي الْمَهَارِقِ انْتَدَا

أي أذكر ما رأيته ، وما أنا عليه من جارة الرؤيا لذلك ، وأخبره أني مظلوم محبوس بلا ذنب .
وفي صحيح مسلم وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَقُلْ
أَحَدُكُمْ أَسْبَىٰ وَبِكَ أَطْلَمَ رَبُّكَ وَضُرَّ رَبُّكَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلَيْقُلْ سَيِّدِي مُلَاكِي وَلَا يَقُلْ
أَحَدُكُمْ حَبْدِي أَنْتَبَىٰ وَلَيْقُلْ قَتَايَ قَتَايَ غُلَامِي » . وفي القرآن : « اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ » « إلى

(١) في تفسير قوله تعالى : « إذ ذكرك لأيات لفرعون » آية ٧٥ .

(٢) مردها (رشد بالمعارة) بقوله : إذا توشد ما في الكتب أجاب ؛ أي إذا سأل أحلى . والمعرب : المصنف .

وَبَكَهَ ۖ إِنَّهُ رَفِئُ أَحْسَنَ مَتَوَايَ ۖ أَيْ صَاحِبِي ۖ بِعَنِي الْعَزِيزُ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِإِصْلَاحِ شَيْءٍ وَاسْمِهِ قَدْرِيَّةٌ بِرِيَّةٌ ۖ فَهُوَ رَبُّ لَهُ . قَالَ الْعُلَمَاءُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "لَا يَقُلُ أَحَدُكُمْ" "وَلَيْقُلْ" مِنْ بَابِ الْإِشْرَادِ إِلَى إِطْلَاقِ اسْمِ الْأَوَّلَى ۖ لَا أَنْ يُطْلَقَ ذَلِكَ الْاسْمُ عَزَمَ ۖ وَلَا أَنَّهُ قَسَدٌ جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ "أَنْ تَقِيَ الْأُمَّةَ رَبَّيَا" أَيْ مَالِكَهَا وَسَيِّدَهَا ۖ وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْقُرْآنِ فِي إِطْلَاقِ ذَلِكَ اللفظ ۖ فَكَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا تَقْبُضَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ عَادَةً فَتَرَكَ الْأَوَّلَ وَالْأَحْسَنَ . وَقَدْ قِيلَ ۖ إِنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ عَبْدِي وَأُمِّي يَجْمَعُ مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا - أَنْ السُّبُودِيَّةَ بِالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ اللَّهُ تَعَالَى ۖ قَالِي قَوْلُ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ لِلْمَلُوكَةِ عَبْدِي وَأُمِّي مُعْظَمٌ عَلَيْهِ ۖ وَإِضَافَةُ لَهُ إِلَى قَسَمِهِ بِمَا أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِلَى نَفْسِهِ ۖ وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ . وَالثَّانِي - أَنَّ الْمَلُوكَ يُدْخِلُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فِي اسْتِصْغَارِهِ بِتِلْكَ التَّسْبِيَةِ ۖ فَيُجْعَلُهُ ذَلِكَ عَلَى سَوَاءِ الْعَامَّةِ . وَقَالَ آيْنُ شَبَانَ فِي «الزَّاهِي» "لَا يَقُلُ السَّيِّدُ عَبْدِي وَأُمِّي وَلَا يَقُلُ الْمَلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبِّي" وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا ذَكَرْتَاهُ . وَقِيلَ ۖ إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَا يَقُلُ الْعَبْدُ رَبِّي وَلَيْقُلُ سَيِّدِي" لِأَنَّ الرَّبَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُسْتَعْمَلَةِ بِالِاتِّفَاقِ ۖ وَاسْتِخْفَافِ السَّيِّدِ هَلْ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْ لَا ؟ فَإِذَا قُلْنَا لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَالْفَرْقُ وَاضِحٌ ۖ إِذْ لَا التَّيَاسُّ وَلَا الْإِشْكَالُ ۖ وَإِذَا قُلْنَا إِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِهِ فَلَيْسَ فِي الشُّبُهَةِ وَلَا الْاسْتِثْنَاءِ كَقَوْلِهِ الرَّبُّ ۖ فَيُحْصَلُ الْفَرْقُ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي شَرْحِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الثَّالِثُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَأَنسَأُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّي) الضَّمِيرُ فِي «فَأَنسَأُ» فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا - أَنَّهُ مَائِدٌ إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ۖ أَيْ أَنَسَاءُ الشَّيْطَانِ ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُ وَجَلَّ ۖ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ يُوسُفَ لِسَانِ الْمَلِكِ - حِينَ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَبْجُو وَيُؤَدُّ إِلَى حَالَتِهِ الْأَوَّلَى مَعَ الْمَلِكِ - «أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نَسِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنْ يَشْكُو إِلَى اللَّهِ وَيُسْتَعِينُ بِهِ ۖ وَجَنَحَ إِلَى الْإِعْتِصَامِ بِمَخْلُوقٍ ۖ فَعُوقِبَ بِأَلْبَيْتٍ . قَالَ صَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عُمَرَ الْيَكْنَدِيُّ ۖ دَخَلَ جَبْرِيلُ عَلَى يُوسُفَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّجْنِ فَصَرَفَهُ يُوسُفَ ۖ فَقَالَ : يَا أَخَا الْمُنْذَرِينَ ! مَالِي أَرَاكَ يَنْبَغِي الْخَاطِئِينَ ؟ ! فَقَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا طَاهِرُ الطَّاهِرِينَ ! يَفْرَحُكَ

السلام رب العالمين ويهول ، أما استجبت إذ استنثت بالآمين ؟ ! ومزني آل بيتك
 في السجن بضع سنين ، قال : يا جبريل أأمرني راضي ؟ قال : نعم ! قال : لا أباذل
 الساعة . وروى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول بجمته ،
 وقال له : يا يوسف ! من خلصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ ! قال : الله تعالى ، قال :
 فمن أنجيك من الحب ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال :
 الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وقفت
 بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلت مني ! أسألك بالله إبراهيم وإسماعيل
 والشيخ يعقوب عليهم السلام أنت ترحمني ، فقال له جبريل : فإن طوبيتك أن تلبث
 في السجن بضع سنين . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال : "أذكرني عند ربك" ما لبث في السجن بضع
 سنين" . وقال ابن عباس : عوقب يوسف بطول المحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما
 "أذكرني عند ربك" ولو ذكر يوسف وبه خلصه . وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس
 عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لولا كلمة يوسف - يعني قوله
 "أذكرني عند ربك" - ما لبث في السجن ما لبث" قال : ثم يبكي الحسن ويقول :
 نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجي ، فهو الناسي ،
 أي أنسى الشيطان السابق أنت يذكر يوسف لربه ، أي لسيده ، وفيه حذف ، أي
 أسماء الشيطان ذكره لربه ، وقد رجع بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى
 يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ، إذ الناسي غير مؤاخذ . وأجاب أهل
 القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاء الشيطان إلى ذلك
 عوقب ، رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : "وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ"
 فدل على أن الناسي السابق لا يوسف ، مع قوله تعالى : "إِنَّ عِيَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ"
 فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأتبياء سلطة ؟ ! قيل : أما

اللسان لا حصه للأبناء عه إلا في وجه واحد، وهو انظر عن الله تعالى فيما يلقونه، فإنهم مصبوسون فيه، وإلغا وقع منهم اللسان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صل الله عليه وسلم: "نفس آدم فليست ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة - قوله تعالى: (قَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضَعِّ سَيْنٍ) البضع قطعة من اللحم عتقت فيها، قال يعقوب بن أيمن زيد: يقال بضع وبضع بفتح الباء وكسرهما، قال أكثرهم، ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهروي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من اللحم. وحكى أبو حبيدة أنه قال: البضع مادون نصف البعْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صل الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "أذهب فزاهد في الخطر"^(١). وعمل هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الخطبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطِرْب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى سبع؛ وقاله الأسمي: ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المسند التي لبث فيها يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جرير وقادة وهوب بن منته، قال وهوب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة

(١) انظر (بأثيرك): الزمن والخط. والحديث في شأن مراعاة أبي بكر رضي الله عنه لقريش على طلبة الرزم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الرزم على فارس، لأنهم ولجأهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وثاروا ليسوا أهل كتاب ولا إيمان بيوت، وله جبل أبو بكر الأبليل يته وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أنزي، فقال له النبي صل الله عليه وسلم: "أذهب فزاهد في الخطر وماد في الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الزمان - رابع صحيح الترمذي في تفسير قوله تعالى: «ألم طبت الرزم...» الآية.

سنة ، قاله الضحاك . وقال مقاتل من مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن تسعاً وثمانين سنة . وأستغافه من بضعت التي أوى قطمته ، فهو قطعة من الصد ، فماتت الله يوسف بأن حُسِّنَ سبع سنين أو تسع سنين بعد الخس التي مضت ، فالبيض مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب ابن منبه : حبس يوسف في السجن سبع سنين ، ومكث أيوب في البلاد سبع سنين ، وصدَّبَ بِخُنْصَرٍ بالمسح سبع سنين . وقال عبد الله بن راشد البصري عن سعيد بن أبي عروبة : إن البيض ما بين الخمس إلى الاثني عشرة سنة .

الخلاصة - في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان البقن حاصلًا ، لأن الأمور بيد مُسَبِّهَا ، ولكنه جعلها سلسلة ، ورُكِبَ بعضها على بعض ، فتصير كلها سنة ، والتحويل على المنتهى يقين ، والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من السليمان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر ، وهذا بين فاعلموه .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُذُبَاتٌ خُضِرَ وَأَنرَ يَابِسَتٍ يَتَذَكَّرُ الْغَلَاءُ أَفْقَسُونَ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه ، فترى جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله يخرجك من حبسك ، ويُمكنك في الأرض ، يذل لك ملوكها ، ويعطيك جبارتها ، ومعطيك الكلمة العليا على اخوتك ، وذلك بسبب رؤيا وأما الملك ، وهي كيت وكيت ، وتأويلها كذا وكذا ، فلابت في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج ، فعمل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة ، وجعلها آخراً بشرى ورحمة ، وذلك أن الملك الأكبر الريان بن الوليد رأى في نومه كأنما يخرج من نهر يابس سبعٌ بقراتٍ سيمان ، في أترق سبع عجاف - أي مهازل - وقد أفلت العجاف من السَّهَانِ فَاخَذَنَّهُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ فَأَكَلْنَهُنَّ ، إلا القوتين ، ورأى سبع سُذُبَاتٍ خُضِرَ فَعَبِلَ

عليه سبع يا بصت فأكلم حتى أتيت علي فلم يبق متيق شيء ومن يا بصت، وكذلك البقر
كن عجافاً فلم يزد فبين شيء من أكلهم السنان، فهاتئ الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم
منهم والبصر بالكهانة والنبأمة والفرافة والسحر، وأشرف قومه، فقال: «يأيها الملا أتقوني
في رؤيائي» فنص عليهم، فقال القوم: «أضغاث أحلام» قال ابن جرير قال لي عطاء:
إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس
قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يبنى بها الكاذبة. وقال المسروقي: قوله
تعالى «أضغاث أحلام» أي أحلاط أحلام. والضحك في اللغة الحزنة من الشيء كالقبل
والكلا وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك بنبأ، والأحلام الرؤيا المخطئة. وقال مجاهد:
أضغاث الرؤيا أهلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: (سبع بقرات سمان) حذف الماء من «سبع» فقرأ بين المذكر والمؤنث.
«سمان» من نبت البقرات، ويحوز في غير القرآن سبع بقرات سماناً، نبت السبع، وكذا
خضراً، قال القرطبي: ومثله «سبع سموات طباقاً». وقد مضى في سورة «البقرة» اشتقاقها
ومعناها. وقال ابن أبي طالب رضي الله عنه: المميز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت
سماناً فهي سني. وخاء، وإن كانت عجافاً كانت شداداً، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبان
سفر قدمت سفين على حددها وحالها، وإلا كانت قنناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر
«يشبه بعضها بعضاً». وفي خبر آخر في القرن «كأنها صياحى البقر» يريد لتشابهها، إلا أن
تكون حُسُوراً كلها لأنما أضرار تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شعبة القرون
وكان الناس ينفرون منها، أو كان النار والدخان يخرج من ألواحها فإنه صكر أو غارة، أو عند
يضرب عليهم، ويترنل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجية والخدم والقلعة والسنة وكما يكون
فيها من الولد والقلعة والنبات. (يأكلون سبع عجاف) من عجف يعجف، على وزن عظم
يعظم، وروي عجف يسجف على وزن جد يجد.

(١) جامع ج ١ ص ٢١٦ طبع ثانية أو ثالثة. (٢) صياحى البقر: قرونها.

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْئُونِي فِي رُؤْيَايَ) جمع الرؤيا رؤى ، أى اخبرنى بحكم هذه الرؤيا . (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) العبارة مشتقة من عبور النهر ، بمعنى صبت النهر ، فقلت شاطئه ، فعابر الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها . واللام في « للرؤيا » لتبيين ، أى إن كنتم تعبرون ، ثم بين فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوا أَضْغَاتٌ أَلْخَلُمُ وَمَا تَنْحُنْ بِتَأْوِيلِ الْأَلْحَلُمِ

يَعْلَمِينَ ﴿١١﴾

فيه مستطاب :

الأول — قوله تعالى : (أَضْغَاتٌ) قال الفراء : ويجوز « أضغاث أحلام » قال النحاس : النصب بعيد ، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل ، إنما هى أضغاث أحلام ، أى أخطاطة واحدة الأضغاث ضغت ، يقال لكل غلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضغت ، قال الشاعر ،

كضغت حلم غر منه حيلة .

قوله تعالى : (وَمَا تَنْحُنْ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ يَعْلَمِينَ) قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التفسير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فلم أن القوم عجوزا عن التأويل ، لا أنهم أذعوا أن تأويل لها . وقيل : أنهم لم يقصدوا نفسيا ، وإنما أرادوا مجوها من صدر الملك حتى لا تغفل باله ، وعمل هذا أيضا فعندهم علم . و « الأحلام » جمع حلم ، والحلم بالضم ما يراه النائم ، تقول منه حلم بالفتح وأحلم ، وتقول : حلمت بكذا وحلمت ، قال :

لَحْمَتُهَا وَبَنُو رَقِيْدَةٍ دُونَهَا • لَا يَسْتَعِدُّ خَبَالُهَا الْمُحْلَمُ

وأصله الأناة ، ومنه الحلم ضد الطيش ، نفيل لما يرى في النوم حلم لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة .

(١) وليلة ، أى من من هرب ، يقال فر الرليدات ، كما يقال لآل مرة الميراث . - النان

(الخاتمة - في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما سمع ، لأن النوم قالوا : « انضخت أحلام » ولم تقع كذلك ، فإن يوسف فسرهما على معنى الجلباب والتأنيب ، فكذلك كما سمع ، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ حَبَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا) يعني ساق الملك . « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أي بعد حين ، من ابن عباس وغيره ، ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَقْنُونَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ابن درستويه : (١) والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال - والله أعلم - : « وادَّكَرَ بعد حين أُمَّةٍ ، أو بعد زمن أُمَّةٍ ، وما أشبه ذلك » والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد ، وفي المعنى جمع ، وكل جلس من الجيوان أُمَّةً ، وفي الحديث : « لولا أن الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرت بقتلها » .

قوله تعالى : (وَادَّكَرَ) أي تذكر حاجة يوسف ، وهو قوله : « وَادَّكَرَ عِنْدَ رَبِّكَ » . وقرا ابن عباس - فيما روى عَفَّانُ عن هَمَّامٍ عن قتادة عن عكرمة عنه - « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والنحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » ، بفتح الميمزة وتخفيف اللام ، أي بعد نسيان ، قال الشاعر :

أَيُّهَتْ وَكُنْتُ لَا أَتَى حَبِيبًا • كَذَلِكَ النَّهْرُ يُوَدِّي بِالْعُقُولِ

ومن شَبِيلِ بْنِ هَزْرَةَ الضَّبِّي « بَعْدَ أُمَّةٍ » بفتح الالف وإسكان الميم وهاء خالصة ، وهو مثل الأُمَّة ، وهما لثتان ، ومعناها النسيان ، ويقال : أُمَّةً يَأْمَهُ أَمَّا إِذَا نَسِيَ ، فعل هذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بعض أهل مالاز) ونبهه ابن ماكولا (بعضها) .

« وَأَذْكُرْ بِمِثْلِ أَنَّهُ » ذكره النحاس ؛ وريل أنه ذهب العقيل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري « إيه » بمعنى أقر وأعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرا الأنجب العقيل — « بِمِثْلِ إِيَّةٍ » أي بمدة نعمة ؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسي النسي يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حسس هو وانلياز ؛ فقله : « وأذكر » أي ذكر وأخبر . قلله النحاس : أصل أذكر أذكركم ؛ والذال قرية للفرج من التاء ؛ ولم يجوز إقدامها فيها لأن الذال مجهولة ، والتاء مهموسة ، فلو ادغموا ذهب البحر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو البال ؛ وكان أولي من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار أذكركم ، فادغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ، ثم قال : « أَنَا أَنجَيْتُكُمْ بِأَيُّدِي » أي أنا أخرجكم . وقرا الحسن « أَنَا أَنجَيْتُكُمْ بِأَيُّدِي » وقال : كيف ينهم البليغ ؟ قال النحاس : ومعنى « أَنجَيْتُكُمْ » صحيح حسن ؛ أي أنا أخرجكم إذا بَأْتُ . (تَأْرِيْسُونَ) خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . (يُؤَسِّفُ) تداء مفرد ، وكذا (الْصَّدِيقُ) أي الصديق الصدوق . (أَقْبَى) أي فأسلوه ؛ بلغة إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وماه من رؤيا الملك . « لَعَلَّ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أي إلى الملك وأصحابه . (لَهُمْ يَلْمُونَ) التعمير ، أو « لهم يلمون » مكاتك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : قَالَ تَزْعَوْنَ سَبْعَ مِثْرِينَ دَائِبًا قَدْ حَصَدْتُمْ قَدْرُوهُ فِي مِثْلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ميثاقان :

الأول — قوله تعالى : (قَالَ تَزْعَوْنَ) لما اعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له ، فقال : السبع من البقرات البيضاء والسبلات الخضراء سبع سنين غنيمات ، وأما البقرات البنية

(١) فليح ، فليح ، فليح

والسبلات اليابسات فسبح سنين مجيدات ؛ فذلك قوله : (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا) أى ،
متوالية متتابعة ، وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كما تدرك
في الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى
دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب « دأباً » بفتح الهمزة ؛ وكذا روى حفص عن حاتم ،
وجما لفتان ، وفيه قولان قول أبي حاتم : إنه من دأب . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة
إلا دأب . والقول الآخر - إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفاً من جروف الحلق ؛ قاله الفراء ، قال ،
وكذلك كل حرف نُحِىَ أوله وسكن ثانيه فتثقله جائز إذا كان ثانياً همزة ، أو هاء ، أو عينا ،
أو شيناً ، أو جاد ، أو خاء ، وأصله المائدة ؛ قال ^(١) :

« دَأَبُكَ مِنْ أَمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا » .

وقد معنى في « آل عمران » القول فيه . (قَدْ حَصَدْتُمْ قَدْرَهُ فِي سَبِيلِهِ) قيل : لتلا يسوس ،
وأيكون ابن ؛ وهكذا الأمر في ديار مصر . (أَلَا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) أى استخرجوا ما تحتاجون
إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه - والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضاً أصراً ،
وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى أزروا .

.. الثانية - هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفس
والمال والأولاد والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل
ما يفتقر شيئاً منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس
إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعهادته الموصلة إلى
السعادة الآخروية ، وصراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير
وجوب طيبه ، ولا استحقاق ؛ فهذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه
في أصول الفقه .

- (١) الثاني « دأباً » بفتح الهمزة . « دأباً » بفتحها ؛ وهي قراءة الجمهور من السبعة كما في التفسير ابن عطية .
- (٢) حرام الله القوس ؛ وقام البيت . • • • • • وجازتها أم الرباب بأصل •
- (٣) دأب • • • • • ص ٢٢ بها بعدها طية أول أو ثانية •

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٢٥﴾

فيه مستثنان .

الأول - قوله تعالى : (سَبْعَ شِدَادٍ) أى السنين المحديات . (يَأْكُلْنَ)
واللغى يأكل أهلون . (مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أى ما اقترنتم لأجلهن ، وبحوه قول القائل
نهارك يا مغرور سهو وغفلة . وَلِيْلِكَ تَوَدَّى لَكَ لَازِمٌ

والنهار لا يسهر ، والليل لا ينام ، وإنما يسهر فى النهار ، ويَنَام فى الليل . وحكى زيد
ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الكئين فيقره إلى زجل واحد يأكل
بعضه ، حتى إذا كان يوم قربه له فأكله كله ، فقال يوسف : هذا أول يوم من السبع
الشداد . (إِلَّا قَلِيلًا) نصب على الاستثناء . (مِمَّا تَحْصِنُونَ) أى مما تحبسون لتزوروا ،
لأن فى استبقاء البذر تحصيل الأوقات . وقال أبو عبيدة : تحزون . وقال قتادة :
« تحصنون » تذرون ، والمسنو واحد ، وهو يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت
الطاجة .

الثانية - هذه الآية أصل فى محبة رؤيا الكافر ، وأنها تنزع كل حسب ما رأى ،
لأنها إذا تعلقت بمؤمن ، فكيف إذا كانت آية لنبى ، ومجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفى
التبليغ ، ومحبة للواسطة بين الله - جل جلاله - وعباده .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ هَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ

يُعَصِّرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ هَامٌ) هذا خبر من يوسف عليه السلام مما لم يكن
فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم النبى الذى آناه الله . قال قتادة : زاده الله على سنة لم يسألوه

عنها إظهاراً لقضه ، وإعلاماً لمكانه من العلم ومعرفته . (فِيهِ يُنَاطُ النَّاسُ) من الإفاضة
أو الفتوة ؛ فَوَتَّ الرجل قال واغوثه ، والأسم الثَّوْتُ والثَّوَادُ . ثَوَاتٌ واستغاثي فلان
فاغته ، والأسم الثَّيَاتُ ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والفتيت المطر؛ وقد غلت الثَّيْتُ
الأرض أى أصابها ؛ وغلت الله البلاد يبيتها غَيْتًا ، وغَيْثَتِ الأرضُ ثَغَاتٍ غَيْتًا ؛ فهي أرض
مقبوثة ؛ ومعنى « يَنَاطُ النَّاسُ » يَحْطَرُونَ . (وَلِيْنِهِ يَمْصُرُونَ) قال ابن عباس : يَمْصُرُونَ
الاعتاب والمُنْعَن ؛ ذكره البخاري . وروى سماك عن ابن جرير قال : يَمْصُرُونَ العنب نَمْرًا
والشجر دُحْنًا ، والزيتون زَيْتًا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدل ذلك على كثرة
النبات . وقيل : « يَمْصُرُونَ » أى يَتَوَرَّونَ ، وهو من المَصْرَةِ ، وهي المنهارة . قال أبو حنيفة :
والْمَصْرُ بالتحريك المَلْغَا والمنهارة ، وكذلك المَصْرَةُ ؛ قال أبو زيد :

صَادِيًا يَتَنَبَّيْتُ غَيْرَ مُنَاطٍ . ولقد كَانَ مَصْرَةً المَتَجُودِ .

والمَتَجُودُ القَزَحُ . واعتصرتُ بِلَانٍ وتَمَصَّرْتُ أى التَّجَّاتُ إليه . قال أبو الفوت : « يَمْصُرُونَ »
يَتَنَبَّلُونَ ؛ وهو من عصر العنب . واعتصرت ما له أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى
« تَمْصُرُونَ » بضم التاء وفتح الصاد ، ومناه : يَحْطَرُونَ ، من قوله : « وَأَتَوَلَّيْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَا تَهَاجَاهُ » وكذلك معنى « تَمْصُرُونَ » بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه ذلك .

قوله تعالى : وَقَالَ أَمَلِكُ أَسْتَوِي بِهِ قَلْبًا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْلُهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قُطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ
عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمُ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ
لَهُ مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوٍّ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اتَّقِنِ الصِّلَاحَ الْحَقُّ
أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ﴾ أي فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: آتوني به. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي يأسره بالخروج قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ قَاسًا لَهُ مَا يَأْتِي النَّسْوَةَ﴾ أي حال النسوة. ﴿الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأي أن يخرج إلا أن تصح برأيه لك عما قُذِفَ به، وأنه حبس بلا جرم. روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم^(١)] يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - قال - ولو بُلِّغْتُ في السجن ما لبثت ثم جاني الرسول أجبت - ثم قرأ - فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما يال النسوة اللاتي قطعن أيديهن" - قال - ورحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد [إذ قال « لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد »] لما بعث الله من بعده نبياً إلا في قوة من قومه. وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو بلّث في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن آخون من إبراهيم إذ قال له « أؤلم ظنين قال بلى ولكن يلطمئن قلبي » " وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يرحم الله أبا يوسف لقد كان صابراً حلماً ولو بلّث في السجن ما لبثت أجبت الداعي ولم أقتس العذر". وروى نحوه هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، وفي كُتُب التفسير من صحيح البخاري، وليس لأبن القاسم في الديوان غيره. وفي رواية الطبري: "يرحم الله يوسف لو كنت أنا العبدوس ثم أرسل إلى فخرجت سريراً أن كان حلماً ذا أناة". وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يتفقر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشتدوا أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب". قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة الساحة، وذلك أنه - فيما روى - غشي أنف يخرج ويشتال من الملك

(١) الزيادة من صحيح الترمذي.

(٢) الزيادة من صحيح الترمذي.

(٣) الحديث في تفسير الطبري يختلف في اللغة عما هنا

مرتبة وبسكت عن أمر ذنبه صفيا فبراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذي راود
 امرأة مولاة ، فأراد يوسف عليه السلام أن يبين برأته ، ويحقق مثله من الثقة والتجربة ،
 وحديث يخرج للأحفظ والمثلة ؛ فلهذا قال للرسول : أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ،
 ومقصود يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقيم عن ذنبي ، وينظر في أمرى هل
 سمجت بحق أو بظلم ، ونكبت عن امرأة العزيز حسن عشرة ، ورعاية لأمم الملك العزيز له .
 فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأمانة وترك المبادرة إلى الخروج ،
 ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم
 إنما أخذ لنفسه وجهها آخر من الرأي ، له جهة أيضا من الجودة ، يقول : لو كنت أذا لبادرت
 بالخروج ، ثم حاولت بيان صفى بعد ذلك ، وذلك أن هذه القصص والنوازل هي مؤثرة
 لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حل الناس على
 الأخزم من الأمور ، وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه الحالة ، التارك فرصة الخروج من مثل
 ذلك السجن ، وبما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف
 عليه السلام أمن من ذلك بعه من الله ، فنتبه من الناس لا يأمن ذلك ، فالخلة التي ذهب
 للنبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلده .
 قوله تعالى : (فَأَمَّا لَهُ مَبَإِلُ النِّسْوَةِ) ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل
 المومنين بالتأويل حتى لا يقع عليها تصريح ، وذلك حسن عشرة وأدب ، وفي الكلام محذوف .
 أي فإياه أن يتعرف مابيل النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة
 العزيز - وكان قد مات العزيز - فدخلن (قَالَ مَا خَطْبُكِ) أي ما شأنكن . (إِذْ رَأَوْنَهُنَّ)
 يوسف من قبيبه (وَذَكَرَ لَنَا كَلِمَةً يُذَكِّرُ بِهَا رَبِّي) فكان ذلك مرادة منهن . (فَأَنَّى حَاشَ)
 أي ساء الله . (مَا عَلِمْتُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ) أي ذنبي . (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ
 الْحَقُّ) لما رأته إمرأتها من برائة يوسف ، وطلعت لفت يشهد عليها أن تكون الحق

هى أيضا؛ وكان ذلك لطفا من الله ليوسف . و « حَصَصَ الْحَقُّ » أى تَبَيَّنَ وظهوره؛
وأصله حَصَصَ، ففعل : حَصَصَ، كما قال : كَبِكُوا فى كِبِيرَا، وكَتَفَ فى كَتَفٍ،
قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصَصِ استنبال الشيء ؛ يقال : حَصَصَ شَعْرَهُ إِذَا اسْتَبَالَه بَرَأءُ
قال أبو قيس بن الأُمَيْتِ :

قَدْ حَصَصَ الْبَيْضُ رَأْسِي قَا • أَلَمَسْتُ نَوْمًا غَسِيرًا تَجَاعُ^(١)
وَسَنَّةُ حَصَاءِ أَى جَرْدَا لَا خَيْرَ فِيهَا ، قَالَ بَرِيرٌ ،

يَأْوِي إِلَىكَ بَلَاءٌ مِّنْ وَلَا تَجِدُ • مِنْ سَائِلَةِ السَّنَةِ الْحَصَاءِ وَالَّذِي
كَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : وَالضَّحُّ ، وَهِيَ السَّنَةُ الْحَدِيدِيَّةُ ؛ فَوَضَعَ الذَّنْبَ مَوْضِعَهُ لِأَجْلِ الْفَاقِيَةِ ؛
فَعْنَى « حَصَصَ الْحَقُّ » أَى أَقْطَعَ عَنِ الْبَاطِلِ بظهوره وثباته ؛ قال :
أَلَا مَنْ مِيلُغٌ عَنِّي خِدَاشًا فَإِنَّهُ • كَذُوبٌ إِذَا مَا حَصَصَ الْحَقُّ ظَالِمٌ

وقيل : هو مشتق من الحِصَّةِ ؛ فالعنى : بَاتِ حِصَّةُ الْحَقِّ مِنْ حِصَّةِ الْبَاطِلِ . وقال مجاهد
وقَتَادَةُ : وَأَصْلُهُ مَاخُذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : حَصَصَ شَعْرَهُ إِذَا اسْتَبَالَه قَطْعُهُ ؛ وَمِنْهُ الْحِصَّةُ مِنَ الْأَرْضِ
إِذَا قُطِعَتْ مِنْهَا . وَالْحِصْيُ حِصْيٌ بِالْكَسْرِ التُّرَابُ وَالْمَجَارَةُ ؛ ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ . (أَوْ رَأَوْدَتُهُ هُنَّ
نَفْسُهُ وَإِنَّهُ لَيَنَّ الصَّادِقِينَ) وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْهَا — وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَأَلَ عَنْهُ — إِنْظَارُ ثَوْبَتِهَا وَتَحْقِيقُ
لِصِدْقِ يَوْسُفَ وَكَرَامَتِهِ ؛ لِأَنَ إِقْرَارَ الْمُفْتَزِّ عَلَى نَفْسِهِ أَقْوَى مِنَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِ ؛ بِجَمْعِ اللَّهِ تَعَالَى
لِيُؤَسِّفَ لِإِظْهَارِ صِدْقِهِ الشَّهَادَةِ وَالْإِقْرَارَ ؛ حَتَّى لَا يَخْتَارَ نَفْسًا ظَنُّ ، وَلَا يَخَالِطَهَا شَكٌّ ،
وَشَدَّتْ النُّونَ فِي « خَطْبِكُنَّ » وَ « رَأَوْدَتُنَّ » لِأَنَّهَا بِمِثْلَةِ الْمِيمِ وَالْوَاوِ فِي الْمَذَكُورِ .

قوله نَسَالُ : ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُفْ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَعْلَمُ آدَمُ لَمْ أَكُنْهُ وَالْقَبْ ﴾ اختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى انقضت بالصدق يعلم أنى لم أكُنْهُ بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحلت عن الحباثة ، ثم قالت : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » بل أنا راودته ، وعلى هذا هى كانت مقبزة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي لَنَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « يَعْلَمُ » العزيز « آدَمُ لَمْ أَكُنْهُ وَالْقَبْ » قاله الحسن وقادة وغيرهما . ومعنى « بالقَبْ » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « يعلم » على الغائب توقيرا لذلك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو على السجن بعد ؛ قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يمد يده ، فقال يوسف : « ذَٰلِكَ يَعْلَمُ آدَمُ لَمْ أَكُنْهُ وَالْقَبْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أكن سيدي بالقَبْ ؛ فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف أولا حين حلت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » . وقال السدي : إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حلت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَٰلِكَ يَعْلَمُ » من قول العزيز ؛ أى ذلك يعلم يوسف أنى لم أكُنْهُ بالقَبْ ، وأنى لم أغفل من مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدي الخائنين بحكيم

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القشيري : فالظاهر أن قوله « ذَٰلِكَ يَعْلَمُ » وقوله : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى أبرئ يوسف من حل الإزار والسراويل ، وإذا فقرأه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدمناه من القول المختار في قوله : « ومم بها » . قال أبو بكر الأباري : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ يَعْلَمُ آدَمُ لَمْ أَكُنْهُ وَالْقَبْ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي لَنَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ؛

لأنه متصل بقوله : « أَفَأَرَادْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون
الحلم عن يوسف عليه السلام ، فمن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتْ أَمْرَأَةُ الزَّيْنِ » إلى
قوله : « إِنَّ رَبِّي خَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعبء ببعض ، ولا يكون فيه وقف تام على
حقيقة ، ولستأختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لَيْسَ
أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَيْبُ » كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال : « وَمَا أَرَى نَفْسِي » وتركبة
النفس مذمومة ، قال الله تعالى : « فَلَا تَرْكَبُوا أُنفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء » . وقيل :
هو من قول الزيد ، أي وما أرى نفسي من سوء الظن بيوسف . (إِنَّ الْقَضَ لَأَمَارَةٌ لِلزُّوْءِ)
أي مشتبه له . (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) في موضع نصب بالاستثناء ، و « ما » بمعنى من ،
أي إلا من رحم ربِّي فقصصه ، و « ما » بمعنى من كثير ، قال الله تعالى : « فَأَنبِئْهُمْ مَا طَلَبَ
لَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ » وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعبء من النفس الأمانة
بالسوء ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تقولون في صاحب لكم إن
أنتم أكرمتموه وأعلمتموه وكسوتموه أنفي بكم إلى شرفاية وإن أعتموه وأعرتوه وأجندوه
أنفي بكم إلى خيرة فاية » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض . قال :
« فوالذي نفسي بيده إنها لتفوسكم التي بين جنوبيكم » .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتَوَى بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمُوهُ

قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتَوَى بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي) لما ثبت لك براءته مما أُسبب
إليه ، وتحقق في القصة أمانته ، ولهم أيضا صبره وجاهله عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن
جلاله قال : « أَتُتَوَى بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي » فانظر إلى قول الملك أولا - حين تحقق علمه -
« أَتُتَوَى بِهِ » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « أَتُتَوَى بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي »
روى من وهب بن منبه قال : لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربي من خلفه ،
(١) راجع ص ٢٤٦ وما بعدها طبع أولها لثانية .

حَمْرُ جَوْهَرٍ، وَجَلَّ شَوْهَرُهُ وَلَا إِلَهَ فِيهِ؛ ثُمَّ دَخَلَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ نَظَرَ لَهُ سَاجِدًا،
 ثُمَّ أَقْبَضَهُ الْمَلِكُ سَهْ عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَتَبِيتَ مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. (قَالَ) لَهُ يَوْسُفُ:
 ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَزِيزٌ﴾ (عَلِيمٌ) بِوُجُوهِ تَصَرُّفَاتِهَا. وَقِيلَ: حَافِظُ
 الْحِسَابِ، عَلِيمٌ بِالْأَلْسِنِ. وَفِي الْأَخْبَارِ: "يَرْجِمُ اللَّهُ أُنْسَى يَوْسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ"
 لَأَسْتَمْلَهُ مِنْ مَاحِطِهِ وَلَكِنْ أُنْزِلَ ذَلِكَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِنَّمَا تَأْتُرُ بِمَلِكِكَ إِلَى سَنَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: إِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ قَالَ:
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِجَنَّتِكَ مِنْ خَيْرِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ خَيْرِهِ؛ ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى الْمَلِكِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ
 فَقَالَ: مَا هَذَا اللِّسَانُ؟ قَالَ: هَذَا لِسَانُ عَمِّي إِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ دَنَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ فَقَالَ: مَا هَذَا
 اللِّسَانُ؟ قَالَ: لِسَانُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ؛ وَكَانَ الْمَلِكُ يَتَكَلَّمُ بِسَمْعِي لِسَانًا،
 فَكَلَّمَا كَلَّمَ يَوْسُفَ بِلِسَانِ أَجَابَهُ يَوْسُفُ بِذَلِكَ اللِّسَانِ، فَاعْجَبَ الْمَلِكُ أَمْرَهُ، وَكَانَ يَوْسُفُ
 إِذْ ذَاكَ أَفْنِ ثَلَاثِينَ سَنَةً؛ ثُمَّ أَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَالَ: أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ رُؤْيَايَ، قَالَ
 يَوْسُفُ: نَعَمْ يَا مَلِكُ! رَأَيْتُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَمِينًا شُبُهًا غُرًّا حَسَنًا، كَشَفَ لَكَ هُنَّ النَّبْلَ
 فَطَلْنَ عَلَيْكَ مِنْ شَاطِئِهِ تَسْحَبُ أَخْلَافَهَا لَنَا؛ فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْنِ وَتُسْتَعْجَبُ مِنْ حَسَنَتِنِ
 إِذْ تَقْبَضُ النَّبْلَ فَتَقَارِ بِمَاؤُهُ، وَبَدَأَ أَهْسُهُ، فَخَرَجَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَحَلَهُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَجْجَفُ شُعْتُ
 خَيْرِ مَقْلُصَاتِ الطُّسُونِ، لَيْسَ لَهَا ضُرُوعٌ وَلَا أَخْلَافٌ، لَهَا أَنْيَابٌ وَأَضْرَاسٌ، وَكَأَنَّ
 كَأَنَّ كَلْبًا وَنَرَاطِيمَ تَكْرَاطِيمِ السَّبَّاحِ، فَاخْطَلَطْنَ بِالنَّجَسِ فَافْتَرَسْنَ اقْتِرَاسَ السَّبَّاحِ،
 فَكَانَ لِحُومِهِنَّ، وَمَرْقَنَ جُلُودِهِنَّ، وَحُطْمَنَ عِظَامِهِنَّ، وَمَشْمَشْنَ عَجَنَهُنَّ؛ فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْظُرُ
 وَتُسْتَعْجَبُ كَيْفَ ظَلِمَتْ وَهَتْ مَهَازِيلُ! ثُمَّ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُنَّ يَمِينٌ وَلَا زِيَادَةٌ بِسَدِّ أَكْلِهِنَّ!
 إِذَا بَدِيعُ سَائِلٍ خَضِرَ طَرِيَاتِ نَاعِمَاتٍ، بِمَثَلَاتِ حَبَا وَمَاءٍ، وَإِلَى جَانِبَيْهِ سَبْعُ يَابِسَاتٍ لَيْسَ
 فِيهِنَّ مَاءٌ وَلَا خَضِرَةٌ مِنْ مَنَهْ وَاحِدٍ، عَرُوقُهُنَّ فِي الْقَرَى وَالْمَسَاءِ، فَبَيْنَا أَنْتَ تَقُولُ فِي نَفْسِكَ:
 أَيْ شَيْءٌ هَذَا؟ هَؤُلَاءِ خَضِرَ مَثَرَاتٍ، وَهَؤُلَاءِ سَوْدُ يَابِسَاتٍ، وَالْمَنَهْ وَاحِدٌ،

في الماء، إذ هبت ريح فزرت الأديان عن الأيسات السود على الخضر القسرات، فأنزلت
 نهن النمل فأرقتن، فصرن سوطا مغبيا، فآجيت ملجوعا أيا لك، وقال لك،
 والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان غيبا بأعجب مما سمعت منك ألسا ترى في رؤياي أيا
 الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زردا كثيرا في هذه السنين الخمسة،
 فإنك لو زرعت على حجر أو متوليت، وأظهر الله فيه البلاء والبركة، ثم رفع الزرع في قصبه
 وسبله تبقى له المخازن العظام، فيكون القصب والسبل مقلعا للواب، وحب للناس، وأمر
 الناس فيرفعون من طعامهم إلى أمراك الخبز، فيكفيك من الطعام الذي جمعت لأهل مصر
 ومن حولها، وإتيك الخلق من النواحي يثأرون منك، ويجمع عندك من الكنوز ما لا يجمع
 لأحد قبلك، فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعا
 ما أطاعوا، ولم يكونوا به أماء، فقال يوسف عليه السلام: «أجعلني على خزائن الأرض»
 أي على خزائن أرضك، وهي جمع خزانة، ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، فنقول
 التابسة:

لَهُمْ شِمَاءٌ لَمْ يَعْطَاهَا اللَّهُ خَبِيرُهُمْ • مِنْ الْيُودِ وَالْأَحْلَامِ فَبَرَكَاذِبٍ

قوله تعالى: (أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) جزم لأنه جواب الأمر، وهذا يدل على أن قوله،
 ذَلِكَ لِيَعْلَمَ جري في السجن. ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر،
 «أَتُؤَيِّدُ» تأكيد. «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصا لنفسي، أنفرض إليه أمر
 ملكتي، فذهبوا بقلوبهم، ودل على هذا (فَلَسَا كَلِمَةً) أي كلم الملك يوسف، وسأله
 عن الرؤيا فأجاب يوسف: (قَالَ) الملك: (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) أي يمكن
 نافذ القول، «أمين» لا تخاف خذرا.

قوله تعالى: قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الألف - قوله تعالى : (قَالَ أَجْعَلْ عَلَى خِزَانِي الْأَرْضِ) قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض ، أما سمعت إلى قوله : « أَجْعَلْ عَلَى خِزَانِي الْأَرْضِ » أي على حفظها ، غلب المضارع . (إِنْ حَفِظْتُ) لما وليت (عَلَيْهِ) بأمره . وفي التفسير : إلى حاسب كاتبه ، وأنه أول من كتب في القراطيس . وقيل : « حَفِظَ » لتقدير الأثروات ، عليه ، بمعنى المجامع . قال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أنى يوسف لولم يقل أجعلنى على خزان الأرض لاستعمله من سمعته ولكن أئتم ذلك عنه سنة » . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فوجهه ورداه يسيفه ، ووضع له سريرا من ذهب ، مغطا بالدر والياقوت ، وضرب عليه حلة من إسترىق ، وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشا وستون مرتبة ، ثم أمره أن يخرج ، فخرج متوجها ، لونه كالنخج ، ووجهه كالنمر ، يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، بغلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وقوض إليه أمر مصر ، وعزل قطيف عما كان عليه ، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزان كثيرة غير الطعام ، فسلم سلطانه كله إليه ، وهلك قطيف تلك الليالي ، فزوج الملك يوسف راحيل امرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : اليس هذا خيرا مما كنت تريدن ؟ ! فقالت : أيها الصديق لا تلهى ، لأنى كنت امرأة حسنة ناعمة كما ترى ، وكان صاحبي لا يأق النساء ، وكنت كما جعلك الله من الحسن فلبقى نفسى ، فوجدتها يوسف صفراء فأصابها فولدت له دليين : إفرائيم ابن يوسف ، ومناش بن يوسف . وقال وهب بن منبه : إنما كان تزويجه زليخا امرأة العزيز بين دخلي الإخوة ، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن ، وذهب مالها وعنى بصرها بكاء على يوسف ، فصارت تكثف الناس ، ففهم من ربحها ومنهم من لا يربحها ،

(١) دعاه بهذه : عليه . (٢) المرقة (بالكسر) : انكسار القعدة .

وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في مركب زمامة مائة ألف من قطعه قومه ، فقبل لها : لو تعرضت له لعله يسمعك بشئ ، ثم قبل لها : لا تفعل ، فرجا ذكر بعض ما كان ملك من المارودة والسجن فيسيء إليك ، قالت : أنا أعلم بخلق حبيبي منك ، ثم تركته حتى إذا ركب في مركبه ، فنادت بأهل صوتها : سبحان من جعل الملوك ميثدا بمصيبتهم ، وجعل السيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأقواها ، وقالت : أنا التي كنت أخذتك على صدور قديمي ، وأُرَبِّلُ جَنَّتْ يدي ، وتريت في بيتي ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهل وعزوى فذقت وبال أمرى ، فذهب مالي ، وتضعض ركنى ، وطال ذلّى ، وعيى بصرى ، وبعد ما كنت مذبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكتف الناس ، فنهمن من برحنى ، ومنهم من لا برحنى ، وهذا جزاء المفسدين ، فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تعجبن بما كان في نفسك من حبك لي شيئا ؟ قالت : والله نظرتة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا بمخالفها ، لكن ناولني صدر سوطك ، فناولها فوضعتة على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارثا من حُفَّان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى مقره فأرسل إليها رسولا : إن كنت أيمّا تزوجتك ، وإن كنت ذات حمل اغنياك ، قالت للرسول : أعود بأهـ أن يستزى بي الملك ، لم يُقْبَلْ أيام شبابى وغشائى ومالى وعزى أفيدينى اليوم وأنا عجوز عيـا فقية ؟ فاعلمه الرسول بمقاتلها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له ، فقال لها : ألم يلقك الرسول ؟ قالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا وما فيها ، فأمر بها فأصلح من شأنها وشُيبت ، ثم زُفَّت إليه ، قام يوسف يصل ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فقال الله تعالى أن يبيد إليها شبابها وبجمالها وبصرها ، فرد الله عليها شبابها وبجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، الكراما ليوسف عليه السلام لما عَفَّ من محارم الله ، فأصلبها فإذا هي عذراء ، فسالها : قالت : يا أيها الله إن زوجى كان عينا لا يأتى النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ، قال : فأنشأ في خُصْص ميث ، كل يوم يحد الله لها خيما ، وولدت له ولدين ، لإفرائم ومنشا ، وفيها روى

أن الله أتى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها ، فقال لها : ما شئت لأخبريني
كما كنت في أول مرة ؟ فقالت : لما ذهبت عبة الله تعالى شغلتني ذلك عن كل شيء .

الثانية - قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للربيل
الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يمارسه فيه ، فيصلح
منه ما شاء ، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشبهاته وبلوره فلا يجوز ذلك . وقال
قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة ، وهذا اليوم غير جائز ، والأول أولى إذا كان على الشرط
الذي ذكرناه . والله أعلم . قال الماوردي : فإن كان المولى ظالماً فقد اختلف الناس
في جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما - جوازها إذا عمل بالحق فيما تملكه ، لأن
يوسف ولى من قبل فرعون ، ولأن الاختيار في حقه بفعله لا بفعل غيره . الثاني - أنه
لا يجوز ذلك ، لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم ، وتركيتهم بتقليد أعمالهم ، فأجاب من
ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما - أن فرعون
يوسف كان صالحاً ، وإنما الطاغى فرعون موسى . الثاني - أنه نظر في أملاكه دون أعماله ،
فزالت عنه التبعة فيه . قال الماوردي : والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفعل ما يتولاها
من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها - ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه
كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليته من جهة الظالم ، لأن النص على مستحقه قد أغنى
عن الاجتهاد فيه ، وجواز تزويد أبيه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثاني - ما لا يجوز
أن يتزودوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفقه ، فلا يجوز توليته من جهة الظالم ،
لأنه يتصرف بغير حق ، ويجهل فيما لا يستحق . والقسم الثالث - ما يجوز أن يتولاها لأهله ،
والاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فمقد التقليد محلول ، فإن كان النظر بتقليد الحكم
بين متراضين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

الثالثة - ودلت الآية أيضا على جواز أن ينقلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً ، فإن
قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن شجرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

« يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من مسألة وُكِّتَ إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أُنعتَ عليها ». وعن أبي بردة قال قال أبو موسى : أنبئتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشرعيين ، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، فكلما سأله العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يبتك ، فقال : « ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس - » قال قلت : والذي ببتك بالحق ما أطمأنني على ما في أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سواك تحث شفته وقد قلصت ، فقال : « لن - أو - لا نستعمل على عملنا من أراد » وذكر الحديث ، ونرى مسلم أيضا وغيره ، فاجواب : أولا - أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه لم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متبينا عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو المسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتمرين ذلك عليه ، ووجب أن يتولأها ويسأل ذلك ، ويغير بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ، فاما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ، لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : « لا تسأل الإمارة » فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتنا وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب نفسه فيهلك ، وهذا معنى قوله عليه السلام : « وُكِّتَ إليها » ومن أباحا لعلمه بآفاتنا ، وتلغو من التصبر في حقوقها فَرَمَها ، ثم إن أبطل بها فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : « أفين عليها » . الثاني - أنه لم يقل : إني حبيب كريم ، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ولا قال : إني جميل مليح ، إنما قال : « إني حفيظ عليم » فأسأله بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث - إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

تعالى : « فَلَا تُخَيِّرُوا أَنْفُسَكُمْ » - الرابع - أنه رأى ذلك فرحاً متيناً عليه ، لأنه لم يكن هناك شيء ، وهو الظاهر ، وأنه أعلم . ودلت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وقسط ، قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص بما آتت بوصلة ، أو تلقى بظاهر من مكسب ، ومنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تركية وصرامة ، ولو منه الفاضل عنه لكان أليق بفضل ، فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الفقر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ يُنْصَبُ بِرَحْمَتٍ مِنْ رَبِّنَا وَلَا يُنْصَبُ لِبَرِّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥١﴾ وَلَا جَبْرَ الْأَمِيرِ خَيْرَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) أي ومثل هذا الإنعام الذي أصابنا عليه في تخريبه إلى قلب الملك ، وإخراجه من السجن مكانه في الأرض ، أقدرناه على ما يريد . وقال البيهقي قوله : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح ، وما فيه النبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِذِكَ صِفَتًا نَّاقِصَةً وَلَا تَحْتَسِبْ » وحديث أبي سعيد الخدري : في عامل خبير ، والذي أضافه من التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مرود على ما يأتي . يقال : مكَّاه ومكَّاهه ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّمُ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَكُنْ لَكُمْ » . قال الطبري : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الزمان يوسف على عمل قطيف وعمره ، قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملكه بعد سنة

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استبدل ويلا على غيره ، بخاء بجر جيب ، وهو نوع جيد من أنواع الثمر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل تمر غير هكذا » فقال : لا والله يا رسول الله ، إن لافحة السام من هذا الصائين الثلاثة ، فقال : « لا تغلج بالجمع بالفرام ثم اجمع بالفرام سينا » (البخاري) .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إني خفيظ
 طيم إن شاء الله الملك في وقته " . ثم مات إطفير فزوجه إطفير راحيل ، فدخل
 بها يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إنرايم ومنشا ، أبني يوسف ، ومن زعم أنها زليخا
 قال : لم يترجها يوسف ، وأنها لما رآه في موكبها بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذي جعل للملوك
 هيدا بالمصيبة ، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمها إليه ، فكانت من عياله
 حتى ماتت عنده ، ولم يترجها ، ذكره الساوردي ، وهو خلاف ما تقدم عن وهب ، وذكره
 الثعلبي ، فانه أعلم . ولما فوض الملك أمر بصرا إلى يوسف تأنف بالناس ، وجعل يدهم
 إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام بينهم العدل ، فأحببه الرجال والنساء ، قال وهب والسدي
 وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون الخمسة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم
 أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت الفلة أمر بها بجمع ، ثم بنى لها الأهرام ، فجمعت
 فيها في تلك السنة فلة ضالقت عنها المخازن لكثرة ثباتها ، ثم جمع عليه فلة كل سنة كذلك ، حتى إذا
 انقضت السبع الخمسة وجاءت السنون الجديدة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ، فإن
 الله سخط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : جوع والفتحة علامتان ،
 أحدهما - أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت
 عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية - أن يفقد الطعام فلا يوجد راسا
 ويمز إلى الغاية ، فاجتمعت هاتان علامتان في عهد يوسف ، فأنبأه الرجال والنساء والمصبيان
 يتنادون الجوع الجوع ! ! ويا كلون ولا يشبون ، وأنبأه الملك ينادى الجوع الجوع ! !
 قال : فدعا له يوسف فأبراه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها ،
 معاشر الناس ! لا يزدع أحد زوتا فيضيع البذر ولا يطلع شي . وجاءت تلك السنون بهول
 عظيم لا يوصف ، قال ابن عباس : لما كان ابتداء الفتح يئس الملك في جوف الليل أمياه
 الجوع في نصف الليل ، فنهض الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا
 أوان الفتح ، فلما دخلت أول سنة من سني الفتح هلك فيها كل شيء أعده في السنين

لنقصه ، فبذل أهل مصر ما عن العلم من يوسف ، فباعهم أول سنة بالقود ، حتى
لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ، وباعهم في السنة الثانية بالحناء والجواهر ، حتى لم يبق
في أيدي الناس منها شيء ، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب ، حتى أحتوى عليها
الجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالبيس والإماء ، حتى أحتوى كل الكل ، وباعهم في السنة
الخامسة بالمقار والقبائح ، حتى ملكها كلها ، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم
فامتزجهم جميعا ، وباعهم في السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد إلا صار
عبدا له ، فقال الناس : والله ما رأينا ملكا أبطل ولا أعظم من هذا ، فقال يوسف لملك مصر :
كيف رأيت صنع ربى فيما خولتى ؟ والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك
الأمر فأفعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ، وما أنا بالذي يستنكف من عبادتك وطاعتك ،
ولأننا إلا من بهض مالبك ، وغول من خولك ، فقال يوسف عليه السلام : إني لم أحتهم
من الجوع لاستعصم ، ولم أخرجهم من البلاد لأكون عليهم يلا ، وإني أشهد الله وأشهدك
لأنى أخذت أهل مصر عن آجرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك
بشرط أن تستق بسقى . ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك
السين ، فقيل له : اتجسوع ويملك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن
أنسى الجائع ، وأمر يوسف طباطب الملك أن يحصل فداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك
طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ، فمن ثم جعل الملوك فداءهم نصف النهار .

قوله تعالى : (يُصِيبُ بِرَحْمَتٍ مِّنْ تَعَالَى) أى بإحساننا ، والرحمة النعمة والإحسان .
(وَلَا يُضِيقُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) أى ثوابهم . وقال ابن عباس وهب : يعنى العابرين ، لصبره
في الحب ، وفي الرق ، وفي السجن ، وفي صبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة . وقال
الساودي : وأختلف فيما أوتي به يوسف من هذه الخلال على قولين : أحدهما - أنه ثواب
من الله تعالى على ما ابتلاه . الثاني - أنه أتم عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على
حاله في الآخرة .

قوله تعالى: (وَلَا تُجْرِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ) أي ما نطفيه في الآخرة خير مما أعطينا في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع، وظاهر الآية للصوم في كل يوم حتى، وأنشدوا: **أَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ يُوسُفَ أَسْوَدُ • لَمَّا كَانَ مَحْسُوسًا عَلَى الظُّلُمِ وَالْإِنْتِنَاءِ**
أَقَامَ بِحَيْلِ الصَّبْرِ فِي الْحَبْسِ بُرْهَةً • قَالَ يَا الصَّبْرُ الْجَنِيلُ إِلَى الْمَلِكِ
وَكُتِبَ بِهِمْ إِلَى صَدِيقِهِ: •

وراء مَضْبِيّ الخوف مُنْعُ الْأَمْنِ • وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تِلْسَنَ فَالَهُ مَلَكٌ يُوسُفًا • نزلته بعد الخلاص من السجن
وَأَتْبَدَ بِهِمْ: •

لِذَا الْحَادِثَاتِ بَلَّغَنَ النَّبِيَّ • وَكَادَتْ تَذْرُبُ لُحْنَ الْمُهَيَّجِ
وَحَلَّ الْبَلَاءُ وَقُلَّ الْقِسَاءُ • فَصَدَّ التَّنَائِي بِكَوْنِ الْفَرَجِ
وَالشَّعْرَى فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ •

قوله تعالى: وَجَاءَ إِخْوَتُ يُوسُفَ فَلَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾
قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَتُ يُوسُفَ) أي جاءوا إلى مصر لِمَا أَصَابَهُمْ الْقَحْطُ لِيَتَارَدُوا؛
وهذا من اختصار القرآن المعجز • قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط
والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بهت يعقوب عليه السلام وابنه لليثية، وذاع أمر يوسف
عليه السلام في الآفاق، لبته وفريه ورحمته ورافته وعمله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام
حين نزلت الشدة بالناس يجلس عند البيع بنفسه، فيعطهم من الطعام على عدد رءوسهم،
لكل رأس وسقا. (وَجَاءَ إِخْوَتُ يُوسُفَ فَلَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ) يوسف (وَقَمَّ لَهُ مُنْكَرُونَ)
لأنهم خلقوه صبيًا، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من التمكن، مع طول
المنة؛ وهي أربعون سنة • وقيل: أنكره لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر • وقد: رآه
لا بلبس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تراءى بزي فرعون مصر؛ ويوسف
(١) الرّوس سنن صاها، والأصل في الرّوس الخل •

فلم يزل ما كان موعده في القوس والخلية . ويحصل أنهم قدوة بداء ستر فلم يبروه . وقيل :
لأنهم لم يملأوا خالقاً كآدم فمن الله به بقرب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونَ بَآخَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُرْ
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِنَبَأٍ
فَلَا يَكِلَ لَكُمْ بَعِذِي وَلَا تَقْرَبُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ) يقال : جهَّزْتُ القوم تجهيزاً أي تكففت لهم
بجهزهم للسفر ، وجهَّزَ العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج ، ويجوز بعض
التكفين الجهاز بكسر الجيم ، والجهازي هذه الآية الطعام الذي أمتاروه من عنده .

قال السدي : وكان مع اخوة يوسف أحد عشر بغيراً ، وهم عشرة ، فقالوا ليوسف :
إِنْ لَنَا إِخَا تَخَفْنَا ، وبغيره معنا ، فسألهم لِمَ تَخَفُ ؟ فقالوا : لِحُبِّ آبَاءِ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا
لَهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ إِخْ أَخٌ أَكْبَرُهُ تَخْرُجُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ فَهَلَكَ ، فقال لهم : أردت أن أرى أخاك ههنا
الذي ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أَيْكُمُ إِيَّاهُ ، وأعلم صدقكم ، ويروي أنهم تركوا جنده ليعرفوا
وجهه ، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال للرجل قل لهم : لفتكم مخالفة

للنساء ، وزيك مخالفة لزينا ، فلعلمكم جوايس ، فقالوا : والله ! ما نحن بجوايس ، بل نحن
بشوايب واحد ، فهو شيخ صديق ، قال : فكَمْ حِدَّتْكُمْ ؟ قالوا : كَمَا أَخَى عَشْرَةً فَذَهَبَ أَخُ
لَنَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ فَهَلَكَ فِيهَا ، قال : فإِنِ الْآخَرُ ؟ قالوا عند أَيْتَانَا ، قال : لِمَ يَجْلِسُ صَدِّقُكُمْ ؟

قالوا : لَا يَعْرِفُنَا هَاهُنَا أَحَدٌ ، وَقَدْ عَرَفْنَاكَ أَنَسَابِيَا ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ تَسْكُنُ قَبْلَكَ إِنَّا ؟
فقال يوسف : (أَتَأْتُونَ بَآخَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُرْ) لِمَ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَأَنَا أَرْضِي بِذَلِكَ
« أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ » أي أمته ولا أبعسه ، وأزيدكم حمل بغير لأخيك .
« فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِنَبَأٍ فَلا يَكِلَ لَكُمْ بَعِذِي » توعدهم ألا يعيهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : (أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ) يعتمل وجهين : أحدهما - أنه رخص
لهم في السعر فصار زيادة في الكيل . والثاني - أنه كال لهم بمكيل وإن . (وَأَنَا خَيْرُ

لِلتَّائِلِينَ) فيه وجهان : أحدهما : أنه خير للضعيف ، لأنه أحسن حياتهم ، قاله مجاهد .
الثاني : وهو مختل ، أي خير من زلتم عليه من اللامومين ؛ وهو حل التاويل الأول مأخوذ
من التزل وهو الطعام ، وحل الثاني من التزل وهو الدار .

قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَلِمَ لَكُمْ عِنْدِي) أي فلا أسمعكم شيئا فيها بعد ،
لأنه قد وقاهم بكلام في هذه الحال . (وَلَا تَقْرَبُونِ) أي لا أتلكم عيني مثلة للقریب ،
ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يهودوا إليه ؛ لأنه على العود حتم . قال السدي : وطلب منهم
وهية حتى يرجعوا ؛ فارتبهم شمون عنده ؛ قال الكلبي : إنما اختار شمون منهم لأنه كان يوم
الحلب أجملهم قولا ، وأحسنهم رأيا . وهذا تقريره في موضع جزم بالنهي ؛ فلذلك حذف
هذه الآية ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبرا لكان « تقرّبون » بفتح النون .

قوله تعالى : (قَالُوا سَتَرْنَا عَنْهُ آيَاتِنَا) أي سطلبه منه ، ونسأله أن يرسله منه ،
(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) أي لضامون المجيء به ، ومعتلون في ذلك .

مسئلة - إن قيل تركيب استباز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟
فجبل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها - يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك
ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فأتبع أمره فيه . الثاني - يجوز أن يكون أراد بذلك
أن يلبه يعقوب على حال يوسف طيب السلام . الثالث - لتضاعف المصيبة ليعقوب
برجوع ولديه إليه . الرابع - ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخيه ؛ لئلا كان منه
إليه ؛ فالأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَكُمْ فِي رِحَالِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَبْعُرُونَهَا إِذَا أَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَهْلِيكُمْ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله تعالى : (وَقَالَ لِفَتَاتِهِ) هذه قراءة أهل المدينة وأبو عمرو وطامس ؛ وهو اختيار
أبي حاتم والنحاس وغيرهما . وقرا سائر الكوفيين « لِفَتَاتِهِ » وهو اختيار أبي حنبل ؛ قال :

ومرو بمصطف حده فله ذلك. قال قتلي: وهما لفتان جيدتان، مثل الصبيان والصبيه.
قال الحسن : «**تنبه**» عاتق للسواد الأعظم، لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون،
 ولا يترك السواد للجنح عليه لهذا الإسناد للمقطع، وأيضا فإن فية أشبه من فيان، لأن فية
 عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يعملوا البضاعة في الرجال أشبه. وكان هؤلاء الفتيه
 يسؤون جهنم، ولهذا أسكنهم جعل بضاعتهم في رحالم. ويؤوز أن يكونوا أحرارا،
 وكانوا أحرارا له، وبضاعتهم أثمان ما أشتروه من الطعام. وقيل: كانت دراهم ودينارين.
 وقال ابن عباس: التعلال والأدم وشاح للمسافر ويسمى رحلا، قال ابن الأثيري:
 يقال للواء رحل، ولبيت رحل. وقال: «**قَتَلَهُمْ بِمِرْقَاتِهِمَا**» لجواز ألا تسلم في الطريق.
 وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك، لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بئنه.
 وقيل: ليستينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: استفتح أن يأخذ من أبيه وإخوته
 ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضله، ويرغبوا في الرجوع إليه.

قوله تعالى: **فَلْيَا رَجُعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَنَابَنَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**
فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْبَلْهُمَا وَإِنَّا لَهُم مُّحْفِظُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ هَلْ ءَامِنُكُمْ عَلَيْهِ
إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
لَكَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئَعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا
يَنَابَنَانَا مَا نَبْنِي هَٰذِهِ بِضَئَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَبِمِرْأَاهُنَا وَنَحْفِظُ آخَنَانَا
وَرَدَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ﴿١٧﴾ **ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** ﴿١٨﴾

قوله تعالى: «**فَلْيَا رَجُعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**» لأنه قال لهم:
 «**فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي**» وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه،
 وإن شئتم منين حتى يعلم صدق قولهم. «**فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْبَلْ**» أي قالوا عند ذلك:

« فأرسل معنا أخانا نكل » والأصل نكل ؛ لحفت الضمة من اللام الجزم ، وحذفت
الآلف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم « نكل » بالنون ، وقرا سائر
الكوفيين « يكل » بالياء ؛ والأزول اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكل ؛
وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام
من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكل معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير
على غير التصديق والتأخير ؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع ، انتهى : « فإن لم تأتوني به
فلا يكل لكم عندي » . (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من أن يناله سوء .

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ) أي قد فرطتم
في يوسف فكيف آمنتم على أخيه ! . (فَاتَّخَذَهُ خَيْرَ حَفَظًا) نصب على البيان ؛ وهذه قراءة
أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وقرا سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج ؛
على البيان ؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم على إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير
من حفظكم إياه . قال كعب الأحمار : لما قال يعقوب : « فاقه خير حافظا » قل الله تعالى
وعزى وجلال لأردت عليك آبنك كليها بعد ما توكلت على .

قوله تعالى : (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) الآية ليس فيها معنى يشكل . (مَا نَبِيٍّ) « ما »
استفهام في موضع نصب ؛ والمعنى : أي شيء طلب وره هنا ؟ ! وقى لنا التكل ؛ وره
ملينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يطيروا نفس أبيهم . وقيل : من تافية ؛ أي لا نبني منك دراهم
ولا بضاعة ؛ بل تكفيتم بضاعتنا هذه التي ردت إلينا . وروى عن ملقمة « ردت إلينا »
بكسر الزاء ؛ لأن الأصل رُدت ؛ فلما أدغمت قلبت حركة اللام على الزاء . وقوله ؛
(وَيَمِيرُ أَمْلًا) أي يجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَسْمَتِكَ مَارًا فَكُنْتُ جَهْلًا • مَتَى يَأْتِي فَيَسْأَلُكَ مَنْ مُنِيتُ

وقرا السامى بضم النون ، أي نعيمهم على الميرة . (وَتَزِدُكَ بِجَمْعٍ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ) أي يجر
بغير لباسين .

فنه نكال : قال لن أرسله معكم حتى تؤثرون موثقا من الله
لتأثني به إلا أن يحاط بكم فلما ماتوه موثقهم قال الله على ما نقول
ويعمل

لوه مستثنى :

الأولى من قوله نكال : (تؤثرون) أى تعطون : (موثقا من الله) أى عهدا يوثق به .
قال السدي : حلفوا بالله ليقنه إليه ولا يسلموه ، واللام في (لتأثني) لام القسم .
(إلا أن يحاط بكم) قال جاهد : إلا أن تتركوا أوتعتوا . وقال قتادة : إلا أن تغلبوا عليه .
قال الزجاج : وهو في موضع نصب . (فلما آتاه موثقهم) قال الله على ما نقول وركل
أى حافط الخلف . وقيل : حفيظ العهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانية - هذه الآية أصل في جواز الجمالة بالعين والوثيقة بالنفس ، وقد اختلفت
العلماء في ذلك ، فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هي جائزة إذا كان المحتل به
مالا . وقد ضعف الشافعي الجمالة بالوجه في المسألة ، وله قول كقول مالك . وقال حيان النسي :
إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يمين به لزمه الدية وأرض الجراح ، وكانت
له في مال الجاني ، إذ لا قصاص على الكفيل ، فهذه ثلاثة أقوال في الجمالة بالوجه .
والصواب تفرقة مالك في ذلك ، وأنها تكون في المسألة ، ولا تكون في حد أو تعزير ، على
ما أتى به .

فنه نكال : وقال ينبغي لا تدخلوا من باب واحد وأدخلوا من
أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه
توكلت وعليه فليترحمي المتوكلون

فيه سبع مسائل :

الأول - لما عزموا على الخروج خشي عليهم العيين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ، وإنما خاف عليهم العيين لكونهم أحد عشر رجلا رجلا واحدا ، وكانوا أهل جمال وكال وبسطة ، قاله ابن عباس والقصاص وقناة وغيرهم .

الثانية - وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العيين ، والعين حق ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العيين تذبذب الرجل القبر والجبل القبر" . وفي تمؤنه عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة" ما يدل على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبو سهل بن حنيف بالخلو فترجع بجبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلاء ، قال فقل له عامر بن ربيعة : ما رأيت كالذيوم ولا جله مذكرا ، فوكل سهل مكانه وأشتت وعكه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وطك ، وأنه غير راض منك يا رسول الله ، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هَلَمْ يَقْتُلْ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ إِلَّا بَرَكْتَ إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ قَوْضًا لَهُ" فوضا له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ، في رواية "أقتل" ففعل له عامر وجهه ويديه وصرغيته وذكابته وأطراف وجهه وداخل أناره في قنح ثم حسب عليه ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميكم هذا ليم أن أنه أضغ الكشحين ، فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها ففست له ، في هذين الحديثين أن العيين حق ، وأنها تقتل كما قال سهل الله عليه وسلم ، وهذا قول علماء الأئمة ، ومنهجب أهل السنة ، وقد أنكره طوائف من الشيعة ، وهم محجوبون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجوه ، فكم من رجل

(١) انظره ما بالمدية . (٢) قال مالك الله له : وهذا القول يطل ثاني العين ومالك منه .

أدخلته العين القبر ، وكمن من أجل ظهر أدخلته القبر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال :
 « وَمَا مِنْ بَضَائِعٍ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ » . قال الأصمى : رأيت رجلاً ضوئاً سمع بقرة
 تحلب فأعجبه فتبعها فقال : أين هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا
 جميعاً ، المورى بها والمورى عنها . قال الأصمى : وسمعت يقول : إذا رأيت الشيء يعجبني
 وجدت حرارة تخرج من عيني .

الثالثة - واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك ، فإنه إذا دعا بالبركة صرف
 المحذور لا محالة ، ألا ترى قوله عليه السلام لأمر : « أَلَا بَرَكْتُ » فدل على أن العين لا تضر
 ولا تعدو إذا بَرَكَ العائن ، وإنما إنما تعدو إذا لم يُبرِّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله
 أحسن المخلوقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة - العائن إذا أصاب عينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاعتساف ، ويُعبر على ذلك
 إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، لاسيما هذا ، فإنه قد يخاف على المؤمنين الهلاك ، ولا ينبغي
 لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .

الخامسة - من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ، وقد
 قال بعض العلماء : يأمره الإمام بزوم يئسه ، وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف
 إذاه من الناس . وقد قيل : إنه ينبغي ، وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال ، فإنه
 عليه السلام لم يأمر في أمر يحبس ولا ينفى ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح
 فيه ولا يفسد به ، ومن قال يحبس ويؤمر بزوم يئسه فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة - روى مالك عن حميد بن نيس المكي أنه قال : دُخِلَ على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بائع جعفر بن أبي طالب فقال لحاضتهما : « مالي أراهما ضارعتين »
 فقالت حاضتهما : يا رسول الله ! إنه تفرح إليهما العين ، ولم يمنعه أن تسترقق لهما إلا أنه
 لا تدرى ما يراقبك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آمسترقا لهما فإنه

(١) العائن ، الخائف منهما ، ليس .

لَوْ مَرَّ بَيْنِي الْقَدْرُ سَجَّتهُ الْعَيْنُ . وهذا الحديث مقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت
مهديس المتضمنة من التي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح ، وفيه أن الذي
ما يستدفع به البلاء ، وإن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه أي تضعفه وتصله ، وذلك بقضيه
لله تعالى وقدره ، ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

السابعة - أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة بالاشتغال بالعين
وأمره بالاشتغال ، قال علماءنا : إنما يسترق من العين إذا لم يعرف العاتق ، وأما إذا عرف
الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَمَا آتَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) أي من شيء ، أحلوه عليكم ؛
لأنه لا يمنع الحرام القدر . (إِنَّ الْحَكْمَ) أي الأمر والقضاء . (إِلَّا إِلَهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)
أي أصحلت ووقفت (وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانُوا يَنْفِي
عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُمْ
لَدُوْهُمْ عَلِيمٌ لَمَّا حَلَسَتْهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا
عَلَى يُوسُفَ أَوَّحَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِسْ وَبِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ إِخْوِهِ
فَمِنْ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ يَأْتِيهِمُ الْعِيرُ إِنَّكَ لَسِرُورٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ) أي من أبواب بني . (مَا كَانُوا
يَنْفِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) إن أراد إلقاء مكروه بهم . (إِلَّا حَاجَةً) استثناء ليس من
الأزول . (فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) أي طامس خطر قلبه ، وهو وصيته أن يتفزعوا
قال مجاهد ، خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : فلا يرى لملك محلهم وقوتهم

فيطش بهم حدا أو حدا، قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للمين
هنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه بما يخاف عليه، ويرشده إلى
ما فيه طريق السلامة والنجاة، فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ) يعني يعقوب . (لَتُؤْمِلُنَّ بِيَاكُم مَّكَنَّهُ) أي بأمر دينه . (وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل :
« لنعلم » أي عمل ، فإن العلم أول أسباب العمل ، فسمى ما هو بسببه .

قوله تعالى : (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) قال قتادة : حمله إليه، وأزله
معه . وقيل : أمر أن يترك كل اثنين في منزل ، فبقى أخوه منفردا بنفسه إليه وقال :
اشفق علي من الوحدة ، وقال له يبرأ من أخوته : (إني أنا أخوك فَلَا تَتَلَفَسْ)
أي لا تحزن (يَا كَاوُوا بِمَكُونُ) .

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَاةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ) لما صرف بنيامين
أنه يوسف قال له : لا تزدني إليهم ، فقال : قد ملئت اعتياد يعقوب بي فيزاد عني ، فابى
بنيامين انطويج ، فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يعلم بك :
فقال : لا أبالي ! فدنس الصباغ في رجليه ، إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد ، أو أمر
بعض خواصه بذلك . والتجهيز التسريح وتغيير الأمر ، ومنه جهز على البحر أي قلعه ، وجهز
أمره . والسقاية والصواع شيء واحد ، إذا له رأسان في وسطه مقبض ، كان الملك يشرب
منه من الرأس الواحد ، ويكال الطعام بالرأس الآخر ، قاله النقاش عن ابن عباس ، وكل شيء
يشرب به فهو صواع ، وأنشد :

• شَرِبْتُ الْخَمْرَ بِالْصَّوَاغِ جَهَّازًا •

واختلف في جلسته ، فروي شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان
صواع الملك شيء من فضة يشبه للثرك، من ففة مرصع بالجوهر ، يحصل على الرأس ،

(١) كانت تقدم في ص ١٧٨ من هذا الجزء .

وكتب للعباس واحد في الجاهلية، وسأله مالك بن الأزرق ما الصواع؟ قال : الإناء
قال فيه الأعشى :

لَهْ دَرَمْتُكَ فِي رَأْسِهِ وَشَارِبُ • وَقِدْرٌ وَطَبَّاعٌ وَصَاعٌ وَدَبْسٌ

وقال عكرمة : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ، وبه كمال طعامهم
مبالغة في إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزة الطعام . والصاع يذكر ويؤنث ، فمن
أنثه قال : أَصْرُوعٌ ، مثل أدور ، ومن ذكره قال أَصْوَاعٌ ، مثل أنواب . وقال مجاهد
وأبو صالح : الصاع الطَّرْجَمَالَةُ بلفظة خيم . وفيه قراءات : « صَوَاع » قراءة العامة ،
و« صُوع » بالعين المعجمة ، وهى قراءة يحيى بن يعمر ، قال : وكان إناء أصيغ من ذهب .
« وَصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجا . « وَصُوع » بصاد مضمومة وواو ساكنة
وهى غير معجمة قراءة أبى . « وَصِيَاع » بياء بين الصاد والالف ، قراءة سعيد بن جبير .
« وَصَاع » بالثاء بين الصاد والعين ، وهى قراءة أبى هريرة .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) أى نادى سائر وأعلم . « وَأَذَّنَ »
للتكثير ، فكانته نادى صرارا « أَيَّتُهَا الْعِير » . والعير ما أمتير عليه من الخيل والإبل والبقال .
قال مجاهد : كان معهم حميرا . قال أبو حنيفة : العير الإبل المرحولة المركوبة ، والمعنى :
يا أصحاب العير ، كقوله : « وأسأل القرية » ويا خيل الله اركبي : أى أصحاب خيل الله ،
وسياق . وهنا اعتراضان : الأول — إن قيل : كيف مضى بنيامين بالعودة طوعا وفيه حقوق
الأب بزيادة الحزن ، وواقفه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته
وهم براء وهو — الثاني — فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قد طلب على يلقوب
بحيث لا يؤثريه فقد بنيامين كل التأثير ، أو لا تراه لما فقدته قال : « يا أسفا على يوسف »
ولم يترج على بنيامين ، ولعل يوسف إنما واقفه على العودة بوحى ، فلا اعتراض . وأما نسبة

(١) الدبس : عران من غنة . واليت من ضبعة يمدح بها الخلق مظهر .

أرئت وما هلك العباد الموقر • وما بى من سقم وما بى مشق

هو سب السرقه الى اخبره بالجواب : ان القوم كانوا قد عرفوه من ابيه فالتقوه في الحب ،
 لم اعرفه ، فابتحقوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدقوا بطلاق ذلك عليهم . جوابه آخر -
 وهو انه ابله اينها كسر حالك حال السارق ، والمعنى : ان شينا لنترك صار عندكم من ضم
 وضال الملك ولا علمه . جواب آخر وهو ان ذلك كان حيلة لاجتناع شمله باخيه ، وفصله
 عنهم اليه ، وهذا بناء على ان بنيامين لم يعلم بدس الصباح في رحله ، ولا اخبره بنفسه . وقد
 قيل : ان معنى الكلام الاستفهام ، اى او انكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ لِّى
 لَوْ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَى ؟ » والفرض الا يترى الى يوسف للكتب .

قوله تعالى : **قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ** (١١) **قَالُوا نَفَقْدُ**
صُورَةَ الْمَلِكِ وَلَيْمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (١٢)
 به سبع سال :

اولى - قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُ حِمْلُ بَعِيرٍ) البعير هنا الرجل في قول اكثر
 المفسرين . وقيل : انه الحمار ، وفي لغة بعض العرب قاله جاهد واختاره . وقال جاهد
 وزعم هو الذي قال : « لربنا البعير » . والزعم والكفيل والجمل والضئيل والقبيل
 قوله . والزعم الرئيس :
 قال :

وَأَنْ تَعْلَمَ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُ لَهُمْ . فَهُمْ كَوْنُهُمُ الْفَرَاقِ أَنْذَرَا

(١) مراد بالقبيل . والعرض : سبع سبع كوت . الى الأسد كان يشار اليه . (٢) مراد
 صرير . والاذود : الخيل في شوقه اى ان ملكي ليعرف قاتلي امي صبيبا شديدا . (٣) الفرقان من
 تلك الكتاب .

وقالت لى الأخيلة ترى أخاها ،

وَحَسْرَتِي عَنْ الْقَمِيصِ تَحَالَةً • يَوْمَ الْقِيَامِ مِنَ الْجَاءِ مَعِيَا
حَتَّى إِذَا رَفَعَ الثَّوْبَ دَأْبَهُ • [تَحْتَ الثَّوْبِ] عَلَى الْخَمِيصِ زَعِيَا

الثانية - إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول ، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له :
حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالنسيء ؛ فصح ضمانه ، غير أنه بدل مال للشارق ، ولا يحمل
للشارق ذلك ، فلمله كان يصح في شرعهم ، أو كان هذا جملة ، وبذل مال لمن يقتضى ويطلب .

الثالثة - قال بعض العلماء : في هذه الآية دليلان : أحدهما - جواز الجمل وقد
أجيز للضرورة ؛ فإنه يميز فيه من الجهالة ما لا يميز في غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فصل
كذا فله كذا صح . وشأن الجمل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه ؛
بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدر فيها الموضع والمعوض من الجهتين ؛ وهو من المقود الجائز التي
يموز لأحدهما فسح ، إلا أن المجهول له يميز أن يفسخه قبل الشروع ويصده ، إذا رضي بإسقاط
حقه ، وليس للجامل أن يفسخه إذا شرع المجهول له في العمل . ولا يشترط في عقد الجمل حضور
المتعاقدين ، كسائر المقود ؛ لقوله : « وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » . وهذا قال الشافعي .

الرابعة - متى قال الإنسان : من جاء ببدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا
جاء به ، فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به حل طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « من جاء بآبق فله أربعون درهما » ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان
أو غير عقد . قال ابن خزيمة : ولهذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه
أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .
قلت : وخالفنا في هذا كله الشافعي .

(١) كذا في الأصل ولله ترفيق . وفي حفته يترق القميص أقوال : الأول - أن ذلك إشارة إلى جذب
المنفعة له . الثاني - أنه يترق بجذبه فيكسوها ويكنس بها زما . الثالث - أنه غلب الماكب ؛ وإذا كان كذلك
أسرع المروق إلى رقبته . الرابع - أنه كثير الفترات متصل الأسفار ؛ ففيه منخرق لذلك .
(٢) كذا في « أمال الثبات » « ولشتر وللشراء » « والحاسة » وفي الأصول : يوم المباح .

فصل ثلث - في دليل النسيب - جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الصلح هو
 غير يوسف عليه السلام . قال مبلوغة : إذا قال الرجل تحملت أو تكفنت أو خفنت أو واثمت
 تحيل لك أو زعم أو تكفيل أو ضامن أو قيسل ، أو هو لك عندى أو على - أو إلى - أو قيل
 لفكك كله تحيلة لازمة . وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ؛ هل يلزمه
 ضمان للمال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب
 إثبات ؛ وهو أحد قول الشافعى فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعى : إذا
 تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به حرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط
 ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا ضمن المال فلا شيء عليه من المال ، والنجحة لمن أوجب
 حرم المال لأن التكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال ؛
 فإنما ضمنه له ولم يأت به فكأنه قوته عليه ، وعززه منه ؛ فذلك لزمه المال . وأجبح الطحاوى
 للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس
 ولم يتكفل بالمال ، فمال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة - واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ
 من شاء منهما ؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحق : يأخذ من
 شاء حتى يستوفى حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن
 ينفس النفرم أو ينيب ؛ لأن التبديع بالنسيب عليه الحق أولى ، إلا أن يكون مضمدا فإنه يؤخذ
 من الخيل ، لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل
 مطالبة أى الرجلين شاء . وقال ابن أبى ليل : إذا ضمن الرجل عن صاحبه ما لا يتحول على
 للكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أليهما شاء ؛
 وأجبح جماعة المبت من الذين بضم أن أبى قتادة ونحوه قال أبو ثور .

(١) الحديث : رأى سقة بن الأكوع أن هبى صل الله عليه وسلم أتى بجملة فقال : " هل عليه من دين ؟ " قالوا :
 " لا " ، قال : " هل ترك شيئا ؟ " قالوا : " لا " ، قال : " سلوا من صاحبكم " ، قال أبو قتادة : " هل عليه ما يرسل الله
 به ؟ " فسل عليه .

لأنهم اتبعوا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يفرغ ضحى ما أخذ ، قاله الحسن والسدي وغيرهما .

مسئلة - قد تهم في سورة « المائدة » أن القطع في السرقة نافع لما تهم من اللصراع ، لو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِطَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِطَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ آلِكَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ تَرْفَعُ دَرَجَتِكَ مِنْ شِسْأَةٍ وَفَوَّقَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : (قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِطَاءِ أَخِيهِ) إنما بدأ يوسف بحالهم لئلا يثمة والرية من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوطاء يقال بضم الواو وكسرهما ، لغتان ، وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . (ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِطَاءِ أَخِيهِ) يعني بنيامين ؛ أي استخرج السقاية أو الصراخ عنه من بؤته ، وقال : « ولئن جله به » فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا وجوههم وظنوا الفتون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا : وطك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت لك « دلييل » آخرين لصين ! قال لهم إخوهم : والله ما سرقتك ، ولا علم لي من وضعه في متاعى - وروى أنهم قالوا له : يا بنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله ، قالوا : فمن جمل الصراخ في رحلك ؟ قال : الذي جعل لي خلعة في رحالك . وقال : إن للفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله من وجل تأتبا من فعله ذلك ؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن الفتش كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويحمل أين الصواع حتى فرغ منهم ، وأتى إلى رحل بطمين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا ، فقال له إخوته : والله لا يبيع حتى يفتشه ، فهو أطيب لنفسك وضوسا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهذا الفتش من يوسف يقتضى أن الموزن يترفع برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى ، ويؤى ذلك قوله تعالى : « كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ » .

(١) طبع ١٠ ص ١١٢ طبة لول لمرآة .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَكُونُ يُوسُفَ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « كَذَلَا » معناه صنمنا ؛ عن ابن عباس . القنسي : دبرنا .

ابن الأنباري : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خيرُ إرادة • لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا همت أصلا ، خلافا
لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وتزمت التحليل .

الثانية - أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع
والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظلم الساعى أنه لا يحل
له التحيل ولا التصمان ، ولا أن يفرق بين مجتمع ، ولا أن يصح بين منفرد . وقال مالك :
إذا فوت من ماله شيئا ينو به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة ضد
الحول ، أخذنا منه بقوله عليه السلام : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » . وقال أبو حنيفة : إن نوى
بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول يوم لا يضره ، لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول ،
ولا يتوجه إليه معنى قوله : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » إلا حينئذ . قال ابن العربي : سمعت أبا بكر
محمد بن الوليد الصهرى وغيره يقول : كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي
الذامغانى صاحب عشرات آلاف من المال ، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم :
كبرت سننى ، وضعت قوتى ، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم ، ثم يخرجهم فيعمله الرجال على
أصنافهم إلى دور بنيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما أئنا حياتنا ،
وأما المال فائى رغبة لنا فيه مادمت حيا ، أنت ومالك لنا ، نخذه إليك ، وسلم الرجال
به حتى يضمه بين يديه ، فيرده إلى موضعه ؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبي
حنيفة في التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المنفرد ؛ وهذا خطب عظيم ، وقد صنف البخارى
رضي الله عنه في حله كتابا مفصلا قال : « كَلَبَ الْحَيْلَ » .

قلت : وتزيم فيه أربابا منها : « باب الزكاة ولا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك ، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة ، وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نازرا الرأس ، الحديث : وفي آخره : « أطلع إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » . وقال بعض : في حشرين ومائة بغير حقتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبا أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه ، ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون أكثر أحيديكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زيمتان وقول أنا كذتك » الحديث . قال المؤلف : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يقبل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع النعم وتلقيها خشية الصدقة فهم هذا المعنى ، وفهم من قوله : « أطلع إن صدق » أن من دام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يمتثلها أنه لا يطلع ، ولا يقوم بذلك ملذمه عند الله وما أجازاه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك المهرّب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير صافط ، والله حسيبه ، وهو كنز من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، وأستعمل سفرا لا يحتاج إليه ، وغبه عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوحيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف نطؤه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يميل ، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الحاشية - قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى : وَكَذَلِكَ مَنَّا عَلَى يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ « دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وهم عظيم ، وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَنَّا عَلَى يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » قيل فيه : كما مَنَّا ليوسف ملك نفسه من أمراء العزيز مَنَّا له ملك الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشافعي : ومثله قوله من رجل : « وَخَذْتُ يَدِيكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبُ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبْ » وهذا لمن

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ الْكَذِبِ﴾ أي سلطانه، عن ابن عباس: ابن عيسى: عاده، أي بظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه، وهو استغراق البراق. ﴿إِلَّا أَنْ يَمْلَأَهُ اللَّهُ﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يملأ السفاية في رحله تملأ وعدرا له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجرى على السهم حكم بن إسرائيل، على ما تقدم.

قوله تعالى : قَالُوا إِنْ يَسِرَّقَ فَعَدَّ مَرْقًى أَخْ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَنَّاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا تَصِفُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْعًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدُنَا
مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ
وَجَدْنَا مُتَعَانًا عَلَيْهِ إِنَّا إِذَا أَفْكُلُونَ ﴿٦٩﴾

(١) الجمل: فر غطت من أنواع شعرة، وليس مرغوبة. (٢) كذا في الأصل: «إحكام الحركات»
 (٣) جامع ٧ ص ٢٠ وما بعدها: «أولاً»
 (٤) جامع ٧ ص ٢٠ وما بعدها: «أولاً»

قوله تعالى : (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) الملقى : أى أقصدى
 باخنيه ، ولو أقصدى بنا مسرق ، وإنما قالوا ذلك ليبرموا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ،
 وأنه إن سرق فقد جذب به عرق أخيه السارق ، لأن الاشتراك فى الأناساب يشاكل
 فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرقعة التى نسبوا إلى يوسف ، فروى عن مجاهد وغيره
 أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت حارثت إليها منطقة إسحق لسنها ،
 لأنهم كانوا يتوارثون بالسنة ، وهذا مما يُسخ حكمه بشرعنا ، وكان من سرق أسيد .
 وكانت عمة يوسف حاضنة وأخته حباً شديداً ، فلما ترمع وشب قال لها يعقوب : سقى
 يوسف لبنى ، فلبست أقدر أن ينيب عني ساعة ، فولمت به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له :
 دعه يندى إياماً أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق لحزنها
 حل يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسحق ، فانظروا من أخذها ومن
 أصابها ، فالتفت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ، فوجدت مع يوسف . فقالت :
 إنه والله لى سلم أصعب فيه ما شئت ، ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ،
 لأن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، فامسكه حتى ماتت ، فبذلك عبره إخوته فى قولهم : «لأن يسرق
 فقد سرق أخ له من قبل» . ومن هاهنا تعلم يوسف وضع السقاية فى رجل أخيه كما عملت به
 عمة . وقال سميد بن جبير : إنما أمرته أن يسرق صفاً كان يلتم أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه
 على الطريق ، وكان ذلك منهما تغيراً للتكرار ، فربوه بالسرقة وعبروه بها ، وقاله قتادة . وفى كتاب
 الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية التمرى : أنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق
 نفاً فعبده بذلك . وقيل : أنه كان يسرق من طعام المساكين ، حكاه ابن عيسى .
 وقيل : أنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ، فله الحسن .

قوله تعالى : (نَاسَرَهُنَّ يُوْسُفُ فِي قَبْرِهِنَّ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُنَّ) أى أسرى غسه قولهم :
 «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» . قاله ابن عجرة وابن عيسى . وقيل : أنه أسرى نفسه

(١) سرق (المخس) ما حلفوا به هم والغير .

قوله : « أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : « والله أعلم بما تصفون » أى الله أعلم أن ما قلتم كذبكم وإن ، فكانت لله رضا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ) خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بمنزلة الأولاد أو موتهم . وقولهم : « إن له أباً شيخاً كبيراً » لئلا يكبر القدر ، ولم يريدوا كبر السن ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحداً مكانه » أى عبداً بدلاً ، وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يملكون أنه لا يصح أخذ حريستهم بدلاً من قد أحسبت السنة عندهم رقة ؛ وإنما هذا كما تقول لمن نكره فعله : أقضى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى استنزاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « فخذ أحداً مكانه » حقيقة ؛ وعبد طيبهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حراً ، فلم يبق إلا أن يردوا بذلك طريق الحسنة ؛ أى خذ أحداً مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ، ومقصدهم بذلك أن يصل بغيرهم إلى أبيه ، ويعرف بمقرب جلية الأمر ؛ فنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الجمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، غير لازم إذا أبى الطالب ؛ وإنما الجمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحبل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، ولا يجوز إجماعاً ، وفى « الواضحة » أن الجمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة ، إلا فى النفس ، وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . واختلف فيها عن الشافعى ؛ فسرقة ضمهها ، وصرة أجازها .

قوله تعالى : (إِنْ تَرَأَيْتَ مِنَ الْمُتَمِسِّينَ) يحتمل أن يريدوا وصفه بما راوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا فى هذه اليد إن أصدبنا إليها ، وهذا تأويل ابن إسحق .

قوله تعالى : (قَالَ مَتَى أَتَيْتُ) مصدر . (أَنْ تَأْخُذَ) فى موضع نصب ؛ أى من الآن تأخذ . (أَلَا تَنْتَظِرُونَ) فى موضع نصب به تأخذ . (مَتَاعًا جَدِيدًا) أى مآذاً لله لئن تأخذ للبرى ، بالمجرم ، وبخالف ما تعاقدنا عليه . (إِنْ لَمْ تَأْخُذْ) أى إن تأخذ فيه

[illegible]

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَلَقُوا مِنْهُ ﴾ أى يَلَسُوا ، مثل غيب وأستجب ، وتيسر واستسخر . ﴿ اسْلُكُوا ﴾ أى أقدموا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المفسر فى . ﴿ اسْلُكُوا ﴾ وهو واحد يؤتى عن جمع ، كما فى هذه الآية ، ويقع على الواحد كقوله تعالى : ﴿ وَفَرَّقْنَاهُ أَجْنَىٰ ۖ وَجْهَهُ أَجْنَىٰ ۖ قَالَ الشَّامِيُّ ۖ

إِنْ إِنْأ مَا الْقِسْمُ كَانُوا أَتَيْنَهُ . وَأَضْطَرَبَ الْقَوْمُ أَضْطِرَابَ الْأَرْبَةِ
 . هُنَاكَ أَوْصِيَنِي وَلَا تُوصِيَنِي .

وفرا ابن كثير • استأيسوا • • ولا تأيسوا • • إنه لا يأس • • أقلم يأس • بالف
من غير هزل للقب ، فقلت الميزة وأثرت الياء ، ثم قلت الميزة القبا لأنها ساكنة
فيها نصة ، والأصل قراءة الجماعة ، لأن المصدر ما جاء إلا على نغديم الياء - ياسا -
والإيـاس ليس بمصدر أيـس ، بل هو مصدر أئـس أئـسا وأئـسا أئى أعطيته . وقال قوم :
أئـس قرئس لثان ، أى فلما يشؤا من ردة أخيمم قساووا فـيا يئهم لا يغالظهم غيرهم
من الناس ، يتناجون فـيا قرصهم ضم . والحق فيل بمعنى المتأني .

قوله تعالى : (قُلْ يُحْيِيهِمْ) قال قتادة : هو ربيّل ، كان أكبرهم في السن . مجاهد ، هو صفوان ، كان أكبرهم في الرأى . وقال الكلبي : هوذا ، وكان أبغضهم . وقال محمد بن كعب وابن إسحق : هو لؤي ، وهو أبو الأنبياء . (أَلَمْ تَقْلُوا آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ عَلَيْهِمْ

(١٤) من مضمون هذا الفصل في بيان بعض فوائد اسمهم في العلم والفكر، ففردوا من وكابهم، وانضروا طائفة، وبسطوا عليهم من تاتسلسلوا فيكونوا، ولعل، إذا ضرب مثلا قول الأمر لهم، والأدوية الجمال التي يمتلئ بها، والمراد لك الصالحات، والبركات، فلا تفسدوا، بل لا تفسدوا.

مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) أى عهدا من الله فى حفظ أبنه وورثه إليه. (وَمِنْ قَبْلِ مَا تَقُولُ مِنْ يُوسُفَ) «ما» فى عمل نصب عطفا على «أَنَّ» والمعنى: ألم تعلموا أَنَّ إِيَّاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ، وتعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكره الناس وغيره. «وَمِنْ» فى قوله: «وَمِنْ قَبْلِ» متعلقة بهتعلما. ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيشق الظرفان اللذان هما «مِنْ قَبْلِ» و«فِي يَوْسُفَ» بالفعل وهو «تَقُولُ». ويجوز أن تكون «ما» بالفعل مصدر، و«مِنْ قَبْلِ» متعلقا بفعل مضمر؛ التفسير: تفريطكم فى يوسف واقع من قبل؛ فإنا والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به «مِنْ قَبْلِ». (فَلَمَّا أَتَتْ أَرْضَ) أى أَرْضَهَا، ولا أربح مقبلا فيها؛ يقال: بَرِحَ بَرَّاحًا وَبَرُّوحًا أى زال، فإذا دخل التى صار ميثبا. (حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى أَبِي) بالرجوع فإلى استنحى منه. (أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي) بالمرء مع أئى فأمضى معه إلى أبى. وقيل: المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وأخذ أئى، أو أعجز فأصرف بغيره، وذلك أن يعقوب قال: «لَمَّا تَنَبَّأَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ» ومن حاربه وتجنَّز فقد أحبط به؛ وقال ابن عباس: وكان يهودا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرد وجهه مائة ألف؛ يقوم شعره فى صدره مثل المسال فتتخذ من ثيابه. وجاء فى الخبر أن يهودا قال لأخوته — وكان أشدَّهم غضبا —: إِمَّا أَنْ تَكْفُونِى الْمَلِكَ وَمِنْ مَعَهُ أَكْفَكُمُ أَهْلَ مِصْرَ؛ وإِمَّا أَنْ تَكْفُونِى أَهْلَ مِصْرَ أَكْفَكُمُ الْمَلِكَ وَمِنْ مَعَهُ؛ بل أكفنا الملك ومن معه تكفك أهل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق؛ فأخذ كل واحد منهم حوقا؛ ثم إن يهودا دخل على يوسف وقال: أيها الملك! إئتني لم تحلِّ معنا أخانا لأصبحن صبيحة لا أثبتى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها؛ وكان ذلك خاصا فيهم عند الغضب؛ فأغضب يوسف وأسمه كلمة، فغضب يهودا وأشدَّ غضبه، وأتفتحت شعراؤه؛ وكلما كان كل واحد من بني يعقوب؛ كان إذا غضب، أقشمت جلده؛ واتفتحت جسده؛ وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تخطر من كل شعرة قطرة دهر؛ وإذا ضرب الأرض يرحله ترتلت وتنتقم البليان؛ وإن صاح صبيحة لم تسمع حامل من النساء والبنات

والطير إلا وضعت مافي بطنها ، تماما أو غير تمام ؛ فلا هذا غضبه إلا أن يبفك بما ، أرتسكه
يد من نسل يعقوب ؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكل كُلم ولدا له صغيرا
بالقبيلة ، وأمره أن يضع يده بين كفتي يهوذا من حيث لا يراه ؛ ففعل فسكن غضبه وألقى
السيف ، فالتفت بينا وشالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير ؛ فخرج مسرعا إلى إخوته
وقال : هل حضري منكم أحد ؟ قالوا : لا ! قال : فإين ذهب شعمون ؟ قالوا : ذهب
إلى الجبل ، فخرج فلقيه ، وقد أحتمل صخرة عظيمة ؛ قال : ما تصنع بهذه ؟ قال : أذهب
إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رموس كل من فيه ؛ قال : فارجع فردّها أو فالفها
في البحر ، ولا تحدثني حديثا ؛ فوالذي أخذ إبراهيم خبلا ؛ لقد تسنى كُف من نسل يعقوب ؛
ثم دخلوا على يوسف ، وكان يوسف أشدهم بطشا ، فقال : يا متمر العبرانيين ! أنظفون أنه
ليس أحد أشد منكم قوة ، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركّكه برجله ندسا به
من خلف الحسداء - ألْكُل الضرب بالرجل الواحدة ؛ وقد رَكَّكه برَكَّكه ؛ قاله الجوهري - ثم
أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرّعه ، وقال : هات الحندين أقطع لإبيهم وأرجلهم وأضرب
أصنافهم ، ثم صعد على سريره ، وجلس على فراشه ، وأمر بصواعبه فودع بين يديه ، ثم قرعه
لقرة فخرج طينته ، فالتفت إليهم وقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا ! قال : فإنه يقول :
إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم ، ثم قرعه ثالثة وقال : إنه
يجبرني أن هؤلاء أخذوا أخاهم صغيرا فحسدوه وصرّوه من أبيهم ثم ألقوه ، فقالوا : أيا المزير !
كسر طينا ستر الله عليك ، وأمنن طينا من الله عليك ؛ فصرّعه ثالثة وقال إنه يقول :
إن هؤلاء طرحوها صغيرهم إلى الجلب ، ثم باعوه بيع العبيد بجن جنس ، ووزعوا لأبيهم أن الذنب
أكده ؛ ثم قرعه الرابعة وقال : إنه يجبرني أنكم أذنبتم فنيا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ؛
ولم تنوبوا إليه ؛ ثم قرعه الخامسة وقال إنه يقول : إن أخاهم الذي دعوا أنه هلك لن يذهب
لأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا ؛ ثم قرعه السادسة وقال إنه يقول : لو كنتم تكيّد
أول من أكده ما كنتم ولا عفتكم والذكر ؛ لأجملنكم نكالا للمالين . أيتوني بالحندين أقطع

أيديهم وأرجلهم ، فضعفوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أحببنا إنفاق يوسف إذ هو حي لنكون طوع بينه ، وتربا بطلا علينا ، يرسله يا قليبا بأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : أئبرجواضى : ا قد خلّيت سبيلكم : اكراما لأبيكم ، ولولا هو : لبلعتمكم نكالا .

قوله تعالى : اَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (اَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ) قاله الذى قال : « فَلَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْأَرْضِ » . (فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ) وقرا ابن عباس والضحاك وأبو رزين « إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » . النحاس : وحدثني محمد بن أحمد بن عمرو قال حدثنا ابن شاذان قال حدثنا أحمد بن أبي مَرْجٍ البغدادي قال : سمعت الكسائي يقرأ « يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » بضم السين وتشديد الزاء مكسورة ، على ما لم يُسم فاعله ، أى تُسبب إلى السرقة ورؤى بها ، مثل خوته وقصته وبخوته إفا لسته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سَرَقَ » يحتمل معنيين : أحدهما - علم منه السرقة ، ولآخر - أنهم بالسرقة . قال الجوهري : والسرقة والسرقة بكسر الزاء فيما هو أسم الشيء المنسروق ، والمصدر سَرَقَ يسْرِق سرقا بالفتح .

قوله تعالى : (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا) .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا » . يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا ، وما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما تعلم الغيب ، كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسْ هذا في رجل من دَسْ بضاعتكم في رجالكم ، قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْرِقُ إلا بما علمنا من دينك ، قاله ابن زيد . (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) أى لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يسرق فلا تأخذ . وقال مجاهد وقادة : ما كنا

(١) هو عباس بن الفضل بن قاصد كماله « في قوله »

نعم إن أبنتك يسرق ويصير امرأنا إلى هذا، وإعسا فلنا : يحفظ أخانا فيما نطبق . وقال
أبن عباس : يتون أنه سرق ليلا وهم نيام ، والنيب هو الليل بفتح جيم ، وعنه : ما كنا نعلم
ما يصنع في ليله ونهاره ونذابه وإياه . وقيل : ما دام برأى متالم يمر حلال ، فلما غاب صا
خفيت عنا حاله . وقيل منه : قد أخذت السرقة من رعله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ،
ولا علم لنا بالنيب ، فلهذه سرقة ولم يسرق .

الثانية - تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها ، فإن الشهادة
مرتبطة بالعلم عقلا وشرا ، فلا تسمع إلا ممن علم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل
في الشهادات ، ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة
الآخرى إذا فهمت إشارته جائزة ، وكذلك الشهادة على الخط - إذا تيقن أنه خطه أو خط
فلان - صحيحة ، فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه ،
قال الله تعالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
« أَلَا أُخْبِرُكُمْ خَيْرُ الشَّهَادَةِ خَيْرُ الشَّهَادَةِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهِادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسَالَهَا » وقد مضى
في « البقرة » .

الثالثة - اختلف قول مالك في شهادة المرد وهو أن يقول : مردوت فلان فسمته
يقول كذا ، فإن استوعب القول شهد في أحد قولي ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهده ،
والصحيح أن الشهادة عند الاستيلاء ، أو به قال جماعة العلماء ، وهو الحق ، لأنه حصل المطلوب
وتبين عليه أداء العلم ، فكان خير الشهادة إذا أعلم الشهود له ، وشهد الشهود إذا كتبها .
الرابعة - إذا أدى رجل شهادة لا يعضلها غيره وقتها ، لأنه أدى بإطلا على غيره
ليكن ظاهرا

قوله تعالى : « وَتَعْلَى الْقُرَّةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَلَكِيمٌ أَلَيْسَ لِقَبْلَتَنَا فِيهَا
وَأَنَا قَصَصْتُكَ »

(١) طبرستان ١٠٠٠ ج ١ ص ١٠٠

فيه مستطاب

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْبَحْرَ﴾ حققوا بها شهادتهم عنده، ورفضوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم بقولهم - «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ» أي أهلها، فحذف، ويريدون بالقرية مصر - وقيل: قرية من قرأها نزلوا بها وأما دارها - وقيل المعنى: «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ» وإن كانت جادا، فانت نبي الله، وهو ينطق الجداد لك، وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار، قال سيوري: ولا يجوز كَلَمَ هندا وأنت تريد غلام هند، لأن هذا يشكل - والقول في البير كالقول في القرية سواء. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا

الثانية - في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يقطن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع التهمة وكل ردية عن نفسه، وبصرح بالحق الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحد شكك، وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين الذين مرّا وهو قد خرج مع صفيّة يقلّبان من المسجد على رجليك امرأة صفيّة بنت حنّى فقلا: سبحان الله! وكبرّ عليهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإن خبيث أن يقذف في قلبك شيطا" رواه البخاري ومسلم

قوله تعالى: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ انْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْعَالِمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٥﴾

فيه مستطاب

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت، ﴿لَكُمُ انْفُسُكُمْ﴾ إن أبنى سرق وما سرق، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فثاني صبر جميل، أو صمد جميل أولي، على ما علم أول السورة -

الثانية - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكره في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم بخيره عليه وهو العلم الحكيم، ويبتدى يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم، وقد سجد بن أبي عمرو عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يجزعهما العبد أحب إلى الله من جرعة معدية يجزعها العبد بنسب صبر وحسن عراء، وجرعة غيظ يجزعها العبد بحلم وعفو. وقد ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: «فصبر جميل» أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ بَتَّ لَمْ يَصْبِرْ»، وقد تقدم في «البره» أن الصبر عند أول الصدمة، وثواب من ذكر مصيبته وأسترجع وإن تقدم عهدا. وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أعطى عل يوسف أجرة مائة شهيد، وكذلك من أحسب من هذه الأمة في مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جِمْءٌ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنما غاب عنه خبره، لأن يوسف قيل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حبس، فلما تمكن أختال في أن يعلم أبوه خبره، ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول يقبل إليه. وقال: «هم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلف من أهل أخيه، وهو القائل: «فلن أرج الأرض». ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحال. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقضى.

قوله تعالى: وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يٰٓأَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسَفَ ۖ وَأَيُّضْتَ عَيْنَاهُ

مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَبِيمٌ ﴿٤٦﴾

بـ ثلاث سنن

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بلقين تمام حزنه، وبلغ جهده، وجعل الله مصيبته له في يوسف فقال: ﴿يٰٓأَسْفَىٰ

(٤٦) سورة يوسف ١١٧-١٢٠ مكية ٢٦٤

هَلْ يُوسُفَ) وَفَى أَبَهُ بِبَاطِنِ الْمَذْكُورِ ، مِنْ أَيْنِ حَاسٍ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : (يَكُنْ
 هَدِ يَقُوبُ مَا فِي كِتَابِنَا مِنَ الْأَسْتِرْجَاعِ ، وَلَوْ كَانَ حِنْدَ لَهَا قَالُ : « يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ » .
 قَالَ قَادَةُ الْحَسَنِ : وَالْمَعْنَى يَا حَرَاهُ ! وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ : يَا جَزَاهُ ! ، قَالَ كُتَيْبٌ :
 فَيَا أَسْفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَصْرَافُهُ • وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سُلِّتْ قَسِيلَتِ

وَالْأَسْفُ شِدَّةُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَ . وَالنَّدَاءُ عَلَى مَعْنَى : نَحَالُ يَا أَسْفُ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْفَاكَ .
 وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْأَصْلُ يَا أَسْفَى ، فَيُبدَلُ مِنَ الْبَاءِ أَلِفٌ لِحَقْفَةِ الْفَتْحَةِ . (رَأَيْتُ عَيْنَاهُ مِنْ
 الْحُزْنِ) قِيلَ : لَمْ يَصِرْ بَعْدَ سِتِّ سَنِينَ ، وَأَنَّهُ نَحَى ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَقِيلَ : قَدْ تَيَقَّضَ الْعَيْنُ
 وَبَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الرُّؤْيَا ، وَانَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَمْ يَقُوبُ ؛ وَإِنَّمَا أَيْقِضَ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكَاءِ ، وَلَكِنْ سَبَبُ
 الْبُكَاءِ الْحُزْنُ ، فَهَذَا قَالَ : « مِنَ الْحُزْنِ » . وَقِيلَ : إِنْ يَقُوبُ كَانَ يَهْمُ ، وَيَوْسُفُ نَاعِمًا
 مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَطَّ فِي نَوْمِهِ ، فَانْتَفَتَحَ يَقُوبُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ ثَانِيَةً فَانْتَفَتَحَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ
 ثَالِثَةً فَانْتَفَتَحَ إِلَيْهِ سُرُورًا بِهِ وَبِقَطِيطِهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ « أَنْظِرُوا إِلَى صَاحِبِ
 وَأَبْنِ خَلِيلٍ فَأَنَّا فِي مَنَاجَاتِي بَلِّغْتُ إِلَى خَيْرِي ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ! لَا تَزْعُمَنَّ الْحَدِيثَيْنِ اللَّتَيْنِ
 لَتَفْتُ بَهُمَا ، وَلَا تَفَرَّقَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَتَفْتُ إِلَيْهِ بِمَا نِيْتُ سَنَةَ ، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ مَنْ قَامَ بِهِ
 يَدِي يَجِبُ عَلَيْهِ مِرَاقَبَةُ نَظَرِي » .

الثانية — هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة — وإن لم يُطْلَم — يدل على التقوية
 عليها ، والقصص فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه
 وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلعه الشيطان من صلاة العبيد » .
 وسيأتي ما للأعلام في هذا في أوَّل سورة « الْمُؤْمِنِينَ » . وَعَبَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الثالثة — قال الحاس : فَإِنْ سَأَلَ قَوْمٌ مِنْ مَعْنَى شِدَّةِ حُزْنٍ يَقُوبُ — صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى نَبِيئِهِ — فَلَا أَعْلَمُ فِي هَذَا ثَلَاثَةَ أَجَوِبَةٍ : مِنْهَا — أَنَّ يَقُوبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالَفَ عَلَى دِينِهِ ، نَاشَتْ حُزْنُهُ لِفُتُورِهِ . وَقِيلَ :
 إِنَّمَا حُزْنُهُ لِأَنَّهُ سَأَمَهُ إِلَيْهِمْ صَغِيرًا ، فَتَدَمَّرَ عَلَى ذَلِكَ . وَإِلْجَوَابُ الثَّالِثِ — وَهُوَ أَنَّهَا عَدُوٌّ

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا يليق. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تدع العين وتحزن للقلب ولا تقول ما يسخط الرب». وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَلِيمٌ﴾ أى مكطوم مملوء من الحزن بمسك عليه لا يته؛ ومنه كظم النبط وهو إخفاؤه؛ فالمكطوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى: «إذ نادى وهو مكطوم» أى مملوء كرا. ويعوز أن يكون المكطوم بمعنى الكظم؛ وهو المشتغل على حزنه. وعن ابن عباس: كظم مفعم؛ قال الشاعر:

فَإِنَّ أَلَكُ كَاطِمًا يَلْصَابُ شَاسٍ • فَأَتَى الْيَوْمَ مَطْلَقَ لِسَانِي

وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: ذهب عباء من الحزن «فهو كظم» قال: فهو مكروب. وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله: «فهو كظم» قال: فهو كيد؛ يقول: يعلم أن يوسف حى؛ وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كيد من ذلك. قال الجوهري: الكد الحزن المكتوم؛ يقول منه كيد الرجل فهو كيد وكيد. النحاس: يقال فلان كظم وكاظم؛ أى حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر:

لَحْضَضْتُ قَوْيِي وَأَحْسَبْتُ قِتَالَهُمْ • وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ الْمَاءِ كُطُمٌ

قوله تعالى: قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَضُوا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَضُوا تَذْكُرُ يَوْسُفَ﴾ أى قال له ولده: «تالله تفتضون يوسف» قال الكسائي: فتأت وتفت أفضل ذلك؛ أى مازلت. وزعم الفراء أن «لا» مضمرة؛ أى لا تفتض، وأشد:

فَقُلْتُ بِمِثْلِ اللَّهِ أَرْجُ قَاعِدًا • وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

(١) البيت لا معنى لليس و«مين» بالرفع على الاستفهام وإشعار الخبير والتقدير: بمثل الله لازمي؛ وبالتصديق إشعار فعل؛ وهو كثير كلام العرب كقولهم: أمانة الله. وقد وصفناه طرق مجيئه لثوبه الرابا. وأمره بالانصراف؛ فقال لما همداء؛ وأراد: لا أرج ظف «لا». والأرسال (جمع وصل) من المواصل.

أى لا أبرح ، قال النحاس ، والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وميويه أنه هلاه نضمر
في القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ، ولو كان واجبا لكان باللام والتون ، وإنما قالوا له ذلك
لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ، يقال : ما زال يفعل كذا ، وما تفى وقتنا فهما لتان ،
ولا يستملان إلا مع الجحد ، قال الشاعر ^(١) :

فما قبلت حتى كأت غبارها ^(٢) • سُرايى يوم ذى رايح ترفع

أى ما يرتفع ففتت تبرج ، وقال ابن عباس : تزال . (حتى تكون مَرَضًا) أى تالفا . وقال
ابن عباس ومجاهد : ذفا من المرض ، وهو ما دون الموت ، قال الشاعر :

مَسْرَى مَسَى فامرَضَنِي • وَفَسْنَا زَادَنِي مَرَضًا

كذلك الحب قبل الجنو • عَمَّا يُوزِنُ الحَسْرَتَا

وقال قتادة : هيرما . الضجاءك : بالياء حائرا . محمد بن إسحق : فاسدا لا عقل لك . الفراء :
الجارض للفساد الجسم والعقل ، وكذا الحَرَض . ابن زيد : الحَرَض الذى قدوة إلى أذى العصب
الريح بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرج : ذائبا من الدم ، وقال الأخفش : ذاهبا .
ابن الأثير : حالكا ، وكلها متقاربة . وأصل الحَرَض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن
أو الشق أو الحرَم ، عن أبي عبيدة وفيه ، وقال العري : ،

إِنى أمرؤُ بَجْدِ • حُبٌ فاحرَضَنِي • حتى بليتُ وحتى قسفتُ الستم

قال النحاس : يقال حَرَضَ حَرَضًا وحَرَضَ حَرُوضًا وحَرُوضَةً إذا بلى ومسيما ، ودخل
حارِض وحَرَض ، إلا أن حَرَضًا لا يبنى ولا يجمع ، ومثله قِن وحَرَى لا يثنان ولا يجمان .
الثعلبي : ومن العرب من يقول حارِض لذكر ، والمؤنثة حارِضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ تى
وجمع وأنت . ويقال : حَرِضَ يَحْرِضُ حَرَضًا فهو حَرِضٌ وحَرِضٌ . ويقال : رجل حَرَضٌ ،
ويشدد :

طَلَبَتُهُ الخليل يوما كاملا • وَلَوْ أَلْفَتُهُ لَأَتَمَّتْ حَرَضَهَا

(١) حراس بن جراتيم الجاهل .

(٢) الضمير محمل .

وقال أمرؤ القيس :

أرى المرء ذا الأعداء يصبح عروماً • كالحراض يكر في الديار مريضاً

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه أهرم إذا أسقمه ، ورجل حارص أى أحق . وقرأ أنس «حرضاً» صم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأشتان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحرض والحرض الأشتان . (أو تكون من المالكين) أى الميتين ، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك . قوله تعالى : (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ) حقيقة البت في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء

المهلكة التي لا يتبأ لها أن يخفيها ؛ وهومن بثته أى فزقه ، فسببت المصيبة بتأ مجازاً ؛ قال ذو الرمة :
وَقَفْتُ عَلَى رَجٍ لَيْسَ نَاقِصِي • مَا زِلْتُ أُبْكِي جَنَدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأُسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِنْهُ أُنْثَى • تُكَلِّسُنِي أَتَحَارُهُ وَمَلَايِعُهُ

وقال ابن عباس : «بقي» هـى . الحسن : ساجى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . (وحزنى إلى الله) معطوف عليه ، أماده بغير لفظه . (وأعلم من الله ما لا تعلمون) أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى ساجد له . قاله ابن عباس . وقاعدة : إني أعلم من إحسان الله تعالى إلى ما يوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا ، فأكد هذا رجاءه . وقال السدى : أعلم أن يوسف حي ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعمله وسخطه وقوله أحسست نفس يعقوب أنه ولده قطع ، وقال : لله يوسف .

قوله تعالى : يَبْنِيْ اٰذْهَبُوا فَمَحْسُوسًا مِنْ يُّوسُفَ وَآخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُّوحِ اَللّٰهِ اِنَّهٗ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُّوحِ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْكَافِرُوْنَ ﴿٧٧﴾

(١) الأعداء : جمع فرد ، وهو القطيع من الإبل ثلاث إلى التسع . والرك : النقي من الإبل ؛ بقول : أرى المرء هذا المال يدرك الهرم والمرض ، والفتد به ذلك فلا تنفك كثره ماله ، كأن الراك يدركه ذلك .
(٢) أسقمه : أضعفه .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ) هذا يدل على أنه تين حياته ؛ إما بالروا ، وإما بإنطاق الله تعالى الذنب كما في أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتَّحَسُّب طلب الشيء بالحواس ؛ فهو تفعل من الحس ، أى أذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وأحال عليكم فيهاخذة فاسألوا عنه وعن مذهبه ؛ ويرى أن ملك الموت قال له : أطلبه من هاهنا ؛ وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برّد البضاعة ، وأحسب أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فأنلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها . (وَلَا تَيْسُرُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ) أى لا تهبطوا من فرج الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط في الشدة . وقال قتادة والضحاك : من وحده الله . (إِنَّهُ لَا يَكُنُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) دليل على أن القنوط من الجأز ، وهو اليأس ، ومباني في « الزمر » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا النَّشْرُ وَجِئْنَا بِبِضْءَةٍ مُرْجَبَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ) أى المتع . (مَسْنَا وَأَهْلُنَا النَّشْرُ) هذه المرة الثالثة من هودم إلى مصر ؛ وفي الكلام حذف ، أى نخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسْنَا » أى أصابنا « وَأَهْلُنَا النَّشْرُ » أى الجوع والحاجة ؛ وفي هذا دليل على جواز الشكى عند النَّشْر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه القم من القم . وقمته أن يسدى حائه إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكر لما به من الأكم إلى الطيب ليحلبه ؛ ولا يكون ذلك قدما في التوكل ، وهذا ما لم يكن الشكى على مبدل التسخط والصبر والتجمل في التواب أجسن ، والتصف من المثلة أفضل ؛ وأحسن للكلام

(١) في نسخ قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين آمنوا حلوا على أنفسكم » الآية من المائدة الآية ٦٤ .

في الشكوى سؤال المولى زوال البلى ، وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثي وحزني
إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعاقبته على
عباده ، فأما الشكوى على غير شك فهو السفة ، إلا أن يكون على وجه البت والتسل ؛
كما قال ابن قتيبة :

لَا تَحْتَسِبْ يَادَهُ أَى ضَارِعٍ • لِنَكْبَةٍ تَسْرِفُنِي عَرَقَ الْمُنْدَى
مَارَسْتَ مَنْ هَوَتْ الْأَفْلَاحُ مِنْ • جَوَائِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا
لَكُنْهَا قَفْصٌ مَضْسُودٌ إِذَا • بَاشَ لُثَامٌ مِنْ نَوَاحِيهَا عَمَا

قوله تعالى : (وَجِئْنَا بِضَاغَةٍ) البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ؛
تقول : أبضعت الشيء وأستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفي المثل : كستبضع التمر
إلى حجره .^(١٦)

قوله تعالى : (مُزَجَّجَةً) صفة لبضاعة ، والإجراء السُّوق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى :
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ النَّاسَ » والمعنى أنها بضاعة تدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب :
البضاعة المزججة النافضة غير التامة . وأختلف في تعيينها ؛ فقيل : كانت قديداً وحشاً ؛ ذكره
الواليدى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . وقيل : خلق الفرائر والحيال ؛ روى عن
أبي حنيفة . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة
المنجزة والصنوبر وهو البطم ، حب شجر بالشام ، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون ،
قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تنفق في الطعام ، وتنفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : أخذنا منا
بحساب جباد تنفق في الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله أبو حنيفة أيضاً . وقيل : ليس
رطلها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : التال
قوالادام ؛ ومنه كانت سوطها متخللاً . والله أعلم .

(١٦) إلقاء ؛ فلهذا ؛ وهو ما يقفه الكبير من له ؛ ولما ؛ سقط ؛ فقال : لما الكبير الراد إذا رماه شخص رابحاً
ومستحق . (١٧) حمراء ؛ مدينة بالبحرين .

قوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون كما نبيع بالدرهم الجياد لا بتقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جرير : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيه . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى تفضل علينا بما بين سحر الجياد والريثة ، قاله سعيد بن جبير والسدي والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدق علينا » بالزيادة من حقنا ؛ قاله سفيان بن عيينة . قال مجاهد : ولم نعلم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جرير : المعنى « تصدق علينا » برؤاينا لنا . وقال ابن خزيمة : « تصدق علينا » بمجوزنا ؛ وأستشهد بقول الشاعر :

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا أَبْنَ قُحَّانَ وَأَخْنَسِبْ . وَأَتَمِّرْ عَلَيْنَا الْأَشْمَرِيَّ لَيْسَانِيَا

(إِنَّ اللَّهَ يَمْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) بنى في الآخرة ؛ يقال : هنا من معارضى الكلام ، لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فذلك لم يقولوا : إن الله يميزك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوجهه إليهم أراؤهم ، وهم يصح لهم إخراجها بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفي الحديث : « إِنْ فِى الْمَارِضِ لَمُنْدُوحَةٌ مِنَ الْكَذِبِ » .

الثانية - استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيل على البائع ؛ قال ابن القاسم وأبو نافع قال مالك : قالوا ليوسف « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوزان والمئاد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع حقة مملوئة من طعامه ، وأوجب للبعد عليه ، وحسب عليه أن يبرزها ويميز حتى المشتري من حقه ، إلا أن يقع منه غشاً - صفة أو ما لا حق توفيقه - غفل بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المباح ، وليس كذلك ما فيه حق توفيق من كيل أو وزن ، ألا نرى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفيق ، وإن تلف فهو منه قبل التوفيق .

(١) الماريس : جمع مراض ، من مرضى وهو خلاف الصريح من القول .

الثالثة - وأما أجرة النقد فعلى البائع ؛ لأن المتاع الدافع لمرامه بقوله : إنها عليه
لأن الذي تدعى الرضاة فأنظر نفسك ؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه ، وكذلك
لا يجب على الذي عليه القصاص ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه ، إلا أن يمكن من
ذلك طائفا ، ألا ترى أن قرضا عليه أن يغدى يده ، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك
منه ، فاجر القطار على المقتص . وقال الشافعي في المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبايع .
الرابعة - يكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدق عليّ ؛ لأن الصدقة إنما
تكون من بيني وبينك ، والله تعالى متفضل بالتواب بجميع النعم لا رب غيره ؛ وسمع الحسن
وجلا يقول : اللهم تصدق عليّ ؛ فقال الحسن : يا هذا ! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق
من يرضى التواب . أما سمعت قول الله تعالى : « إن الله يمسئ التصدقين » قل : اللهم
أعطني وتفضل عليّ .

قوله تعالى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
جَاهِلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا أَوَ لَمْ نَكُنْ لَكَ يَوسُفُ قَالِ أَنَا يَوسُفُ وَهَذَا أَخِي
قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَشَقْ وَيَصْرِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَازَلَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿١٧﴾
قَالَ لَا تَتَرَبَّعَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٨﴾
كُذِّبُوا بِمِيعَتِهِ هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ
لَتُحْمِيَنَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) استغفام بمعنى التذكير
والترقيق ، وهو الذي قال الله : « لَتُحْمِيَنَ بِأَهْلِكُمْ » . (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) دليل على أنهم

(رَأَى لَوْنَهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ، كَأَن تَقَرَّبَ الْقُرْبَانِ)

كانوا صغارا ووقت احلهم ليوسف، مراحياه، لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كلفت هذه صفته؛ ويدل على أنه حلت عالم الآن، أى فلتك ذلك إذ أتت صفات جهال، قال معاه ابن عباس والحسن، ويكون قولهم: « وإن كنا غلاطين » على هذا، لأنهم كبروا ولم ينجبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تؤول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: (قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) لما دخلوا عليه فقالوا: « مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ » فخصوا له وتواضعا رفق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه » فتنبهوا فقالوا: « إنيك لأنت يوسف » قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف قِيمَ فشيئوه بيوسف واستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأن ثنياء للؤلؤ المنظوم — فشيئوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: « إنيك لأنت يوسف ». وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان يعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: « إنيك لأنت يوسف ». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب رد أبنه، وفي الكتاب: من يعقوب صني الله أن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنا أهل بيت بلاء وعين، ابتلى الله جدى إبراهيم بمرود وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم ابتلى بولد كان لي أحب أولادى إلى حتى كُفَّ بعصرى من البكاء، وإني لم أسرق ولم أله سارقا والسلام. للمصنف

يوسف الكتاب آرتعدت مفاصله، واقشمت جلده، وأرضى عليه بالبكاء، وعجل صبره لباح بالسر. وقرا ابن كثير « إنك » على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » . (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) أى أنا المظلوم والمراد نفسه، ولم يجل أنا هو بمطليا للقصة. (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) أى بالنجاة والملك. (إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ وَبَيْنِ) أى بين الله وبصرى على المصائب وعن المصطفى: (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ) أى الصالحين في بلائه، الفاعلين بطاعته. وقرا ابن كثير « إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ » بإثبات الياء، والقراءة به جائزة على أن تحصل

صلى على النبي، ويخجل، يتق، في الصلاة، فقلت ليله لا همه، ونعاج، وصبر، وله
 هذا أن يجزم، وصبر، على أن يجمل، يتق، في موضع جزم، ومن، للشرط، وسبت
 الياء، وتجمل علامة الجزم حذف الفضة التي كانت في الياء على الأصل، كما قال،
 ثم نادى إذا دخلت دمشقاً، يا يزيد بن خالد بن يزيد

وقال أخسر.

الم يأتيك والآنبياء تنبي، بما لاقت لبون بني زياد

وقراءة الجملة ظاهرة، والماء في «إله» كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى: (قَالُوا تَأَنَّهُ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا) الأصل همزان خففت الثانية، ولا يجوز
 تحقيها، وأسم الفاصل مؤنر، والمصدر إشار، ويقال آثرُ التراب إثارة فانا مشير، وهو
 أيضا على أنقل ثم أيل، والأصل أثير فقلت حركة الياء على التاء، فاقبلت الياء الفاء، ثم حذف
 لاقتفاء الياء كين، وآثرُت الحسيت على قُلْتُ فانا آثرُ، والمعنى: لقد فضلك الله علينا،
 واختارك العلم والحلم والحكم والعقل والملك، (وَبِأَن تَكُنَّا نَقَاطِيْنِ) أي مذنين من خيل
 خطا إذا أتى الخطيئة، وفي ضمن هذا سؤال المفسر، وقيل لابن عباس: كيف قالوا
 «وَبِأَن تَكُنَّا نَقَاطِيْنِ» وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطئوا؟
 الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تحطى المنهاج الذي عليه من الحق، حتى يقع في الشبهة والمعضية.

قوله تعالى: (لَا تُتْرَبُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) أي قال يوسف - وكان حليبا مرقفا - :
 «لا تترك عليكم اليوم» وتم الكلام - ومعنى «اليوم»: الوقت، والتربية التمييز
 والتوبيخ، أي لا تميز ولا توبخ ولا لوم عليكم اليوم، قاله سفيان الثوري وغيره؛ ومنه قوله
 عليه السلام: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يترب عليها» أي لا يسلها، وقال بشر:
 فعفوت عنهم عفو غير مترب، وتركهم لعقاب يوم سبريد

(١) كذا في الأصل وإعراب القرآن للناس، ويلاحظ أن من قبل دارلا، وعليه فالأصل آثر، فقلت حركة
 الواو إلى ما فيها فقلت أفا، ثم حذف - مع اتصال الفعل بضم متحرك - لاقتفاء الياء كين.

وقال الاعمى : تربت عليه وهرمت عليه بمنى لانا فبحت عليه فله . وقال الزجاج : للمنى لا إفساد لما بنى وينكم من الحرمة ، وحق الإخوة ، ولكم عندى العفو والصفح ، وأصل التزييد الإفساد ، وهى لنة أهل الجحاز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بمضادنى الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناس بالبيت فقال : «الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال : «فلما نظنونا يا معشر قريش قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت» قال : «وأنا أقول كما قال أنى يوسف ولا تريب عليكم اليوم» فقال عمر رضى الله عنه : فيضت حرقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك أنى كنت قد قلت لم حين دخلت مكة : اليوم نلتكم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استعيت من قولى . (يقفر الله لكم) مستقبل فيه معنى الدعاء ، سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على «عليكم» والاول هو المستعمل ، فإن فى الوقف على «عليكم» والابتداء به «اليوم يغفر الله لكم» بحر بالمغفرة فى اليوم ، وذلك لا يكون إلا من وحى ، وهذا بين . وقال عطاه انحراساى : طلب الخواص من الشباب أسهل منه من الشيوخ ، ألم تر قول يوسف : «لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» وقال يعقوب : «سوف أستغفر لكم ربى» .

قوله تعالى : (أذهبوا بقميصي هذا) نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فاما قول الشاعر :

تدعو هوزان والقميص مفاضة . فوق النطاق نُسْدُ بالأزاري

فتقديره : (والقميص) ذرع مفاضة . قاله النحاس . وقال ابن السدى عن أبيه عن مجاهد : قال لم يوسف : أذهبوا بقميصي هذا فالفوه على وجه أبى يأت بصيرا . قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يرذ على يعقوب بصره ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى أبسه الله فى النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسمحق ، وكان إسمحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قمصة من فضة وعلقه فى عنق يوسف ، لئلا كان يخاف عليه من

هسين، واخبره جبريل بان ارسل فيصك ان فيه ريح الحبة، وريح الحبة لا يقع على علم ولا مئيل الا فوق . وقال الحسن : لولا ان الله تعالى اعلم يوسف بذلك لم يعلم انه يرجع اليه بصره ، وكان الذي حمل فيه يهوذا ، قال ليوسف : انا الذي حملت اليه فيصك بدم كذب فاحترته ، وانا الذي احله الآن لاسره ، وابعود اليه بصره ، فحمله ، حكاه السدي . (وانوني بأهلكم أجمعين) لتخذوا مهر دارا . قال سروق : فكانوا ثلاثة وفسمين ، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : ان القميص الذي بثه هو التميمي الذي قُذ من ذره ، يعلم يعقوب انه عصم من الرنى ، والقول الاول اصح . وقد روى مرفوعا من حديث انس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره القشيري والله اعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَ الْيَعْقُوبُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أُنْتَفِدُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا تَكَلَّهِ إِنَّكَ لَنِي ضَلُّكِ الْقَدِيمِ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أُنْجَاءَ الْيَسْمُ أَلْقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْسُفُ نَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن مَشَاءَ اللَّهِ ءَامِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا فَصَلَ الْيَعْقُوبُ) أي خرجت مطلقا من مصر الى الشام ، يقال : فصلت فصولا ، وفصلته فصلا ، فهو لازم ومتعد . (قَالَ أَبُوهُمْ) أي قال لمن حضر من قريته من لم يخرج الى مصر ومولد له : (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) . وقد يحتمل أن يكون نرج بعض بنيه ، فقال لمن بقى : (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْتَدُونَ) . قال ابن عباس : هاجت ريح خلعت ريح قميص يوسف اليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشرين ليال .

وعنه أيضا سيرة شهر . وقال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريمه من أوصل عرش
لقبيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : حبت ريم فصنفت القبيص
فراحت روايح الجنة في الدنيا واتصلت يعقوب ، فوجد ريم الجنة فعلم أنه لين في الدنيا من
ريم الجنة إلا ما كان من ذلك القبيص ، فعند ذلك قال : « إني لأجد » أى أتمم فهو وجود
حاسة الشم . « لولا أن تُفندون » قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُفندون ومنه قول النابغة :
إلا سليمان إذ قال للمليك له . فم في البرية فأحدها عن الفند
أى عن السقه . وقال سعيد بن جبير والضحاك : لولا أن تكذبون . والفند الكذب . وقد
أفند إناذا كذب ومنه قول الشاعر :

هل في اختيار الكريم من أريد . أم هل لقول الصدوق من فند

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُفندون قاله أبو عمرو ، والفند التضييع ، قال الشاعر :

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدى . فليس ما قلت من أمرى يبردى

وقال ابن الأعرابي : « لولا أن تُفندون » لولا أن تُضَمَّفُوا رَأْيِي ، وقاله ابن إسحق . والفند
ضعف الرأي من كبر . وقول راج : تُضَلَّلُونَ ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوين
والفند اللوم وتضعيف الرأي . وقال الحسن وقادة ومجاهد أيضا : تُهْرَمُونَ ، وكه متغارب
المعنى ، وهو راجع إلى التمجيز وتضعيف الرأي ، يقال فنده تفنيدا إذا عجزه ، كما قال ب
• أهلكنى باللوم والتفنيد •

وقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ، والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

... فأحدها عن الفند •

أى آمنها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ، قال الشاعر

يا عاتق دعا المَلَّامَ وأقصرًا • طال المسوى وأطال التفنيد

(١) صفت الرجلى . وصفت إذا قلت بها رثما لا ردة . (٢) شبه الشاعر الملام بمدة سلاط
عليه السلام لعظم ملكه ، وقيل البيت :

ولا أرى قاتلا في الناس يشبه • ولا أحافى من الأنعام من أحم

(٣) أده : مرج .

ويقال : أفند فلاناً للدهر إذا أمدده؛ ومنه قول ابن مقبل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فَإِنَّهُ • إِذَا كُفِّ الْإِفْنَادُ بِالْحَسَنِ أَفْنَتَا

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَأَنَّهُ إِنَّكَ لَنِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ أى لنى ذهاب عن طريق الصواب .
وقال ابن عباس وابن زيد : لنى خطيئتك الماسية من حب يوسف لانتشاء . وقال سعيد بن
جبير : لنى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا حقوف . وقال قتادة وسفيان : لنى بحبك
القديم . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى
قال له ذلك من بنى معه من ولده ولم يكن عندهم الخير . وقيل : قال له ذلك من كان معه
من أهله وقربائه . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغاراً ، فافقه أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرَ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى على عييه . ﴿ فَأَرَادَ يَصِيرَ ﴾
« أَنَّهُ زَائِمَةٌ ، وَالْبَشِيرُ قِيلَ هُوَ شَمُون . وقيل : يونا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ
به مُطْلَعًا بِاللَّيْلِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَمَنْ السَّيِّئُ أَنَّهُ قَالَ لِإِخْوَتِهِ : قَدْ طَلَمْتُ أُنَى ذَهَبْتُ إِلَيْهِ
بِقَمِيصِ الثَّرَمَةِ فَهَوْنَى أَذْهَبُ إِلَيْهِ بِقَمِيصِ الثَّرَمَةِ . وقال يحيى بن يمان عن سفيان :
لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : هل أى دين تركت يوسف ؟ قال : هل الإسلام ؟ قال :
الآن تمت الصلوة ؟ وقال الحسن : لما ورد البشير هل يعقوب لم يجد عنده شيئاً يشبه به ؛
فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئاً ، وما خبزنا شيئاً منذ صبح ليلال ، ولكن هوذا الله عليك
سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجواز ، وأفضل المطايا والبشائر . ودلت هذه
الآية على جواز البذل والمجبات عند البشائر . وفي الباب حديث كعب بن مالك - الطويل -
وفيه : « فلما جاءني الذى سمعت صوته يشترى رزمت ثوبين فكسوتهما إياه ببشائره » وذكر
الحديث ، وقد تقدم بكا له في قصة الثلاثة الذين خفلوا ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه
ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا أُرغى حصول ما يستشربه ، وهو دليل على

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح . ومن هذا الباب جواز حنافة الصبيان ، وإطعام الطعام فيها ، وقد تحرر عمر بعد سورة « البقرة » جزوا : والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَمْ أُقِلُّ لَكُمْ إِلَىٰ أَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذكرهم قوله : « إِنَّمَا أَشْكِرُ بِنِّ وَحَرَّرَنِي إِلَىٰ اللَّهِ وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَا نَسْرِ مَاذَا جِئْنَاكَ بِكَ دُنُوْنَا إِنَّا نَكْرَاهُكَ خَلْفَ الْعُتْبَرِ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ مِصْرَ قَالُوا يَا أَبَانَا وَهَذَا بَدُلٌ مِّمَّا أَن لَقِيَ قَالَ لَهُ : « اللَّهُ إِنَّكَ لَتَقِي خَلَائِكَ الْقَدِيمَ » بَنُو بَنِيهِ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ قُرَابَتِهِ وَأَهْلُهُ لِأَوْدَانِهِ ؛ لِإِنَّهُمْ كَانُوا قُرَابًا ، وَكَانَ يَكُونُ ذَلِكَ لِيَأْتِيَهُ فِي الْمَقْبُورِ . والله أعلم . وَإِنَّمَا سَأَلُوهُ الْمُنْفَرَةَ ، لِأَنَّهُمْ لَدَخَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَحْزَنِ مَا لَمْ يَسْطِطِ الْمَاتِمُ عَلَيْهِ إِلَّا بِإِحْلَالِهِ .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غيره ذلك ظلالاً له ، فإنه يجب عليه أن يتحمل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، فإنه لو أخبره بمظلمة لما قدر وبأل ربما لم تطب نفس المظالم في التحمل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخاري وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٌ فَلْيَحْلُلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ مِثَالُ حَبْلٍ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ مِثْلَاتِ سَاحِبِهِ بِمِثْلِ عَلَيْهِ » قال المهلب فعوله صلى الله عليه وسلم : « أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ » يجب أن تكون المظلمة معلومة التقدر مشاراً إليها مينة ، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَفْتِي لَكُمْ رَبِّي ﴾ قال ابن عباس : أئتم دعاه إلى السحر . وقال المنشي بن الصباح عن طاوس قال : تحرق ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفي دعاء الحنظلي - من كتاب الترمذي - عن ابن عباس أنه قال : يجتنب نحن عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: - يا بني أنت وأمي -
 قُلْتَ هذا القرآن من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت في صدرك "
 قال : أجل يا رسول الله ! فعلمني ؛ قال : " إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث
 الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال ابن عقيوب لبنيه « سوف
 أستغفر لكم ربى » يقول حتى تاتي ليلة الجمعة " وذكر الحديث . وقال أيوب بن أبي تميمة
 السجستاني عن سعيد بن جبير قال : « سوف أستغفر لكم ربى » في الليالي البيض ، في الثالثة عشرة ،
 والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشعبي قال : « سوف
 أستغفر لكم ربى » أى أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرت لكم ربى ؛ وذكر مُسَيَّد بن داود
 قال : حدثنا هشام قال حدثنا عبد الرحمن بن إسحق عن عمار بن دثار عن حمه قال :
 كنت آتى المسجد في السحر فأمر بدار بن مسعود فاسمعه يقول : اللهم إني أُمِرْتُ
 فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سحرٌ فأغفر لي ، فقلت ابن مسعود قُلْتَ : كلمات أسلمك
 تقولن في السحر ؟ فقال : إن يعقوب أنس بنيه إلى السحر بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » .

قوله تعالى : (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ) أى قَصْرًا كان له هناك . (أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)
 قيل : إن يوسف بنت مع البشير ما تولى راحلة وجهازا ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده
 جميعا ، فلما دخلوا عليه أوى إليه أبويه ، أى ضمهم ، وبني باويه أباه وخالته ، وكانت أمه
 قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله أمه تحقيقا للرؤيا حتى أصبحت له ، قاله
 الحسن ؛ وقد تقدم في « البقرة » أن الله تعالى أحيا لنيه عليه السلام أباه وأمه فأما به .

قوله تعالى : (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ) قال ابن جرير : أى سوف أستغفر لكم
 ربى إن شاء الله ؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره ؛ قال النحاس : يذهب ابن جرير إلى أنهم
 قد دخلوا مصر فكيف يقول : « ادخلوا مصر إن شاء الله » . وقيل شأما قال « إن شاء الله »
 ثمكًا وخشًا . كنعين . من القنط ، لو من فرعون ، وكفوا لا يبطوننا إلا بحولنا .

قوله تعالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ مُجْتَدِعًا وَقَالَ تَاجِبٌ
هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي
إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَجَّ الشَّيْطَانُ
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) قال قتادة : يريد السرير ، وقد تقدمت محامله ،
وقد يُعبر بالعرش عن الملك والمالك نفسه ، ومنه قول النابغة الذبياني :
• عُروشٌ تقاتلونَ بديعاً وأمنية •

وقد تقدم ^(١) .

قوله تعالى : (وَخَرُّوا لَهُ مُجْتَدِعًا) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَخَرُّوا لَهُ مُجْتَدِعًا » الهاء في « خَرُّوا لَهُ » قيل : إنها تعود على الله
تعالى ، المعنى : وخرّوا شكراً لله مجتدعاً ، ويوسف كالمثبته لتحقيق رؤياه ، وروى عن الحسن ،
قال النقاش : وهذا خطأ ، والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : « رأيتهم
على ساجدين » . وكان تحيته أن يسجد الوضع للشريف ، والصغير للكبير ، مجتدعاً بغير وساطة
وإخوته ليوسف عليه السلام ، فاشتد جلده وقال : « هذا تأويل رؤيائي من قبل » وكان بين
رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسي : وجد الله بن شداد :
أربعون سنة ، قال عبد الله بن شداد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قتادة : خمس
وثلاثون سنة . وقال السدي وسعيد بن جبهر عكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجمهر
أبن فرقد وقُتَيْب بن جِاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن منبه : ألقى يوسف في الحب وهو
أبن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد أن ألقى في الحب ثلاثاً وخمسين

سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي الثوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورجة امرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أوجهة سنة . وقيل : إن يعقوب بن عبد يوسف عشرين سنة ، ثم توفي صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانية - قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن - في قوله « وَتَرَوْا لَهُ نَجْدًا » - قال : لم يكن مجبودا ، ولكنه سنة كانت فيهم ، يؤمنون برعوسهم إسماء ، كذلك كانت تحميمهم . وقال الثوري والضحاك وغيرهما : كان مجبودا كالسجود المهود عندنا ، وهو كان تحميمهم . وقيل : كان أكتناه كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ؛ وهكذا كان سلامهم والتكفي والأكتناه ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الأكتناه . وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فلأنما كان تحية لأعبادة ؛ قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هذا الأكتناه والتكفي الذى نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العرب ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أنت أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه أنه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا التفتوا أنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، وورثة مستقرة ، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء ؛ تكبوا عن السير ، وأعرضوا عن السن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التفتنا ؟ قال : « لا » ؛ قلنا : أينحنى بعضنا بعضا ؟ قال « لا » . قلنا : أفصالح بعضنا بعضا ؟ قال « نعم » . أخرجه أبو عمر في « التهيد » . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم وخيركم » - يعني سعد بن معاذ - قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المنيعة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم ليقولوه عن المحارب ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه فإن لتأثيره وأعجب به ورأى لنفسه سخطا لم يحز عنه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سره أن يتجمل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار " وجاء عن السماعية رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهه أكرم عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك

الثالثة - فإن قيل : لما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك طائر إذا بسد حنك ، لتعين له به وقت السلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تشبه بفرتا فليس منا " . وقال : " لا تسلموا تسليماً اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكف والنصارى بالإشارة " . وإذا سلم فإنه لا يحنى ، ولا أن يُقبل مع السلام يده ، ولأن الاختلاء حل معنى التواضع لا يبنى إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يقيمون حل أنعام التي أحدنوها نظماً منهم لكبرائهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تقوموا عند راسي كما تقوم الأعاجم عند رموس أكابرهم " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صاغ النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصالحوا يذهب البئ " وروى غالب التميمي عن الشعبي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التفتوا تصالحوا ، وإذا قدموا من سفر تصالحوا ، فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا ؛ روى ابن وهب عن مالك أنه كره للمصافحة والمعاقة ؛ وذهب إلى هذا مجنون وضربه من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في اللوطا ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدين ، ولا متوقفاً على السلام ؛ ولو كانت منه لا يستوي معه . قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترفيف فيها ، والآداب عليها والمحافظة ؛ وهو ما رواه البهائم بن مازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي قلت : يا رسول الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : " نحن أحن بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الحب استنبالا
للكرم ؛ لئلا يذكر إخوته ضيعهم بعد عفوه بقوله : « لا تريب عليكم » .
قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذكر الجفا في وقت الصفا جفاً ؛ وهو قول
صحيح دل عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ » وكان في الحبِّ برادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن
مع اللصوص والمصاة ، وفي الحب مع الله تعالى ؛ وأيضاً فإن المنة في النجاة من السجن كانت
أكبر ؛ لأنه دخله بسبب أمرهم به ؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ
إِلَيَّ » فكان الكرب فيه أكثر ؛ وقال فيه أيضاً : « أذكرني عند ربك » فعوقب فيه .
﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدَا ﴾ يروى أن سكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبرية ؛
وقيل : كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية . وقيل :
أنه كان يخرج إلى بئرا ، وهو موضع ؛ وإياه حتى جبل بقوله :

وَأَنْتَ الَّتِي حَبَبْتَ شَجْباً إِلَى بَدَا . « إلى وأوطاني بلاد شواهب »

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بدأ القوم بدؤاً إذا أتوا بدأ ، كما يقال :
قارروا غوراً أي أتوا الغور ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بدأ ؛ ذكره القشيري ، ونحوه
الماوردي من الضحالك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَدَا أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾
بإيقاع الحسد ؛ قاله ابن عباس . وقيل : انسدا بيني وبين إخوتي ؛ أحال ذنبهم على الشيطان
فكرتوا منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي رفيق بعباده . وقال الخطابي : اللطيف هو البر
بعباده الذي يطفئ بهم من حيث لا يملكون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يمتنبون ؛
مقوله : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد
هنا الإكرام والرزق . قال قتادة : لطف يوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو
وزوج من قلبه تزج الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وقارن أرض مصر
وكان ذلك يوسف أسكنه فرعون ، وأسمه إلى ابنه ؛ لأن الله في خلقه يعقوب وأخوته

﴿ لَهَا شَبَّهَ وَوَجَّعَ مِنْ أَلَمِهَا شَبَّهَ » . ﴿ وَرَبِّي يَوْمَ ذِي قَرْنٍ ﴾

بقدمه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ، ونخرج يوسف والملاك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم ، وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشي متكئا على يد يهوذا ، فنظر يعقوب إلى انجيليل والناس ، والساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبداه بالسلام فقال : السلام عليك يا مُدْهِبِ الأحرار ، وبكى وبكى معه يوسف ، فابتدأ يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يا مُدْهِبِ الأحرار ، وبكى وبكى معه يوسف ، فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لما رأى بآبيه من الحزن ، قال ابن عباس : قال بكاء أربعة : بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرج ، وبكاء رياه . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذي أقر عيني بعد العموم والأجزان ، ودخل مصر في اثنين وعشرين من أهل بيته ، فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف وثيف ألف ، وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام . رواه حَكِيمَة عن ابن عباس . وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وأمرأة ، ونخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألفا . وقال الربيع بن خثيم : دخلوا وهم اثنان وسبعون ألفا ، ونخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وأمرأة وصغير ، ونخرجوا منها مع موسى قرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وثمانمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سوى الذرية والمهرج والزنبي ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة في أحبط جال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام فعلم ، ثم أنصرف إلى مصر . قال سعيد بن جبير : قال يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عيسو ، فدفن في قبر واحد ، فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، من قبل ذلك منهم ، وولد يعقوب ويعصو في بطن واحد ، ودفن في قبر واحد ، وكان حمولا جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة .

(١) أي منه يعقوب عليه السلام لأنهم في مصر ، قاله ابن جرير . وقاله ابن جرير . وقاله ابن جرير .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

ر . تعالى : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) قال قتادة ،
لم يمت الموت أحد ، نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ، حين تكلمت عليه النعم وجمع له
الشمس اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل . وقيل : إن يوسف لم يمت الموت ، وإنما تمنى
الوفاة حل الإسلام ، أى إذا جاء أجلى توفى مسلما ، وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن
عبد الله الشنقى : لا يتخى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يخش
من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق عجب للقاء الله عز وجل ، وثبت في الصحيح عن أنس قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتخى أحدكم الموت لضرر نزل به فإن كان لابد متقيا
قليل ألهم أخيه ما كانت الحياة خيرا له وتوفى إذا كانت الوفاة خيرا له » رواه مسلم . وفيه
عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتخى أحدكم الموت ولا يدع به
من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم أقطع عمله وإنه لا يزيد للؤمن عمره إلا خيرا »

وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تئى الموت وانخرج من الدنيا وقطع
لعمله ؟ هنا جيب : إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا في شرعه ، أما أنه يجوز تخى الموت
والدعاء به عند ظهور الفتن وظلماتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيناه في كتاب « التذكرة » ،
« من » من قوله : « من الملك » لتبعض ، وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ »
لأن ملك مصر ما كان كل الملك ، وعلم التفسير ما كان كل العلوم . . . وقيل : « من » لنفسه ،
كقوله : « فَأَجْتَبَاهُ الرَّجُلُ مِنَ الْأَوْدَانِ » . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتني
تأويل الأحاديث ،

(١٠١) قيل : وجه حذفه من النص من حيث أنه بنى على . وقال ابن جرير : ليس به إلا أن الأول نسي
من قوله : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : (فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) نصب على التعت للتثناء ، وهو وبه : وهو تلاء مضاف ، والتقدير : يارب ! ويجوز أن يكون تلاء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبدئها ومشتبها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ، ولا مثال سبق ؛ وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ؛ عند قوله : « يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح اسماء الله الحسنى . (أَنْتَ وَلِيِّى) أى ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة . (تَوَكَّلْ عَلَىَّ وَالْحَقِّى بِالصَّالِحِينَ) يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ؛ وذلك أنه لما مات شاح الناس عليه ؛ كلُّ يحب أن يدفن فى تحتهم ، لئلا يرجون من بركته ؛ واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفنه فى النيل من حيث مفترق الماء بمصر فيميز عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شرا ففعلوا ؛ فلما : نزع موسى بنى إسرائيل أنحره من النيل ، ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوتهم : « وَالْحَقِّى بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : أتى يوسف فى الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والنسج والملك ثمانين سنة ، ثم جمع له شمله ففاح بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ فى قول ابن طيعة . قال الزهرى : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون ، وهو نقي موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى طيه السلام ؛ فكان بعده نينا ، وهو الذى أنتج أريحا ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، وأستوقت له الشمس حسب ما تقدم فى « المائدة » . وولد للنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران ؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى نرق

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ ما بعد طبع ٢٠٠

(٢) راجع ج ٦ ص ١٢٠ ما بعد طبع

السفينة، وغسل القلاهم وبنى الجدار، وموسى بن ملشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان
 حين عيسى ينكر ذلك؛ ولحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف
 وموسى أم وقرينة، وكان فيما بينهما شعب، صلوات الله عليهم أجمعين.

أقوله تعالى: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ**
لَتُبَيِّنَهُمْ إِذْ أُجْمِعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ
وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾

أقوله تعالى: **(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ)** ابتدأه وخبر: **(نُوحِيهِ إِلَيْكَ)** خبر ثان. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، و«نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبره؛ أى «لأن من أنباء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ» يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أن بار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أى تعاملك يوحى هذا إليك. **(وَمَا كُنْتَ لَتُبَيِّنَهُمْ)** أى مع إخوة يوسف **(إِذْ أُجْمِعُوا أَمْرَهُمْ)** فى الفاء يوسف فى الحب. **(وَهُمْ يَمْكُرُونَ)** أى بيوسف فى إقامته فى الحب. وقيل: «يَمْكُرُونَ» يعقبون حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم؛ أى ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أعلمك عليها.

أقوله تعالى: **(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)** ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فتركت الآية تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أى ليس تغدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حرص يحرص، مثل: ضارب يضرب. وفى لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمّد. والحرص طلب الشيء باختيار.

أقوله تعالى: **(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)** ومن «صلة» أى ما تسألم جُملًا. **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ)** أى عظة وذكورة **(لِّلْعَالَمِينَ)**.

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٥٧﴾
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥٨﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعْتَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : (وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال الخليل وسيويه : هي
« آية » دخل عليها كاف التشبيه وبُيِّنَ معها ، - فصار في الكلام معنى كَم ، وقد مضى
في « آل عمران » القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية « السموات والأرض » في « البقرة » .
وقيل : الآيات آثار عظام الأئمة السالفة ؛ أي هم فاعلون معروضون عن تأملها . وقيل
حكمة وعمرو بن خالد « وَالْأَرْضِ » رفعا أبشلاء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدي
« وَالْأَرْضِ » نصباً بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن
مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) زلت في قوم اتقوا بالله
خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعاصم والشعبي
وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ثم يصغونه
بغير صفته ويعلمون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان ،
لمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنباري . وقال
ابن عباس : زلت في طيبة مشركي العرب ؛ لئيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه
وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وحده أيضا أنهم المشجعة ، آمنوا بجملا وأشركوا

(١) جامع ٤ ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعه أدلة دار الفقه .

(٢) جامع ٤ ج ٢ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعه دار الفقه .

مُفَصَّلًا وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أَيْ بِاللَّسَانِ إِلَّا وَهُوَ كَافِرٌ بِقَلْبِهِ ؛ ذَكَرَهُ الْمَسُودِيُّ عَنْ الْحَسَنِ أَيْضًا . وَقَالَ عَطَاءُ : هَذَا فِي النَّبَاءِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَفَّارَ يَسْتَوِي رَبِّهِمْ فِي الرَّعَاءِ ؛ فَإِذَا أَصَابَهُمُ الْبَلَاءُ أَخْلَصُوا فِي النَّبَاءِ ؛ بَيَانُهُ : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْبَبُ إِلَيْهِمْ » الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ » الْآيَةُ ؛ وَفِي آيَةٍ أُخْرَى : « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُكِّرًا بَعْضُهُ » . وَقِيلَ : مَعْنَاهَا أَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ بِحَبِيبِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؛ فَإِذَا أَنْجَاهُمْ قَالَ قَائِلُهُمْ : لَوْلَا فَلَانٌ مَا جِئْتُمَا ، وَلَوْلَا الْكَلْبُ لَسَخِلَ عَلَيْنَا اللَّصُّ ، وَنَحْنُ هَذَا ؛ فَيَجْمَعُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ مَنسُوبَةً إِلَى فَلَانٍ ، وَوَقَائِدَهُ مَنسُوبَةً إِلَى الْكَلْبِ .

قُلْتُ : فَدِيقَعٌ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَالَّذِي قَبْلَهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قِصَّةِ الدُّخَانِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَمَّا غَشِيَهُمُ الدُّخَانُ فِي سَنَةِ الْقَحْطِ قَالُوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ ، وَشَرَكُوهُمْ عَوْدَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ ؛ بَيَانُهُ قَوْلُهُ : « إِنَّكُمْ كَاذِبُونَ » وَالْمَسُودِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ ابْتِدَاءٍ ؛ فَيَكُونُ مَعْنَى « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أَيْ إِلَّا وَهُمْ كَاذِبُونَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَجْلَلَةٌ . وَقَالَ جَاهِدٌ : عَذَابٌ يَنْشَاهُمْ ؛ تَطْلِيهِمْ « يَوْمَ يَنْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قُوفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وَقَالَ قَتَادَةُ : وَفِيهِ تَقَعُ خُمْ . وَقَالَ الضَّبْحَاكُ : يَعْنِي الضُّوَالِقَ وَالْقَوَارِعَ . « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ » يَعْنِي الْقِيَامَةَ . « بَغْتَةً » نَسَبَ عَلَى الْحَالِ ؛ وَاصِلُهُ الْمَصْدَرُ . وَقَالَ الْمُبَرِّدُ : جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ حَالٌ بَعْدَ نَكْرَةٍ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : وَقَعَتْ أَمْرُهُمْ بَغْتَةً وَبَغَاءَةً ؛ قَالَ النُّعْمَانُ : وَمَعْنَى « بَغْتَةً » لِمَا صَايَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَتَوَقَّعْ . « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » وَهُوَ تَوْكِيدٌ . وَقَوْلُهُ « بَغْتَةً » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَصْبِيحُ الصَّبِيحَةِ بِالنَّاسِ وَهُمْ فِي أَسْرَاقِهِمْ وَوَأَضْمَهُمْ ، كَمَا قَالَ : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » عَلَى مَا يَأْتِي .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وحيد أى قل يا محمد هذه طريقى وسبيلى ومنهاجى ،
فاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوى . مقاتل : دعى ، والمعنى واحد ، أى الذى أنا عليه
والدهو إليه يؤدى إلى الجنة . ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أى على يقين وحق ، ومنه : فلان مستبصر بهذا .
﴿أَنَا﴾ تأكيد . ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر . ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى قل يا محمد : «سبحان
الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يخفون من دون الله اننادا .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ
أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١١٠ حتى إذا
استبشس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ١١١

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا رد على
القاتلين : «لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجلا ليس معهم أمرأة ولا جنى ولا ملك ، وهذا
رد ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن في النساء أربع نيات حواء وآسية وأم
موسى وسريم» . وقد تقدم في «آل عمران» شيء من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن ،
لم يبعث الله نبيا من أهل البادية لئلا الجفاء والقسوة على أهل البدو ، ولأن أهل الأمصار
أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط ، ولا من
للنساء ، ولا من الجن . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أى من أهل الأمصار ، لأنهم
أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا أدبيا مدنيا ، وإنما قالوا أدبيا
مخزعا ، من قوله : «يُؤْتِيهِمْ مِنْ جَنِّينَ» والله أعلم .

أقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى مصارع الإنم المكتبة لأنبيائهم
 (يفتخروا؟) ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وغيره . وزعم القراء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف
 الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم النجيس ، و بارحة الأولى ؛ قال الشاعر
 « ولو أقوت عليك ديار عيس » عرفت اللؤلؤ عرقان اليقين

أي عرقانا بقينا ، وأخرج الكسائي بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع .
 قال العباس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعزف به ؛
 والوجود الصلاة الأولى ؛ ومن قال صلاة الأولى فعناه ؛ عند صلاة الفريضة الأولى ؛ وإنما
 سميت الأولى لأنها أول ما صل حين فرضت الصلاة ، وأول ما أظهر ؛ فذلك قيل لها أيضا
 الظاهر . والتقدير : ولدار حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛
 أي هي خير للثقلين . وقرئ « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » . وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا
 تَتَفَلَّحُونَ ﴾ بالناء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه (١٧) « وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا »
 وهذه الآية فيها تزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ،
 يفتني الوقوف عليه لئلا يزَلَّ الإنسان فيكون في مهواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد
 إلا رجالا لم نعاقب أهمم بالعقاب « حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » أي يسؤوا من إيمان
 قومهم « وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا » بالشديد ؛ أي إضنوا أن قومهم كذبهم . وقيل المعنى :
 خسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذبهم ، لَا أَنَّهُ الْقَوْمُ كَذَّبُوا ، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا
 أنهم يكذبونهم ؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك ؛ فيكون « وَظَنُوا » على إبه في هذا
 التأويل . وقرأ ابن عباس وأبو مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو جعفر بن القعقاع
 والحسن وقنادة وأبو ربيعة المطاردى وعاصم وحزرة والكسائي ويعبي بن قتاب والأعشى
 وخلف « كَذَّبُوا » بالتخفيف ؛ أي ظن القوم أن الرسل كذبهم فها أخبروا به من المناب ،

(١) في رواية : « فَكَانَ لِرَحَلَتِ «بَارِيس» : (٢) وأجبع ص ٢٤٥ من طة الجوز

ولم يصدقوا . وقيل : المعنى ظن الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم . وفي رواية عن ابن عباس ؛ ظن الرسل أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذا الرواية ؛ لأنه لا يظن الرسل هذا الظن ، ومن ظن هذا الظن لا يستحق النصر ؛ فكيف قال : (جامعهم نصراً) ؟ ! قال القشيري أبو نصر : ولا يبعد إن سمحت الرواية أن المراد خطر بقلوب البشر هذا من غير أن يحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : " إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به " . ويجوز أن يقال : قربوا من ذلك الظن ؛ كقولك ؛ بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر التلميذ والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشراً فضحفوا من طول البلاء ، وقسوا وظنوا أنهم أخلفوا ؛ ثم تلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » . وقال الترمذي الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعده الله ، ولكن تهمة النفوس أنه تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط والعهد الذي عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوي عن ابن عباس : ظنت الرسل أنهم قد أخلفوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رب أريني كيف تمضي المواعيد » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرا مجاهد وحيد — « قد كذبوا » بفتح الكاف والذال مخففاً ، على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ، لما رأوا من تفضل الله عز وجل في تأخير المذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا ؛ على الله بكمهم جاء الرسل نصراً . وفي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عز وجل : « حتى إذا استبأس الرسل » قال قلت : أ كذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم لما هو بالظن ؟ قالت : أجل ! لعزى ! لقد استيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وظنوا أنهم قد كذبوا » قالت : مناد الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بريها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم اتباع الرسل [الذين آمنوا] بهم . وصدقهم ، فطال عليهم البلاء ، وأسأخروهم النصر حتى إذا استبأس الرسل [

من كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم كذبهم جاءهم نصرنا عند ذلك .
وفى قوله تعالى : « جاءهم نصرنا » فولان : أحدهما - جاء الرسل نصر الله ؛ قاله مجاهد .
الثاني - جاء قومهم عذاب الله ؛ قاله ابن عباس . (فَتَجَى مِنْ نَسَاءً) قيل : الأنبياء ومن آمن
مهم . وروى عن عاصم « فَتَجَى مِنْ نَسَاءً » بنون واحدة مفتوحة الياء ، و « مَنْ » في موضع
رفع ، أسم ما لم يُسم فاعله ؛ وأختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان وسائر
مصحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ابن عيصم « فَتَجَا » فعل ماض ، و « مَنْ » في موضع
رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقرين نصباً على المفعول . (وَلَا يُدْ بَأْسًا) أى عذابنا . (عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ) أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْفَرُ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ
وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ) أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أو فى قصص
الأمم (عِبْرَةٌ) أى نكرة وتذكرة وعظة . (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) أى العقول . وقال محمد بن إسحق
عن الزهري عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا
وأربعين سنة ، وتوفى أخوه يوسف معه فى يوم واحد ، وقُفِرَ فى قبر واحد ؛ فذلك قوله :
« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » إلى آخر السورة . (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)
أى ما كان القرآن حديثاً يُفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثاً يُفترى . (وَلَكِنْ تَصْدِيقُ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ، وهذا تأويل
من زعم أنه القرآن . (وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ) ما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع
والأحكام (وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس وقادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما]

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ أَنْتَ الْكَافِرُ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ أَنْتَ الْكَافِرُ) تقدم القول فيها . (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ) يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك (مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ) لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، وأعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذي » في موضع رفع عطفاً على « آيات » أو على الابتداء ، و « الحق » خبره ، ويحسوز أن يكون موضعه جواً على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ، وارتفاع « الحق » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ . الْحَقُّ » يعني ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جئت « الذي » خفياً نعتاً للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أنا هذا الكتاب عن أبي حفص والقاروق ؛ ومنه قول الشاعر

إلى الملك القسرم وابن الميام . وليت الكتيبة في المزدحم
يريد : إلى الملك أقدم بن الميام ، ليت الكتيبة . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

(١) الزيادة من قسم البحر . (٢) القرم (بفتح الجاف) ، السبد ، والكتيبة : الجند ؛ والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَّى عَلَى الْعَرْشِ وَنَحْنُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزه قادر على الكمال ، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ، وقد تقدم هذا المعنى . وفي قوله : « بغير عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما - أنها صرْفوعة بغير عمد تَرَوْنَهَا ، قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثاني - لها عمد ، ولكنها لا تراه ، قال ابن عباس : لما عمد على جبل قاف ، ويمكن أن يقال على هذا القول : الحمد قدرته التي يُمَكِّنُ بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ، ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هي توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنقطع عن كمر الكافر ، ذكره القرطبي . والعمد جمع عمود ، قال النابغة :

وَحَيْثُ أَمِلْتُ إِلَى قَدِ أَذِنْتُ لَمْ . يَنْوُنُ تَدْمُرُ بِالْصَّفَاحِ وَالْتِمِيدِ^(١)

(ثُمَّ أَسْتَوَّى عَلَى الْعَرْشِ) تقدم الكلام فيه . (وَنَحْنُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) أى ذلَّهما لما نفع خلقه ومصالح عباده ، وكل مخلوق مُدْخِلٌ لِمَخَالِقِ . (كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) أى إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التي عندها تُكْوَرُ الشَّمْسُ ، وَيُخَسَفُ الْقَمَرُ ، وتتكسر النجوم ، وتنتثر الكواكب ، وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي يشيران إليها لا بماحوازاتها . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلَكَةً في شهر ، والشمس في ستة . (يُدِيرُ الْأَمْرَ) أى يصرفه على ما يريد . (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) أى يُبَيِّنُهَا ، أى من قدره على هذه الأشياء بقدره على الإعادة ، ولهذا قال : (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) .

(١) لا يرى ، ولا يرى الحق . وطرس ، ذل ، وكمر ، به ههنا ، ما سجد سلطان طه السلام . والصفاح جارة حراس وقاف . وعمد ، جمع عمود . (٢) راجع ٧ ص ١٩ طيبة أول أدبانية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْنِي عَنْكَ الْبَرَّ وَالْبَارِئُ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥٠ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بين آيات السموات بين آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولاً وعرضاً . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالاً ثوابت ؛ واحدها راسية ؛ لأن الأرض ترسوها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة ؛
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُسْرَةً • تَرُسُو إِذَا نَفَسَ الْجَبَلَانِ تَطْلُعُ
وقال جميل ؛

أَيْحَا وَالَّذِي أَنْتَبَى قَوَاعِيدهُ • جُبًّا إِذَا ظَلَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطْنَا
وقال ابن عباس وعطاء ؛ أقل جبل وضع على الأرض أبو قيس .^(١)

مستثناة - فى هذه الآية ردة على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردة على من زعم أن الأرض تنهى أربابها عليها ؛ وزعم ابن الراوندى أن تحت الأرض جسداً صامداً كالرَّجِّ الصَّامِدَةِ ؛ وهى منحدره فاعتدل الخاوى والصَّامِدَى فى الجُرم والقُوَّة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها وثباتها ، وأن حركتها إنما تكون فى السَّادَةِ بِزَلْزَلَةٍ تَنْصِيْبِهَا . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياهها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . لعل أبو عبيدة ؛ الزوج واحد ، ويكون اثنتين . الفراء ؛ يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهذا خلاف

(١) قبل البيت ؛

وعرفت أن متى إن تأتى • لا يثني منها هفوا الأرحم

(٢) أبو قيس ؛ جبل مشرف على مسجد مكة ؛

النس . وليس : معنى « زوجين » نومان ، كالحلو والحامض ، والرطب والبابس ،
والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أى دلالات وعلامات
(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

قوله تعالى : **وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ
وَزَيْتُونٍ وَنَخِيلٍ صَوْنًا وَغَيْرِ صَوْنٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَبْضٌ بَعْضُهَا عَلَى
بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ①**

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ**) في الكلام حذف ، المعنى :
وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ، كما قال : « **سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ** » والمعنى :
وتقيكم البرد ، ثم حذف لعم السامع . والمتجاورات المدن وما كان حاصرا ، وغير متجاورات
المصاري وما كان غير حاصر .

الثانية - قوله تعالى : « **متجاورات** » أى قرى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها
واحد ، ولها زروع وجنات ، ثم تفاوتت في الثمار والثمار ، فيكون البعض حلوًا ، والبعض
حامضًا ، والنصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم ،
وإن أنيسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ، وفي هذا أدل دليل على وحدانيته
وعظم جبريته ، والإرشاد لمن ضل عن معرفته ، فإنه نبه سبحانه بقوله : « **يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ** »
على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ، وهذا أدل دليل على
بطان القول بالطبع ، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف .
وقيل : وجه الاختجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع ، فمن تربة عذبة ، ومن تربة سخة .
مع تجاورهما ، وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ، فجعل ومن تعالى عما يقول الظالمون
والمجانسون علوا كبيرا .

الثالثة - نعت الكفرة - لنهم الله - **إِنَّ كُلَّ لَاحِظٍ يَجْعَلُ بِحَسَبِ مَا**
صانع، وأدعوا ذلك في القمار الخارجة من الإطبار، وقد اتفوا بعدونها، وأنكروا عدتها، وأنكروا
الأعراض . وقالت فرقة: يجلوث القمار لا من صانع، وأنكروا الأعراض قاعلا، والليل مل
أن الحادث لا يلبث له من يحدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جلته في وقت آخر،
فلو كان حدوثه في وقته لا اختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جلته، وإذا
بطل اختصاصه بوقته مع أن اختصاصه به لأجل تخصيص خصه به، (ولا تخصيصه إياه
به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، وأستفاد هنا في علم الكلام).

الرابعة - قوله تعالى: **(وَجَنَّتُ مِنَ أَهَابٍ) قَرَأَ الْحَسَنُ «وَجَنَّتُ» بِكسر**
التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: **«وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي»** . ويجوز
أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون:
«جَنَّتُ» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. **(وَزِدَّ وَتَنِيلٌ صُنُوانٌ وَفِيهِ صُنُوانٌ)** بالرفع.
أين كثير وأبو عمرو وحض عطفًا على الجنات، أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل.
وخضها الباقون تَنَافًا على الأهاب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنات، ويجوز أن يكون
معطوفًا على «كل» حسب ما تقدم في «وجنات» . وقرا مجاهد والسائي وغيرهما «صُنُوانٌ»
بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لفتان؛ وهما جمع صنو، وهى التللات والتلثان،
يجمعهن أصل واحد، وتتشعب منه رموس تصير نخيلا، نظيرها قنوان، واحداها قننو. وروى
أبو إسحق عن البراء قال: الصُنُوان المجمع، وغير الصُنُوان المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو
في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صُنُوان . والصنو المثل، ومنه
قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ رَجُلٌ صُنُوانٌ»** . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع،
ولا بالإعراب؛ تعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر:

لِلْمَلِكِ وَالْمَلِكُ حَتَّى كَرَّمَ • لَرَّ زَيْنٌ إِذَا هُمَا اجْتَمَعَا
صُنُوانٍ لَا يُسْتَمُّ حُسْنُهُمَا • إِلَّا يَجِيءُ ذَا وَفَالَكِ مَعَا

الثانية - قوله تعالى : (يَسْقِي سَائِرَ وَاحِدٍ) كصالح بن آدم وخيبرهم ، أبوهم
واحد ؛ قاله النحاس والبغاري . وقرأ حاصم وابن حاتم « يَسْقِي » بالياء ، أى يُسْقِي ذلك كله .
وقرأ الباقون بالياء . لقوله : « جَنَاتٍ » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو :
والثاني أحسن ، لقوله : (وَنَفَضْلٌ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ) ولم يقل بَعْضُهُ . وقرأ
 حمزة والكسائي وغيرهما « وَيَفْضُلُ » بالياء ردًا على قوله : « يُدِيرُ الْأَمْرَ » و « يَقْضِلُ »
 هو « يُنْشِئُ » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت
 أباي صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : « الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة
 واحدة » ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله :
 « يُسْقِي سَائِرَ وَاحِدٍ » و « الْأَكْلِ » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسي^(١)
 والدقل . وروى مرزا عن حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله
 تعالى : (وَنَفَضْلٌ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ) قال : « الفارسي والدقل والحلو والحامض »
 ذكره التلميذ . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لئلا آدم ، أصلهم
 واحد ، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف النار التي تسقى بماء واحد ؛
 ومنه قول الشاعر :

الناس كالنبت والنبت ألوان • منها شجر الصندل والكافور والبان

• ومنها شجر يَنْضَحُ طولَ الليل قطران •

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْمَهُمْ أَوْذَا كَأَآرِبَاءٍ لِّى خَلَقِ
 جَدِيدَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرَىٰهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ
 وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بغير ما كنت منهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يتعجب ، ولا يحسب منه التعجب ، لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وإنا ذكر ذلك لينعجب منه بيده والمؤمنون .
وقيل المعنى : أى إن عجت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والسماء المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ، لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ، أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المنفرد لا بد له من متغير فهو محل التعجب ، ونظم الآية يدل على الأول والثانى ،
لنقله : (أَيْدِيَا كُنَّا تَرَاءُ) أى أنبئت إذا كنا تراءيا ؟ . (أَيْدِيَا لَيْمَى سَخِي تَجِيدُ) وقرئ « إنا » . و (الْأَغْلَالُ) جمع قُل ، وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليد إلى السِّقِّ ، أى يُلَوَّن يوم القيامة ؛
بدليل قوله : « إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل :
الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : (وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

قوله تعالى : (وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) أى لضرط إنكارهم وتكذيبهم بظلمون المذنب ، قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ يَدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِمَاً مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ، وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قبل الحسنه » أى قبل الإيمان الذى يربى به الأمان والحسنات . و (أُنْزِلَتْ) العقوبات ، الواحدة سُكَّةٌ . وروى عن الأنعمش أنه قرأ « أُنْزِلَتْ » بضم الميم وإسكان الناء ، وهذا جمع مُثْلَةٌ ، ويوزن

« الثَّلَاث » تَهْدِيكَ مِنَ الصُّمَّةِ كَمَا لَتَقْلِي ، وَقِيلَ : يُؤَيِّ بِالْفَتْحَةِ مَوْجِبًا مِنَ الْهَبَاءِ .
 وَرَوَى عَنْ الْأَعْمَشِ أَنَّهُ قَرَأَ « الثَّلَاثَ » فَفَتَحَ الْمِيمَ وَاسْتَكَنَ التَّاءَ ، فَهَذَا جَمْعُ مَثَلَةٍ ، ثُمَّ حَذَفَ
 الصُّمَّةَ لَتَقْلِي ، ذَكَرَهُ جَمِيعُ النَّحَاسِ وَحَدَّثَهُ اللَّهُ . وَعَلَى فَرَاةِ الْجَمَاعَةِ وَاحِدَةٌ مَثَلَةٌ ، نَحْوُ صَدْفَةٍ ،
 وَتَمِيمٌ نَعَمَ التَّاءَ وَالْمِيمَ بِمِثْلِهِمَا ، وَاحِدُهُمَا عَلَى لَتَتِهِمْ مَثَلَةٌ ، بِضَمِّ الْمِيمِ وَجَزَمَ التَّاءَ بِمِثْلِ : ضَرْفَةٍ
 وَغُرْفَاتٍ ، وَالْفِعْلُ مِنْهُ مَثَلَتْ بِهِ أَمَثَلُ مَثَلًا ، يَفْتَحُ الْمِيمَ وَيَسْكُوبُ التَّاءَ . (وَإِنْ رَبَّكَ
 قَدْ وَفَّقْتُمْ) أَيِ الْقَوْمِ يَجَاوِزُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا آمَنُوا ، وَعَنِ الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَابُوا . وَقَالَ
 أَبُو عِيَّاسٍ : أَرَبِيٌّ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى « وَإِنْ رَبَّكَ لَقَدْ مُنِّفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » .
 (وَإِنْ رَبَّكَ لَتَشِيدُ الْفَقَابَ) إِذَا أَسْرَزَا عَلَى الْكُفْرِ . وَرَوَى حَادُّ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ
 عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ « وَإِنْ رَبَّكَ لَقَدْ مُنِّفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » وَإِنْ رَبَّكَ
 لَتَشِيدُ الْفَقَابَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ لَا حُفَاؤُهُ وَرَحِمَتُهُ وَتَجَاوُزُهُ
 لَمَّا نَزَلَتْ أَحَدًا عَشَرَ وَلَوْ لَا حُفَاؤُهُ وَوَعِيدُهُ وَعَذَابُهُ لَأَتَمَّ كُلُّ أَحَدٍ » .

قوله تعالى : (وَيَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا) أَيِ هَلَا (أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي) .
 لَمَّا أَقْرَبُوا الْآيَاتِ وَطَلَبُوهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ)
 أَيِ مُنْذِرٌ . (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) أَيِ نَبِيٍّ يَهْدِيهِمْ إِلَى اللَّهِ . وَقِيلَ : الْهَادِي اللَّهُ ، أَيِ هَدَاكَ
 الْإِنْفَارَ ، وَاللَّهُ هَادِي كُلِّ قَوْمٍ إِنْ أَرَادَ هَدَايَتَهُمْ .

قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
 وَمَا تَزَوَّادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدَارٍ ① عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ②
 فِيهِ ثَمَانُ سَائِلٍ :

الْأَوَّلَى - قوله تعالى : (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) أَيِ مَنْ ذَكَرَ وَاقِيٍّ ، صَبِيحٍ ، وَفَجٍّ ،
 صَالِحٍ وَطَالِحٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ « الْأَنْعَامِ » أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ مُنْفَرِدٌ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَحْدَهُ
 (رَجُلٌ رَابِعٌ - ص ١٧٠) بِمَا يَهْدِيهِ أَوَّلُ لُورَانِيَّةٍ :

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مقابيح الذيب خمس " الحديث . وفيه " لا يعلم ما تنقيض الأرحام إلا الله " . واختلف العلماء في تأويل قوله : (وَمَا تَنْقِضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِيدُ) فقال قتادة : المعنى ما تُسقط قبل التسمية الأشهر ، وما تزياد فوق التسمية ؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك قصصا في ولدها ؛ فإنزبت فزادت على التسمية كان تمامها لما قصص ؛ وعنه : النقيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزياد منه . وقيل : للبيض والزيادة يرصان إلى الولد ، كقصصان أصبح أو غيرها ، وزيادة أصبح أو غيرها . وقيل : النقيض أقطاع دم الحيض ؛ وما تزياد ؛ بدم النفاس بعد الوضع .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والثاني في أحد قوليهِ . وقال عطاء والشعمي وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحياض ؛ وكذلك روى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ؛ وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ؛ ولم ينكر منهم أحد طعنا ؛ فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذكر أن رجلين تنازعا ولدا ، فترافعا إلى عمر بن الخطاب ؛ فأنظرنا ما شأن هذا الولد ؟ قلن : إن بهما ؛ ففلاهما عمر بالدرّة ، وسأل نسوة من قريش فقال : أنظرن ما شأن هذا الولد ؟ قلن : إن الأول سلاها وخلّاهما ، فحاضت على الحمل ؛ فظننت أن عنتها اقتضت ؛ فدخل بها الثاني ؛ فأنش الولد بهما الثاني ؛ فقال عمر : الله أكبر ؛ وألحقه بالأول ؛ ولم يقل إن الحامل لا تحيض ؛ ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع ؛ والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان للحامل تحيض ؛ وكانت متراة المرأة من الدم حيضا لمّا سمع استبراء الأمة بحيض ؛ وهو إجماع . وروى عن مالك في كتابه محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ؛ وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ؛ وأن هذا الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرسالة - رحمه الله الأشهر من بلاده كتابه الأشهر الشريف ، ولله الحمد والثناء

لكتاب النخب عن بعض أصحاب طائفة وأئمة في كتاب ابن حارث أنه إن قصص عن الأشهر
للسنة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعله قصص الأشهر وزادتها ، حكاه ابن عسك .

الخامسة - واختلف العلماء في أكثر الحمل ، فروى ابن جرير عن جبهة بنت سعد
عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قنبر ما يقول ظل المنزل ، ذكره
القرطبي في حقه جبهة بنت سعد بنت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد : إن أكثره
ثلاث سنين . وعن الثوري أربع سنين ، وروى عن مالك في إحدى روايته ، والمشهور عنه
سبع سنين ، وروى عنه لأحمد ، ولو زاد على البشارة الأعوام ، وهي الرواية الثالثة عنه .
وعن الزهري ستة وسبع قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ، والثاني : مدة
لثانية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : ستان لا غير ، وعبد بن عبد الحكم يقول :
سنة لا أكثر . ورواه يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حل أكثر منها . قال أبو عمر :
وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد ، والرد إلى ما عرفت من أمر النساء ، والله التوفيق .
روى القرطبي عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إنى حكمت عن عائشة أنها
قالت : لا تزيد المرأة في حملها على ستين قنبر ظل المنزل ، فقال : سبحان الله ! من يقول
هذا ؟ هذه جارية امرأة محمد بن عقيل ، تحمل وتضع في أربع سنين ، امرأة صدق ، وزوجها
رجل صدق ، حملت ثلاثة أبطن في اثني عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره
المبارك ابن عباد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عقيل تحمل وتضع في أربع
سنين ، وكانت تسمى حامدة الفيل ، وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالس
إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! أدع لامرأة حبل منذ أربع سنين قد أصبحت
في كرب شديد ، فنضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا
أنباء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ربيع فأنزله عنها
الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبطلها فلانما . قالت تمحو ما أتاه وتنبت ، وعندك

أثم الكتاب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وبيده الرسول إلى الرجل فقال له فترك
 أمراك ، فذهب الرجل ، فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته
 غلام جعد فقطط ، ^(١) ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ما قطعت سريره ، وروى أيضا أن
 وجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! لاني فبت عن امرأتى ستين بخت
 وهي حيل ، فشاور عمر الناس في رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان
 لك عليها سهيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ، فتركها حتى تضع ، فركها ، فوضعت غلاما
 قد نرجعت ثنيته ، فصرف الرجل الشبهة فقال : ابنى ورب الكعبة ! ، فقال عمر : عجزت
 النساء أن يلدن مثل ماذ ، لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعت أمي وقد خلعت
 بي في بطنها ستين ، فولدتني وقد نرجعت سني . ويذكر عن مالك أنه حل به في بطن أمه
 ستان ، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين ،
 فالتت به وهو مضطرب اضطرابا شديدا ، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حماد
 ابن سلمة : إنما سمى حريم بن حبان حريما لأنه بقى في بطن أمه أربع سنين . وذكر التزوتى أن
 الضحاك ولد لستين ، وقد طلعت سنه فسمي ضحاك . جناد بن القوام : ولدت جارة لنا
 لأربع سنين غلاما سمعته إلى منكبيه ، فز به طير فقال : كس .

السادسة — قال ابن خزيمة متناد : أقل الحبيض والنقاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره
 ماخوذ من طريق الاجتهاد ، لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقدر
 ما أظهره لنا ، ويوجد ظاهرا في النساء نادرا أو معتادا ، ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع
 سنين ونحو سنين حكينا بذلك ، والنقاس والحبيض لما لم نجد فيه امرأة مستقرا رجعا فيه
 إلى ما يوجد في النادر منهم .

السابعة — قال ابن العربي : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل
 تسعة أشهر ، وهذا ما لم ينطق به قط إلاها لكي ، وهم الطبايعيون الذين يزعمون أن مدبر الجمل

(١) جعد فقطط : شديد البصودة . (٢) سر الراس ، ما قطعه القاطع .

في الزم الكواكب السبعة ، فأخذه شهرا شهرا ، ويكون الشهر أربع منها الشمس ، ولقد
 يهتزك ويضطرب ، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر
 الثامن إلى زحل ، فيقبله بترده ، فياليتي تمكنت من مناظرتهم لو فقاتهم ! ما بال المرجع
 بعد تمام الدور يكون إلى زحل دون غيره ؟ أله أخبركم بهذا أم هل الله تختزون ؟ ! وإذا
 جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدوير إلى ثلاث أو أربع ، أو يعود إلى جميعها
 مرتين أو ثلاثا ؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة !

الثامنة - قوله تعالى : (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) يعني من التقصان والزيادة .
 ويقال : ه مقدار ه قدر خروج الولد من بطن أمه ، وقدر سكنه في بطنها إلى نروجه . وقال
 قتادة : في الرزق والأجل . والمقدار القدر ، وعموم الآية يتناول كل ذلك ، والله سبحانه أعلم .
 قلت : هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة ، أي هو عالم
 بما غاب عن الخلق ، وبما شهدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى
 الشاهد ، فبسه سبحانه على أقرانه بسم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق ،
 فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد ، فاما أهل الطب الذين يستدلون بالإمارات والعلامات فإن
 قطعوا بذلك فهو كفر ، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وماهم عليه : ولم يقدح ذلك في الممدوح ،
 فإن العادة يجوز أن تكسرها ، والعلم لا يجوز تبذله . و (الكبير) الذي كل شيء دونه .
 (المتعال) عما يقول المشركون ، المستعل على كل شيء بقدرته وقهره ، وقد ذكرناهما في شرح
 الأسماء مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ . وَمَنْ
 هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝

قوله تعالى : (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) إسرار القول : ما حثت به
 المرء نفسه ، وأجهر ما حثت به فيه ، والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و « منكم » بمنزلة أن يكون وصفاً لدجواءه
التقدير: سر من أسر وجهر من جهر سواء منكم، ويجوز أن يتعلق « سواء » على معنى،
يستوى منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سر من أسر منكم
وجهر من جهر منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر
به، كما تقول عدل زيد وصمرو أي ذوا عدل. وقيل: « سواء » أي مستوي، فلا يحتاج إلى
تقدير حذف مضاف. (وَمَنْ هُوَ مُسْتَخِفٌّ لِّأَلِيلٍ وَأَسِيرٌ لِّلنَّهَارِ) أي يستوي في علم الله
السر والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات. وقال الأخفش وقطرب
المستخفي بالليل الظاهر، ومنه خفيت الشيء وأخفته أي أظهرته، وأخفيت الشيء أي
أستخرجته، ومنه قيل للنباش المخبئ. وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُ عَنْ أَتْفَاقِهِ كَأَمْسَا • خَفَاهُ عَنْ وَدْقٍ مِنْ عَيْنِي جَلَبَ

والسارب المتوارى، أي الداخل سرّاً، ومنه قولهم: أنسرب الوحش إذا دخل في بئانه.
وقال ابن عباس: « مستخف » مستتر، « سارب » ظاهر. مجاهد: « مستخف »
بالمعاصي، « سارب » ظاهر. وقيل: معنى « سارب » ذاهب، الكسائي: سرب
يسرب سرباً وسروباً إذا ذهب؛ وقال الشاعر:

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ خَلِيلِهِمْ • وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُهُوَ سَارِبٌ

أي ذاهب. وقال أبو رجاء: السارب القاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر:

أَتَى سَرَبَتٍ وَكُنْتُ ثَيْرَ سُرُوبٍ •

وقال الفقي: « سارب بالنهار » أي منصرف في حوائجه بسرعة من قوْلهم: أنسرب
الماء. وقال الأصمعي: خل سربه أي طريقه.

(١) أفاق (جمع فاق): وهو سرب في الأرض إلى موضع آخر، واستناره امرؤ القيس بحسرة لقلة
والودي: المظلم. وضيت جلاب: مصوتة، ويروي جلاب (بالحاء). (٢) هو الأخصب من شهاب التنابي
ويريد أن الناس آفاسوا في موضع واحد لا يهتدون على القلة، وحسبوا خلفهم من أن يقدم حتمه إليهم خوفاً
أن يبارطها، ونحن أعزاء خلفنا قيد ليلنا لذهب حيث شاء. (٣) هو قيس بن الخثعم، وتعام البيت:
• وتقرب الأعلام غير قريب •

قوله صلى الله عليه وسلم : **لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا وَلَّيْنَاهُمْ وَلَا آتَا لِرَادِّ اللَّهِ يَقُومُ سَوَاءً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ رَاقٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(لَمْ تُعْقِبَتْ)** أى الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، **(لَمْ تُعْقِبَتْ)** ملائكة الليل لتعقبها ملائكة النهار . وقال : **«مُعَقَّبَاتٌ»** والملائكة ذُكْرانُ لأنه جمع مُعَقِّبَةٌ ؛ وقال : **«مَلَكٌ مُعَقِّبُهُ وَمَلَائِكَةُ مُعَقِّبَةٌ»** ثم مُعَقَّبَاتٌ جمع الجمع . وقرا بعضهم : **«لَمْ تُعَقِّبْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ»** . ومعاقب جمع مُعَقِّبٌ ؛ وقيل للملائكة مُعَقِّبَةٌ على لفظ للملائكة . وقيل : **«لَمْ تُعْقِبْ كَلَامٌ مِنْهُمْ يَحْمِلُ نَسَابَةَ وَعَلَامَةَ وَرَايَةَ»** قاله الجوهري . وفيه . **«وَالْمُعَقِّبُ لِلْعَرَبِ هَسَدُ الْبَيْتِ»** قال الله تعالى : **«وَلَمْ يَدْعُوا وَلَمْ يُعَقِّبْ»** أى لم يرجع ؛ وفى الحديث : **«مُعَقَّبَاتٌ لَا يَجِيبْنَ قَائِلُونَّ - أَوْ - قَاعِلُونَّ»** فذكر التسييح والتحديد والتكريم . قال أبو الهيثم : **«مُعَقَّبَاتٌ»** لأنهن عادت مرة بعد مرة ، فقل من قيل عملام عاد إليه فقد عَقِبَ . والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا أخصرت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : **(مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ)** أى المستخفى بالليل والسورب بالنهار . **(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)** اختلف في الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون نوكل للملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والحوائم والأشياء المضرة ، لطفاً منه به ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه ، قاله ابن عباس وعطى بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو عيسى : جاء رجل من مراد إلى على فقال : **«أترى إن ناساً من مراد يريدون قتلك؟»** فقال : **«إن مع كل**

(١) قال الزعفراني : جمع معقب أو معقبة يشد به القاف فيها ، والياء عوض من حذف إحدى اللامتين في التكسير . وقال ابن جني : إنه تكسير معقب ككلم ومطامير ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهمزة من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الأفراسي : ولله الأظهر . **«روح المعاني»** (٢) الحديث في الدعاء وهو جاءه في صحيح مسلم : **«مُعَقَّبَاتٌ لَا يَجِيبْنَ قَائِلُونَّ دِرْبَكِلَ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ مِائَةً وَثَلَاثُونَ تَحِيَّةً وَارْبَعَ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً»** . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة . (٣) مراد (بالهمز وكثرة دالة مهمة) : قرية من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل ملكين يحفظانه ما لم يَمُتْ، فإذا جاء القدر حَلَا بينه وبين قَدَرِ الله، وإن الأجل حصن حصينة، وعلى هذا « يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله وبرأيه « ذ » جن « بمعنى الباء » وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « من » بمعنى « من » أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأول ؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ، وهذا قول الحسن ، تقول : كسوته عن عُرَى ومن عُرَى ، ومنه قوله عز وجل : « أَطْمَئِنُّ مِنْ جَوْعٍ » أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب حتى لا تحمل به عقوبة ؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية - ن يغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر ، فإذا أصرروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم العقوبة ، وتزول عنهم المظلة المعقبات . وقيل : يحفظونه من الجن ، قال كعب : لو لا أَلِفُ الله يُوَكِّلُ بكم ملائكة يَذِيونَ عنكم فى قطعكم ومشيركم وعوراتكم لتخطفنكم الجن وملائكة العذاب من أمر الله ، وخشعهم بأن قال : « من أمر الله » لأنهم غير معائنين ، كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس مما تشاهدونه أتم . وقال الفراء فى الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ، وهو مروى عن مجاهد وأبن جريج والنخعي . وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير . وقال ابن جريج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ، لحذف المضاف . وقال قتادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويموز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الماء فى « له » لله عز وجل ، كما ذكرنا ، ويموز أن تكون للسفنى ، فهذا قول . وقيل : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » يعنى به الذى صل الله عليه وسلم ، أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه ، وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَمَآ أَنتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أمر القول ومن جهر به فى أنه لا يضر الذى صل الله عليه وسلم ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام ، ويموز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل ، لأنه قد قال : « ولكن قوم هاد » أى يحفظون المسادين من بين يديه ومن خلفه . وقول راجح - أن المراد بالآية البلاطين والأمراء الذين لم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُنصروا منهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ؛ وكذلك
قال الضحاك ؛ هو السلطان المنجوس من أمر الله للمشرك . وقد قيل ؛ إن في الكلام على
هذا التوريل قويا عذوفا ، تهديره ؛ لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال
المهدي ؛ ومن جعل الملقبات الحرس فالحق ؛ يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه .
وقيل ؛ سواء من أمر القول ومن جهريه لله حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على
العامي ؛ يحفظونه من أن يقع فيه وعظ ؛ قال القشيري ؛ وهذا لا يمنع الرب من الإهمال
إلى أن يحق المذهب ؛ وهو إذا غير هذا العامي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا
للقوبة ؛ فكانه الذي يحمل القوبة بنفسه ؛ قوله ؛ يحفظونه من أمر الله أي من استئصال
أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : الملقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته ؛
قال الماوردي ؛ ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله ؛ يحفظونه من أمر الله ؛ وجهان ؛
أحدهما - يحفظونه من الموت مالم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني - يحفظونه من
الحزن والهوان المؤذية ؛ مالم يأت قدر ؛ قاله أبو أمامة وكعب الأحبار - فإذا جاء المقدور
سألو عنه ؛ والصحيح أن الملقبات الملائكة ؛ وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج ؛
وروى عن ابن عباس ؛ واختاره النحاس ؛ وأحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم ؛ " يتعاقبون
فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو بن ابن
عباس قرأ - " معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه " [من أمر الله] يحفظونه ؛ فهذا قد بين
المنع . وقال بكاء المدوني ؛ دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم
فقال ؛ يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ قال ؛ " ملك عن يمينك يكتب
الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا
عميت حسنة كتبت حسرا وإذا عميت سيئة قال الذي على الشمال والذي على اليمين أكتب
قال لأبيه يستغفره تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه

فليس القرين هو ما أنفَى مراقبته من وجل وأقل استحياء منا يقول الله تعالى
 « مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى
 « لَهُ مَقْبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [ولك قابض على أصميتك
 فإذا تواضعت لله رفعتك وإذا تجبرت على الله قصصك] وملكان على شفتيك وليس يحفظانه
 عليك إلا الصلاة على محمد وآله ولك قائم على فيك لا بدع أن تدخل الحية في فيك وملكان
 على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يسئلون ملائكة الليل على ملائكة النهار
 لأن ملائكة الليل لبسوا ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإليس مع ابن آدم
 بالتيار وولده بالليل . ذكره الثعلبي . قال الحسن : المقبات أربعة أملاك يجتمعون عند
 صلاة الفجر . وأختار الطبري أن المقبات المواكب بين أيدي الأمراء وخلفهم ؛ والماء
 في « له » لمن ؛ على ما تقدم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره
 على وجهين : أحدهما - قضى حاله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره .
 والآخر - قضى بغيره ولم يقض حاله ووقوعه ؛ بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة
 والحفظ .

قوله تعالى : (إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ مَا يَقُومُ حَتَّى يَتُوبُوا مَا يَأْتِيهِمْ) أخبر الله تعالى في هذه
 الآية أنه لا ينذر ما يقوم حتى يقع منهم تفير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو من هو منهم
 بسبب ؛ كما غير الله بالمتزمين يوم أحد بسبب تفير الزمات بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة
 الشرعية ؛ فليس معنى الآية أنه ليس يتزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد ترك
 للمصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم - وقد سئل أنتيك وفيها الصالحون ؟
 قال - : « نعم إنا نكثر الخبيث » . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومُ سُوءًا) أي هلاكاً عظيماً (فَلَا مَرَدَّ لَهُ) . وقيل :
 إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأقسام فلا مردّ لبلاءه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءاً

أبصارهم حتى يفتاروا ما فيه البلاء ويعلموه ؛ فيمضون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يمض
أحدهم من حنقه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) أى لمجا ؛
وهو معنى قول السدي . وقيل : من ناصر عنهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

• ما في السماء سوى الرحمن من وال •

وَوَالٍ وَلِيٌّ كَفَافٌ وَقَدِيرٌ •

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ
النِّفَالِ (١٦) وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِجَمَدِهِ وَأَلْمَلَانِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ
الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ
الْمُعَالَ (١٧)

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ النَّفَالِ) أى بالمطر .
« والسحاب » جمع ، والواحدة سحابة ، وتُحْتَب وتُخَاب في الجمع أيضا . (وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِجَمَدِهِ
وَأَلْمَلَانِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ) قد مضى في « البقرة » القول في الرعد والبرق
والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛
أى يريكم البرق في السماء خوفا للسافر ، فإنه يخاف إذا هلك ما يناله من المطر والهول والصواعق ؛
قال الله تعالى : « أَدَّى مِنْ مَطَرٍ » وطعما للمحاضر أن يكون عليه مطر ويخضب ؛ قال معناه
قَتَادَةُ وَجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطعما في غيظه المنزل للعصاة .
(وَيُنْشِئُ السَّحَابَ النَّفَالِ) قال مجاهد : أى الماء . « وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِجَمَدِهِ » من قال إن الرعد
صوت السحاب فيجوز أن يسبغ الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله :
« وَأَلْمَلَانِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد متلصقا لدخل في جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك
قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

خائفون من الله ليس تكف آبن آدم، لا يعرف واحدهم من على بيته ومن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب، وعنه قال : الزعد ملك يسوق للسحاب، وإن يبار الماء لقي نقرة إلهامه، وأنه موكّل بالسحاب بصرفه حيث يصر، وأنه يفتح الله فإذا سمع الزعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فمدها يزل القطر، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي سبّحت له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي يُسبح الزعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملك جالس على كرمي بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف ملك، وعن يساره مثل ذلك، فإذا أقبل كل يمينه وسبح تسبح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وتسبح تسبح الجميع من خوف الله . (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) ذكر الماوردي عن ابن عباس وعنه ابن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني من أي شيء ربك، أين لؤلؤ أم من يافوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقت . وقيل : نزلت في بعض كفار العرب، قال الحسن : كان رجل من طوائف العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم قرا يدعوهم إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن رب محمد ما هو، وبم هو، أين قضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستظلم القوم مقالته، فقال : أجيب محمد إلى رب لا يصره ؟ فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؟ فبينما التفت بآذنيه ويدعونه إذ أرقعت سحابة فكادت فوق رؤوسهم، فعدت وأبرقت ودمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس، فخرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : أحرقت صاحبكم، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم . (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) ذكره التلبي عن الحسن، والشمسيري بمناه عن أنس، وسفيان . وقيل : نزلت الآية في أرب بن وبيعة أخيه يزيد وبيعة، وفي عامر بن الطفيل، قال ابن عباس : لعن الله عامر بن الطفيل وأرب بن وبيعة .

الأمريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخل المسجد ، فاستشرى الناس بجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجل الناس ، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ، فقال : "دعه فإن يريد الله به خيرا بيده" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا معبد مال إن أسلمت ؟ فقال : "لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين" . قال : أتعمل لي الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذلك إلا إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء" . قال : أنتجملني على الوبروات على المنذر ؟ قال : "لا" . قال : فما تجمل لي ؟ قال : "أجعل لك أئنة الخيل تنزرو عليها في سبيل الله" . قال : أو ليس لي أئنة الخيل اليوم ؟ ثم معي أكلتك ، فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أوما إلى أريد : إذا رأيتني أكلته فذروني خلفه وأجبره بالسيف ، فجعل يخاضع النبي صلى الله عليه وسلم وبراجعه ، فاخترب أريد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر دل سله ، ويست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاج فاحرقته ، وولى عامر هاربا وقال : يا معبد ! دعوت بك على أريد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جردا ، وقيانا مرمدا ، فقال عليه السلام : "يملك الله من ذلك وأبناء قيلة" يعني الأوس والخزرج ، فقتل عامر بيت امرأة سُلَولِيَّة ، وأصبح وهو يقول : والله لئن أُصحر لي عُمد وصاحبه - يريد ملك الموت - لأخذتهما برحى ، فأرسل الله ملكا قاطعه بجماعه فأذراه في التراب ، ونجرت على ركبته عُدة عظيمة في الوقت ، فعاد إلى بيت السُلَولِيَّة وهو يقول : عُدة كفدة البهيم ، وموت في بيت سُلَولِيَّة ، ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . وروى يزيد بن ربيعة أخاه أريد فقال :

يا معبد هلَّا بكت أريد إذ قُتِلَ . مَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَيْدِ
أَخْتِي عَلَى أُرَيْدَ الْحَتُوفِ وَلَا . أَرْهَبُ نَوَةَ السَّهَّالِ وَالْأَسَدِ
بِحَتْمِي الْقَوْدِ وَالْمُسَوَاعِي بِالْمَا . رِيسَ يَوْمِ الْكَرِيمَةِ النَّجْدِ^(١)

(١) الدنيا : الله ودع .

(١) أمير الربيع : الأخرج إلى الصمد .

(٢) النجد : الشرق الإمام .

(٢) مكيد : مسكة وحده .

وفيه قال :

إِنَّ الرِّزْقَ لَبَازٍ لَّارْزِقَةٍ . فَقَدَانُ كُلِّ أُنْجٍ كَضْوَى الْكَوْكَبِ
يَا أَرْبَدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جُدُّوهُ . أُنْزِدْنِي أُمْنِي بِقَرْنٍ أَغْشَبُ^(١)

اسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة - روى أبان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عز وجل . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : " سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فليقل ديشه " . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن مل عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كان مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرق ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفى مما يكون في ذلك الرعد ، فقلنا فموفيا ، ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا برقة قد أصابت أنه فارت به ، فقلت : يا أبا عبد المؤمن ما هذا ؟ قال : برقة أصابت أبنى فارت ، فقلت : إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفى مما يكون في ذلك الرعد ، فقلنا فموفيا ، فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » .

قوله تعالى : (وَمَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ) يعنى جدال اليهودى حين صال عن الله تعالى ، من أى شيء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جرير : جدال أربد فيما هم به من قول النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وَمَنْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» حالاً ، ويجوز أن يكون مقطوعاً . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعو إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله : أخبرنى عن الملك هذا ! أهو من نعمة أم من ذهب أم من نحاس ؟

(١) رن أغضب ، بكسر . (٢) فيه (البحر) ، سبه هلم .

(٣) راجع ١٧ ص ٢١٦ وما بعدها طبعه دار الفقه .

فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأصله؛ فقال: "أرجع إليه فأدعه" فرجع إليه وقد أصابته صاحقة،
وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» . (وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ)
قال ابن الأعرابي: «الحال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق. للناس: المكر
من الله إيصال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وزوى ابن الزبير عن أبي زيد
«وهو شديد الحال» أي النعمة. وقال الأزهري: «الحال» أي القوة والشدة. والمحلل،
الشدة؛ الميم أصلية، وما حلت فلا تَحَالًا أي قلوبته حتى يتبين أبنا أشد. وقال أبو عبيد،
«الحال» العفوية والمكروه. وقال ابن خرفة: «الحال» الجدل؛ يقال: ما حل من أمره
لأن جادل. وقال القتيبي: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة؛ جعل ميم كيم المكان؛
وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛
بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أو له ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: يجاهد
وبلاك ومراس، وغير ذلك من الحروف. ويقول إذا كانت من نبات الثلاثة فإنه يمي.
بإظهار الواو مثل: مزود ويحول ويحور، وغيرها من الحروف؛ وقال: وقرأ الأعرابي: -
«وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر
هذا كله أبو عبيد القحطاني، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي؛ وأقارب الصحابة والتابعين
بمناها، وهي ثمانية: أولاً - شديد المداوة، قاله ابن عباس، وثانيها - شديد الحول؛
قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها - شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها - شديد
الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها - شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها - شديد الغضب.
قاله وهب بن منبه. وسابعها - شديد الملأ والمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً.
وثامنها - شديد الحيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيدة ميم بالحال والحيلة والمداوة والمغالبة؛
وأشد للأشئ.

فيم تبحر يسترفي عصف الجب. في كثير القدي شديد الحال

وقال آخر : ^(١)

وَلَيْسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكْلٌ • أَمَدُّ لَهُ الشَّغَابُ وَالْحَالَا

وقال عبد المطلب ،

لَأَمُّمٌ إِنَّ التَّرِيمَ • تَحَ رَحْلَهُ فَأَمْنَعُ حِلَالِكَ ^(٢)

لَا يَفْلَحَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمَا • لَهُمْ جَبَدُوا بِحَالِكَ

قوله تعالى : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ

لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَيْبُطٌ كَفَبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝

قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) أى لله دعوة الصدق ، قال ابن عباس ، وقادة وغيرهما

لا إله إلا الله ، وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق ، وقيل : إن الإخلاص

في الدعاء هو دعوة الحق ، قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاءه عند الخوف ، فإنه

لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « حَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ، قال الماوردي : وهو أشبه

بسياق الآية ، لأنه قال : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) يعنى الأصنام والأوثان . (لَا يَسْتَجِيبُونَهُ

لَهُمْ شَيْءٌ) أى لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . (إِلَّا كَيْبُطٌ كَفَبِهِ إِلَى الْمَاءِ

لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ) ضرب الله عز وجل الماء مثلا لياسمهم من الإجابة لدعائهم ، لأن

العرب تضرب لمن سعى فيما لا يذكره مثلا بالقابض المساء باليد ، قال ،

فأصبحت فيما كان بيني وبينها • من الود مثل القابض المساء باليد

(١) هو ذر الزمة ، واليت من نصبة يمدح بها بلال بن أبى ردة بن أبى موسى ، واليت : الاختلاط . والشغاب

قال الأصمى : الشفرة ضرب من الحية في الصراع ، وهو أن يدخل الزيل بين رجل صاحبه فيسرمه ، والمضى

فكل رجل من القوم أمد له جهة فكما • (٢) لخلخل (الكسر) ، فهو لم يقرب من حله فلهذا • وهو

مكان الحق .

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها - أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظلمات الذي يدعو الماء إلى فيج من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا . لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء يبلغ إليه ، قاله مجاهد . الثاني - أنه كالظلمات الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالفه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ، قاله ابن عباس . الثالث - أنه كالبسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد في كفه شيء منه . وزعم القراء أن المراد بالماء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن الماء ، وأن المثل كن مد يده إلى البئر بغير رشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن الماء ماءً أبى وجعدي • ويترى ذو حقرت ودو طويث

قال علي رضي الله عنه : هو كالطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كالبسط » إلا كاستجابة بالبسط كفيه . « إلى الماء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كإجابة بالبسط كفيه إلى الماء ؛ واللام في قوله : « ليبلغ فاه » متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالفه » كناية عن الماء ؛ أي وما الماء يبلغ فاه . ويجوز أن يكون « هو » كناية عن الفم ؛ أي ما الفم يبلغ الماء . (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال ، لأنها شرك . وقيل : إلا في ضلال أي يفضل عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلا . كما قال : « أَيْمَنَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) قال الحسن وقادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كرها حين لا يحسنه الإيمان . وقال الزجاج : سجدة الكافر كرها ما له من التضرع وأثر القسمة

وقال ابن زيد : « طوعا » من دخل في الإسلام رغبة ، و « كرها » من دخل فيه رغبة بالسيف .
وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فأثاب للِسجود ، و « كرها » من بكره نفسه لله تعالى ، فالآية في المؤمنين ، وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من في الأرض . قال
القشيري : وفي الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة وللمراد بها التخصيص ، فكل من يسجد طوعا ، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمُلتجئين ، فالآية مجولة على هؤلاء ، ذكره
الفراء . وقيل هل هذا القول : الآية في المؤمنين ، منهم من يسجد طوعا لا ينفل عليه للسجود ،
ومنهم من ينفل عليه ، لأن الترام التكليف مشقة ، ولكنهم يحملون المشقة إخلاصا وإيماناً ،
إلى أن يألفوا الحق ويمتزوا عليه . والمسلك الثاني — وهو الصحيح — إجراء الآية على الجميع ،
وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا ، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ
به . والثاني — وهو الحق — أن المؤمن يسجد بيده طوعا ، وكل مخلوق من المؤمن والكافر
يسجد من حيث إنه مخلوق ، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع ، وهذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ » وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . (وَظَلَّ لَمْ يَلْتَدُوْا بِالْأَصْنَافِ)
أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالندو والآمال ، لأنها تدين في هذين الوقتين ، وعمل من
ناحية إلى ناحية ، وذلك تصرف الله إياها على ما يشاء ، وهو كقوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ نَفْيًا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْأَسْوَاطِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَهُمْ فِي دَائِرُونَ » قاله ابن عباس
وغيره . وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد كرها وهو
كاره . وقال ابن الأثيري : يجهل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها ، كما جعل للحيال
أنهم حتى خاطبت وخطبت . قال القشيري : في هذا نظر ، لأن الجبل عين ، فيمكن أن
يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظلال فأنار وأمراض ، ولا يتصور تقدير الحياة
لها ، والسجود بمعنى الميل ، فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ، يقال : تسجدت النخلة
أي مالت . والآمال : جمع أمل ، والأصل جمع أصيل ، وهو ما بين النصر إلى الغروب ،
فم أصائل جمع الجمع ، قال أبو ذؤيب المظني :
تغمري لأت اليث أكرم أملة . وأنفس في أقيامه بالآمال

و «ظلالهم» يجوز أن يكون مطوقا على «من» ويجوز أن يكون آرفع بالإشداء والجر
هذوف التقدير «ظلالهم مجدد بالندوة والآصال» . والندوة «يجوز أن يكون مصدرا،
ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذي هو الآصال به» .

قوله تعالى : **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَعْبُدُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيقَهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠١﴾**

قوله تعالى : **(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)** أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم
أن يقول للمشركين : «قل من رب السموات والأرض» ثم أمره أن يقول : هو الله إزاء
الجماعة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا من هو . **(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)** هذا يدل على
أمرناهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أتعبدون من دونه أولياء»
معنى ؛ دليله قوله : «وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أي فإذا أعترفتم
فلم تعبدون غيره ؟ ١ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر ، وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثلا
ققال : **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)** فكذلك لا يستوى المؤمن الذي يبصر الحق ،
والمشرك الذي لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مثل لما عبده من دون الله ، والبصير مثل
الله تعالى : **(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)** أي الشرك والإيمان . وقرأ ابن عباس
وأبو بكر والأعمش وحزرة والكشافى «يستوى» بالياء لتقدم الفعل ، ولأن تأنيث «الظلمات»
ليس بمحقق . الباقيون بالياء واختاره أبو عبيد ، قال : لأنه لم يحمل بين المؤنث والفعل حائل .
وه «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر ، ونحن لا نقف على كيفية ذلك . **(أَمْ جَعَلُوا
لَهُ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيقَهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)** هذا من تمام الاحتجاج ؛ أي خلق فيه الله مثل

قله فتشاه فخلق منهم **ملائكة** خلق الله من خلقهم . (قل الله خالق كل شيء)
 أي قل لم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فلم لك أن يسبده كل شيء . والآية رد على
 المشركين والقدرة الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . (وهو الواحد) قبل كل شيء .
 (الفهار) الغالب لكل شيء ، الذي يطلب في مراده كل مريد . قال القشيري أبو نصره
 ولا يعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يتصرف بالصانع ؛ أي سلهم عن خالق السموات
 والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحق فيهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن تجزئ الجاد
 وتجزئ كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا عجز هذا وبأن أن الصانع هو الله فكيف
 يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعا لا شبهة للمخلوق
 ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ ! .

قوله تعالى : **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُثَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧**
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَحْسَنُ وَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّ هُم
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهٗ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ سَوَاءٌ
 الْحَسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْأَمَّاهُ ١٨ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ
 إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَرِهَ هُوَ أَعْمَى ۖ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ١٩
 قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)
 ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فثبه الكفر بالزبد الذي يصلو السماء ، فإنه يضمحل ويطلق
 بجنات الأودية ، وتدفقه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر وضمحل ، على ما نبهته . قال مجاهد :

فَكَانَ أَوْدِيَةُ يَقْدَرُهَا . قال : يقدر عليها . وقال ابن جرير : يقدر صغرها وكبرها . وقرا
 الأَنْشَبُ القَبِيلَ والحسن . **يَقْدِرُهَا** . يتكون النال ، والمعنى واحد . وقيل : معناه بما قدر
 لها . والأودية جميع الوادي ، ومعنى واديا لغروجه وسيلانه ، فالوادي مل جيلنا اسم الماء
 السائل . وقال أبو عل : « أودية » توسع ، أى سال ماؤها لخفف ، قال : ومعنى « يقدرها »
 يقدر مياهاها ، لأن الأودية ما سالت يقدر أنقصها . « فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالما
 حاليا مرصعا فوق الماء ، وتم الكلام ، قاله مجاهد . ثم قال : (وَيَمَّا يُوقِدُونَ فِئَةٍ فِي النَّارِ)
 وهو المثل الثانى . (أَجْفَاءَ حَيْةٍ) أى حيلة الذهب والفضة . (أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٍ مِثْلَهُ) قال
 مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مِثْلَهُ » أى يلو هذه الأشياء زبد
 كما يلو السيل ، وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصارت ذاك زبدا ،
 كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجواهر ومن الذهب والفضة مما ينبت فى الأرض من المعادن
 فقد خالطه التراب ، وإنما يوقد عليه ليدوب فيزايه تراب الأرض . وقوله : (كَذَلِكَ يَصْطَرِبُ
 اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ قَامًا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً) قال مجاهد : جودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو
 ابن العلاء : أَجْفَاءَتِ القِدْرُ إِذَا ظَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبَ زَبَدُهَا ، وَإِذَا جَمَدَ فِي أَسْفَلِهَا . وَاجْتَفَاءُ
 مَا أَجْفَاءَ الْوَادِىَ أَيْ رَمَى بِهِ . وَحَكَى أَبُو عبيدة أَنَّهُ سَمِعَ رُوَيْبَةَ يَقْرَأُ « جُفَاءً » قَالَ أَبُو عبيدة :
 يُقَالُ أَجْفَلَتِ القِدْرُ إِذَا قَذَفْتَ بِزَبَدِهَا ، وَأَجْفَلْتَ الرِّيحَ السَّحَابَ إِذَا قَطَعْتَهُ . (وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
 النَّاسَ فَيَمَسُّكَ فِي الْأَرْضِ) قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافي . وقيل : الماء
 وما خلس من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ، وهو أن المثلين ضربهما الله
 للفق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحل
 كاضمحلال الزبد والنجس . وقيل : المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ،
 فشيء القرآن بالمطر لموم خيره وبقائه فقهه ، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن
 مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ »
 قال قسرا ، « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

«سورة العروس» : إن صح هذا التفسير فلفني فيه أن الله سبحانه مثل التوراة بالاسم مثل القلوب بالأودية ، ومثل الحكم بالساني ، ومثل التشابه بالزبد . وقيل : «زبد غابل لنفس وفورال الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلها» كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجرد في الوادي باقيا ، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السيئة ، والأخلاق الزكية ، التي بها جمال الرجال ، وقوام صالح الأعمال ، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء ، وبهما قيمة الأشياء . وقرأ حيد وابن تحيصل ويحي والاعمش وحزرة والكسائي وحض «يوقدون» بالياء ، واختاره أبو عبيد لقوله : «ينفع الناس» فأخبر ، ولا مخاطبة حادها . اليونون بالياء لقوله في أول الكلام : «أفأخذتم من دونه أولياء الآية . وقوله : «في النار» متعلق بمحذوف وهو في موضع الحال ، وذو الحال الهاء التي في «عليه» للتقدير : ومما توقدون عليه ثابها في النار أو كائنا ، وفي قوله : «في النار» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي اسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتلقى «في النار» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار لأن الموقد عليه يكون في النار ، فيصير قوله «في النار» غير مفيد . وقوله : «أخفاء حيلة» بفعل له . «زبد مثله» ابتداء وخبر ، أي زبد مثل زبد السيل . وقيل : إن خبر «زبد» قوله : «في النار» . الكسائي : «زبد» ابتداء ، و «مثله» نعت له ، والخبر في الجملة التي قبله ، وهو «ما يوقدون» . (كذلك يضرب الله الأمثال) أي كما ين لكم هذه الأمثال كذلك يضربها بينات . تم الكلام ، ثم قال : (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) أي أجابوا لاحتجاب بمعنى أجاب ، قال :

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ جَنَابٌ

وقد تقدم ، أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات . (الحسني) لأنها في نهاية الحسن . وقيل : من الحسني النصر في الدنيا ، والنعيم للقيم غدا . (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ)

(١٧) هو : أبو مشرعة الكريج بن عبد الصمد الطبري ، زيل مكة المكرمة ، التوفي سنة ٧٨٤هـ وتكلم :

«سورة العروس» في علم القراءات - (كشف القلوب) .

(١٨) هو كعب بن عبد النوى بن أخاه أبا المنوار ، ومذول البيت : «وداع دعاء من يجيب إلى التي»

أى لم يجهلوا إلى الإيمان به . (لَوْ أَنَّ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أى من الأموال . (وَمِنْهُم مَّنْ
مَّا لَمْ يَكْفُرُوا بِهِ) من طلب يوم القيلة ؛ نظيره في آل عمران : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ
يُغْفَلَ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَّئِنْ لَمْ يَرْكَبُوا الْأَرْضَ فَحَمًا وَلَوْ أَنَّهُمْ فُتِنُوا بِهِ حَتَّى حَسِبُوا أَنَّ أَصْحَابَ
السُّورَةِ الْحَسْبِ » أى لا يغفل لهم حسنة ، ولا يجاوز لهم عن سيئة . وقال فرقة السجتي^(١) قال
إبراهيم النخعي : يا فرقة ! اتدري ما سوء الحساب ؟ قلت : لا ! قال : أن يحاسب الرجل
بذنبه كله لا يفقد من شيء . (وَمَاتُوا) أى بسكنهم ومقامهم . (جَهَنَّمَ وَيُرْسَى إِلَيْهَا)
أى القرائش التي مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا) هذا مثل
خبره الله للؤمن والكافر ، وروى أنها نزلت في حجة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وإلى جهل
لنفسه الله . والمراد بالمتى عمى القلب ، والجاهل بالدين عمى القلب . (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ) .

قوله تعالى : (الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ لَمَّا يُبَيِّنْ لَهُمْ آيَاتِنَا)

فيه سببان :

الأول - قوله تعالى : (الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بَعْدَ اللَّهِ) هذا من صفة ذوى الألباب ؛
أى إنما يتذكر أولو الألباب للموفون بعهده الله . والعهده اسم المجلس ؛ أى جميع عهود الله
وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عبده ؛ ويحلل في هذه الألفاظ التزام جميع القروض ؛
ويجب جميع المعاصي . وقوله : (وَلَا يَتَّقُونَ لَمَّا يُبَيِّنْ لَهُمْ آيَاتِنَا) يحتمل أن يريد به جلس المواتيق ؛
أى إذا عقلوا في طاعة الله بهذا لم يتقوه ؛ قال قتادة : تقدم الله إلى عباده في قضى
الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بيته ، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢٦ وما بعدها ص ١٣١ وما بعدها طبعه أهل أمانة .

(٢) السجتي (يقتضون) إلى السجتي موضع بالبحر .

الله على جهنم من أجبرهم من صلب أبيهم آدم . وقال لقنقلا : هو ذا مكعب في حجرهم
من ذل على المسجد والنبوات .

الثانية - روى أبو داود وغيره من عوف بن مالك قال : كنا مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : **ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم** ؟
ونكا حديث عهد ببيعة قلنا : قد بايعناك [حتى قلنا ثلاثا] فبسطنا أيدينا فبايعناه . فقال
قائل : يا رسول الله ! إنا قد بايعناك [فقل ماذا نبتلك] قال : **ما كنت تبيعوا الله ولا تنصركوا**
به شيئا ونصأوا الصلوات الخمس وأسمعوا ويطيعوا - وأمر كلمة حقية - قال لا تسألوا
الناس شيئا . قال : ولقد كان بعض أولئك الثغور يسقط سبوطه فبايعنا أحدا أن ينار له
إياه . قال ابن العربي : من أعظم المواقف في الذكر ألا يبايع هؤلاء . فقه كان أبو حمزة
الطبرستاني من كبار الباطنية سمع أن أبا بصير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسألوا أحدا
شيئا . الحديث : فقال أبو حمزة : **رب ! إن هؤلاء ما عدوا نبيك إذ رأوا ، وأكفاهم**
ألا أسألك أحدا شيئا قال : فخرج سائلا من الشام يريد مكنتينا هو عيسى في الطريق من البقيع
إذ بقى عن أصحابه لمز ثم أتبعهم ، فبينما هو عيسى إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ،
نفسا حل في قعره قال : أمتيت لعل أحدا يسمعي . ثم قال : **إن الذي ما حدثه يأتني**
ويستعني ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر ففر ،
قلبا وأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه يئبني سد هذا البئر ، ثم قطعوا خشيا ونصبوها على
فم البئر وغطوها بالتراب ، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث
بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ، ثم رجع إلى نفسه فقال : ليس قد ما حدثت من
براك ؟ فسكنت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، وانحسب
يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : **ها هنا يدك ! قال : فأعطيته يدى فألقني في قعره واحدة**
إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ، فسمعت ها هنا يقول : كيف حوزت ثمرة التوكل ، وأنشد

(١) الزبادة من كتب الخطب .

فَأَنبَأَ حَيَاتِي مِنْكَ أَنْ اكْتَشَفَ الْمَوْتُ • فَأَعْنَيْتَنِي بِالْإِسْلَامِ مِنْكَ عَنِ الْكُفْرِ
تَلَطَّفْتَ لِي أَسْرَى فَأَبْنَيْتَ شَاهِدِي • إِلَى فَاتِي وَالْأَطْفُفُ يُسَدِّدُكَ بِالْأَطْفِ
تَرَانِي لِي بِالْإِسْلَامِ حَتَّى كَانِمَا • تَحْمِسِيَنِي بِالْغَيْبِ أَنْكَ فِي كُفْرٍ
أَرَانِي وَبِي مِنْ حَيَاتِي لَكَ وَحَقَّةً • فَتَوَكَّلْنِي بِالْأَطْفِ مِنْكَ وَالْأَطْفِ
وَنَحْيِي عِيَا أَنْتَ فِي الْمُبِّ حَقَّةً • وَقَدْ عَجِبْتُ كَيْفَ الْمُبَاةُ مَعَ الْحَتِيفِ

قال ابن العربي : هذا رجل عجب الله فوجد الله على التمام والكمال ، فاقبدها به إن شاء الله
تبتدوا . قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعيم إغاثة
على نفسه ، وذلك لا يصلح ، ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ،
كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفاه الخروج من مكة ، واستنجاهه
دليلاً ، وامتلاكه ذلك الأسر ، واستناره في الغار ، وقوله لسرافة : « آخِيفْ عَنَّا » . فالتوكل
المندوح لا يتألم بعمل عظيم ، وسكوت هذا الواقع في البئر عظيم عليه ، ويبان ذلك أن الله
تعالى قد خلق للإنسان آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يطلب بها النفع ، فإذا عطشها متجها
للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل ، ودنا لحكمة التواضع ، لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على
الله تعالى ، وليس من ضروره قطع الأسباب ، ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل
البار ، قاله سفيان الثوري وغيره ، لأنه قد دلَّ على طريق السلامة ، فإذا تمادى عنها أمان
على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبي حمزة : « بقاء أسد فأنرحي » فإنه
إن صح ذلك فقد يقع مثله أضافاً إليه . وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل ، ولا يكون
يكون الله تعالى لطف به ، إنما يكره له الذي هو كسبه ، وهو إغاثة على نفسه التي هي دعة
لله تعالى عنده ، وقد أسره بحفظها .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَكُونَ

وَالْحَسَنَةَ السَّيِّئَةَ أَوْلَيْتَ لِمَنْ عَقَى الْبَارِ ﴿١٦﴾ جَثَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُوهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ عَابِدِيهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٧﴾ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عَقَى الْبَارِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) ظاهر في صلة الأرحام، وهو
قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاقات : (وَيَحْتَشُونَ رَبَّهُمْ) فليته
في قطع الرحم . وقيل : في جميع المعاصي . (وَيَحْتَشُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) : سوء الحساب :
الاستقصاء فيه والمناقشة ؛ ومن فوقش الحساب عذاب . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير :
يعنى « يصلون ما أمر الله به » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة
عبد حبل الله عليه وسلم، ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح، « ويحشون ربه »
فيما أمرهم بوصله، « ويحشون سوء الحساب » في تركه ؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال
كما ذكرنا، والله توفيقنا .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) قيل : « الذين » ستأتي، لأن « صبروا »
ماضي فلا يستطع على « يوفون » . وقيل : هو من وصف من تقدم، ويجوز الوصف تارة
بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل ؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا ؛ ولما كان « الذين »
يتضمن الشرط [و] الماضي في الشرط والمستقبل جاز فأك ؛ ولهذا قال : « الذين يوفون »
ثم قال : « والذين صبروا » ثم عطف عليه فقال : « ويدبرون والحسنة السيئة » . قال ابن زيد :
صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله . وقال عطية : صبروا على الزايا والمصائب،
والمحطات والنواب . وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . (وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ) أدوموا بمخروضا وخشوعها في مواقيله . (وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) حتى
الزكاة المفروضة ؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في « البقرة » وفيها . (وَيَدْرُسُونَ

الجنة السنية أى يَدْخُلُونَ بِالسَّمَلِ الصَّالِحِ النَّاسِ مِنَ الْأَعْمَالِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَهْنُ زَيْدٍ
يَدْخُلُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ - مَعْدِنُ بَنِي جَعْفَرٍ: يَدْخُلُونَ الْمَكَرَّ الْمَعْرُوفَ - الضَّحَاكُ: يَدْخُلُونَ الْقَضَى
بِالْصَّلَامِ - جَوْزٍ: يَدْخُلُونَ الظُّلْمَ بِالْعَفْوِ - أَهْنُ شَجَرَةٍ: يَدْخُلُونَ الذَّنْبَ بِالتَّوْبَةِ - الْقَتْنَى:
يَدْخُلُونَ مَهْجَةَ الْجَاهِلِ بِالْحِلْمِ، فَالسُّفْهَةُ السُّبُتَةُ، وَالْحِلْمُ الْحُسْنَةُ - وَقِيلَ: إِذَا هَمَزُوا بِسُفْهَةٍ وَجَسُوا
مَنْهَا وَاسْتَغْفَرُوا - وَقِيلَ: يَدْخُلُونَ الشَّرْكَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَهَذِهِ تِسْعَةُ أَقْوَالٍ، مَعَهَا
كُلُّهَا مُتَقَارِبٌ، وَالْأَوَّلُ يَتَنَاوَلُهَا بِالْعُمُومِ، وَتَنْظِيرُهُ: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْعِينَ السَّيِّئَاتِ» وَمَنْهُ
قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَعَاذٍ: «وَأَتَيْسِعُ السُّيُتَةَ الْحَسَنَةَ تَحْتَهَا وَتَالِي النَّاسَ بِمُخْلِئِ حَسَنٍ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ لَمْ يَصِفِي الْبُيُوتَ» أَيْ عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ بِدَلِّ النَّارِ، وَالْبَارِ
فَعْدَا دَارَانِ: الْجَنَّةُ لِلطَّيِّعِ، وَالنَّارُ لِلْعَاصِي، فَلَمَّا ذَكَرَ وَصِفَ الْمُطِيعِينَ فَتَدَارَاهُمُ الْجَنَّةُ لِأَحْلَالَةٍ.
وَقِيلَ: عَنِ الْبَارِ دَارِ الدُّنْيَا؛ أَيْ لَمْ يَزَلْ مَا مَحَلُّوهُ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا» أَيْ لَمْ يَجْتَازْ عَدْنٌ؛ فَوَجَّهَتْ عَدْنٌ بِدَلِّ مِنْ
«عَقْبِي» - وَيُحْزَنُ أَنْ تَكُونَ تَفْسِيرًا لِمَا عَقِبِي الْبَارِ» أَيْ لَمْ يَدْخُلْ جَنَاتِ عَدْنٍ؛ لِأَنَّ «عَقْبِي
الْبَارِ» حُدِّثَ، وَ«جَنَاتِ عَدْنٍ» مَعْنَى: وَالْحَدَّثُ إِتْمَانًا يَفْسُرُ بِحَدَّثَ مِثْلَهُ؛ فَالْمَصْدَرُ الْمَحْدُوفُ
مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ - وَيُحْزَنُ أَنْ يَكُونَ «جَنَاتِ عَدْنٍ» خَبْرًا بِتَدَاءِ عُنُوفٍ - وَ«جَنَاتِ
عَدْنٍ» وَسَطُ الْجَنَّةِ وَقُصْبَتُهَا، وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ، قَالَه الْقَاسِمِيُّ أَبُو نَصْرِ عَبْدِ الرَّحِيمِ -
وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «إِنَّا سَأَلْنَا اللَّهَ فَسَأَلُوهُ الْقُرْدُوسُ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ
عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» - فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «جَنَاتِ» كَذَلِكَ، إِنْ مَجَّ
فَكَذَلِكَ خَبَرٌ - وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ قَصْرًا يُقَالُ لَهُ عَدْنٌ، حَوْلَهُ الْوُجُجُ
وَالْمُرُوجُ، فِيهِ أَلْفُ بَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ نَحْمَةُ أَلْفٍ جَبَرَةً لَا يَدْخُلُ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صَدِيقٌ
أَوْ شَهِيدٌ - وَ«عَدْنٌ» مَا خُذَ مِنْ عَدْنٍ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ؛ عَلَى مَا يَأْتِي بِإِيَّاهُ فِي سُورَةِ
«الْكَهْفِ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ. (وَمِنْ صَلَاحٍ مِنْ آيَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَزُكْرَاتِهِمْ) يُحْزَنُ أَنْ

(١) الحِجْرَةُ (بِكسر الحاء المهملة وضحاها): ضَرْبٌ مِنَ الْحِجَرِ لِلْجَنَّةِ مِثْرٌ. (٢) آيَةُ ٥١.

يكون معطوفاً على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم لهم حقى الدار . ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع فى « يدخلونها » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آباءهم ، أى من كان صالحاً ؛ لا يدخلونها بالانساب . ويجوز أن يكون موضع « من » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آباءهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لاعلى وجه التبعية . قال القشيري : وفى هذا نظير ؛ لأنه لا بد من الإيمان ، فالقول فى اشتراط العمل الصالح كالقول فى اشتراط الإيمان ، فالأظهر أن هذا الصلاح فى جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة عدا تم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قربائهم فى الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) أى بالتعجب والمهدايا من عند الله تكملة لهم . (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) أى يقولون : سلام عليكم ؛ فاضمر القول ، أى قد سلمت من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لم يدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويضمن الاعتراف بالعبودية . (وَمَا صَبْرُكُمْ) أى بصبركم ؛ فهما « مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء فى « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن يتعلق بمحذوف ؛ أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : على الفقر فى الدنيا ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « المجاهدون الذين نُسبوا بهم الثغور وثبت بهم الكرامة فموت أحدهم وجات فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فتم حقى الدار » . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبی صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : « السلام عليكم بما صبرتم فتم

عليه السلام وكذلك أبو بكر وعمر ومعاذ؛ وذكره البيهقي من ابن هُريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء، فإذا أتى فرضة الشَّيْب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فبهم عني الدار». ثم كان أبو بكر يمد النبي صلى الله عليه وسلم بفعله، وكان عمر يمد أبي بكر بفعله، وكان عثمان يمد عمر بفعله؛ وقال الحسن البصري رحمه الله: «بما صبرتم» عن فضول الدنيا. وقيل: «بما صبرتم» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: «بما صبرتم» عما تحبونه إذا قدتموه. ويحتمل ما بها - «بما صبرتم» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين رضي الله عنهما منهم: «أنها قالا»: إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: «أطلقوا إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنت؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها من معاصي الله، وصبرناها على البلاء والهم في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: أدخلوا الجنة فتم أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: «سلام عليكم بما صبرتم». (فَتِمَّ عَقْبِي النَّارِ) أي نعم طاعة الدار التي كنتم فيها، علمت فيها ما أعقبكم هذا الذي كنتم فيه؛ فالعقبى على هذا اسم، والدار هي الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: «فتم عقي النار» الجنة عن النار. ومعناه: «فتم عقي الدار» الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَسْقُطُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝ (٢٥) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ۝ (٢٦)

(١) فُرْجَةُ الشَّيْب: فرجة. والنسب: ما أخرج بين جبلين. والشهداء: كانوا يجبل أحد.

(٢) في الأصل: «وأنه قال».

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ هَدَىٰ اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ) لما ذكر الذين هموا
 والمواصلين لأمره ، وذكر ما لم ذكر حكمهم . قضى اليتامى ، ترك أسرهم . وليل ، إسماعيل .
 عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)
 أى من الأرحام ، والإيمان بجميع الآيات . (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) أى بالكفر وأرتكاب
 المعاصي . (أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ) أى العار والى الإبعاد من الرحمة . (وَلَمْ يَسْأَلِ اللَّهُ مِنْهُمُ الْجَزَاءَ) أى سواه
 المنقلب ، وهو جهنم . وقال سعد بن أبى وقاص ، والله الذى لا إله إلا هو أنهم الجورجية .
 قوله تعالى : (اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) لما ذكر عاقبة المؤمنين وعاقبة
 المشرك بين أنه تعالى الذى يسطر الرزق ويقدر فى الدنيا ، لأنها دار امتحان ، فيسطر الرزق
 على الكافر فلا يدل على كرامته ، والتقدير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم . « ويقدر »
 أى يضييق ، ومنه « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر
 الكفاية . (وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ببنى مشرك مكة ، فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجعلوا
 ما عند الله ، وهو معطوف على « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » . وفى الآية تقديم وتأخير ؛
 التقدير : والذين يقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون
 فى الأرض ويفرحوا بالحياة الدنيا . (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ) أى فى جنبها (إِلَّا مَتَاعٌ)
 أى متاع من الأمتعة ، كالقصعة والسكرجة^(١) . وقال مجاهد : شئ قليل ذاهب ، من متاع النهار
 إذا ارتفع ، فلا بد له من زوال . أبى عباس : زاد كراد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا
 ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يتردد منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، « ولم
 سواه البار » ثم ابتدأ « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع ويضييق .
 قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ^(٢) الَّذِينَ آمَنُوا
 وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ^(٣))

(١) السكرجة : إله صنيع يؤكل فيه اللبن ، التليل من الأدم ، وهو قارسية .

قوله تعالى : (وَمَقُولَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَقُولُ لَهُمْ قَوْلًا مِنْهُ) في قوله تعالى
 أَن أَمْرًا الْآيَاتِ عَلَى الرِّسَالِ جمل ، بعد ذلك وأما آية واحدة فتأمل على الصلوة ، والقائل
 عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات . (قُلْ إِنْ أَرَادَ
 مِنْ رَبِّي (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) لِي كَافِرًا لَّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بهما
 بضلكم عند نزول غيرها . (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ لَّنَابَ) أي من رجع . والماء في « إليه »
 حق ، أو للإسلامه فوجه من وجوه ، على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه
 بقوله . وقيل : من النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا) « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ، أي يهدي الله
 الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو في محل نصب أيضا . (وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فطمئن ، قال : أي وهم تطمئن قلوبهم
 على النوام بذكر الله بالسلم ، قاله قتادة . وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان
 ابن عيينة : بأمره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالخلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله
 وإنعلمه ، كما توجب بذكر عدله وأنتقامه وفضله . وقيل : « بذكر الله » أي يذكر الله
 ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته من بصيرة . (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أي قلوب
 المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الخلف ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل :
 « بذكر الله » أي بطاعة الله . وقيل : بشوابه الله . وقيل : بوعده الله . وقال مجاهد : هم
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ

مَعَاب (٢٦)

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ) ابتداء وخبر . وقيل : معناه
 لهم طوبى ، ذ « طوبى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لم يكونوا مصطف عليه و حسن مآب و حل الوحيين للذين آمنوا و قريع أو تعصب .
و ذكر عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البجلي عن حبة
ابن عبد السلام قال : جاء أصراي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة و ذكر الحوض
فقال : فيها ناكهة ؟ قال : نعم شجرة تدعى طوبى . قال : يا رسول الله أرى شجر أرضنا
تسبه ؟ قال : لا تسبه شيئا من شجر أرضك أأثرت الشام هناك شجرة تدعى الجسوة تسبه
على ساق و يقرش أهلها . قال : يا رسول الله إنا نعظم أصلها قال : لو أركحت جذعة
من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر رقبتها هرا . و ذكر الحديث و قد كتبه
و كناه في أبواب الجنة من كتاب « أئمة كرام » و الحمد لله . و ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا معمر
عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : في الجنة شجرة يقال لها
طوبى . يقول الله تعالى لها : عتقتي لعبدى عما شاء ففتحت له عن قوس بصرجه و لجامه
و هيئته كما شاء و تفتح عن الرحلة برجلها و زمامها و هيئتها كما شاء و عن الثعالب و الثياب .
و ذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال : « طوبى » شجرة
في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها و لا طبر حسن إلا هو فيها و لا ثمرة إلا هي منها
و قد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل
أهل الجنة ، كما أكتشرت العلم و الإيمان على جميع أهل الدنيا . و قال ابن عباس : « طوبى
لم » فرج لم و قرة عين و عنه أيضا أن « طوبى » اسم الجنة بالهشبية و قاله سعيد بن جبيرة
الريعي بن أنس : هو البستان بلسنة الهند قال القشيري : إن مع هذا فهو وفاق بين اللتين .
و قال قتادة : « طوبى لم » حسنى لم . عكرمة : نعى لم . إبراهيم النخعي : خبر لم ؟
و عنه أيضا كرامة من الله لم . الضحاك : غبطة لم . الثعالب : و هذه الأقوال متفرقة ؟
لأن طوبى فعل من الطيب ، أى البش الطيب لم ، و هذه الأختصاص ترجع إلى النسي و الطيب .
و قال الزجاج : طوبى فعل من الطيب ، و هى الحالة المستطابة لم ، و لأجل طيبى فصارت
الباء واداء سكنها ووض ما قبلها ، كما قالوا : موسر و موقر .

قلت : والصحيح أنها شجرة ، الحديث المرفوع الذي ذكره وهو صحيح على ما ذكره
 السلي ، ذكره أبو عمر في التمهيد ، ومنه قلناه ؛ وذكره أيضا الثعلبي في تفسيره ؛ وذكر أيضا
 المهدي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 « طوبى لشجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُبَتِّ الحِلْيَ والحُلل وإن أغصانها
 لَتُرَى من وراء سور الجنة » . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي . وقال ابن
 عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار علي ، وفي دار كل مؤمن منها عُصْن . وقال
 أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : « طوبى لهم وحسن مآب »
 قال : « شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : « شجرة
 أصلها في دار علي وفروعها في الجنة » فقيل له : يا رسول الله ! سُلِّتَ عنها فقلت : « أصلها
 في داري وفروعها في الجنة » ثم سُلِّتَ عنها فقلت : « أصلها في دار علي وفروعها في الجنة »
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن داري ودار علي فدا في الجنة واحدة في مكان واحد » .
 وعنه صلى الله عليه وسلم : « هي شجرة أصلها في داري وما من دار من داري إلا مُدَلَّ فيها
 عُصْن منها » . (وحسن مآب) آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن
 قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
 لَبِثُوا عَالَمِينَ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ) أي أرسلناك كما أرسلنا
 الأنبياء من قبلك ، قاله الحسن . وقيل : شبه الإمام علي من أرسل إليه عهد عليه السلام
 بالإمام علي من أرسل إليه الأنبياء قبله . (قَتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) بنى القرآن .
 (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) قال مقاتل وأبى جحج : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصلح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : " أكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سميل بن عمرو والمشركون : ما تعرف الزمن إلا صاحب الجلالة ، بنتون مسيلة الكذاب ، أكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : " أكتب هذا ما صالح عليه عهد رسول الله " فقال مشركو قريش : لن كنت رسول الله ثم فاعلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه عهد بن عبد الله ، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاطهم ، فقال : " لا ولكن أكتب ما يريدون " فزلت . وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أعبدوا الرحمن " قالوا : وما الرحمن ؟ فزلت (قل) لم يا محمد ، الذي أنكرتم (هو ربّي لا إله إلا هو) ولا معبود سواه ، هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . (عليه توكلت) وأخذت ووثقت . (وإليه متاب) أي مرجى فدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضا بفضائه ، وتسلي لأمره . وقيل : مع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الجعر ويقول : " يا الله يا رحمن " فقال : كان عهد بنها عن عبادة الألهة وهو يدعو الهين ، فنزلت هذه الآية ، ونزل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتُ بَلْ لَيْلَهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَعَوْا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) هذا متصل بقوله : « ولا تزل عليه آية من ربه » . وذلك أن قرا من مشرك مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية

المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ، فقال له عبد الله : إن شركك أن نملك فسركا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تنفس ، فإنها أرض ضيقة ، وأجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ، حتى نفرس ونزرع ، فليست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين تنفر له الجبال قسيده . وتنفر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى طلبنا وحوادثنا ، ثم نرجع من يومنا ، فبعد كان سليمان يحضر له الريح كما زعمت ، فليست بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأتى لنا قصب جندك ، أبو من شئت أنت من موثانا نسأله ، أحق ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن موسى كان يحيى الموتى ، وليست بأهون على الله منه ، فأنزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سميت به الجبال » الآية ، قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك ، والجواب مذهبهم : لكان بهذا القرآن ، لكن حذف الحزاء ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ، كما قال أمرؤ القيس

قُلُوا أَنبَا نَفْسُ مَوْتُ جَمِيعَةٍ • وَلَيْكُنْهَا نَفْسُ تَسَاقُطِ أَنْفُسَا

يعنى لما نزل ، وهذا معنى قول قتادة ، قال : لو قل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب مقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الأرباب : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ، والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « ولو أنزلنا قرآننا إليهم بالملائكة » إلى قوله : « ما كانوا يؤمنوا إلا أن يشاء الله » . (قوله الأئمة جميعا) أى هو المسالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تنسونه بما يكون بالقرآن ، لما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَكُنْ يَدْعُو الْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا) قال الفراء قال الكلبي : « يئس » بمعنى يعلم ، لغة النخع ، وحكاه الثعلبي عن ابن عباس ، أى أفلم يعلموا ، وقاله الجوهرى في الصحاح .

وقيل : هو لغة هوازن ، أى أقلم يعلم ، عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو حنيفة :
 أقلم يعلموا ويتبعوا ، وأنته في ذلك أبو حنيفة لما كان بين حلف القسريين :
 أقول لهم بالشعب إذ يسروني . ألم يتسوا أنى أنى فارس زعم
 يسروني من المشرك ، وقد هزم في « البقرة » وروى بأسروني من الأمر . وقال رباح
 ابن حنبل :

ألم يتسوا الأوثان أنى [أنا] أبنته . وإن كنت من أرض المشية ثانيا .

في كتاب الرد « أنى أنا أبنته » وكذا ذكره القزويني : ألم يعلم ، وللمن على هذا : ألم يعلم الذين
 آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس
 المعروف ، أى ألم يعلم الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لهم أن الله تعالى لو أراد
 هدايتهم لهداهم ، لأن المؤمنين آمنوا نزول الآيات طمعا في إيمان الكفار . وقيل على
 وابن عباس : « ألم يعلم يقين الذين آمنوا » من البيان . قال القشيري : وقيل لابن عباس
 المكتوب « ألم يعلم » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناس ، أى زاد بعض المفسرين
 حتى صار « يعلم » . قال أبو بكر الأنباري : روى عكرمة عن ابن أبي نعيم أنه قرأ : ألم
 يقين الذين آمنوا » وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة ، وهو باطل من ابن عباس
 لأن مجاهدا وسعيد ابن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو في المصحف بقراءة
 أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسفيان بن جبير عن ابن عباس ، ثم إن معناه : ألم يقين
 لأن كان مراد الله تحت اللقطة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وثائق بتأويلها
 وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق السلم فقد سقط مما لا وجود له

- (١) ذكر في « لسان العرب » أن قال البيت هو سم بن ذئبل البربري ، قال : وذكره التتبع لله
 فولد جابر بن سم بن ذئبل قوله فيه : « أنى أن فارس زعم » وزعمهم ، فرس سم . وقوله : يسروني من المشرك
 الجوزي : أى يسروني وخسروني ، وذكر ذلك لأنه كان وقع عليه حيا ففسروا عليه بالسر ففاسد حتى فسد
 مداه . (٢) راجع ٣ ص ٥ طبة أول أو ثانيا . (٣) قوله في الأصول حقيقة « ولما »
 والواجب إثباتها كما في كتاب « الرد » إذ أن البيت من الطويل ، وجعلها لا يستقيم .

وَأَمَّا مَسْقُوطُهُ بِطَلِّ الْقَرْكَانِ ، وَزَيْمُ أَحْبَابِهِ الْبَيْتَانِ . (لَنْ تَرَيْتَهُ اللَّهُ) . أَنَّهُ مَحْفُوفٌ مِنَ
النَّفْسِ ، أَيْ إِنْ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ (لَمْ تَلِدْ النَّاسَ جَمِيعًا) وَهُوَ يَرْدُّ عَلَى الْقَدَرِ وَضَعِهِمْ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ) أَيْ دَاهِيَةٌ تَهْجُمُ
بِكُفْرِهِمْ وَهَاجُمُهُمْ ، وَيُقَالُ : قَرَعَهُ أَسْرَ إِذَا أَصَابَهُ ، وَاجْتَمَعَ قَوَارِعُ ، وَالْأَصْلُ فِي الْفَرْعِ
الضَّرْبُ ، قَالَ :

أَتَى يَلَادِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَسَبٍ • فَسَرُّ الْقَوَارِعِ أَقْوَاهُ الْإِبَارِيقِ

أَيْ لَا يَزَالُ الْكَافِرُونَ يُصِيبُهُمْ دَاهِيَةٌ مَهْلِكَةٌ مِنْ صَاعِقَةٍ كَمَا أَصَابَ أُرَيْدُ أَوْ مِنْ قَتْلِ
أَوْ أَسْرِ أَوْ جَلْبٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْبَلَاءِ ، كَمَا تَزِلُّ بِالْمُسْتَزِينَ ، وَنَحْمُ رُؤَسَاءَ الْمُشْرِكِينَ .
وَقَالَ حِكْمَةُ مِنْ ابْنِ حَبَّاسٍ : الْقَارِعَةُ النَّكْبَةُ . وَقَالَ ابْنُ حَبَّاسٍ أَيْضًا وَعَرَكَةُ : الْقَارِعَةُ الطَّلَاعُ
وَالسَّرَّاءُ الَّتِي كَانَ يُنْفِخُهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ . (أَوْ تَحُلُّ) أَيْ الْقَارِعَةُ
(قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ) قَالَهُ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ . وَقَالَ ابْنُ حَبَّاسٍ : أَوْ تَحُلُّ أَنْتَ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ .
وَقِيلَ : نَزَلَتِ الْآيَةُ بِالْمَدِينَةِ ، أَيْ لَا تَزَالُ تُصِيبُهُمُ الْقَوَارِعُ فَتَقْتُلُ بِسَاحَتِهِمْ أَوْ بِالْقَرَبِ مِنْهُمْ كَقَرَى
الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ . (مَنْ يَأْتِي وَعَدَ اللَّهِ) فِي تَحْقِيقِ مَكَّةَ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ بِمَكَّةَ ،
أَيْ تُصِيبُهُمُ الْقَوَارِعُ ، وَتُخْرِجُهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ بِأَجْدٍ ، فَتَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ، أَوْ تَحُلُّ بِهِمْ
عَاصِرًا لَهُمْ ، وَهَذِهِ الْحَاصِرَةُ لِأَهْلِ الطَّائِفِ ، وَلِقِلَاحِ خَيْرٍ ، وَيَأْتِي وَعَدَ اللَّهُ بِالْإِذْنِ لَكَ فِي قِتَالِهِمْ
وَفَتْحِهِمْ . وَقَالَ الْحَسَنُ : وَعَدَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَقَدْ اسْتَبْرَأْ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
فَمُخْلَتُهُمْ فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٦﴾ أَقْبَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُ مُمَوَّنَةٌ أَمْ يُخَوِّنُونَكَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ
فِي الْأَرْضِ أَمْ يَنْظُرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَاصْدُوا

(١) حرر الأئمة الأئمة ، وأما القصة بن عبد الله . والقول : الحال القديم المروث . والضرب : الضرب
والبيان وما جده به . والقول : (جمع قارعة) ، وهو أن يهرب بها القوم .

مِنَ السَّبِيلِ وَمَن يَضِلِّ لَنُفِضِلَنَّ لَهُ مَا مِنْ مَّاءٍ ۖ ثُمَّ مَدَّابُ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَكْى ۝

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَسْتَوِىٰ رُسُلٌ مِّن قِبَلِك فَاَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا نَجْمًا خَدِثْتُمْ) عليهم منى
الاستزاء في « البقرة » فومعنى الإملاء في « آل عمران » « لَمَّا أَخَذْتُمُوهُم » ولقد رأى عليهم فاملت
الكافرين مدة ليؤمن من كان في عالمي أنه يؤمن منهم ؛ فلما حق الفضله أخذتهم بالبقرة .
(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابُ) أى فكيف رأيت ما صنعت بهم ؛ فكذلك لمصع بمشرك قوتك .

قوله تعالى : (أَفَنُؤْمِنُ بِمَا كَسَبَتْ) ليس هذا القيام القيام الذي
هو ضد القعود ، بل هو بمعنى التوى لأموال الخلق ؛ كما يقال : قام فلان بفعل كذا ؛ فإنه قام
على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب ، ويحفظها ويرزقها ويحفظها ويحاربها على
عملها ؛ فالمعنى : أنه حافظ لا ينفل ، والجواب محذوف ؛ والمعنى : لأن هو حافظ لا ينفل
كمن ينفل . وقيل : لأن هو قائم أى عالم ؛ قاله الأعشى . قال الشاعر :
فلولا رجال من قريش أضره • سرقت ثياب البيت ولله قائم

أى عالم ؛ فله عالم يكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة المذكورة فى آية
عن الضحاك . (وَجَعَلُوا) حال ؛ أى قد جعلوا أو عطف على « لَمَّا أَخَذْتُمُوهُم » كسبتهم
وجعلوا ؛ أى تتوا (فِي شُرَكَاء) بين أصناما جعلوها الهة . (قُلْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاعْلَمُوا
بِأَعْمَد : « متوكل » أى يتوا استعاضهم على جهة التهديد ؛ أى إنما يستوي : الذين والذين
وسنة وقيل . (أَمْ تَتَنَبَّؤُهُ بِمَا لَا يَلْمُ فِي الْأَرْضِ) أم ، استفهام توبيخ ، أى لتنبؤونه ؟
وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم فى المعنى ؛ لأن قوله : « متوكل » معناه :
أعلم أسماء الخلقين أم تنبؤونه بما لا يلم فى الأرض ؟ . وقيل : للمعنى قل لم أتنبؤونكم
بباطن لا يعلمه ، أم بظاهر من القول يعلمه ؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه بطايرك ولا بالبر
(١) راجع ٢٠٠ ص ١٠٠٠ راجع ٢٠١ ص ١٠٠٠ (٢) راجع ٢٠٢ ص ١٠٠٠ راجع ٢٠٣ ص ١٠٠٠

يُظَاهِرُ بِمَا لَمْ يَقُلْ لَمْ : صَوِّمَ ، فَإِذَا صَوَّمَ اللَّائِي وَالْمَرْيَ قُلْ لَمْ : لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ شَرِيكَ . وَفِيهِ : أَمْ تَهْتُونَ . حُطِّبَ عَلَى قَوْلِهِ : « إِنْ هُوَ قَاتَمٌ » أَيْ إِنْ هُوَ قَاتَمٌ ، أَمْ تَهْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ، أَيْ أَنْتُمْ تَدْعُونَ إِلَهَ شَرِيكَ ، وَاللَّهُ لَا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ شَرِيكَ ، أَفَتَهْتُونَهُ بِشَرِيكِ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ! وَإِنَّمَا خَصَّ الْأَرْضَ بِنَفْيِ الشَّرِيكِ هُنَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي غَيْرِ الْأَرْضِ لِأَنَّهُمْ ادَّعَوْا لَهُ شَرِيكَ فِي الْأَرْضِ . وَمَعْنَى (أَمْ يَتَّبِعُونَ مِنَ الْقَوْلِ) : الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَاهُ يَبْطُلُ مِنَ الْقَوْلِ ، وَمَعَ قَوْلِ الشَّاهِرِ :

أَمَرْتَنِي بِالْإِسْهَاءِ وَالْحُسُونِ . وَذَلِكَ حَادٌّ بِأَنَّ رِقْعَةَ ظَاهِرُهُ

أَي بَاطِلٌ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : يَكْتَبُ مِنَ الْقَوْلِ . وَيَحْتَمِلُ خَاسِئًا - أَنْ يَكُونَ الظَّاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ حُجَّةً يَتَّبِعُونَهَا بِطَوْلِمْ ، وَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ : أَتَهْتُونَ بِهِ ذَلِكَ شَاهِدِينَ ، أَمْ يَقُولُونَ حُجَجِينَ . (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَكْرٌ) أَيْ دَعِ هَذَا ! بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرٌ . قِيلَ : أَسْتَدْرَاكٌ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، أَيْ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ ، لَكِنْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرٌ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَبَعَادَهُ - « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَكْرٌ » . مَعْنَى الْقَاعِلِ ، وَعَلَى قِرَاءَةِ الْجَمَاعَةِ فَالَّذِي زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَكْرٌ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقِيلَ : الشَّيْطَانُ . وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى الْكَفَرُ مَكْرًا ، لِأَنَّ مَكْرَهُ بِالرَّسُولِ كَانَ كَفْرًا . (وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) أَيْ صَنَعَهُمُ اللَّهُ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ حِزَّةٍ وَالْكَافَى . الْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ ، أَيْ صَنَعُوا غَيْرَهُمْ ، وَاخْتَارَهُ أَبُو حَاتِمٍ ، اعْتِبَارًا بِقَوْلِهِ : « وَصَيِّفُونَ عَنِ السَّبِيلِ » اللَّهُ . وَقَوْلُهُ : « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وَقِرَاءَةُ الضَّمِّ أَيْضًا حَسَنَةٌ فِي « زَيْنَ » وَ« صُنُّوا » لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ فَاعِلُ ذَلِكَ فِي مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، فَفِيهِ إِثْبَاتُ الْقَسْرِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي عَيْنٍ . وَفَرَأَ بِحِيْنَ وَتَابَ وَعَلَّقَهُ - . وَ« وَصُدُّوا » بِكَسْرِ الْمَادِ ، وَكَذَلِكَ « صَيِّفُوا بِضَاعَتَا رَقَّتْ إِلَيْكَ » بِكَسْرِ الْهَاءِ أَيْضًا عَلَى مَا لَمْ يَسْمِ قَاعِلُهُ ، وَأَصْلُهُا صَيِّفُوا وَوُجِدَتْ ، فَلَمَّا ادَّعَمَتِ الدَّلَالُ الْأُولَى فِي الثَّانِيَةِ تَقَلَّتْ حَرَكَتُهَا عَلَى مَا أَهْلُهَا فَابْتَسَمَ . (وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ) بِضَلَاةٍ (قَسَلَهُ مِنْ حَادٍ) أَيْ مَوْقٍ ، وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ قِرَاءَةِ الْكَوْفِيِّينَ وَمَنْ تَابَهُمْ لِقَوْلِهِ : « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « وَصُدُّوا » . وَمَعْنَى الْقَرَاءَةِ

يقعون على الذل من غير الياء ؛ وكذلك والى وواقي ؛ لأنت تقول فى الرجل : هذا هايس والى
 وهايد ؛ فحذف الياء لسكونها والتقاءها مع التنوين . وقرى « فاه من هايدى » وهو والى «
 و « واقى » بالياء ؛ وهو على لغة من يقول ؛ هذا داعى والى وواقي بالياء ؛ لأن حذف الياء
 فى حالة الوصل لا لتقاءها مع التنوين ، وقراءتنا هذا فى الوقف ؛ فردت الياء فصار هايدى والى
 وواقي . وقال الخليل فى نداء قاضى : يا قاضى بثبات الياء ؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما
 لا تنوين فى نحو الداعى والمعالى .

قوله تعالى : (لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى للشركين الصادقين باقتل والسي
 والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . (وَلَعَلَّكَ الْآخِرَةُ أَشَقُّ) أى أشد ؛ من
 قولك : شق على كذا يسق . (وَمَا لَهُمْ مِنْ أَفْرَيْنَ) أى مانع بهم من عذابه
 ولا دفع . و « من » زائدة .

قوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ
 النَّارُ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ) اختلف العلماء فى رفع « مثل » فقال
 سيبويه : أرتفع بالابتداء وانخر عذوف ؛ والتقدير : وفيما يثل عليكم مثل الجنة . وقال
 الخليل : أرتفع بالابتداء وخبره « تجري من تحتها الأنهار » أى صفة الجنة التى وعد المتقون
 تجري من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولى يقوم زيد ؛ فقول مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ؛ والمثل
 بمعنى الصفة موجود ؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » وقال ؛
 « وَرَبِّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الصفة العليا ؛ وأمره أبو علي وقال : لم يسمع مثل بمعنى الصفة ؛
 إنما معناه التشبيه ؛ ألا تراه يجرى مجراه فى مواضعه ومنصرفاته ؛ كقولهم : صيرت برجل
 مثلك ؛ كما تقول : صيرت برجل شريك ؛ قال : ويفسده أيضا من جهة المعنى ؛ لأنه مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقديم الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار ، وذلك غير مستقيم ؛ لأن :
 الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مثل أفع من وجل لنا ما غلب صبا زمام
 والمعنى : مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأنكره أبو ملي فقال : لا يخلو المثل على
 قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة
 لم يصح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنة جنة ، بلغت الجنة خبرا لم يستقيم ذلك ؛ لأن الجنة
 لا تكون الصفة ، وكذلك أيضا شبه الجنة جنة ؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المسألة التي بين
 المتماثلين ، وهو حدث ، والجنة غير حدث ؛ فلا يكون الأول والثاني . وقال الفراء : المثل
 مفعم للتاكيد ؛ والمعنى : الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ والعرب تفعل ذلك
 كثيرا بالمثل ، كقوله : « ليس كمثل نبي » ؛ أي ليس هو كشيء . وقيل التدمير : صفة
 الجنة التي وعد المتقون صفة جنة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنة التي وعد
 المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود ؛ قاله مقاتل .
 « أَكَلُهَا دَائِمٌ » لا ينقطع ؛ وفي الخبر : « إذا أخذت ثمرة مادت مكانها أخرى » وقد بيناه
 في « التذكرة » . « وَظِلُّهَا » أي وظلها كذلك ؛ غلف ؛ أي ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول ؛
 وهذا رد على البهيمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويغنى . « تِلْكَ حَقِيقَةُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَقَّبَى
 الْكَاذِبِينَ النَّارُ » أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ »
 وَمِنَ الْأَمْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُمْ قُلُوبًا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ
 وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ ۝

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » أي بعض من أوتي
 الكتاب يفرح بالقرآن ، كابن سلام وسلمان ، والذين جاءوا من الحبشة ؛ فاللفظ عام ، والمراد
 الخصوص . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن ؛ وقاله مجاهد

واين ذب - وعن مجاهد ايضا انهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بقرآن القرآن تصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه سامع قلة ذكر الرحمن في القرآن منع كثرة ذكره في التوراة ، فسألو النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأئذ الله تعالى : « قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » فقلت قريش : ما بال عبد يدعو إلى الله واحد فأصبح اليوم يدعو المني ، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا الرحمن العظمة ، يعنون مسئلة الكتاب ، فقلت : « وَنَعَمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنُ ثُمَّ كَافِرُونَ » « وَنَعَمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ، فأئذ الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَجْرُهُمْ يَبْلُغُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابُهُمْ » (وَمِنَ الْأَحْزَابِ) يعني مشركي مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن ، لأن فهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . (قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَتَى اللَّهَ أَن يُعْزِزَ اللَّهُ وَلَا أَتَىكَ بِهِ) قراءة الجماعة بالنصب مطلقا « اعبده » . وقرا أبو خالد بالرفع على الاستئناف ، أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأنبأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزى ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كالبيهود . (وَإِلَيْهِ ادْعُوا) أي إلى عبادة ادعوا الناس . (وَإِلَيْهِ مَأْجِبٌ) أي أرجع في أموري كلها .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ حُكُمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حَكَمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكذا أنزلنا عليك القرآن فأنزل بكسر
الأحزاب كذلك أنزلنا حكمًا عربيًا ، وأنا وصفه بذلك لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ،
وهو عربي ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضًا . وقيل نظم الآية : وكذا أنزلنا الكتاب على
الرسول بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكمًا عربيًا ، أى بلسان العرب ، ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . فلهذا لم يرد بالحكم العرفي القرآن كله ؛ لأنه يحصل من الحق والباطل . وعلمكم .
(وَلَقَدْ أَنْبَأْتُمْ أَهْلَ نَحْمَ) أى أهواء المشركين في عبادة ما دون الله ، وفي التوجه إلى غير
الكعبة . (بَعْدَ مَا يَأْتِيكَ مِنَ الْبَلِّ مَا لَكَ مِنْ آلَهِ مِنْ وَدٍ) أى ناصر ينصرك . (وَلَا وَاقٍ)
يمتلك من عذابه ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ ﴿٢٨﴾

فيه مستطاب :

الأولى - قيل إن اليهود ما يروى على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعبرته بذلك
وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن
النساء ، فأنزل الله هذه الآية ، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً) أى جعلناهم بشرًا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما
التخصيص في الوحي .

الثانية - هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه ، ونهى عن التبتل ،
وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المسلمين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ،
قال صلى الله عليه وسلم : «تزوجوا فإنى مكاتبكم الأثم» الحديث . وقد تقدم في «آل عمران» .
وقال : «من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الثاني» . ومعنى ذلك
أن النكاح ينف عن الزنى ، والعفاف أحد الخصالتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليهما الجنة فقال : «من وقاء الله شرأتنتين ربح الجنة ما بين لحيه وما بين رجليه» ترجمه
الموطأ وغيره . وفي صحيح البخاري عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي

(١) : باب ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعه أول مرة .

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أنا أنا غافى أصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إني أرى الذين قمت كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصل وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " . تحريمه مسلم بمعناه ؛ وهذا بين ، وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لأخصمتنا ، وقد تقدمت في « آل عمران » الحفص على طلب الولد والزوجة على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لى فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتتها ؛ قيل له : وما يهلك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حتى أن يخرج الله منى من يكافره النبي صلى الله عليه وسلم التدين يوم القيامة ؛ وإني سمعته يقول : " عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها وأحسن أخلاقا وأنتق أرحاما وإني مكاثركم الأمم يوم القيامة " حتى بقوله : " أنتق أرحاما " أقبل للولد ؛ ويقال للزوجة الكثيرة الولد ناتي ؛ لأنها تربي بالأولاد رميا . ونرج أبو داود عن معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال " لا " ثم أماته الثانية فنهاه ، ثم أماته الثالثة فقال : " تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثركم الأمم " . صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَسُولٌ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذَنَ اللَّهُ) عاد الكلام إلى ما أقرعوا من الآيات - ما تقدم ذكره في هذه السورة - فأنزل ذلك فيهم ؛ وظاهر الكلام حظر وعصاه النفى ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) أى لكل أمر قضاء الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله القرطبي والزمخشري ؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، نظيره : (لِكُلِّ نَبَأٍ مَسْفُورٌ)

يَنْ أَن الْمُرَادَ لَيْسَ عَلَى اقْتِرَاحِ الْأَهْمِ فِي تَزْوِيلِ الْعَذَابِ، بَلْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى لِكُلِّ مَدَّةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ، وَأَمْرٌ مُسْتَدْرَكٌ لَا تَقِفُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ . وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ الْجَحِيمَ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أَرْتَقَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُورَ سَيْنَاءَ رَأَى الْجَبَّارُ فِي إصْبَعِهِ خَاتَمًا، فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا هَذَا ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، قَالَ : شَيْءٌ مِنْ حُلِيِّ الرِّجَالِ، قَالَ : فَهَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَسْمَائِ مَكْتُوبٍ أَوْ كَلَامٍ ؟ قَالَ : لَا، قَالَ : فَاصْكُتْ عَلَيْهِ « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

قوله تعالى : **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ**) أى يَمْحُو مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ مَا يَشَاءُ أَنْ يُوَفَّقَهُ بِأَهْلِهِ وَيَأْتِي بِهِ « وَيُثَبِّتُ » مَا يَشَاءُ ، أَيْ يُثَبِّتُهُ إِلَى وَقْتِهِ ؛ يُقَالُ : مَحَوْتُ الْكِتَابَ مَحْوًا، أَيْ أَذْهَبْتُ أَثَرَهُ . « وَيُثَبِّتُ » أَيْ وَيُثَبِّتُهُ، كَقَوْلِهِ : « وَاللَّذَاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » أَيْ وَالذَّاكِرَاتِ اللَّهُ .

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَطَاعُضٌ « وَيُثَبِّتُ » بِالْمُتَغَفِّفِ، وَشَدَّدَ الْبَاقُونَ ؛ وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَخْتَارَ أَبُو جَانِمٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ لِكَثْرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهَا ؛ لِقَوْلِهِ : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » . وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَالْمَوْتَ » . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا الْأَشْيَاءَ وَالْخَلْقَ وَالْخُلُقَ وَالْأَجَلَ وَالرِّزْقَ وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ؛ وَعَنْهُ : هُمَا كِتَابَانِ سِوَى أُمِّ الْكِتَابِ، يَمْحُو اللَّهُ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ (**وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**) الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ مِنْهُ شَيْءٌ . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : وَقِيلَ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ وَالْخَلْقُ وَالرِّزْقُ لَا تُتَغَيَّرُ ؛ فَالْآيَةُ فِيهَا عِدَا هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؛ وَفِي هَذَا الدُّوْنِ نَوْعٌ تَحْكُمُ .

قلت : مِثْلُ هَذَا لَا يَدْرُكُ بِالرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ تَوْقِيفًا، فَإِنْ صَحَّ قَالُوا بِهِ يُحِبُّ وَيُوقَفُ عِنْدَهُ، وَإِلَّا فَتَكُونُ الْآيَةُ عَامَةً فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَجَلَّتْ

روى عنه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبن مسعود وأبن وائل وكعب الأحمري وغيرهم
 وهو قول الكلبى . وعن أبى عثمان التيمى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف
 بالبيت وهو يسبح ويقول : اللهم إن كنت كيتبى في أهل السعادة فائتبنى فيها ، وإن كنت
 كيتبى في أهل الشقاوة والذنب فاعننى وأيتبنى في أهل السعادة والمنفرة ، فإنك تحب ما تشاء
 وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كيتبى في السعداء فائتبنى
 فيهم ، وإن كنت كيتبى في الأشقياء فاعننى من الأشقياء وأكيتبى في السعداء ، فإنك تحب
 ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت
 كيتبنا أشقياء فاعننا وأكيتبنا سعداء ، وإن كنت كيتبنا سعداء فائتبنا ، فإنك تحب ما تشاء
 وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال جعب لعمر بن الخطاب : لولا آية في كتاب الله لأبائت
 بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يحو الله ما يشاء » وثبت وعنده أم الكتاب . وقال مالك
 ابن دينار في المرأة التى دعا لها : اللهم إن كان في بطنها جارية فأينسها فلانما فلانك تحب
 ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدم في الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت
 النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَرَّ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْشَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً »
 وبئله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ » فذكره بلفظه
 سواء ، وفيه تأويلان : أحدهما - معنى ، وهو ما يبقى جسده من التناهي الجليل والذكر
 الحسن ، والأجر المتكرر ، فكانه لم يموت . والآخر - يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ ،
 والذي في علم الله ثابت لا يتبدل له ، كما قال : « يحو الله ما يشاء » وثبت وعنده أم الكتاب . وقيل
 لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قاله « مَنْ أَحَبَّ »
 أن يمد الله في عمره وأجله ويسط له في رزقه فليص الله وليصل رَحْمَةً كيف يزداد في العمر
 والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي يَخْتَصِمُ بَيْنَ عِبادِهِ إِذْ يُفْعَلُ أَجْلاً وَأَجْلاً »
 سُئِلَ عَنْهُ . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

الثاني - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا أتى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء ، وإذا صمى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء ، فيزيده في أجل البرزخ ؛ فإذا تحم الأجل في علمه السابق أمتنع الزيادة والنقصان ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية ؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ ؛ في اختيار خبر الأمة ، والله أعلم . وقال مجاهد : يحكم الله أمر السنة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضمك : يحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ؛ ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الكلبي : يحو من الرزق ويريد فيه ، ويحو من الأجل ويريد فيه ؛ ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ؛ مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت ونجست ونحوه ، وهو صادق ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير : يحو الله ما يشاء من الفرائض والنواقل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا يفسخه ، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس ؛ قال النحاس : وحدثننا بكر بن سهل ، قال حدثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس « يحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، « ويثبت ما يشاء » فلا يبدله ، « وعند أم الكتاب » يقول : جملة ذلك عنده في أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جبير أيضا : ينفر ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا ينفره . وقال عكرمة : يحو ما يشاء - يعني - بالتوبة - جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسناً [قال تعالى ^(١)] : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال

الحسن : « يحو الله ما يشاء » من بقاء أجله « ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسن
 يحو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنسى الحَقُّة من القنوب ولا يُنسى . وقال
 السدي : « يحو الله ما يشاء » يعنى : القمر « ويثبت » يعنى : الشمس ، بيانه قوله «
 قَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا فى الأرواح حلة
 النوم ، يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته بقاء أسكه ، ومن أراد بقاءه أثبتته وربده
 إلى صاحبه ، بيانه قوله : « الله يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال على بن أبى طالب :
 يحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء
 منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قرنا ، ويثبت قرنا . وقيل :
 هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ، فهو الذى
 يحسو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من
 ديوان السيئات ، ويثبت فى ديوان الحسنات ، ذكره الثعلبي والمبارودي عن ابن عباس «
 وقيل : يحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال جيس بن عباد فى اليوم
 العاشر من رجب : هو اليوم الذى يحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ، وقد تقدم من
 مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسمى بحماسة عام
 من دزة بيضاء ، لها دقان من باقوة حمراء ، فيه فى كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت
 ما يشاء ويحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا الله
 سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يتيقن من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد
 غيره فيثبت ما يشاء ويحو ما يشاء » . والعقيدة أنه لا تبدل قضاء الله ، وهذا الحو والإثبات
 مما سبق به القضاء ، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعا محتملا ، وهو الثابت ، ومنه
 ما يكون معروفا بأسباب ، وهو المجهول ، والله أعلم . والنزوى : وعنه أن ما فى اللوح يخرج
 عن القلب لإحاطة بعض الملائكة ، فيحتمل التبدل ، لأن إحاطة الخلق بجمع علم الله حال
 وما فى قلبه من تكميل الأتمية لا يمتثل . « وعنه أم الكتاب : أمه أصل ما يكتب من الآيات »

وقهيهٗ • وقيل • أم الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يتبدل ولا يغير • وقد قيل : إنه يحرق فيه التبديل • وقيل : إنما يحرقى الجرائد الأخر • وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق • وما خلقه عاملون • فقال لعلمه : كن كتاباً • ولا تبديل فى علم الله • وعنه أنه الذكر • دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهذا يرجع معناه إلى الأول • وهو معنى قول كعب • قال كعب الأحبار : أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق •

قوله تعالى : وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ
فَلْيَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ
نَنفُخُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ بَخِيرٌ عَلِيمٌ وَهُوَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تَرِيْتِكُمْ بِحَضْرَتِي نَكِبٌ) ما « زائدة ، والتقدير : وإن تريتكم بعض الذي نكبت ، أى من المناب ، لقوله : « لَمْ يَكُنْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي سَبِيلِهِمْ مَا صَنَعُوا قَارِعَةً » أى لفت أوتيك بعض ما وعدناهم (أَوْ تَرِيْتِكُمْ لِنِقْمَتِ اللَّهِ الْبَاقِيَةِ) فليس عليك إلا البلاغ ، أى التبليغ ، (وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا) يعني أهل مكة . (أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ) أي نقصدوها .
 (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) اختلف فيه ، فقال ابن عباس ومجاهد : « نقصها من أطرافها »
 موت حليتها وصلاتها . قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ، وقد قال
 ابن الأعرابي : الطرف والطرف الرجل الكريم ، ولكن هذا القول بعيد ، لأن المقصود
 الآية ، وأما أدبناهم النقصان في أمورهم ، ليحلوا أن تأخير العقاب عنهم ليس من عجز ،
 لا أنف . يمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقادة والحسن : هو ما يطلب عليه المسلمون مجاً في أيدي المشركين ؛ وروى ذلك من ابن عباس ، وعنه أيضاً هو خراب الأرض حتى تكون العمران في ناحية منها ؛ ومن جاهد ، نقصاناً خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن خنيز عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا تَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهب فقهاؤها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البر : قول عطاء في تأويل الآية حسن جداً ، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاية الملهودي عن جاهد وابن عمر ، وهذا نص القول الأول نفسه ؛ روى سليمان بن منصور عن جاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء ؛ وهذا خلاف ما أَرْضَاهُ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس : وقال عكرمة والشَّعْبِي : هو النقصان وقبض الأخص . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك . وقال الآخر : لضاق عليك حشٌّ تبرز فيه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تفرش هلاك من قبلهم ، وخراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضاً عن ابن عباس وجاهد وابن جريح . وعن ابن عباس أيضاً أنه قص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : قصها بيجور ولاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد ، يقتل أهلها وأهلها منها ؛ ونزع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَنَّهُ يَمْحُوكُم لَّا مُمْقِبَ لَكُمْ) أي ليس ينقلب حكمه أحد بقلبي ولا تغيير . (وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) أي الانتقام من الكافرين ؛ صريح الثواب للذين . وقيل : لا يحتاج في حسابه إلى رؤية قلب ، ولا مقدمات ؛ حسب ما تقدم في « البقرة » .

بيانه .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَفَى الدَّارِ ﴿١٥﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ يَنْتَعِزْ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى من قبل مشرك مكة ، مكروا بالرسول وكادوا لهم وكفروا بهم . (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) أى هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضرك إلا بذاذه . وقيل : لله خير المكر ، أى يجازيهم به . (يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) من خير وشر ، فيجازى عليه . (وَسِعِلَّمُ الْكَافِرُ) كذا قراءة نافع وابن كثير وابن عمرو . الباقر : « الكفار » على الجمع . وقيل : هي أبو جهل . (لِمَنْ عَفَى الدَّارِ) أى عاقبة دار الدنيا نوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أى لست بلى ولا رسول ، وإنما أنت تقول ، أى لما لم ياتهم بما أقرحوا قالوا ذلك . (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ) أى قبل لم يأت به ، « كفى بالله » أى كفى الله (شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) بصديق وكذبتكم . (وَمَنْ يَنْتَعِزْ عِلْمُ الْكِتَابِ) وهذا احتجاج على مشرك العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول النصوصم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتيمم الدارمي والنجاشي وأصحابه . قاله قتادة وسعيد بن جبيرة . وروى الترمذي عن ابن أبي عمير عبد الله بن سلام قال : لما أريد [قتل] حنان جاء عبد الله بن سلام فقال له حنان : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نصرتك ، قال : أخرج إلى الناس فأطردهم حتى ، فإنك خارج خير لي من داخل ؛ فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان آسمى فى الحامية فلان ، فسميت

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ فنزلت في « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ونزلت في « قُلْ كُنْ مِنْ أُمَّةٍ شَهِدْنَا نَبِيَّيَ وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بجماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير « ومن عنده علم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سلام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وآبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ذكره الطبري . وقال القشيري : وقال آبن جبير السورة مكية وآبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سلام ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل ؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » ويتكلمون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » فإن كان في الرواية ضعف ؛ وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم بن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد البجلي أنه قرأ كذلك - « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والdal « عِلْمُ الْكِتَابِ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : أما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه علي بن علي فقول على أحد وجهين ؛ إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وهو حديث باطل ؛ النبي صلى الله عليه وسلم مديونة العلم وأصحابه ؛ وإياها ؛ فمنهم الباب المنفتح ، ومنهم التوسط ، على قدر عقولهم في الصلوة . ولما من الله

اهم جميع المؤمنين فصدق ؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب ، ويدرك وجه إيجازه ، وينسبه
لنبي صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سلام فيقول على حديث
الترمذي : وليس يمنع أن يقول في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لنفلا ؛
وبعضه من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ه ه بِنِي قُرَيْشًا ه فالذين عندهم
علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب
من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يحتمل أيضا ؛
لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا ؛
والله أعلم بحقيقة ذلك .

